

امین ابی احمد مدد

شرح منہج النبلاء

مکتبہ مطبوعاتی اسلامیات
کراچی، پاکستان

۱۹۵۷ء

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث

بإهداء الكعبة الحبيبية
ميسى البابي الحلبي وشركاه

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

رجعت في تحقيق هذا الجزء إلى النسخ التي سبق لي وصفها في مقدمتي الجزء الأول والثاني ، وأثبت من فروقها ما يعين على التحقيق ، ويوضح المبهم من المعاني ، والمشكل من النصوص ، كما أثبت من حواشيها ما رأيته مفيدا ونافعا .

وقد رسمت لنفسى منهجا : ألا أنقطع عن النظر فيما يتم طبعه من أجزاء هذا الكتاب ؛ كلما رأيت مجالا للتصحيح ، أو موضعا للتعليق ، أو سبيلا إلى الاستدراك والتعقيب ؛ مما يتهيأ لي من مراجعة ما يجد من النسخ ؛ أو أحصل عليه من الأصول ، أو يتبين لي من توجيه الرأي عند معاودة النظر ؛ أو يظهر من أخطاء الطبع ؛ أو ينبهني إليه إخواني من العلماء والفضلاء الغُير على العربية وآدابها ؛ وأن أثبت كل هذا تباعا في باب الاستدراك والتعقيب ؛ في آخر كل جزء من أجزاء الكتاب .

وقد تفضل الأستاذ السيد مكي السيد جاسم ؛ أحد فضلاء العراق ؛ فنقد الجزء الأول نقداً دل على علمه وفضله وسعة اطلاعه ؛ وقد أفدت من هذا النقد فوائد قيمة ؛ أثبتتها في آخر هذا الجزء فيما أثبتته من ملاحظات .

وأرجو - مع فسحة الأجل - أن أظّل على هذا المنهج ؛ قضاء لحق العلم ، وكفاء لهذا الكتاب العتيد .

والله الموفق للخير ؛ وهو الهادي إلى طريق الصواب .

محمد أبو الفضل إبراهيم

١٠ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ
١٦ يولييه سنة ١٩٥٩ م

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

الجزء الثالث

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أن الذى ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة^(١) جيد ولازم ؛ متى ادعى قاضى القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظلماً أو قطعاً لم يحز العدول عنها والتبرى إلا بما يوجب القطع ، ويُعلم به علماً يقينياً زوالها ؛ فأمّا إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم ، فلا يردّ عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان ، والإجماع دليل قطعى عند أصحابنا ، وكلّ مَنْ ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التى بها ثبتت إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومةً وشرائطها مظنونة ؛ لأنّ الموقوف على المظنون مظنون ، فتكون إمامته مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خلف ومحال . وإذا كانت عدالته معلومة لم يحز القول بانتفاء وزوالها إلا بأمر معلوم .

والأخبار التى رويت فى أحداثه أخبار آحاد لا تفيد العلم ، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها ، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى .

[بقية رد المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبار

من الدفاع عن عثمان (*)]

فأما كلامُ المرتضى رحمه الله تعالى عَلَى الفصل الثانى من كلام قاضى القضاة ، وهو الفصلُ المحكى عن شيخنا أبى على رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال رحمه الله تعالى ^(١) :

أما قوله : لو كان ما ذُكِرَ من الأحداث قَادِحاً لوجب من الوقت الذى ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلاً ينصبونه فى الإمامة ، لأن ظهورَ الحدث كموته ، فلو رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث . فليس بشيء معتمد ؛ لأن تلك الأحداث وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأن يعقدوا لغيره الإمامة ، ^(٢) إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نصب غيره ، ^(٣) مع تشبّهه بالأمر ؛ خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسه ، حتى تزولَ الشبهة ، وينشطَ مَنْ يصلحُ للأمر لقبول العقد والتكفل بالأمر . وليس يجزى ذلك مجزى موته ، لأن موته يحسم الطمع فى استمرار ولايته ، ولا تبقى شبهة فى خلوة الزمان من إمام . وليس كذلك حدثه الذى يسوغ فيه التأويل على بعده ، وتبقى معه الشبهة فى استمرار أمره . وليس نقولُ إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسه ، بل الوجه فى عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حسم ^(٤) المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد فى الجزء الثانى ص ٣٢٨ وما بعدها .

(١) الشافى ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته فى أول هذا الفصل : « فأما عدّ الأحداث التى وقعت عليه ، فنحن نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بعشيرة الله تعالى عند ذكره لذلك ؛ فأما ما حكاه عن أبى على من قوله : لو كان ما ذكره من الأحداث قادحاً » وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثانى

(٢-٢) كذا فى ١ ، ج ، وفى ب والشافى : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره .. »

(٣) ١ : « لحسم » .

قال : فأمّا قوله : إنه معلومٌ من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حُصر فيها وقُتل ؛ بل كانت تقعُ حالاً بعد حال ، فلو كانت توجبُ الخلع والبراءة ، لما تأخر من المسلمين الإنكارُ عليه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد . فلا شكَّ أنَّ الأحداثَ لم تحصل في وقت واحد ؛ إلا أنه غيرُ منكر أن يكونَ نكيرُهم إنما تأخر لأنهم تأولوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجل الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، وبعُد التأويل ، وتعذر التخريج ، ولم يبق للظنِّ الجميل طريق ؛ فحينئذ أنكروا ، وهذا مستمرٌّ على ما قدّمنا ذكره ؛ من أنَّ العدالة والطريقة الجميلة يُتأوّل لها في الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ما تقدّم من حُسن الظن به ، ثم ينتهي الأمرُ [بعد ذلك] ^(١) إلى بُعْدِ التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : على أنَّ الوجهَ الصحيح في هذا الباب أن أهل الحق كانوا معتقدين بخلمه من أول حَدَث ، بل معتقدين أنَّ إمامته لم تثبت وقتاً من الأوقات ، وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدّمناه من أسباب الخوف والتقيّة ؛ لأن الاعتذار بالوجل ^(٢) كان عاماً ، فلما تبين أمرُه حالاً بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه ، وقلّ العاذرُ له ، قويت الكلمة في خلمه . وهذا إنما كان في آخر الأمر دون أوله ، فليس يقتضى الإمساك عنه إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نسبةُ الخطأ إلى الجميع ؛ على ما ظنه .

قال : فأمّا ^(٣) دفعه بأن تكون الأمة أجمعت على خلمه بخروجه ^(٤) نفسه وخروج مَنْ كان في حيزه عن القوم ، فليس بشيء ، لأنه إذا ثبت أنَّ مَنْ عَداه وعدّاه عبیده والرّهنيّ من فجارِ أهله وفُسّاقِهِمْ ، كمرّواتٍ ومَنْ جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلمه ، فلا شبهة

(١) من كتاب اشافي .

(٢) كذا في ج ؛ وفي حاشيتها : « يعني أكثر الناس يعتذرون بالخوف » ، وفي ا ، ب : « لأن الإعتذار بالرجل » ، وفي اشافي : « لأن الاعتذار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

في أن الحق في غير حيزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميع الأمة مبطل ؛ وإنما يدعى أنه على الحق لمن ينازع في إجماع من عداه ، فأما مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشذاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ؛ ألا ترى أنهم لا يحفلون^(١) بخلاف سعد^(٢) وأهله وولده في بيعة أبي بكر لقلتهم وكثرة من بإزائهم ؛ ولذلك لا يعدون بخلاف من امتنع من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ويعملونه شاذًا ؛ لا تأثير بخلافه^(٣) ، فكيف فارقوا هذه الطريقة في خلع عمان ! وهل هذا إلا تقلب وتلون !

قلت : أما إذا احتج أصحابنا على إمامة أبي بكر بالإجماع ، فاعتراض حجتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيد ، وليس يقول أصحابنا في جوابه : هؤلاء شذاذ ، فلا نحفل بخلافهم ؛ وإنما المعتبر بالكثرة التي بإزائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجتهم الإجماع ، ولا إجماع ! ولكنهم يُحْيِيون عن ذلك ، بأن سعد مات في خلافة عمر ، فلم يبق من يخالف في خلافة عمر ، فانهقد الإجماع عليها ، وباع ولد سعد وأهله من قبل ؛ وإذا صحت خلافة عمر صحت خلافة أبي بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصح الفرع ، ويكون الأصل فاسدا ؛ فهكذا يجب أصحابنا عن الاعتراض بخلاف سعد ؛ إذا احتجوا بالإجماع ؛ فأما إذا احتجوا بالاختيار فلا يتوجه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماع الأمة على الاختيار ؛ وإنما يكفي فيه بيعة خمسة من أهل الحل والعقد على الترتيب الذي يرتب أصحابنا الدلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامة علي عليه السلام ، ولم يحفل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .

(٢) هو سعد بن عباد الأنصاري ، وانظر حديث السقيفة في تاريخ الطبري (حوادث السنة الحادية عشرة) .

(٣) ١ ، ج : لا تأثير له .

قال رحمه الله تعالى : فأما قوله : إن الصحابة كانت بين فريقين : من نصره^(١) كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقيون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ ولأنه ما ضيق عليهم الأمر في الدفع عنه . فعجيب ؛ لأن الظاهر أن أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار ، يقاتلون عنه^(٢) ، ويدفعون المهاجرين عليه .

فأما من كان في منزله ما أغنى عنه فتية ؛ فلا يعد ناصراً ، وكيف يجوز ممن أراد نصرته ، وكان معتقداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقف عن النصر طلباً لزوال العارض ؟ وهل تُراد النصر إلا لدفع العارض ! وبعد زواله لا حاجة إليها . وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيق هو عليهم الأمر فيها ؛ بل من كان معتقداً لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ، ولا يحفل بنبيه عنها ؛ لأن المنكر مما قد تقدم ، أمر الله تعالى بالنهي عنه ، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأما زيد بن ثابت ، فقد روى ميله إلى عثمان ، وما يغني ذلك وبإزائه جميع المهاجرين والأنصار ؛ وليله إليه سبب معروف ، فإن الواقدي روى في " كتاب الدار " أن مروان بن الحكم لما حصر عثمان الحضر الآخر ، أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلمها في هذا الأمر ، ففضيا إليها وهي عازمة على الحج ، فكلماها في أن تُقيم وتذب عنه ، فأقبلت على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يا ابن ثابت ولك الأسايف قد اقتطعكها^(٣) عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عثمان من بيت المال عشرة آلاف ديناراً ! قال زيد : فلم أزعج عليها حرفاً واحداً ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مروان وهو يقول :

(١) الشافى : « من نصره » .

(٢) ب : « يقاتلون غيره » .

(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرَقَ قَيْسٌ عَلَى الْبَلَا دَحْتِي إِذَا اضْطَرَمْتُ أَجْذَمًا^(١)

فنادته عائشة ، وقد خرج من العتبة : يا بن الحكم ، أعلّـى تمثـل الأشعار ! قد والله سمعتُ ماقلت : أترانى فى شكّ من صاحبك ! والذى نفسى بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيـط عليه ، فألقـيه فى البحر الأخضر ، قال زيد بن ثابت : فخرجنا من عندها^(٢) على اليأس منها^(٣) .

وروى الواقديّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عصابة من الأنصار ، وهو يدعوم إلى نصرة عثمان ، فوقف عليه جبلة بن عمرو بن حبة المازنيّ ، فقال له : وما يمنحك يا زيد أن تدبّ عنه ! أعطاك عشرة آلاف دينار وحدثك من نخل لم ترث عن أبيك مثله حديقة منها .

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقديّ روى أيضا عنه أنه قال : والله ما كان فينا إلا خاذلٌ أو قاتل . والأمر على هذا أوضح من أن يخفى .

فأما ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام ، فإنما أنفذهما - إن كان أنفذهما - لينعما من انتهاك حريمه وتعمد قتله ، ومنع حرمة^(٣) ونسائه من الطعام والشراب ، ولم يُنفذهما لينعما من مطالبته بالخلع ، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه يستحقّ بأحدائـه الخلع ، والقوم الذين سعوا فى ذلك ، إليه كانوا يغدّون ويروحون . ومعلوم منه ضرورة أنه كان مساعدا على خلعه ونقض أمره ، لاسيما فى المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنّه عليه السلام لعن قتلته ، فهو يعلم ما فى هذا من الروايات المختلفة التى

(١) الإجمام : الإفلاق ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات فى الحماسة ٢ - ٤٨٤ - ٤٨٧ - بشرح المرزوق . وفى الشطر الأول من البيت زحاح بالحرم ؛ وهو جائز فى أول التقارب والطويل ، ورواية اللسان : « وحرق » ؛ بلاخرم . وقيس هو ابن زياد العبسى .

(٢-٣) الشافى : « على الناس » .

(٣) ب : « حرمة » ، وما أثبتته من ١ ، وكتاب الشافى .

هى أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكون محمولة على لَمَنْ مَنْ قُتِلَ متعمّداً قتله ، قاصداً إليه ، فإنّ ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجّع لما ناشده عثمان يوم الدار ، فظاهرُ البطلان ، وغير معروفٍ في الرواية ؛ والظاهر المعروف أنّه لم يكن على عثمان أشدّ من طلحة ، ولا أغاظَ منه .

قال : ولو حكينا من كلامه فيه ما قد روى لأفينا قطعة كثيرة من هذا الكتاب ؛ وقد روى أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفني طلحة ؛ ويكرّر ذلك ، علماً بأنّه أشدّ القوم عليه . وروى أنّ طلحة كان عليه يوم الدار دِرْعٌ وهو يُرمى الناس ، ولم ينزع عن القتال حتى قتل الرَّجُلُ ^(١) .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ستكون فتنة ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون في مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلَمِهِ وَخَذْلِهِ ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ، وبإزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس عن النبي صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ما تضمّنته . ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمان أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار ، وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ، وقبل ذلك لما خوصم وطولب بأنّ يخلع نفسه . ولا حتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ؛ وفي علمنا بأنّ شيئاً من ذلك لم يكن ، دلالة على أنّها مصنوعة موضوعة .

فأما ما رواه عن عائشة من قولها : « قُتِلَ والله مظلوماً » ، فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة ، وإخراجها قيص رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تقول : « هذا قيصه لم يبلّ ، وقد أبلّى عثمان سنته » ؛ إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة .

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبتته عن ا ، ج ، وكتاب الشافى .

فأما مدحها له وثناؤها عليه ؛ فإنما كانا عَاقِبِ عِلْمِهَا بانتقال الأمر إلى مَنْ انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقُوبِلَ بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلق بأخبار الآحاد في ذلك لأنها في مقابلة ما يدعونه مما طريقه أيضاً الآحاد ؛ فواضح البطلان ؛ لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة - إلا مَنْ كان في الدار معه على خلافه ؛ فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز ، وبين متقاعد خاذل - معلومٌ ضرورة لكلِّ مَنْ سمع الأخبار . وكيف يدعى أنها من جهة الآحاد ، حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلا مكابرة ظاهرة .

فأما قوله : إنا لانعدل عن ولايته بأمر محتملة ؛ فقد مضى الكلام في هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو ما لا ظاهر له ، ويتجاذبه أمور محتملة ؛ فأما ماله ظاهر فلا يسمى محتملا ، وإن سماه بهذه التسمية ؛ فقد بينا أنه مما يُعدّل من أجله عن الولاية ، وفصلنا ذلك تفصيلا بينا .

وأما قوله : إنَّ للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنوطة به ، ويكون مصيبا وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة ؛ فأول ما فيه أنه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلا على النص . ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شك أن هاهنا أمورا لا يسوغ فيها الاجتهاد ؛ حتى يكون مَنْ خَبَرَ ناعنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب^(١) ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن أحداثه^(٢) على جهة التفصيل .

قلت : الكلام في هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون في الكتب الكلامية المبسوطة في مسألة الإمامة ؛ وليس هذا موضع ذاك ؛ ولكن يكفي قاضي القضاة أن يقول :

(١) كذا في الأصول ، وفي كتاب الشافعي ❦ غير مصدق .

(٢) الثعالبي : « في أحداثه » .

قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خلعه وإباحة قتله ، ولم يُجمع المسلمون على ذلك ، لأنه قد كان بالمدينة مَنْ يُنكر ذلك وإن قَلُوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرون ذلك ؛ كالشام والبصرة والحجاز واليمن ومكة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تعتبر أقوالهم في الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجلب عليه ، لم ينقصد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأول .

[ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها]

فأما الكلام في المطاعن المفصلة التي طعن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكي ما ذكره قاضي القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى ^(١) .



الطعن الأول :

قال قاضي القضاة في " المغنى " : فَمَا طُعِنَ بِهِ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ : إِنَّهُ وَلَّى أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَا بَصَلَاحَ لَدَيْهِ وَلَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ الْفُسْقُ وَالْفَسَادُ ، وَمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، مِرَاعَاةَ مِنْهُ لِحُرْمَةِ الْقِرَابَةِ ، وَعَدُولًا عَنْ مِرَاعَاةِ حُرْمَةِ الدِّينِ وَالنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَ ؛ وَقَدْ كَانَ عَمْرُ حَذَرَهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ حَيْثُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَلِفٌ بِأَقَارِبِهِ ، وَقَالَ لَهُ : إِذَا وَلَّيْتَ هَذَا الْأَمْرَ فَلَا تَسَلِّطْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ . فَوَقَعَ مِنْهُ مَا حَذَرَهُ إِيَّاهُ ، وَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَنْفَعِ الْعُتْبُ ، وَذَلِكَ نَحْوَ اسْتِعْمَالِهِ الْوَلِيدَ بْنِ عُقْبَةَ ^(٢) ، وَتَقْلِيدِهِ إِيَّاهُ ،

(١) نقله المرتضى في الشافي ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس . ولله عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص ؛ ثم عزله عنها بعد أن ثبت عليه شرب الخمر ؛ في خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١

حتى ظهر منه شرب الخمر ؛ واستعماله سعيد بن العاص ^(١) حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجَه أهل الكوفة ، وتوليته عبد الله بن أبي سرح ^(٢) ، وعبد الله بن عامر بن كرز ^(٣) ؛ حتى روى عنه في أمر ابن أبي سرح أنه لما تظلم منه أهل مصر وصرفه عنهم بمحمد بن أبي بكر ، كاتبه بأن يستمر على ولايته ، فأبطن خلاف ما أظهر ، ففعل من غرضه خلاف الدين . ويقال إنه كاتبه بقتل محمد بن أبي بكر وغيره ممن يرد عليه ، وظفر بذلك الكتاب ، ولذلك عظم التظلم من بعد ، وكثر الجمع ، وكان سبب الحصار والقتل ؛ حتى كان من أمر مروان ونسلطه عليه وعلى أموره ما قتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لا يمكن دفعه .

قال رحمه الله تعالى : وجوابنا عن ذلك أن نقول : أما ما ذكر من توليته من لا يجوز أن يستعمل ، فقد علمنا أنه لا يمكن أن يدعى أنه حين استعملهم علم من أحوالهم خلاف السر والصلاح ؛ لأن الذي ثبت عنهم من الأمور القبيحة حدث من بعد ، ولا يمتنع كونهم في الأول مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنما كان يجب تخطيطه لو استعملهم ؛ وهم في الحال لا يصلحون لذلك .

فإن قيل : فلما علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فعل ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عقبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية القرشي الأموي ولاء عثمان الكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الكوفة ؛ لتجبروا عليه فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا فيك ولا سعيدك ؛ فمزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٥٤٠ هـ .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن اخارث بن حبيب القرشي العامري ، أخو عثمان من الرضاعة ؛ كان على سعيد في زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وافتتح إفريقية ، الإصابة ٣٠٩ . ٣ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العيشي ، ابن خال عثمان بن عفان عزل عثمان أباه موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن أبي العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٥ هـ .

فلما شُهِدَ عليه بذلك جَلَدَهُ الحَدَّ وصرَّفه . وقد روى مثله عن عمر ، فإنه وَلَّى قُدَّامَةَ بن مَظْعُون بعضَ أعماله ، فشهِدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجَلَدَهُ الحَدَّ ؛ فإذا عُدَّ ذلك في فضائلِ عمر لم يجز أن يعدَّ ما ذكره في الوليدِ من معائبِ عثمان . ويقال : إنه لما أشخصه أقام عليه الحَدَّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عزله سعد بن أبي وقاص بالوليد ؛ بأن سعداً شكاه أهلُ الكوفة ، فأداه اجتهاده إلى عزله بالوليد .

فأمَّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولَّى مكانه أبا موسى ، وكذلك عبد الله ابن أبي سَرْح عزله وولَّى مكانه محمد بن أبي بكر ، ولم يظهر له في باب مَرَّوان ما يوجب أن يصرفه عمّا كان مستعملاً فيه ، ولو كان ذلك طَعْنًا لوجب مثله في كلِّ مَنْ وَلَّى ، وقد علمنا أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وَلَّى الوليد بن عُقْبَةَ ، فحدث منه ما حدث . وحدث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعْقَاع بن شور ، لأنه ولاء على مَيْسَانَ ^(١) فأخذ ما لها ولحق بمعاوية ، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذَرِيَّجَانَ . وولَّى أبا موسى الحُكْمَ ، فكان منه ما كان ، ولا يجب أن يعاب أحد بفعل غيره ؛ وإذا لم يلحقه عيب في ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده .

وقولهم : إنه قَسَمَ أكثر الولايات في أقاربه ، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين ، وقد كان عمر حذره من ذلك ، فليس بعيب ؛ لأن تولية الأقارب كتولية الأبعاد ؛ في أنه يحسن إذا كانوا على صفات مخصوصة . ولو قيل إن تقديمهم أولى لم يمتنع ، إذا كان المولَّى لهم أشدَّ تمسكنا من عزلهم ، والاستبدال بهم ، وقد وَلَّى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة ، وعُبيد الله بن العباس اليمن ، وَقَفَّ بن العباس مكة ؛ حتى قال مالك الأشرع عند ذلك :

(١) ميسان : كورة بين البصرة وواسط ؛ فتحت في أيام عمر بن الخطاب .

كَلَىٰ مَاذَا قَتَلْنَا الشَّيْخَ أَمْسَ ! فَيَا يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدى ما وجب عليه في اجتهاده .

فأما قولهم : إنه كتب إلى ابن أبي سَرْح حيث ولى محمد بن أبي بكر بأنه يقتله ويقتل أصحابه ، فقد أنكر ذلك أشدَّ إنكار ، حتى حلف عليه ، وبين أن الكتاب الذى ظهر ليس كتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته . وكان فى بُجْلة مَنْ خاطبه فى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام ، فقبل عذره . وذلك بين ؛ لأنَّ قول كلِّ أحد مقبول فى مثل ذلك ، وقد علم أنَّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزلة الخبر الذى يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : وقد علم أنَّ مروان هو الذى زوّر الكتاب ، لأنه هو الذى كان يكتب عنه ، فهلا أقام فيه الحدَّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقَطَّع على أنَّ مروان هو الذى فعل ذلك ، لأنه وإن غلب ذلك فى الظنِّ ، فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم يسومونه تسليم مروان إليهم ؛ وذلك ظلم ؛ لأنَّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدَّ على مَنْ يستحقُّه أو التأديب ، ولا يحلُّ له تسليمه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثَبِّتُوا عنده ماوجب فى مروان الحدَّ والتأديب ليفعله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقُّ التعنيف . وقد ذكر الفقهاء فى كتبهم أن الأمر بالقتل لا يُوجب قوداً ولا دية ولا حداً ، فلو ثبت فى مروان ماذكروه لم يستحقَّ القتل وإن استحقَّ التعزير ، لكنَّه عدل عن تعزيره ؛ لأنه لم يثبت ؛ وقد يجوز أن يكون عثمانُ ظنَّ أنَّ هذا الفعل فعل بعض من يعادى مروان تقييحاً لأمره ؛ لأنَّ ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله ؛ ولا يعلم كيف كان اجتهاده وظنه ! وبعد فإنَّ هذا الحدث من أجل ماَنَقَمُوا عليه ؛ فإن كان شيئاً من ذلك يُوجب خلع عثمان وقلته ؛ فليس إلَّا هذا ؛ وقد علمنا أنَّ هذا الأمر لو ثبت ما كان يُوجب القتل ؛ لأنَّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قَبْل وقوع القتل المأمور به ؛ فنقول ^(١) لهم : لو ثبت ذلك على عثمان أكان يجبُ قتله ! فلا يمكنهم ادعاء

ذلك ، لأنه بخلاف الدين ؛ ولا بد أن يقولوا : إن قتله ظلم ، وكذلك حبسه في الدار ، ومنعه من الماء ، فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كل ذلك ، وأن يقال : إن من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئا .

وفي القول بأن الصحابة اجتمعوا على ذلك كلهم ، تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِمَ أيضا أن المستحق للقتل والخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب ، وعُلِمَ أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنع أهل الشام من الماء في صيفين ؛ وقد تمكن من منعهم . وكل ذلك يدل على كون عثمان مظلوما ، وأن ذلك من صنع الجهال ، وأن أعيان الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإن قتله لو وجب ، لم يجز أن يتولاه العوام من الناس . ولا شبهة أن الذين أقدموا على قتله كانوا بهذه الصفة ؛ وإذا صح أن قتله لم يكن لهم ، فمنعهم والتكبير عليهم واجب .

وأيضا فقد عُلِمَ أنه لم يكن من عثمان ما يستحق به القتل ؛ من كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحسان ، أو قتل نفس بغير حق ؛ وأنه لو كان منه ما يوجب القتل لكان الواجب أن يتولاه الإمام ؛ فقتله على كل حال منكر ، وإنكار المنكر واجب .

وليس لأحد أن يقول : إنه أباح قتل نفسه ، من حيث امتنع من دفع الظلم عنهم ، لأنه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر في حالهم . ولأنه لو لم يفعل ذلك لم يحل لهم قتله ، لأنه إنما يحل قتل الظالم إذا كان على وجه الدفع . والمروي أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه في منزله ، وبعجوه بالسيف والمشاقيص ^(١) ، وضربوا يد زوجته لما وقعت عليه ، واتهبوا متاع داره ؛ ومثل هذه القتل لا تحل في الكافر المرتد ، فكيف يظن أن الصحابة لم ينكروا ذلك ، ولم يعدوه ظلما ؛ حتى يقال إنه مستحق من حيث لم يدفع القوم عنه ! وقد تظاهر الخبر بما جرى من تجمع القوم عليه ، وتوسط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنه

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لم يأراده ، وأعتبهم^(١) ، وأشهد على نفسه بذلك ؛ وإن الكتاب الموجود بعد ذلك المتضمن لقتل القوم ، ووقف عليه - ومن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام^(٢) - خلف أنه ما كتبه ، ولا أمر به ؛ فقال له : فمن تتهم ؟ قال : ما أتهم أحدا ، وإن للناس لحيلًا .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأت أو تعمدت فإني تائب ومستغفر ؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تهتك فيه حرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام ! ولا شبهة في أن القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل ؛ فكيف فيمن لا يستحقه ! ولولا أنه كان يمنع من محاربة القوم ظناً منه أن ذلك يؤدي إلى القتل الذريع ، لكثرت أنصاره . وقد جاء في الرواية أن الأنصار بدأت معونته ونصرته ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام ، فقال له : قل لأبيك فلتأني ؛ فأراد أمير المؤمنين عليه السلام المصير إليه ، فمنعه من ذلك محمد ابنه ، واستعان بالنساء عليه ، حتى جاء الصريح^(٣) بقتل عثمان ، فمدّ يده إلى القبلة ، وقال : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . فإن قالوا : إنهم اعتقدوا أنه من المفسدين في الأرض ، وأنه داخل تحت آية المحاربين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولى الإمام هذا الفعل ، لأن ذلك يجري مجرى الحد . وكيف يدعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ؛ حتى روى أنه قال لعبيده ومواليه ، وقد هموا بالقتال : من أعمد سيفه فهو حرّ ، ولقد كان مؤثراً لنكير ذلك الأمر بما لا يؤدي إلى إراقة الدماء والفتنة ؛ ولذلك لم يستعين بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وإن كان لما اشتد الأمر ، أعانه من أعان ؛ لأن عند ذلك تجب النصرة والمعونة ؛ فحيث

(١) أعتبهم : أراضاهم .

(٢) عبارة الشافعي : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب »

(٣) الصريح : الغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانتته بالحرب امتنعوا وتوقفوا ، وحيثُ
اشتدَّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلب ذلك في ظنه .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال ^(١) : أما قوله : لم يكن عالماً
بحال الفسقة الذين ولّاهم قبل الولاية ؛ فلا تعويل عليه ؛ لأنه لم يولّ هؤلاء النفسَ إلا
وحالهم مشهورة في الخلاعة والجانة والتجرّم والتهاك ؛ ولم يختلف اثنان في أنّ الوليد بن
عُقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدين على استقبال ولايته للكوفة ؛ بل
هذه كانت سنته والعادة المعروفة منه ؛ وكيف يخفى على عثمان - وهو قريبه ولصيقه وأخوه
لأُمّه - مِنْ حاله ما لا يخفى على الأجانب الأبعد ! ولهذا قال له سعد بن أبي وقاص في رواية
الواقدي ، وقد دخل الكوفة : يا أبا وهب ^(٢) ، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقال سعد :
ما أدري أحمقتُ بعدك أم كنتُ ^(٣) بعدى ! قال : ما حمقتُ بعدى ولا كنتُ بعدك ، ولكن
القوم ولّوا منكراً فاستأثروا ^(٤) . فقال سعد : ما أراك إلا صادقا .

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي أنّ الوليد لما دخل الكوفة مرّ على مجلس
عمرو بن زُرارة النخعي ، فوقف فقال عمرو : يا معشر بني أسد ، بثّما استقبلنا به أخوكم
ابنُ عفّان ! أمِنْ عدله أن ينزع عَنّا ابنَ أبي وقاص ، الهين اللين السهل القريب ،
ويبعثَ بَدَلَه أخاه الوليد ، الأحق الماغن الفاجر قديما وحديثا ! واستعظم الناسُ مقدّمه ،
وعزّل سعد به ، وقالوا : أراد عثمانُ كرامةَ أخيه بهوان أمة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ
ما ذكرناه من أنّ حاله كانت مشهورة قبل الولاية ، لا ريب فيها عند أحدٍ ، فكيف

(١) الشافعي ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عُقبة .

(٣) من الكيس ، وهو خلاف الحق .

(٤) الشافعي : « ملّكوا فاستأثروا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفي الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ^(١) ، فالؤمن هاهنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ؛ على ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ^(٢) ، والسبب في ذلك أنه كذب على بنى المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادعى أنهم منعه الصدقة . ولو قصصنا مخازيه المتقدمة ، ومساويه لطلال بها الشرح .

وأما شربه الخمر بالكوفة وسكره ، حتى دخل عليه [من دخل] ^(٣) ، وأخذ خاتمه من إصبعه ، وهو لا يعلم ؛ فظاهر ، وقد سارت به الركب . وكذلك كلامه في الصلاة ، والتفاتة إلى من يفتدى به فيها وهو سكران ؛ وقوله لهم : أأزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قضينا صلواتنا ، حتى قال الخطيئة في ذلك :

شَهِدَ الْخَطِيئَةَ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ	أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَذْرِ ^(٤)
نَادَىٰ وَقَدْ نَفَدَتْ صَلَاتُهُمْ	أَأَزِيدُكُمْ ثَمَلًا وَمَا يَدْرِي ^(٥)
لِيزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا	مِنْهُ لِقَادِمٍ عَلَىٰ عَشْرِ
فَابُوا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا	لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالْوَتْرِ ^(٦)

(١) سورة السجدة ١٨

(٢) سورة المحرات ٦

(٣) تكملة من كتاب الشافى .

(٤) ديوانه ٨٥

(٥) الديوان : « تمت صلاتهم » .

(٦) في الديوان موضع هذين البيتين بيت واحد ، وهو قوله :

لِيزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا لَقَرَنْتُ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالْوَتْرِ

حَبَسُوا عِثَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ خَلَوْا عِثَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي^(١)
وقال فيه أيضا :

تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَزَادَ فِيهَا عِلَانِيَةً وَجَاهَرَ بِالنِّفَاقِ^(٢)
وَمَجَّ الْحَمْرَ عَنْ سُنَنِ الْمُصَلِّي وَنَادَى وَالْجَمِيعُ إِلَى افْتِرَاقِ
أَزِيدَكُمْ هَلَى أَنْ تَحْمَدُونِي فَالَكُمْ وَمَالِي مِنْ خَلَاقِ

وأما قوله : إنه جلده الحدَّ وعزله ، فبعد أى شيء كان ذلك ! ولم يعزله إلا بعد أن دافع ومانع ، واحتجَّ عنه وناضل ، ولو لم يقهره أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزَّله ، ولا أمكن من جلده . وقد روى الواقدي أن عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أوعدهم وتهَّدَهم .

قال الواقدي : ويقال إنه ضرب بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً ، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فشكوا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطَّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلَّبت الحكم ، وقد قال لك عمر : لا تحملُ بنى أمية وآل أبى مُعَيْطٍ على رقاب الناس ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزله ولا تولِّيه شيئاً من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهلَ ظَنَّةٍ ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدَّ . وتكلَّم في مثل ذلك طلحة والزُّبير وعائشة ، وقالوا أقوالاً شديدة ، وأخذته الألسنُ من كلِّ جانب ، فحينئذ عزَّله ، ومكَّن من إقامة الحدِّ عليه .

(١) رواية الديوان :

خَلَمُوا عِثَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوا عِثَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وبعد :

وَرَأَوْا شَمَائِلَ مَا جَدَّ أَنْفٍ يُعْطَى عَلَى الْمَيْسُورِ وَالْعُسْرِ
فَنَزَعَتْ مَسْكَدُوبًا عَلَيْكَ وَلَمْ تُرَدِّدْ إِلَى عَوَزٍ وَلَا فَقْرٍ

(٢) دبرانه ١١٩

وقد روى ^(١) الواقدي أن اليهود لما شهدوا عليه في وجهه، وأراد عثمان أن يحده ألبسه جبة خز، وأدخله بيتا، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قریش ليضربه، قال له الوليد: أنشدك الله أن تقطع رحي وتغضب أمير المؤمنين! فلما رأى على عليه السلام ذلك، أخذ السوط ودخل عليه، فجلده به. فأى عذر لعثمان في عزله وجلده بعد هذه الممانعة الطويلة، والمدافعة الشديدة!

وقصة الوليد - مع الساحر الذي كان يلعب بين يديه، وبغرة الناس بمكره وخديعته، وأن جندب بن عبد الله الأزدي امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له: احب نفسك إن كنت صادقا، وإن الوليد أراد أن يقتل جندبا بالساحر، حتى أنكر الأزدي ذلك عليه، فحبسه وطال حبسه حتى هرب من السجن - معروفة مشهورة.

فإن قيل: فقد ولي رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عتبة هذا صدقة بنى المصطلق، وولاه عمر صدقة تغلب، فكيف تدعون أن حاله في إنته لا يصلح للولاية ظاهرة!

قلنا: لا جرم، إنه غر رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذب على القوم حتى نزلت فيه الآية التي قدمنا ذكرها، فعزله. واس خطب ولاية الصدقة مثل خطب ولاية الكوفة، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله:

إذا ما شددت الرأس مني بمشوذ فويلك مني تغلب ابنة وائل ^(٢)

عزله. وأما عزل أمير المؤمنين عليه السلام بعض أمرائه لما ظهر من الحدث كالمقعاق بن شور وغيره، وكذلك عزل عمر قدامة بن مظعون لما شهد عليه بشرب الخمر، وجلده له؛ فإنه لا يشبه ما تقدم؛ لأن كل واحد ممن ذكرناه لم يول إلا من هو حسن الظاهر عنده وعند الناس، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ما ظهر

(١) كذا في ١، ج، وفي ب والشاف: « وروى ».

(٢) اللسان ٥ : ٣١، والمشوذ: الممانعة.

لم يحام عنه ولا كَذَّبَ الشهودَ عليه وكأبرهم ، بل عزله مختاراً غير مضطر ، وكله هذا لم يجر في أمراء عثمان ، وقد بينا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحدِّ عليه .

فأما أبو موسى فإنَّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولِّه الحكمَ مختاراً ، لكنه غلب على رأيه وقهر على أمره ، ولا رأى لمقهور .

فأما قوله : إن ولايةَ الأقارب كولاية الأبعد ؛ ^(١) بل الأقارب أولى ^(٢) ؛ من حيث كان التمكن من عزلهم أشدَّ ، وذكر تولية أمير المؤمنين عليه السلام ^(٣) أولادَ العباس رحمه الله تعالى وغيرهم ^(٤) ؛ فليس بشيء ؛ لأنَّ عثمان لم يُنقِمْ عليه توليةَ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ ، بل من حيث كانوا أهلَ بيت الظُّنة والتهمة ؛ ولهذا حذره عمرُ وأشعرَ بأنه يحملهم على رقاب الناس . وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ من أقاربه متَّهما ولا ظنينا ؛ وحين أحسَّ من ابن العباس ببعض الرِّيبة لم يمهله ولا احتمله ، وكتبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يجب على عثمان أن يعدل عن ولاية أقاربه إلا من حيث جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصِّ عليه ، وشرط يوم الشورى عليه ألا يحمل أقاربه على رقاب الناس ، ولا يؤثرهم لمكان القرابة بما لا يؤثرُ به غيرهم ؛ لكان صارفاً قويا ، فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فأما سعيد بن أبي العاص ؛ فإنه قال في الكوفة : إنما السوادُ بستانٌ لقريش ، تأخذ منه ما شئت وتترك ، حتى قالوا له : أنجعلُ ما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك ! ونابدوه ، وأفضى الأمر إلى تسميره من سائر عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها ، وتكلموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً ، حتى

(١-١) كذا في الأصول وفي الشافى : « بل الأبعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .

(٢-٢) الشافى : « عبد الله وعبيد الله وقتابي العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ، فاضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى ، فلم بصرف سعيداً مختاراً ، بل ما صرفه جُملة ؛ وإنما صرفه أهل الكوفة عنهم^(١) .

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه ، وحلف على أن الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره ؛ فأول ما فيه أنه حكى القصة بخلاف ما جرت عليه ؛ لأن جميع مَنْ يروى هذه القصة ذكر أنه اعترف بالخاتم والغلام والراحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمر بالكتابة ؛ لأنه روى أن القوم لما ظفروا بالكتاب قدّموا المدينة ، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب ، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبروه بقصة الغلام ، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين ، فقال له : أهذا الغلام غلامك ؟ قال : نعم ، قال : والبعير بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله أنه ما كتب الكتاب ، ولا أمر به . فقال له : فالخاتم خاتمك ؟ قال :

نعم ، قال : فكيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك ، ولا تعلم به ! وفي رواية أخرى أنه لما واقفه عليه ، قال عثمان : أما الخط فخط كاتبى ، وأما الخاتم فهو خاتمى ، قال : فمن تهم ؟ قال : أتهم كاتبي وأتهم كاتبى ؛ فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً ، وهو يقول : بل بأمرك . ولزم داره ، وبعد عن توسط أمره ، حتى جرى عليه ما جرى .

وأعجب الأمور قوله لأمر المؤمنين عليه السلام : « إني أتهمك » وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التهمة والظنة في كل شيء ، وفي أمره خاصة ؛ فإن القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يعجلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقاربهم ويعينهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

(١) ساقطه من أ ، ج ، وهي في ب والشاق .

(٧) كذا في أ والشاق ، وفي ب ، ج : « فلى » .

فعل النَّصِيح المشفق الحَدِيب المتحنُّن ، ولو كان عليه السلام - وَحُوشِيَّ من ذلك - مَتَّهَمًا عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة؛ لأنَّ الْكِتَابَ بِحُطِّ عَدُوِّهِ مَرْوَانَ ؛ وفي يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بَعِيرِهِ ، ومختوم بِخَاتَمِهِ ، فَأَيَّ ظَنِّ تَعَلَّقَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام في هذا المكان ، لولا العداوةُ وَقِلَّةُ الشُّكْرِ لِلنَّعْمَةِ !

ولقد قال له المصريون لما جَحَدَ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ كِتَابَهُ شَيْئًا لَا زِيَادَةَ عَلَيْهِ فِي بَابِ الْحِجَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ : إِذَا كُنْتَ مَا كُتِبْتَ وَلَا أَمَرْتَ بِهِ ، فَأَنْتَ ضَعِيفٌ ؛ مِنْ حَيْثُ تَمَّ هَلِكُكَ أَنْ يَكْتُبَ كَاتِبُكَ بِمَا نَحْنِمُهُ بِخَاتَمِكَ ، وَيُنْفِذَهُ بِيَدِ غَلَامِكَ وَعَلَى بَعِيرِكَ بِغَيْرِ أَمْرِكَ ؛ وَمَنْ تَمَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ وَالِيًّا عَلَى أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ . فَاخْتَلَعَ عَنِ الْخِلَافَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب " المغنى " أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ قَوْلِهِ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبِلَ عَذْرَهُ ؛ وَكَيْفَ يَقْبَلُ عَذْرَ مَنْ يَتَّهَمُهُ وَيَسْتَفِشُّهُ ؛ وَهُوَ لَهُ نَاصِحٌ ! وَمَا قَالَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ سَمَاعِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُ مَعْرُوفٌ .

وقوله : إِنَّ الْكِتَابَ يَجُوزُ فِيهِ التَّزْوِيرُ ، لَيْسَ بِشَيْءٍ ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّزْوِيرُ فِي الْكِتَابِ وَالْغُلَامِ وَالْبَعِيرِ ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ إِذَا انْضَافَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، بَعُدَ فِيهَا التَّزْوِيرُ ؛ وَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْقِصَّةِ وَعَمَّنْ زَوَرَ الْكِتَابَ ، وَأَنْفَذَ الرِّسُولَ ، وَلَا يَنَامُ عَنْ ذَلِكَ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ دُهِىَ ؟ وَكَيْفَ تَمَّتِ الْحِيلَةُ عَلَيْهِ ، فَيَحْتَرِزَ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَا يَفْضَى عَنْ ذَلِكَ إِغْضَاءَ سَاتِرٍ لَهُ ، خَائِفٌ مِنْ بَحْنِهِ وَكُشْفِهِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّهُ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ مَرْوَانَ كَتَبَ الْكِتَابَ ، فَإِنَّ الْحُكْمَ بِالظَّنِّ لَا يَجُوزُ ، وَتَسْلِيمُهُ إِلَى الْقَوْمِ عَلَى مَا سَأَلُوهُ إِيَّاهُ ظَلَمٌ ، لِأَنَّ الْحَدَّ وَالْأَدَبَ إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِ ، فَإِلَّا مِمَّا يُقِيمُهُ دُونَهُمْ ؛ فَتَعَلَّلَ بِمَا لَا يَجْدِي ، لِأَنَّا لَا نَعْمَلُ إِلَّا عَلَى قَوْلِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ

مروان هو الذى كتب الكتاب ؛ وإنما خلب على ظنه ! أما كان يستحق مروان بهذا الظن بعض التعنيف والزجر والتهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه ، وقوة الأمارات فى أنه جالب الفتنة وسبب انفرقة أن يبعده عنه ، ويطرده من داره ، ويسلبه ما كان يخصه به من إكرامه ! وما فى هذه الأمور أظهر من أن ينبه له .

فأما قوله : إن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا ديةً ، سيما قبل وقوع القتل المأمور به ؛ فهب أن ذلك على ما قال ، أما أوجب^(١) الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً !

وقوله : لم يثبت ذلك ، قد مضى ما فيه ؛ ويين أنه لم يستعمل فيه ما يجب استعماله من البحث والكشف ، وتهديد المتهم وطرده وإبعاده والتبرى من التهمة بما يُتبرأ به من مثله .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسه فى الدار ، ومنعه من المساء ، وأنه لو استحق القتل أو الخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب . وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصحابة يجب أن يكون مخطئاً . وقوله : إن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من الناس ، فباطل ، لأن الذين قتلوه غير منكر أن يكونوا نعمداً وقتله ؛ وإنما طالבו به بأن يخلع نفسه لما ظهر لهم من أخطائه ، ويعزل عن^(٢) الأمر اعتزالاً يتمكنون معه من إقامة غيره ، فلج وصتم على الامتناع ، وأقام على أمر واحد ؛ فقصد القوم بحضره أن يُلجئوه إلى خلع نفسه ، فاعتصم بداره ، واجتمع إليه نفر من أوباش بنى أمية ، يدفعون عنه ، ويرمون من دنا إلى الدار ، فاتهى الأمر إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ، ولم يكن القتال ولا القتل مقصودين فى الأصل ، وإنما أفضى الأمر إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

(١) الشافى : « يوجب »

(٢) ج : « يعزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعه ، فالواجب على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلص ماله من يده ، ولا يقصد إلى إتلافه ولا قتله ، فإن أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنما خاف القومُ في الثاني به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسه من كُتْبِهِ التي طارت في الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يردَّ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبلية العظمى .

وأما منع الماء والطعام فما فُـل ذلك إلا تضيقا عليه ، ليخرج ويُجَوِّج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرَم من ذوى الجنائيات ، وتعذر إقامة الحدِّ عليه لمكان الحرَم . على أَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مَكَّن مَنْ حَمَلَ ذلك ، لأنّه قد كان في الدار من الحرَم والنِّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعه من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمّع عليه والتضايف فيه حكم منع الطعام والشراب في القُبْح والنكر ، لأنكره أمير المؤمنين عليه السلام ، ومنع منه كما منع من غيره ، فقد روى عنه عليه السلام أنّه لما بلغه أَنَّ القوم قد منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ في الدار صبيانا وعيالا ، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشا بجُرْمِ عثمان . فصرّح بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع ، بل كان مساعدا على ذلك ومشاورا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل تدفع ؛ فقد بينا أنه لا ينكر أن يكون قتله وقع على ذلك ^(١) الوجه ، لأنّه في تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، في حكم الظالم لهم ، فدافعه واجبة .

وأما قصة الكتاب الموجود ؛ فلم يَحْكِيها على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنه قال : إن كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت ؛ فإني تائب مستغفر ؛ فقد أجابه القوم عن هذا ، وقالوا : هكذا قلّت في المرّة الأولى ؛ وخطبت على المنبر بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدنا كتابك بما يقتضى الإصرار على أقبح ما عتبنا منه ^(١) ؛ فكيف نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إن القتل على وجه الغيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لا يستحقّه ! فقد بينا أنّه لم يكن على سبيل الغيلة ؛ وأنه لا يمتنع أن يكون إنما وقع على سبيل المدافعة .

فأما ادعاؤه أنّه منع من نصرته ، وأقسم على عبيده بترك القتال ؛ فقد كان ذلك لعمري في ابتداء الأمر ظناً منه أنّ الأمر ينصلح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نصرته والحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصره ويستصرّخه ؛ والذي يدلّ على أنّه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذي ذكرناه دون غيره ، أنّه لا خلاف بين أهل الرواية في أنّ كتبه تفرقت في الآفاق يستنصرُ ويستدعى الجيوش ؛ فكيف يرغب عن نصره الحاضر من يستدعى نصره الغائب !

فأما قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقول بعيد مما جاءت به الرواية جدّاً ، لأنه لا إشكال في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما واجهه عثمان بأنّه يتهمه ويستغفّه ، انصرف مغضباً عامداً ، على أنّه لا يأتيه أبداً ، قائلاً فيه ما يستحقّه من الأقوال .

فأما قوله في جواب سؤال مَنْ قال إنهم اعتقدوا فيه أنه من المفسدين في الأرض ؛ وأن آية المحاربة تتناوله ، وأنه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأن ذلك يجري مجرى الحد ؛ فطريف ؛ لأن الإمام يتولى ما يجري هذا المجرى ؛ إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولى ما يجري مجرى الحدود ؛ ومتى لم يكن إمام يقوم بالدفع عن الدين والذب عن الأمة ؛ جاز أن تتولى الأمة ذلك بنفسها .

قال : وما رأيتُ أعجبَ من ادعاء مخالفينا أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله كانوا كارهين لما جرى على عثمان ، وأنهم كانوا يعتقدونه منكرا وظلما ، وهذا يجري عند من تأمله مجرى دفع الضرورات قبل النظر في الأخبار ، وسماع ماورد من شرح هذه القصة ؛ لأنه معلوم أن ما يكرهه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عزهم ، وبحيث ينفذ أمرهم ونهيمهم لا يجوز أن يتم . ومعلوم أن نفرا من أهل مصر ؛ لا يجوز أن يقدموا المدينة فيغلبوا جميع المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم وسماع ، وهذا ، معلوم بطلانه بالبداهة والضرورات ، قبل تصفح الأخبار وتأملها . وقد روى الواقدي عن ابن أبي الزناد ، عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم ، قال : كان المصريون الذين حصروا عثمان ستائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الكندي ، وعمر بن الحقيق الخزاعي . والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النخعي . والذين قدموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدى ، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ به القتل ، ولعمري لو قام بعضهم فحنا التراب في وجوه أولئك لا نصر فوا ، وهذه الرواية تضمنت من عدد القوم الوافدين في هذا الباب أكثر مما تضمنه غيرها .

وروى شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : قلت له :

كيف لم يمنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن عثمان ؟ فقال : إنما قَتَلَهُ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى عن أبي سعيد الخدري ، أنه سُئِلَ عن مقتل عثمان : هل شهده أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : نعم ، شهده ثمانمائة .

وكيف يقال : إن القوم كانوا كارهين ، وهؤلاء المصريون كانوا يَفْذُونَ إلى كل واحد منهم ، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه ! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقدُ الأمر ، لعثمان وجالبه إليه ، ومُصَيِّرُهُ في يده ، يقول - على مارواه الواقدي - وقد ذُكِرَ له عثمان في مرضه الذي مات فيه : عاجلوه قبل أن يتمادى في مُلكه ، فبلغ ذلك عثمان فَبَعَثَ إلى بئر كان عبد الرحمن يَسْتَقِي منها نَعْمَةً ، فَنَعِمَ منها ، ووَصَّى عبدُ الرحمن ألا يصلي عليه عثمان ؛ فصلى عليه الزبير - أو سعد بن أبي وقاص - وقد كان حَلَفَ لما تابعت أحداثُ عثمان ألا يكلمه أبدا .

وروى الواقدي ، قال : لما تُوُفِّي أبو ذر بالربذة ^(١) تذاكر أمير المؤمنين عليه السلام وعبدُ الرحمن فعلَ عثمان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له : هذا عملك ! فقال عبدُ الرحمن : فإذا شئت فخذ سيفك وأخذُ سيفي ، إنه خالف ما أعطاني .

فأما محمد بن مسلمة ؛ فإنه أرسلَ إليه عثمانُ يقول له عند قدوم المصريين في الدفعة الثانية : اردد عني ، فقال : لا والله لا أكذبُ الله في سنة مرتين ؛ وإنما عني بذلك أنه كان أحدُ من كلم المصريين في الدفعة الأولى ، وضمن لهم عن عثمان الرضا .

وفي رواية الواقدي أن محمد بن مسلمة ، كان يموت وعثمان محصور ، فيقال له : عثمان مقتول ، فيقول : هو قَتَلَ نفسه .

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ؛ قريبة من ذات عرق ؛ على طريق الحجاز ؛ بها قبر أبي ذر الغفاري - واسمه جندب بن جنادة ؛ وقد كان خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ . معجم البلدان ٤ : ٢٢٢ .

فأما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحدا ؛ فلو تعاطينا ذكره لطلال به الشرح ؛ ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصلة ، وما صرحوا به من خلمه والإجلاب عليه ؛ فعلية بكتاب الواقدي^(١) ، فقد ذكر هو وغيره من ذلك ما لا زيادة عليه .



الطعن الثاني :

كونه ردّ الحكم بن أبي العاص^(٢) إلى المدينة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله طرده ، وامتنع أبو بكر من رده ، فصار بذلك مخالفاً للسنة ولسيرة من تقدمه ، مدعياً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملاً بدعواه من غير بينة .

قال قاضي القضاة رحمه الله : وجوابنا عن ذلك أن المروي في الأخبار أنه لما عُوتب في ذلك ذكر أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ؛ وكذلك روى عنهما ، فكأنهما جعلاً ذلك بمنزلة الحقوق التي تختص ، فلم يقبل فيه خبر الواحد ، وأجرياه تجري الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكم بعلمه ؛ لأنّ للحاكم أن يحكم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخنا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية ؛ ويقولان : إنه أقوى من البينة والإقرار .

وقال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : إنّه لا وجه يقطع به على كذب روايته في إذن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قطر كتباً ؛ كل قطر منها حل رحلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار . ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفي سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره في أمد الغابة ٣ : ٣٤ .

النبي صلى الله عليه وآله في ردّه ، ولا بدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفي تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة في ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألا يتهمه ؛ إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصبا يقتضى زوال التهمة عنه ، وتخل أفعاله على الصحة ، ومتى طرقتنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن في ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وآله لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأنّ المنفى إذا كان صلاحا في الحال ؛ فلا يمتنع أن يتغير حكمه ، باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفى ؛ وإذا كان لأبي بكر أن يستردّ عمر من جيش أسامة للحاجة إليه - وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بنفوذه - من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله في الحكم .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا ، فقال : أما دعواه أن عثمان ادّعى أن رسول الله صلى الله عليه وآله أذن في ردّ الحكم ، فشيء لم يُسمع إلا من قاضى القضاة ، ولا يدرى من أين نقله ، ولا في أى كتاب وجده ! والذي رواه الناس كلّهم خلاف ذلك ؛ روى الواقدي من طرق مختلفة وغيره أن الحكم بن أبي العاص لما قدّم المدينة بعد الفتح ، أخرجه النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، وقال : لا تساكني في بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكلمه فأبى ، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى في ذلك على والزيير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

وعمار بن ياسر؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلت هؤلاء القوم - يعنون الحكم ومن معه - وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجهم؛ وإنا نذكرك الله والإسلام ومعادك؛ فإن لك معاداً ومنقلباً، وقد أبت ذلك الولاة قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلمها فيهم؛ وهذا شيء نخاف الله فيه عليك. فقال عثمان : إن قرأتهم منى ما تعلمون؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كَلَّمْتَهُ أطمعني في أن يأذن لهم، وإنما أخرجهم لكلمة بلغته عن الحكم؛ ولم يضركم مكانهم شيئاً وفي الناس من هو شرّ منهم. فقال عليّ عليه السلام: لأجدُ شرّاً منه؛ ولا منهم، ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملنّ بني أبي مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقْتلنّه، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القرابة ما بيني وبينه، وينال من المقدرة ما نلتُ إلا قد كان سيدخله، وفي الناس من هو شرّ منه. قال : فغضب عليّ عليه السلام، وقال : والله لتأتينا بشرّ من هذا إن سلّمت، وسترى يا عثمان غيباً ما تفعل ! ثم خرجوا من عنده.

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب "المغنى"، لأنّ الرجل لما احتفل ادّعى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أطمعه في ردّه، ثم صرّح بأنّ رعايته فيه القرابة هي الموجبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام. وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لما كلم أبا بكر وعمر في ردّ الحكم أغلظا له وزبراه، وقال له عمر : يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غير عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، والله لئن أشقّ بائنتين كما تشقّ الأبله^(١) أحبّ إلى من أن أخالف لرسول الله أمراً، وإياك يا بن عفان أن تعاودني فيه بعد اليوم، وما رأينا

(١) الأبله : خوس المنل ؛ والمثل : المال بيني وبينك شق الأبله ؛ مثل يضرب في المساواة والمشاركة في الأمر.

عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر ؛ إن عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، لأستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً ، وكيف تطيب نفس مُسلم موقر لرسول الله صلى الله عليه وآله معظم له ، أن يأتى إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، مصرّح بعداوته والوقعية فيه ؛ حتّى بلغ به الأمرُ إلى أن كان يحكى مشيئته ، طرده رسول الله ، وأبعده ولعنه ؛ حتّى صار مشهوراً بأنه طريدُ رسول الله صلى الله عليه وآله - فيكرمه ويردّه إلى حيث أخرج منه ، وبصلّه بالمال العظيم ؛ إمام من مال المسلمين أو من ماله ! إن هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمل والتعلّل بالتأويل الباطل !

فأمّا قولُ صاحب " المغنى " : إنَّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهد واحد ، وجعلنا ذلك بمنزلة الحقوق التى تخصّ ، فأول ما فيه أنّه لم يشهدْ عندها بشيء واحد فى باب الحكم على مارواه جميع الناس ؛ ثم ليس هذا من باب الذى يحتاج فيه إلى الشاهدين ، بل هو بمنزلة كلّ ما يقبلُ فيه أخبارُ الآحاد . وكيف يجوز أن يجزى أبو بكر وعمر تجزى الحقوق ما ليس منها . وقوله : لا بدّ من تجويز كونه صادقاً فى روايته ؛ لأنّ القطع على كذب روايته لا سبيل إليه ليس بشيء ؛ لأنّا قد بينّا أنّه لم يرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا ، إنّما ادعى أنّه أطمعه فى ذلك . وإذا جوزنا كونه صادقاً فى هذه الرواية ؛ بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً .

فأمّا قوله : الواجبُ على غيره ألاّ يتهمه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه ؛ لانتصابه منصباً يزِيل التهمة ؛ فأول ما فيه أن الحاكم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التهمة ، والتهمة قد تكون لها أمارات وعلامات ؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتهم فى العادة ، كان مؤثراً ؛ وما لم يكن كذلك فلا تأثير له ، والحكم هو عمّ عثمان ، وقرينه ونسيبه ، ومن

قد تكلم في ردّه مرة بعد أخرى ، ولوالٍ بعد والٍ ؛ وهذه كلها أسباب التّهمة ، فقد كان يجب أن يتجنّب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصّة ، لتطرق التهمة إليه .

فأما ما حكاه عن أبي الحسين الخياط من أن الرسول صلى الله عليه وآله لو لم يأذن في ردّه لجاز أن يرُدّه إذا أداه اجتهاده إلى ذلك ؛ لأنّ الأحوال قد تتغيّر ، فظاهر البطلان ؛ لأن الرسول عليه السلام إذا حَظَر شيئاً أو أباحه لم يكن لأحد أن يجتهد في إباحة المحظور أو حَظَر المباح ، ومن يجوز الاجتهاد في الشريعة لا يُقدِّم على مثل هذا ؛ لأنّه إنما يجوز عندهم فيما لانصّ فيه . ولو سَوَّغنا الاجتهاد في مخالفة ماتناوله النصّ لم يؤمن أن يؤدّى اجتهاد مجتهد إلى تحليل الحمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هُذَمٌ للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد .



الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عُدّة المسلمين ، نحو ما روى أنه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مروان مائة ألف عند فتح إفريقية ، وروى خمس إفريقية وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة من تقدمه في القسمة على الناس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأبعد على الأقارب .

قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أن من الظاهر المشهور أن عثمان كان عظيم اليسار ، كثير المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهل بيته من ماله ، وإذا احتمل ذلك وجب حمله على الصحة .

وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : إنّ الذي روى من دفعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوّجهم بناته ؛ إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولا رواية

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكون أعطاهم من بيت المال ليردّ عَوْضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أن يُقرض غيره .

وقال شيخنا أبو عليّ أيضا : إن مارُويَ من دفعه خمس إفريقيا لما فتحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله ؛ وإنما يرويه مَنْ يقصد التشنيع . وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبي سَرح لما غزا البحر ، ومعه مروان في الجيش ، ففتح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمةً ، فاشتري مروان من ابن أبي سَرح الخمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها . ثم قدّم على عثمان بشيراً بالفتح ، وقد كانت قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يهبّ له مابقي عليه من المال ، وللإمام فعلٌ مثل ذلك ، ترغيباً في مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصَّنْع كان منه في السَّنة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضاً فيما أعطاه أقاربه أنّه وسلمهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثله في الإمام إذا رآه صلاحاً . وذكر في إقطاعه القطائع لبني أمية ، أنّ الأئمة قد تحصّل في أيديهم الضياع ، لأمالك لها ، ويعلمون أنّها لا بدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّي عنها ما يجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضاً أن يهدّ بعضها على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما قوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطى من بيت المال

صَلَّةَ لِرَحْمِهِ ، وَلَمَّا عَوْتُبَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَعْتَذِرْ عَنْهُ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْعَذْرِ ، وَلَا قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْعَطَايَا مِنْ مَالِي ، فَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ فِيهَا .

رَوَى الْوَاقِدِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ عُتْبَةَ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُثْمَانَ يَقُولُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا يَتَأَوَّلَانِ فِي هَذَا الْمَالِ طَلَّاقَ أَنْفُسَهُمَا وَذَوِي أَرْحَامِهِمَا ، وَإِنِّي تَأَوَّلْتُ فِيهِ صَلَّةَ رَحْمِي .

وَرُوي عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ بِحَضْرَتِهِ زِيَادُ بْنُ عُبَيْدٍ ، مَوْلَى الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ النَّفْقِيِّ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى بِمَالٍ عَظِيمٍ مِنَ الْبَصْرَةِ ، فَجَعَلَ عُثْمَانُ يَقْسِمُهُ بَيْنَ وَلَدِهِ وَأَهْلِهِ بِالصَّحَافِ ، فَبَكَى زِيَادٌ ، فَقَالَ : لَا تَبْكُ ، فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَذَوِي قَرَابَتِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَأَنَا أُعْطِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَقَرَابَتِي ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ .

وَقَدْ رُويَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْهُ مِنْ عِدَّةٍ طَرُقَ بِالْفِظَافِ مُخْتَلَفَةً .

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ أَيْضًا بِإِسْنَادِهِ ، قَالَ : قَدِمْتُ إِبِلًا مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ عَلَى عُثْمَانَ ، فَوَهَبَهَا لِلْحَارِثِ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ .
وَرَوَى أَيْضًا أَنَّهُ وَلَّى الْحَكَمَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ صَدَقَاتٍ قُضَاةً ، فَبَلَغَتْ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ أَلْفٍ ، فَوَهَبَهَا لَهُ حِينَ أَنَاهَا .

وَرَوَى أَبُو نُحَيْفٍ وَالْوَاقِدِيُّ أَنَّ النَّاسَ أَنْكَرُوا عَلَى عُثْمَانَ إِعْطَاءَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَكَلَّمَهُ عَلَى وَالْزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَسَعْدَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنْ لَهُ قَرَابَةٌ وَرَحِمًا ، قَالُوا : فَمَا كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ قَرَابَةٌ وَذَوُورَحِمٍ ، فَقَالَ : إِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا يَحْتَسِبَانِ فِي مَنَعِ قَرَابَتِهِمَا ، وَأَنَا أَحْتَسِبُ فِي إِعْطَاءِ قَرَابَتِي ، قَالُوا : فَهَدْيُهُمَا وَاللَّهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ هَذِيكَ .

وَرَوَى أَبُو نُحَيْفٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي الْعِيصِ بْنِ أُمَيَّةَ ، قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ مِنْ مَكَّةَ ، وَمَعَهُ نَاسٌ ، فَأَمَرَ لِعَبْدِ اللَّهِ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ ، وَاسْكَلَ وَاحِدًا مِنَ الْقَوْمِ بِمِائَةِ أَلْفٍ .

وَصَكَ^(١) بذلك على عبد الله بن الأرقم - وكان خازنَ بيت المال - فاستكثره وردَّ الصكَّ به . ويقال إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفعَ المال إلى القوم ، فقال له عثمان : إنما أنت خازنٌ لنا ، فما حملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أراي خازنَ المسلمين ، وإنما خازنك غلامك ، والله لا ألي لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر ، ويقال : بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عَقِيب هذا الفعل ثلثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : يا أبا محمد ، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذو رحم أهلُ حاجة ففرِّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبد الله بن الأرقم : مالي إليه حاجة ، مالي إليه حاجة ، وما عملت لأنْ يُثيبني عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قَدْرُ عملِي أنْ أُعْطِيَ ثلثمائة ألف ، ولئن كان من مالِ عثمان ما أحبُّ أنْ أرزاهُ^(٢) من ماله شيئا . وما في هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه وينبّه عليه .

فأما قوله : ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكونَ ذلك على طريقتي القَرْض ؛ فليس بشيء ؛ لأنَّ الروايات أولا تخالف ما ذكره ، وقد كان يحبُّ لما نفع عليه وجوهُ الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال ، أن يقول لهم : هذا على سبيل القَرْض ، وأنا أردُّ عَوْضَه ، ولا يقول ما تقدم ذكره ، من أنني أصِلُّ به رَحِي ؛ على أنه ليس للإمام أن يقترض من بيت مال المسلمين إلا ما ينصرف في مصلحة لهم مهمة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو في سَدِّ خَلَّة وفاقاة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأما أن يُقْرِضَ المال ليتسّع به ،

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .

(٢) ما أحب أن أرزاه ، أي ما أحب أن أصيب منه شيئا .

وَيُمرِّحُ فِيهِ مَتَرَفِي بَنِي أُمِيَّةَ وَفُسَّاقَهُمْ فَلَا أَحَدَ يُجِيزُ ذَلِكَ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ حَاكِيًا عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ، أَنَّهُ دَفَعَهُ خُمْسَ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى مَرْوَانَ لَيْسَ بِمَحْفُوظٍ وَلَا مَنْقُولٍ ؛ فَبَاطِلٌ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ بِذَلِكَ يَجْرِي بِجَرَى الْعِلْمِ بِسَائِرِ مَا تَقَدَّمَ ، وَمَنْ قَرَأَ الْأَخْبَارَ عِلْمَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ لَا يَعْتَرِضُ فِيهِ شَكٌّ ، كَمَا يَعْلَمُ نَظَائِرُهُ .

رَوَى الْوَاقِدِيُّ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، عَنْ نَافِعِ مَوْلَى الزَّيْبِرِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، قَالَ : أَغْرَانَا عُمَانُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ إِفْرِيقِيَّةَ ، فَأَصَابَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ غَنَائِمَ جَلِيلَةً ، فَأَعْطَى عُمَانُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ تِلْكَ الْغَنَائِمَ . وَهَذَا كَمَا تَرَى يَتَضَمَّنُ الزِّيَادَةَ عَلَى إِعْطَاءِ الْخُمْسِ ، وَيَتَجَاوِزُهُ إِلَى إِعْطَاءِ الْأَصْلِ .

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ أُمِّ بَكْرٍ بِنْتِ الْمُسَوَّرِ ، قَالَتْ : لَمَّا بَنَى مَرْوَانُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ ، دَعَا النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، وَكَانَ الْمُسَوَّرُ مِمَّنْ دَعَاهُ ، فَقَالَ مَرْوَانُ وَهُوَ يُحَدِّثُهُمْ : وَاللَّهِ مَا أَنْفَقْتُ فِي دَارِي هَذِهِ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمًا فَمَا فَوْقَهُ ، فَقَالَ الْمُسَوَّرُ : لَوْ أَكَلْتُ طَعَامَكَ وَسَكَتَ ، كَانَ خَيْرًا لَكَ . لَقَدْ غَزَوْتُ مَعَنَا إِفْرِيقِيَّةَ ، وَإِنَّكَ لَأَقْلُنَا مَا لَا وَرَقِيْقًا وَأَعْوَانًا ، وَأَخْفَنَا ثَقَلًا ، فَأَعْطَاكَ ابْنُ عَمَلِكَ خُمْسَ إِفْرِيقِيَّةَ ، وَعَمِلْتُ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، فَأَخَذْتُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ .

وَرَوَى السَّكَّاجِيُّ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي خَنْفٍ أَنَّ مَرْوَانَ ابْتَعَ خُمْسَ إِفْرِيقِيَّةَ بِمِائَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ ، وَكَلَّمَ عُمَانَ ، فَوَهَبَهَا لَهُ ، فَأَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَى عُمَانَ ، وَهَذَا بَعِينُهُ هُوَ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ أَبُو الْحُسَيْنِ الْخَلِيطُ وَاعْتَذَرَ عَنْهُ بِأَنَّ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ تَعَلَّقَتْ بِأَمْرِ ذَلِكَ الْجَيْشِ ، فَرَأَى عُمَانُ أَنَّ يَهْبَ لِمَرْوَانَ ثَمَنٌ مَا ابْتَاعَهُ مِنَ الْخُمْسِ لَمَّا جَاءَهُ بِشِيرًا بِالْفَتْحِ عَلَى سَبِيلِ التَّرْغِيبِ ، وَهَذَا الْإِعْتِذَارُ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، لِأَنَّ الَّذِي رَوَيْنَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ خَالٍ مِنَ الْبُشَارَةِ ، وَإِنَّمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ سَأَلَهُ تَرَكَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَتَرَكَهَ وَابْتَدَأَ هُوَ بِصَلَتِهِ ، وَلَوْ أَتَى بِشِيرًا بِالْفَتْحِ كَمَا ادَّعَوْا ، لَمَا جَازَ أَنْ يَتَرَكَ عَلَيْهِ خُمْسَ الْغَنِيمَةِ الْعَائِدِ نَفْعُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،

لأنّ تلك البشارة لا تبلغُ إلى أن يستحقّ البشير بها مائتي ألف درهم ، ولا اجتهدَ في مثل هذا ، ولا فرق بين من جَوَزَ أن يؤديَ الاجتهادَ إلى مثله ، ومن جَوَزَ أن يؤديَ الاجتهادَ إلى دفع أهل الغنيمة إلى البشير بها ، ومن ارتكب ذلك ألزم جواز أن يؤديَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميع أموال المسلمين في الشرق والغرب .

فأما قوله : إنه وصلَ بنى عمّه لحاجتهم ، ورأى في ذلك صلاحا ، فقد بينّا أن صلّاته لهم كانت أكثر مما تقتضيه الخلّة والحاجة ، وأنه كان يصلُ فيهم المياسيرَ ، ثم الصّلاحُ الذي زعم أنه رآه ، لا يخلو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه . فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لا صلاحَ لأحد من المسلمين في إعطاء مَرَوَان مائتي ألف دينار ، والحكمَ بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أسيد ثلثمائة ألف درهم ؛ إلى غير ما ذكرنا ، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصّلاحَ الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلِحَ أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إنّ القطائعَ التي أتمّها بنى أمية ؛ إنما أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خرابا لا عامر لها ، فسَلَّها إلى من يعمرها ويؤديَ الحقَّ عنه ؛ فأول ما فيه أنّه لو كان الأمر على ما ذكره ، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصّلة والمعونة لأقاربه لما خَفِيَ ذلك على الحاضرين ، ولكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يواقفونه عليه في جملة ما واقفوه عليه من أحداثه . ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابه بخلاف ما روى من جوابه ؛ لأنّه كان يجب أن يقول لهم : وأي منفعة في هذه القطائع عائدة على قرابتي حتى تعدّوا ذلك من جملة صلّاتي لهم ؛ وإيصالي المنافع إليهم ! وإنما جعلتهم فيها بمنزلة الأكرّة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أنى محتسب في إعطاء قرابتي ، وإن ذلك على سبيل الصلة لرحمى ! إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذى ذكره .



الطعن الرابع :

أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء في الماء والكَلأ .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه لم يحِمِ الكَلأَ لنفسه ، ولا استأثر به ، لكنه حماه لإبل الصدقة التى منفعتها تعود على المسلمين . وقد روى عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس فى الاعتذار ما يزيد عن ذلك .



اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أولاً فالمرئى بخلاف ما ذكر ، لأنّ الواقديّ روى بإسناده ، قال : كان عثمان يحِمى الرَبْذَةَ والشَّرَفَ^(١) والبقيع ، فكان لا يدخل الحِمَى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبني أُمَيَّة حتى كان آخر الزمان ، فكان يحِمى الشَّرَفَ لإبله وكانت ألفَ بعير ، ولإبل الحَكَم بن أبي العاص ، ويحِمى الرَبْذَةَ لإبل الصدقة ، ويحِمى البَقِيعَ لخليل المسلمين وخيله وخيل بني أُمَيَّة .

قال : على أنه لو كان إنّما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيباً ؛ لأنّ الله تعالى ورسوله أباحا الكَلأَ ، وجملاه مشتركاً ، فليس لأحدٍ أن يغيّر هذه الإباحة ، ولو كان

(١) في معجم البلدان قال الأصمعي : « الشرف : كبدنجد ؛ وكانت من منازل بني آكل المرار من كندة اللؤلؤ فيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الربذة ؛ وهى الحمى الأيمن » .

في هذا الفعل مُصيباً ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر الله منه و يعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .



الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحل في الدين .
قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة ، واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك على سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مثله ، وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا المجرى ؛ لأنَّ عند الحاجة ربما يجوز له أن يقرض من الناس ، فأن يجوز له أن يتناول من مال في يده ، ليردَّ عوضه من المال الآخر أولى .



اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إنَّ المال الذي جعل الله تعالى له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يعدل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة في ذلك موقوفة على الحاجة لشرطها الله تعالى في هذا الحكم ، لأنه سبحانه أعلم بالمصالح واختلافها مِنَّا ، ولـكان لا يجعل لأهل الصدقة منها انتقِسط مطلقاً .

وأما قوله : إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم فعل مثله ، فهي دَعْوَى مجرّدة من برهان ، وقد كان يجب أن يروى ما ذكر في ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض ، فأين كان عثمان عن هذا العذر لما وُوقِف عليه !

الطعن السادس :

أنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه .

قال قاضي القضاة : قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : لم يثبت عندنا ولا صحح عندنا ما يقال من طعن عبد الله عليه ، وإكفاره له ، والذي يصح من ذلك أن عبد الله كره منه جمعه الناس على قراءة زيد بن ثابت وإحراقه المصاحف ، وثقل ذلك عليه كما يشق على الواحد منا تقديم غيره عليه .

وقد قيل : إن بعض موالى عثمان ضربه لَمَّا سمع منه الواقعة في عثمان ، ولو صح أنه أمر بضربه لم يكن بأن يكون طعنًا في عثمان ، بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود ؛ لأنَّ للإمام تأديب غيره ، وليس لغيره الواقعة فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخطاط أن ابن مسعود إنما عابه لعزله إياه ؛ وقد روى أن عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذره ، ولما أحضر إليه عطاءه في مرضه ، قال ابن مسعود : منعني إياه إذ كان ينفعني ، وجئتني به عند الموت ، لا أقبله . وأنه وسط أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وآله ليزيل ما في نفسه فلم يجب . وهذا يوجب ذم ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب ، لو صح ما روه من ضربه .



اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المروي خلاف ما ذكره أبو علي ، ولا يختلف أهل النقل في طعن ابن مسعود على عثمان ، وقوله فيه أشد الأقوال وأعظمها ، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدعى فيه الضرورة ، وقد روى كل من روى السيرة من أصحاب الحديث علم اختلاف طرُقهم أن ابن مسعود كان يقول : ليتني وعثمان برملي عاجل^(١) يمحو كلّي وأحشو عليه ، حتى يموت الأعجز مني ومنه !

ورروا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا خرجت عليه ، ليخرج معك ! فيقول : لأن أراول جبالا راسيا أحب إلي من أن أراول ملوكا مؤجلا .

(١) عاجل : رمل بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طي ، متصلة بالشمالية . مرصد الاطلاع ٢ : ٩١١ .

وكان يقول كل يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: «إِنَّ أَصْدَقَ الْقَوْلِ كِتَابُ اللَّهِ ، وأحسنَ الهدى هدى محمد ، وشرُّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» . وإنما كان يقول ذلك معترضاً بعثمان ، حتى غضب الوليد ابن عُقبة من استمرار تعريضه ، ونهاه عن خطته هذه ، فأبى أن ينتهي ، فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدمه عليه .

وروى أنه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزججاً عن الكوفة ، خرج الناس معه يشيعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبداً ؛ فإننا لا نأمنه عليك ، فقال : أمر سيكون ، ولا أحب أن أكون أولَ مَنْ فتنه .

وقد روى عنه أيضاً من طرق لا تحصى كثرة أنه كان يقول : ما يزنُ عثمانُ عندَ الله جناح ذباب . وتعاطى ما روى عنه في هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ، وإنه بلغ من إضرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أن قال لما حضره الموت : مَنْ يَتَقَبَّلُ مِنِّي وَصِيَّةً أَوْصِيهَ بِهَا عَلَى مَا فِيهَا ! فسكت القوم ، وعرفوا الذي يريد ، فأعادها ، فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى : أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود : ألا بصليَّ على عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنه لما دُفِن ، جاء عثمان منكراً لذلك ، فقال له قائل : إن عماراً ولي الأمر ، فقال لعمار : ما حملك على أن لم تؤذني ؟ فقال : عهد إلى ألا أؤذئك ، فوقف على قبره وأثنى عليه ، ثم انصرف وهو يقول : رفعتُمُ والله أيديكم عن خيرٍ مَنْ بَقِيَ ، فتمثل الزبير بقول الشاعر :

لَا أَلْفِينُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي^(١)

ولما مَرَضَ ابنُ مسعود مرضه الذي مات فيه ، أتاه عثمان عائداً ، فقال : ما تشتهي ؟ فقال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا أدعوك طبيباً ! قال :

الطبيبُ أمرضني ، قال : أفلا آمر لك بمطائلك ؟ قال : منعتني وأنا محتاج إليه ، وتمطينيه وأنا مستغن عنه ! قال : يكون لولدك ، قال : رزقهم على الله تعالى ، قال : استغفر لي يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ الله أن يأخذَ لي منك حَقِّي .

قال : وصاحبُ ” المغنى ” قد حكى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذى حكاها من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذمَّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر . وهذا منه طريف ؛ لأنَّ مذهبه لا يقتضى قبولَ كلِّ عذر ظاهر ، وإنما يجب قبولُ العذر الصادق ، الذى يظنُّ فى الظنِّ أن الباطن فيه كالظاهر ، فمن أين لصاحب ” المغنى ” أنَّ اعتذار عثمان إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التى يجب معها القبول ! وإذا جاز ما ذكرناه لم يكن على ابن مسعود لوم فى الامتناع من قبول عُذْرِهِ .

فاما قوله : إن عثمان لم يضربه ، وإنما ضربه بعضُ مواليه لما سمعَ وقيعته فيه ، فالأمر بخلاف ذلك ، وكلَّ مَنْ قرأ الاخبار علم أنَّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنف الوجوه ، وبأمره جرى ما جرى عليه ، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كسر ضلعه ، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إننى لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنكرت عليه فعله .

وفى علمنا بأنَّ ذلك لم يكن . دليل على ما قلنا . وقد روى الواقدي بإسناده وغيره أنَّ ابن مسعود لما استقدم المدينة ، دخلها ليلة الجمعة ، فلما علم عثمان بدخوله ، قال : أيها الناس ، إنه قد طرقكم الليلة ، دويبة من تمشى على طعامه يقىء ويسلج . فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولسكننى صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وصاحبُه يوم أحد وصاحبُه يوم بيعة الرضوان ، وصاحبُه يوم الخندق ، وصاحبُه يوم حُنين . قال : وصاحت عائشة : يا عثمان ! أقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال عثمان : اسكتي ؛ ثم قال لعبد الله بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي : أخرجه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابنُ زمعة ، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضلعاً من أضلاعه فقال ابن مسعود: قتلتني ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان ! وفي رواية أخرى إنَّ ابنَ زمعة الذي فعل به ما فعل كان مولى لعثمان أسود مُسدَّماً^(١) طوالاً. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك بِمُحْمُوم مولى عثمان. وفي رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله، ألاّ تخرّجني من مسجد خليلي صلى الله عليه وآله .

قال الراوى : فكأنني أنظر إلى مُحْمُوشة^(٢) ساقى عبد الله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لأساقا ابن أمّ عبد أثقلُ في الميزان يوم القيامة من جبل أحد» .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفينه أبأذّر. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبأذّر رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرّبة، وليس معه إلا امرأته وغلامه عهد إليهما أن غسّلاني ثم كفّناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأقول ركب يمزون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعينونا على دفنِه ، فلما مات فعلوا ذلك ، وأقبل ابنُ مسعود في ركب من العراق معتمرين ، فلم يرعهم إلا الجنّاة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطوّها ، فقام إليهم العبد ، فقال : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعينونا على دفنِه ، فانهل ابنُ مسعود باكياً ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال له : « تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبُعْث وحدك » ، ثم نزل هو وأصحابه ، فواروه .

قال : فأما قوله إن ذلك ليس بأن يكون طعنًا في عثمان بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود ، فواضح البطلان ، وإنما كان طعنًا في عثمان دون ابن مسعود ؛ لأنه لا خلاف

(١) السدم : الأوج .

(٢) المحوشة : دقة السابق .

بين الأمة في طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وثنائه عليه ، وأنه مات على الجُملة المحمودة منه ، وفي جميع هذا خلاف بين المسلمين
في عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كره جمعَ عثمان النَّاس على قراءة زيد ، وإحراقه
المصاحف ؛ فلا شك أن عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وآله ، وتكلموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم في ذلك مفصلاً ، وما
كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً ، وهو الذي يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في حقه : « مَنْ
سرّه أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » . وروى عن ابن عباس
رحمه الله تعالى أنه قال : « قراءة ابن أم عبد هي القراءة الأخيرة » ؛ إن رسول الله صلى الله
عليه كان يُعرض عليه القرآن في كل سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام
الذي توفى فيه عُرض عليه دفتين ، فشهد عبد الله مانسِخ منه ، وما صحّ ففى
القراءة الأخيرة .

وروى عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذتُ القرآنَ مِنْ فِي رسول الله
صلى الله عليه ، سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لُغلام في الكتاب ، له ذؤابة .

فأما حكايتُه عن أبي الحسين الخياط أن ابن مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ،
فعبد الله عِنْدَ كُلِّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة ، وأنه لم يكن ممن يخرج على عثمان ويطعن
في إمامته بأمر يعود إلى منفعة الدنيا ، وإن كان عزله بما لاشبهة فيه في دين ولا أمانة عيباً
لاشك فيه .

الطبعة السابعة :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالا شك أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما بسوغ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أن الوجه في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصيل القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلاف فيه . وقولهم : لو كان ذلك واجباً لفعله الرسول صلى الله عليه وآله غير لازم ؛ لأن الإمام إذا فعله صار كأن الرسول صلى الله عليه وآله فعله ، ولأن الأحوال في ذلك تختلف ، وقد روى أن عمر كان عزم على ذلك فأتته دونه . وليس لأحد أن يقول : إن إحراقه المصاحف استخفافاً بالدين ، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صلى الله عليه وآله أن يخرّب المسجد الذي بُني ضراباً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

*** .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه ؛ لأنهم يروون أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وآله ، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسع في الحروف ما هو مباح ! فلو كان في القراءة الواحدة تحصيل القرآن كما ادّعى ؛ لما أباح النبي صلى الله عليه وآله في الأصل إلا القراءة الواحدة ، لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته ، من سيئ كان مؤيداً بالوحي ، موفّقاً في كلّ ما يأتي ويذّر . وليس له أن يقول : حدّث من الاختلاف في أيام عثمان ما لم يكن في أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، ولا ما أباحه ؛ وذلك لأن الأمر

لو كان على هذا لوجب أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر المبتدع ، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فكأن الرسول صلى الله عليه وآله فعله تعلل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادعى ، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة في القرآن ، وفي قطعه تحصين له ، لكان عليه السلام بالنهي عن هذا الاختلاف أولى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلاف لم يكن ؛ فقد قلنا فيه ما كفى .

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أى فاعل كان لكان منكراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضرار ، فبين الأمرين بونٌ بعيد ؛ لأنّ البنیان إنما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنية الباني وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنیان بأن يكون مسجداً أولى من بعض ، ولما كان قصد الباني لذلك الموضع غير القربة والعبادة ، بل خلافها وضدها من الفساد والمسكيدة . لم يكن في الحقيقة مسجداً ، وإن سمي بذلك مجازاً على ظاهر الأمر ، فهدمه لا حرج فيه ، وليس كذلك ما بين الدفتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقر المعظم ، الذي يجب صيانتُه عن البذلة والاستخفاف ، فأى نسبة بين الأمرين !



الطعمه الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب ، حتى حدث به فتق ، ولهذا صار أحد من ظاهر المتظلمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافراً .

قال قاضى القضاة: وقد أجابنا شيخنا أبو على رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال: إنَّ ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأنَّ للإمام تأديبَ مَنْ يستحق التأديب . ومما يبعد صحة ذلك أنَّ عمارا لا يجوز أن يكفره ، ولما يقع منه ما يستوجب به الكفر ! لأنَّ الذى يكفر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك ، ولوجب أن يجتمعوا على خلعه ، ولوجب ألا يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ما قدمناه . وليس لأحد أن يقول : إنما كَفَره عمار من حيث وثب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ، لأننا قد بينا القول فى ذلك ؛ ولأنه كان منصوبا لأبى بكر وعمر على ماتقدم ، وقد بينا أنَّ صحة إمامتهما تقتضى صحة إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن على عليهما السلام فى أمر عثمان فقال عمار : قتل عثمان كافرا ، وقال : الحسن عليه السلام : قتل مؤمنا ؛ وتعلق ببعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إني قلتُ كذا ، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفر بربِّ كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نَقِمَ عليه ضربه عمارا احتجَّ لنفسه ، فقال : جاءنى سعد وعمار ، فأرسلا إلى أن اتنا ، فإننا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها ، فأرسلت إليهما : إني مشغول ، فأنصرفا ، فوعدكما يوم كذا ، فأنصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت الرسولَ إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمرى ؛ ووالله ما أمرتُ به ولا رضيت ؛ وهأنا فليقتصَّ منى .

قال : وهذا من أنصف قولٍ وأعدله .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً، وكلُّ من قرأ الأخبار، وتصفح السير، يعلم من هذا الأمر ما لا تنفيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعةٌ؛ وهذا الفعل - أعني ضربَ عمار - لم تختلف الرواة فيه؛ وإنما اختلفوا في سببه، فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف، في إسناده أنه كان في بيت المال بالمدينة سَفَطٌ ^(١) فيه حَلْيٌ وجوهر، فأخذ منه عثمان ماحلي به بعضَ أهله، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلِّ كلامٍ شديد؛ حتى أغضبوه، فخطب فقال: لناخذن حاجتنا من هذا الشيء؛ وإن رَغِمَتْ به أنوفُ أقوامٍ! فقال له عليٌّ عليه السلام: إذَنْ تُنَمِّعَ من ذلك، ويحالَ بينك وبينه! فقال عمار: أشهد الله أن أنفي أولُّ راغمٍ من ذلك؛ فقال عثمانُ أعلىَّ يابنِ ياسر تجترى! خذوه، فأخذ، ودخل عثمان، فدعا به فضر به حتى غشي عليه، ثم أخرج لَحْمٌ حتى أَتَى به منزلَ أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق تَوْضاً وصَلَّى، وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أُوذِينَا في الله تعالى! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة الخزومي - وكان عمار حليفاً لبني مخزوم: يا عثمان، أما على فانتقيته، وأما نحن فاجترأت علينا، وضربت أخانا حتى أَشْفَيْتَ ^(٢) به على التلف؛ أما والله لئن مات لأقتلنَّ به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنك لها هنا يابن القسريّة - قال: فإنهما قَسْرِيَتَانِ، وكانت أم هشام وجدته قَسْرِيَتَيْنِ من بَحِيلَةٍ - فشمته عثمان، وأمر به فأخرج، فأثى به أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فإذا هي قد غَضِبَتْ لعمار، وبلغ عائشة رضي الله تعالى عنها ما صَنَعَ بعمار، فغضبت أيضاً، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله، ونعلا من نعاله، وثوبا من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبُلْ بعد!

(١) السفط: وعاء كالجوالق.

(٢) أَشْفَيْتَ به، أي جعلته مشرفاً على الهلاك.

وروى آخرون أن السبب في ذلك أن عثمان مرّ بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل :
عبد الله بن مسعود ، فغضب على عمار لكتمانه إياه موته ، إذ كان المتولى للصلاة عليه ، والقيام
بشأنه ، فعندها وطى عثمان عماراً حتى أصابه الفتق .

وروى آخرون أن المقداد وعماراً وطلحة والزبير وعدّة من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وآله كتبوا كتاباً عدّوا فيه أحداث عثمان ، وخوّفوه به ، وأعلموه أنهم مؤابوه
إن لم يقام ، فأخذ عمار الكتاب ، فأناه به ، فقرأ منه صدراً ، ثم قال له : أعلىّ تقدم من
بينهم ! فقال : لآتى أنصحهم لك ، قال : كذبت يا ابن سمية ! فقال : أنا والله ابن سمية ،
وابن ياسر ! فأمر عثمان غلماناً له ، فمدّوا يديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه - وهى فى
الخفين - على مذاكيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفاً كبيراً ففُشى عليه .

قال : ف ضربُ عمار على ما ترى غير مختلف فيه بين الرواة ، وإنما اختلفوا فى سببه ،
والخبر الذى رواه صاحب " المعنى " : وحكاة عن أبى الحسين الخياط ما نعرفه ، وكتب
السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره ، وقد كان يجب أن يضيفه إلى الموضع الذى أخذ منه ، فإن
قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة . ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله :
« ها أنا فليقتصّ منى » إذا كان ما أمر بذلك ، ولا رضى عنه ، وإنما ضربه الغلام الجانى :
« فليقتصّ منه » ، فإنه أولى وأعدل .

وبعد ؛ فلا تنافى بين الروایتين لو كان ما رواه معروف ، لأنه يجوز أن يكون غلامه
ضربه فى حال ، وضربه هو فى حال أخرى ، والروایات إذا لم تتعارض لم يحز إسقاط
شئ منها .

فأما قوله : إن عماراً لا يجوز أن يكفره ، ولم يقع منه ما يوجب الكفر ؛ فإن تكفير
عمار وغير عمار له معروف ، وقد^(١) جاءت به الروایات ، وقد روى من طرق مختلفة وبأسانيد
كثيرة أن عماراً كان يقول : ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع ، وأنا شرّ

الأربعة ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ^(١) ، وأنا أشهد أنه قد حَكَمَ بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له : بأى شيء كفرتم ^(٢) عثمان ؟ فقال : بثلاث : جعل المال دولة بين الأغنياء ، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة من حارب الله ورسوله ، وعمل بغير كتاب الله .

وروى عن حذيفة أنه كان يقول : ما فى عثمان بحمد الله أشك ، لكنى أشك فى قاتله ، لا أدرى أكاfer قتل كافرا ، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله ؛ وهو أفضل المؤمنين إيمانا !

فأما ما رواه من منازعة الحسن عليه السلام عماراً فى ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أولا غير دافع لكون عمار مكفراً له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إن كان الخبر صحيحاً فالوجه فيه أن عماراً كان يعلم من لحن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعدوله عن أن يقضى بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقية ، فأمسك عمار متابعاً ^(٣) لغرضه .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفره من حيث وثب على الخلافة ، لأنه كان مصوّباً لأبى بكر وعمر لما تقدم من كلامه فى ذلك ؛ فإننا لا نسلم له أن عماراً كان مصوّباً لهما ، وما تقدم من كلامه قد تقدم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبى على : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يكن طعناً ، لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب " المغنى " ، أو من حكى كلامه من أبى على وغيره ، من أن يعتذر - من ضرب عمار ووقذه حتى لحقه من الغشى ما ترك له الصلاة ، ووطنه بالأقدام امتهاناً واستخفافاً - بشيء من العذر ،

(١) - سورة المائدة ٤٤ .

(٢) ١ . « اكفرتم » .

(٣) الشافى : « لما تخلف غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن روى أن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه : « عمار جِلْدَةٌ ما بين العين والأنف ومتى تُنْكَأُ الجِلْدَةُ يدم الأنف » . وروى أنه قال عليه السلام : « ما لهم ولعمار ! يدعوم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وروى العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ عَادَى عَمَارًا عَادَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَمَارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ » ؛ وأى كلام غليظٍ سمعه عثمان من عمار يستحق به سبي المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى فى الحدود ! وإنما كان عمار وغيره أثبتوا عليه أصدانه ، ويعاتبه أحياناً على ما يظهر من سبي أفعاله . وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عما يوافق عليه من تلك الأفعال ، أو يبين من عذره عنها وبرائه منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجره عن ذلك بوغظٍ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبايرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به .



الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذرٍّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرّبذة ونفاه ، وقيل : إنه ضربه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إن شيخنا أباً على رحمه الله تعالى قال : إنّ الناس اختلفوا فى أمر أبى ذرٍّ رحمه الله تعالى . وروى أنه قيل لأبى ذرٍّ : عثمانُ أنزلَكَ الرّبذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسي ذلك . .

وروى أن معاوية كتب بشكوه وهو بالشام ، فكتب عثمان إليه أن صرّ إلى المدينة ، فلما صار إليها قال : ما أخرجَكَ إلى الشام ؟ قال : لأنّى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه -

وآله يقول: «إذا بلغت عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها» ؛ فلذلك خرجتُ ، فقال :
فأى البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال : الرّبذة ، فقال : صِرْ إليها .

قال : وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم في ذلك حجة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرجَه إلى الرّبذة لصلاح يرجع إلى الدين ، فلا يكون ظُلماً لأبي ذرٍّ ؛ بل يكون إشفاقاً عليه ، وخوفاً من أن يناله من بعضِ أهل المدينة مكروه ، فقد رُوِيَ أنه كان يُفليظ في القول ويخشن الكلام ، فيقول : لم يبقَ أصحابُ محمد على ما عهد ، ويُنفَر^(١) بهذا القول ؛ فرأى إخراجَه أصلحَ لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين . وقد رُوِيَ أن عمر أخرج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته ، وقد ندبَ الله سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، وإلى القول اللين للكافرين ، وبينَ للرسول صلى الله عليه وآله أنه لو استعمل الفظاظة لانفضوا من حوله ، فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبي ذرٍّ ، وما كان يُورده مما يخشى منه التغيرَ فَعَلَ ما فَعَلَ .

قال : وقد رُوِيَ عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبي ذرٍّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرّبذة : ما أنزلَكَ هذا المنزل ؟ قال : أخبرُك ؛ إني كنتُ بالشام في أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٢) ، فقال معاوية : هذه في أهل الكتاب ، فقلت : هي فيهم وفينا . فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إلى أن أقدم عليّ ، فقدمت عليه ، فانتال الناسُ إلى كأنهم لم يعرفوني ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيرني وقال : انزل حيث شئت ، فنزلت الرّبذة .

(١) ينفرها : يصيح .

(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدم، من أن إخراج أبي ذرٍّ إلى الرِّبْذَةِ كان باختياره ، وروى في ذلك خبراً ، قال : وأقلُّ ما في ذلك أن تختلف الأخبار فتطرح ، ويُرجع إلى الأمر الأوَّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أما قول أبي عليٍّ إنَّ الأخبار في سبب خروج أبي ذرٍّ إلى الرِّبْذَةِ متكافئة ، فعاذ الله أن تتكافأ في ذلك ! بل المعروف والظاهر أنه نفاه أولاً إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكاه منه معاوية ، ثم نفاه من المدينة إلى الرِّبْذَةِ وقد روى جميع أهل السِّيرِ عَلَى اختلاف طُرُقِهِمْ وأسانيدهم أنَّ عثمانَ لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث ابن الحكم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرٍّ يقول : بَشَّرَ السَّكَاةَ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ، ويتلَوَّ قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فرفع ذلك مروان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذرٍّ نائلاً مولاه : أن انتهِ عَمَّا يَبْلُغُنِي عَنْكَ ، فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعَيِبَ مَنْ تَرَكَ أَمْرَ اللَّهِ ! فوالله لأن أَرْضِيَ اللَّهَ بِسَخَطِ عُمَانَ ، أَحَبُّ إِلَيَّ وَخَيْرٌ لِي مِنْ أَنْ أُسَخِّطَ اللَّهَ بِرِضَاهُ ! فأغضب عثمان ذلك ، وأحفظه فتصاير .

وقال يوما : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ! فقال كعبُ الأخبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذرٍّ : يا بن اليهوديين ، أنعمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثُرَ أَذْكَ لِي وَتَوَلَّكَ بِأَصْحَابِي ، الْحَقُّ بِالشَّامِ . فأخرجَه إليها ، فكان أبو ذرٍّ يُنْكِرُ عَلَى معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذرٍّ : إن كانت هذه

من عطائي الذي حرمتمونيهِ عامي هذا قبلتها ، وإن كانت صلةً فلا حاجة لي فيها ،
وردها عليه .

وبني معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذَرٍّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله
فهى الخيانة ، وإن كانت من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذَرٍّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقد حدثت أعمالاً ما عرفها ، والله ما هى
فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقاً يُطفاً وباطلاً يُخيا ؛ وصادقاً مكذباً ، وأثرَةً
بغير تُقى ، وصالحاً مستأثراً عليه ؛ فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية : إن أبا ذَرٍّ
لَمُفْسِدٌ عايكم الشام ، فتدارك أهله إن كانت لكم حاجة فيه . فكتب معاوية إلى عثمان فيه ،
فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد ؛ فاحمل جُنْدَباً ^(١) إلى على أغلظ مَرَكَب وأوعره .
فوجه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف ^(٢) ليس عليها إلا قَتَب ^(٣) ، حتى
قدم به المدينة ، وقد سقط لحمٌ فَخِذَيْهِ من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذَرٍّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان
أن الحق بائى أرضٍ شئت فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا ، قال :
فأحدُ المصرين ^(٤) ؟ قال : لا ؛ ولكنى مسيرُك إلى الرَبْدة ، فسيره إليها ، فلم يزل بها
حتى مات .

وفى رواية الواقدي أن أبا ذَرٍّ لما دخل على عثمان ، قال له : لا أنعم الله بك عينا
يا جُنَيْدُ ! فقال أبو ذَرٍّ : أنا جُنَيْدُ ، وسَماني رسول الله صلى الله عليه عبد الله ،
فاختبرت اسم رسول الله الذى سَماني به على اسمي ؛ فقال عثمان : أنت الذى تزعم أنا تقول
إن يد الله مغولة ؛ وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذَرٍّ : لو كنتم لا تزعمون ، لأنفقتم

(١) جندب اسم أبى ذر الغفارى .

(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) المصران : هما الكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولكنتي أشهدُ لسمعت رسول الله صلى الله عليه : يقول : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دُولاً ، وعبادَ الله خَوَلاً ، ودينَ الله دَخَلاً ، فقال عثمان لمن حضره : أسمعتموها من نبي الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويحك يا أبا ذر ! أتكذب على رسول الله ! فقال أبو ذر لمن حضر : أما تظنون أنني صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرى ، فقال عثمان : ادعوا لي علياً ، فدعى ، فلما جاء قال عثمان لأبي ذر : اقضُصْ عليه حديثك في بني أبي العاص ، فحدثه ، فقال عثمان لعلي : هل سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال علي عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذر ، قال عثمان : بيم^(١) عرفت صدقه ؟ قال : لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « بما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر » ، فقال جميع من حضر من أصحاب النبي صلى الله عليه : لقد صدق أبو ذر ، فقال أبو ذر : أحدثكم أنني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تهموني ! ما كنت أظن أني أعيشُ من أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صهبان مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذر يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنت الذي فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذر : نصحتك فاستغشيتني ، ونصحتُ صاحبك فاستغشني ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولكنتك تريد الفتنة وتحبها ، قد أنفلت^(٢) الشام علينا ، فقال له أبو ذر : اتبع سنة صاحبك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أم لك ! قال أبو ذر : والله ما وجدتُ لي عذراً إلا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب ، إما أن أضربه أو أحبسَه أو أقتله ؛ فإنه قد فرق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الإسلام ؛ فتكلم علي عليه السلام - وكان حاضراً وقال : أشيرُ عليك

(١) الشاق : « كيف » .

(٢) أنفلت الشام ؛ أي أفدت أهله ؛ وأصله في الأديم ؛ يقال : أنفل الأديم ؛ إذا أفسده في الدباغ .

وفي الشاق : « قلبت » .

بما قاله مؤمن آل فرعون : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا بُصِبْكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿^(١)﴾ ، قال : فأجابه
عثمان بجوابٍ غليظ ، لا أحبّ ذكره ، وأجابه عليه السلام بمنّله ، قال : ثمّ إن عثمان
حَظَرَ على الناس أن يقاعدوا أبا ذرّ ، أو يكلموه ؛ فكشّ كذلك أياماً ، ثم أمر أن يؤتى
به ، فلما أتى به وقف بين يديه ، قال : ويحك يا عثمان ! أما رأيت رسول الله صلى الله عليه ،
ورأيت أبا بكر وعمر ! هل رأيت هذا هديهم ! إنك لتبَطِّشُ بي بَطْشَ جبار ؛ فقال :
أخرج عَنَّا من بلادنا ، فقال أبو ذرّ : ما أبغض إلى جوارك ! فإلى أين أخرج ؟ قال : حيث
شئت ، قال : فأخرج إلى الشام أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لما قد أفسدتها
أفأردك إليها ! قال : أفأخرج إلى العراق ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : تقدّم على قوم أهل
شُبَّهٍ وطعن في الأئمة ، قال : أفأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال :
حيث شئت ، قال أبو ذرّ : فهو إذن التعرّب^(٢) بعد الهجرة ، أأخرج إلى نجد ؟ فقال عثمان :
الشرف الأبعدُ أَقْصَى فَأَقْصَى ، امض على وجهك هذا ، ولا تعدّون الرّبْذة .
فخرج إليها .

وروى الواقدي عن مالك بن أبي الرجال ، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤليّ ،
قال : كنتُ أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه ، فنزلت الرّبْذة ، فقلت له :
ألا تخبرني ! أخرجت من المدينة طائفاً أم أخرجت مكرهاً ؟ فقال : كنت في ثغر من ثغور
المسلمين ، أغني عنهم ، فأخرجت إلى مدينة الرسول عليه السلام ، فقلت : أصحابي ودارُ
هجرتي ، فأخرجت منها إلى ماترى ، ثم قال : بين أنا ذات ليلة نائم في المسجد إذ مرّ بي
رسول الله صلى الله عليه ، فضر بني برجله وقال : لا أراك نائماً في المسجد ، فقلت : بأبي أنت

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) التعرّب : الإقامة بالبادية .

وأُمي ! غلبتني عيني ، فمتمتُ فيه ، فقال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ فقلت : إذن ألحق بالشام ، فإنها أرض مقدسة ، وأرض بقية الإسلام ، وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذ سيفي فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلك على خير من ذلك ، أنسق معهم حيث ساقوك ، وتسمع وتطيع » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع ؛ والله ليلقيَنَّ الله عثمان وهو آثم في جَنِّي .

وكان يقول بالربذة : ماترك الحق لي صديقا . وكان يقول فيها : ردَّني عثمان بعد الهجرة أعرابيا .

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . وما يحملُ نفسه على ادعاء أن أبا ذرٍّ خرج مختارا إلى الربذة إلا مكابر . ولسنا نفكر أن يكون ما أورده صاحب الكتاب ” المغني ” من أنه خرج مختارا قد رُوِيَ ، إلا أنه من الشاذَّ النادر . وبإزاء هذه الرواية الفذة كلَّ الروايات التي تتضمن خلافها : ومن تصفح الأخبار علم أنها غير متكافئة على ما ظنَّ صاحب المغني ؛ وكيف يجوز خروجه عن اختيار ؛ وإنما أشخص من الشام على الوجه الذي أشخص عليه ؛ من خشونة المركب ، وقُبْح السَّيْرِ به للموجدة عليه . ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه ، وأغلاظ له في القول ؛ وكلَّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الربذة باختياره ! وكيف يظنَّ عاقل أن أبا ذرٍّ يختار الربذة منزلا مع جذبها وقحطها وبعدها عن الخيرات ؛ ولم تكن بمنزل مثله !

فأما قوله : إنه أشفق عليه من أن يناله بعض أهل المدينة بمكروه من حيث كان يُعْلِظ لهم القول ، فليس بشيء ؛ لأنه لم يكن في أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا بمنزل عتبه ؛ إلا أنهم كانوا بين مجاهر بما في نفسه ، ومخفٍ ماعنده ؛ وما في أهل المدينة إلا

من رَأَى لأبى ذَرٍّ مما حَدَّثَ عليه ، ومن استغفله ، ومن رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه .

فأما قوله : إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج ، فبأبعد ما بين الأمرين ! وما كنا نظن أن أحداً يسوئى بين أبى ذَرٍّ وهو وجهُ الصحابة وعينهم ، ومن أجمع المساءون على توقيره وتعظيمه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله مدحه من صدق اللّٰهجة بما لم يمدح به أحداً ، وبين نصر بن الحجاج التحدّث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه ؛ ولا حظ له في فضل ولا دين ! على أن عمر قد ذمّ بإخراجه نصر بن الحجاج من غير ذنب كان منه ، فإذا كان من أخرج نصر بن حجاج مذموماً ، فكيف من أخرج أباً ذَرٍّ !

فأما قوله : إن الله تعالى والرسول قد ندباً إلى خفض الجناح ، ولين القول للؤمن والكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أن هذا أدب كان ينبغي أن يتأدّب به عثمان في أبى ذَرٍّ ، ولا يقابله بالتكذيب ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صدقه ؛ ولا يسمعه مكروه الكلام ؛ فإنما نصح له ، وأهدى إليه عيوبه ، وعاتبه على ما لوزع عنه لكان خيراً له في الدنيا والآخرة .



الطعن العاشر :

تعظيمه الحدّ الواجب على مُبَيِّدِ الله بن عُمرَ بن الخطاب ؛ فإنه قَتَلَ الهُرْمُزَانَ ^(١) مُسْلِمًا فلم يَقْدَهُ به ؛ وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلبه لذلك .

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك : إن شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهَرْمُزَانِ وَلِيّ يطلب بدمه ، والإمام وَلِيّ مَنْ لا وَلِيّ له ، وللولى أن يعفو كما له أن يقتل ؛ وقيل رُمِيَ أَنَّهُ سَأَلَ المسلمين أن يعفوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

(١) الهرمزان : هو السكير من ملوك المعجم .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه ما يعودُ إلى عزِّ الدين ، لأنه خاف أن يبلغ العدوّ قتلَه ؛ فيقال : قَتَلُوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ، ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن عامّة المهاجرين أجمعوا على أنه لا يُقَاد بالهرْمرْزان ، وقالوا لعُثمان : هذا دم سِفك في غير ولايتك ، وليس له ولي يطلب به ، وأمرُه إلى الإمام ، فاقبل منه الدية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال . ولم يثبت أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يطلبه ليقْتلَه بالهرْمرْزان ، لأنه لا يجوز قتل مَنْ عفا عنه وليّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضع من قدره ، وبصغر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون ماروي عن عليّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بدّل عثمان لقتلته ، يعني أنه كان يرى ذلك أقوى في الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد في دين الله سبحانه .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، قال :

أما قوله : لم يكن للهرْمرْزان وليّ يطلب بدمه ، فالإمام يكون وليّه ، وله أن يعفو عنه ، كماله أن يقتص ؛ فليس بمعتد ، لأنّ الهرْمرْزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له وليّ حاضر يطلب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذل الإنصاف لأوليائه ويؤتمنوا متى حضروا ، حتى إنه لو كان له وليّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له وليّ لم يكن عثمان وليّ دمه ، لأنه قُتِل في أيام عمر ، فصار عمر وليّ دمه ، وقد أوصى عمر على ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيد الله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهرْمرْزان وجُفينة ،^(١) أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام الخيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى ، فقال : أيُّكم وليّ هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه ، فلما مات عمر ، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

(٢) جفينة ؛ كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظئرا لسعد بن أبي وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم ؛ وإعلم بالمدينة الكتاب . تاريخ الطبري ٥ : ٤٢ .

الوصية في عبيد الله بن عمر فدافع عن ذلك وعَلَّهم ؛ ولو كان هو وليّ الدم على ما ذكرنا لم يكن له أن يعفو وأن يُبطل حدًّا من حدود الله تعالى ، وأى شمانة للعدو في إقامة حد من حدود الله تعالى ! وإنما الشمانة كُلُّها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود . وأى حَرَج في الجمع بين قتل الإمام وابنه ، حتّى يقال : كره أن ينتشر الخبر بأن الإمام وابنه قتلا ، وإنما قُتل أحدهما ظلما ، والآخر عدلا ، أو أحدهما بغير أمر الله ، والآخر بأمره سبحانه ! وقد روى زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد ما استخلف ، فكلّمه في عبيد الله ولم يكلمه أحد غيره ؛ فقال : اقْتُلْ هذا الفاسق الخبيث الذى قتل أميرا مسلما ؛ فقال عثمان : قَتَلُوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! وإنما هو رجل من أهل الأرض ؛ فلما أبى عليه مرّ عبيد الله على على عليه السلام ، فقال له : إيه يافاسق ! أما والله لئن ظفرت بك يوما من الدهر لأضربن عنقك ؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القتاد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أن المسلمين لما قال عثمان : إني قد عفوت عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أن تُعفو عنه ، قال : بلى إنه ليس لجفينة والهرمزان قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا وليّ أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوت . فقال على عليه السلام : إنه ليس كما تقول ، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين ؛ إنه قَتَلهما في إمارة غيرك ، وقد حَكَم الوالى الذى قَتَلَا في إمارته بقتله ؛ ولو كان قَتَلهما في إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإن الله سائلك عن هذا ! فلما رأى عثمان أن المسلمين قد أبوا إلا قتل عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها دارا وأرضا ؛ وهى التى يقال لها : كَوْيْفَة ^(١) ابن عمر ، فعظم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

(١) الكويّفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويّفة ابن عمر منسوبة إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادى . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

وروى عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
 ما مسى عثمان يوم ولّى حتى نَقَمُوا عليه في أمر عبيد الله بن عمر ؛ حيث لم يقتله بالهرمزان .
 فأما قوله : إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتله ؛ بل ليضع من قدره ؛ فهو
 بخلاف ما صرح به عليه السلام من أنه إن تمكن ليضرب عنقه .

وبعد ؛ فإن وليّ الدم إذا عفا عنه على ما ادّعوا لم يكن لأحد أن يستخفّ به ،
 ولا يضع من قدره ، كما ليس له أن يقتله .

وأما قوله : إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يتوعده مع عفو الإمام عنه ؛ فإنما
 يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً ؛ وقد بينّا أنه غير مؤثر .

وأما قوله : يجوز أن يكون عليه السلام رأى أن قتله أقوى في الاجتهاد ، وأقرب إلى
 التشدد في دين الله ؛ فلا شك أنه كذلك ، وهذا بناء منه على أن كل مجتهد مصيب ؛
 وقد بينّا أن الأمر بخلاف ذلك ؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي قتله ،
 فهو الذي لا يسوغُ خلافه .



الطعن الحادى عشر :

وهو إجمالى ؛ قالوا : وجدنا أحوال الصحابة دالة على تصديقهم المطاعين فيه ،
 وبرائتهم منه ؛ والدليل على ذلك أنهم تركوه بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفنوه ولا أنكروا
 على من أجلب عليه من أهل الأمصار ؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه ؛ ولكنهم أعانوا عليه ،
 ولم يمنعوا من حضره ولا من منع الماء عنه ؛ ولا من قتله ، مع تمكنهم من خلاف ذلك ؛
 وهذا من أقوى الدلائل على ما قلناه ؛ ولو لم يدل على أمره عندهم إلا ما روى عن علي عليه
 السلام أنه قال : الله قتله وأنا معه ؛ وأنه كان في أصحابه عليه السلام من يصرح بأنه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ؛ وكان أهل الشام يصرّحون بأن مع أمير المؤمنين قتلة عثمان ، ويحملون ذلك من أوكد الشبه ، ولا ينكر ذلك عليهم ؛ مع أننا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابه على المنع عنه لما وقع في حقه ما وقع ؛ فصار كفه وكف غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنهم صدّوا عنه ما نسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله عذرا .

وأجاب قاضى القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صحّ لكان طعنا على من لزمه القيام به ؛ وقد قال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : إنه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام خوفاً على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنه .

قال : وبعيد مع حضور قريش وقبائل العرب وسائر بنى أمية ومواليهم أن يُترك عثمان ولا يُدفن هذه المدة ؛ وبعيد أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه ؛ ولو مات في جواره يهودى أو نصرانى ولم يكن له من يواريه ما تركه أمير المؤمنين ألا يدفن ؛ فكيف يجوز مثل ذلك في عثمان ؛ وقد روي أنه دفن في تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأما التعلّق بأن الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعت عنه ، فقد سبق القول في ذلك ؛ والصحيح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرأ من قتل عثمان ، ولعن قتلته في البرّ والبحر ، والسهل والجبل ؛ وإنما كان يجري من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأننا نعلم أن جميع من كان يقول : نحن قتلناه لم يقتله ؛ لأن في الخبر أن العدد الكثير كانوا يصرّحون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ وإنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أى احسبوا أننا قتلناه فما لكم ! وذلك أن الإمام هو الذى يقوم بأمر القود ، وليس للخارج عليه أن يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمر المؤمنين عليه السلام أن يقتل قتلته لو عرفهم بيئته أو إقرار ، وميزهم من غيرهم إلا عند مطالبة ولّى الدم ؛ والذين كانوا أولياء

الدم لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانت صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلهم أو بعضهم يدعون أن عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحل لولى الدم مع هذا الاعتقاد أن يطالب بالقود ؛ فلذلك لم يقتلهم عليه السلام ؛ هذا لو صح أنه كان يميزهم ؛ فكيف وذلك غير صحيح .

فأما ما روى عنه من قوله عليه السلام : « قتل الله وأنا معه » ! فإن صح فعناه مستقيم ؛ يريد أن الله أماته وسُميتنى وسائر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان مات مقتولا من جهة المكائين ! وأجاب بأنه وإن قُتل ، فالإماتة من قِبَل الله تعالى ؛ ويجوز أن يكون ماناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة لا محالة ، فإذا مات صحت الإمامة على طريق الحقيقة .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال .

أما تضعيفه أن يكونَ عثمانُ تركَ بعدَ القتلِ ثلاثةَ أيامٍ لم يُدفن ؛ فليس بحجة ؛ لأن ذلك قد رواه جماعةُ الرواة ؛ وليس يخالف في مثله أحدٌ يعرفُ بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقدي وغيره ؛ وروى أن أهلَ المدينة منعوا الصلاةَ عليه ؛ حتى حُملَ بين المغرب والعَتَمَةِ ، ولم يشهد جنازته غيرُ مروان وثلاثة من مواليه ؛ ولما أحسوا بذلك رمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذِّكْرِ ؛ ولم يقع التمسُّكُ من دَفْنِهِ إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنِهِ ، وأمر أهله بتولّي ذلك منه .

فأما قوله : إن ذلك إن صحَّ كان طعنا على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ؛ فليس الأمرُ على ما ظنه ؛ بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة - وفيها وجوهُ الصحابة - من دَفْنِهِ والصلاة عليه إلا لاعتقاد قبيح ؛ أو لأنَّ أكثرهم وجُهورهم يعتقد ذلك ؛ وهذا طعن لا شبهة فيه ؛ واستبعاد صاحب "الغنى" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يلتفت إليه؛ فأما أمير المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب "المغنى" منه ألا يتقدم بدفنه؛ فقد بينا أنه تقدم بذلك بعد مما كسة ومراوضة. وأعجب من كل شيء قول صاحب "المغنى": "إنهم أخرُوا دفنه تشاغلا بالبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام. وأى شغل في البيعة لأمر المؤمنين يمنع من دفنه، والدفن فرض على الكفاية، لو قام به البعض وتشاغل الباقون بالبيعة لجازا وليس الدفن ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها. فأما قوله: إنه قد روى أن عثمان دُفن تلك الليلة، فما تُعرف هذه الرواية؛ وقد كان يجب أن يُسندها ويُزوَّها إلى راويها، أو الكتاب الذي أخذها منه؛ فالذى ظهر في الرواية هو ما ذكرناه.

فأما إحاطته على ما تقدم في معنى الإنكار من الصحابة على القوم المجلبين على عثمان؛ فقد سبق القول في ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤهُ من قتل عثمان، ولعنه قتلته في البر والبحر، والسهل والجبل؛ فلا شك في أنه عليه السلام كان بريئا من قتله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتل عثمان، ولا ملأت في قتله؛ والمالأة هي المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام في أنه ما قتل ولا وازر على القتل.

فأما لعنه قتلته^(١) فضعيف في الرواية، وإن كان قد روى؛ فأظهر منه ما رواه الواقدي، عن الحكم بن الصلت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيتُ عليا عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله حين قتل عثمان، وهويقهول: ما أحببتُ قتله ولا كرهته، ولا أمرت به، ولا نهيت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عثمان بن جرير بن بشير، عن أبي جلد، أنه سمع عليا

(١) ١، ج: «قتله عثمان».

عليه السلام ، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذي لا إله إلا هو ؛ ما قتلته ولا مالاتُ على قتله ولا ساءني^(١) .

وروى ابن بشير ، عن عُبَيْدة السلمانيّ ، قال : سمعت عليّاً عليه السلام يقول : مَنْ كَانَ سَائِلِي عَنْ دَمِ عُثْمَانَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ . وَقَدْ رُويَ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ .

وقد روى شعبة عن أبي حمزة الضَّبَعِيّ ، قال : قلتُ لابن عباس : إِنَّ أَبِي أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيّاً ، يَقُولُ : أَلَا مَنْ كَانَ سَائِلِي عَنْ دَمِ عُثْمَانَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ - فَقَالَ : صَدَقَ أَبُوكَ ؛ هَلْ تَدْرِي مَا مَعْنَى قَوْلِهِ ! إِنْما عَنَى : اللَّهُ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَ اللَّهِ .
قال : فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصَحُّ الْجَمْعُ بَيْنَ مَعَانِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ !

قلنا : لَا تَنَافَى بَيْنَهَا ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَرَّأَ مِنْ مَبَاشَرَةِ قَتْلِهِ وَالْمُؤَاوَزَةِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَا أَمَرْتُ بِذَلِكَ وَلَا نَهَيْتُ عَنْهُ ؛ يَرِيدُ أَنْ قَاتِلِيهِ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَيَّ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنِّي قَوْلٌ فِي ذَلِكَ بِأَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ .

فأما قوله : اللَّهُ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ : اللَّهُ حَكَمَ بِقَتْلِهِ وَأَوْجِبَهُ وَأَنَا كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْتُلْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فإِضَافَةُ الْقَتْلِ إِلَيْهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الْحُكْمِ وَالرَّضَا ؛ وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مِمَّا حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، مَا لَمْ يَقْتُلْهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا آزَرَ عَلَيْهِ ، وَلَا شَايَعَ فِيهِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هَذَا يَنَافِي مَا رُويَ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : « مَا أَحْبَبْتُ قَتْلَهُ ، وَلَا كَرِهْتُهُ » ، وَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَهُوَ لَا يَحِبُّ قَتْلَهُ !

قلنا : يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِقَوْلِهِ : « مَا أَحْبَبْتُ قَتْلَهُ وَلَا كَرِهْتُهُ » أَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ ، وَلَا خَطَرٌ لِي بِيَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْجُمْلَةِ يَحِبُّ قَتْلَ مَنْ غَلَبَ الْمُسْلِمِينَ

(١) كَذَا فِي أ ، ج ، وَالثَّقَافِي ، وَفِي ب : « وَلَا سَأَلَ » .

على أمورهم ، وطالبود بأن يعتزل ، لأنه ^(١) «مستولٍ عليهم بغير حق» فامتنع من ذلك ، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله ، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهى عنه . ويجوز أن يريد أنني ما أحببت قتله ؛ إن كانوا تعمّدوا القتل ؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود . ويريد بقوله : « ما كرهته » أتى لم أكرهه على كل حال ، ومن كل وجه .

فأما لعنه قتلته فقد بينا أنه ليس بظاهر ظهور ما ذكرناه ؛ وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحذور من تعمّد له ، وقصدٍ إليه وغير ذلك ؛ على أن المتولّى للقتل على ما صحّت به الرواية كنانة بن بشير الثّجّبيّ وسُودان بن حمران المراديّ ؛ وما منهما من كان غرضه صحيحا في القتل ، ولا له أن يقدم عليه ، فهو ملعون به . فأما محمد بن أبي بكر ؛ فما قولى قتلته ؛ وإنما روى أنه لما جثا بين يديه قابضا على لحيته ، قال له : يا بن أخي ؛ دغّ لحيتي ؛ فإن أباك لو كان حيا لم يقعد مني هذا المقعد ؛ فقال محمد : إن أبي لو كان حيا ثم يراك تفعل ما تفعل لأنكره عليك ، ثم وجاء ^(٢) جماعة قدّاح كانت في يده فخزّت في جليله ولم تقطع ، وبادره من ذكرناه في قتله بما كان فيه قتله .

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام : « قتلّه الله وأنا معه » ؛ على أن المراد به ؛ الله أماته وسيميتني ؛ فبعيد من الصواب ؛ لأن لفظة « أنا » لا تكون كناية عن المفعول ؛ وإنما تكون كناية عن الفاعل ؛ ولو أراد ما ذكره لكان يقول : « وإياي معه » ؛ وليس له أن يقول : إننا نجعل قوله : « وأنا معه » مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون تقدير الكلام : « وأنا معه مقتول » ؛ وذلك لأن هذا ترك للظاهر وإحالة على ما ليس فيه ؛ والكلام إذا أمكن حمله على معنى يستقلّ ظاهره به من غير تقدير وحذف ، كان أولى مما يتعلق بمحذوف ؛ على أنهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا بأنّ يقدّروا ما يوافق مذهبهم بأولى من تقدير خلافه ، ويجعل بدلا من لفظة « المقتول » المحذوفة لفظة « معين » أو « ظهير » .

(١-١) ب : « لأنه مستول عليه بحق » وما أثبتته من أ ، ج وكتاب الشافعي .

(٢) وجاء : ضربه .

وإذا تكافأ القولان في التقدير وتعارضاً سَقَطَا ، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أن عثمان مَضَى مقتولاً ، فكيف يقال : إنَّ الله تعالى أَمَاتَهُ ، ولَقَتْلَ كافٍ في انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى ناف للحياة يسمى موتاً .

وقول صاحب " المغنى " يجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة ؛ ليس بشيء ؛ لأنَّ المروى أنه ضُرِبَ على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأنَّ أحدَ قتلته قال : جلست على صدره فوجأته تسع طعنات ، علمت أنه مات في ثلاث ، ووجأته السَّتَ الآخر لما كان في نفسى عليه من الحنق .

وبعد : فإذا كان جائزاً ، فن أين عَمِلَهُ أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول : إنَّ الله أَمَاتَهُ ، وإنَّ الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون ^(١) ، وإنما انتفت بشيء زاد على فعلهم من قِبَلِ الله تعالى تما ^(٢) لا يعلمه على سبيل التفصيل إلا علامُ الغُيوب سبحانه .

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالاً وتفصيلاً :

أما الوجهُ الإجمالي ، فهو أننا لا نُنْكَرُ أنَّ عثمانَ أَحْدَثَ أَحْدَثاً أَنْكَرَها كثيرٌ من المسلمين ، ولكننا ندَّعى مع ذلك أنها لم تبلغْ درجةَ الفِسْقِ ، ولا أَحْبَطَتْ ثوابه ، وأنها من الصغائر التي وقعت مكفرة ^(٣) ؛ وذلك لأننا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه مِنُ أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدها : أنه من أهل بَدْرَ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله أطلع على أهل بَدْرَ ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . ولا يقال : إنَّ عثمانَ لم يشهدْ بدرًا ؛ لأننا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلف على رُقِيَّةِ ابنة رسول الله

(١) الشافى : « القتلة » ، وفي ب : « القاتلون » تحريف .

(٢) كذا في ١ ، ج والشافى ، وفي ب : « نيا » .

(٣) الصغائر المكفرة : التي يعصى أَمْرُها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها ، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسنمه وأجره باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ^(١) . ولا يقال : إنه لم يشهد البيعة تحت الشجرة ، لأننا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدا ، ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله أرسله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعة الرضوان ، حيث أُرْجِفَ ^(٢) بأن قريشا قتل عثمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن كانوا قتلوه ؛ لأضرمنهم نارا » ؛ ثم جلس تحت الشجرة ، وبابع الناس على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فانا أبايع عنه » ، فصيح بشماله على يمينه ، وقال : « شمالي خير من يمين عثمان » . روى ذلك جميع أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنة . وإذا كانت الوجوه الثلاثة دالة على أنه مغفور له ، وأن الله تعالى قد رضى عنه ؛ وهو من أهل الجنة ، بطل أن يكون فاسقا ؛ لأن الفاسق يخرج عندنا من الإيمان ، ويُحْبَطُ ^(٣) ثوابه ، ويُحْكَمُ له بالنار ولا يغفر له ، ولا يُرَضَى عنه ، ولا يَرَى الجنة ولا يدخلها ، فاقتضت هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أن يُحْكَمَ بأن كل ما وقع منه فهو من باب الصفات المبكرة ، توفيقاً بين هذه الوجوه ، وبين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيلي فهو مذكور في كتب أصحابنا المطولة في الإمامة ؛ فليطأ من مظانه ، فإنهم قد استقصوا في الجواب عن هذه المسألة استقصاء لا مزيد عليه .

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال : أُرْجِفَ القوم ؛ إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر ألفت على أن يوقعوا الناس في الاضطراب .

(٣) ب ، ج : « ينحبط » وما أثبتته عن أ .

[يبعة جرير بن عبد الله البجليّ لعلّ]

فأما خبر جرير بن عبد الله البجليّ ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية ، فنحن نذكره نقلا من ” كتاب صفين “ لنصر بن مزاحم بن بشار المنقريّ ؛ ونذكر حال أمير المؤمنين عليه السلام ، منذ قدّم الكوفة بعد وقعة الجمل ، ومراسلته معاوية وغيره ، ومراسلة معاوية له وغيره ، وما كان من ذلك في مبدأ حالتهما إلى أن سار على عليه السلام إلى صفين .

قال نصر : حدثني ^(١) محمد بن عبيد الله عن الجرجانيّ ، قال : لما قدّم على عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمر الجمل ، كاتب العمال ، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجليّ مع زحر بن قيس الجعفيّ - وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر همدان ^(٢) :

أما بعد ، فإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ^(٣) . وإني أخبرك عن نبيّ ^(٤) مَنْ سَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ جُجُوعٍ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ ، عِنْدَ نَكْتِهِمْ بِيَمْتَى ^(٥) ، وَمَا صَنَعُوا بِعَامِلِي عُثْمَانَ ابْنِ حُنَيْفٍ . وَأَتَى نَهَضَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالْعُدَيْبِ ^(٦) ، بَعَثْتُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ، وَقَيْسَ ابْنَ عِبَادَةَ ، فَاسْتَنْفَرْتُهُمْ فَأَجَابُوا ، فَسَرْتُ بِهِمْ حَتَّى نَزَلْتُ بِظَهْرِ الْبَصْرَةِ ، فَأَعْذَرْتُ فِي

(١) وقعة صفين للمنقريّ ص ١٩ وما بعدها .

(٢) همدان أو همدان ؛ بالإعجم والإهمال . مدينة بلاد الجبال من فارس .

(٣) سورة الرعد ١١

(٤) ب : « أنباء » .

(٥) كتاب صفين : « بيعتهم » .

(٦) العذيب : ماء عن عين القادسية لبني تميم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراد الاصلاح) .

الدعاء ، وأقَلْتُ العَثْرَةَ ، وناشدتهم عَهْدَ بيعتهم ؛ فأبَوْا إلا قتالِي ، فاستعنتُ اللهَ عليهم ، فقتِلَ مَنْ قَتَلَ ، وولوا مدبرين إلى مصرهم ، وسألوني ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقَبِلْتُ العافية ، ورفعتُ السيفَ ، واستعملت عليهم عبدَ الله بن العباس ، وسرتُ إلى الكُوفَةِ ؛ وقد بعثت إليك زحر بن قيس ، فأسأله عَمَّا بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرُ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو المأمون على الدين والدنيا ، وقد كان من أمرِهِ وأمرِ عدوّهِ ما نَحْمَدُ اللهَ عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِلَ هذا الأمر شورى بين المسلمين ، كان أحقُّهم بها . ألا وإنّ البقاء في الجماعة ، والفناء في الفرقة ، وإنّ عليّاً حاملُكم على الحق ما استقمتم ؛ فإنّ ملتَمِ أقام منلكم . فقال الناس : سمعاً وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى عليّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

قال نصر : وكان مع عليّ رجل من طي ؛ ابن أخت لجرير ، فحَمَلَ زحر بن قيس شعرا له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَا تَرُدِّ الْمَدَى	بَايَعُ عَلِيًّا إِنِّي لَكَ نَاصِحُ
فَإِنْ عَلِيًّا خَيْرٌ مَنْ وَطِئَ الْخِصَاءَ	سِوَى أَحْمَدٍ ، وَالْوَتَّ غَادٍ وَرَاحُ
وَدَعُ عَنْكَ قَوْلَ النَّاكِثِينَ فَإِنَّمَا	أُولَاكَ أَبَا عَمْرٍو - كَلَابُ نَوَاجِحُ ^(١)
وَبَايَعُ إِذَا بَايَعْتَهُ بِنَصِيحَةٍ	وَلَا يَكُ مِنْهَا فِي ضَمِيرِكَ قَادِحُ
فَإِنَّكَ إِنْ تَطَلَّبُ بِهَا الدِّينَ تُمِطُهُ	وَإِنْ تَطَلَّبَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ رَاجِحُ ^(٢)

(١) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله البجلي .

(٢) وقعة صفين : « فيمك راجح » .

وإن قلتَ عثمان بن عفان حَقَّهُ على عَظِيمٍ والشُّكُورُ مُنَاصِحُ
 حَقُّ عليٍّ إذ وَلِيكَ كَحَقِّهِ وشكرُك ما وَلَّيْتَ في النَّاسِ صَالِحُ
 وإن قلتَ لا أرضى عليًّا إمامنا فدعْ عنك بجرًّا ضلَّ فيه السَّوَاحِجُ
 أبى الله إلا أنه خَيْرُ دَهْرِهِ وأفضل مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ الأَبَاطِحُ^(١)

قال نصر : ثم إن جريراً أقام في أهل همدان خطيباً ، فقال : الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد ، وتولاه دون خلقه ؛ لا شريك له فى الحمد ، ولا نظير له فى الجُود ، ولا إله إلا الله وَحْدَهُ ، الدائم القائم ، إله السماء والأرض ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالنور الواضح ، والحق الناطق ؛ داعياً إلى الخير ، وقائداً إلى الهدى ، ثم قال : أيها الناس ؛ إن علياً قد كتبَ إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول ، ولكن لا بدَّ من ردِّ الكلام . إن الناس بايعوا علياً بالمدينة عن غير محاباة له ببيعتهم ، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق ؛ وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير محاباة حدثت^(٢) ، وألبا عليه الناس ، ثم لم يرضيا حتى نَصَبَا له الحرب ، وأخرجوا أمَّ المؤمنين ، فلقيهما فأعذر فى الدعاء ، وأحسن فى البقية ، وحمل الناس على ما يعرفون ، فهذا عِيَان ما غاب عنكم ؛ وإن سألتهم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

أَتَانَا كِتَابُ عَلِيٍّ فَلَمْ نَرُدَّ الْكِتَابَ بِأَرْضِ الْعَجَمِ
 وَلَمْ نَعْصِ مَا فِيهِ لَمَّا آتَى وَلَمَّا نُدِّمَ وَلَمَّا نُنَمِّ
 وَنَحْنُ وَلَاؤُهُ عَلَى تَفَرُّنَا نَضِيمُ الْعَزِيزَ وَنَحْمِي الدَّمِ
 نُسَاقِيهِمُ الْمَوْتَ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِكَأْسِ الْمَنَايَا وَنُشْفِي الْقَرَمِ

(١) يريد بهم قريش البطاح ؛ وهم الذين ينزلون بين أخشى مكة ؛ والأخشان جبلان بها .
 (٢) ب : « على غير حدث » .

فصلى الإله على أحمد رسول الملك تمام النعم^(١)
 رسول الملك ومن بعده خليفتنا القائم المدعم
 علياً عنيت وصى النبي نجالد عنه غواة الأمم
 له الفضل والسبق والمكر مات وبيت النبوة لا يهتضم

قال نصر : فسر الناس بخطبة جرير وشعره .

وقال ابن الأزور القسري في جرير يمدحه بذلك :

لعمرُ أبيك والأنباء تنمي لقد جلى بخطبه جريرُ
 وقالَ مقالة جدعت رجالاتي من الحيين خطبهم كبيرُ
 بدا بك قبل أمته على^(٢) ومحك إن رددت الحق رير^(٣)
 أذاك بأمره زحر بن قيس وزحر بالتى حدثت خيرُ
 فكنت لما أذاك به سميماً وكدت إليه من فرح تطيرُ
 فأت بما سعدت به ولى وأنت لما تعد له نصيرُ
 وأحرزت الثواب ورب حادٍ حداً بالركب ليس له بعير^(٤)

[بيعة الأشعث لعلی]

قال نصر : ^(٤) وكتب علي عليه السلام إلى الأشعث - وكان عامل عثمان على أذربيجان -

(١) لم يذكر هذا البيت في كتاب صفين ، وذكر موضعه :

طحنائهم طحنةً بالقنا وضرب سيوف تطير اللم
 مضميناً يقيناً على ديننا ودين النبي مجلى الظلم
 أمين الإله وبرهانه خليفتنا القائم المدعم

(٢) يقال : منح رير ؛ إذا كان فاسداً .

(٣) بعده في كتاب صفين :

ليهنك ما سبقت به رجالاتي من العلياء والفضل الكبير

(٤) وقعة صفين ٢٤ .

يدعوه إلى البيعة والطاعة ، وكتب جرير بن عبد الله البجلي إلى الأشعث ، يحضه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبول كتابه : أما بعد ؛ فإنني أتتني بيعة على ، فقبلتها ولم أجذ إلى دفعها سيلا ؛ لأنني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان ، فلم أجده يلزمني ، وقد شهد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفق أمرهم فيه الوقوف ؛ فاقبل بيعته ؛ فإنك لاتنقلب إلى خير منه ؛ واعلم أن بيعته على خير من مصارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعث البيعة ، وسمع وأطاع ، وأقبل جرير سائرا من ثغر همدان ؛ حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه ، ودخل فيما دخل فيه الناس من^(١) طاعته ولزوم أمره .

[دعوة على معاوية إلى البيعة والطاعة ورد معاوية عليه]

قال نصر :^(٢) فلما أراد على عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولا ، قال له جرير : ابغثنى يا أمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يزل لي مستخصا^(٣) ووذا^(٤) ، آتية^(٥) فادعوه ؛ على أن يسلم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عمالك ، ما عمل بطاعة الله ، واتبع ما في كتاب الله ، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجلهم ترمي وأهل بلادى ، وقد رجوت ألا يعصوني .

فقال له الأشعث : لاتبعته ولا تصدقه ؛ فوالله إني لأظن هواه هوام ، ونيتته نيتهم .

فقال له على عليه السلام : دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا . فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إن حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرأي والدين من قد رأيت ، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك :

(١) ب : « في » .

(٢) وقعة صفين للنفري ٣٢ وما بعدها .

(٣) كذا في الأصول ، وفي صفين : « مستخصا » .

(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أي ذاود ؛ على حذف المضاف .

(٥) كتاب صفين . « نأية » .

« إِنَّكَ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ » ^(١) ، ائت معاوية بكتابي ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ ^(٢) إليه ، وأعلمه أتى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشام ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حَمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد يا معاوية ، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المضرين ، وأهلُ الحجاز ، وأهلُ اليمن ، وأهلُ مِصر ، وأهلُ العَروض - والعَروضُ عُمان - وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها ، لوسال عليها سيل من أوديته غرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتاب على عليه السلام ، وفيه :

أما بعد ؛ فإن بيعتي بالمدينة لزمّتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بُوعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرُدّ ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا على رجل فسمّوه ^(٣) إماما ، كان ذلك لله رضا ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قائلوه على اتباع سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى ، ويُصليهِ جهنم وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي ، فكان نقضهما كَرِدتَهما ، فجاهدتُهما على ذلك ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحبّ الأمور إلى فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك . وقد أكرّث في قتلةِ عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحلك

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : « المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ؛ ثم أرادوا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ۖ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

وإياهم على كتاب الله؛ فأمّا تلك التي تُريدها مُخدّعة الصبيّ عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنّك من الطلّقاء ^(١) الذين لا يحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرّض فيهم الشورى . وقد أرسلتُ إليك [وإلى من قبلك] ^(٢) جرير بن عبد الله البجليّ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله .

فلما قرأ الكتاب، قام جرير فخطب، فقال :

الحمد لله الحمود بالعوائد ، المأمول منه الزوائد ، المرتجى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمده وأستعينه في الأمور التي تحيّر دونها الأبواب ، [وتضمحل عندها الأسباب] ^(٣) ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بعد فترةٍ من الرسل الماضية ، والقرون الخالية ، [والأبدان البالية ، والجبلة الطاغية] ^(٢) ، فبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وأدى الحقّ الذي استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته . صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتعث ومنتجب ^(٣) وعلى آله .

أيها الناس ؛ إنّ أمرَ عثمان قد أعيّا من شهبه ، فكيف بمن غاب عنه ! وإنّ الناس بايعوا عليّاً غير واثق ولا مواتور ؛ وكان طلحة والزبير يمان بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدّث ، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفتن ؛ [ألا وإنّ العرب لا تحتمل الفتن] ^(٢) ، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحمة أن يشفعّ البلاء بمثلها ، فلا بقاء للناس .

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .

(٢) تكملة من كتاب صفين .

(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة^(١) عليًا ، ولو ملكنا والله الأمور^(٢) ، لم نختار لها غيره . فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزني ؛ فإن هذا قول لو جاز لم يقيم الله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ؛ ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضا .
ثم قعد .

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأي أهل الشام .
فمضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادي : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانًا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ؛ جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلهم أرض الشام^(٣) ، ورضيهم لها ، ورضيها لهم ، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناحتهم خلفاءه ، والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرُماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفي سبيل الخيرات أعلاما ؛ يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتمام ، وتباعد بعد القرب . اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة^(٤) دماءنا ، وإخافة سُبُلنا . وقد علم الله أننا لا نريد لهم^(٥) حِقَابا ، ولا نهتِك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زلقا ؛ غير أن الله الحميد كَسَانَا

(١) صفين : « العامة » .

(٢) صفين : « أمورنا » .

(٣) صفين : « فأحلها أهل الشام » .

(٤) صفين : « هراقة دماءنا » ، وما بمعنى .

(٥) صفين : « لم نرد بهم عقابا » .

من الكرامة ثوبان نزرعه طوعاً ؛ ما جواب الصّدّي ، وسقط الندي ، وعرف الهدى ؛
حملهم على ذلك البغى والحسد ؛ فنستعين الله عليهم . أيها الناس ، قد علمتم أني خليفة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم ؛ وأني لم أقم رجلاً منكم على
خزاية ^(١) قط ، وأني ولي عثمان ؛ وقد قتل مظلوماً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ^(٢) ، وأنا أحب
أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك ، وأوثقوا له
على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم ؛ حتى يذكروا بشاره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتم بما هو فيه ، وجنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَاعْتَرَّتْنِي وَسَاوِسِي	لَا تَأْتِي بِاللَّتْرِ هَاتِ الْبَسَاسِ ^(٣)
أَتَانِي جَرِيرٌ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ	بَتَلَكِ الَّتِي فِيهَا اجْتِدَاعُ الْمَعَاطِسِ
أَكِيدُهُ وَالسَيْفُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ	وَلَسْتُ لِأَثْوَابِ الدُّنْيَا بِبَلَّاسِ
إِنَّ الشَّامُ أَعْطَتْ طَاعَةً يَمْنِيَّةً	تَوَاصَفَهَا أَشْيَاخُهَا فِي الْمَجَالِسِ
فَإِنْ يَفْعَلُوا أَضْدَمَ عَلَيَا بِجَنَّةٍ	تَفْتُ عَلَيْهِ كُلَّ رَطْبٍ وَيَابَسِ
وَإِنِّي لِأَرْجُو خَيْرَ مَا نَالَ نَائِلٌ	وَمَا أَنَا مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقِ بِبَاسِ

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله : « ليس في الجبهة صدقة » ،
أي زكاة .

(١) على الخزاية ؛ أي حملهم على أمر يستحيا منه .

(٢) سورة الإسراء ٣٣ .

(٣) البساس : الأمور الباطلة . والأبيات والخبر في الكامل : ١٨٤ (طبع أوروبا) .

(٤) الكامل : « بيأس » .

قال نصر : فاستحنته ^(١) جرير بالبيعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلغني ربي [حتى أنظر] ^(٢) ، ودعا ثقاته ^(٣) ؛ فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص ، وقال له : إنه من قد عرفت ، وقد اعتزل عثمان في حياته ؛ وهو لأمر أشد اعتزالا إلا أن يضمن له دينه ^(٤) .

وقد ذكرنا فيما تقدم خبر استدعائه عمراً ، وما شرط له من ولاية مصر ، واستقدمه شرحبيل بن السمط رئيس اليمينية وشيخها والمقدم عليها ، وتدسيس الرجال إليه بفرونيه بعلی عليه السلام ، ويشهدون عنده أنه قتل عثمان ، حتى ملثوا صدره وقلبه حقداً وترّة وإحنة . فلي على عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته ^(٥) .

قال نصر : فحدثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني ، قال :

^(٥) جاء شرحبيل إلى حصين بن نمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حصين ابن نمير إلى جرير : أن زُرنا فعندنا شرحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلم شرحبيل ،

(١) وقعة صفين ٢٤٩

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣-٣) وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبي سفيان - وكان نظيره - : اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ابن العاص ، وأئمن له دينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته ؛ وهو لأمر أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة . »

(٤) الجزء الثاني من ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هذا الخبر كما ورد في كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حببت نفسي عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأناظر ؛ فخرج فلقبه هؤلاء النفر الموطئون له ؛ فسكهم يخبره بأن علياً قتل عثمان بن عفان . فخرج مفضبا إلى معاوية فقال : يا معاوية ؛ أباي الناس إلا أن علياً قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك . قال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم ؛ وما أنا إلا رجل أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا . قال : فمرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير ... » ؛ وقد نقله المؤلف مختصراً فيما سبق في الجزء الثاني من ٥٢-٥٣ .

فقال : يا جرير أتيتنا بأمر مُلَقَّف ^(١) لِنُلقِيَنَّا في لَهَوَاتِ الأسد ، وأردتَ أن تَخْلِطَ الشام بالعراق ، وأطريت ^(٢) عليا ، وهو قاتل عثمان ، والله سائلُك عَمَّا قلتَ يومَ القيامة .

فأقبل عليه جريرٌ وقال : يا شَرَحْبِيل ، أما قولُك : إني جئتُ بأمر مُلَقَّف ؛ فكيف يكون ملقفاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، وقوتل على رَدِّه طلحة والزبير !

وأما قولُك : إني ألقيك في لهوات الأسد ، ففي لَهَوَاتِها أَلقيتَ نفسك .

وأما خلطُ أهلِ الشام بأهلِ العراق ، فخطبُهما على حقٍّ ، خيرٌ مِن فرقتهما على باطل .

وأما قولُك : إنَّ علياً قَتَلَ عثمان ، فوالله ما في يدك من ذلك إلا القَذْفُ بالغَيْبِ مِن مكان بعيد ؛ ولكنَّكَ مِلْتَ إلى الدنيا ؛ وشيءٌ كان في نفسك على زمان سعد ابن أبي وقاص !

فبلغ ما قالاه إلى معاوية ، فبعث إلى جرير فزجره . قال نصر : وكتب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه ^(٣) . فيه :

شَرَحْبِيلُ يَا بْنَ السَّمْطِ لَا تَتَّبِعْ نَمُوْى	فَاللَّكْ فِي الدُّنْيَا مِنْ الدِّينِ مِنْ بَدَلْ
وَلَا تَكُ كَالْمُجْرِمِ إِلَى شَرٍّ غَايَةٍ	فَقَدْ خُرِّقَ السَّرْبَالُ وَاسْتَنَوَقَ الْجَلْدُ
وَقُلْ لَابْنَ حَرْبٍ مَالِكِ الْيَوْمِ خَلَّةٌ	تُرُومُ بِهَا مَا رُمْتَ وَاقْطَعْ لَهُ الْأَمْلُ ^(٤)
شَرَحْبِيلُ إِنَّ الْحَقَّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ	فَكُنْ فِيهِ مَأْمُونٌ الْأَدِيمُ مِنَ النَّفْلِ
وَأَرُوذُ وَلَا تُفْرِطْ بِشَيْءٍ نَخَافُهُ	عَلَيْكَ ، وَلَا تَمَجَّلْ فَلَا خَيْرَ فِي الْعَجَلِ

(١) ملقف : غير محكم .

(٢) صفين : « أطرات » ، وهما بمعنى : « مدحت »

(٣) وقعة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .

(٤) وقعة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .

وَقَالَ ابْنُ هَنْدٍ فِي عَلِيٍّ عَضِيْبَةً
وَمَا مِنْ عَلِيٍّ فِي ابْنِ عَفَّانٍ سَقَطَةٌ
وَمَا كَانَ إِلَّا لَازِمًا قَمَرٍ بَيْتِهِ
فَمَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَ هَذَا فَحَسْبُهُ
وَصِيَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ
وَلِلَّهِ فِي صَدْرِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَجَلٌ^(١)
بِقَوْلِهِ ، وَلَا مَالًا عَلَيْهِ وَلَا قَتْلَ^(٢)
إِلَى أَنْ أَتَى عُمَانَ فِي دَارِهِ الْأَجَلَ
مِنَ الزُّوْرِ وَالْبُهْتَانِ بَعْضُ الَّذِي احْتَمَلَ
وَمَنْ بِاسْمِهِ فِي فَضْلِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ^(٣)

قال نصر: فلما قرأ شرحبيل الكتاب ذُِعِرَ وفكَّرَ ، وقال : هذه نصيحة لي في ديني ،
ولا والله لا أمجل في هذا الأمر بشيء ، [وفي نفسى منه حاجة]^(٤) ، وكاد^(٥) يحول عن نصر
معاوية ويتوقف^(٦) ، فللقى^(٧) له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون ، ويظلمون عنده قتلاً
عثمان ، ويرمونه به علياً ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والكتب المختلفة ؛ حتى أعادوا
رأيه ، وشجذوا عزمه^(٨) .

(١) العضية : الإفك والبهتان .

(٢) مالا عليه ، أصله : « مالا » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفي صفين : « ولا جلب عليه » .

(٣) في صفين :

* من الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ قَوْلُ الَّذِي احْتَمَلَ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .

(٥-٥) في وقعة صفين : « واستتر له القوم » .

(٦) كذا في ج ، وفي أ ، ب ، « فلقوله » تصحيف ، وفي صفين : « فلف » .

(٧) بقية الخير فيما نقل عن كتاب وقعة صفين : « وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخت له من بارق - وكان يرى رأى علي بن أبي طالب - فبايعه بعد ، وكان بمن لحق من أهل الشام ، وكان فاسكا ، فقال :

لِعَمْرِ أَبِي الْأَشْثَى ابْنِ هَنْدٍ لَقَدْ رَمَى
وَلَقَفَ قَوْمًا يَسْحَبُونَ ذِيولَهُمْ
فَأَلْنَى يَمَانِيًّا ضَعِيفًا نَحَاةُ
فَطَاطَا لَهَا لَمَّا رَمَوْهُ بِثِقَلِهَا
شَرَحْبِيلَ بِالسَّهْمِ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ
جَمِيعًا وَأَوَّلَى النَّاسِ بِالذَّنْبِ فَأَعْلَهُ
إِلَى كُلِّ مَا يَهْوُونَ تُحْدِي رَوَاحِلُهُ
وَلَا يَرْزُقُ التَّقْوَى مِنَ اللَّهِ خَاذِلُهُ =

(٦ - نهج - ٢)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال : ^(١) بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل ابن السَّمُط :

إنه قد كان من إجابتك إلى الحق ، وما وقع فيه أجرك على الله ، وقبله عنك صلحاء الناس ما علمت ؛ وإن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتم إلا برضا العامة ، فسر في مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه . فسار شُرَحْبِيل ، فبدأ بأهل حمص ، فقام فيهم خطيبا - وكان مأمونا في أهل الشام ناسكا متألها ، فقال :

أيها الناس ، إن عليا قتل عثمان ، فغضب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ، فلقبهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض ، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خاض غمرات ^(٢) الموت ، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمرا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجدوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلهم إلا نساكا من أهل حمص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتنا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرَحْبِيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها ، لا يأتى على قوم إلا قبلوا

= لِيَأْكُلْ دُنْيَا لَابْنِ هَنْدٍ بِدِينِهِ أَلَا وَابْنُ هَنْدٍ قَبْلَ ذَلِكَ آكِلُهُ
وَقَالُوا عَلَى فِي ابْنِ عَفَانَ خَدْعَةً وَدَبَّتْ إِلَيْهِ بِالشَّيْطَانِ غَوَائِلُهُ
وَالَّذِي أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ لَقَدْ كَفَّتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَوَسَائِلُهُ
وَمَا كَانَ إِلَّا مِنْ صَحَابِ مُحَمَّدٍ وَكَلَّمَهُمْ تَغْلِي عَلَيْهِ مَرَاجِلُهُ

فلما بلغ شُرَحْبِيل هذا القول قال : هذا بيعت الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلبي ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتني ؛ فهرب الفتي إلى الكوفة - وكان أصله منها - وكاد أهل الشام أن يرتابوا .

(١) في صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٢) صفين : « غبار الموت » .

مأثام به ، فبعث إليه النجاشي بن الحارث^(١) - وكان له صديقا :

شُرَحْبِيلُ مَالِدِّينَ فَارَقَتْ دِينَنَا^(٢) وَلَكِنْ لِبَغْضِ الْمَالِكِيِّ جَرِيرٍ
وَشَحْنَاءَ دَبَّتْ بَيْنَ سَعْدٍ وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحْتَ كَالْحَادِي بَغِيرِ بَعِيرٍ
[وَمَا أَنْتَ ، إِذْ كَانَتْ بِجِلَّةٍ عَاتِبَتْ قَرِيشًا فَيَا اللَّهَ بُغْدَ نَصِيرٍ]^(٣)
أَتَفْصِلُ أَمْرًا غَبَّتْ عَنْهُ بِشْبَهَةٍ وَقَدْ حَارَ فِيهِ عَقْلُ كُلِّ بَصِيرٍ
يَقُولُ رِجَالٍ لَمْ يَكُونُوا أُمَّةً وَلَا لِلَّتِي لَقَوْكَهَا بِحُضُورٍ
[وَمَا قَوْلُ قَوْمٍ غَائِبِينَ تَقَافُوا مِنْ الْغَيْبِ مَا دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ]^(٤)
وَتَرَكْ أَنْ النَّاسَ أَعْطَوْا عَهْدَهُمْ عَلِيًّا عَلَى أَنْسٍ بِهِ وَسُرُورٍ
إِذَا قِيلَ هَاتُوا وَاحِدًا يَقْتَدِي بِهِ نَظِيرًا لَهُ لَمْ يُفْصِحُوا بِنَظِيرٍ
لَعَلَّكَ أَنْ تَشْقَى الْغَدَاةَ بِحَرِّهِ فَلَيْسَ الَّذِي قَدْ جِئْتَهُ بِصَغِيرٍ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن نُمَيْرِ بْنِ وَعْلَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، أَنَّ شُرَحْبِيلَ بْنَ السَّمُطِ
ابْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ جَبَلَةَ [السَّكَنْدِيَّ]^(١) دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ عَامِلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَابْنِ عَمَّةٍ ، وَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ ، فَإِنْ كُنْتَ رَجُلًا تُجَاهِدُ عَلِيًّا وَقَتْلَةُ عُثْمَانَ حَتَّى نَذْرِكَ ثَارَنَا
أَوْ تَذْهَبَ أَرْوَاحُنَا اسْتَعْمَلْنَاكَ عَلَيْنَا ؛ وَإِلَّا عَزَلْنَاكَ وَاسْتَعْمَلْنَا غَيْرَكَ مِنْ نَزِيدٍ ، ثُمَّ جَاهَدْنَا
مَعَهُ حَتَّى نَذْرِكَ بِدَمِ عُثْمَانَ أَوْ نَهْلِكَ .

فقال جرير بن عبد الله - وكان حاضرا : مهلاً يا شُرَحْبِيلُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَقَّنَ الدَّمَاءَ ،
وَلَمْ يَشْعَثْ ، وَجَمَعَ أَمْرَ الْأُمَّةِ ، وَدَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَكُونٌ ؛ فَيَاكَ أَنْ تُفْسِدَ بَيْنَ النَّاسِ ،

(١) في حواشي صفين : « والمعروف في شعرائهم النجاشي الحارثي ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛
من بني الحارث بن كعب ؛ وهو من حدة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب اشربه الخمر » .
(٢) وقعة صفين : « أمرنا » .
(٣) من كتاب وقعة صفين .
(٤) وقعة صفين : « تقتدونه » .

وَأَمْسِكْ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ قَبْلَ أَنْ يَشْمَعَ وَيُظْهِرَ عَنْكَ قَوْلٌ لَا تَسْتَطِيعَ رَدَّهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَسْرَهُ أَبَدًا . ثُمَّ قَامَ فَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَقَالَ النَّاسُ : صَدَقَ صَدَقَ ! الْقَوْلُ مَا قَالُ ، وَالرَّأْيُ مَا رَأَى . فَأَيِسَ جَرِيرٌ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ مَعَاوِيَةَ وَمِنْ عَوَامِ أَهْلِ الشَّامِ .

قَالَ نَصْرٌ : ^(١) وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ الْجُرْجَانِيِّ ، قَالَ : كَانَ مَعَاوِيَةُ قَدْ أَتَى جَرِيرًا قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَنْزِلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا جَرِيرُ ! إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا ، قَالَ : هَاتِهِ ، قَالَ : أَكْتُبُ إِلَى صَاحِبِكَ يَجْعَلُ لِي الشَّامَ وَمَصْرَ جَبَايَةِ ، فَإِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ فِي عُنُقِي بَيْعَةً ، وَأَسْلَمَ لَهُ هَذَا الْأَمْرُ ؛ وَأَكْتُبُ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ . فَقَالَ جَرِيرٌ : أَكْتُبْ مَا أَرَدْتُ أَكْتُبْ مَعَكَ ^(٢) .

فَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ بِذَلِكَ إِلَى عَلِيٍّ ، فَكُتِبَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ إِلَى جَرِيرٍ :
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا أَرَادَ مَعَاوِيَةُ أَلَّا يَكُونَ لِي فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ ، وَأَنْ يَخْتَارَ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَحَبَّ ، وَأَرَادَ أَنْ يُرِيثَكَ وَيُبْطِئَكَ ، حَتَّى يَذُوقَ أَهْلُ الشَّامِ ؛ وَإِنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ قَدْ كَانَ أَشَارَ عَلَى أَنْ أَسْتَعْمَلَ مَعَاوِيَةَ عَلَى الشَّامِ ، وَأَنَا حِينْتُذُ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَيَّتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِي رَأْيَ أَنْ أَخْذَ الْمُضِلِّينَ عَصْدًا ، فَإِنْ بَايَعَكَ الرَّجُلُ ؛ وَإِلَّا فَأَقْبِلْ . وَالسَّلَامُ .

قَالَ نَصْرٌ : وَفُشَا كِتَابُ مَعَاوِيَةَ فِي الْعَرَبِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ^(٣) الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ :

مَعَاوِيَ إِنَّ الشَّامَ شَأْمُكَ فَاعْتَصِمْ بِشَايِكَ لَا تُدْخِلْ عَلَيْكَ الْأَفَاعِيَا
وَحَامٍ عَلَيْهَا بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَآ وَلَاتِكُ مُوَهُونَ الذَّرَاعِينَ وَإِنِّيَا ^(٤)
وَإِنْ عَلِيَا نَظَرُ مَا تَجِيبُهُ فَأَهْدِ لَهُ حَرْبًا تُشِيبُ النَّوَاصِيَا

(١) وقعة صفين ٨٨

(٢) صفين : « أَكْتُبْ مَا أَرَدْتُ وَأَكْتُبْ مَعَكَ »

(٣) كلمة « إِلَيْهِ » ساقطة من أ .

(٤) صفين : « بِالْقَنَابِلِ . . . مَحْشُوشِ الذَّرَاعِينَ » .

وإلا فسلم إن في السلم راحةً لمن لا يريد الحرب فاختار معاوية
وإن كتابا يابن حرب كتبته على طمع ، يزجي إليك الدواهي
سألت عليًا فيه مألن تناله ولو نلته لم يبق إلا لياليا
وسوف ترى منه التي ليس بعدها بقاء ، فلا تكثر عليك الأمانيا
أمثل عليّ تعتريه بخدعة وقد كان ما جرّبت من قبل كافيا !

قال: وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية أيضا يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب

جواب جرير :

معاوي إن الملك قد جب غاربه وأنت بما في كفك اليوم صاحبه
أناك كتاب من علي بخطه هي الفصل فاختار سلمه أو تحاربه
فلا ترج عند الواترين مودة ولا تأمن اليوم الذي أنت راهبه
وحاربه إن حاربت حرب ابن حرة وإلا فسلم لا تدب عقاربه^(١)
فإن عليًا غير صاحب ذيله على خدعة ماسوغ الماء شاربته
[ولا قابل ما لا يريد وهذه يقوم بها يومًا عليه نوادبه]^(٢)
فلا تدعن الملك والأمر مقبل وتطلب ما أعيت عليه مذهبته
فإن كنت تنوى أن تجيب كتابه فقبح ممليه وقبح كاتبه
وإن كنت تنوى أن ترد كتابه وأنت بأمر لا محالة رابكه
فألق إلى الحى اليماني كلمة تنال بها الأمر الذي أنت طالبه
تقول: أمير المؤمنين أصابه عدو وما لاهم عليه أقاربه
أفانين منهم قائل ومحرض بلا تررة كانت ، وآخر سالبه

(١) ب : « حرا بن حرة » ، والصواب ما أثبتته من ا ، ج وكتاب صفين .

(٢) من كتاب صفين .

وكنْتُ أَمِيرًا قَبْلُ بِالشَّامِ فِيكُمْ فحسبي وإياكم من الحقِّ واجِبُهُ
لجِئْتُ ، وَمَنْ أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ تُدَافِعُ بَحْرًا لَا تَرُدُّ غَوَارِبُهُ ^(١)
فَاقْلِلْ وَأَكْثِرْ مَا لَهَا الْيَوْمَ صَاحِبُ سَوَاكَ فَصَرِّخْ لَسْتُ مِمَّنْ تُوَارِبُهُ

قال نصر : وخرج جرير يوما يتجسس الأخبار ؛ فإذا هو بـغلام يتغنى على قعود له ،

وهو يقول :

حُكَيْمٌ وَعَمَّارُ الشَّجَا وَمُحَمَّدٌ كَذَا اشْتَرَا الْمَكْشُوحَ جَرَّوَا الدَّوَاهِيَا ^(٢)
وَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلزُّبَيْرِ عِجَاجَةٌ وَصَاحِبُهُ الْأَدْنَى أَثَارُوا الدَّوَاهِيَا ^(٣)
فَأَمَّا عَلَى فَاسْتَجَارَ بَيْتَهُ فَلَا أَمْرَ فِيهَا وَلَمْ يَكُ نَاهِيَا
فَقُلَّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ مَا شِئْتَ بَعْدَهُ فَلَوْ قُلْتَ أَخْطَا النَّاسُ لَمْ تَكُ خَاطِيَا
وَإِنْ قُلْتَ عَمُ الْقَوْمُ فِيهِ بِفِتْنَةٍ فَحُسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ كَافِيَا
فَقُولَا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَخُصَا الرِّجَالِ الْأَقْرَبِينَ الْأَدَانِيَا
أَبْقَتُلُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بَيْنَكُمْ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ لَيْسَ إِلَّا نَعَامِيَا
فَلَا نَوْمَ حَتَّى نَسْتَبِيحَ حَرِيمَكُمْ وَنُخْضِبَ مِنْ أَهْلِ الشَّنَانِ الْعَوَالِيَا

فقال جرير : يا بن أخى ، مَنْ أَنْتَ ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلى من ثَقِيف ،

أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق ، قُتِلَ أَبِي مع عثمان يوم الدار . فعجب جرير

(١) كذا فى ج ، وصفين ، وفى ا ، ب : « تَجِيءُوا » ، والفوارب : أعلى الموج .

(٢) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى ، كان عثمان بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادى ، واسمه هيرة بن هلال ، ونسبه فى نسخة .

(٣) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى عليّ عليه السلام ، فقال عليّ : والله ما أخطأ الغلام شيئاً .

قال نصر : ^(١) وفي حديث صالح بن صدقة ، قال : أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى أتتهم الناس ، وقال عليّ عليه السلام : قد وقتُ لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً ، وأبطأ كلّي عليّ حتى أيس منه .

قال : وفي حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل ؛ ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزية ^(٢) أو سلم مُحطية ، فإن اختارَ الحرب فابذ إليه ، وإن اختار السلم فخذ به بيعة . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فأقرأه الكتاب ، وقال له : يا معاوية ؛ إنه لا يطبع على قلب إلا بذنب ، ولا يُشرح صدر إلا بتوبة ، ولا أظن قلبك إلا مطبوعاً عليه ، أراك قد وقفت بين الحق والباطل ، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك .

فقال معاوية : ألقاك بالفصل ^(٣) في أول مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهل الشام بعد أن ذاقهم ، قال : يا جرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرب ، وكتب في أسفل الكتاب شعره : بن جُمَيل :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ هُمْ كَارِهُونَا

(١) وقعة صفين ٦١

(٢) صفين : ٥ مجلة .

(٣) صفين : ٥ بالفصل .

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب " الكامل " ^(١) : إن عليًا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية ، قال : والله يا أمير المؤمنين ما أدخرك من نُصرتي شيئاً ، وما أطمع لك في معاوية . فقال عليّ عليه السلام : إنما قصدى حُجة إقيمها [عليه] . ^(٢) فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة ، فقال له جرير : إن المنافق لا يصلّي حتى لا يجد من الصلاة بُدّاً . فقال معاوية : إنها ليست بخدعة الصبي عن اللب ، فأبلغني ريق ^(٣) ، إنه أمر له ما بعده .

قال : وكتب مع جرير إلى عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه إليه : من معاوية ابن صخر إلى عليّ بن أبي طالب ؛ أما بعد : فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ؛ ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعتك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ؛ حتى تدفع إليهم قتلّة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، واعمري ^(٤) ليس حُجبتك عليّ كحجبتك على طلحة ، والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أباعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يُطعك أهل الشام . فأما شرفك في الإسلام ، وقرابتك من النبي صلى الله عليه وموضعتك من قریش ، فلست أدفعه .

(١) الكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها - بشرح الرصني ؛ مع تصرف في الخبر .

(٢) من كتاب الكامل .

(٣) أي أنظرني بمقدار ما أبلغ ريق

(٤-٤) الكامل : « ما حجتك على كحجتك على طلحة . . . » .

ثم كتب في آخر الكتاب شعر كعب بن جعيل الذى أوله :
أَرَى الشَّامَ تَسْكُرُهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهُونَا

قال أبو العباس المبرد^(١) رحمه الله تعالى : ^(٢) « فكتب إليه عليّ عليه السلام جوابا عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب ^(٣) :

أما بعد ؛ فإنه أتاني منك كتابٌ أمرى ليس له بصَرٌّ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ؛ وقاده الضلال فأتبعه ، زعمت أنك إنما أفسد عليك بِنِعَتِي خَطِئْتِي في عُثْمَانَ ، ولَعَمْرِي ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرتُ كما أصدروا ؛ وما كان الله ليَجْمَعَهُمْ عَلَى الضلال ، ولا ليَضْرِبَهُم بِالْعَمَى . وبعد ، فما أنت وعثمان ! إنما أنت رجل من بني أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البصرة ، فلعمري ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعي من قریش ، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النجاشيَّ أحد بني الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابنَ جُعَيْلٍ شاعرُ أهل الشام ، وأنت شاعرُ أهل العراق ، فأجب الرجل . فقال : يا أمير المؤمنين ، أسمعني قوله ، قال : إذن أسمعك شعرَ شاعر ، ثم أسمع ، فقال النجاشيُّ يحبيه :

(١) في السكامل ٣ : ٢٢٤ - بشرح الرصني ؛ وذكره المنقري في كتاب صفين ٦٤ - ٦٥
(٢-٢) في السكامل : « فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة :
بسم الله الرحمن الرحيم من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر » .

دَعَا يَا مُعَاوِيَ مَا لَن يَكُونَا فَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَحْذَرُونَا
 أَنَا كُمْ عَلَىٰ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَ ^(١)
 عَلَىٰ كُلِّ جَرْدَاءٍ خَيْفَانَةٌ ^(٢) وَأَشْعَثَ نَهْدٍ بِسُرِّ الْعِيُونَا ^(٣)
 عَلَيْهَا فَوَارِسُ مَخْشِيَةٍ كَأَسَدِ الْعَرَبِينَ حَمِينَ الْعَرَبِينَا
 يَرَوْنَ الطَّعَانَ خِلَالَ الْعَجَاجِ وَضَرَبَ الْفَوَارِسِ فِي النَّفْعِ دِينَا ^(٤)
 هُمُ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمَعَ الرُّبَيْرِ وَطَلَحَةَ وَالْمَعْشِرِ النَّا كَثِينَا
 وَأَلَا يَمِينًا عَلَىٰ خَلْفَةٍ لِنَهْدِي إِلَى الشَّامِ حَرْبًا زَبُونَا ^(٥)
 تُشِيبُ النَّوَاهِدَ قَبْلَ الْمَشِيبِ وَتُنْقِي الْحَوَامِلُ مِنْهَا الْجَنِينَا ^(٦)
 فَإِنْ تَكَرَّهُوا الْمُلُوكَ مُلُوكَ الْعِرَاقِ فَقَدْ رَضِيَ الْقَوْمُ مَا تَكَرَّهُونَا
 فَقُلْ لِلْمُضَلِّ مِنْ وَائِلٍ وَمَنْ جَعَلَ أَلْفَتْ يَوْمًا سَمِينَا
 جَعَلْتُمْ عَلَيْنَا وَأَشْيَاءَهُ نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ أَمَا تَسْتَحُونَا!
 إِلَى أَفْضَلِ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَصِنُو الرَّسُولِ مِنَ الْعَالَمِينَا
 وَصِهْرِ الرَّسُولِ وَمَنْ مِثْلُهُ إِذَا كَانَ يَوْمٌ يُشِيبُ الْقُرُونَا!

قلت : أبيات كعب بن جُعيل ؛ خيرٌ من هذه الأبيات ، وأخبر مقصداً وأدهى وأحسن .

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرسالة بعد قوله : « ولا ليضربهم بالعمى » :
 « وما ألبت ^(٦) فتلزميني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فيجب على القصاص . وأما قولك إنَّ

(١) لم يذكر المبرد في الكامل سوى هذين البيتين ، وقاء : « وبعد هذا ما تمسك عنه » .

(٢) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والخيفانة : الحقيفة الوثابة . والنهد من الخيل : الجسيم المشرف

(٣) النقع : التراب .

(٤) صفين : « وقالوا » . والإبلاء : الحلف

(٥) صفين : « تشيب النواهد » .

(٦) ما ألبت ، أى ما حرضت . وفي صفين : « وما أمرت »

أهل الشام هم الحكم على أهل الحجاز ، فهات رجالاً من أهل الشام يقبل في الشورى ، أو تحل له الخلافة ، فإن زعمت ذلك كذبك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتك به من قريش الحجاز . وأما ولوعك بى فى أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حق العيان ، ولا يقين الخبر^(١) .

وهذه الزيادة التى ذكرها نصر بن مزاحم ، تقتضى أنه كان فى كتاب معاوية إليه عليه السلام أن أهل الشام هم الحكم على أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام فى كتابه .

[أخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما^(٢) قُتِلَ عثمانُ ضَرَبَت الرِّكبان إلى الشام بقتله ، فبينما معاوية يوماً إذا أقبل رجل مثله ، فكشف عن وجهه ، وقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، أتعرفنى ؟ قال : نعم ؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصمة ، فأين تريد ؟ قال : إليك القربان ، أنعى ابن عفان ، ثم قال :

إن بنى عَمَّكَ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ كَذِبِ
وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْوُثْبِ وَاغْضَبَ مُعَاوِيَةَ لِلْإِلَهِ وَاحْتَسِبِ
وَسِرُّ بِنَا سَيْرِ الْجَرِيرِ الْمُتَنَبِّ وَانْهَضَ بِأَهْلِ الشَّامِ تَرَشُّدُ وَتُصِيبِ
ثُمَّ اهْزُرِ الصَّعْدَةَ لِلشَّاسِ الشَّيْبِ^(٣)

قال : يعنى عليا عليه السلام .

قلت : المتنب المستقيم المطرد ، يقال : هذا قياسٌ متنبٌ ، أى مستمرٌ مطرد .

(١) الخبر : العلم

(٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧

(٣) الصعدة ، بالفصحى : القناة المستوية .

ويقال : مكان شأس ، أى غليظ صلب . والشَّغْب : الهاج للشر ، ومن رواه : « للشاسى » بالياء فأصله « الشاصى » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحاب إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة على عليه السلام إلى التيه والترفع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مهز ، فقال : نعم ، فقال : أخبر الناس ، فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين - ولم يخاطب معاوية بـ « أمير المؤمنين » قبلها - إني كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد القسرى ، مغينا لعثمان ، فقدمت أنا وزفر بن الحارث ، فلقينا رجلا زعم أنه ممن قتل عثمان ، فقتلناه ؛ وإني أخبرك يا أمير المؤمنين ، أنك لتقوى على بدون ما يقوى به عليك ؛ لأن معك قوما لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ وإن مع على قوما يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه . واعلم أنه لا يرضى على إلا بالرضا ، وأن رضا سخطك ، ولست وعلى سواء ؛ على لا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاق معاوية صدرا بما أتاه ، وندم على خذلان عثمان ^(١) وقال :

أَنَا نِيْ أَمْرٌ فِيْهِ لِلنَّفْسِ غَمَّةٌ	وَفِيْهِ بَكَاءٌ لِلْعُمُيُونِ طَوِيلُ
وَفِيْهِ فَنَاءٌ شَامِلٌ وَخَزَايَةٌ	وَفِيْهِ اجْتِدَاعٌ لِلْأَنْوْفِ أَصِيلُ
مَصَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهَذِهِ	تَكَادُ لَهَا صَمَّ الْجِبَالِ تَزُولُ
فَلَلْهُ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ هَآلِكَ	أَصِيبَ بِلَا ذَنْبٍ زَذَاكَ جَلِيلُ !
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ	فَرِيقَانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وَخَذُولُ
دَعَاهُمْ فَصَمُّوا عَنْهُ عِنْدَ دُعَائِهِ	وَذَاكَ عَلَى مَا فِي النَّفُوسِ دَلِيلُ
نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَبَعِي الْهَوَى	وَقَصْرِي فِيهِ حَسْرَةٌ وَعَوِيلُ ^(٢)

(١) وقعة صفين : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .

(٢) قصرى فيه ؛ أى حسى .

سَأْبَنِي أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُتَقَفٍ^(١) وَبَيْضٍ لَهَا فِي الدَّارِ عَيْنَ صَلِيلٍ^(٢)
 تَرَكْتِكِ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ شَجَاكَ فَمَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ أَقُولُ !
 فَلَسْتُ مَقِيماً مَاحِيَتُ بِلَدَةٍ أَجَرَ بِهَا ذَلِيلِي وَأَنْتِ قَتِيلُ
 فَلَا نَوْمَ حَتَّى تُشَجَّرَ الْخَلِيلُ بِالْقَنَا وَيُسْفَى مِنَ الْقَوْمِ الْغَوَاةُ غَلِيلُ^(٣)
 وَنَطَحْنَهُمْ طَحْنَ الرَّحَا بِثِفَالِهَا وَذَلِكَ بِمَا أَسَدَوْا إِلَيْكَ قَلِيلُ^(٤)
 فَأَمَّا الَّتِي فِيهَا مَوْدَةٌ بَيْنَنَا فَلَيْسَ إِلَيْهِ مَا حَيَّتُ سَبِيلُ
 سَأُلْقِيهَا حَرّاً بِأَعْوَانَا مُلْحَةً وَإِنِّي بِهَا مِنْ عَامِنَا لَكَفِيلُ^(٥)

قال نصر : وافتخر الحجاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية

بإمرة المؤمنين .

قال نصر : ^(١) وحدثنا صالح بن صدقة ، عن ابن إسحاق ، عن خالد الخزازي وغيره من
 لا يُتَبَّهَمُ ، أن عثمان لما قُتِلَ وَأَتَتْ مَعَاوِيَةَ بَكْتَابٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَزْلِهِ عَنِ الشَّامِ ، صَعِدَ الْمَنْبَرُ وَنَادَى
 فِي النَّاسِ أَنْ يَحْضَرُوا ، فَحَضَرُوا ، فَخَطَبَهُمْ . فحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ، ثُمَّ قَالَ :
 يَا أَهْلَ الشَّامِ ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ خَلِيفَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَخَلِيفَةَ عُثْمَانَ ، وَقَدْ قُتِلَ
 وَأَنَا ابْنُ عَمِّهِ وَوَلِيَّهُ ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا ﴾ ^(٢)
 وَأَنَا أَحَبُّ أَنْ تَعْلَمُونِي مَا فِي نَفْسِكُمْ مِنْ قَتْلِ خَلِيفَتِكُمْ .

(١) وقعة صفين : « سأبني ، وسأبني ، أي سأطلب ثأره ؛ وأبو عمرو كنية عثمان .

(٢) تشجر الخيل : تصعن .

(٣) الثفال : جلد يبسط فيوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق . وفي اللسان : « وفي حديث علي :
 وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها ، هو من ذلك : والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب ؛ إذا كانت مثقلة ،
 ولا تنفل إلا عند الطحن » .

(٤) وقعة صفين ٩١

(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب^(١)؛ وفي المسجد يومئذ أربعمائة رجلٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أو نحوها، فقال: والله لقد قتُ مقامى هذا، وإني لأعلمُ أن فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه مِنّي؛ ولكنّي شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله نصفَ النهار في يوم شديد الحرّ، وهو يقول: «لَتَكُونَنَّ فتنة حاضرة»، فمرّ رجل مُقنّع، فقال رسول الله: وهذا [المقنّع]^(٢) يومئذٍ على الهدى، فقمت فأخذت بمنكبه، وحسّرتُ عن رأسه؛ فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه، وقلت: هذا يا رسول الله فقال: نعم. فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى.

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل في "كتاب صفين" عن أبي بكر بن عبد الله الهذلي أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطنه في الطلب بدم عثمان، ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغ معاوية بن سَـبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مُلِيمٍ^(٣)
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهذّر في دمشق ولا تريم^(٤)

(١) وقعة صفين: «كعب بن مرة السلمي».

(٢) من صفين.

(٣) من أبيات، في الصبري ٥: ٢٣٦، واللسان ١٥: ٣٦، ٣٧. ومليم، من قولهم: ألام الرجل؛ إذا أتى ما يلام عاياه.

(٤) السدم: الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب في إبلهم؛ فيقيد ولا يسرح في الإبل رغبة عنه؛ فهو يصول ويهدر، أي يصيح. والمعنى، أصله: «المعنى» من العنة؛ فأبدلت إحدى النونين ياء؛ كما قالوا: تظنى، وأصله: «تظنن»، وفي المثل: «كالمهدر في العنة». وانظر بجمع الأمثال للميداني ١٤١: ٢، وجمهرة الأمثال للعسكري ١٥٣: ٢.

فإنك والكتابُ إلى عليّ كدافعة وقد حَلِمَ الأديم^(١)

لك الويلات أفتحها عليهم فخير الطالبي الترة الغشوم^(٢)

قال : فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر :

وَمُسْتَعْجِبٍ تَمَا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا وَلَوْ زَبَنْتَهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرِمِ^(٣)

وروى ابن ديزيل ، قال : لما عَزَمَ على عليه السلام على السير إلى الشام ، دعا رجلاً ، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق ، فإذا دخلَ أُنَاخَ راحلته بباب المسجد ، ولا يُبْلَقِي من ثياب سفره شيئاً ؛ فإن الناس إذا رأوا عليه آثار الغربة سألوه ، فليقل لهم : تركتُ عليها قد نَهَدَ^(٤) إليكم بأهل العراق . فانظر ما يكون من أمرهم .

ف فعل الرجل ذلك ، فاجتمع الناس وسألوه ، فقال لهم ، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

(١) الحلم ، بالتحريك : أن يفسد الجلد في العمل ويقع فيه دود فينتقب ؛ تقول منه حلم ، بالكسر ، والحلمة : دودة تقم في الجلد فتأكله ؛ فإذا دبغ وهي موضع الأكل ، فبق رقيقاً ؛ تقول منه : حلم الأديم ؛ ومعنى البيت : أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساد كهد المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة فنفتته وأفسدته فلا ينفع به . كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .
(٢) في اللسان بعد هذا البيت :

فقومك بالمدينة قد تردوا فهم صرعى كأنهم الهشيم
فلو كنت المصاب وكان حياً تجرد لا ألف ولا ستوم
يهنيك الإمارة كل ركب من الآفاق سيرهم الرسم

وزاد الطبري بعد البيت الثاني من زيادات اللسان :

ولا نكل عن الأوثار حتى يبي بها ولا برم جثوم

وذكر الضبي في الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم

(٣) دهبائه ٢٧ ، ومقاييس اللغة ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٤٤ ؛ ولم يترمم ؛ أي ماحرك فاه بالكلام ؛

كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت . وانظر اللسان ١٥ : ١٤٧ .

(٤) يقال : نهّد لعدوه ؛ إذا أسرع لقتاله .

إليه معاوية بالأعور السلمي يسأله ، فاتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إن علياً قد نهّد إليكم في أهل العراق ، فما ترون ؟ فضرّب الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لا يتكلّمون ، فقام ذو الكلاع الحميري ، فقال : عليك أم رأى ، وعلينا أم فعال ؛ وهى لغة خيبر^(١) .

فنزل ، ونادى فى الناس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى على عليه السلام ، فأخبره . فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنه قدّم عليه رسول كان بعثه إلى الشام ، وأخبره أن معاوية قد نهّد إلى العراق فى أهل الشام ، فما رأى ؟

قال : فاضطرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : رأى كذا ، وهذا يقول : رأى كذا ، وكثر اللفظ واللجب ، فلم يفهم على عليه السلام من كلامهم شيئاً ، ولم يذّر المصيب من الخطأ ، فنزل عن المنبر ، وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب بها ابن أكلة الأكباد^(٢) - يعنى معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عُقبة بن مكرم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مريم صديقاً لعلى عليه السلام ، فسمع بما كان فيه على عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاء فلم يرعُ علياً عليه السلام ؛ إلا وهو قائم على رأسه بالعراق ، فقال له : أبا مريم ، ماجاء بك نحوى ؟ قال : ماجاء بى غيرك ؛ عهدى بك لو وليت أمر الأمة كفيتهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ، فقال : يا أبا مريم ؛ إني مُنيتُ بشرار خلق الله ، أريدُهم على الأمر الذى هو الرأى ، فلا يتبعونى .

(١) وهى لغة نقلت عن طيء أيضاً ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امر امصيام فى امسفر » . معنى

اللييب لابن هشام ١ : ٤٨

(٢) آكلة الأكباد ؛ هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان وأم معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبري ، عن الحكم بن عمير النخعي - وكانت أمه بنت أبي سفيان بن حرب - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ذات يوم : كيف بك يا أبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكون ذلك أبدا ، قال : فكيف بك يا عمر إذا وليت ؟ (١) فقال : آكل حَجَرًا ، لقد لقيت إذن شرا ، قال : فكيف بك يا عثمان إذا وليت ؟ قال : آكلُ وأطعم وأقسم ولا أظلم ، قال : « فكيف بك يا علي إذا وليت ؟ قال : آكل القوت وأحى الجفرة ، وأقسم التمرة ، وأخفى الصور ، قال : أي العورة ، فقال صلى الله عليه وآله : « أما إنكم كلَّكم سَلِي ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يا معاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : « أنت رأس الظلم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبي فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أتم إذا لقيتكم فتنة يهرم فيها الكبير ، ويربو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سنة ، فإذا غيَّرت قيل : هذا منكرو .

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسن بن الربيع البجلي ، عن أبي إسحاق الفزاري عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، في قوله تعالى : ﴿ فَأَيُّمَا نِزْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرَبِّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٢) . قال : أكرم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريه في أمته ما يكره رفعه إليه ، وبقيت النعمة .

(١-١) في ١ ، ج : « فقال حجرا » ، وفي حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، بمعنى المنع » .

(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢ .

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو^(١) بن محمد ، قال : أخبرنا أسباط ، عن السدي ، عن أبي المنهال ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سألتُ ربِّي لأمتي ثلاث خلال ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سأله أن لا تكفر أمتي صفة واحدة فأعطانيها ، وسأله ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها ، وسأله ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » .

قال ابن ديزيل : وحدثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسي ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زريق ، عن عمار الدُهني ، عن سالم بن أبي الجند ، قال : جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعود ، فقال : إن الله تعالى قد آمننا أن يظلمنا ، ولم يؤمننا أن يفتننا ، أرايت إذا أنزلت فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليك كتاب الله تعالى ، قال : أرايت إن جاء قومٌ كلمهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ! فقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إذا اختلف الناس كان ابن سُميَّة مع الحق » ، يعني عمارا .

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا^(٢) ، قال : حدثنا علي بن القاسم ، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا أدلكم على ما إن نساء لم عليه لم تهلكوا ؛ إن وليكم الله ، وإن إمامكم علي بن أبي طالب ، فناصره وصدقوه ، فإن جبريل أخبرني بذلك » .

فإن قلت : هذا نص صريح في الإمامة ، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يريد أنه إمامهم في الفتاوى والأحكام الشرعية ، لا في الخلافة .

وأبضا فإننا قد شرحنا من قول شيوخنا البغداديين ما محصله : أن الإمامة كانت لعلی

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها في غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف ، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم ، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح ، ولو حاربهم وجرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرب على حربهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة ، من التفسير والتضليل .

قال ابن ديزيل : وحدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدّثنا السريّ بن شيبان ، عن عبد الكريم ، أن عمر بن الخطاب ، قال لما طعن : يا أصحاب محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

قلت : إن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد الإمامية ، قال في بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة ، وإطاعتهما فيها ، لأنّ معاوية كان عامله ، وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر ، وخاف أن يضعف عثمان عنها ، وأن تصير إلى عليّ عليه السلام ، فالتقى هذه الكلمة إلى الناس لتنتقل إليهما - وهما بمصر والشام - فيتغلبا على هذين الإقليمين ، إن أفضت إلى عليّ عليه السلام .

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنآن والحنق ، وعمر كان أتقى الله من أن يخطر له هذا ، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيرا من الأمور المستقبلية ؛ كما قال عبد الله بن عباس في وصفه : والله ما كان أوس بن حَجَر عَنّي أحدا سواه بقوله :

الْأُمَيَّةَ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا ^(١)

وروى ابن ديزيل ، عن عفان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن مرة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرّبها ، فرّ رجل قد تقنّع بثوبه ، فقال عليه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ على الحق » ، قممت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ! فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقّقي أصحاب الحديث ، ورواه محمد بن إسماعيل البخاريّ في " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صحّتموه كان حجةً للشّيفانية ؛ لأننا نقول : الخبرُ يتضمّن أن عثمان وأصحابه على الحقّ ، وهذا مذهبنا ، لأننا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوماً ، وأنه وناصريه يوم الدار على الحقّ ؛ وأنّ القوم الذين قتلوه لم يكونوا على الحقّ ؛ فأما معاوية وأهل الشام الذين حاربوا عليّاً عليه السلام بصّفين فليسوا بداخلين في الخبر ؛ ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلّق به ، ألا ترى أنّه ليس فيه كلّ من أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته ؛ فهو على الحقّ ، وإنّا خلاصته أنه ستقوم فتنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه على الحقّ ، ونحن لا نأبى ذلك ، بل هو مذهبنا .

وروى نصر بن مزاحم في كتاب " صفين " قال : ^(١) لما قدّم عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب على معاوية بالشّام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إنّ الله قد أحيّا لك عمر بن الخطاب بالشّام بقدم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمه خطيباً يشهد على عليّ بقتل عثمان ، وينالُ منه .

فقال : الرأى ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فأتاه ، فقال له معاوية : يا بن أخي ، إنّ لك

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت للمؤمن المصدق ، فاصعد المنبر واشتيم عليًا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمه ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول في حسبه ! وأما بأسه فهو الشجاع المطرق ، وأما أيامه فما قد عرفت ؛ ولكني ملزّمه دم عثمان . فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذن نكأت التريحة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتله لهُرْمَزَان ، وخافته عليًا على نفسه ما أتانا أبدا . ألا ترى إلى تقيظه عليًا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبا تكلم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمر عليّ أمسك ولم يقل شيئا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يا بن أخي ؛ إنك بين عي وخيانة ، فبعث إليه : إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركها .

قال : فهجره معاوية واستخف به ، وفسقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِي لَمْ أَحْرَضْ بِمُخْطَبَةٍ خَاطِبٍ	وَلَمْ أَكُ عِيًّا فِي لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ ^(١)
وَلَكِنِّي زَاوَلْتُ نَفْسًا أَبْيَّةً	عَلَى قَذْفِ شَيْخٍ بِالْعِرَاقِينَ غَائِبٍ
وَقَذَفِي عَلَيْهِ بَابُنِ عَفَّانَ جَهْرَةً	كِذَابٍ ، وَمَا طَبِّي سَجَايَا الْمُكَاذِبِ ^(٢)
وَلَكِنِّهِ قَدْ قَرَّبَ انْقِوَامَ جُودِهِ	وَدَبُّوا حَوَالِيهِ دَيْبَ الْعُقَارِبِ
فَمَا قَالَ أَحْسَنْتُمْ وَلَا قَدْ أَسَانُمُ	وَأَطْرَقَ إِطْرَاقُ الشُّجَاعِ الْمَوَاتِبِ

(١) لم أحرص : لم أكل ولم أعي .

(٢) رواية كتاب صفين :

فَلَمَّا ابْنُ عَفَانٍ فَأَشْهَدُ أَنَّهُ أَصِيبَ بَرِيثًا لَابِسًا ثَوْبَ تَائِبٍ^(١)
وَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلزَّيْرِ عَجَاجَةٌ وَطَلْحَةُ فِيهَا جَاهِدٌ غَيْرُ لَاعِبٍ
وَقَدْ أَظْهَرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَوْبَةً فَيَالَيْتَ شِعْرِي مَا مُمَّا فِي الْعَوَاقِبِ !
قَالَ : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَاوِيَةَ شَعْرَهُ بَعَثَ إِلَيْهِ فَأَرْضَاهُ ، وَقَالَ : حَسْبِيَ هَذَا مِنْكَ .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى ، قَالَ : سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ سَعِيدٍ الْمَعْرُوفَ
بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، يَقُولُ : مَا أَشْكُ أَنْ طَلْحَةُ وَالزَّيْرِ بَابِعَا عَلِيًّا ، وَمَا نَفَعَا عَلَيْهِ جَوْرًا
فِي حُكْمٍ وَلَا اسْتِثَارًا بَنِيءَ ؛ وَمَا قَاتَلَ عَلِيًّا أَحَدٌ إِلَّا وَعَلَى أُولَى بِالْحَقِّ مِنْهُ .

وَرَوَى نَصْرٌ بْنُ مُزَاحِمٍ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدِمَ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ
سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَأَقَامَ بِهَا سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، تَجْرَى الْكُتُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
مَعَاوِيَةَ وَعُمَرُو بْنِ الْعَاصِ ، حَتَّى سَارَ إِلَى الشَّامِ .

قَالَ نَصْرٌ :^(٢) وَقَدْ رَوَى مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْكَنُودِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَدِمَ الْكُوفَةَ بَعْدَ وَقْعَةِ
الْجَلِّ ؛ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ .

قَالَ نَصْرٌ : فَدَخَلَ الْكُوفَةَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَاسْتَقْبَلَهُ
أَهْلُ الْكُوفَةِ ، وَفِيهِمْ قُرَاؤُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَدَعَوْا لَهُ بِالْبَرَكَاتِ ، وَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَيْنَ تَنْزِلُ ؟ أَتَنْزِلُ الْقَصْرَ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَنْزِلُ الرَّحْبَةَ ، فَزَلَّهَا وَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ
الْمَسْجِدَ الْأَعْظَمَ ، فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمْدَ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

(١) بعده في كتاب صفين :

حَرَامٌ عَلَى أَهْلِهِ نَتَفُ شَعْرَهُ فَكَيْفَ وَقَدْ جَاوَزَهُ ضَرْبَةَ لَازِبٍ

(٢) وقعة صفين ٥ - ٨

أما بعد ، يا أهل الكوفة ؛ فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدّلوا وتغيّروا ، دعوتكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم ؛ ألا إن فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأما في الأحكام والقسم ، فأتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتباعُ الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . ألا إن الدنيا قد ترَحّلتْ مدبرة ، وإن الآخرة قد ترَحّلتْ مقبلة ؛ ولكل واحد منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد لله الذي نصّر وليّه ، وخدّل عدوّه ، وأعزّ الصادق المحقّ ، وأذلّ الناكث المبطل .

عليكم بتقوى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيّكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين القابلين إلينا ؛ يتفضلون بنفضلنا ، ويحادثونا أمرّنا وينازعوننا حقّنا ، ويُباعدوننا عنه ، فقد ذاقوا وبأل ما اجتروا ، فسوف يلقون غيّا ، ألا إنه قد قعدَ عن نصرتي رجال منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما بكرهون ، حتى يُعتَبُوا ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعيّ - وكان صاحبَ شُرطته - فقال : والله إنّي لأرى الهُجرَ وسماح المكَروه لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلهم . فقال على عليه السلام : سبحان الله يا مال ! جُرّت المدى ، وعدوّت الحدّ ، فأغرقت ^(١) في النّزع . فقال : يا أمير المؤمنين ، لبعض النّفس أبلغ في أمرٍ ينوُبك من مهادنة الأعدى ؛ فقال على عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يا مال ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ ^(٢) فما بالُ ذِكْرِ النّفس !

(١) ج : « وأغرقت » .

(٢) سورة المائدة ٤٥

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ ^(١) ، والإسراف في القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نهى الله عنه ، وذلك هو الغشم .

فقام إليه أبو بُردة بن عوفِ الأزديّ - وكان ممن تخلف عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت القتلى حول عائشة وطلحة والزبير ، علام قتلوا - أو قال : بم قتلوا ؟ فقال عليّ عليه السلام : قتلوا بما قتلوا شيعتي وعمالي ، وقتلوا أخا ربعة العبدى رضى الله عنه في عصابة من المسلمين ، قالوا : إنا لا ننكث كما نكنتم ، ولا نفدر كما غدرتم . فوثبوا عليهم ، فقتلهم ، فسألهم أن يدفعوا إلى قتلة إخواني أقتلهم بهم ، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم ، فأبوا عليّ ، وقتلوني - وفي أعناقهم بيعتي ، ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي - فقتلتهم ، أفي شك أنت من ذلك ! فقال : قد كنت في شك ، فأما الآن فقد عرفت ، واستبان لي خطأ القوم ، وإنك المهتدى المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحى يذكرون أنه كان عثمانيا ، وقد شهد على ذلك صفيين مع عليّ عليه السلام ، ولكنّه بعد مارجع كان يكتب معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلوجة ^(٢) ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إن عليا عليه السلام تهيأ لينزل ، وقام رجال ليتكلموا ، فلما رأوه نزل ، جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل عليّ عليه السلام بالكوفة على جمعة بن هبيرة الخزوميّ .

قلت : جمعة ابن أخت أم هانى بنت أبي طالب ، كانت تحت هبيرة بن أبي وهب الخزومي ، فأولدها جمعة ، وكان شريفا .

(١) سورة الإسراء ٣٣

(٢) في مراصد الاطلاع: الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة. قرب عين التمر. قلت : والمشهور هو هذه التي على شاطئ الفرات ، عندها فم نهر الملك من الجانب الصغرى .

قال نصر : ولما ^(١) قدم على عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد ، فدخل فصلى ، ثم تحول فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال على عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خلقه ؛ إنما أراد الله جل ذكره بالموت إعزاز نفسه ؛ وإذلال خلقه ، وقرأ : ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ^(٢) . قال نصر : فلما لحقه عليه السلام ثقله ، قالوا : أنزل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ؟ لا تنزلوا فيه ^(٣) .

قال نصر : ودخل ^(٤) سليمان بن صرد الخزازي على على عليه السلام ؛ مرجعه ^(٥) من البصرة ، فعاتبه وعذله ، وقال له : ارتبّت وتربّصت وراوغت ؛ وقد كنت من أوثق الناس في نفسي ، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نصرتي ؛ فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ؛ وما زهدك في نصرتهم !

فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تردنّ الأمور على أعقابها ، ولا تؤنّبني بما مضى منها ، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي ؛ فقد بقيت أمور تعرف فيها عدوك من وليك .

فسكت عنه ، وجلس سليمان قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن على عليه السلام ؛ وهو قاعد في باب المسجد ، فقال : ألا أعجبك من أمير المؤمنين ، وما لقيت منه من التوبيخ والتبكي ! فقال الحسن : إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته ، فقال : لقد وثبت أمور سيشرع فيها القنا ، وتنتضي فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى أشباهي ، فلا

(١) كتاب صفين ٨

(٢) سورة البقرة ٢٨

(٣) صفين : « لا تنزلوا فيه » .

(٤) وقعة صفين ٩

(٥) وقعة صفين : « بعد رجعه » .

تَسْتَغْفِرُوا عَنِّي^(١) ، وَلَا تَتَّهِمُوا نَصِيحِي .

فقال الحسن : رحمك الله ما أنتَ عندنا بِظَنِين^(٢) .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدي ، فسلم عليه ، فقال : وعليك السلام ؛ وإن كنتَ من المترَبِّصين ! قال : حاش لله يأمر المؤمنين ! فإني لست من أولئك . فقال : لعلَّ الله فعل ذلك .

قال نصر : وحدثنا^(٣) عمر بن سعد ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن نَخْف ، قال : دخلتُ مع أبي عليّ عليّ عليه السلام ، مقدّمه^(٤) من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحلم ؛ فإذا بين يديه رجال يؤنبهم ، ويقول لهم : ما بظاً بكم عني ، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضَعَف النية وتقصير البصيرة ؛ إنكم لبُور^(٥) ، وإن كان من شكٍ في فضلي ومظاهرةٍ عليّ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله يأمر المؤمنين ! نحن سِلْمُكَ وحَرْبُ عدوك : ثم اعتذر القوم ؛ فنههم من ذَكر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم ؛ فإذا عبد^(٦) الله المَعْتَم العبسي ؛ وحنظلة بن الربيع التيمي ؛ وكلاهما كانت له صحبة ؛ وإذا أبو بُرْدَة بن عوف الأزدي ؛ وإذا غريب بن شُرَحْبِيل الهمداني .

قال : ونظر عليّ عليه السلام إلى أبي ، فقال : ولكن نَخَف بن مسلم وقومه لم يتخلفوا ، ولم يكن مثْلهم كمثلِ القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِطَنَّ فَإِنْ

(١) لا تستغفروا عني ؛ أي لا تظنوا عتابي لكم غشا .

(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مَظْنُون »

(٣) وقعة صفين ١٠

(٤) وقعة صفين : « حين قدم »

(٥) لبور ؛ أي هالكون ، جم بلفظ المفرد .

(٦) في الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفين .

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ
فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ (١) .

قال نصر : ثم إن عليا عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشنّي في ذلك ، [شنّ بن
عبد القيس] (٢) :

قُلْ لِهَذَا الْإِمَامِ قَدْ خَبَتِ الْحَرْبُ بُ وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النِّعْمَةُ
وَفَرَّغْنَا مِنْ حَرْبٍ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ وَبِالشَّامِ حَيَّةٌ صَمَاءُ
تَنْفُ السَّمِّ مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ - فَارْمَهَا قَبْلَ أَنْ تَعَضَّ - شِفَاهُ (٣)
إِنَّهُ وَالَّذِي يَحْبُجُّ لَهُ النَّاسُ مِنْ دُونِ بَيْتِهِ الْبَيْدَاءُ
لَضَعِيفُ النَّخَاعِ إِنْ رُمِيَ الْيَوْمَ مَ بِخَيْلٍ كَانَتْهَا أَشْلَاهُ (٤)
تَتَبَارَى بِكُلِّ أَمِيدٍ كَالْفَحْ لِي بِكَفِيهِ صَعْدَةٌ سَمَرَاهُ (٥)
إِنْ تَذَرُهُ فَمَا مَعَاوِيَةُ الدَّهْرَ رَ بِمَعْطِيكَ مَا أَرَاكَ تَشَاهُ
وَلَنْ يَلُ السَّمَاءُ أَقْرَبُ مِنْ ذَا لِكُ وَنَجْمُ الْعُيُوفِ وَالْعَوَاهُ (٦)
فَاعْدُ بِالْحَدِّ وَالْحَدِيدِ إِلَيْهِمْ لَيْسَ وَاللَّهِ غَيْرُ ذَاكَ دَوَاهُ

(١) سورة النساء ٧٢ ، ٧٣

(٢) تكملة من كتاب وقعة صفين ؛ وهو الأعمور الشنّي ، واسمه بصر بن منفذ ، أحد بني شنّ بن أفضى

ابن عبد القيس . المؤلف والمختلف للأمدى ٣٨

(٣) في اللسان : « قيل لحجة التي لا تجيب الراق صماء ؛ لأن الرق لا تنفعها » .

(٤) بعده في كتاب صفين :

جَانِحَاتٍ تَحْتَ الْعِجَاجِ سِخَالًا مُجَهَّضَاتٍ تَحَالُهَا الْأَسْلَاهُ

(٥) الصعدة : القناة المستوية التي لا تحتاج إلى التعزيز .

(٦) العيوف : نجم أحمر مضى في طرف الهجرة الأيمن ، يتلو التريا لا يتقدمها . والعواء : منزل للقمر

قال نصر: وأتمّ علىّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمد لله الذى أحده ^(١) وأستعينه وأستهديه ، وأعوذ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، وَمَنْ يَضِلَّ فلا هادى له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتخبه لأمره ، واختصه بنبوته ، أكرم خلقه عليه ، وأحبهم إليه ، فبلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، وأدى الذى عليه .

أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواسى به عباد الله ، وأقر به إلى رضوان الله ، وخبره في عواقب الأمور عند الله ، ويتقوى الله أمرتم ، وللإحسان والطاعة خلقتم ؛ فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فإنه حذر بأسا شديدا ، واخشوا خشية ليست بتعذير ^(٢) واعملوا في غير رياء ولا شُمعة ؛ فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولى الله أجره ؛ أشفقوا من عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئا من أمركم سدى ؛ قد سمى آثاركم ، وعلم أعمالك ، وكتب آجالكم ؛ فلا تغتروا بالدنيا ، فإنها غرارة لأهلها ، مغرور من اغتربها ، وإلى فناء ما هي ، وإن الآخرة هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون .

أسأل الله منازل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله .
قال نصر: ثم ^(٣) استعمل علىّ عليه السلام العمال وفرّقهم في البلاد ؛ وكتب إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي ما تقدم ذكره .

(١) صفين : « إن الحمد لله أحده » .

(٢) التعذير هنا : الإحمال والتقصير .

(٣) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل المال » .

قال نصر: ^(١) وقال معاوية لعمر بن العاص ، أيام كان جرير^٢ عنده ينتظر جوابه : إنني قد رأيت أن نُلقيَ إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا ، نذكر فيه أمرَ عثمان ؛ فإما أن نذكر به حاجتنا ، أو نكفّ القوم عنا ، فقال له عمرو : إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : رجل راضٍ بعلیّ فلا يزيدك كتابك إلا بصيرة فيه ، أو رجل يهوى عثمان ؛ فلن يزيدك كتابك على ما هو عليه ، أو رجل معتزل ، فليست في نفسه بأوثق من علیّ .
قال : علیّ ذاك ، فكتبنا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغِب عَنّا أن علينا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه ؛ وإِنما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلینا ، فنقتلهم بكتاب الله عزّ وجلّ ، فإن دفعهم علیّ إلینا كَفَفْنَا عنه ؛ وجعلناها شوری بين المسلمين ، على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . فأما الخلافة فلننا نطلبها ، فأعينونا على أمرنا هذا ، وانهمضوا من ناحيتكم ؛ فإنّ أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب علیّ ما هو فيه ، والسلام .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلمعمری لقد أخطأتما موضع النصرة وتناولتماها من مكان بعيد ؛ وما زاد الله من شك في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً ، وما أتما والمشورة ، وما أتما والخلافة ! أما أنت يا معاوية فطليق ، وأما أنت يا عمرو فظنين ^(٢) ، ألا فكفّا أنفسكما ، فليس لكم فينا ولي ولا نصير . وانسلام .

قال نصر : وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١

(٢) كتاب صفين : « فظنون » ، والظنين والظنون بمعنى التهم .

مُعَاوِيَ إِنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ
نصبت ابن عفان لنا اليوم خُدعةً
وليس بما رُبِّصْتَ أَنْتَ وَلَا غَمْرُو
كما نُصِبَ الشَّيْخَانِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ^(١)
- يعني طلحة والزبير رحمهما الله -

فَهَذَا كَهَذَاكَ الْبَلَاءُ حَذَوْ تَفْلِهِ
رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بِالَّذِي لَا يَضِيرُهُ
سَوَاءٌ كَرَّ قَرَأَقٍ يُغَرُّ بِهِ السَّقَرُ^(٢)
وإنَّ عَظُمْتَ فِيهِ الْمَكِيدَةُ وَالْمَكْرُ^(٣)
وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ نَالَ عُمَانَ مَعْشَرُ
فَنَارَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بَيْعَةَ
وَبَايَعَهُ الشَّيْخَانِ ثُمَّ تَحَمَّلَا
إِلَى الْعُمُرَةِ الْعُظْمَى وَبَاطَنُهَا الْفَدْرُ
فَكَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا اقْتَصَاصُهُ
يَطُولُ ؛ فَيَا اللَّهَ مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ !^(٤)
وَمَا أَتَمَّا وَالنَّصْرُ مِنَّا وَأَتَمَّا
بَعِيثًا حُرُوبٍ مَا يَبُوحُ لَهَا جَرُُّ^(٥)
وَمَا أَتَمَّا اللَّهُ دَرُُّ أَيُّكُمْ
وَذِكْرُكُمْ كَمَا الشُّورَى وَقَدْ وَضَحَ الْفَجْرُ^(٦)

قال نصر^(٧) : وقام عدى بن خاتم الطائي إلى علي عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ،
إن عدى رجلاً لا يوازي^(٨) . به رجل ، وهو يريد أن يزور ابن عمه حابس بن سعد
الطائي بالشام ، فلو أمرناه أن يلقي معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام ، فقال علي

(١) كتاب صفين : « إذ زخرفت الأمر » .

(٢) الرقاق : ما يترأى للسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .

(٣) كتاب صفين : « لا يضره »

(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته ، وفي صفين : « رجيع فيا لله ما أحدث الدهر »

(٥) يبوخ الجر : ينطفيء .

(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .

(٧) صفين ٧١ - ٧٤

(٨) صفين : « لا يجازي به » .

عليه السلام : نعم ، فأمره عدى بذلك ^(١) - وكان اسمُ الرجل خُفّافَ بن عبد الله .

فقدّم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام ، وحابس سيد طيّبٍ بها ، فحدث خُفّاف حابساً أنه شهد عثمان بالمدينة ، وسار مع عليّ إلى الكوفة ، وكان خُفّاف لسان وهيئة وشعر ، فعدا حابس بخُفّاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لي ، قدم الكوفة مع عليّ ، وشهد عثمان بالمدينة ، وهو ثقة . فقال له معاوية : هات ، حدّثنا عن عثمان ، فقال : نعم حصره المكشوح [وحُكِّم فيه حُكيم ، ووليه عمار ، وتجرد في أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم] ^(٢) والأشتر النخعيّ ، وعمر بن الحمق ، وجدّ في أمره رجُلان وطلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه عليّ . قال : ثمّ مَهْ ، قال : ثمّ تهافتَ الناس على عليّ بالبيعة تهافتَ الفَرّاش ، حتى ضاعت النعل ^(٣) وسقط الرّداء ، ووُطِئَ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له ، ثمّ تهبّأ للمسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد ابن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكرِه أحداً ، واستغنى بمن خفّ معه عَمَّن ثَقُل . ثمّ سار حتى أتى جبل طيّبٍ ، فأنته منّا جماعة كان ضار با بهم الناس ؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجالا إلى الكوفة يدعونهم ؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هي في كَفّة ، ثمّ قدم الكوفة فحَمِلَ إليه الصبيّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العرُوس فرحاً به وشوقاً إليه ؛ وتركته وليس له همة إلا الشام .

فدُعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعني شعرا غير به حالي في عثمان ، وعظّم به عليا عندي .

(١) صفين : « فرمه بذلك » .

(٢) ما بين العلامتين تسكيلة من كتاب صفين .

(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعنيه يا خُفاف ، فانشده شعرا أوله :

قُلْتُ وَاللَّيْلُ سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَلِجَنبِي عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِي
— يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره ^(١) ، بحسبها ، ومن جملة :
قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ بِهِ الدَّهْرُ كَمَا مَرَّ ذَاهِبُ الْأَسْلَافِ ^(٢)
إِنِّي وَالَّذِي يَجُجُّ لَهُ النَّاسُ سٌ عَلَى لُحْقِ الْبُطُونِ عِجَافِ ^(٣)
تَتَبَارَى مِثْلَ الْقَيْسِ مِنَ النَّبْعِ بِشُعْثٍ مِثْلِ السَّهَامِ نَحَافِ ^(٤)
ارْهَبَ الْيَوْمَ إِنْ أَنَا كَمْ عَلَى صَنِحَةٍ مِثْلَ صَنِحَةِ الْأَحْقَافِ
إِنَّهُ اللَّيْثُ غَادِيًا وَشُجَاعٌ مُطَرِّقٌ نَافِثٌ بِسِمٍ زُعَافِ ^(٥)
وَاضِعُ السَّيْفِ فَوْقَ عَاتِقِهِ الْأَيْمَنِ يَفْرِي بِهِ شُتُونُ الْقِحَافِ ^(٦)
سَوَّمَ الْخَيْلَ ثُمَّ قَالَ لِقَوْمٍ بَايَعُوهُ إِلَى الطَّعْمَانِ خِفَافِ ^(٧)
اسْتَعَدُّوا لِلْحَرْبِ طَاغِيَةَ الشَّامِ فَلَبَّوْهُ كَالْيَدَيْنِ اللَّطِيفِ
ثُمَّ قَالُوا أَنْتَ الْجَنَاحُ لَكَ الرَّيْشُ الْقُدَامِيُّ وَنَحْنُ مِنْهُ الْخَوَافِ ^(٨)
فَانْظُرْ الْيَوْمَ قَبْلَ بَادِرَةِ الْقَوْمِ بِسَلْمٍ تَهْمُ أُمُّ بَخْلَافِ ^(٩)
قال : فانكسر معاوية ، وقال : يا حابس ، إني لأظنّ هذا عَيْنًا لَمِيّ ، أخرجك عنك

ثَلَا يُفْسِدُ عَلَيْنَا أَهْلَ الشَّامِ .

(١) أى عن ذكر ما أورده .

(٢) القصيدة كاملة في كتاب صفين ٧٣ - ٧٥ .

(٣) الحق : جمع لاحق ؛ واللاحق من الخيل الضامر

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا : الحية .

(٦) القحاف : عظام الجناجم . والشتون : مجتمع قبائل الراس . وفي صفين : « بذرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامه .

(٨) القدامى : الريشات التى تكون فى مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافى : ريشات إذا ضم

الطائر جناحيه خفيت . وفي الثعل : « ليس القواهم كالخوافى » .

(٩) صفين : « نادبة القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غنّى^(١) ، عن زياد بن رستم ، قال :^(٢) كتب معاوية إلى عبد الله بن عمر خاصة ، وإلى سعد بن أبي وقاص ، وإلى محمد بن مسلمة ، دون كتابه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إلى أن يجتمعَ عليه الناس^(٣) بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خذلك إياه ، وطعنك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هَوَّنَ ذلك على خلافك علىّ ، ومحائك بعضَ ما كان منك ، فأعِنَّا -رحمك الله- على حقِّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنني لست أريد الإمارة عليك ، ولكني أريدُ هالك ؛ فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين^(٤) .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنّ الرأى الذى أطمعك فى ، هو الذى صيرك إلى ما صيرك إليه . أتتركُ عليّا فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتبعك ! وأما زعمك أنّي طمنتُ علىّ ، فلمعمرى ما أنا كعلّى فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ونكايته فى المشركين]^(٥) ؛ ولكنى عهد إلىّ فى هذا الأمر عهدٌ ، ففرغت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلُ تركته ، وإن كان ضلالاً فشرُّ نجوت منه ، فأغنِ عَنَّا نفسك ، والسلام^(٦) .

(١) كذا فى ١ ، وصفين ، وفى ب : « غناء » ، وفى ج : « مفى » .

(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) صفين : « الأمة » .

(٤) فى كتاب صفين ذكر أربابنا مطلقاً :

أَلَا قُلْ لِعَبْدِ اللَّهِ وَأَخْصَصْ مُحَمَّدًا وَفَارِسَنَا أَلْمَأْمُونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ

(٥) تكملة من كتاب صفين .

(٦) فى كتاب صفين : « ثم قال لابن أبي غزوة : أجب الرجل - وكانت أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقاء » ... وذكر أربابنا مطلقاً :

مُعَاوِي لَا تَرْجُو الَّذِي لَسْتَ نَائِلًا وَحَاوِلَ نَصِيرًا غَيْرَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعد ؛ فإن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ؛ الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير ؛ وهما شريكان في الأمر ونظيراك في الإسلام ، وخفت لذلك أم المؤمنين ، فلا تكرهن ما رضوا ، ولا تردن ما قبلوا ، فإننا نردّها شورى بين المسلمين ^(١).

فأجابه سعد :

أما بعد ؛ فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة من قريش ؛ فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا بإجماعنا ^(٢) عليه ؛ ألا إن عليا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرهت أوله ، وكرهت آخره ؛ فأما طلحة والزبير فلولما بيوتهما لكان خيرا لهما ، والله يغفر لأمة المؤمنين ما أتت ! والسلام ^(٣).

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فإنني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ^(٤) ؛ ولكنني أردت أن أذكرك النعمة التي خرجت منها ، والشك الذي صرت إليه ؛ إنك فارس الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ؛ وقد ادعيت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تمضي عليه ؛ وهو أنه نهاك عن قتال أهل القبلة ^(٥) ، أفلا نهيت أهل القبلة ^(٥) عن قتال بعضهم بعضا !

(١) في كتاب صفين : « وقال شعرا » ؛ وذكر أحيانا أولها :

أَلَا يَا سَعْدُ قَدْ أَظْهَرْتَ شُكَّا وَشَكَّ الْمَرْءُ فِي الْأَحْدَاثِ دَاءَ

(٢) كتاب صفين : « بإجماعنا » .

(٣) في كتاب صفين : « ثم أجابه في الشعر » ، وذكر أحيانا أولها :

مَعَاوِيَ دَاوُكَ الدَّاءُ الْعِيَاءُ فَلَيْسَ لِمَا تَجِي بِهِ دَوَاءَ

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين : « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تكررهم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمان وأهل الدار من أهل القبلة^(١) !

فأما قومك فقد عصوا الله ، وخذلوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام .

قال : فكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه مثل الذى فى يدى ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرتُ سيفى ، وجلست فى بيتى ، واتهمت الرأى على الدين ؛ إذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه . وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ؛ ولا اتبعت إلا الهوى ، وإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلتَه حيا ، والسلام^(٢) .

[مفارقة جرير بن عبد الله البجلي لعلى]

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام ، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة ، وما جرى بينه وبين معاوية من المراسلات ، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ ؛ وما أجابوه به ؛ ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عَوْدِهِ إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بمالأة معاوية عليهم ، ومفارقته جنبه أمير المؤمنين .

قال نصر بن مزاحم :^(٣) حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ، قال : قال لما رجع جريرٌ

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .

(٢) تنمة الرسالة كما فى كتاب صفين : « فأخرجني الله من نعمة ، ولا صيرني إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ماتحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .

(٣) كتاب صفين ٦٦ - ٦٨

إلى عليّ عليه السلام ، كثر قول الناس في التّهمة لجريّر في أمر معاوية ، فاجتمع جريّر والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أمّا والله يا أمير المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية ، لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخى خِنَاقه ، وأقام عنده ؛ حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتّحه ، ولا باباً يخاف أمره إلا سدّه .

فقال جريّر : لو كنتَ والله أتيتهم لقتلوك - وخوفه بعمره ، وذى الكلاع ، وحوشب - وقال : إنهم يزعمون أنك من قَتَلَة عُثْمَانَ .

فقال الأشتر : والله لو أتيتهم يا جريّر لم يُعْنِي جوابها ، ولم يثقل عليّ تحمّلها ، ولحلت معاوية على خُطّة أمجله فيها عن الفِكر .

قال : فأنّيتهم إذن . قال : الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشر !

وروى نصر ، عن نُصَيْر بن وُعَلَة ، عن الشعبي قال : ^(١) اجتمع جريّر والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً ، وأخبرتكَ بمداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتمه ، ويقول : يا أخا بَجِيلَة ، إنّ عُثْمَانَ اشترى منك دينك بهمّذان ، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشي فوق الأرض ؛ إنّما أتيتهم لتتخذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تهدّنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولا أرى سعيك إلا لهم ؛ لئن أطاعني فيك أميرُ المؤمنين ليحبسَنَّك وأشباهك في حبسٍ لا تخرجون منه حتى تَسَدَّتْ هذه الأمور ، ويُهْلِك الله الظالمين .

قال جريّر : وددت والله أن لو كنتَ مكاني ، بُعِثْتَ إذن والله لم ترجع .

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليّاً عاياه السلام ، فلحقَ بقرّ قيساً^(١) ولحق به ناس من قسّر^(٢) من قومه ، فلم يشهد صفّين من قسّر غير تسعة عشر رجلاً ؛ ولكن شهدا من أحسّ^(٣) سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحوشب [وذى الكلاع]^(٤) :

لعمرك يا جريرُ لقول عمرو	وصاحبه معاوى بالشام
وذى كلعٍ وحوشب ذى ظليمٍ	أخفّ علىّ من ريش النعام ^(٥)
إذا اجتمعوا علىّ فخلّ عنهم	وعن بازٍ مخالبه دوامى
ولستُ بخائفٍ ماخوفونى	وكيف أخاف أحلام النيام !
وهمهم الذى حاموا عليه	من الدنيا، وهى من أمامى ^(٦)
فإن أسلم أعمهم بحربٍ	يشيب لهما رأس الغلام
وإن أهلك فقد قدمتُ أمراً	أفوز بفلجيه يوم الخصاص ^(٧)
وقد زادوا علىّ وأوعدوني	ومن ذامات من خوف الكلام !

[نسب جرير وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى " المعارف " ،^(٨) أن جريراً قدّم على رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) قرقيسيا : بلد بالحلبور عند مصبه .

(٢) قسّر : رهط جرير بن عبد الله البجلي

(٣) أحسّ : بطن فى بحيلة .

(٤) من كتاب صفين .

(٥) صفين : « من زف النعام » . وانزف : صفار ريش النعام .

(٦) صفين : « ما أسامى »

(٧) الفاج : الفوز والانتصار .

(٨) المعارف ١٢٧

سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كَأَنَّ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ مَلَكٌ » ؛ وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة وكان طوالا يَتَقَلُّ في ذِرْوَةِ البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعا ، وكان يَخْضِبُ لَحْيَتَهُ بِالزَّعْفَرَانِ مِنَ اللَّيْلِ وَيَغْسِلُهَا إِذَا أَصْبَحَ ؛ فَتَخْرُجُ مِثْلَ لَوْنِ التَّبَرِّ . واعتزل عليا عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشراسة سنة أربع وخمسين في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة^(١) .

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبي في "جَمْعُرة الأَنساب" ، فقال : هو جرير بن عبد الله ، ابن جابر ، بن مالك ؛ بن نصر ، بن ثعلب . بن جُشَم ، بن عُوفٍ ، بن حرب ؛ بن علي ، ابن مالك ، بن سعد ، بن بدير ، بن قَسْر - واسمه ملك - عبقر ، بن أنمار ، بن أراش ، ابن عمرو ، بن الغوث ، بن نَبْت ؛ بن زيد ، بن كَهْلان .

ويذكر أهل السِّيَر أن عليا عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه ، حيث فارق عليا عليه السلام ؛ منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْرِي ، كان خَتَنَهُ عَلَى ابْنَتِهِ وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبي أراكة قديما ، ولعله اليوم نُسِيَ ذلك الاسم .

ومن كلامه عليه السلام لما هرب مصفد بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ، ولله
 قد ابتاع سبي بني ناهية منه عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال
 غاس به وهرب إلى السام ، فقال :

الأضل :

قَبِّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أُنْطِقَ مَادِحَهُ حَتَّى
 أَسْكَنَهُ ، وَلَا صَدَقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مِيسُورَهُ ، وَأَنْتَظَرُنَا
 بِمَالِهِ وَفُورِهِ .

الشَّنْحُ :

خاس به يخيس ويخوس ؛ أى غدر به ، وخاس فلان بالعهد ؛ أى نكث .
 وقبح الله فلانا ؛ أى نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .
 والتبكيك ، كالقترب والتعنيف . والوفور . مصدر وفر المال ، أى تم ، ويحى ، متعديا .
 ويروى : « موفوره » ، والموفور : التام ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :
 يَأْمَنُ مَدْحَانَهُ فَأَكْذَبْنَا بِفَعَالِهِ وَأَثَابْنَا خَجَلًا
 بُرْدًا قَشِيًّا مِنْ مَدَائِحِنَا سُرِبَلَتْ فَارْدُودُهُ لِنَاسِمَلَا^(١)
 إِنَّ التَّجَارِبَ تَهْتِكُ الْمُسْتَوْرَ مِنْ أَبْنَائِهِمَا وَتَبْهَرُ الرِّجَالُ

[نسب بنى ناجية]

فأما القول في نسب بنى ناجية ؛ فإنهم ينسبون أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقرش تدفعهم عن هذا النسب ، ويسمونها بنى ناجية - وهي أمهم - وهي امرأة سامة بن لؤي بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مغاضبا لأخيه كعب بن لؤي في مِمْظَلَة^(١) كانت بينهما ، فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العُشب ، فعَلِق بِمِشْفَرِهَا أُنْفَى ، ثم عطف على قَتَبِهَا فحَكَّتْهُ بِهِ ، فذَبَّ الْأُنْفَى عَلَى الْقَتَبِ ؛ حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤي يرثيه^(٢) :

عَيْنُ جُودَى لِسَامَةَ بْنِ لُؤَيٍ عَلِقَتْ سَاقَ سَامَةَ الْعَلَاقَةَ^(٣)
رُبَّ كَأْسٍ هَرَقَتْهَا ابْنُ لُؤَيٍ حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهْرَاقَةً

قالوا : وكانت معه امرأته ناجية ، فلما مات تزوجت رجلا في البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمعت أمه أن تلحقه بقرش ، فأخبرته أنه ابن سامة بن لؤي بن غالب ، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤي أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعب أمه ناجية ، فظن أنه صادق في دعواه ، فقبله ومكث عنده مدة ؛ حتى قَدِمَ مكة ركب من البحرين ؛ فأرأوا الحارث ، فسألوا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤي : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هذا ابن رجل من بلدنا يُعْرَفُ بفلان ، وشرحوale خبره ، فنفاه كعب عن مكة ونفى أمه ، فرجعا إلى البحرين ، فكنانا هناك ، وتزوج الحارث ، فأعقب هذا العقب .

(١) المِمْظَلَة : الخِصَامَة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قاتلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجهما ، في خبر ذكره صاحب اللسان ١٢ : ١٩٥ .

(٣) العِلاقَة : النية .

وقال هؤلاء: إنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «نعمى سامة لم يُعقب»^(١).

وزعم ابن الكلبي أن سامة بن لؤى ولد غالب بن سامة ، والحارث بن سامة ، وأم غالب بن سامة ناجية - ثم هلك سامة ، خلف عليها ابنه الحارث بن سامة ، نكاح ممت^(٢) ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعقبَا ؛ وإن قوما من بنى ناجية بن جرم بن زبّان بن عِلاف ، ادّعوا أنهم بنو سامة بن لؤى ، وأن أمهم ناجية هذه ، ونسبوا هذا النسب ، وانتموا إلى الحارث بن سامة ، وهم الذين باعهم على عليه السلام على مصقلة بن هبيرة. وهذا هو قول الهيثم بن عدي. كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهاني في "كتاب الأغاني الكبير" ،^(٣).

ووجدت أنا في "جمهرة النسب" لابن الكلبي كلاما قد صرح فيه بأن سامة بن لؤى أعقب، فقال: ولد سامة بن لؤى الحارث، وأمهم هند بنت تميم ، وغالب بن سامة ، وأمهم ناجية بنت جرم بن زبّان ، من قضاة ، فهلك غالب بعد أبيه ؛ وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا ، وأمهم سلمى بنت تميم بن شيبان ابن محارب بن فهر وعبد النبي ، وأمهم ناجية بنت جرم ، خلف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح ممت ، فيهم الذين قتلهم على عليه السلام .

قال أبو الفرج الأصفهاني : أما الزبير بن بكار ، فإنه أدخلهم في قريش ؛ وهم قريش العازبة ، قال : وإنما سُموا العازبة ؛ لأنهم عزّبوا عن قومهم فنسبوا إلى أمهم ناجية بنت جرم بن زبّان بن عِلاف ، وهو أول من اتخذ الرّحال العِلافية ، فنسبت إليه ،

(١) بقية الخبر كما في الأغاني : « وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام ، ولما ولي على بن أبي طالب رضى عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة ، فسباهم واسترقهم ، فاشتراهم مصقلة ابن هبيرة منه ، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقي على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية ، فصاروا أحراراً ، ولزمه الثمن ، فشعت على بن أبي طالب شيئا من داره ، وقيل بل هدمها . فلم يدخل مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبي طالب رضى الله عنه . »

(٢) نكاح الممت: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها؛ وكان يفعل في الجاهلية وحرمه الإسلام.

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٠٥ - ٢٠٧ (طبعة الدار) .

واسم ناجية ليلي ؛ وإنما سميت ناجية ، لأنها سارت مع سامة في مفازة ، فعطشت ، فاستسقت ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُريها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشربت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج : ولزير بن بكار في إدخالهم في قریش مذهب ؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام ، وميله إليهم ، لإجماعهم على بُغضه عليه السلام ، حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك .

[نسب عليّ بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤيّ عليّ بن الجهم الشاعر ، وهو عليّ بن الجهم بن بدر ابن جهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عتبة ^(١) بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لؤي بن غالب .

هكذا ينسب نفسه ، وكان مبغضاً لعلّي عليه السلام ، ينحون نحو مروان بن أبي حفصة في هجاء الطالبين وذمّ الشيعة ، وهو التائل :

وَرَأْفَصَةٌ تَقُولُ بِشُعْبِ رَضْوَى إِمَامٌ ، خَابَ ذَلِكَ مِنْ إِمَامٍ ^(٢) !
إِمَامٌ مِنْ لَهُ عَشْرُونَ أَلْفًا مِنَ الْأَتْرَاكِ مُشْرَعَةُ السَّهَامِ !

وقد هجاه أبو عبادَةَ البَحْتَرِيُّ ، فقال فيه :

إِذَا مَا حُصِّلَتْ عَلَيَّا قُرَيْشٍ فَلَا فِي الْعِيرِ أَنْتَ وَلَا النَّفِيرِ ^(٣)
وَلَوْ أَعْطَاكَ رَبُّكَ مَا تَمَتَّى لَزَادَ الْخَلْقَ لِقَى فِي عِظَمِ الْأَيُورِ

(١) في الأغاني : « عينية »

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٠٥

(٣) ديوانه ٢ : ٣٤ ، والأغاني ١٠ : ٢٠٦

وما الجهمُ بنُ بَذَرٍ حِينَ يُعْزَى من الأقمارِ ثمَ ولا البُذُورِ^(١)
عَلَامَ هَجُوتَ مجتهداً عَلِيّاً بِمَا لَفَّقْتَ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ!
أَمَّا لَكَ فِي اسْتِكَ الْوَجْعَاءِ شُغْلُ يَكْفُكَ عَنْ أَهْلِ الْقُبُورِ!

وسَمِعَ أَبُو الْعِينَاءِ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ يَوْمَا يَطْعُنُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ لَهُ : أَنَا أَدْرِى لِمَ تَطْعُنُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَالَ : أَتَعْنِي قِصَّةَ بَيْعِهِ أَهْلِي مِنْ مَصْلَقَةِ بَنِ هُبَيْرَةَ ؟ قَالَ : لَا ، أَنْتَ أَوْضَعَ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَلَسَكُنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَ الْفَاعِلَ مِنْ قَوْمِ لُوطَ ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ ، وَأَنْتَ أَسْفَلُهُمَا .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل^(٢) :

أَلَمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَى عَتَبَا^(٣) وَهُمْ بِالْأَمْسِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ
فَلَمَّا أَنْ بُلِيَتْ غَدَاوًا وَرَاحُوا^(٤) عَلَى أَشَدِّ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ
أَبْتَ أَخْطَارُهُمْ أَنْ يَنْصُرُونِي بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ ثَرَاءِ^(٥)
وَخَافُوا أَنْ يَقَالَ لَهُمْ خَذَلْتُمْ صَدِيقًا فَادَّعَوْا قِدَمَ الْجَفَاءِ
تَظَافَرَتِ الرِّوَاغُضُ وَالنَّصَارَى وَأَهْلُ الْإِعْتَزَالِ عَلَى هَجَائِي

(١) الديوان والأغاني : « وما رغثاؤك » وفي حواشي الأغاني : « الرغشاء ، أصلها عصب أو عرق في الثدي يدر اللبن ؛ واستعملها البحترى هنا في الأب »
(٢) من قصيدة طويلة في ديوانه ٨١ - ٨٥ ؛ وفي الأغاني ١٠ : ٢٠٦ - ٢٠٨ : « كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند المتوكل ، فحبسه المتوكل ، فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ وَسَلَّمْنَا لِأَسْبَابِ الْقَضَاءِ

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغاني : عبا ، والديوان : غشا .

(٤) الديوان : « بليت بشكبة فعدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براء » ، وقال في شرحه : الراء : الرأي .

وَعَابُونِي وَمَا ذَنْبِي إِلَيْهِمْ سِوَى عِلْمِي بِأَوْلَادِ الزَّانَاءِ
يعني بالروافض نجاح بن مسلمة^(١) ، والنصارى بختيشوع^(٢) ، وأهل الاعتزال
على^(٣) بن يحيى بن المنجم^(٤) .

قال أبو الفرج : ^(٥) وكان على بن الجهم من الحشوية^(٦) ، شديد النصب^(٧)
عدواً للتوحيد والعدل ؛ فلما سخط المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد ، وكفاه ، شمت به
على بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه^(٨) :

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ دَعْوَةٌ بَعَثْتُ عَلَيْكَ جَنَادًا وَحَدِيدًا^(٩)
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا - بِالْجَهْلِ مِنْكَ - الْعَدْلَ وَالتَّوْحِيدَا
أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلَيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَلِيدَا

(١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتابع على العمال في عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال
يتقونه ؛ وكان المتوكل ربما فادمه ؛ وتوفي منكوباً سنة ٢٤٥ . تاريخ الطبري ١١ : ٥٧ .

(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر الطبيب

(٣) على بن يحيى بن أبي إسماعيل المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفي سنة ٢٧٥ .
ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .

(٤) في طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإسماعيل بالروافض الظاهريين ؛ وبأهل الاعتزال بنى دؤاد ،
وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يعاديه » .

(٥) الأغاني ١٠ : ٢١٧ .

(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندما أن تارك النفل كترك
الفرض . تفسير القرطبي ٤ : ١٦٢ .

(٧) النواصب : قوم يتدينون ببغضة على .

(٨) ذكر صاحب الأغاني في هذا الخبر أنه لما حبس على بن الجهم مدح أحمد بن أبي دؤاد عدة مدائح ،
ويسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ إِنَّمَا تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
أَبْلَغُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ خَوْضُ الرَّدَى وَمَخَافُ لَا تَنْفَدُ
أَنْتُمْ بَنُو عِمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَوْلَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبي دؤاد شمت به على بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات

(٩) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦ .

— أبو الوليد بن أحمد بن أبي دؤاد ، وكان قد رتبته قاضيا (١) —

لَا مُحْكَمًا جَلْدًا وَلَا مُسْتَطَرَقًا كَهَلًا وَلَا مُسْتَحْدَثًا مَحْمُودًا (٢)
 شَرِّهَا إِذَا ذُكِرَ الْمَكَارِمُ وَالْعُلَا ذَكَرَ الْقَلَايَا مُبْدِنًا وَمَعِيدًا (٣)
 وَيَوَدُّ لَوْ مُسِخَتْ رِبِيعَةُ كُلِّهَا وَبُنُو إِيَادٍ صَحْفَةً وَثَرِيدًا
 وَإِذَا تَرَبَّعَ فِي الْمَجَالِسِ خِلْتُهُ ضُبْعًا وَخِلْتَ بَنِي أَبِيهِ قُرُودًا
 وَإِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا شَبَهْتُهُ شَرِقًا تَعَجَّلَ شُرْبُهُ مَرْدُودًا
 لَا أَصْبَحَتْ بِالْخَيْرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ تِلْكَ الْمَنَاحِيرَ وَالْثَنَائَا الشُّودَا
 وقال يهجوهُ لما فُلِجَ (٤) :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خَيْالِكَ لَامِعًا فَوْقَ الْفِرَاشِ مُمَهَّدًا بِيَسَادِ
 فَرَحْتَ بِمَصْرَعِكَ الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
 كُنْ مَجْلِسِ اللَّهِ قَدْ عَطَلْتُهُ كَيْ لَا يَحْدُثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
 وَلَكُمْ مَصَابِيحٌ لَنَا أَطْفَأَتْهَا حَتَّى نَحِيدَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِي (٥)
 وَلَكُمْ كَرِيمَةٌ مَفْشَرٍ أَرْمَلْتَهَا وَحَدَّثِ أَوْثَقَتْ فِي الْأَقْيَادِ
 إِنَّ الْأَسَارَى فِي الشُّجُونِ تَفَرَّجُوا لَمَّا أَتَتْكَ مَوَاقِبُ الْعُودِ
 وَغَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَحْذِ لِدَوَاءِ دَائِكَ حِيلَةً الْمُرَادِ
 فَذُقِ الْهُوَانَ مَعْجَلًا وَمُؤَجَّلًا وَاللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْمِرْصَادِ
 لَا زَالَ فَالِجُكَ الَّذِي بَكَ دَائِمًا وَفُجِعْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

(١) وكان يتولى المظالم سرا بسامراء ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧

(٢) الديوان والأغاني : « لا محكمًا جزلا » ، والجزل هنا : الجيد الرأى .

(٣) القلايا : المفليات ؛ مفردة قليلة .

(٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغاني ١٠ : ٢٢٩

(٥) الأغاني : « حتى يزول عن الطريق الهادي » .

ورى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" في ترجمة مروان بن أبي حفصة الأصغر أن علي بن الجهم خطب امرأة من قريش ، فلم يزوجه ، وبلغ المتوكل ذلك ، فسأل عن السبب ، فحدث بقصة بنى سامة بن لؤي ، وأن أبا بكر وعمر لم يَدْخِلاه في قريش ، وأن عثمان أدخلهم فيها ، وأن علياً عليه السلام أخرجهم منها ، فارتدوا ، وأنه قتل من ارتد منهم ، وسبى بقيتهم ، فباعهم من مصقلة بن هبيرة ، فضحك المتوكل ، وبعث إلى علي بن الجهم فأحضره ، وأخبره بما قال القوم ، وكان فيهم مروان بن أبي حفصة المكنى أبا السمط وهو مروان الأصغر ، وكان المتوكل يغريه بعلي بن الجهم ، ويضعه على هجائه وتلبيه ، فيضحك منهما ، فقال مروان :

إِنَّ جَهْمًا حِينَ تَنْسُبُهُ لَيْسَ مِنْ مُجْمٍ وَلَا عَرَبٍ
لَجَّ فِي شَتْمِي بِالسَّبَبِ سَارِقٌ لِلشَّعْرِ وَالنَّسَبِ
مِنْ أَنَسٍ يَدْعُونَ أَبَا مَالَهُ فِي النَّاسِ مِنْ عَقَبِ

فغضب علي بن الجهم ، ولم يجبه ؛ لأنه كان يستحقه ، فأوما إليه المتوكل أن يزيد ، فقال :

أَأَنْتُمْ يَا بَنَ جَهْمٍ مِنْ قَرَيْشٍ وَقَدْ بَاعُواكُمْ تَمَنُّ تَرْيَدُ
أَنْتُمْ أَنْ تَكَاثِرْنَا جِهَارًا بِأَصْلِكُمْ وَقَدْ يَبِيعُ الْجُدُودُ
فلم يجبه ابن الجهم ، فقال فيه أيضا :

عَلَى تَعَرَّضْتَ لِي ضَلَّةً لَجْهَكَ بِالشَّعْرِ يَامَانِقُ
تَرُومُ قُرَيْشًا وَأَنْسَابَهَا وَأَنْتَ لَأَنْسَابِهَا سَارِقُ
فَإِنْ كَانَ سَامَةٌ جَدًّا لَكُمْ فَأَمَّاكَ مِنِّي إِذَا طَالِقُ

[نسب مصقلة بن هبيرة]

فَأَمَّا نَسَبُ مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ ، فَإِنَّ ابْنَ الْكَلْبِيِّ ، قَدْ ذَكَرَهُ فِي " جَمْعِ هَيْبَةِ النِّسَبِ " فقال : هُوَ مَصْقَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ شَيْبَلِ بْنِ تَيْرِي بْنِ أَمْرِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُكَّابَةَ بْنِ صَغْبِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلِ بْنِ قَاسِطِ بْنِ هِنَبِ بْنِ أَفْصَى بْنِ دُعَيْمٍ ، بْنِ جَدِيدَةَ بْنِ أَسَدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدٍ بْنِ عَدْنَانَ .

[خبر بني ناجية مع علي]

وَأَمَّا خَبَرُ بَنِي نَاجِيَةٍ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَدْ ذَكَرَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَلَالِ الثَّقَفِيِّ فِي كِتَابِ " الْغَارَاتِ " قَالَ :

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَانَ ، عَنْ نَصْرِ بْنِ مَزَاحِمٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ حَدِيثِهِ مَنْ أَدْرَكَ أَمْرَ بَنِي نَاجِيَةٍ ، قَالَ : لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَلِيًّا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ، دَخَلُوا فِي الطَّاعَةِ غَيْرَ بَنِي نَاجِيَةٍ ، فَإِنَّهُمْ عَسَّكَرُوا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، فِي خَيْلٍ لِيَقَاتِلَهُمْ ، فَأَتَاهُمْ ، فَقَالَ : مَا بَالُكُمْ عَسَّكَرْتُمْ ، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ فِي الطَّاعَةِ غَيْرَكُمْ ! فَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فُرُقٍ : فَرَقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا ، وَدَخَلْنَا فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَنَحْنُ نَبَايَعُ كَمَا بَايَعَ النَّاسُ ؛ فَأَمَرَهُمْ فَأَعْتَزَلُوا . وَفَرَقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَلَمْ نَسْلَمْ ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا خَرَجُوا ، قَهَرُونَا فَأَخْرَجُونَا كَرَاهًا ، فَخَرَجْنَا مَعَهُمْ فَهَزَمُوا ، فَنَحْنُ نَدْخُلُ فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ ، وَنُعْطِيكُمُ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطَيْنَاهُمْ ؛ فَقَالَ : اعْتَزَلُوا فَأَعْتَزَلُوا . وَفَرَقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا فَلَمْ يُعْجِبْنَا الْإِسْلَامُ ، فَرَجَعْنَا إِلَى النِّصْرَانِيَّةِ ، فَنَحْنُ نُعْطِيكُمُ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطَاكُمُ النَّصَارَى . فَقَالَ لَهُمْ : تَوَبُّوا وَارْجِعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَبَوْا ، فَقَتَلَ مُقَاتِلُهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ فَقَدَّمَ بِهِمْ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

[قصة الخريّيت بن راشد الناجي وخروجه على عليّ]

قال ابن هلال الثقفيّ : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن أبي سيف ، عن الحارث بن كعب الأزديّ ، عن عمّه عبد الله بن قُعين الأزديّ ، قال : كان ^(١) الخريّيت بن راشد الناجيّ ، أحد بني ناجيّة ، قد شهد مع علي عليه السلام صفين ، فجاء إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صفين ، وبعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من أصحابه ، يمشي بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطيعُ أمرَكَ ، ولا أصليّ خلَقَكَ ، وإني غدا لمفارق لك ؛ فقال له : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! إذا تنقض عهدك ، وتقصي ربك ، ولا تضرّ إلا نفسك ، أخبرني لم تفعل ذلك ؟ قال ؛ لأنك حكمت في الكتاب ، وضعت عن الحق إذ جدّ الجدّ ، وركنت إلى القوم الذين ظالموا أنفسهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له عليّ عليه السلام : وَيْحَكَ ! هلمّ إلى أدارسك وأناظرك في الشئ ، وأفانحك أمورا من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر ، وتُبصر ما أنت الآن عنه عمّ وبه جاهل ! فقال الخريّيت : فإني غادٍ عليك غدا . فقال عليّ عليه السلام : اغدُ ولا يستهويَنَّك الشيطان ، ولا يتفخّمَنَّ بك رأىُ السوء ، ولا يستخفّنك الجهلاء الذين لا يعلمون ؛ فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مِنّي لأهديَنَّك سبيل الرشاد .

فخرج الخريّيت من عنده مُنصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعين : فعجلت في أثره مُسرّعا ، وكان لي من بني عمّه صديق ، فأردت أن ألقى ابن عمّه في ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأُمير المؤمنين ، وأمر ابن عمّه أن يشتدّ بلسانه عليه ، وأن يأمره بطاعة أُمير المؤمنين ومُناصحته ، ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله - وقد سبقني - فقامت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أُمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله ما رجّع

(١) وانظر الخبر أيضاً في تاريخ الطبري ٦: ٦٥ وما بعدها .

لا ندم على ما قال لأُمير المؤمنين وما ردّ عليه ، ولكنه قال لهم : يا هؤلاء ، إني قد رأيت أن أفارق هذا الرجل ، وقد فارقتك على أن أرجع إليه من غد ، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقال له أكثرُ أصحابه : لا تفعلْ حتى تأتيه ، فإنَّ أناك بأمرٍ تعرفه قبلت منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ، قال لهم : نَعَمْ ما رأيتم . قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لي ، فأقبلت على ابن عمه - وهو مدرك بن الريان الناجي ، وكان من كبراء العرب - فقلت له : إن لك عليّ حقاً لإحسانك ووُدّك، وحقُّ المسلم على المسلم^(١) ، إن ابن عمك كان منه ما قد ذُكر لك ، فأخلُ به فأردد عليه رأيه وعظّم عليه ما أتى ؛ واعلم أنّي خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته . فقال : جزاك الله خيراً من أخٍ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام فني ذلك هلاكه ، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه فني ذلك حظه ورُشده .

قال : فأردت الرجوعَ إلى عليّ عليه السلام ، لأعلمه الذي كان ؛ ثم اطمأننت إلى قول صاحبي ، فرجعت إلى منزلي ، فبت ثم أصبحت ، فلما ارتفع النهار أتيت أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريدُ أن أحُدّثه بالذي كان على خلوة ، فأطلتُ الجلوسَ ، ولا يزدادُ الناس إلا كثرةً ، فدنوتُ منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلى برأسه ، فأخبرته بما سمعته من الخريّت ، وما قلت لابن عمه وما ردّ عليّ . فقال عليه السلام : دَعُه ؛ فإنَّ قبل الحقِّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فلم لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟ فقال :. إنا لو فعلنا هذا بكلِّ مَنْ يُتهم من الناس ملأنا السجون منهم ، ولا أراني يسعني الوثوب بالناس . والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهروا لي الخلاف .

قال : فسكتُ عنه وتنجّيت ، فجلستُ مع أصحابي هنيئة ، فقال لي عليه السلام :

(١) في الضمري : « بعد حق المسلم على المسلم » .

اذنُ مِنِّي ، فدنوت ، فقال لي مُسرّاً : اذهب إلى منزل الرجل فاعلمْ ما فعل ؛ فإنه قلَّ يومٌ لم يكن يأتي في هذه الساعة ، فأنتيتُ إلى منزله ، فإذا ليس في منزله منهم ديار ، فدرتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا محيب . فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لي حين رآني : أفيطنوا فأقاموا أم جبنوا فظعنوا ؟ قلت : لا بل ظعنوا ، فقال : أبعدهم الله كما بعثت نوحاً ! أما والله لو قد أشرعت لهم ، الأسنة ، وضربت على هامهم السيوف ، لقد ندموا ، إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم ، وهو غدا متبرئ منهم ، وتخلّى عنهم . فقام إليه زياد بن خصفة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لو لم يكن من مَضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدّمهم علينا ، فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا ، ولكننا نخاف أن يُفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليهم من أهل طاعتك ؛ فائذن لي في اتباعهم حتى أردّم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرج في آثارهم راشداً . فلما ذهب ليخرج قال له : وهل تدري أين توجه القوم ! قال : لا والله ؛ ولكنني أخرج فأسأل وأتبع الأثر ، فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبي موسى ثم لاتبرحه ؛ حتى يأتيك أمري ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ؛ فإن عمالي ستكتب إليّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إلي من حولي من عمالي فيهم . فكتب نسخة واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من العمال ، أما بعد ، فإن رجالاً لنا عندهم تبعة ، خرجوا هُرّاباً نظّهم خرجوا نحو بلاد البصرة ، فاسأل عنهم أهل بلادك ، واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك ، ثم اكتب إلي بما انتهى إليك عنهم . والسلام .

فخرج زياد بن خَصَفَة حتى أتى داره ، وجمع أصحابه فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
يا معشر بكر بن وائل ؛ إن أمير المؤمنين ندبني لأمر من أموره مهم له ، وأمرني بالانكاش
فيه بالعشيرة ؛ حتى آتني أمره ؛ وأنتم شيعته وأنصاره ، وأوثق حتى من أحياء العرب في
نفسه ، فانتدبوا معي الساعة ، ومجّجوا ، فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون
رجلا ، فقال : اكتفيني لا نريد أكثر من هؤلاء ؛ فخرج حتى قطع الجسر ،
ثم أتى دير أبي موسى فنزله ، فأقام به بقية يومه ذلك ، ينتظر أمر أمير المؤمنين
عليه السلام .

قال إبراهيم بن هلال : حدثني محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، عن أبي
الصلت التيمي ، عن أبي سعيد ، عن أبي عبد الله بن وال التيمي ، قال : إني لعند
أمير المؤمنين ؛ إذا فيج^(١) قد جاءه يسعى بكتاب من قرظة بن كعب بن عمرو الأنصاري ، وكان
أحد عماله ، فيه :

لعبد الله على أمير المؤمنين من قرظة بن كعب ، سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد :

فإني أخبر أمير المؤمنين ، أن خيلامرت من قبل الكوفة متوجهة [نحو نحر] ^(٢) وأن رجلا
من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلى ، يقال له : زاذان فروخ ؛ أقبل من عند أخوال له ،
فلقوه ، فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم ، قالوا : فما تقول في علي ؟ قال : أقول
فيه خيرا ؛ أقول : إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيد البشر ووصي رسول الله صلى الله
عليه وآله ، فقالوا : كفرت يا عدو الله ! ثم حملت عليه عصابة منهم ، فقطعوه بأسيا ففهم ،
وأخذوا معه رجلا من أهل الذمة يهوديا ، فقالوا له : مدينك ؟ قال : يهودي ، فقالوا :

(١) الفيح : رسول السلطان على رجله ؛ فارسي معرب « بيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .

(٢) تكملة من تاريخ الطبري . ونفر : بلدة على نهر الترس

خَلُّوا سَبِيلَ هَذَا ، لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا ذَلِكَ الذِّمَى ، فَأَخْبَرَنَا الْخَبْرَ ، وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهُمْ ، فَلَمْ يَخْبِرْنِي أَحَدٌ عَنْهُمْ بِشَيْءٍ ، فَلِيَكْتُبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ بِرَأْيِ أُنْتِهِ إِلَيْهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ الْعَصَابَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِعَمَلِكَ ، فَقَتَلْتَ الْبَرَّ الْمُسْلِمَ ، وَأَمِنْ عِنْدَهُمُ الْخَالَفُ الْمَشْرُكُ ؛ وَإِنْ أَوْلَيْتَ قَوْمَ اسْتِهْوَامِ الشَّيْطَانِ فَضُلُومًا ، كَالَّذِينَ حَسَبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ، فَاسْمَعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ تَحْشُرُ أَعْمَالَهُمْ ، فَالْزِمْ عَمَلَكَ ، وَأَقْبِلْ عَلَى خِرَاجِكَ ؛ فَإِنَّكَ كَمَا ذَكَرْتَ فِي طَاعَتِكَ وَنَصِيحَتِكَ ، وَالسَّلَامُ .

قَالَ : فَكُتِبَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زِيَادِ بْنِ خَصْفَةَ ، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَالِ التَّيْمِيِّ ، كِتَابًا نَسَخْتُهُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَنْزِلَ دَيْرَ أَبِي مُوسَى حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي ؛ وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلِمْتُ أَيْنَ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ أَخَذُوا نَحْوَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى السَّوَادِ ، فَاتَّبَعْتُ آثَارَهُمْ وَوَسَّلْتُ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ مُسْلِمًا مُصَلِّيًّا ، فَإِذَا أَنْتَ لَحَقْتَ بِهِمْ فَارْدُدْهُمْ إِلَيَّ ، فَإِنْ أَبَوْا فَنَاجِزْهُمْ ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ فَارَقُوا الْحَقَّ ، وَسَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَخَافُوا السَّبِيلَ ، وَالسَّلَامُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ : فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ شَابٌّ ، فَضَيِّقَتْ بِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا أَمْضَى مَعَ زِيَادِ بْنِ خَصْفَةَ إِلَى عَدُوِّكَ ، إِذَا دَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَكَ ! فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي أَفْعَلْ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْ أَعْوَانِي عَلَى الْحَقِّ وَأَنْصَارِي عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّ أَنْ لِي بِمَقَالَتِهِ

تلك حُمْرَ النَّعَمِ ، فقلت له : يا أميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحب .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فرس رائع كريم ، وعلى السلاح ، فقال لي زياد : يا بن أخى ، والله ما لى عنك من غنى ، وإنى أحبُّ أن تكونَ معى فى وجهى هذا ، فقلت : إني قد استأذنتُ أمير المؤمنين فى ذلك فأذن لى ، فسُرَّ بذلك ، ثم خرجنا حتى أتينا الموضع الذى كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوما وليلة ، وقد استراحوا وعلفوا خيولهم ، فهم جامون مريحون ، وأتيناهم وقد تقطعنا ولغينا ونصبنا ؛ فلما رأونا وثبوا على خيولهم ، فاستووا عليها ، فجئنا حتى اتهمنا إليهم . فنادى الحرّيت بن راشد : يا عيمان القلوب والأبصار ، أمع الله وكتابه أتم أم مع القوم الظالمين ! فقال له زياد بن خصفة : بل مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه أثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تنفى لآثر الله عليها ، أيها العمى الأبصار ، الصمّ الأسماع !

فقال الحرّيت : فأخبرونا ما تريدون ؟ فقال له زياد - وكان مجرّبا رقيقا : قد ترى ما بنا من النصب واللغوب ، والذى جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رؤوس أصحابك ؛ ولكن تنزلون ونزل ، ثم نخلوا جميعا ، فنذاكر أمرنا وننظر فيه ؛ فإن رأيت فيما جئنا له حظا لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا أرجو فيه العافية لنا ولك ، لم أردّه عليك .

فقال الحرّيت : انزل ، فنزل ، فأقبل إلينا زياد ، فقال : انزلوا على هذا الماء ، فأقبلنا حتى اتهمنا إلى الماء ، فنزلنا به ، فما هو إلا أن نزلنا فنفترقنا ، فتحلّقنا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة ، تضع كل حلقة طعامها بين أيديها ، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب .

وقال لنا زياد : علقوا على خيولكم ، فعلقنا عليها مخاليها ، ووقف زياد في خمسة فوارس ؛ أحدهم عبد الله بن والٍ بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحّوا ، فزّلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرّقنا وتحلّقنا ، قال : سبحان الله أتم أصحاب حرب ! والله لو أنّ هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غرّتكم أفضل من أعمالكم التي أتم عليها ؛ تجلّوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمنا من يتوضأ ، ومنا من يشرب ، ومنا من يسقي فرسه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، وإن في يده لعرقا^(١) ينهسه قهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ، فشرب ثم ألقى العرق من يده ، وقال : يا هؤلاء ؛ إنا قد لقينا العدو ، وإن القوم لفي عدتكم ، ولقد حرّرتهم ، فإظنّ أحد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر ؛ فإني أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال ؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجز الفريقين .

ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم بعنان فرسه ، فإذا دنوت منهم وكلت صاحبهم ، فإن تابّعني على ما أريد ؛ وإلا فإذا دعوتكم فاستووا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معاً غير متفرّقين . ثم استقدّم أمانا وأنا معه ، فسمعت رجلاً من القوم يقول : جاءكم القوم ، وهم كاللون مغيون ، وأنتم جامئون^(٢) مريحون^(٣) ؛ فتركتهموم حتى نزّلوا فأكلوا وشربوا ، وأراحوا دوابهم ! هذا والله سوء الرأي !

قال : ودعا زياد أصحابهم الخريّت ، فقال له : اعتزل ننظر في أمرنا ، فأقبل إليه في خمسة نفر ؛ فقلت لزياد : أدعوك ثلاثة نفر من أصحابنا ؛ حتى نلقاهم في عددهم ؟ فقال : ادع من أحببت ، فدعوت له ثلاثة فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد : ما الذي نعت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ! فقال : لم أرض

(١) المرق : العظم بلحمه ، ويقال . نهش اللحم ، أي أخذه بمقدم أسنانه .

(٢) جم ، من الجمام وهو الراحة .

(٣) مريحين ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء .

صاحبكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة ، فرأيتُ أنْ اعتزلَ ، وأكونَ مع مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضا ، كنت مع الناس . فقال زياد : ويحك ! وهل يجتمع الناس على رجل يُداني عليّا علماً بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام ! فقال الخُرَيْت : هو ما أقول لك ، فقال : فقيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخُرَيْت : ما أنا قتلته ، قتلته طائفة من أصحابي ، قال : فادفونهم إلينا ، قال : ما إلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو ما نسمع .

قال : فدعونا أصحابنا ، ودعا الخُرَيْت أصحابه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله ما رأيت قتالا مثله منذ خلقني الله ، لقد تطاعنا بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انمخت ، وعُقرت ^(١) عامة خيلنا وخيلهم ، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتل مِنّا رجلان : مولى لزياد كانت معه رايته ، يدعى سويدا ، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكر ، وضُرِع منهم خمسة نفر ، وحال الليلُ بيننا وبينهم ؛ وقد والله كرهونا وكرهناهم ، وهرَّونا وهرَّزناهم ^(٢) ، وقد جرح زياد وجُرِحت ؛ ثم أنا بتنا في جانب وتنحَّوا ، فمكثوا ساعة من الليل ثم مضوا ، فذهبوا وأصبحنا ، فوجدناهم قد ذهبوا ؛ فوالله ما كرهنا ذلك ؛ ففضينا حتى أتينا البصرة ، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز ^(٣) ، فنزلوا في جانب منها ، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهم من القوة ما يهنؤون معهم حين نهضوا ؛ فاتبعوهم من بُعد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

قال : وكتب زياد بن خصفة إلى عليّ عليه السلام :

أما بعد فإننا لقينا عدو الله الناجي وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهدى والحق وكلمة

(١) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيوف .

(٢) هرونا وهرزناهم ؛ أى أى كرهونا وكرهناهم .

(٣) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

السواء ؛ فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالأثم ، وزَيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السبيل ؛ فقصّدونا وصمّدنا صمّدهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا ما بين قائم الظهر إلى أن دَلَكْتَ^(١) الشمس ، واستشهد منا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وِخْلُوا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح - ثم إنّ القوم لما أدركوا الليل خرّجوا من تحتهم متنكّرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغنى أنّهم نزلوا من الأهواز جانبا ، ونحن بالبصرة نداوى جراحنا ، وننتظر أمرك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قيس الرّياحى ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين ! إنّما كان ينبغي أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتهم في طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقوهم استأصلوا شأقتهم^(٢) ، وقطعوا دابرهم ؛ فأما أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمري ليصبرنّ لهم فإنّهم قوم عرب ، والعدة تصبر للعدة ، فيقاتلون كلّ القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهّزْ يا معقل إليهم ، ونَدَبْ معه ألفين من أهل السكوفة ، فيهم يزيد بن معقل ، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :
أما بعد ، فأبعث رجلا من قبلك صليبا شجاعا ، معروفاً بالصلاح في ألنيّ رجل من أهل البصرة ، فليتبّع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البصرة ، فهو أميرُ أصحابه حتى يَلْقَى معقلا ؛ فإذا لَقِيَهِ فمعقل أميرُ الفريقين ، فليسمع منه وليطعنه ولا يخالفه ؛ ومُرْ زياد بن خَصَفَة ، فليقبِلْ إلينا ، فنعم المرء زياد ، ونعم القبيلُ قبيله ! والسلام .

(١) دالكت الشمس : اصفرت وجنحت للعيب .

(٢) الشأفة في الأصل : فرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم استأصل الله شأفته ؛ أى أذهب كما تذهب الفرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفَة :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت به الناجيَ وأصحابه ، الذين طبع الله على قلوبهم ، وزين لهم الشيطانُ أعمالهم ؛ فهم حيارى عمون ، يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر ؛ فأما أنت وأصحابك فله سعيكم وعليه جزاؤكم . وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خيرُ له من الدنيا التي يُقبل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فَمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ . وأما عدوكم الذين لقيتم فحسبهم خروجهم من الهدى ، وارتكاسهم في الضلالة ، وردُّهم الحق ، وجاحهم في التَّيَّة ، فذرهم وما يفترون ، ودعهم في طغيانهم يعمهون ، فاشمع بهم وأبصر ؛ فكانت بهم عن قليل ، بين أسير وقَتيل ! فأقبل إلينا أنت وأصحابك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء ، والسلام .

قال : ونزل الناجي جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ رَمَنَ أراد كسر الخراج ، ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني ابن أبي سيف ، عن الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن قُعين ، قال : كنت أنا وأخي كعب بن قُعين في ذلك الجيش ، مع معقل بن قيس ، فلما أراد الخروج ، أتى أمير المؤمنين عليه السلام يودعه ، فقال : يامعقل بن قيس ؛ اتق الله ما استطعت ؛ فإنه وصية الله للمؤمنين ؛ لَا تَبْغِ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا تَظْلِمِ أَهْلَ الذِّمَّةِ وَلَا تَتَكَبَّرْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خيرُ مستعان .

ثم قام فخرج ، وخرجنا معه ؛ حتى نَزَلَ الأهواز ، فأقننا ننظر بَمَثَ البصرة ، فأبطأ علينا ، فقام مَعْقِل ، فقال : أيُّها الناس ؛ إنا قد انتظرنا أهلَ البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بنا بحمد الله قِلَّة ولا وَحْشَة إلى الناس ، فسيروا بنا إلى هذا العدو القليل الذليل ؛ فإني أرجو أن ينصرَكم الله ويُهْلِكهم . فقام إليه أخى كعب بن قُعَيْن فقال : أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك ، وإني لأرجو أن ينصرنا الله عليهم ؛ وإن كانت الأخرى ؛ فإن في الموت على الحقِّ لتعزيةً عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله ، فسيرنا ، فوالله مازال معقل ابن قيس لى ولأخى مُكْرِمًا مَوَادًّا ، ما يعدلُ بنا أحداً من الجند ، ولا يزال يقول لأخى : كيف قلت : إن في الموتِ على الحقِّ لتعزيةً عن الدنيا ! صدقت والله وأحسن ، ووفقت وفقتك الله ! قال : فوالله ما سيرنا يوماً ؛ وإذا بفتيج^(١) يشتدّ بصحيفة في يده .

من عبد الله ابن عباس إلى معقل بن قيس ، أما بعد ؛ فإن أدركك رسولى بالمكان الذى كنتَ مقياً به ، أو أدركك وقد شَخَصْتَ منه ؛ فلا تبرحَنَّ من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وأنت فيه ؛ حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك ؛ فقد وجهت إليك خالد بن معدان الطائى ؛ وهو من أهل الدين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه معقل ابن قيس على أصحابه ، فسرُّوا به ، وحمدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هالِكهم ، وأقننا حتى قدِم علينا خالد بن معدان الطائى ، وجاءنا حتى دخلَ على صاحبنا ، فسلمَ عليه بالإمرة ، واجتمعنا جميعاً فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجى وأصحابه ؛ فأخذوا يرتفعون نحو جبال رَامَهْرُمَز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهلُ البلد ، فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنوا من الجبل ، فصفقنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل معقل على ميمينته يزيد بن المعقل الأزديّ ، وعلى ميسرته منجباب بن راشد الضبىّ ، ووقف

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخِزْيَتِ بن راشد الناجي بمن معه من العرب ، فكانوا ميمنة ، وجعل أهل البلد والعُلُوجُ ^(١) ومن أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا مَعْقِلٌ يحرّضنا ، ويقول : يا عباد الله ، لا تبدهوا القوم ، وعضوا الأبصار ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب ، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم ؛ إنما تقاتلون مارقةً مرّقت ، وعُلُوجاً ^(٢) منعوا الخراج ، ولصوصاً وأكراداً ، فانتظروني ! فإذا حلتُ فشدّوا شدة رجل واحد .

قال : فرّ في الصف يكلمهم ، يقول هذه المقالة ؛ حتى إذا مرّ بالناس كلّهم أقبل فوقف وسط الصف في القلب ، ونظرنا إليه ما يصنع ، فحرك رأسه تحريكين ، ثم حمل في الثالثة ، وحملنا معه جميعاً ؛ فوالله ما صبروا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا ، وقتلنا سبعين عريباً من بني ناجية ، ومن بعض من اتبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العُلُوجِ والأكراد .

قال كعب : ونظرت ؛ فإذا صديقي مدرك بن الرّيان قتيلاً ، وخرج الخِزْيَتِ منهزماً ، حتى لحق بسيف ^(٣) من أسياف البحر ، وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف عليّ عليه السلام ، ويزّين لهم فراقه ، ويخبرهم أن الهدى في حربه ومخالفته ؛ حتى اتبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح ، وكنت أنا الذي قدّم بالكتاب عليه ، وكان في الكتاب :

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين ، من معقل بن قيس . سلام عليك ؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فإنّا لقينا المارقين ، وقد استظهروا علينا بالمشركين ،

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .

(٢) السيف ، بالسكس : ساحل البحر .

فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ نَاسًا كَثِيرًا ، وَلَمْ نَعُدْ فِيهِمْ سِيرَتَكَ ، فَلَمْ نَقْتُلْ مِنْهُمْ مُدْبِرًا وَلَا أَسِيرًا ؛ وَلَمْ نَذْفُقْ ^(١) مِنْهُمْ عَلَى جَرِيحٍ ، وَقَدْ نَصَرَكَ اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال : فلما قدمتُ بالكتابِ على عَلِيٍّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم في الرأي ، فاجتمع رأيُ عامتهم على قول واحد . قالوا : نرى أنْ تَكْتُبَ إلى معقل بن قيس ؛ يَتَّبِعَ آثارهم ، ولا يزال في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيتهم من أرض الإسلام ؛ فإنه لأننا من أن يُفْسِدُوا عليك الناس .

قال : فردّني إليه ، وكتب معي :

أما بعد ؛ فالحمدُ لله على تأييده أوليائه ، وخَذْلِهِ أعداءه ، جزاك الله والمسلمين خيرا ؛ فقد أحسّتم البلاء ، وقضيتُم ما عليكم ، فاسأل عن أخي بني ناجية ، فإنْ بَلَغَكَ أَنَّهُ اسْتَقَرَّ في بلد من البلدان . فسرّ إليه حتى تقتله ، أو تنفيه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدوا ، وللناسقين . ولما ، والسلام .

قال : فسأل معقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه ، فنبّئُ بمكانه بسيف البحر بفارس ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليٍّ عليه السلام ، وأفسد من قبله من عبد القيس ، ومنّ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صيفين ، ومنعوها في ذلك العام أيضا ، فسار إليهم معقل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى انتهوا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخريّتُ بن راشد بمسيره ، أقبل عليٌّ من كان معه من أصحابه ، يَمُنُّ يرى رأيَ الخوارج ، فأسرّ إليهم : أتى أرى رأيكم ، وأنّ عليّا ما كان ينبغي له أن يُحَكِّمَ الرجال في دين الله ، وقال لمن يرى رأيَ عثمان وأصحابه : إنّا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتِلَ مظلوما معقولا ؛ وقال لمن منع الصدقة :

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شَدُّوا أَيْدِيَكُمْ عَلَى صَدَقَاتِكُمْ ، ثُمَّ صَلُّوا بِهَا أَرْحَامَكُمْ ، وَعُودُوا إِنْ شِئْتُمْ عَلَى فَقَرَائِكُمْ ؛ فَأَرْضَى كُلَّ طَائِفَةٍ بِضَرْبٍ مِنَ الْقَوْلِ ؛ وَكَانَ فِيهِمْ نَصَارَى كَثِيرٌ ، وَقَدْ كَانُوا أَسْلَمُوا ؛ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ ، قَالُوا : وَاللَّهِ لَدَيْنَا الَّذِي خَرَجْنَا مِنْهُ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْ دِينِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَنْهَاهُمْ دِينُهُمْ عَنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ ، وَإِخَافَةِ السُّبُلِ ، فَرَجَعُوا إِلَى دِينِهِمْ .

فَلَقِيَ الْخُرَيْتُ أَوْلَئِكَ ، فَقَالَ : وَيُنَحِّمُكُمْ ! إِنَّهُ لَا يُنَجِّيْكُمْ مِنَ الْقَتْلِ إِلَّا الصَّبْرُ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَلِقَاتِلَهُمْ ، أَتَدْرُونَ مَا حُكْمُ عَلِيٍّ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ ! لَا وَاللَّهِ لَا يَسْمَعُ لَهُ قَوْلًا ، وَلَا يَرَى لَهُ عَذْرًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَةً ، وَلَا يَدْعُوهُ إِلَيْهَا ؛ وَإِنْ حَكَمَهُ فِيهِ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُهُ سَاعَةً يُسْتَمَكِّنُ مِنْهُ ؛ فَمَا زَالَ حَتَّى خَدَعَهُمْ ، وَجَاءَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْ بَنِي نَاجِيَةٍ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ؛ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ وَكَانَ مُنْكَرًا دَاهِيًا .

قَالَ : فَلَمَّا رَجَعَ مَعْقِلٌ ، قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ كِتَابًا مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ قَرِئَ عَلَيْهِ كِتَابِي هَذَا ؛ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَارِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمُرْتَدِينَ . سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ، وَابْعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَافِيًا بِعَهْدِ اللَّهِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَائِنِينَ ؛ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ؛ وَأَنْ أَعْمَلَ فِيكُمْ بِالْحَقِّ وَبِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، فَمَنْ رَجَعَ مِنْكُمْ إِلَى رَحْلِهِ ، وَكَفَّ يَدَهُ ، وَاعْتَزَلَ هَذَا الْمَارِقَ ^(١) الْهَالِكَ الْحَارِبَ ؛ الَّذِي حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فُسَادًا ، فَلَهُ الْأَمَانُ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ . وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَى حَرْبِنَا ، وَالْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِنَا ، اسْتَعْنَا بِاللَّهِ عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا ، وَالسَّلَامُ .

قَالَ : فَأَخْرَجَ مَعْقِلٌ رَايَةَ أَمَانٍ فَنَصَبَهَا ، وَقَالَ : مَنْ أَتَاهَا مِنَ النَّاسِ فَهُوَ آمِنٌ إِلَّا الْخُرَيْتُ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ نَابَذُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَتَفَرَّقَ عَنِ الْخُرَيْتِ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ ، وَعَبَّأَ مَعْقِلُ بْنُ قَيْسٍ أَصْحَابَهُ ، ثُمَّ زَحَفَ بِهِمْ نَحْوَهُ ، وَقَدْ حَضَرَ مَعَ الْخُرَيْتِ جَمِيعُ

قومه ! مسلمهم ونَصْرَانِيَّهم ؛ ومانعى الصدقة منهم ، فجعل مسلميهم يَمْنَةً ، والنصارى ومانعى الصدقة بَسْرَةً ، وجعل يقول لقومه : امنعوا اليوم حريمكم ، وقاتلوا عن نساءكم وأولادكم ، والله لئن ظهرنا عليكم ليقْتُلَنَّكم وليَسْلُبَنَّكم .

فقال له رجل من قومه : هذا والله ما جرَّته علينا يدك ولسانك ، فقال لهم : قاتلوا ، فقد سبقَ السيفُ العَدْلَ .

قال : وسار معقل بن قيس يحرّض أصحابه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيّها الناس ، ما تدرون ما سيق إليكم فى هذا الموقف من الأجر العظيم ! إنّ الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة ، وارتدّوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ، إني شهيد لمن قُتِلَ منكم بالجنة ، ومن عاش بإذن الله يُقَرَّرَ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف فى القلب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزديّ ، وهو فى الميمنة ؛ أن أحمل عليهم ، فحمل ، فقتلوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذى كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبّيّ ، وهو فى الميسرة : أن أحمل عليهم ؛ فحمل فقتلوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذى كان فى الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملت فاحملوا جميعا ؛ ثم أجرى فرسه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبيّ بَصُرَ بالخُرَيْتَ ، فحمل عليه ، فصرّعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جَرَّحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقُتِلَ معه فى المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقيون فى الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقل الخليل إلى رحاهم ، فسبى^(١) من أدرك فيها رجالا ونساء وصبياناً ، ثم نظر فيهم ، فَمَنَ كان مسلما خلاه وأخذ

بيعته ، وخلق سبيل عياله ، ومن كان ارتدّ عن الإسلام عَرَضَ عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا القتل ؛ فأسلموا ، فخلق سبيلهم ، وسبيل عيالاتهم ؛ إلا شيخاً منهم نصرانيا يقال له : الرملخس بن منصور ؛ فإنه قال : والله ما ظلت مصيباً مذعّلت ؛ إلا في خروجي من ديني ؛ دين الصدق ، إلى دينكم دين السوء ؛ لا والله لا أدع ديني ولا أقرب دينكم ما حييت .

فقدّمه معقل فضرب عنقه ، وجمع الناس : فقال : أدوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة ، فأخذ من المسلمين عقالين ، وعمد إلى النصارى وعيالاتهم فاحتلمهم معه ، وأقبل لمسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيعونهم ، فأمر معقل بردهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا ، تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضهم إلى بعض .

قال : فلقد رحمتهم رحمة مارحمتها أحداً قبلهم ولا بعدهم ، وكتب معقل إلى علي عليه السلام :

أما بعد ؛ فإني أخبر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوه ؛ إننا دفعنا إلى عدونا بأسيايف البحر ، فوجدنا بها قبائل ذات حدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا ، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة ، وإلى حكم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فالت إلينا طائفة منهم ، وثبتت طائفة أخرى ، فقبلنا أمر التي أقبلت ، وصمّدنا إلى التي أدبرت ، فضرب الله وجوههم ، ونصرنا عليهم ؛ فأما من كان مسلماً ؛ فإننا مننا عليه ، وأخذنا بيعته لأمر المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم ؛ وأما من ارتدّ فعرضنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلا قتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام ؛ غير رجل واحد فقتلناه ؛ وأما النصارى ؛ فإننا سبيناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل لدّمة ، كي لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترؤا على قتال أهل القبلة ؛ وهم للصغار والدّلة

أهل^١. رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم ، والسلام :

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وهو عامل لعلى عليه السلام على أردشير خُرة^(١) وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصاحب الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامل الثقل^(٢) ، يا مأوى الضعيف ، وفكّك العصاة ، امنن علينا فاشترنا واعتقنا ؛ فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدقنّ عليهم ؛ إن الله يجرى المتصدقين . فبلغ قوله معقل بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجعاً لهم ، وإزاء على لضربت عنقه ؛ وإن كان فى ذلك فناء بنى تميم وبكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذهل بن الحارث الذهليّ إلى معقل ، فقال : بغنى نصارى ناجية ، فقال : أبيعكم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزل يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ، ودفعهم إليه ، وقال : عجّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال مصقلة : أنا باعث الآن يصدر منه ، ثم أتبعك بصدر آخر ، ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء . وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أحسنّت وأصبت ووُفِّقّت . وانتظر على عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به ، وبلغ عليا عليه السلام أن مصقلة خلى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه فى فكّك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة ، ولا أراكم إلا سترونه عن قريب مُبلدحاً^(٣) ، ثم كتب إليه :

(١) أردشير خُرة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وباء ساكنة وراء ، وحاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وحاء : من كور فارس (مراصد الأطلاع).

(٢) الثقل . متاع الإنسان وحشمه .

(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإن من أعظم الخيانة خيانة ^(١) الأمة ، وأعظم الفسّ على أهل المضرّ غشّ الإمام ، وعندك من حقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلى حين يأتيك رسولى ؛ وإلا فأقبل إلى حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألا يدعّك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو حرّة الحنفى ، فقال له أبو حرّة : إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخص معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة ، وكان العمال يحملون المال من كور البصرة إلى ابن عباس ؛ فيكون ابن عباس هو الذى يبعث به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقرّه أيا ما لم يذكر له شيئا ، ثم سأله المال ، فأدّى إليه مائتى ألف درهم ، وعجّز عن الباقي .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصّلت ، عن ذهل بن الحارث ، قال : دعانى مصقلة إلى رحله ، فقدّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إن أمير المؤمنين عليه السلام يسألنى هذا المال ، والله ما أقدر عليه ، فقلت له : لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمع هذا المال ، فقال : ما كنت لأحملها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أن ابن هند مطّالجبى بها ، أو ابن عفان ، لتركها لى ؛ ألم ترى إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان فى كل سنة ! فقلت : إن هذا لا يرى ذلك الرأى ، وما هو بتارك لك شيئا . فسكت ساعة ، وسكت عنه ؛ فما مكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك عليا عليه السلام فقال : ماله ترحه الله ! فعل فعل السيّد وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ؛ أما إنه لو أقام فمعجز مازدنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئا أخذناه ،

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ١ ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .

وإن لم نجد له مالا تركناه . ثم سار على عليه السلام إلى داره فهدمها .

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيباني شيعاً لعل عليه السلام ، مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب ، يقال له حُلوان .

أما بعد ؛ فإني كُنتُ معاوية فيك ، فوعدك الكرامة ، ومَنَّاكَ الإمارة ، فأقبل ساعة تلقى رسولي ، والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرَّح به إلى على عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأ ثم قدمه فقطع يده ، فمات وكتب نعيم إلى مصقلة شعراً لم يردده عليه ^(١) .

لَا تَرْمِيَنَّ هَذَاكَ اللَّهُ مُعْتَرِضَا	بِالظَّنِّ مِنْكَ فَا بَالِي وَحُلُونَا
ذَاكَ الْحَرِيصُ عَلَى مَانَالٍ مِنْ طَمَعٍ	وَهُوَ الْبَعِيدُ فَلَا يُورِثُكَ أَحْزَانَا ^(٢)
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى إِسَالِهِ سَفَهًا	تَرْجُو سِقَاطَ امْرِئٍ لَمْ يُلَفَّ وَسَنَانَا
عَرَضْتَهُ لِعَلِيٍّ إِنَّهُ أَسَدٌ	يَمْشِي الْعَرَضَةَ مِنْ آسَادٍ خَفَانَا ^(٣)
قَدْ كُنْتَ فِي خَيْرٍ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعٍ	تَحْمِي الْعِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا ^(٤)
حَتَّى تَقَحَّمتَ أَمْرًا كُنْتَ تَكْرَهُهُ	لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا
لَوْ كُنْتَ أَدَيْتَ مَا لَ اللَّهِ مُصْطَبِرًا	لِلْحَقِّ زَكَّيْتَ أَخْيَانًا وَمَوْتَانًا ^(٥)
لَكِنْ لِحَقَّتْ بِأَهْلِ الشَّامِ مَلْتَمِسًا	فَضْلَ ابْنِ هَنْدٍ فَذَاكَ الرَّأْيُ أَشْجَانًا
فَالْيَوْمَ تَقْرَعُ سِنَّ الْعَجْزِ مِنْ نَدَمٍ ^(٦)	مَاذَا تَقُولُ وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَا!
أَصْبَحْتَ تَبْغِضُكَ الْأَحْيَاءَ قَاطِبَةً	لَمْ يَرْفَعِ اللَّهُ بِالْمُضِيَانِ إِنْسَانًا ^(٧)

(١) الأبيات في تاريخ الطبري ٧٦:٦ .

(٢) الطبري : « فلا يحزنك إذ خاننا » .

(٣) العرضة : البغي في المني من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٤) الطبري : « قد كنت في منظر عن ذا ومستمع » .

(٥) رواية الطبري :

لَوْ كُنْتَ أَدَيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِرًا لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَخْيَانًا وَمَوْتَانًا

(٦) الطبري : « سن الغرم » .

(٧) الطبري : « بالبغيض إنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أن النصراني قد هلك ، ولم يلبث التغلبيون إلا قليلا حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم ، فأتوا مصقلة ، فقالوا : أنت أهلكنا صاحبنا ؛ فإما أن نجيبنا به ، وإما أن تدب به ، فقال : أما أن أجيب به ، فليست أستطيع ذلك ؛ وأما أن أدب به ، ففهم ، فوداه .

قال إبراهيم : وحدثني بن أبي سيف ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال : قيل لعل عليه السلام حين هرب مصقلة : اردد الذين سبوا ولم تستوف أثمانهم في الرق ، فقال : ليس ذلك في القضاء بحق ؛ قد عتقوا إذ اعتقهم الذي اشتراهم ، وصار مالى ديننا على الذي اشتراهم .

وروى إبراهيم أيضا ، عن إبراهيم بن ميمون ، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التمار ، عن عمار الدُهني ، قال : لما هرب مصقلة قال أصحابُ علي عليه السلام له : يا أمير المؤمنين فإينأ ! قال : إنه قد صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه .

وقال ظبيان بن عمار ، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية شعرا :
هَلَّا صَبَرْتُ لِلْقِرَاعِ نَاجِيَا وَالْمَرْهَفَاتِ تَخْتَلِي الْهَوَادِيَا^(١)
وَالطَّنْ فِي نُحُورِكُمْ تَوَالِيَا وَصَائِبَاتُ الْأَسْهَمِ الْقَوَاضِيَا
وقال ظبيان أيضا :

أَلَا فَاصْبِرُوا لِلطَّنِّ وَالضَّرْبِ نَاجِيَا وَلِلْمَرْهَفَاتِ يَخْتَلِينَ الْهَوَادِيَا
فَقَدْ صَبَرَ رَبُّ النَّاسِ خِزْيَا عَلَيْنَا وَصَيْرَكُمْ مِنْ بَعْدِ عِزِّ تَوَالِيَا

(١) تختلي : تجز ، والهوادي هنا : الأعناق .

سَمَّاكُمْ بِالْخَيْلِ جُرْدًا عَوَالِيًّا أَخُو ثِقَةٍ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ غَازِيَا
فَصَبَّحَكُمْ فِي رَحْلِكُمْ وَخَيْوَلِكُمْ بِضَرْبِ يُرَى مِنْهُ الْمَدَجُّ هَاوِيَا
فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ وَكَثْرَةٍ عبيدَ العصا لَا تَمْنَعُونَ الذَّرَارِيَا

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه ، أنه لما بلغ عليا عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم ، قال : هوتُ أمه ! ما كان أنقصَ عقله وأجراه ! إنه جاءني مرة فقال : إنَّ في أصحابك رجالًا قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت إني لا آخذُ على التَّهمة ، ولا أعاقِب على الظَّن ، ولا أقاتل إلَّا مَنْ خالفني وناصبني ، وأظهر العداوة لي : ثم لست مقاتله حتى أدعوه ، وأعذر إليه ؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه ، وإن أبى إلا الاعتزَامَ على حربنا استعنا بالله عليه ، وناجزناه . فكفَّ عني ما شاء الله ، ثم جاءني مرة أخرى ، فقال لي : إني قد خَشِيتُ أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي ، إني سمعتهما يذكرا نك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلها أو توثقهما ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إني مستشيرُك فيهما ، فإذا تأمرني به ؟ قال : إني آمرك أن تدعوا بهما فتضرب رقابهما ، فعلمت أنه لا ورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ما أظنُّ لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغي لك أن تعلم أني لا أقتل مَنْ لم يقاتلني ، ولم يظهر لي عداوته للذي كنت أعلمتُكَّه من رأيي ، حيث جئتني في المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغي لك - لو أردتُ قتلهم - أن تقول لي : اتق الله ! بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينادوك ولم يخرجوا من طاعتك !

فأما ما يقوله الفقهاء في مثل هذا السَّبِي ، فقبلي أن نذكر ذلك نقول : إنَّ الروايةَ قد

اختلفت في المرتدين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التي رواها محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، تتضمن أن الأمير الذي من قبل على عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العود إلى الإسلام ، وسبى ذراريهم ، فقدم بها على على عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشترام مصقلة ذراري أهل الردّة .

والرواية الثانية التي رواها محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، تتضمن أن معقل بن قيس ، الأمير من قبل على عليه السلام لم يقتل من المرتدين من بنى ناجية إلا رجلا واحدا ، وأما الباقيون فرجعوا إلى الإسلام ، والاسترقاق إنما كان للنصارى الذين ساعدوا في الحرب وشهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدين ؛ بل نصارى في الأصل ، وهم الذين اشترام مصقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هي الصحيحة ففيها إشكال ؛ لأن المرتدين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقهم ، ولا أعرف خلافا في هذه المسألة ، ولا أظن الإمامية أيضا تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أن المرأة المرتدة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقها وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا في أن الذكور البالغين من المرتدين لا يجوز استرقاقهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدين من بنى ناجية على هذه الرواية ؛ على أني أرى أن الرواية المذكورة لم يصرح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مصقلة ، لأن لفظ الراوي : « فأبوا ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم فقدم بهم على على عليه السلام » ؛ وليس في الرواية ذكر استرقاقهم ولا بيعهم على مصقلة ؛ بل فيها ما ينافي ببيعهم على مصقلة ، وهو قوله « فقدم بهم على على عليه السلام » فإن مصقلة ابتاع السبي من الطريق في أزدشير خرو قبل قدومه على على عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : « فقدم بهم على على عليه السلام » .

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال : إذ كان قد قدم بهم على على عليه

السلام ، فصقلة من اشترى ، ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما في الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل : فما قولكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء ، ثم أولدوا ذرية صغارا بعد الردة ؛ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلا حلتهم الخبر عليه !
قيل : إذا ارتدّ الزوجان فحملت منه في حال الردة وأنت بولد كان محكوماً بكفره ؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعي قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إن ولد في دار الإسلام لم يجز استرقاقه ، وإن وُلِدَ في دار الحرب جاز استرقاقه فإن كان استرقاق هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولي الشافعي ، فلهذه ذاك .

وأما الرواية الثانية ، فإن كانت هي الصحيحة ؛ وهو الأولى فالفقه في المسألة أن الذمّي إذا حارب المسلمين ، فقد نقضَ عهده ، فصار كالشركيين الذين في دار الحرب ، فإذا ظفّر به الإمام جازاً استرقاقه ويبيعه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء في أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم ، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهي أن يزني الذمّي بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه ، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤدي للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلما .

فأصحاب الشافعي يقولون : إن شرط عليهم في عقد الذمة الكفّ عن ذلك ، فهل ينتقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك في عقد الذمة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوي من أصحاب أبي حنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شريطةا عن

الكف عنه في عقد الذمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قدا انتقض عهدهم بحرب المسلمين ، فأبيحت دماؤهم ،
وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين في دار الحرب ؛ وأما استرقاق
أبي بكر بن أبي قحافة لأهل الردة وسببهم ذراريهم ؛ فإن صح كان مخالفا لما يقول
الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدين ، إلا أن يقولوا إنه لم ينسب المرتدين ، وإنما سبى
من ساعدتهم وأعانهم في الحرب من المشركين الأصليين .
وفي هذا الموضع نظر .



ومنه خطبة له عليه السلام :

الأضل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا مَحْلُوفٍ مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ ،
وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ . الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .
وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنَى لَهَا الْفَنَاءُ ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا أَجْلَاءُ ، وَهِيَ حُلُوةٌ خَضْرَاءُ ، وَقَدْ
مَجَلَّتْ لِلطَّالِبِ ، وَالتَّبَسَّتْ بِقَلْبِ النَّاطِرِ ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِمَحْضَرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ ،
وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ .

الشرح :

مُنَى لَهَا الْفَنَاءُ ، أَيْ قُدِّرَ . وَالْأَجْلَاءُ ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه :
﴿ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْلَاءً ﴾ (١) .

وحلوة خضرة : مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ
خَضْرَاءُ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

وَالْكَفَافُ مِنَ الرِّزْقِ : قَدَرُ الْقُوَّةِ ؛ وَهُوَ مَا كَفَّ عَنْ النَّاسِ ؛ أَيْ أَغْنَى .
وَالْبَلَاغُ وَالْبُلْغَةُ مِنَ الْعَيْشِ : مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ .

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدهما حمد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفقد له نعمة » ، والفصل الثاني ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدهما غير مختلط بالآخر ولا منسوق عليه ؛ ولكن الرضى رحمه الله تعالى يلتقط كلام أمير المؤمنين عليه السلام التقاطا ، ولا يقف مع الكلام المتوالى ؛ لأن غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير ، ولو أتى بخطبه كلها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الذى جمعه .

[فصل بلاغى فى الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فشمئل من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك « غير مقنوط » فإنه وازنه فى الفقرة الثانية بقوله : « ولا مخلو » . ألا ترى أن كل واحدة منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال فى الفقرة الثالثة : « ولا مأیوس » ، فجاء بها على وزن « مفعول » أيضا ؛ ولم يمكنه فى الفقرة الرابعة ما أمكنه فى الأولى ، فقال : « ولا مستنكف » فجاء به على وزن « مستفعل » ؛ وهو وإن كان خارجا عن الوزن ؛ فإنه غير خارج عن المفعولية ؛ لأن « مستفعل » « مفعول » فى الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسن ؛ ألا ترى أن « مستحسنا » من استحسنة ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، وبين « رحمة » و « نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطلاوة والصنعة ما لا تجده عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلو من نعمته » ، ولا مبعد من رحمته « لأن « مبعد » بورن « مفعول » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تنزل منه رحمة » ؛ فإن « تنزل » ليست فى المائلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ؛ وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : « لا تبرح منه رحمة ولا يفقد له إناعام » فإن « إناعام » ليس في وزن « رحمة » ، والموازنة مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء . والموازنة أعم من السجع ، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردتها على حرف واحد ؛ نحو القريب ، والغريب ، والنسيب ؛ وما أشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب ، والشديد ، والجليل ؛ وما كان هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحدا ، وكل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة في الكتاب العزيز : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ تَوَزَّؤُمَ آزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ^(٢) فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال في الشعر قوله :

بأشدهم بأساً على أعْدائِهِمْ وَأَعَزَّهم فَقْدًا عَلَى الْأَضْحَابِ

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقدا » بإزاء « بأسا » .

والموازنة كثيرة في الكلام وهي في كتاب الله تعالى أكثر .

[نبذ من كلام الحكماء في مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصل الثاني فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالكفاف ؛ فأما التحذير من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا ؛ وأما القناعة فقد وُرد فيها شيء كثير .

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨

(٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأخوين من الأنصار: « لا تَنِيَّاسَا من رَوْحِ الله ما تَهَزَّهَزَتْ رُءُوسُكُمْ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ يُولَدُ لَا قِشْرَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَكْسُوهُ اللهُ وَيُرْزُقُهُ » .
وعنه صلى الله عليه وسلم - وَيُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا يَنفَدُ » .

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم « كفى بالقناعة عِزًّا ؛ وبطيب النفس نعيمًا » .
ومن كلام عيسى عليه السلام : اتَّخِذُوا البيوتَ منازلَ ، والمساجدَ مساكنَ ، وكلُوا من بَقْلِ البرية ، واشربوا من الماءِ القراحِ ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى انقطعتم إلى غير الله فما ضيَعكم ، أَفتَخافون الضَّيْعَةَ إذا انقطعتم إليه !
وفي بعض الكتب الإلهية القديمة : يقول الله تعالى : يَا بَنَى آدَمَ ، اتَّخَفْ أَنْ أَقْتَلَكَ بِطَاعَتِي هَزَلًا ، وَأَنْتَ تَتَفَتَّقُ بِمَعْصِيَتِي سِمْنًا !

قال أبو وائل : ذهبتُ أَنَا وصاحب لى إلى سلمان الفارسي ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أَنَّ رسول الله صلى الله عليه نَهَى عن التَّكَلُّفِ لتَكَلَّفْتُ لَكُمْ ، ثُمَّ جَاءَ بِمُخْبِزٍ وَمِلْحٍ سَازِجٍ لَا أَزَارُ عَلَيْهِ ، فقال صاحبي : لو كَانَ لنا في مِلْحِنَا هذا سَعْتَرٌ^(١) ! فبعثَ سلمان بِمِطْهَرَتِهِ ، فَرَهْنَهَا على سَعْتَرٍ ، فلما أَكَلْنَا قال صاحبي : الحمد لله الذى قَنَعَنَا بما رَزَقَنَا ، فقال سلمان : لو قَنَعْتُ بما رَزَقَكَ لم تَكُنْ مِطْهَرَتِي مرهونة .

عباد بن منصور ، لقد كان بالبصرة مَنْ هو أَفْقَهُ من عَمْرِو بنِ عُبيدٍ وَأَفْصَحَ ؛ وَلَكِنَّهُ كانَ أَصْبَرَهُم عن الدينار والدرهم ، فَسادَ أَهلَ البَصْرَةِ .

قال خالد بن صفوان لعمر بن عبيد : لم لا تَأْخُذُ مِنِّي ؟ فقال : لا يَأْخُذُ أَحَدٌ من أَحَدٍ إِلَّا ذَلَّ لَهُ ؛ وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَذِلَّ لِغَيْرِ اللهِ .

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره ابيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عُبيد من دار وِريثها ؛ كان يأخذ أجرتها في كلِّ شهر ديناراً واحداً فيتبلَّغ به .

الخليل بن أحمد ، كان الناس يكتسبون الرغائب بعلمه ، وهو بين أخصاص البصرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلبها .

وهب بن منبه : أرملتُ مرّةً حتى كدت أقنط ؛ فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبه لوزة ، فقال : افضُضْ ، ففضضتها ؛ فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغي لمن عَقَلَ عن الله أمره ، وعرف الله عدله ، أن يستبطي الله في رزقه ؛ فقنعت وصبرت ؛ ثم أعطاني الله فأكثر .

قيل للحسن عليه السلام : إن أبا ذرٍّ كان يقول : الفقرُ أحبُّ إلى من الغنى ، والسَّقمُ أحبُّ إلى من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرٍّ ، أما أنا فأقول : من اتَّكَل إلى حُسْن الاختيار من الله لم يتمنَّ أنه في غير الحال التي اختارها الله له ؛ لعمري يا ابن آدم ، الطير لا تأكل رَغداً ، ولا تخبأ لعد ؛ وأنت تأكل رغداً ، وتخبأ لعدٍ ؛ فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزَّ وجلَّ .

حبَّس عمر بن عبد العزيز الغدَاء عن مَسَلَمَة ، حتى برَّح به الجوع ، ثم دعا بسويق فسقاه ، فلما فرَّغ منه لم يقدرْ على الأكل ، فقال : يا مَسَلَمَة ، إذا كفأك من الدنيا ما رأيت ، فعلامَ التهافت في النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدَّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجةً أرفع من الرضا ؛ وهو رأس المحبة .

قال ابن شبرمة في محمد بن واسع : لو أن إنساناً اكتفى بالتراب لا كتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادي المتسخطين لرزقي ، إياكم أن أغضب فأنسبط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فَسَكِرَ ، ففَاتَتْهُ الصلاة ، فجاءت جارية له بِجَمْرَةٍ نار ، فوضعتها على رجله ، فانتبه مذعوراً ، فقالت : إنك لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الْفَضِيل وابن عُيَيْنَةَ ؛ فإذا تحت رأسه لبنة ، وليس تحت جنبه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنَا أَنَّهُ لم يدعْ أحداً شيئاً لله إلا عَوَّضَهُ خيراً منه ، فما عَوَّضَكَ ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصابَت داود الطائى ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبى حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود : هى لعمري من مال رجل ما أقدم عليه أحداً فى زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنت قابلاً من أحدٍ شيئاً لقبلتها إعظاماً للميت ، وإيجاباً للحى ، ولكنى أحبُّ أن أعيشَ فى عزِّ القناعة .

سفيان الثوري : ما أكلتُ طعاماً أحدي قط إلا هُنت عليه .

مسعر بن كدام : مَنْ صَبَرَ على الخُلِّ والبَقْلِ لم يُسْتَعْبَدْ .

فضيل : أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعَبْدِهِ ، ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها تطعمه مرّة خبيصاً ^(١) ومرّة صَبِراً ، تريد بذلك ما هو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذى كبت الدنيا على وجهها ، وقدرتها بقدرها ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، وسادى الحجر ، وفراشى المَدَر ، وسراجى القَمَر .

أمير المؤمنين عليه السلام أكل تَمْرَ دَقْلٍ ^(٢) ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال : من أدخلته بطنه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإِنَّكَ إِنِ اعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُوءَ لَهُ وَفَرَجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الدَّمِ أَجْمَعَا ^(٣)

(١) الخبيص : التمر الممول من السمن والعتل .

(٢) الدقل : أردأ التمر

(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٧ (طبع بيروت) .

في الحديث الصحيح المرفوع : « إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا ، فَأَجْلُوا في الطَّلَبِ » .

من كَلَامِ الحُكَمَاءِ ، من ظَفَرٍ باقِنَاعَةٍ فَقَدَ ظَفِيرٌ بالكيمياء الأعظم .

الحسن : الحريص الراغب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أَجَلَهُ ، مستكملٌ أَكْلَهُ ؛ غير مُزْدَادٍ وَلَا مُنْتَقَصٍ مِمَّا قُدِّرَ لَهُ ، فعَلَامُ التَّحَقُّمِ في النَّارِ !

ابن مسعود ، رَفَعَهُ : « إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ بِأَكْيَسَ مِنْ أَحَدٍ ؛ قَدْ كُتِبَ النَّصِيبُ وَالْأَجَلُ ، وَقُسِمَتِ الْمَعِيشَةُ وَالْعَمَلُ ؛ وَالنَّاسُ يَجْرُونَ مِنْهُمَا إِلَى مَنْتَهَى مَعْلُومٍ » .

المسيح عليه السلام : انظروا إلى طير السماء تغدو وتروح ، ليس معها شيء ، من أرزاقها ، لَا تَحْرُثُ وَلَا تَحْصُدُ ؛ وَاللَّهُ يَرْزُقُهَا ، فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْسَعُ بَطُونًا مِنَ الطَّيْرِ ؛ فَهَذِهِ الْوَحُوشُ مِنَ الْبَقَرِ وَالْحُمْرِ ، لَا تَحْرُثُ وَلَا تَحْصُدُ ؛ وَاللَّهُ يَرْزُقُهَا .

سويد بن غفلة : كَانَ إِذَا قِيلَ لَهُ : قَدْ وَلِيَ فُلَانٌ ، يَقُولُ : حَسْبِي كِسْرَتِي وَمِلْحِي .

وفد عروة ^(١) بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلَّتَهُ ، فقال له :

أَلَسْتُ الْقَاتِلَ :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعِينَنِي تَطَلُّبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَا يُعِينَنِي

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطالب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام في الليل ، فسأل عنه فقيل : إِنَّهُ رَجَعَ إِلَى الْحِجَازِ ، فَتَذَمَّرَ وَنَدِمَ ، وَقَالَ : رَجُلٌ قَالَ حِكْمَةً ، وَوَفَدَ كُلَّ مُسْتَجِدِّيًا ، فَبِجْهَتِهِ ،

ورددته ! ثم وجه إليه بالنى درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ، فدفعها إليه ، فقال له : قل
لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سميت فأكدت ، وقعدت فى منزلى فأتانى رزقى .
عمر بن الخطاب : تعلم أن الطمع فقر ؛ وأن اليأس غنى ، ومن يئس من شيء
استغنى عنه .

أهدى لرسول الله صلى الله عليه وآله طائران ، فأكل أحدهما عشية ، فلما أصبح
طلب غداء ، فأتته بعض أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : « ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغيري ، فإن
من خلق الغد خلق رزقه » .

وفى الحديث المرفوع : « قد أفلح من رزق كفاً وقنع الله بما آتاه » .
من حكمة سليمان عليه السلام : قد جربنا لين العيش وشدة ، فوجدنا
أهنأ أدناه .

وهب ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ^(١) قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أُعْسِرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظُنَّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءً فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقِيلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلِ
وَلَوْ أَنَّ الْعُقُولَ تَجَرَّتْ رِزْقًا لَكَانَ الْمَالُ عِنْدَ ذَوَى الْعُقُولِ

عائشة ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن أردت اللّحوق بى فيكفيك من
الدنيا زاد الراكب ، ولا تخلقى ثوبا حتى ترّقعية ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء » .

يقال : إن جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال : « لاحتاجة لى فيها ، بل جوعتان وشبعة » .

وُجِدَ مكتوبا على صخرة عادِيَّة ^(١) : يا بنَ آدم ، لست ببالغ أَمَلَك ، ولا سابقِ أَجَلَك ، ولا مغلوبٍ على رزقك ، ولا مرزوق ماليس لك ، فعلامَ تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يَارَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُهُ حَسَمَ المَطامِعَ مِنْ غَدٍ وَغَدٍ
مَنْ لَمْ يَسْكُنْ لِلَّهِ مُتَمِّمًا لَمْ يُنْمَسِ مُتَحَاجًّا إِلَى أَحَدٍ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أندري لم رزقتُ الأحق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أن طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَطُ ^(٢) يوسف بن يعقوب عليه السلام فى الحبِّ لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فَتَنَظَّرْ فانفرج الحائط عن ذَرَّةٍ على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أترانى لا أَغْفُلُ عن هذه الذَّرَّةِ ؛ وأَغْفُلُ عنك ، وأنت نبى ابن نبى !

دخل على عليه السلام المسجد ، وقال لرجل : أَمْسِكْ على بَغَاتِي ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج على عليه السلام بعدما قَضَى صَلَاتَهُ ، ويده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُظْلًا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ؛ ليشتري بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق فى السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ؛ فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه ؛ فقال على عليه السلام : « إنَّ العبدَ ليحرمُ نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ؛ ولا يزداد على ما قُدِّرَ له » .

(١) عادِيَّة ، أى قديمَة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .

(٢) قَنَط قنوطا ؛ أى يش .

سليمان بن المهاجر البجلي .

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجَمِي فَصَانَهُ بِهِ اللَّهُ عَنْ غَشِيَانِ كُلِّ بَخِيلٍ
فَلَمْ يَتَبَذَّلْنِي الْبَخِيلُ وَلَمْ أَقُمْ عَلَى بَابِهِ يَوْمًا مَقَامَ ذَلِيلٍ
وَإِنْ قَلِيلًا يَسْتُرُ الْوَجْهَ أَنْ يُرَى إِلَى النَّاسِ مَبْذُولًا لَغَيْرُ قَلِيلٍ

وقف بعض الملوك على سُقْرَاط وهو في المَشْرِفَةِ ، فقال له : سَلْ حاجَتَكَ ، قال :
حاجتي أَنْ تُزِيلَ عَنِّي ظِلَّكَ ، فقد منعَتني الرِّفْقُ بِالشَّمْسِ ؛ فأحضرَ له ذهبًا وكُسوة
ديباج ، فقال : إِنَّهُ لَاحَاجَةٌ لِسُقْرَاطِ إِلَى حِجَارَةِ الْأَرْضِ وَلُعَابِ الدُّودِ ؛ إِنَّمَا حَاجَتُهُ إِلَى أَمْرٍ
يَصْحَبُهُ حَيْثَا تَوَجَّهَ .

صَلَّى معروف الكرخي خَلْفَ إِمَامٍ ؛ فلما انْفَتَلَ سَأَلَ ذَلِكَ الْإِمَامَ مَعْرُوفًا : مَنْ أَيْنَ
تَأْكُلُ ؟ قال : اصْبِرْ عَلَى حَتَّى أُعِيدَ مَا صَلَّيْتَهُ خَلْفَكَ ؛ قال : لَأَنْ مَن شَكَّ فِي الرِّزْقِ شَكَّ
فِي الرَّاغِقِ ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفْسَ وَجَدًّا وَحَسْرَةً عَلَى الشَّيْءِ أَسَدَاهُ لَغَيْرِكَ قَادِرُهُ^(١)
وَلَا تَتَيَأْسَنْ مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ وَإِنْ كَانَ نَصًّا بَيْنَ أَيْدٍ تَبَادِرُهُ
فَإِنَّكَ لَا تُعْطَى أَمْرًا حَظًّا نَفْسِهِ وَلَا تَمْنَعُ الشَّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُهُ

قال عمر بن الخطاب لعلی بن أبی طالب علیه السلام : قد ملئتُ الناسَ ، وأُحِبُّتُ
أَنْ أَلْحَقَ بِصَاحِبِي ، فقال : إِنْ سَرَّكَ الْأُحُوقُ بِهِمَا فَقَصِّرْ أَمْلَكَ ، وَكُلْ دُونَ الشَّيْعِ ،
وَاخْصِفِ النَّمْلَ^(٢) وَكُنْ كَغِيْشِ^(٣) الْإِزَارِ ، مَرْقُوعِ الْقَمِيصِ ، تَلْحَقُ بِهِمَا .

(١) : ١ : « سداه لغيرك » ؛ أي أعطاه .

(٢) خصف النمل : خرزها بالخصف .

(٣) يقال : كش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء المعجم :

غَلَا السَّعْرُ فِي بَغْدَادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ وَإِنِّي فِي الْحَالَتَيْنِ بِاللَّهِ وَاسْتَقِي
فَلَسْتُ أَخَافُ الضِّيقَ وَاللَّهُ وَاسِعٌ غِنَاهُ ، وَلَا الْحِرْمَانَ وَاللَّهُ رَازِقٌ

قيل لعلي عليه السلام : لو سُدَّ على رجلٍ باب بيت وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : من حيث كان يأتيه أجله .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النَّفْسَ لَا أَجْزَعُ مِنْ حَادِثَةِ الدَّهْرِ
رَأَيْتُ الرِّزْقَ لَا يُكْسَبُ بِالْعُرْفِ وَلَا النُّكْرِ
وَلَا بِالسَّلَفِ الْأَمْثَلِ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالذِّكْرِ
وَلَا بِالسُّمْرِ الْأَذْنِ وَلَا بِالْخُذَمِ الْبُئْرِ^(١)
وَلَا بِالْعَقْلِ وَالِدِّينِ وَلَا الْجَاهِ وَلَا الْقَدْرِ
وَلَا يُدْرِكُ بِالطَّيْشِ وَلَا الْجَهْلِ وَلَا الْهَذْرِ
وَلَكِنْ قِسْمٌ تَجْرِي بِمَا نَدْرِي وَلَا نَدْرِي

جاء فتح بن شخرف إلى منزله بعد العشاء ، فلم يجد عندهم ما يتعشى به ، ولا وجد دهنًا للسراج وهم في الظلمة ، فجلس ليله يبكي من الفرح ، ويقول : بأى يد قد كانت منى ، بأى طاعة تنعم على بأن أترك على مثل هذه الحال !

لقى هَرَم بن حَيَّان أويسا القرني ، فقال : السلام عليك يا أويس بن عامر ! فقال : وعليك السلام يا هَرَم بن حيان ، فقال هَرَم : أما إنني عرفتُك بالصفّة ، فكيف عرفتني ؟ قال : إن أرواح المؤمنين لتشام كما تشام الخليل ، فيعرف بعضها بعضها . قال : أوصني ،

(١) الدهر : جمع أسمر؛ وهو الرمح اللدن . والخذم : جمع الخاذم ؛ أى القاطع .

قال : عليك بسيف البحر ، قال : فمن أين المعاش ؟ قال : أفـ لك ! خالطت الشك
الموعظة ، أتفر إلى الله بدينك وتتهمه في رزقك !

منصور الفقيه :

المَوْتُ أَهْلُهُ عِنْدِي بَيْنَ الْقَنَاءِ وَالْأَسْنَةِ
وَالْخَلِيلُ تَجْرِي سِرَاعًا مَقْطَعَاتِ الْأَعْنَةِ
مِنْ أَنْ يَكُونَ لِنَذْلٍ عَلَى فَضْلٍ وَمِنَّةٍ

أعرابي :

أَتَيْتُ أَنْ يَقَارِكَ النَّجَاحُ فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ الْمُتَاحُ^(١)

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصني ، قال : « إِيَّاكَ وَالطَّمَعُ ؛ فَإِنَّهُ فَقْرٌ
حَاضِرٌ ، وَعَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » .

حكيم : أَحْسَنُ الْأَحْوَالِ حَالُ يَفِطُّكَ بِهَا مَنْ دُونَكَ ، وَلَا يَحْقِرُكَ لَهَا مَنْ فَوْقَكَ .

أبو العلاء المعري :

فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى الْعِيشَ فَابْغِ تَوْشِطًا فَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْصُرُ الْمَتَّاعُ
تَوَقَّى الْبِدُورُ النَّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيُذَكِّرُهَا النُّقْصَانُ ، وَهِيَ كَوَامِلُ

خالد بن صفوان : كُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ حَالًا ، أَقْلَ مَا تَكُونُ
فِي الْبَاطِنِ مَالًا ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ كَرُمَتْ عِنْدَ الْحَاجَةِ خَلَّتْهُ^(٢) ، وَاللَّيْمُ مَنْ لَوُمْتُ عِنْدَ
الْفَاقَةِ طَعْمَتُهُ .

(١) التناح : الميأ .

(٢) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَ كَمْ مَلِكٍ جَانِبُهُ مِنْ كَرَاهَةٍ لِإِغْلَاقِ بَابِ أَوْ لِتَشْدِيدِ حَاجِبِ
وَلِي فِي غَنَى نَفْسِي مَرَادٌ وَمَذْهَبٌ إِذَا أُبْهِمَتْ دُونِي وَجُوهُ الْمَذَاهِبِ ^(١)

بعض الحكماء : ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالدعوى إلى الوليمة، إن أتنه صحفة تناولها،
وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .



(١) أبهم الأمر ؟ إذا اشتبه .

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على السير إلى الشام :

الأفضل :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ
فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ . اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ،
وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضْعَبًا ، وَالْمُسْتَضْعَبُ
لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا .

قال الرضى رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وَقَدْ قَفَاهُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَبْلَغِ كَلَامٍ ، وَتَمَّمَهُ بِأَحْسَنِ تِمَامٍ ، مِنْ قَوْلِهِ : «وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ» ،
إِلَى آخِرِ الْفَصْلِ .

الشرح :

وَعْثَاءُ السَّفَرِ : مشقته ، وأصل الوعث المكان السهل الكثير الدَّهْسِ ، تَغِيبُ
فيه الأقدام ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه . أَوْعَثَ الْقَوْمَ ، أَيْ وَقَعُوا فِي الْوَعَثِ . وَالْكَآبَةُ :
الْحُزْنُ . وَالْمُنْقَلَبُ ، مصدر ، من انقلب منقلبًا ، أَيْ رَجَعَ ، وَسُوءُ الْمَنْظَرِ قُبْحُ الْمَرَأَى .

وصدر الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في المسانيد الصحيحة ،
وختمه أمير المؤمنين عليه السلام ، وتممه بقوله : « ولا يجمعهما غيرك » ؛ وهو الصحيح ؛
لأنَّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لا يكون مستخلفاً ؛ فإنه مستحيل أن يكون الشيء الواحد في المكانين
مقيماً وسائراً ؛ وإنما تصح هذه القضية في الأجسام ؛ لأنَّ الجسم الواحد لا يكون في جنتين
في وقت واحد ؛ فأما ما ليس بجسم وهو الباري سبحانه ؛ فإنه في كل مكان ؛ لا على معنى
أنَّ ذاته ليست مكانية ؛ وإنما المراد علمه وإحاطته ونفوذ حكمه وقضائه وقدره ؛ فقد صدق
عليه السلام أنه المستخلف وأنه المستصحب ؛ وأنَّ الأمرين مجتمعان له جل اسمه .

وهذا الدعاء دعا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضَعِ رجله في الركاب ، من منزله
بالكوفة متوجّها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نصر بن مزاحم في كتاب
” صفين “^(١) ، وذكره غيره أيضاً من رواة السيرة .

[أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وَضَعَ علىّ عليه السلام رجله في ركاب دابته يوم خرج من الكوفة إلى
صِفِّين ، قال : بسم الله ؛ فلما جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا
وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾^(٢) ، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثَاءِ السَّفَرِ ...
إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « وَمِنَ الْخَيْرَةِ بَعْدَ الْيَقِينِ » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ
ابن سهم بن طريف ، وهو يرتجز ويقول :

يَا فَرَسِي سِيرِي وَأُمِّي الشَّامَا وَقَطْعِي الْخَزُونَ وَالْأَعْلَامَا^(٣)
وَنَابِذِي مَنْ خَالَفَ الْإِمَامَا إِنِّي لِأَرْجُو إِنْ لَقِينَا الْعَامَا

(١) كتاب صفين ١٤٩ .

(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .

(٣) صفين : « وأقطعي » ، والخزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمَعَ بَنِي أُمَيَّةَ الطُّغَمَاءَ^(١) أَنْ نَقُتَلَ الْعَاصِيَ وَالْهُمَامَا
* وَأَنْ تُزِيلَ مِنْ رِجَالِ هَامَا *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَةِ عَلِيٍّ عليه السلام ، وهو آخِذٌ بِعِنَانٍ دَابَّتِهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أُنْخَرِجُ بِالْمُسْلِمِينَ فَيُصَيَّبُوا أَجْرَ الْجِهَادِ بِالْقِتَالِ ، وَتُخَلَّفَنِي بِالْكُوفَةِ لِحُسْرِ الرِّجَالِ ! فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُمْ لَنْ يُصَيَّبُوا مِنَ الْأَجْرِ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ؛ وَأَنْتَ هَاهُنَا أَعْظَمُ غَنَاءَ عَنْهُمْ مِنْكَ لَوْ كُنْتَ مَعَهُمْ . فَخَرَجَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى إِذَا حَازَى الْكُوفَةَ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ^(٢) .

قال : وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ ، عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَنْ آبَائِهِ : أَنَّ^(٣) عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ وَهُوَ يَرِيدُ صِفِّينَ ؛ حَتَّى إِذَا قَطَعَ النَّهْرَ ، أَمَرَ مُنَادِيَهُ ، فَنَادَى بِالصَّلَاةِ ؛ فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ؛ حَتَّى إِذَا قَضَى الصَّلَاةَ ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ أَلَا مَنْ كَانَ مُشِيعًا أَوْ مُقِيمًا فَلَيْتَمَ الصَّلَاةُ ؛ فَإِنَا قَوْمٌ سَفَرٌ . أَلَا وَمَنْ صَحَبَنَا فَلَا يَصُومَنَّ الْمَفْرُوضَ ، وَالصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ رَكْعَتَانِ .

قال نصر : ثُمَّ^(٤) خَرَجَ حَتَّى نَزَلَ دِيرَ أَبِي مُوسَى ، وَهُوَ مِنَ الْكُوفَةِ عَلَى فَرَسَيْنِ ، فَصَلَّى بِهِ الْعَصْرَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ذِي الطَّوْلِ وَالنَّعْمِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ذِي الْقُدْرَةِ وَالْإِفْضَالِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ الرَّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى أَمْرِهِ ؛ إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

قال نصر : ثُمَّ^(٥) خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى نَزَلَ عَلَى شَاطِئِ نَرَسٍ^(٥) بَيْنَ مَوْضِعِ حَمَامِ أَبِي بُرْزَةَ وَحَمَامِ عَمْرِ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ الْمَغْرِبَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُؤَلِّجُ

(١) الطُّغَمَاءُ : أَوْغَادُ النَّاسِ .

(٢) كِتَابُ صِفِّينَ : « حَتَّى إِذَا جَازَ حَدَّ الْكُوفَةِ » .

(٣) كِتَابُ صِفِّينَ ١٥٠

(٤) كِتَابُ صِفِّينَ ١٥١ .

(٥) نَرَسٌ ، بِالْفَتْحِ ثُمَّ السُّكُونِ وَآخِرُهُ سِينٌ مُهْمَلَةٌ : نَهْرٌ حَفَرَهُ نَرْسِيُّ بْنُ بَهْرَامٍ بَنُو أَحْيَى الْكُوفَةِ ؛ مَاخِذُهُ مِنَ الْفَرَاتِ ، وَعَلَيْهِ عِدَّةُ قُرَى . (مُرَاصِدُ الْأَطْلَاعِ) .

الليل في النهار ، ويوجل النهار في الليل ؛ والحمد لله كلما وَقَبَ ليل وغَسَقَ ؛ والحمد لله كلما لاح نجم وخَفَقَ .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبَيْن^(١) ، وفيها نخل طُوال إلى جانب البَيْعة من وراء النهر ؛ فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ . ثم أقحم دابته النهر ، فعَبَرَ إلى تلك البيعة فنزلها ، ومكث قَدَر الغداء .

قال نصر : وحدَّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم قال : إني^(٢) لأنظر إلى أبي وهو يسير عليا عليه السلام ، وعلى يقول له : إنَّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرك دابتك لعلنا نصلي العصر خارجا منها . فحرك دابته ، وحرك الناس دوابهم في إثره ؛ فلما جاز جِسْر الفرات^(٣) ، نزل فصلى بالناس العصر .

قال : حدثني عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفي ، عن أبيه ، عن عبد خير ، قال : كنت مع عليٍّ أسير في أرض بابل ، قال وحضرت الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا لانأى مكانا إلا رأيناه أُفَيِّح من الآخر ؛ قال : حتى أتينا على مكان أحسن مارأينا ؛ وقد كادت الشمس أن تغيب . قال : فنزل عليٌّ عليه السلام ، فنزلت معه . قال : فدعا الله ، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر ، قال : فصليت العصر ، ثم غابت الشمس ، ثم خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فاتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزْل^(٤) والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم ، فلما أصبح وهو مُظْلَم سَاباط^(٥) ،

(١) قُبَيْن ، بالضم ثم السكون والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .

(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل - يعني أبا مخنف ، عن ٤٠ ابن مخنف » .

(٣) صفين : « جسر الصراة » ؛ والصراة من أنهار الفرات .

(٤) النزول : طعام الضيف .

(٥) مظلم سَاباط ؛ موضع مضاف إلى سَاباط التي بقرب المدائن ؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ: ﴿أَتَبْنُونَ بَيْتًا رِيعَ آيَةٍ تَعْبَثُونَ﴾^(١).

قال نصر وبلغ عمرو بن العاص مسيره فقال :

لَا تَحْسَبْنِي يَا عَلِيَّ غَافِلًا لِأُورِدَنَّ السَّكُوفَةَ الْقَنَابِلَا^(٢)

* بِجَمْعِي الْعَامَ وَجَمْعِي قَابِلًا *

قال : فبلغ ذلك عليًا عليه السلام ، فقال :

لَأُورِدَنَّ الْعَاصِيَ بْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي
مُسْتَحْقِقِينَ حَلَقَ الدَّلَاصِ^(٣) قَدْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ مَعَ الْقِلَاصِ^(٤)

* أَسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ *

[كلام على حين نزل بكر بلاء]

قال نصر : وحدَّثنا منصور بن سلام التميمي ، قال : حدَّثنا حيان التميمي ، عن أبي

عبدة ، عن هرثمة بن سليم ، قال^(٥) : غزونا مع عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَفِينَ ، فلما نزل
بَكْرَ بَلَاءٍ صَلَّى بِنَا ، فلما سَلَّمَ رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ تُرْبَتِهَا فَشَمَهَا ، ثم قال : وَاها لك يَأْتُرْبَةُ^(٦) !
لِيُحْشَرَنَّ مِنْكَ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

قال : فلما رجع هرثمة من غزاته^(٧) إلى امرأته جَرْدَاءَ بِنْتِ سَمِيرٍ - وَكَانَتْ مِنْ شِيعَةِ

عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَدَّثَهَا هَرِثْمَةُ فِيمَا حَدَّثَ ، فَقَالَ لَهَا : أَلَا أُعْجِبُكَ مِنْ صَدِيقِكَ أَبِي حَسَنِ !

(١) سورة الشعراء ١٢٨

(٢) القنابل : جماعات الخيل والناس .

(٣) مستحقين : حاملين ، والدلاس : الدروع اللينة .

(٤) يقال : جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه . والقلاس : جمع قلوب ؛ وهي الشابة من الإبل ؛ بمنزلة الجارية من النساء .

(٥) كتاب صفين ١٥٧

(٦) صفين : « واهالك أيتها التربة » .

(٧) صفين : « من غزوته » .

قال : لما نزلنا كَرْبَلاءَ ، وقد أخذ حَفَنَةً مِنْ تَرْبَتِهَا فَشَمَّهَا ، وقال : « واهالك أيتها التُّربة ! لِيَحْشَرَنَّ مِنْكَ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وما عَلِمَهُ بِالْغَيْبِ ؟ فقالت المرأة له : دَعْنَا مِنْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؛ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ إِلَّا حَقًّا .

قال : فلما بَعَثَ عُبيد الله بن زياد البَعْثَ الَّذِي بَعَثَهُ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كُنْتُ فِي الْخَلِيلِ الَّتِي بَعَثَ إِلَيْهِمْ ؛ فلما اتَّهَيْتُ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ ، عَرَفْتُ الْمَنْزِلَ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالبُقْعَةَ الَّتِي رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ تَرْبَتِهَا وَالْقَوْلَ الَّذِي قَالَه ، فَكُرِهْتُ مُسِيرِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى فَرَسِي حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي سَمِعْتُ مِنْ أَبِيهِ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ ؛ فقال الحسين : أَمَعْنَا أَمْ عَلَيْنَا ؟ فقلت : يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا مَعَكَ وَلَا عَلَيْكَ ؛ تَرَكْتُ وَلَدِي وَعِيَالِي ^(١) أَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ ابْنِ زِيَادٍ ، فقال الحسين عليه السلام : فَوَلِّهِمْ نَفْسَ حُسَيْنٍ ^(٢) ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ حُسَيْنٍ ^(٣) بِيَدِهِ لَا يَرَى الْيَوْمَ مَقْتَلَنَا أَحَدٌ ثُمَّ لَا يَعِينُنَا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

قال : فَأَقْبَلْتُ فِي الْأَرْضِ أَشَدَّ هَرَبًا ، حَتَّى خَفِيَ عَلَيَّ مَقْتَلُهُمْ .

قال نصر : وَحَدَّثَنَا مُصْعَبٌ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَجْلَحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيُّ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ ، قَالَ : جَاءَ ^(٤) عُروَةُ الْبَارِقِيُّ إِلَى سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : حَدِيثٌ حَدَّثْتَنَاهُ ^(٥) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ : نَعَمْ بَعَثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمٍ إِلَى عَلِيٍّ ، عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَفِّينَ ، فَأَتَيْتُهُ بِكَرْبِلاءَ ، فَوَجَدْتُهُ يُشِيرُ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ : هَاهُنَا ، هَاهُنَا ! فَقَالَ لَهُ

(١) صفين : « تَرَكْتُ أَهْلِي وَوَلَدِي » .

(٢) صفين : « حَتَّى لَا تَرَى لَنَا مَقْتَلًا » .

(٣) : « فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ » .

(٤) صفين ١٥٨

(٥) صفين : « حَدَّثْتَنِي » .

رجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ثَقَل لآل محمد ينزل هاهنا فويل لهم منكم ! وويل لكم منهم ! فقال له الرجل : ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقد روى هذا الكلام على وجه آخر ، أنه عليه السلام قال : « فويل لكم منهم ، وويل لكم عليهم » ؛ فقال الرجل : أما « ويل لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، ما معناه ؟ فقال : تَرَوْنَهُمْ يُقْتَلُونَ لَا تَسْتَطِيعُونَ نُصْرَتَهُمْ .

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسي ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أن ^(١) عليا عليه السلام أتى كربة بلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، هذه كربة بلاء ، فقال : « ذات كربة وبلاء » ؛ ثم أوما بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رحلهم ، ومُنَاح ركبهم ؛ ثم أوما بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَرَّاقُ دماهم ، ثم مضى إلى ساباط .

[كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله]

وينبغي أن نذكر هاهنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة السكوفة ، والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نصر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي السكوند ، قال : ^(٢) لما أراد علي عليه السلام المسير إلى الشام ، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد ؛ فإنكم ميامين

(١) صفين ١٥٨

(٢) صفين ١٠٣

الرأى ، مَرَّاجِحِ الحِلْمِ ، مبارَكُو الأمر ، ومقاويل بالحق ؛ وقد عَزَمْنَا عَلَى المسير إلى عَدُوَّنَا وعدوكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ يا أمير المؤمنين ؛ فأنا بالقوم جدّ خَبِير ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلُب حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك ^(١) لا يُبْقون جَهْدًا ، مشاحّة على الدنيا ، وَضَنًا بما فى أيديهم منها ؛ ليس لهم إزبة غيرها ؛ إلّا ما يَخْدعون به الجُهل من طلب دم ابن عفان ؛ كذبوا ليس لدمه يَنْفِرُون ، ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم ؛ فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلّا الضلال ؛ وإن أبوا إلّا الشقاق ؛ فذاك ظنى بهم ^(٢) ؛ والله ما أراهم يُبَايعون ، وقد بَقِيَ فيهم أحد مَن يطاع إذا نَهَى ؛ ويسمع إذا أمر .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود أن ^(٣) عمار بن ياسر قام فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تُقيم يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعارِ نار الفَجْرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادْعهم إلى حَظِّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإن أبوا إلّا حر بنا ، فوالله إن سَفَكَ دماءهم ، والجِدَّ فى جهادهم ، لقرُبة عند الله وكرامةٌ منه .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، انكَمِش ^(٤) بنا إلى عدونا ولا تعرّج ^(٥) ؛ فوالله لجَهادهم أحبُّ إلى من جهاد الترك

(١) صفين : « مجاهدوك » .

(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .

(٣) كتاب صفين ١٠٤

(٤) الانكماش : الجِد في السير .

(٥) صفين : « لا تعرج »

والروم ؛ لإدهانهم^(١) في دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيروه ، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين - قال :
يعنى رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزَيْمَةُ بن ثَابِت ، وأبو أيوب ؛ وغيرها : لم تَقَدَّمَتْ
أشياخَ قومك وبدأتهم بالكلام يا قيس ! فقال : أما إني عارف بفضلكم ، معظم
لشأنكم ؛ ولكني وجدتُ في نفسي الضَّغْنُ الذي في صدوركم جاش حين ذكرتِ
الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليقمُ رجلٌ منكم فليُجِبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم ، فقام
سهل بن حَنِيف ، حميد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سَلَمٌ لمن سَأَلْت ،
وَحَرْبٌ لمن حَارَبْتَ ، ورأينا رأيك ، ونحن^(٢) يَمِينُكَ ، وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر]^(٣)
في أهل الكوفة فتأمرهم بالشُّخوص ، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ
البلد ، وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذي تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس
عليك خلاف مِنَّا ، متى دعوتنا أجبتك ، ومتى أمرتنا أطعناك .

قال نصر : لحدَّثنا عمر بن سعد ، عن أبي مخنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن
أبي خُشَيْش ، عن مَعْبُد ، قال : قام^(٤) على عليه السلام خطيباً على المنبر ، فكنتُ تحت
المنبر ، أسمع تحريضه الناس ، وأمره لهم بالمسير إلى صَفَيْنَ لقتال أهل الشام ، فسمعتُهُ يقول :

(١) الإدهان الغش والمديعة .

(٢) صفين : « ونحن كف يمينك » .

(٣) من صفين

(٤) صفين ١٠٥

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والشَّيْن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلَة
المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بني فزارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا
من أهل الشام فنقتلهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة ، فقتلتهم ! بَلَا ، ها الله
إذاً لا نفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! ^(١)

فهرب الفزاري ، واشتدَّ الناس على أثره ، فلحق في مكانٍ من السوق تُبَاع فيه
البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل ؛ فَأَتَى عَلَى
عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، قُتِلَ الرجل ، قال : وَمَنْ قَتَلَهُ ؟ قالوا : قَتَلْتَهُ هَمْدَان
ومعهم شَوْبٌ من الناس ، فقال : قَتِلَ عُمَيَّة ، لا يُدْرَى مَنْ قَتَلَهُ ، دَيْتَهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ؛
فقال بعض بني تيم اللات بن ثعلبة ^(٢) :

أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ تَسْكُونَ مَنِّيَّتِي كَمَا مَاتَ فِي سُوقِ الْبَرَّاذِينِ أَرْبَدُ
تَعَاوَرَهُ هَمْدَانُ خَفَقَ نَعَالَهُمْ إِذَا رُفِعَتْ عَنْهُ يَدٌ وَضِعَتْ يَدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدِّتُكَ مَا رَأَيْتَ ، وَلَا يُؤْبِسُنَاكَ مِنْ نَصْرِنَا
مَا سَمِعْتَ مِنْ مَقَالَةِ هَذَا الشَّقِيِّ الْخَائِنِ ؛ إِنَّ جَمِيعَ مَنْ تَرَى مِنَ النَّاسِ شِيعَتُكَ ، لَا يَرِغْبُونَ
بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِكَ ، وَلَا يَحْبَوْنَ الْبَقَاءَ بَعْدَكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَسِرْ بِنَا إِلَى عَدُوِّكَ ، فَوَاللَّهِ
مَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحْبَبَهُ ، وَإِنَّا لَعَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبَّنَا ؛ وَإِنْ
أَنْفَسْنَا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى يَأْتِيَ أَجْلُهَا ، وَكَيْفَ لَا نَقَاتِلُ قَوْمًا ، هُمْ كَمَا وَصَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَقَدْ وَثَبَتْ عَصَابَةُ مِنْهُمْ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَمْسِ ، وَبَاعُوا خَلَاقَهُمْ بَعَرَضٍ
مِنَ الدُّنْيَا يَسِير !

(١) صفين : « مِنْ لِهَذَا أَيُّهَا النَّاسِ » .

(٢) صفين : « فَقَالَ : عِلَاقَةُ النَّيْمِ » .

قال على عليه السلام : الطريق مُشْتَرَك ، والناس في الحقّ سواء ، ومَنْ اجتهد رأيه في نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثني أبو زهير العبسي ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتّم العبسي ، وحفظة بن الربيع التيمي ؛ لما أمر ^(١) على عليه السلام بالمسير إلى الشام دخّلا عليه في رجال كثير من غطفان وبنى تميم ، فقال له حفظة : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قد مشينا إليك في نصيحة فاقبلها ، ورأينا لك رأيا فلا تردّه علينا ، فإنّا نظرنّا لك ولن معك ؛ أقيم وكاتب هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ؛ فإنّا والله ما ندرى ولا تدرى لمن تكون الغلبة إذا التقيتم ؛ ولا على من تكون الدّبرة !

وقال ابن المعتّم مثل ^(٢) قوله ، وتكلّم القوم الذين دخلوا معها بمثل كلامهما ، فحمد على عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء . أما الدّبرة ، فإنّها على الضالّين العاصين ، ظفروا أو ظفّر بهم ؛ وإيمُ الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ هؤلاء والله ما آثروك بنصّح ، ولا دخلوا عليك إلا بفسّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدو .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغني يا أمير المؤمنين أنّ حفظة هذا يكتب معاوية ، فادفعه إلينا نجبسه حتى تنقضي غزاتك ، وتنصرف .

(١) صفح ١٠٧

(٢) صفح : « وقام المعتّم فتكلّم »

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعياش بن ربيعة العبسيان ، فقالا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛
إِنَّ صَاحِبَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُعْتَمِرِ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّهُ يَكَاتِبُ مُعَاوِيَةَ ، فَاحْبِسْهُ أَوْ مَكِّنَّا مِنْ حَبْسِهِ ؛
حَتَّى تَنْقُضِيَ غَزَاتَكَ ثُمَّ تَنْصَرِفَ .

فَقَالَا : هَذَا جَزَاءُ لِمَنْ نَظَرَ لَكُمْ ، وَأَشَارَ عَلَيْكُمْ بِالرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ .
قَالَ لَهَا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَإِلَيْهِ أَكِلُكُمْ ، وَبِهِ أَسْتَظْهَرُ عَلَيْكُمْ ،
اذْهَبُوا حَيْثُ شِئْتُمْ .

قَالَ نَصْرٌ : وَبَعَثَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى حَنْظَلَةَ بْنِ الرَّبِيعِ الْمَعْرُوفِ بِحَنْظَلَةِ الْكَاتِبِ ،
— وَهُوَ مِنَ الصَّحَابَةِ — فَقَالَ لَهُ : يَا حَنْظَلَةَ ، أَنْتَ عَلَيٌّ أَمْ لِي ؟ فَقَالَ : لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ ؛
قَالَ : فَمَا تَرِيدُ ؟ قَالَ اشْخَصْ إِلَى الرَّهَا ^(١) ، فَإِنَّهُ فَرَجَ مِنَ الْفُرُوجِ ، اصْبِدْ لَهُ حَتَّى يَنْقُضِيَ
هَذَا الْأَمْرَ .

فَغَضِبَ مِنْ قَوْلِهِ خِيَارُ بْنُ عَمْرِو بْنِ تَيْمٍ وَهُوَ رَهْطُهُ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَعْرِفُونِي مِنْ
دِينِي ، دَعُونِي فَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ . فَقَالُوا : وَاللَّهِ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ لَا نَدْعُ فُلَانَةَ تَخْرُجُ
مَعَكَ — لَأُمِّ وَلَدِهِ — وَلَا وَلَدَهَا ، وَلَئِنْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَنَقْتَلَنَّكَ .

فَأَعَانَهُ نَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ وَاخْتَرَطُوا سِيُوفَهُمْ . فَقَالَ : أَجْلِبُونِي حَتَّى أَنْظُرَ ، وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ
وَأَغْلَقَ بَابَهُ ؛ حَتَّى إِذَا أَمْسَى هَرَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، وَخَرَجَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ رِجَالٌ كَثِيرٌ ،
وَهَرَبَ ابْنُ الْمُعْتَمِرِ أَيْضًا ، حَتَّى أَتَى مُعَاوِيَةَ فِي أَحَدِ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ .

وَأَمَّا حَنْظَلَةُ فَخَرَجَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ ؛ لَكِنَّهُمَا لَمْ يَقَاتِلَا مَعَ
مُعَاوِيَةَ ، وَاعْتَزَلَا الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا .

(١) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

وقال : وأمر على عليه السلام يهدم دار حنظلة ، فهدمت ، هدمها عرفهم شبت بن ربيعي وبكر بن تميم ؛ فقال حنظلة بهجوها :

أياراكبا إتما عرَضت فبلغن مُغْلَفَلَةً عَنِّي سَرَاةَ بنى عمرو
أوصيكمُ بالله والبرِّ والتقى ولا تنظروا في النَّائِبَاتِ إلى بكرِ
ولا شَبَثِ ذى المَنَخَرَيْنِ كأنه أَرَبٌ جِمالٍ قد رغا ليلة النَّفَرِ ^(١)

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبى سفيان :

أبلغ معاوية بن حَرْبِ خُطَّةً ولكل سائِلَةٍ تَسِيلُ قِرارُ
لَا تَقْبَلَنَّ دَنِيَّةً تَرْضَوْنَهَا ^(٢) فى الأمرِ حتّى تُقَتِّلَ الأنصارُ
وَكَما تَبُوهُ دِماؤُهُم بِدِمايِكُمْ وَكَما تُهَدِّمُ بالدِّيارِ دِيارِ
وتُرى نِساؤُهُم بِجِلْنِ حَواسِرِا وَلَهْنٌ مِنْ تِكلِ الرِجالِ جُوارِ ^(٣)

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبى الجاهد ، عن المحل بن خليفة ، قال : قام عدى بن حاتم الطائى بين يدى على عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :
« يا أمير المؤمنين ، ما قلت إلا بعلم ، ولا دعوت إلا إلى حق ، ولا أمرت إلا برشد ؛
ولكن إذا رأيت أن تستأنى هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيتهم كتبك ، ويقدم
عليهم رُسُلك ، فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشدهم ^(٤) ، والعافية أوسع لنا ولهم ؛ وإن يتأدوا فى

(١) الأرب : الكثير شعر الوجه والعشون ، وفى صفين :

* أَرَبٌ جِمالٍ فى مَلاحِيةٍ صُفْرِ *

(٢) صفين : « تعطونها »

(٣) صفين : « ولهن من تكل الرجال خوار » .

(٤) صفين ١١٠

(٥) صفين : « فإن يقبلوا يصبوا ويرشدوا »

الشُّقَاق ، ولا ينزعوا عن النِّفى فسرّ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعدر ^(١) ، ودَعَوْنَاهُمْ إِلَى مَا فِي أَيْدِينَا مِنَ الْحَقِّ ؛ فَوَاللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ أَكْثَرُ ، وَعَلَى اللَّهِ أَهْوَنُ ؛ مِنْ قَوْمٍ قَاتَلْنَاهُمْ أَمْسَ بِنَاحِيَةِ الْبَصْرَةِ لَمَّا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ فَتَرَكُوهُ ، نَاوَجْنَاهُمْ بُرَاكَاءَ الْقِتَالِ ^(٢) ؛ حَتَّى بَلَّغْنَا مِنْهُمْ مَا نَحِبُ ، وَبَلَّغَ اللَّهُ مِنْهُمْ رِضَاهُ .

فَقَامَ زَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ الطَّائِي وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْبُرَانِسِ ^(٣) الْمُجْتَهِدِينَ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ حَتَّى يَرْضَى ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبَّنَا ، أَمَا بَعْدُ : فَوَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي شَكٍّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَنَا ، وَلَا تَصْلَحُ لَنَا النَّيَّةُ فِي قِتَالِهِمْ حَتَّى نَسْتَدِيمَهُمْ وَنَسْتَأْنِيَهُمْ . مَا الْأَعْمَالُ إِلَّا فِي تَبَابٍ ، وَلَا السَّعْيُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٤) ؛ إِنَّا وَاللَّهِ مَا ارْتَبْنَا طَرَفَةَ عَيْنٍ فِيمَنْ يَتَّبِعُونَهُ ^(٥) ، فَكَيْفَ بِأَتْبَاعِهِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ ، الْقَلِيلِ مِنَ الْإِسْلَامِ حَظَّهُمْ ، أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ وَأَصْحَابِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ ؛ لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلَا الْأَنْصَارِ ، وَلَا التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ طَيْيٍّ فَقَالَ : يَا زَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ ، أَكَلَامَ سَيِّدِنَا عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ تَهْجَنُ ^(٦) ! فَقَالَ : زَيْدٌ مَا أَتَمُّ بِأَعْرَفٍ بِحَقِّ عَدِيٍّ مِنِّي ، وَلَكِنِّي لَا أَدْعُ الْقَوْلَ بِالْحَقِّ وَإِنْ سَخِطَ النَّاسُ .

قَالَ نَصْرٌ : وَحَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ حُصَيْنٍ ^(٧) قَالَ : دَخَلَ أَبُو زَيْنَبٍ

(١) صفين : « العذر »

(٢) البراكاء : الابتراك في الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ، ويقال وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفي صفين : « ناوَجْنَاهُمْ »

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كانت يلبسها في صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى . . .

(٥) صفين : « يبتغون دمه » .

(٦) في صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدي بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس في الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فقد قضى الذي عليه » .

(٧) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة »

ابن عوف ، عَلَى عَلَى عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لئن كنّا على الحق ، لأنّت أهدانا سبيلا ، وأعظمتنا في الخير نصيبا ؛ ولئن كنّا على ضلال ، إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمتنا وزراً ؛ قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرنا لهم العداوة ؛ نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك ؛ أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين ، والذي عليه عدوّنا هو الحوب الكبير !

فقال عليه السلام : بلى شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا ، صحيح النية في نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت ؛ فإنك وليّ الله ، تسبّح^(١) في رضوانه ، وتركّض في طاعته ، فابشر أبا زينب .

وقال له عمار بن ياسر : اثبت أبا زينب ، ولا تشكّ في الأحزاب ، أعداء^(٢) الله ورسوله .

فقال أبو زينب : ما أحبّ أن لي شاهدين من هذه الأمة شهدا لي عما سألت من هذا الأمر الذي أهتمني ، مكانكما .

قال وخرج عمار بن ياسر ، وهو يقول :

سِيرُوا إِلَى الْأَحْزَابِ أَعْدَاءَ النَّبِيِّ سِيرُوا وَافْخِرُوا النَّاسُ أَتْبَاعُ عَلَى
هَذَا أَوْ أَنْ طَلَبَ سَلَّ الْمَشْرِفِ وَقودُنا الخيلُ وَهَزَّ السَّمْهَرِيُّ

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبي رَوْق ، قال : ^(٣) دخل يزيد بن قيس الأرحبيّ عَلَى عَلَى عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن أولو جهازٍ وعدّة وأكثَر

(١) صفين : « تسبّح »

(٢) صفين : « أعداء الله ورسوله » .

(٣) صفين ١١٣

الناس أهل قوة ، ومن ليس به ضعف ^(١) ولا علة ، فر مناديك ؛ فلينادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالذخيلة ؛ فإن أخا الحرب ليس بالسثوم ولا النثوم ، ولا من إذا أمكنته الفرص أجلبها ، واستشار فيها ؛ ولا من يؤخر عمل الحرب في اليوم لغد وبعد غد .

فقال زياد بن النضر : لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال ما يعرف ، فتوكل على الله ، وثق به ، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً ؛ فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك ^(٢) إلى من ليس له مثل سابقتك وقدميك ^(٣) ؛ وإلا ينيبوا ويقبلوا وأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيئنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم ثم بالأمس .

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن القوم لو كانوا الله يريدون ، والله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحباً للأثرة ، وضناً بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن في نفوسهم ، وعداوة يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وأخوانهم ^(٤) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبايع معاوية عليا ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاء الوليد ، وجدّه عتبة في موقف واحد ؛ والله ما أظنهم يفعلون ، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقصّ فيهم قنأ المران ^(٥) ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتنثر حواجهم بعمد الحديد ، وتسكون أمور جمة بين الفريقين .

(١) صفين : « ومن ليس بمضعف » .

(٢-٢) صفين : « إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبي صلى الله عليه وآله والقدم في الإسلام »

(٣) صفين : « وإخوانهم » .

(٤) صفين : « تقصد » ، وهى بمعنى « تقصف » والمران : الرماح الصلبة اللدنة .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين^(١) عن عبد الله بن شريك ، قال : خرج حُجْر بن عدِيٍّ وعُمرو بن الحُحِق ، يُظهرا البراءة من أهل الشام ؛ فأرسل على عليه السلام إليهما أن كُفّا عَمَّا يَبْلُغُنِي عَنْكُمَا ، فأتياه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقّين ! قال : بلى ؛ قالوا : أوليسوا مُبْطِلِينَ ؟ قال : بلى ؛ قالوا : فلم منعنا مِنْ شَتْمِهِمْ ؟ قال : كرهتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِعَتَانِينَ شَتَامِينَ تَشْتَمُونَ وتَتَبَرَّأُونَ ؛ ولكن لو وصفتُم مساوِي أَعْمَالِهِمْ فَقُلْتُم : مِنْ سِيرَتِهِمْ كَذَا وَكَذَا ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ كَذَا وَكَذَا ، كَانَ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ؛ وَقُلْتُم مَكَانَ لَعْنِكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَبَرَاءَتِكُمْ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَهُمْ وَدِمَاءَنَا ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَنَا ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ مَنْ جَهْلُهُ ، وَيَرْعَوْى عَنِ النَّفَى وَالْعُدُوَانِ مِنْهُمْ مَنْ لَهَجَ بِهِ - لَسَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ وَخَيْرًا لَكُمْ .

فقالا : يا أمير المؤمنين ، نَقَبَلُ عِظَمَتَكَ ، وَتَتَادَّبُ بِأَدَبِكَ .

قال نصر : وقال له عمرو بن الحُحِق يومئذ : والله يا أمير المؤمنين إني ما أُحِبُّكَ وَلَا بَابِعْتُكَ عَلَى قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَلَا إِرَادَةَ مَالٍ تُؤْتِينِيهِ ، وَلَا اِتِّمَاسَ سُلْطَانٍ تَرْفَعُ ذِكْرِي بِهِ ؛ وَلَكِنِّي أُحِبُّكَ بِخِصَالِ خَمْسٍ : إِنَّكَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَوَصِيِّهِ ، وَأَبُو الذَّرِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ فِينَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَسْبَقُ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَعْظَمُ الْمُهَاجِرِينَ سَهْمًا فِي الْجِهَادِ ؛ فَلَوْ أَنِّي كُفِّتُ نَقْلَ الْجِبَالِ الرِّوَاسِي ، وَنَزَحَ الْبَحُورَ الطَّوَامِي ؛ حَتَّى يَأْتِيَنِي عَلَى يَوْمٍ فِي أَمْرِ أَقْوَى بِهِ وَلِيكَ ، وَأَهْيَنُ عَدُوَّكَ ؛ مَا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ أَدَيْتُ فِيهِ كُلَّ الَّذِي يَحِقُّ عَلَىَّ مِنْ حَقِّكَ .

فقال على عليه السلام : اللَّهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ بِالْحَقِّ ، وَاهْدِهِ إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ^(٢) ،

(١) صفين ١٠٥ : « حصيرة » .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

لَيْتَ أَنْ فِي جُنْدِي مِائَةَ مِثْلِكَ . فَقَالَ حُجْرٌ : إِذَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَحَّ جَنْدُكَ ،
وَقُلَّ فِيهِمْ مَنْ يَغْشَاكَ .

قَالَ نَصْرٌ : وَقَامَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نَحْنُ بَنُو الْحَرْبِ وَأَهْلُهَا
الَّذِينَ نُلْقِيهَا وَنَنْتَجِبُهَا ، قَدْ ضَارَسْتُنَا وَضَارَسْنَاهَا ؛ وَلَنَا أَعْوَانٌ وَعَشِيرَةٌ ذَاتُ عَدَدٍ وَرَأْيٍ
مَجْرَبٍ ، وَبَأْسُ مُحَمَّدٍ ، وَأَزْمَتُنَا مَنْقَادَةٌ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنْ شَرَقَتْ شَرَقْنَا ، وَإِنْ
غَرَبَتْ غَرَبْنَا ، وَمَا أَمَرْتَنَا بِهِ مِنْ أَمْرٍ فَعَلْنَا . فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَكَلَّ قَوْمِيكَ يَرَى
مِثْلَ رَأْيِكَ ، قَالَ : مَا رَأَيْتُ مِنْهُمْ إِلَّا حُسْنًا ، وَهَذِهِ يَدِي عَنْهُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَحَسَنِ
الْإِجَابَةِ . فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرًا .

قَالَ نَصْرٌ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ ، قَالَ : ^(١) كَتَبَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عَمَالِهِ حِينَئِذٍ
يَسْتَفْزِمُهُمْ ، فَكَتَبَ إِلَى مُخَنَفِ بْنِ سَلِيمٍ :

سَلَامٌ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي أَتَحَدَّ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ جِهَادَ مَنْ
صَدَفَ عَنِ الْحَقِّ رَغْبَةً عَنْهُ ، وَهَبَ فِي نَعَاسِ الْعَمَى وَالضَّلَالِ ؛ اخْتِيَارًا لَهُ فَرِيضَةً عَلَى
الْعَارِفِينَ ؛ إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى عَمَّنْ أَرْضَاهُ ، وَيَسْخَطُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ ؛ وَإِنَّا قَدْ هَمَمْنَا بِالسَّيِّئِ
إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَمِعُوا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بغير مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ ، وَعَطَّلُوا
الْحُدُودَ ، وَأَمَاتُوا الْحَقَّ ، وَأَظْهَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ، وَاتَّخَذُوا الْفَاسِقِينَ وَلِيَّةً مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِذَا وَلَّى اللَّهُ أَعْظَمَ أَحْدَانِهِمْ أَبْغَضُوهُ وَأَقْصَوْهُ وَحَرَّمُوهُ ، وَإِذَا ظَلَمَ سَاعَدَهُمْ عَلَى
ظُلْمِهِمْ أَحْبَبُوهُ ، وَأَدْنَوْهُ وَبَرَّوْهُ ؛ فَقَدْ أَصْرُوا عَلَى الظُّلْمِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى الْخِلَافِ : وَقَدِيمًا
مَا صَدَّوْا عَنِ الْحَقِّ ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ . فَإِذَا أُتِيَتْ بِكِتَابِي هَذَا ،
فَاسْتَخْلِفْ عَلَى عَمَلِكَ أَوْثَقَ أَصْحَابِكَ فِي نَفْسِكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَيْنَا ، لَعَلَّكَ تَلْقَى مَعَنَا هَذَا الْعَدُوَّ

الحلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحقّ ، وتباين المبتل ؛ فإنه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مخنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل على حمّذان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين . قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى عليّ عليه السلام يذكر له اختلاف أهل البصرة ، فكتب إليه عليّ عليه السلام : [من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس]^(١) :

أما بعدُ ؛ فقد قدّم عليّ رسولك ، وقرأتُ كتابك ، تذكّرُ فيه حال أهل البصرة واختلافهم بعد انصرافي عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ وهم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائفٍ من عقوبة يخشاها ، فأرغب راغبهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه ؛ واحلّل عُقْدَةَ الخوف عن قلوبهم ، وانتهِ إلى أمرى ولا تعدّه ، وأحسن إلى هذا الحى من ربيعة وكلّ من قبلك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعماله كلّمهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد ، عن أبي رَوْق ، قال^(٢) : قال زياد بن النضر الحارثي لعبدالله ابن بُذيل : إن يومنا اليوم عَصَبَصَب^(٣) ما يصبر عليه إلا كل مشيّع^(٤) القلب ، الصادق

(١) من صفين

(٢) صفين ١٢٤

(٣) العصيب : الشديد ، وفي صفين : « عصب »

(٤) المشيّع القلب : القوى الجاد الشجاع

النِّية ، رابط الجأش ^(١) ؛ وإيم الله ما أظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرُّذال ^(٢) .
فقال عبد الله بن بُذيل : أنا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامهما عليّاً عليه السلام ، فقال
لهما : ليكنّ هذا الكلام مخزوناً في صدُوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله
كتبَ القتلَ على قومٍ ، والموتَ على آخرين ، وكلُّ آتية منيته كما كتب الله له ،
فطوبى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتبة ما قالاه ، أتى علياً عليه السلام ، فقال : سر بنا
يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ،
وعَمِلُوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستهوى بهم ^(٣)
الشیطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانى ؛ حتى أزاغهم ، عن الهدى ، وقصد بهم
قصد الردى ، وحبّ إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبنا في الآخرة
وانتجاز موعِد ربنا ؛ وأنت يا أمير المؤمنين أقربُ الناس من رسول الله صلى الله عليه
رحمًا ، وأفضلُ الناس سابقةً وقَدَمًا ؛ وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ؛
ولكنّ كُتِبَ عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطاً لك
بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشريحةٌ لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنضركَ كلّ من خالفك ،
وتولى الأمر دونك جدلةً ، والله ما أحبّ أن لي ما على الأرض فما أقلّت ، ولا ما تحت
السماء فما أظَلّت ؛ وأنى واليتُ عدواً لك ؛ وعاديتُ ولياً لك !

فقال عليه السلام : اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك ، والموافقة لنبيك .

قال نصر : ثم إن علياً عليه السلام صعد المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، فبدأ
بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفاً .

(٢) الرذال ، والرذيل : ما اتقى جیده وبقي أخسه وأدونه .

(٣) صفين : • واستولاهم •

إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم في أداء حَقِّه ، وتنَجَّزُوا موعوده ، واعلموا أَنَّ الله يعلم أمرَاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظَّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفریط العجزة ^(١) ، وقد حُمِلَت أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول مائيس له وما لا يدركه معاوية وجنده ، الفئة الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم بيارق تسويقه ، ويدلُّهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أَنَّ المسلوب من سُلْب دينه وأمانته ، والمغرور من أثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفنَّ أحداً منكم تقاعس عني ، وقال : في غيري كفاية ؛ فإن الذُّود إلى الذود إبل ، ومن لا يذُدُّ عن حوضه يتهدم ! ثم إنني آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وأن لا تغتابوا مسلماً ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنه الحسن بن علي عليهما السلام ، فقال :

الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له .

ثم قال : إنَّ مما عَظَّمَ الله عليكم من حَقِّه ، وأسبغ عليكم من نِعْمه ما لا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدِّي شكره ، ولا يبلغه قول ولا صفة ؛ ونحن إنما غضبنا الله ولكم ؛ إنه لم يجمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتدَّ أمرهم ، واستحكمت عُقْدَتُهُمْ . فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تحاذلوا ، فإنَّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعِصْمة ؛ لم يتمنع ^(٢) قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

(١) صفين : « الفجرة » ؟

(٢) صفين : « لم يتمنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

وَالصَّلُحُ تَأْخُذُ مِنْهُ مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعٌ^(١)

ثم قام الحسين بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أهل الكوفة ، أتمم الأحيّة الكرّماء ، والشّعار دون الدّثار ، جدّوا في إطفاء مادّثر بينكم ، وتسهيّل^(٢) ماتوعر عليكم ، ألا إنّ الحرب شرّها . ذرّيع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذها أهبتها ، واستعدّ لها عدتها ، ولم يألَمْ كلُّوها قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوّان فرصتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمنّ ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه ، نسأل الله بقوته أن يذعّمكم بالفَيْثَة^(٣) ثم نزل .

قال نصر : فأجاب علياً عليه السلام إلى السير جُلّ الناس ؛ إلا أنّ أصحاب عبد الله بن مسعود أتوه ، فيهم عبّيدة السّمانيّ وأصحابه ، فقالوا : له إنا نخرج معكم ، ولا نترك عسكركم ونعسكر على حدّة ، حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام ؛ فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بدّاً لنأمنه بقى كُنّا عليه . فقال لهم علي عليه السلام : مرّحباً وأهلاً ؛ هذا هو الفقه في الدين ، والعلم بالسّنة ، من لم يرض بهذا فهو خائن جيار^(٤) .

وأناه آخرون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خنيم ؛ وهم يومئذ أربعائة رجل ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنّنا قد شككنا في هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمّن يقاتلُ العدو ؛ فولّنا بعض هذه الثغور نكمن^(٥) ثم نقاتل عن أهلنا ؛ فوجّه علي عليه السلام بالربيع بن خنيم على ثغر الرّمي ، فكان أولّ لواء عقّده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خنيم .

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمي ، الخزّانة : ٢ : ٨٢

(٢) صفين : « إسهال »

(٣) صفين : بألفته ،

(٤) صفين : الجهاد

(٥) صفين : « جائر »

(٥) صفين : « تكون به »

قال نصر : وحدثني عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ؛ أن ^(١) عليا عليه السلام لم يبرح النخيلة ، حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة . قال : وكان كتاب على عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخصْ إلى بَنِ قِبَلِكَ من المسلمين والمؤمنين ، وذكّرهم بلائي عندهم ، وعَفَوِي عنهم في الحرب ، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل ، والسلام .

قال : فلما وصل كتابه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام في الناس ، فقرأ عليهم الكتاب ، وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيّها الناس ، استعدّوا للشُّحُوص إلى إمامكم ، وانفروا خِفَافًا وثِقَلًا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنّكم تقاتلون المحلّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدّينون دينَ الحق ؛ مع أمير المؤمنين ، وابن عمّ رسول الله ، الأمر المعروف ، والنهي عن المنكر ، والصادع بالحق ، والقيّم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب الذي لا يرتشى في الحكم ، ولا يدهن الفجار ، ولا تأخذه في الله لومة لأثم .

فقام إليه الأحنف بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبنك ، ولنخرجنّ معك على العسر واليسر ، والرضا والكراه ، نحتسب في ذلك الأجر ، ونأملُ به من الله العظيم حسن الثواب . وقام خالد المعمر السدوسي ، فقال : سمعنا وأطعنا ؛ فمضى استنفرتنا نفرنا ، ومتى دعوتنا أجبتنا .

وقام عمرو بن مرحوم العبدي ، فقال : وفقّ الله أمير المؤمنين ، وجمع له أمر المسلمين ،

ولعن الحليين القاسطين ، لا يقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حنقون ، ولهم في الله مفارقون ؛ فتى أردتنا صحبك خيئنا ^(١) ورجأنا إن شاء الله .

قال : وأجاب الناس إلى السير ، ونشطوا وخفوا ؛ فاستعمل ابن عباس على البصرة أبا الأسود الدؤلي ، وخرج حتى قدم على علي عليه السلام بالثخيلة ،

[كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية :

من محمد ^(٢) بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر ، سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم ^(٣) لأهل ولاية الله . أما بعد ؛ فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته ، خلق خلقا بلا عيب ولا ضعف في قوته ؛ لا حاجة به إلى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيدا ، وجعل منهم شقيا وسعيدا ، وغويا ورشيذا ، ثم اختارهم على علمه ، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فاختره برسالته ، واختاره لوحيه ، واثمنه على أمره ، وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب ، ودليلا على الشرائع ؛ فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فكان أول من أجاب وأجاب ، وصدق [ووافق] ^(٤) فأسلم وسلم ، أخوه وابن عمه على بن أبي طالب عليه السلام ، فصدق بالغيث المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه كل هول ، وواساه بنفسه في كل خوف ؛ فخارب حربيه ، وسالم سلمه ؛ فلم يبرح مبتذلا لنفسه في ساعات الأزل ^(٥) ، ومقامات الرؤع ؛ حتى برز سابقا

(١) صفين : « ورجأنا »

(٢) في صفين : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبي بكر .

(٣) صفين : « مسلم »

(٤) من صفين

(٥) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظيره في جهاده ، ولا مقارب له في فعله ؛ وقد رأيتك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرز في كل خير ؛ أول الناس إسلاما ، وأصدق الناس نية ، وأطيب الناس ذرية ، وأفضل الناس زوجة ، وخير الناس ابن عم . وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتحالفان في ذلك القبائل ؛ على هذامات أبوك ، وعلى ذلك خلفته ، والشاهد عليك بذلك من يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقية الأحزاب وروس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلّى مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ، ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتاب وعصائب ؛ يحالدون حوله بأسيا فهم ، ويهرقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل في اتباعه ، والشقاق والعصيان في خلافه ؛ فكيف يالك الويل ! تعدل نفسك بعلّى ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأول الناس له اتباعا ، وآخرهم به عهدا ، يخبره بسرّه ، ويشرّكه في أمره ؛ وأنت عدوّه ؛ وابن عدوّه ، ما استطعت بباطلك ولמידك ابن العاص في غوايتك ؛ فكان أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى قد أمّنت كيده ، وأبست من روحه ، وهو لك بالمرصاد ؛ وأنت منه في غرور بالله ، وبأهل بيت رسوله عنك الفناء ! والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبى سفيان ، إلى الزارى على أبيه محمد بن أبى بكر ، سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه ، وما أصفى به نبيه ، مع كلام ألفته ووضعتة ؛ لرأيك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ؛ ذكرت حق

ابن أبى طالب وقديمَ سابقته ، وقرابته من نبي الله ونصرته له ، ومواساته إياه ؛ فى كل خوف وهول ؛ واحتجاجك على ، وفرك بفضل غيرك ؛ لافضلك . فاحمد إلهما صرف ذاك الفضل عنك ، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنا وأبوك معنا فى حياة نبينا ؛ نرى حق ابن أبى طالب لازما لنا ، وفضله مبرزا علينا ؛ فلما اختار الله لنبية ما عنده ، وأتم له ما وعدّه ، وأظهر دعوته ، وأفاج حُجته ، قبضه الله إليه ، فكان أبوك وفاروقه ، أول من ابتزّه وخالفه ؛ على ذلك اتفقوا واتسقا^(١) ؛ ثم دعواهُ إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهما به المهوم ؛ وأرادا به العظيم ؛ فبايعهما وسلم لهما ، لا يشركانه فى أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ؛ حتى قبضا وانقضى أمرهما . ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان ، يهتدى بهديهما ، ويسير بسيرتهما ، فعبته أنت وصاحبك ، حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ، وبطننا له وظهرا^(٢) ، وكشفنا له عداوتكما وغلصكما ، حتى بلغنا منه مناكما ؛ فخذ حذرَكَ يا ابن أبى بكر ، فسترى وبال أمرك ، وقس شبرَكَ بفترك ، تقصُر عن أن تساوى أو توازى مَنْ يزنُ الجبال حمله ، ولا تلينُ على قسرِ قناته ، ولا يدرك ذو مدى أناته ، أبوك مَهْدله مِهَادَه ، وبني مُلْكهِ وشاده ؛ فإن يكن ما نحن فيه صوابا فأبوك أوله ، وإن يكن جوراً فأبوك أسه^(٣) ونحن شركاؤه ، فبهذه أخذنا ، وبفعله اقتدينا ؛ رأينا أباك فعل ما فعل ، فاحتذينا مثاله ، واقتدينا بفعله ، فعَب أباك بما بدالك ، أودع ، والسلام على من أنابَ ورجع من غوايته وناب .

قال: وأمر على عليه السلام الحارث الأعور أن ينادى فى الناس : اخرُجوا إلى معسكركم

(١) صفين : « وانشقا »

(٢) صفين : « أظهرتما »

(٣) صفين : « أسه » .

بالنُخَيْلَة ، فنَادَى الحَارِثُ فِي النَّاسِ بِذَلِكَ ، وَبَعَثَ إِلَى مَالِكِ بْنِ حَبِيبِ الْبُرَيْعِيِّ صَاحِبَ شَرْطَتِهِ ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ إِلَى الْمَعْسَكِ ، وَدَعَا عُقْبَةَ بْنَ عَمْرِو الْأَنْصَارِيَّ ، فَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْكُوفَةِ - وَكَانَ أَصْغَرُ أَصْحَابِ الْعُقْبَةِ السَّبْعِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ .

قَالَ نَصْرٌ : وَدَعَا عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ زِيَادُ بْنُ النَّضْرِ ، وَشَرِيحُ بْنُ هَانِيٍّ - وَكَانَا عَلَى مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّينَ - فَقَالَ : يَا زِيَادُ ، اتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ مُمْسَى وَمُصْبِحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغُرُورَ ؛ وَلَا تَأْمِنْهَا عَلَى حَالٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَزَعْهَا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تَحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِّ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعًا وَازْعًا مِنَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ؛ فَإِنِّي قَدْ وَلَيْتُكَ هَذَا الْجُنْدَ ، فَلَا تَسْتَطِيلَنَّ عَلَيْهِمْ ؛ إِنَّ خَيْرَ كَمٍ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ؛ تَعْلَمُ مِنْ عَالِمِهِمْ ؛ وَعَلِمَ جَاهِلِهِمْ ، وَاحْلَمْ عَنْ سَفِيهِهِمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَدْرِكُ الْخَيْرَ بِالْحِلْمِ وَكَفَّ الْأَذَى وَالْجَهْلَ ^(١) .

فَقَالَ زِيَادُ : أَوْصَيْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَافِظًا لَوْصِيَّتِكَ مُؤَدِّيًا لِأَرْبَابِكَ ، يَرَى الرُّشْدَ فِي فَنَازِ أَمْرِكَ ، وَالنَّيَّ فِي تَضْيِيعِ عَهْدِكَ .

فَأَمَرَهَا أَنْ يَأْخُذَا فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَلَا يَخْتَلِفَا ، وَبَعَثَهُمَا فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا عَلَى مَقْدَمَتِهِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْجَيْشِ ؛ فَأَخَذَ شَرِيحٌ يَعْزِلُ بَيْنَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى حِدَّةٍ ، وَلَا يَقْرُبُ زِيَادًا ، فَكَتَبَ زِيَادُ إِلَى عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَوْلَى لَهُ يَقَالُ لَهُ شَوْذِبُ :

لَعَبَدَ اللَّهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مِنْ زِيَادِ بْنِ النَّضْرِ .

سَلَامٌ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّكَ وَلَيْتَنِي أَمَرَ

الناس ؛ وإن شَرِيحاً لا يرى بى عليه طاعة ولا حقاً ؛ وذلك من فعله بى استخفاف بأمرك ، وترك لمهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هانىء إلى على عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من شريح بن هانىء ، سلام عليك ؛ فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإن زياد بن النضر حين أشركته فى أمرك ، ووليته جنداً من جنودك ، طغى واستكبر ، ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضى الله تعالى به من القول والفعل ؛ فإن رأى أمير المؤمنين عليه السلام أن يعزله عنا ويبعث مكانه مَنْ يحب فليفعل ؛ فإننا له كارهون ، والسلام .

فكتب على عليه السلام إليهما :

من عبد الله على ^(١) أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانىء سلام عليكما ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنى قد ولّيت مقدمتى زياد ابن النضر ، وأمرته عليها ، وشريح بن هانىء على طائفة منها أمير ؛ فإن اتهمى جمعكما إلى بأس فزياد بن النضر على الناس كلهم ؛ وإن افترقتما ، فكل واحد منكما أمير الطائفة التى وليناه أمرها ؛ واعلم أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ؛ فإذا أتما خراجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع ؛ ومن نقض الشعب ^(٢) والشجر والحجر ^(٣) فى كل جانب ؛ كى لا يفتر كما عدو ، أو يكون لهم كمين ، ولا تسيرن الكتائب والقبائل من لدن الصّباح إلى المساء إلا على تعبئة ، فإن دهمكم عدو أو غشيك مكروه ، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة ، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم فى قبل الأشراف أو سفاح ^(٤)

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

(٢) يقال : نقض المكان ينفسه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عنها غيب كل خميلة وتخشى رماة الغوث من كل مرصد

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهى ما انشعب وتفرع من الوادى .

(٣) الحجر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهى الأماكن العالية . وسفاح الجبال أسافلها .

الجبال وأثناء النهار؛ كما يكون ذلك لكم رِذَاءً وتكون مقاتلتكم من وَجْهِ واحد أو اثنين؛ واجعلوا رقباءكم^(١) في صياصي الجبال، وبأعلى الأشراف، ومناكب الأنهار يروون لكم، كي لا^(٢) يأتيتكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن. وإياكم والفرق؛ فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً؛ فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحَفُوا عسكركم بالرماح والترسة، ولتكن رماطكم من وراء تراسيكم ورماحكم يلونهم. وما أقمتُمْ فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تُدْفَنِي لكم غيرة، فسا قوم يحفون عسكرهم برماحهم وترسهم^(٣) من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون. واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تُصبحا إلا غرارا أو مضمضة^(٤). ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكم؛ وليكن كل يوم عندى خبرٌ كما ورسولٌ من قبلكما. فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حثيثُ السَّير في أثركما، عليكما في جريكما^(٥) بالثَّوْدَة، وإياكما والعجلة؛ إلا أن تمكَّنكما فرصة بعد الإغذار والحجة؛ وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما؛ إلا أن تُبدآ، أو يأتيتكما أمرى، إن شاء الله.

قال نصر: ^(٦) وكتبَ عليّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد

- وكان قد قسَّم عسكره أسباعاً، فجعل على كل سُبُعٍ أميراً، فجعل سعد بن مسعود النخعيّ على قَيْسٍ وعبد القيس، ومَعْقِل بن قيس اليربوعيّ على تميم وضبة والرباب وقريش

(١) صفين: رقباءكم.

(٢) كذا في ١، وفي ب، ج بحذف «كي».

(٣) الترس: جمع ترس؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة، ويجمع على تراس أيضاً.

(٤) الفرار: الفليل من النوم. وقوله: «مضمضة»؛ لما جعل للنوم ذوقاً أمرهم ألا ينالوا منه إلا بالسهم ولا يسبقوه؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع؛ كذا فسرهُ صاحب اللسان (١٠٠٩)؛ وأورد كلام الإمام.

(٥) صفين: «حربكما»

(٦) صفين ١٣٢، ١٤٠ - ١٤١

وكنانة وأسد ، ونخف بن سليم على الأزد وبجيلة وخشم والأنصار وخزاعة ، وحُجْر ابن عدى السكندى على كِنْدَةَ وحَضْرَموت وقُضاعة ، وزِياد بن النُّضْر على مَذْحِج والأشعرين ، وسعيد بن مُرَّة الهمداني على همدان ومن معهم من حمير ، وعدى بن حاتم الطائي على طيء ؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج ، وتختلف الرايتان : راية مَذْحِج مع زياد بن النضر ، وراية طيء مع عدى بن حاتم ؛ هذه عساكر الكوفة .

وأما عساكر البصرة فخالد بن معمر السدوسي على بكر بن وائل ، وعمر بن مرجوم العبدى على عبد القيس ، وابن شيان الأزدي^(١) على الأزد ، والأحنف على تميم وضبة والرباب ، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية .

أما بعد ، فإني أبرأ إليكم من معرة الجنود^(٢) [إلا من جوعة إلى شعبة ، ومن فقر إلى غنى ، أو عى إلى هدى ؛ فإن ذلك عليهم]^(٣) . فأغربوا^(٤) الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عتاً فيردّ بها علينا وعليكم دعاءنا ؛ فإنه تعالى يقول : ﴿ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾^(٥) . وإن الله إذا مَقَّت قوماً من السماء هلكوا في الأرض ، فلا تألوا أنفسكم خيراً ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة ؛ وابلوا في سبيله ما استوجب عليكم ؛ فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يحب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصره ما بلغت قوتنا ؛ ولا قوة إلا بالله .

(١) في صفين : صبرة بن شيان .

(٢) نسب صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « وأما معرة الجيش التي تبرا منها عمر رضى الله عنه ؛ فهي وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه » ؛ وفي صفين : « معرة الجيش » .

(٣) تسكلمة من كتاب صفين .

(٤) أغربوا الناس ، أى نحوهم ، وفي صفين « فاعزلوا الناس » .

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإن الله جعلكم فى الحقّ جميعاً سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى ، وجعل الوالى منكم ، بمنزلة الولد من الوالد ، و [بمنزلة] ^(١) الوالد من الولد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم] ^(٢) . فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرتة والدفع عن سلطان الله ، فإنكم ورثة الله فى الأرض ، فكونوا له أعواناً ، ولدينه أنصاراً ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنا سعد بن طريف ، عن الأصمغ ابن نباتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذه القبر ؟ - بالنخيلة ، وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله - فقال الحسن بن علىّ عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ، جاء فأتاه هاهنا ، فقال : كذبوا ؛ لأننا أعلم به منهم ! هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بكر يعقوب ؛ ثم قال : أهاهنا أحد من مهرة ^(٣) ؟ فأتى بشيخ [كبير] ^(١) ، فقال : أين منزلك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبر ساحر ، قال : كذبوا ، ذاك قبر هود النبىّ عليه السلام وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

(١) تكملة من كتاب صفين

(٢) مهرة : حى من اليمين

عليه السلام : يُحْشَرُ من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غُرّة الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نَزَلَ على عليه السلام النُّخَيْلَةُ متوجّهاً إلى الشام ، وبلغ معاويةَ خبره ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان مختضباً بالدم ، وحول المنبر سبعون ألف شيخ ، يبكون حوله لا تجفّ دموعهم على عثمان ، خطبهم ، وقال :

يا أهل الشام ، قد كنتم تكذبونني في عليّ ، وقد استبان لكم أمره ؛ والله ما قتل خليفَتكم غيره ، وهو أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآرى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم . يا أهل الشام ، الله الله في دم عثمان ! فأنّا وليّه وأحقّ من طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لوليّ المقتول ظمأ سلطاناً ، فانصروا خليفَتكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظمأً وبغياً ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعدّ للقاء عليّ عليه السلام .



ومن كلامه عليه السلام في ذكر الكوفة :

الأصل :

كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْمَكَاطِيَّ ، تُفَرِّكِينَ بِالنَّوَازِلِ ،
وَتُفَرِّكِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سِوَا إِلَّا ابْتِلَاءَهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ ،
أَوْ رَمَاهُ ^(١) بِقَاتِلٍ .

الشنخ :

عكاظ : اسم سوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بها في كل سنة ، يقيمون
شعرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذؤيب :

إِذَا بُنِيَ الْقَيْسَابُ عَلَى عُكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأُلُوفُ ^(٢)

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها . والأديم
واحد والجمع أدُم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذي لم تزل دباغته ، وجمعه أفُق . وقد يجمع أديم
على أدمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحركة .

(١) مخطوطة النهج : « ورماء »

(٢) ديوان المهذلين ١ : ٩٨ ؛ وفي شرحه : « على عكاظ ، يريد بمكاظ ، ويقال : فلات نازل على
فلات ، وعلى ضربة ، أي بها ، قام البيع . يريد قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تَمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ » ، استعارة لما ينالها من العسف والخبط .

وقوله : « تُعْرَكِينَ » ؛ من عَرَكَتِ الْقَوْمَ الْحَرْبَ إِذَا مَارَسْتَهُمْ حَتَّى أَنْعَبْتَهُمْ .

[فصل في ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شيء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المدرة .

وقوله عليه السلام : إِنَّهُ يُحْشَرُ مِنْ ظَهْرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ .

وقوله عليه السلام : هَذِهِ مَدِينَتُنَا وَمَحَلَّتُنَا ، وَمَقَرَّ شِيعَتُنَا .

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللَّهُمَّ ارْزُمْ مِنْ رَمَاهَا ، وَعَادِرٍ مَنْ عَادَاهَا .

وقوله عليه السلام : تَرَبَّةٌ تَحِيْمُنَا وَنُحْبِئُهَا .

فَأَمَّا مَا مَهَّمَّ بِهِ الْمُلُوكَ وَأَرَبَابَ السُّلْطَانِ فِيهَا مِنَ السُّوءِ ، وَدِفَاعَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهَا ؛ فَكَثِيرٌ .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إِنِّي قَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُبْعَثَ إِلَى الْكُوفَةِ مَنْ يَنْقُضُ مَنَازِلَهَا ، وَيُجَمِّرُ^(١) نَخْلَهَا ، وَيَسْتَصْفِي أَمْوَالَهَا ، وَيَقْتُلُ أَهْلَ الرِّيبَةِ مِنْهَا ، فَأَشِيرَ عَلَى . فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ الْمَرْءَ لِيَقْتَدِيَ بِسَلْفِهِ ، وَلَكَ أَسْلَافٌ ثَلَاثَةٌ : سُلَيْمَانُ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَأَيُّوبُ ابْتَلِيَ فَصَبَرَ ، وَيُوسُفُ قَدَّرَ فَغَفَرَ ؛ فَاقْتَدِ بِأَيَّتِهِمْ شِئْتَ . فَصَمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ غَفَرْتَ .

(١) جر النخلة ؛ أى قطع جاركها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزي في كتاب " المنتظم " أن زياداً لما حصّبه أهل الكوفة ، وهو يخطب على المنبر ، قطع أيدي ثمانين منهم ، وهم أن يجزّب دورهم ، ويُجَمَّرَ نخلهم ، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة ، يعرضهم على البراءة من عليّ عليه السلام ؛ وعلم أنهم سيمنعون ، فيحتجّ بذلك على استئصالهم ، وإخرا ب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاري : فإني لمع نفر من قومي ، والناس يومئذ في أمر عظيم ؛ إذ هومت تهويمه^(١) ، فرأيت شيئاً أقبل ، طويل العنق ، مثل عنق البعير أهدر أهـل^(٢) ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النّقاد ذو الرّقة ، بُعثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فرعاً ، فقلت لأصحابي : هل رأيتم ما رأيـت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال : انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إني عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إني لأجد في النّصف من جسدي حر النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِيَا عَمَّا أَرَادَ بِنَا حَتَّى تَنَاولَهُ النَّقَادُ ذُو الرِّقَةِ
فَأَثَبَتِ الشَّقُّ مِنْهُ ضَرْبَةً عَظُمَتْ كَمَا تَنَاولَ ظُلْمًا صَاحِبُ الرَّحْبَةِ^(٣)

قلت : قد يظن ظان أن قوله : « صاحب الرحبة » يمكن أن يحتجّ به من قال : إن قبر أمير المؤمنين عليه السلام في رَحبة المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة في ذلك ، لأن أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه في رَحبة المسجد ، يحكم بين الناس . فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

(١) التهويم : هز الرأس من الناس .

(٢) يقال : هدر البعير ؛ صوت في غير شقشقة ؛ والجل الأهدل : السرخى المشفر .

ومن خطبة له عليه السلام عند المنبر إلى السام :

الأفضل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ ، وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ ، وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ
مَنْقُودِ الْإِنْعَامِ ، وَلَا مُكَافٍ الْإِفْضَالِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمِي ، وَأَمَرْتُهُمْ
بِلِزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ ؛ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى
شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ ، مُوْطِنِينَ أَكْثَافَ دَجَلَةٍ ، فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَأَجْعَلَهُمْ
مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ أَلَيْكُمْ .

قال الرضى رحمه الله :

يعنى عليه السلام بِالْمِلْطَاطِ هاهنا السَّمَتَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِلِزُومِهِ ؛ وَهُوَ شَاطِئُ الْفُرَاتِ ،
وَيُقَالُ ذَلِكَ أَيْضًا لِشَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَأَصْلُهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ . وَيَعْنَى بِالنُّطْفَةِ مَاءُ
الْفُرَاتِ ، وَهُوَ مِنْ غَرِيبِ الْعِبَارَاتِ وَمَجِيبِهَا .

الشيخ :

وقب الليل ؛ أى دخل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ (١)
وغسق ، أى أظلم . وخفق النجم ، أى غاب .

ومقدّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ وما يتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدّمة الإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلْطَاطُ : حافة الوادى وشَفِيرُهُ وساحل البحر ، قال رؤية :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ *

قال الأصمعيّ : يعنى به ساحل البحر ، وقول ابن مسعود : هذا المِلْطَاط طريق بَقِيّة المؤمنين ، هُرّابا من الدّجَال - يعنى به شاطئ الفرات .

فأما قول الرضى رحمه الله تعالى : « المِلْطَاط : السّمت الذى أمرم يلزومه وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر » ، فلا معنى له ؛ لأنّه لا فرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر ، وكلاهما أمر واحد ، وكان الواجب أن يقول : المِلْطَاط : السمت فى الأرض ، ويقال أيضاً لشاطئ البحر .

والشُرْذمة : نفر قليلون .

وموطنين أكناف دجلة ، أى قد جعلوا أكنافها وطنًا ، وأطنت البُقعة .

والأكناف : الجوانب ، واحداها كَنَف . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو ما يُمدّ به

لجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو بالنخيلة خارجا من الكوفة ومتوجّها إلى صِفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير، وزادوا فيها : « وقد أمرت على المصر عُقبة بن عمرو ، ولم آلكم ولا نفسى ؛ فإياكم والتخلّف والتربّص ؛ فإنى قد خلّفت مالك بن حبيب اليربوعى ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا ، إن شاء الله » ^(١)

وردى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فأنهضهم معكم إلى عدوكم » فأنهضهم معكم إلى عدو الله ».

قال نصر : فقام إليه معقل بن قيس الرياحي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ والله ما يتخلف عنك إلا ظنين ، ولا يتربص بك إلا منافق ، فمر مالك بن حبيب فليضرب أعناق المتخلفين . فقال : قد أمرته بأمرى ، وليس بمقصر إن شاء الله .

[أخبار عليّ في جيشه وهو في طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بهرسير^(١) ؛ وإدا رجل من أصحابه يقال له حرّ بن سهم بن طريف ، من بني ربيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن بقر :

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادٍ^(٢)

فقال له عليه السلام : ألا قلت : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾^(٣) ؛ إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورثين ، ولم يشكروا النعمة ، فسلّبوا دنياهم بالمعصية . إياكم وكفّر النعم ، لا تحلّ بكم النعم ، انزلوا بهذه الفجوة^(٤) .

(١) بهرسير : بلد قرب المدائن .

(٢) من قصيدة له في المفضليات ٢١٦ - ٢٢٠

(٣) سورة ادخان ٢٥ - ٢٩

(٤) الفجوة : المكان اللسع في الأرض ؛ وفي صفين « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدَّثنا عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور عن حَبَّةِ العرنى ، قال : أمر على عليه السلام الحارث الأعور ؛ فصاح في أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أمير المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر . فوافوه في تلك الساعة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجَّبت من تخلفكم عن دَعوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصركم في هذه المباكن ؛ الظالم أهلها ، الهالك أكثر ساكنيها ، لا معروف يأمرهم به ، ولا منكر ينهون عنه .

قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنا كنا ننتظر أمرَك ، مُرُّنا بما أحبيت ؛ فسار وخلف عليهم عدى بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة رجل منهم ، وخلف ابنه زياد بعده ، فلحقه في أربعمائة رجل منهم .

وجاء على عليه السلام حتى مرَّ بالأنبار ، فاستقبله بنو خشنوش^(١) ؛ دهاقينها .

— قال نصر : الكلمة^(٢) فارسية ، أصلها « خَشْ » أى الطيب . —

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدون معه ، وبين يديه ومعهم براذين ، قد أوقفوها في طريقه ، فقال : ما هذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أما هذا الذى صنعنا ، فهو خُلُقٌ مِنّا نعظم به الأمراء ؛ وأما هذه البراذين فهديّة لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهى لنا لدوابكم علفا كثيرا .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنه فيكم خُلُقٌ تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإتاكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

(١) فى الأصول « خشوش » ، وما أتبعه من كتاب صفين .

(٢) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب الراضى بالفارسية » .

له . وأما داو بكم هذه ؛ فإن أحببتُم أن آخذها منكم ، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا ؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بئمن . قالوا : يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذا لانتقو مونه قيمته ، نحن نكتفى بما هو دونه . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ فإن لنا من العرب موالٍ ومعارف ؛ أئمننا أن نهدي لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؛ فقال : كلُّ العرب لكم موالٍ ، وليس ينبغى لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم ، وإن غصبكم أحد فأعلمونا . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنا نحب أن تُقبل هديتنا وكرامتنا . قال . ونحكم ! فنحن أغنى منكم . وتركهم وسار .

قال نصر : وحدثنا عبد العزيز بن سياه ، قال : حدثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : حدثنا [أبو] ^(١) سعيد التيمي المعروف بـعقيصى ، قال : كنّا مع عليّ عليه السلام فى مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا عليّ عليه السلام حتى أتى [بنا] ^(٢) إلى صخرة ضرس ^(٣) فى الأرض ؛ كأنها رُبضةٌ عنز ^(٤) ؛ فأمرنا فاقبلناها ، فخرج لنا من تحتها ماء ، فشرِب الناس منه ، وارتووا . ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمينكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاة ، فاقطعنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شىء ، حتى إذا عيّل علينا انطلقنا إلى دبرٍ قريب

(١) من صفين والقاموس .

(٢) الضرس : الذكّة الحشنة .

(٣) الرُبضة ، بضم الراء ويقال بكسرهما ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفى الأثر : « جاء بتريد كأنه رُبضة أرنب ؛ أى جثتها . راجع اللسان .

مِنَّا ، فسألناهم : أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا : ليس قُرْبَنَا ماء ، فقلنا : بلى إننا شربنا منه ، قالوا : أنتم شربتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْر : والله ما بُني هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما إستخرجه إلا نبيّ أو وصيّ نبيّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرض الجزيرة ، فاستقبله بنو تغلب والنَّيْمِر بن قاسط بِجَزُور^(١) ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبيّ : يا يزيد ، قال : كَبَيْك يا أمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومك ؛ من طعامهم فاطم ، ومن شرابهم فاشرب . قال : ثم سار حتى أتى الرِّقَّة - وجلّ أهلها عُمانيّة ، فرأوا من الكوفة إلى معاوية - فأغلقوا أبوابها دونه ، وتحصنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرقعة الأسدى فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرِّقَّة حتى لحق به منهم سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبَّة أن عليا عليه السلام لما نزل على الرِّقَّة ، نَزَلَ بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمَعَتِهِ ، فقال لعلىّ عليه السلام : إنَّ عندنا كِتَابًا توارثناه عن آبائنا ، كتبهُ أصحابُ عيسى بن مريم ، أعْرِضْهُ عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطَّرَ فيما كتب^(٢) : أنه باعُثُ فى الأميين رسولا منهم ؛ يعلمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظُّ ولا غليظ ؛ ولا صَخَابٌ فى الأسواق ولا يجزى بالنسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمته الحمدون الذين يحمّدون الله على كلِّ نَشْرٍ^(٣) ، وفى كلِّ صَعُودٍ وهَبُوطٍ ، تذلّ ألسنتهم

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة »

(٢) صفين : « فيما سطر » .

(٣) النَشْر : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصره الله على من ناواه ؛ فإذا توفاه الله ، اختلفت أمته من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبث ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضى بالحق ولا يرّكس^(١) الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرمّاد في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمآن^(٢) ، يخاف الله في السرّ ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومة لائم ؛ فمن أدرك ذلك النّبي من أهل هذه البلاد فأمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فالينصره ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبك ، فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكنّ عنده منسيا ، الحمد لله الذى ذكرني عنده في كتّب الأبرار . فضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتغذى مع أمير المؤمنين ويتعشى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم ، قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلب عليه ودفنه . وقال : هذا منّا أهل البيت ، واستغفر له مرارا .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم في كتاب " صفين " ،^(٣) عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العزنى . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمداني ، بهذا الإسناد عن حبة أيضا في كتاب صفين .

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب ، قال : حدثني يحيى بن سليمان ، قال : حدثني محمد بن عبد الملك بن حميد بن عتيبة ؛ عن أبيه ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبيه ومحمد

(٢) الرّكس : رد الشيء مقلوبا ، وفي صفين : « ولا يرتضى في الحكم » .

(٣) صفين : « الظماء »

(٤) كتاب صفين أنصر ١٦٤ - ١٦٥

ابن فضيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبي سعيد الخدري ، رحمه الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانقطع شيع^(١) نعليه ، فألقاها إلى على عليه السلام يصلحها ، ثم قال : « إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله » ، فقال أبو بكر الصديق : أنا هو يا رسول الله ! فقال : لا ، فقال عمر بن الخطاب : أنا هو يا رسول الله ! قال : « لا ، ولكنه ذاكم خاصف النعل » - ويدُ على عليه السلام على نعل النبي صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد : فأتيتُ عليا عليه السلام فبشرته بذلك فلم يحفل به ، كأنه شيء قد كان علمه من قبل .

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً ، عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فضيل ، عن إبراهيم الهجري ، عن أبي صادق ، قال : قدم علينا أبو أيوب الأنصاري العِراقي ، فأهدت له الأزرد جُزرا^(٢) ، فبعثوها معي ، فدخلت إليه فسلمت عليه ، وقلت له : يا أبا أيوب ، قد كرمك الله عز وجل بصحبة نبيه صلى الله عليه وآله ، ونزوله عليك ، فإني أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين ، فقد قاتلناهم ، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين ؛ فهذا وجهنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين ، ولم أرهم بعد .

وروى ابن ديزيل أيضاً في هذا الكتاب ، عن يحيى ، عن يعقوب بن عبيد الحنفية ، عن إسماعيل السدي ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو

(١) الشسع : قبال النعل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والى تليها

(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو ما يذبح من الإبل

فِي الْحَجْرَةِ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُهُ حَتَّى اشْتَدَّ الْحَرُّ ، فَجَاءَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَهُ فَاطِمَةُ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ؛ فَقَعَدُوا فِي ظِلِّ حَائِطٍ يَنْتَظِرُونَهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، رَأَوْهُ فَأَتَاهُمْ وَوَقَفْنَا نَحْنُ مَكَانَنَا ، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْنَا وَهُوَ يَظْلِمُهُمْ بِثَوْبِهِ ، مُمْسِكًا بِطَرَفِ الثَّوْبِ ، وَعَلَى مُمْسِكٍ بِطَرَفِهِ الْآخَرِ ؛ وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُهُمْ ، فَأَحْبِبْهُمْ ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي سَلِّمْ لِمَنْ سَلَّمَهُمْ ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ » . قَالَ : فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ : وَحَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْحَكَمِ النَّخَعِيُّ ، عَنْ رَبَاحِ بْنِ الْحَارِثِ النَّخَعِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِذْ قَدِمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ مُتَلَثِّمُونَ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَوْلَانَا ، فَقَالَ لَهُمْ : أَوَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا ! قَالُوا : بَلَى ، وَلَكِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ » ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَشْهَدُوا .

ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ مَضَوْا إِلَى رِحَالِهِمْ فَتَبِعْتُهُمْ ، فَقُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ : مَنْ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : نَحْنُ رَهْطٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَذَاكَ - يَعْنُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ - أَبُو أَيُّوبَ ، صَاحِبُ مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، قَالَ : فَأَتَيْتُهُ فَصَاحَفْتُهُ .

قَالَ نَصْرٌ : وَحَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ نَمِيرِ بْنِ وَعَلَةَ ، عَنْ أَبِي الْوَدَّاعِ ، أَنَّ (١) عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ مِنَ الْمَدَائِنِ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسِ الرِّيَّاحِيِّ ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَقَالَ لَهُ : خُذْ عَلَيَّ

الموصل ، ثم نصيبين ، ثم القنى بالرقّة ، فإني موافيهما . وسكن الناس وأمنهم ، ولا تقاتل إلا من قاتلك ، وسير البرذنين ^(١) ، وغور بالناس ^(٢) . أقم الليل ، ورفّه في السير ، ولا تسرّ أول الليل ؛ فإن الله جعله سكنا ، أرخ فيه بدنك وجندك وظهرك ، فإذا كان السحر أوحين يتبلج ^(٣) الفجر ، فسر .

فسار حتى أتى الحديثة — وهى إذ ذاك منزل الناس — وإنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان — فإذا بكبشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة ^(٤) — قتل بعد ذلك مع الحرورية — فأخذ يقول : إيه ، إيه ! فقال معقل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كل واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمي لمعقل : لا تغلبون ولا تغلبون ، فقال معقل : من أين علمت ؟ قال : أما أبصرت الكبشين ، أحدهما مشرق والآخر مغرب ، التقيا فاقتتلا وانتطحا ، فلم يزل كل واحد من مصاحبه منتصفا ، حتى أتى كل واحد منهما صاحبه فانطلق به ! فقال معقل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى عليا عليه السلام بالرقّة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب علي عليه السلام له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومن قبله من قومك ؛ فإن الحجة لا تزاد عليهم بذلك إلا عظما ، فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم] ^(٥) ، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قریش :

(١) البردان : الغداة والعشى

(٢) غور بالناس ، أى أنزل بهم في الغائرة ؛ وهى القائلة ؛ أو نصف النهار .

(٣) صفين : « ينطح » ، وفى ب : « ينبلج » .

(٤) كذا في صفين ، أ ، ج ، وفى ب : « شرار بن شداد بن أبي ربيعة » .

(٥) من صفين .

سلام عليكم ، فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أما بعد : فَإِنَّ اللَّهَ عِبَادًا آمَنُوا
بالتنزيل ، وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ ، وَفَقَهُوا فِي الدِّينِ ، وَبَيَّنَّ اللَّهُ فَضْلَهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ،
وَأَتَمَّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانَ أَعْدَاءَ الرَّسُولِ ، تَكْذِبُونَ ^(١) بِالْكِتَابِ ، مَجْمُوعُونَ عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ ،
مَنْ تَقَفْتُمْ مِنْهُمْ حَبَسْتُمُوهُ أَوْ عَذَبْتُمُوهُ أَوْ قَتَلْتُمُوهُ ؛ حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِعْزَازَ دِينِهِ ، وَإِظْهَارَ
أَمْرِهِ ، فَدَخَلَتِ الْعَرَبُ فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا ، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا ، فَكُنْتُمْ
فِيهِمْ دَخْلٌ فِي هَذَا الدِّينِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ؛ عَلَى حِينٍ فَازَ أَهْلُ السَّبَقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَفَازَ
الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ . وَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ مِثْلُ سَوَابِقِهِمْ فِي الدِّينِ ، وَلَا فُضَائِلِهِمْ
فِي الْإِسْلَامِ ؛ أَنْ يَنَازِعَهُمُ الْأَمْرَ الَّذِي هُمْ أَهْلُهُ وَأَوْلَى بِهِ ، فَيَجُورُ ^(٢) وَيَظْلَمُ ، وَلَا يَنْبَغِي
لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَجْهَلَ قُدْرَهُ ، وَيَعْدُو طُورَهُ ، وَيُشَقِّقَ نَفْسَهُ بِالْتِمَاسِ مَا لَيْسَ بِأَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ
أَوَّلَى النَّاسِ بِأَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، أَقْرَبُهَا مِنَ الرَّسُولِ ، وَأَعْلَمُهَا بِالْكِتَابِ ، وَأَفْقَهُهَا
فِي الدِّينِ ، أَوْلَاهَا إِسْلَامًا ، وَأَفْضَلُهَا جِهَادًا ، وَأَشَدَّهَا بِمَا تَحْمِلُهُ الْأُتَمَّةُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ
اضْطِلَاعًا ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

واعلموا أَنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ ، وَأَنَّ شَرَارَهُمُ الْجَهَالُ الَّذِينَ يَنَازِعُونَ
بِالْجَهْلِ أَهْلَ الْعِلْمِ ؛ فَإِنَّ لِلْعَالِمِ بَعْلَهُ فَضْلًا ، وَإِنَّ الْجَاهِلَ لَا يَزِدَادُ بِمَنَازَعَتِهِ الْعَالِمَ إِلَّا جَهْلًا ؛
أَلَا وَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَحَقِّقْ دِمَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فَإِنْ قَبِلْتُمْ أَصَبْتُمْ
رُشْدَكُمْ ، وَاهْتَدَيْتُمْ لِحُطْمِكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْفُرْقَةَ وَشَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ لَمْ تَزِدَادُوا مِنَ اللَّهِ
إِلَّا بَعْدًا ، وَلَا يَزِدَادُ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا سَخَطًا . وَالسَّلَامُ .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ جَوَابَ هَذَا الْكِتَابِ ، سَطْرًا وَاحِدًا ؛ وَهُوَ : أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ :

(١) : « مَكْذِبُونَ »

(٢) : ب وَصَفِينَ : « يَجُورُ » .

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابٌ غَيْرُ طَعْنِ الْكَلْبِ وَضَرْبِ الرَّقَابِ
فقال على عليه السلام لما أناه ، هذا الجواب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ^(١).

قال نصر : وقال على عليه السلام لأهل الرقة : جَسُّوْا لِي جِسْرًا أُعْبِرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا
الْمَكَانِ إِلَى الشَّامِ ؛ فَأَبَوْا ، وَقَدْ كَانُوا ضَمُّوا السُّفْنَ إِلَيْهِمْ ؛ فَهَضَّ مِنْ عِنْدِهِمْ لِيُعْبَرَ
عَلَى جِسْرِ مَنِيْجٍ ، وَخَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ هَذَا الْحَصَنِ ؛ إِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ
إِنْ مَضَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ تَجَسُّرُوا لَهُ عِنْدَ مَدِينَتِكُمْ حَتَّى يَغْبِرَ مِنْهَا ؛ لَأَجْرَ دَنْ فِيكُمْ
السَّيْفُ ، فَلَأَقْتُلَنَّ مَقَاتِلَكُمْ ، وَلَأُخْرِبَنَّ أَرْضَكُمْ ، وَلَأُخَذَنَّ أَمْوَالَكُمْ .

فَلَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَقَالُوا : إِنَّ الْأَشْتَرَ يَنْبِي بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا خَلَفَهُ عَلَى عِنْدَنَا
لِيَأْتِينَا بِشَرٍّ ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ : إِنَّا نَاصِبُونَ لَكُمْ جِسْرًا ، فَأَقْبَلُوا . فَأَرْسَلَ الْأَشْتَرُ إِلَى عَلَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، فَجَاءَ ، وَنَصَبُوا لَهُ الْجِسْرَ ، فَعَبَّرَ الْأَنْقَالَ وَالرِّجَالَ ، وَأَمَرَ الْأَشْتَرَ فَوَقَفَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ
فَارِسٍ ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا عَبَّرَ ، ثُمَّ عَبَّرَ آخِرَ النَّاسِ رَجُلًا .

قال نصر : وَازْدَحَمَتِ الْخَيْلُ حِينَ عَبَّرَتْ ، فَسَقَطَتْ قَلَنْسُوءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَصِينِ ،
فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا ، وَرَكِبَ ، ثُمَّ سَقَطَتْ قَلَنْسُوءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحِجَاجِ ، فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا ، ثُمَّ رَكِبَ
فَقَالَ لِسَاحِبِهِ :

فَإِنْ يَكُ ظَنُّ الزَّاجِرِ الطَّيْرِ صَادِقًا كَمَا زَعَمُوا ، أَقْتُلْ وَشِيكََا وَتُقْتَلْ

فقال عبد الله بن أبي الحصين : مَا شِئْتُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا ذَكَرْتَ ، فَقَتَلَا مَعًا
يَوْمَ صَفَيْنَ ^(٢).

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) والخبر أيضا في تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٦ - ٢٣٧

قال نصر : فلما قطع على عليه السلام الفُرات، دعا زياد بن النضر وشريح بن هاني* فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، في اثني عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرّحهما من الكوفة مقدّمة له أخذًا على شاطئ الفرات من قِبَلِ البرّة ، مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات^(١) ، فبلغهما أخذُ على عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلمّا أنّ معاوية قد أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ما هذا برأى ، أن نسير وبيتنا وبين أمير المؤمنين هذا البحر ، ومالنا خيرٌ في أن نلقى جوعَ الشام في قلة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذهبوا ليعبرُوا من عانات ، فنعمهم أهلها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عبَرُوا من هيت ، ولحقوا عليا عليه السلام بقرية دون قرقيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام تحبّب ، وقال : مقدّمتي تأتي من ورائي ! فقام له زياد وشريح ، وأخبراه بالرأى الذي رأيا . فقال : قد أصبّنا رُشدًا ، فلما عبَرُوا الفرات ، قدّماهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيهما أبو الأعور السلميّ في جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواهُ إلى الدُخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى على عليه السلام : إنّنا قد لقينا أبا الأعور السلميّ بسور الروم في جند من أهل الشام ، فدعونا وأصحابه إلى الدخول في طاعتك ، فأبى علينا ، فرمنا بأمرك .

فأرسل على عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يامال ، إن زيادا وشريحا أرسلّا إلى بعلمانني ؛ أنهما لقيّا أبا الأعور السلميّ في جند من أهل الشام بسور الروم ، وتبّأني الرسول أنه تركهم متواقفين ؛ فالنّجاء النجاء إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم ، فأنت عليهم ؛ وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدؤوك ، والقهم واسمع منهم ، ولا يجرمَنَّكَ شتائهم على قتالهم قَبْلَ

دعائهم ؛ والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعلْ على ميمتك زيادا ، وعلى ميسرتك شريحا ، وقف من أصحابك وسطا ، ولا تدن منهم دنو من يريد أن يُنشب الحرب ، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب الناس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإني حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب على عليه السلام إليهما - وكان الرسول الخارث بن جهمان الجعفي - :
أما بعد ؛ فإني قد أمرت عليكما مالكا ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو من لا يخاف رَهْمَهُ ولا سِقَاطَهُ^(١) ، ولا بَطْؤَهُ عَمَّا الإسراع إليه أحزم ، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل ؛ وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما ، ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم ، ويُعذر إليهم إن شاء الله .

قال : فخرج الأشتر حتى قدم على القوم ، فاتبع مأموره به على عليه السلام ، وكف عن القتال ، فلم يزلوا متواقفين ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فنبتوا له ، واضطربوا ساعة . ثم إن أهل الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عُدَّتْها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمي ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمل الخيل على الخيل ، والرجال على الرجال ، وصبر بعضهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبكر عليهم الأشتر ، فقتل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التَّنُوخي ، قتله ظبيان بن عمارة التميمي ، وما هو يومئذ إلا فتى حديث السن . وإن كان الشامي لفارس أهل الشام ، وأخذ الأشتر يقول :
ويحكم أروني أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوه ، فوقف على تل من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة ، وجاء الأشتر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي . انطلق إلى أبي الأعور ، فادعُه إلى المبارزة ،

(١) الرهق : الطيش والتزق . والسقاط : الخضا .

فقال : إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أَوَلَوْ أَمَرْتُكَ بِمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛
والذي لا إله إلا هو ؛ لو أَمَرْتَنِي أَنْ أَعْتَرِضَ صَفَّهُمْ بِسَيْفِي لَقُطِلْتُ حَتَّى أَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ .
فقال : يا بن أخى ، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاكَ ! قَدْ وَاللَّهِ أَزْدَدْتُ فَيْكَ رَغْبَةً ، لَا ، مَا أَمَرْتُكَ بِمبارزته ،
إِنَّمَا أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوهُ لِمبارزتي ؛ فَإِنَّهُ لَا يَبَارِزُ - إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ - إِلَّا ذَوِي الْأَسْنَانِ
وَالْكَفَاءَةِ وَالشَّرَفِ ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكَفَاءَةِ وَالشَّرَفِ ؛ وَلَكِنَّكَ حَدِيثُ
السَّنَنِ ، وَلَيْسَ يَبَارِزُ الْأَحْدَاثَ ؛ فَادْهَبْ فَادْعِهِ إِلَى مِبارزتي .

فَأَتَاهُمْ فَقَالَ : أَنَا رَسُولُ فَاثْمَوْنِي ، فَجَاءَ حَتَّى أَتَاهُمُ إِلَى أَبِي الْأَعْوَرِ ^(١) .

قال نصر : فحدثني عمر بن سعد ، عن أبي زهير العبسي ، عن صالح بن سنان ، عن
أبيه ، قال : قُتِلَ لَهُ : إِنْ الْأَشْتَرِ يَدْعُوكَ إِلَى الْمِبارزة ، قال : فمَكَتْ عَنِّي طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ :
إِنَّ خُفَةَ الْأَشْتَرِ وَسُوءَ رَأْيِهِ وَهَوَانَهُ ؛ دَعَاهُ إِلَى إِجْلَاءِ عَمَالِ عُثْمَانَ ، وَافْتِرَائِهِ عَلَيْهِ ، يَقْبَحُ
مَحَاسِنَهُ ، وَيَجْهَلُ حَقَّهُ ، وَيُظْهِرُ عِدَاوَتَهُ . وَمِنْ خُفَةِ الْأَشْتَرِ وَسُوءَ رَأْيِهِ أَنَّهُ سَارَ إِلَى عُثْمَانَ
فِي دَارِهِ وَقَرَارِهِ ، فَقَتَلَهُ فِيمَنْ قَتَلَهُ ، وَأَصْبَحَ مَتَّبِعًا بِدَمِهِ ، لَا حَاجَةَ لِي فِي مِبارزته .

قُتِلَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَاسْمَعْ حَتَّى أَجِيبَكَ ، فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لِي فِي جَوَابِكَ
وَلَا الْإِسْتِمَاعِ مِنْكَ ، أَذْهَبَ عَنِّي ؛ وَصَاحَ بِي أَصْحَابُهُ فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ ، وَلَوْ سَمِعْتُ لِأَسْمَعْتُهُ عَذَرَ
صَاحِبِي وَحِجَّتَهُ .

فَرَجَعْتُ إِلَى الْأَشْتَرِ ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ قَدْ أَبَى الْمِبارزة ، فَقَالَ : لِنَفْسِهِ نَظَرٌ .

قال : فتَوَاقَعْنَا ، فَإِذَا هُمْ قَدْ انْصَرَفُوا . قال : وَصَبَحْنَا عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ غُدُوَّةً سَاطِرًا نَحْوَ
مَعَاوِيَةَ ، فَإِذَا أَبُو الْأَعْوَرِ قَدْ سَبَقَ إِلَى سَهْوَةِ الْأَرْضِ وَسَعَةِ الْمَنْزِلِ ، وَشَرِيعَةِ الْمَاءِ مَكَانًا

(١) الرَّمَقُ : الْجَهْلُ ، وَالسَّقَاطُ : الْخَطَأُ .

(٢) وَالْخَبْرُ أَيْضًا فِي الطَّبَرِيِّ ٥ : ٢٣٩ .

أفصح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته
بُسْر بن أرطاة العامريّ ، وعلى الخليل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ودفع اللواء إلى
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهريّ ، وعلى رجالته
من الميمنة يزيد بن زحر الضبيّ ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجالة من
الميسرة حابس بن سعيد الطائيّ ، وعلى خيل دمشق الضّحّاك بن قيس الفهريّ ؛ وعلى رَجَالَة
أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجليّ ، وعلى أهل حِمص ذا التّكّلاع ، وعلى أهل
فلسطين مَسْلَمَة بن مخلد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من
سنة سبع وثلاثين .



ومن فطنته عليه السلام :

الأضل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَّنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ ، وَدَاثَتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ .
سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بِأَعْدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ .
لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَا حِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا !

الشَّيْخُ :

بطنتُ سِرَّ فلان ، أى أخفيته .

والأعلام : جمع علم ، وهو المنارُ يَهْتَدَى بِهِ ؛ ثُمَّ جَعَلَ لِكُلِّ مَادِلٍ عَلَى شَيْءٍ ؛ فَقِيلَ لِمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ أَعْلَامٌ ، لِذَلَالَتِهَا عَلَى نُبُوَّتِهِمْ . وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « أَعْلَامُ الظُّهُورِ » ، أَيْ الْأَدْلَةُ الظَّاهِرَةُ الْوَاضِحَةُ .

وقوله فيما بعد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هي الوجود نفسه ، وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمُرْتَىٍّ بِالْعَيْنِ ؛ وَمَعَ

ذلك فلا يمكنُ مَنْ لم يَرَهُ بعينه أن ينكره ؛ لدلالة كلِّ شيء عليه ، بل لدلالته سبحانه على نفسه .

ثم قال : « ولا قلب من أثبتَه يبصره » ، أى لا سبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تُعلم حقيقة ذاته ؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا فى الخطبة : « فلا قلبُ مَنْ لم يَرَهُ ينكره ، ولا عينُ مَنْ أثبتَه تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه بأعده » ، أى ليس علوه ولا قر به كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيين ، بل هو علو وقرب خارج من ذلك ، فليس علوه يقتضى بعده بالمكان عن الأجسام ، ولا قر به يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ « ساوأم » ، معناه : ولا قر به ساوأم به فى الحاجة إلى المكان ؛ أى لم يقتض قر به مماثلته ومساواته إياهم فى ذلك .

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث من العلم الإلهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمر الخفية .

والثانى : كونه تعالى مدلولاً عليه بالأمر الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفي تشبيهه بشيء من مخلوقاته .

والخامس : بيان أن الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول في جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل في البرهان على الحق من ذلك وبطلان شبهة المخالفين فيه ، على ما هو مذكور في كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإن كنا قد لا نخلى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول أما :

الفصل الأول

وهو الكلام في كونه تعالى عالما بالأمور الخفية

فاعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُور » وهذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلم الأمور الخفية الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين : أحدهما : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثاني : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلية .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً . فقد خالف في كل واحدة من المسألتين قوم ؛ فمن الناس من نفى كونه عالما بالمستقبلات ، ومن الناس من نفى كونه عالما بالأمور الحاضرة ؛ سواء كانت خفية أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا^(١) أن نشرح أقوال العقلاء في هذه المسائل ، فنقول : إن الناس فيها على أقوال :

القول الأول : قول جمهور المتكلمين ، وهو أن الباري سبحانه يعلم كل معلوم :

الماضي والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون وما لم يكن ، إن لو كان كيف كان يكون ، كقوله

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ^(١) ، فهذا علم بأمرٍ مقدّر على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون .

القول الثاني : قولٌ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبلية ، وشبهه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنه لا يدرك المستقبلات ، فكذلك لا يعلم المستقبلات . وهو قول هشام ابن الحكم ^(٢) .

القول الثالث : قولٌ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثاني ؛ وشبهه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لا يقدر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ ونسب ابن الراوندي هذا القول إلى معمر بن عباد ^(٣) ، أحد شيوخنا ، وأصحابنا يكذبونه في ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قولٌ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم نفسه خاصة ، ويعلم كل ما عدا ذاته ، ونسب ابن الراوندي هذه المقالة إلى معمر أيضا ، وقال : إنه يقول : إن العالم غير المعلوم ، والشيء لا يكون غير نفسه ؛ وأصحابنا يكذبون ابن الراوندي في هذه الحكاية ، وينزّهون معمرًا عنها .

القول الخامس : قولٌ مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزل عالما بشيء أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه عالما ، علم به الأشياء ، وهو قول جهنم بن صفوان ^(٤) .

القول السادس : قولٌ مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كل المعلومات على تفصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسية ؛ لأنهم يقولون : يسترسل علمه على المعلومات

(١) سورة الأنعام ٢٨

(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمي الشيعة ، وصاحب المقالة في التشبيه ؛ وإليه نسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستاني وبسط آراءه في الملل والنحل ١ : ١٦٤ - ١٦٦

(٣) معمر بن عباد السلمي القدرى ؛ وانظر آراءه في الملل والنحل للشهرستاني ١ : ٦٥ - ٦٧

(٤) جهنم بن صفوان ؛ وإليه نسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أخوز المازني بعمرو ؛ في آخر ملك بني أمية الشهرستاني ١ : ٧٩ - ٨١ .

إجمالاً لا تفصيلاً ؛ وهو مذهب الجويني^(١) من متكلمي الأشعرية .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة مالم يفيض القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أن القول بأنه يعلم كل شيء يفيض إلى محال ؛ وهو أن يعلم ويعلم أنه يعلم ، وهلم جرا إلى مالا نهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ، ولوازم لوازمها إلى مالا نهاية له . قالوا : ومحال اجتماع كل هذه العلوم غير المتناهية في الوجود ، وهذا مذهب أبي البركات البغدادي صاحب المعتبر^(٢) .

القول الثامن : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيات الجزئية ؛ وإنما يعلم الكلّيات التي لا يجوز عليها التغير ؛ كالعلم بأن كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصري قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً ؛ لا كلياً ولا جزئياً ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصية ذاته فقط من غير أن يعلمه ؛ كما أن المغناطيس يجذب الحديد لقوة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .
فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة .

واعلم أن حجة المتكلمين على كونه عالماً بكل شيء ؛ إنما تتضح بعد إثبات حدوث العالم ، وأنه فعله بالاختيار ؛ فينثذ لابد من كونه عالماً ؛ لأنه لو لم يكن عالماً بشيء أصلاً لما صح أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأن الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنما يكون بالعرض والداعي ، وذلك يقتضي كونه عالماً ، فإذا ثبت أنه عالم بشيء أفسدوا حينئذ أن يكون عالماً بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختاراً كان أو غير مختار ؛

(١) هو الإمام أبو العباس عبد الملك بن يوسف الجويني ، إمام الحرمين ، التوفى سنة ٤٧٨ هـ .
(ابن خلكان) .

(٢) كتاب المعتبر في الحكمة ، طبع في حيدر آباد ؛ لأبي البركات علي بن مسكان البغدادي ، توفى سنة ٥٦٠ هـ .
أخبار العلماء للقفطي ٣٤٣ .

فحينئذ ثبت^(١) لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لالشيء أزيد منها ؛ فإذا كان لهم ذلك وَجَبَ أن يكون علما بكل معلوم ؛ لأنّ الأمر الذى أوجب كونه علما بأمر ما ؛ هو ذاته يوجب كونه علما بغيره من الأمور ؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الكلّ نسبة واحدة .
فأما الجواب عن شبه المخالفين فذكر في المواضع المختصة بذلك ، فليطلب من كتبنا الكلامية .

الفصل الثانى

فى تفسير قوله عليه السلام : « ودأت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذى يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور : أحدهما الوجود والثانى الموجود .

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهى طريقة المدققين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيات الممكنات ، وأنّ وجود البارى لا يصحّ أن يكون زائدا على ماهيته ، فتكون ماهيته وجودا ؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تكون ماهيته هى الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوب ذلك الوجود ، واستحالّة تطرّق العدم إليه بوجه ما ، فلم يفتقروا فى إثبات البارى إلى تأمل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأما الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهى طريقة المتكلمين . قالوا : كلّ ما لم يُعَلَمْ بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعَلَمُ بآثاره الصادرة عنه ؛ والبارى تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعاله ، فاستدلّوا عليه بالعالم ، وقالوا تارة : العالم محدث وكلّ محدث له محدث . وقالوا تارة أخرى : العالم ممكن ، فله مؤثر .

وقال : ابن سينا : إن الطريقة الأولى وهي الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف ، لأنه لم يحتاج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آية من الكتاب العزيز في هذا المعنى ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إن هذا حكم لقوم - يعني المتمكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتتمام الآية : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حكم الصديقين الذين يستشهدون به لا عليه ؛ يعني الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله في إثبات ربوبيته .

الفصل الثالث

في أن هويته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنع عَلَى عَيْنِ البصير » ، وقوله : « ولا قلب من أثبتة يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلَعِ العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إن جمهور المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله ، ولم يتحاشوا من القول بأنه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها .

وذهب ضرار (٢) بن عمرو : أن الله تعالى ماهية لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار ابن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان في بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء الممتزلي ؛ ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكيَ عن أبي حنيفة وأصحابه أيضاً ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل .

الفصل الرابع

في نفي التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بعد وقرب » ، أى في حال واحدة ، وذلك يقتضى نفي كونه تعالى جسماً ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه بأعدّه ، ولا قرُبه ساوَاهم في المكان به » ، فنقول : إنّ مذهب جمهور المتكلمين نفي التشبيه ، وهذا القول يتنوّع أنواعاً :

النوع الأول : نفي كونه تعالى جسماً مركباً ، أو جوهرًا فرداً غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجرم والحجم . وهو قول المعتزلة وأكثر محقّقي المتكلمين من سائر الفرق ، وإليه ذهب الفلاسفة أيضاً .

وقال قوم من مستضعفي المتكلمين خلاف ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشترُ نفسه سبعة أشبار ، وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السبيكة . وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة البلّورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أنيتها رأيتها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضاً قال : إنه ذو صورة . وأصحابه من الشيعة يدفعون اليوم هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزد على قوله : إنه جسم لا كالأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نورا ، لقول الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ ^(١) .

وحكى عن محمد بن النعمان الأحول ، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف
بالجواليقي ، وأبي مالك بن الحضرمي ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ؛ وأنكروا مع ذلك
أن يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحكى عن علي بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربي ، ونعيم بن حماد المصري ، أنه في
صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين ؛
وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامة
ومن لا نظر له .

وحكى عن داود الجواربي أنه قال : أعفوني من الفرج واللحية وسلوني عما وراء
ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مُصَمَّةٌ .

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم الجواليقي كان يقول : إن له وفرة سوداء .
وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالموانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة .

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ^(٢) ،
فقال : يُقْعَدُ معه عَلَى سريره ويغلفه بيده .

وقال بعضهم : سألت مُعَاذاً العنبري ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عددت

(١) سورة النور ٣٥

(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرج ؛ فأومأت يدي إلى فرجى ، فقال : نعم ، فقلت : أذكر أم أنتى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إن ابن خزيمة أشكل عليه القول في أنه : أذكر أم أنتى ، فقال له بعض أصحابه : إن هذا مذكور في القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ ^(١) ، فقال : أفدت وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على معاذ بن معاذ يوم عيد ، وبين يديه لحم في طَبِيخٍ سِكَبَاج ، فسأله عن البارئ تعالى في جملة ما سأله ، فقال : هو والله مثل هذا الذى بين يدي ، لحم ودم .
وشهد بعض المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممت أن أسقطك ؛ لولا أنى سمعتك تلحن حماد بن سلمة ، فقال : أما حماد فلم ألعنه ، ولكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزل ليلة عرفة من السماء إلى الأرض على جبل أحر في هودج من ذهب ؛ فإن كان حماد يروى هذا أو يقول ، فعليه لعنة الله . فقال : أخرجوه فأخرج .

وقال بعضهم : خرجنا يوم عيد إلى المصلى ، فإذا جماعة بين يدي أمير ^(٢) ، والطبول تضرب والأعلام تخفق . فقال واحد من خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إِلَّا طَبْلُكَ ! فقيل له : لا تقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرايتم هويجى وحده ولا يضرب بين يديه طبل ، ولا ينصب على رأسه علم ، فإذا هو دون الأمير !
وروى بعضهم أنه تعالى أجرى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر في المرأة فرأى صورة نفسه ، فخلق آدم عليها .
وروا أنه يضحك حتى تبدو نواجذه .

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ما أثبتته عن ١ ، ج .

ورروا أنه أمرد جَعْدَ قَطَط^(١) ، في رجليه نعلان من ذهب ، وأنه في روضة خضراء على كرسي تحمله الملائكة .

ورروا أنه يضع رجلاً على رجل ، ويستلقى فإنها جلسة الرب .
ورروا أنه خلق الملائكة من زَغَبِ ذراعيه ، وأنه اشتكى عينه فصادته الملائكة ، وأنه يتصور بصورة آدم ، ويحاسب الناس في القيامة ؛ وله حُجَاب من الملائكة يحجبونه .

ورروا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « رأيت ربي في أحسن صورة ، فسألته عما يختلف فيه الملائكة الأعلى ، فوضع يده بين كتفي ، فوجدت برزخها ، فعلت ما اختلفوا فيه » .

ورروا أنه ينزل إلى السماء الدنيا في نصف شعبان . وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتي الناس يوم القيامة ، فيقول : أنا ربكم ، فقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أفتعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة فيكشف لهم عن ساقه ، وقد تحول في الصورة التي يعرفونها ، فيخرون له سجدا .
ورروا أنه يأتي في غمام ، فوقه هواء ، وتحت هواء .

وكان بطبرستان قاص من المشبهة ، يقص على الناس ، فقال يوما في قصصه : إن يوم القيامة تجيء فاطمة بنت محمد ، معها قميص الحسين ابنها تلمس القصاص من يزيد ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى من بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه ، فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفر بك فاطمة ، فدخل^(٢) ويختبئ ، وتحضر فاطمة ، فتظلم وتبكي ، فيقول سبحانه : انظري يا فاطمة إلى قدمي ، ويخرجه إليها ، وبه جرح من سهم نمرود ،

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فدخل يزيد » ، وما أثبتته عن أ ، ج

فيقول : هذا جرح نمرد في قدمي ؛ وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد ! فتقول :
هي : اشهد يارب أني قد عفوت عنه .

وذهب بعض متكلمي المجسمة إلى أن الباري تعالى مركب من أعضاء على
حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد ، في رجليه نعلان من ذهب ،
وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه ، عليه كساء أسود ، ملتحف به .
وسمعت أنا في عصرى هذا من قال في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ
حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ ^(١) : إنهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل
التهكم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

وروا أن النار تزفر وتغيط تغيطا شديدا ، فلا تسكن حتى يصع قدمه فيها ، فتقول :
قط قط ، أى حسبي حسبي . ويرفعون هذا الخبر مسندا . وقد ذكر شبيهه به في الصحاح .
وروى في الكتب الصحاح أيضا : « أن الله خلق آدم على صورته » . وقيل : إن في
التوراة نحو ذلك في السفر الأول .

واعلم أن أهل التوحيد يتأولون ما يحتمل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة
غير مستبعدة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء
في هذا المعنى موضع غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النظام ومحمد بن عيسى برغوث أن قوما قالوا : إنه تعالى الفضاء
نفسه ، وليس بجسم ؛ لأن الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

وقال بُرْغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذى غاية ولا نهاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ^(١) .

فأما مَنْ قال : إنه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنه بخلاف المرّض الذى يستحيل أن يُتوّم منه فعل ، ونفوا عنه معنى الجِسْمِيَّة ، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء ، وذات لا كالدوات ؛ فأمّهم سهل ؛ لأنّ خلافهم فى العبارة ، وهم : على ابن منصور ، والسكاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قُدّماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابنُ كَرَام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم ، أنه قائم بذاته لا بغيره .

والمتعصبون لهشام بن الحكم من الشيعة فى وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتجسيم المعنوى ؛ وإنما قال : إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذى ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما ، وإن كان الحسن بن موسى الثوبَخْتِيّ - هو من فضلاء الشيعة - وقد روى عنه التجسيم المَحْض فى كتاب " الآراء والديانات " .

النوع الثانى : نفى الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وسائر المحقّقين من المتكلمين نفى ذلك عنه ، وقد تأولوا ما ورد فى القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ إِمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ^(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة فى اللغة العربية .

وأطلقت الكَرَامِيَّة عليه سبحانه لفظ اليدين والوجه ، وقالوا : لا تتجاوز الإطلاق ،

(١) سورة الحج ٧٨

(٢) سورة م ٧٥ :

(٣) سورة الزمر ٤٦

ولا نفس ذلك ولا تتأوله ؛ وإنما تقتصر على إطلاق ما ورد به النص .
وأثبت الأشعرىّ الدين صفة قائمة بالبارى سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم .
وقالت المجسّمة : إنّ الله تعالى يدين ؛ هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين ، وأثبتوا
له رجلين قد فضّلنا عن عرشه ، وساقين يكشف عنهما يوم القيامة ، وقدّمّا يضعهما في جهنم
فتمتلي ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .
فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك
التأويل فقط ، ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنة ، ولا يخوض في تأويله ؛ ويقف على
قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) ، وأكثر المحصلين من أصحابه على
هذا القول .

النوع الثالث : نفى الجهة عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحققين
من المتكلمين أنه سبحانه ليس في جهةٍ ولا مكان ؛ وأنّ ذلك من توابع الجسمية أو العرضية
اللاحقة بالجسمية ، فإذا انتفى عنه كونه جسماً وكونه عرضاً لم يكن في جهة أصلاً ؛ وإلى هذا
القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكرامية والحشوية ^(٢) إلى أن الله تعالى في جهة فوق ، وإليه ذهب هشام
ابن الحكم ، وعلى بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجواليقي ،
وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصم ، متكلم الكرامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة
بنفسها عن سائر الموجودات ، لا تحلّ شيئاً حلول الأراض ، ولا تمازج شيئاً بمازجة الأجسام

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لا يتعاشون من
مظاهر الحشو . راجع شفاء الليل ١٠٥

بل هو مبينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنه في جهة فوق ، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى .
هكذا يحكى المتكلمون عنه ، ولم أره فى شىء من تصانيفه . وأحالوا ذلك ؛ لأنّ ما لا يتناهى
لا يكون محصوراً بين حاصرين ؛ وأنا أستبعد عنه هذه الحكاية ؛ لأنه كان أذكى من
أن يذهب عليه فساد هذا القول . وحقيقةُ مذهبِ مثبتى المكان أنه سبحانه متمكن على
العرش ، كما يتمكن الملك على سريره ، فقليل لبعض هؤلاء : أهو أكبر من العرش ،
أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أكبر من العرش ، فقليل له : فكيف يحمله ؟ فقال :
كما تحمِلُ رجلاً الكرّكى جسمَ الكرّكى وجسمه أكبر من رجليه . ومنهم من يحمله
مساوياً للعرش فى المقدار ، ولا يتمتع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضلُ
عن العرش ؛ وقد سمعت أنا من قال منهم : إنه مستوٍ على عرشه ، كما أنا مستوٍ على
هذه الدّكة ^(١) ورجلاه على الكرسيّ الذى وسع السموات والأرض ، والكرسى تحت
العرش ، كما يحمل اليوم الناس تحت أسرّتهم كراسى يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلّهم : إنه تعالى ينزل ويصعد حقيقة لا مجازاً ، وإنه يتحرك وينزل ؛ فن
ذلك نزوله إلى السماء الدنيا . كما ورد فى الخبر ؛ ومن ذلك إتيانه وحيثه ، كما نطق به
الكتاب العزيز فى قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ
الْعَمَامِ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(٣) .

وأطلق ابن الهيём عليه هذه الألفاظ اتباعاً لما ورد فى الكتاب والسنة ، وقال : لا أقول
بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالاً كما وردت . وأما غيره فاعتقد
معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيём فى كتاب ” المقالات ” : إن أكثر الحشوية يُجيز عليه تعالى
العدوّ والهرولة .

(١) الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه .

(١) سورة البقرة ٢١٠

(٢) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور في السُّكَّك .

وقال بعض الأشعرين : إن سائلاً سأل السكَّاك فقال : إذا أجزتَ عليه الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر ! فقال لا يجوز عليه الطفر ، لأن الطفر إنما يكون فراراً من ضدّه ، أو اتصالاً بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .
فأما القول بأنه تعالى في كلِّ مكان ؛ فإنّ المعتزلة يقولون ذلك ، وتريد^(١) به أنه وإن لم يكن في مكان أصلاً ، فإنه عالم بما في كلِّ مكان ، ومدبر لما في كلِّ مكان ، وكأنه موجود في جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة : إنّ الباري تعالى روح شديد في غاية اللطافة ، وفي غاية القوة ، ينفذُ في كلِّ العالم . وهؤلاء يطلقون عليه أنه في كلِّ مكان حقيقة لا تأويلاً ؛ ومن هؤلاء من أوضح هذا القول ؛ وقال : إنه تعالى سائر في هذا العالم سريان نفس الواحد منا في بدنه ، فكما أنّ كلِّ بدن مناه نفس سارية فيه تدبره ، كذلك الباري سبحانه هو نفس العالم ، وسائر في كلِّ جزء من العالم ؛ فهو إذاً في كلِّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ النفس في كلِّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختي عن أهل الرِّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهيَّ سبحانه رُوح ناريّ عقليّ ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأيّ صورة شاء ، ويتشبه بالكلِّ ، وينفذ في الكلِّ بذاته وقوته ؛ لا بعلمه وتديبره .

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالاً في الحُلّ ؛ فالذي تذهب إليه المعتزلة وأكثَر المسلمين والفلاسفة نفى ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكون كلِّ حال في الأجسام ممكناً بل حادثاً .

(١) ب : « فإنّ المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. » .

وذهبت الحلولية من أهل الملة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ في بعض الأجسام دون بعض؛ كما يشاء سبحانه، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغلاة في أمير المؤمنين. ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه؛ واتبعهم على هذه المقالة قوم من المتصوفة كالحلاجية والبسطامية وغيرهم.

وذهبت النسطورية^(١) من النصارى إلى حلول الكلمة في بدن عيسى عليه السلام؛ كحلول السّود في الجسم.

فأما اليعقوبية^(٢) من النصارى، فلا تثبت الحلول؛ وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهي والجوهر الجسماني؛ وهو أشدُّ بُعداً من الحلول.

النوع الخامس: في نفي كونه تعالى محلاً لشيء؛ ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملة والفلاسفة إلى نفي ذلك؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه.

وذهبت الكرامية إلى أن الحوادث تحلّ في ذاته، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً في ذاته؛ وهو الإحداث، فحدث ذلك الجسم مقارناً لذلك المعنى أو عقيقه، قالوا: وذلك المعنى هو قول «كن» وهو المسمى خلقاً، والخلق غير المخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣)، قالوا: لكنّه قد أشهدنا ذاتها، فدلّ على أن خلقها غيرها.

(١) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم؛ ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل برأيه. وانظر الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً؛ فصار الإله هو المسيح. . . . الشهرستاني ١: ٢٠٦ - ٢٠٨.

(٣) سورة الكهف ٥١.

وشرح ابن الهيثم في كتاب " المقالات " بقيام الحوادث بذات البارى فقال : إنه تعالى إذا أمرَ أونهى ، أو أراد شيئاً كان أمرُه ونهيُه وإراداته كائنة بعد أن لم تكن ؛ وهى قائمة به ، لأنّ قوله منه بسمع ، وكذلك إرادته منه توجد .

قال : وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلاً على حدوثه ، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التى لا يصحّ أن يتعطلّ منها ، والبارى تعالى لا تتعاقب عليه الأضداد .

وذهب أبو البركات البغدادى صاحب "المعتبر" إلى أن الحوادث تقوم بذات البارى سبحانه ؛ وأنه لا يصحّ إثبات الإلهية إلا بذلك . وقال : إن المتكلمين ينزهونه عن ذلك ، والتنزيه عن هذا التنزيه ، هو الواجب .

وذهب أصحابنا وأكثَر المتكلمين إلى أنّ ذلك لا يصحّ فى حق واجب الوجود ، وأنّه دليل على إمكان ذاته ؛ بل على حدوثها . وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات — يعنون الأحوال لا المعانى — ؛ نحو كونه مدرّكاً بعد أن لم يكن . وكقول أبى الحسين : إنه يتجدّد له عالمية بما وجد ؛ وكان من قبل علماً بأنّه سيوجد ؛ وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى .

وقالوا : إن الصفات والأحوال قيل^(١) مفرد عن المعانى ، والحال إنما هو حلول المعانى فى ذاته لا تجدد الصفات لذاته ؛ وللّ كلام فى هذا الباب موضع هو أليق به .

النوع السادس : فى نفى اتحاده تعالى بغيره ؛ ذهب أكثر العقلاء إلى استحالة ذلك ؛ وذهبت العقويّة من النصارى إل أن الكلمة اتحدت بعيسى ، فصارت جوهراً من جوهرين : أحدهما إلهى ، والآخر جسمانى . وقد أجاز الاتحاد فى نفس الأمر لافى ذات

(١) قيل ، أى قول .

البارى قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرغوريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أن النفس إنما تعقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجواهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان ؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

النوع السابع : فى نفى الأعراض الجسمانية عنه من التعب والاستراحة ، والألم واللذة ، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلةُ وأكثر العقلاء من أهل الملة وغيرهم إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته عليه سبحانه .

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللذة عليه ؛ وقالوا : إنه يلتذ بإدراك ذاته وكأله ؛ لأن إدراك الكمال هو اللذة أو سبب اللذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكمل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي^(١) من الأشعرية .

وحكى ابن الراوندى عن الجاحظ أن أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبى شعيب - كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والتغيّر والأسف ؛ ويذكر فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لأحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها » . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾^(٢) ، وقال مقال المتحسر^(٣) على الشيء : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾^(٤) ، وحكى عنه أيضاً أنه يجوّز عليه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتج بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُتُوبٍ ﴾^(٥) .

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي صاحب الإحياء .

(٢) سورة الزخرف ٥٥

(٣) كذا فى ١ ، ج ، وف ب ١ « حكاية عن التحسر » .

(٤) سورة يس ٣٠

(٥) سورة ق ٣٨

وهذه الألفاظ كلها عند أصحابنا متأولة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الكتب المبسطة .

النوع الثامن : في أنه تعالى ليس بمتلون . لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلون ؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنه نور ؛ فإذا أبصرته العيون ، وأدركته أبصرت شخصا نورانيا مضيئا ؛ لم يزدوا على ذلك ، ولم يصرحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ وإن كان كل مضيء ملونا .

النوع التاسع : في أنه تعالى لا يشتهي ولا ينفر . ذهب شيوخنا المتكلمون إلى أنه سبحانه لا يصح عليه الشهوة والنفرة ؛ لأنهما إنما يصحان على ما يقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنمو ، والبارى سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك ؛ وما عرفت لأحد من الناس خلافا في ذلك ؛ اللهم إلا أن يطلق هاتان اللفظتان على مسمى الإرادة والكرامية ؛ على سبيل المجاز .

النوع العاشر : في أن البارى تعالى غير متناهى الذات . قالت المعتزلة : لما كان البارى تعالى ليس بجسم ولا جسماني ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادير ؛ يقال : هذا الجسم متناه ، أى ذو طَرَفٍ .

قلنا : إن ذات البارى تعالى غير متناهية ؛ لاعلى معنى أن امتداد ذاته غير متناه ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتداد ، بل بمعنى أن الموضوع الذى يصدق عليه النهاية ليس بمتحقق فى حقه سبحانه ؛ قلنا : إن ذاته غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إن النقطة غير متناهية ؛ لاعلى معنى أن لها امتدادا غير متناه ، فإنها ليست بمتددة أصلا ؛ بل على معنى أن الأمر

الذي تصدّق عليه النهاية - وهو الامتداد - لا يصدق عليها ؛ فإذا صدق عليها أنها غير متناهية . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثَر المحققين .

وقالت الكَرّامية : الباري تعالى ذاتٌ واحدةٌ منفردة عن العالم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية في ذاتها ؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهاام انقطاع وجودها ، ونصرّم بقائها .

وأطلق هشام بن الحكم وأصحابه عليه تعالى القولَ بأنه متناهي الذات ؛ غير متناهي القدرة .

وقال الجاحظ : إن قومًا زعموا أنه تعالى ذاهبٌ في الجهات الست ، التي لانهاية لها .

النوع الحادى عشر : فى أنه تعالى لا تصحّ رؤيته . قالت المعتزلة : رؤية الباري تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما يصحّ أن يُرى المقابل ذو الجهة .

وقالت الكَرّامية والحنابلة والأشعرية : تصحّ رؤيته ويُرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الكَرّامية والحنابلة : يُرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبىّ^(١) أنهم أجازوا رؤيته فى الدنيا ، وملاسته ومصاحته ؛ وزعموا أن الخالصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمّون الحبيّة .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " ، عن أيوب السجستانيّ من المرجئة ، أن الباري تعالى تصحّ رؤيته ولمسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلّهم كافّرم ومؤمنهم يرونه ؛ ولكن لا يعرفونه .

(١) كذا فى ١ ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبىّ ، ويقال : الجبابىّ ، ليعيه الجباب ، عدت ، وفى ب : « انجمى » .

وقال مَنْ ترفع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج . ورووا عن كعب الأحبار أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليه السلام .

وروا عن المبارك بن فضالة أن الحسن كان يحلف بالله : قد رأى محمداً ربه . وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ^(١) ، وقالوا : كلمه موسى عليه السلام مرتين ، وراه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوال الكرامية ذلك ، وقال : إن محمداً صلى الله عليه وآله لم يره ، ولكنه سوف يراه في الآخرة .

قال : وإلى هذا القول ذهب عائشة وأبو ذر وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يرى في الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إن الكفار لا يرونه ؛ لأن رؤيته كرامة ، والكافر لا كرامة له . وقالت السلفية وبعض الحشوية : إن الكفار يرونه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم .

فأما الأشعرية وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه يرى كما يرى الواحد منا ، بل قالوا : يرى ؛ وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا وراء ؛ ولا يرى كله ولا بعضه ؛ ولا هو في مقابلة الراي ، ولا منحرفاً عنه ؛ ولا تصح الإشارة إليه إذا رُئي ،

وهو^(١) مع ذلك يرى ويبصر. وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ، وأن تشم وتذاق وتحس ، لاعلى طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلها بذاته تعلقاً عارياً عن الاتصال .

وأنكرت الكرامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحده ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في ” التصفّح “ ، وألزمهم أحد أمرين ؛ إما نفي الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى يرى يوم القيامة بحاسة سادسة لابهذا البصر . وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل الله تعالى قوّة القلب إلى العين ، فيعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنه قد وقع بالمعنى الحالّ في العين .

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها ؛ وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ما هو أشدّ تصريحاً من الألفاظ التي نحن في شرحها .

الفصل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذي تشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذى الحجود » .

لاشبهة في أن العلم بافتقار المتغيّر إلى المتغيّر ضروري ؛ والعلم بأن المتغيّر ليس هو المتغيّر

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضروري ، فإذا قد شهدت أعلام الوجود على أن الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لا يحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كانوا بالسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه .

وأما القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ، وأنّ الطبيعة هي المدبرة له ، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لانهاية له ؛ حتى حصل منها هذا العالم . والقائلون بأنّ أصل العالم وأساس بنيته هو النور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هي الأعداد المجردة ، والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التي منها حدث العالم ، والقائلون بعشق النفس للهَيُولَى ؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام ؛ فكل هؤلاء أثبتوا الصانع ، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضى القضاة : إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلية ؛ ولكن قوما من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهى أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ وإنما هو هكذا مازال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراوندى هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب ” التاج “ قال : فأما الفلاسفة القدماء والمتأخرون ، فلم ينفوا الصانع ؛ وإنما نفوا كونه فاعلا بالاختيار ؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفي الصانع قريب من القول بالسفسطة ؛ بل هو هو بعينه ؛ لأن من شك في المحسوس أعذر ممن قال : لن المتحركات تتحرك من غير محرك حرّ كها .

وقول قاضى القضاة هذا ، هو محض كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينه ؛ وليس قول الجاحظ هو هذا ؛ لأنّ الجاحظ يذهب إلى أن جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية ؛ ونحن ما ادّعينا في هذا المقام إلا أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضروري ؛ فإين أحد القولين من الآخر !

ومن فطنة له عليه السلام :

الأصل :

إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ
وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالُ رِجَالًا ؛ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْخَلْقِ
لَمْ يَخَفْ عَلَى الْمُتَرَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ ؛ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ
الْمُعَانِدِينَ ؛ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمَزَّجَانِ ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوِلِي
الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى .

الشَّرْحُ :

المرتاد : الطالب . والضَّغْثُ مِنَ الْحَشِيشِ : القبضة منه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَخُذْ
بِيْذِكَ ضِغْثًا ﴾ ^(١) .

يقول عليه السلام : إِنَّ الْمَذَاهِبَ الْبَاطِلَةَ وَالْآرَاءَ الْفَاسِدَةَ الَّتِي يَفْتِنُ النَّاسَ بِهَا ، أَصْلُهَا
اتِّبَاعُ الْأَهْوَاءِ ، وَابْتِدَاعُ ^(٢) الْأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ يَخَالَفُ فِيهَا الْكِتَابَ ، وَتَحْمِلُ الْعَصْبِيَّةَ وَالْهَوَى
عَلَى تَوَلَّى أَقْوَامَ قَالُوا بِهَا ، عَلَى غَيْرِ وَثِيقَةٍ مِنَ الدِّينِ . وَمُسْتَنْدُ وَقُوعِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ امْتِزَاجُ
الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ فِي النَّظَرِ الَّذِي هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ ؛ فَلَوْ أَنَّ النَّظَرَ تَخَلَّصَ
مَقْدَمَاتِهِ وَتَرْتِيبُ قَضَايَاهُ مِنْ قَضَايَا بَاطِلَةٍ ، لَكَانَ الْوَاقِعُ عَنْهُ هُوَ الْعِلْمُ الْحَقُّ ، وَانْقَطَعَ عَنْهُ
أَلْسُنُ الْخَالِفِينَ ؛ وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ النَّظَرُ تَخَلَّصَ مَقْدَمَاتِهِ مِنْ قَضَايَا صَحِيحَةٍ ، بَلْ كَانَ كُلُّهُ مَبْنِيَا

(٢) سورة م ٤٤

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فسادُه لطلبة الحق ؛ وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ البارئ تعالى ذاتٌ موجودة ، وكلّ موجود يصحّ أن يُرى ؛ فأحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال ما يكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : البارئ لا موجود ولا معدوم ؛ وكلّ ما لا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يكون حيا قادرا ، فالبارئ تعالى يصحّ أن يكون حيا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لا جرّم أن هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ما تكون مقدّماته حقا كلّها : العالم متغيّر ، وكلّ متغيّر ممكن ؛ فالعالم ممكن ؛ فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء .

فإن قيل : فما معنى قوله عليه السلام : « فهناك يستولى الشيطان على أوليائه » ، وينجّو الذين سبقتم لهم من الله الحسنی » ، أليس هذا إشعاراً بقول المجبرة وتلوّيحاً به !

قيل : لا إشعار في ذلك بالجبر ، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج في النظر الحقّ بالباطل ، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة ، تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء ، ووسوس إلى المكلف ، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزينها عنده ؛ بخلاف ما إذا كانت المقدمات حقا كلّها ؛ فإنه لا يقدر الشيطان على أن يخيّل له ما يخالف العقل الصريح ولا يكون له مجال في تزوين الباطل عنده ؛ ألا ترى أن الأوليات لا سبيل للإنسان إلى جحدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ، أى إلى مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرن على اتباع الهوى ، وزهد فى تحقيق الأمور العقلية على وجهها ، تقليداً للأسلاف ، ومحبةً لاتباع المذهب المألوف ؛ فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضله ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؛ وهم الذين يتبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق^(١) ؛ يجتهدون فى البحث عن مقدمات أنظارهم ؛ وليس فى هذا الكلام تصريح بالتجبر ؛ ولا إشعار به على وجه من الوجوه ؛ وهذا واضح .

وحل الراوندى قوله عليه السلام : « فلو أن الباطل خَلَص ... » إلى آخره ، على أن المراد به نفى القياس فى الشرع ، قال : لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويظنّ لامتزاج بعضه ببعض حقاً ، وهذا غير مستقيم ؛ لأن لفظ الخطبة أن الحق يمتزج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسمون أن استخراج العلة من الحكم المعلوم باطل ؛ بل يقولون إنه حق ؛ وإن الدليل الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد آمنهم من كونه باطلاً .

واعلم أنّ هذا الكلام الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير ؛ فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة ، من أهل الملة الإسلامية وغيرها ؛ إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ؛ ومن يحسنُ الظن فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ؛ وإنما قلّدهم الأتباع ؛ لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم ، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها ، وإقبالهم على العبادة ، وتمسكهم بالدين ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوّتهم فى

مذاهبهم، وصلابتهم في عقائدهم ؛ فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التي جاءت بعدهم أن هؤلاء يجب اتباعهم ، وتحرم مخالفتهم ، وأن الحق معهم ، وأن مخالفتهم مبتدع ضال ، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم ، ووقع الضلال والغلط بذلك ؛ لأن الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحق الغالب الظاهر المشاهد عيانا ، أو الحكم الظاهر : ولولاه لما تروج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .



ومن كلام له عليه السلام لا غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام
على سريّة الفرات بصفين وضغفهم من الماء :

الأفضل :

قَدْ اسْتَطَعْمَوْكُمْ الْقِتَالَ ، فَأَقْرُوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْ رَوْوا السُّيُوفَ
مِنَ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنْ أَلْمَاءٍ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ
قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادِلُمَةً مِنَ الْغَوَاةِ ، وَعَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ
أَغْرَاضَ الْمَنِيَةِ .

الْبَنْجُ :

استطعمكم القتال ، كلمة مجازية ، ومعناها طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئاً
يُسْتَطْعَمُ ، أى يُطْلَبُ أكله ، وفي الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعنى
إمام الصلاة ، أى إذا أرتجح فاستفتحكم ، فافتحوا عليه .

وتقول : فلان يستطعمنى الحديث ؛ أى يستدعيه منى ويطلبه .

واللمّة ، بالتخفيف : جماعة قليلة .

وعمس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطى الكثرة
ويفيدها ؛ ومعناه : أبهم عليهم الخبر ، وجعله مظلماً . ليلٌ عماس ، أى مظلم ، وقد عمس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمته غيره ، وعمت عليه عسا ، إذا أريته أنك لا تعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غرض وهو الهدف .

وقوله : « فأقروا على مذلة وتأخير محلة » ، أى اثبتوا على القل وتأخر المرتبة والمنزلة ، أو قاضوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « قالموت في حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نباتة :
والحسين الذى رأى الموت في العز حياء والعيش في القل قتلًا
وقال التهامي :

وَمَنْ قَاتَهُ نَيْلُ الْعَلَا بِمُؤْمِهِ وَأَقْلَامِهِ فَلْيَنْفِهَا بِحُسَامِهِ (١)
فَوْتُ الْفَتَى فِي الْعَزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعِيشَتُهُ فِي الْقَلِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ

[الأشعار الواردة في الإباء والأنف من احتمال الضيم]

والأشعار في الإباء والأنف من احتمال الضيم والقلة والتعريض على الحرب كثيرة ؛
ونحن نذكر منها هاهنا طرقات ؛ فمن ذلك قول عمرو بن برة أمة الهمداني :

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ مَالِهِ حُسَامٌ كُلُّونَ الْمَلْحِ أَيْضُ صَارُمٍ (٢)
كَذَبْتُمْ وَيَتِ اللَّهُ لَا تَأْخُذُونَهَا مِرَاغِمَةً مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمٌ
وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُنْعَ بِالْقَنَا يَعْشُ مَا جَدًّا أَوْ تَحْتَرِمُهُ الْخَوَارِمُ (٣)

(١) ديوانه ٣٣

(٢) من أبيات له في الأغاني ٢١ : ١١٣ - ١١٤

(٣) الأغاني : « الخوارم » .

ومثله :

ومن يطلب المال المنع بالقدنا
وقال حرب بن مسعر :

عطف عليه المهر عطفه بأسل
فأوجرت له لذن الكعوب متفقاً
وقال الحارث بن الأرقم :

وما ضاق صدري بأسلمي بسخطكم
تروك لدار الخسف والضيم منكرو
إذا سامني السلطان ذلاً أيتته
وقال العباس بن مرداس السلمي :

يأبى فوارس لا يعزى صواهلها
لا والسيوف بأيدينا مجردة
وقال وهب بن الحارث :

لا تحبسنى كأقوام عبت بهم
لا تعلقنى قذاة لست فاعلها
فقد علمت بأنى غير مهتضم
وقال المسيب بن علس :

أبلغ ضبيعة أن البلا
د فيها لذي قوة مضضب^(١)

(١) ديوان الأعشى ٣٤٩ ، مع اختلاف في الرواية .

وقد يقعدُ القومُ في دراهمُ إذا لم يُضامُوا وإن أُجْدَبُوا
وَيَرْتَحِلُ القومُ عِنْدَ الهوا ن عَنْ دَارِهِمْ بَعْدَمَا أَخْصَبُوا
وَقَدْ كَانَ سَامَةً فِي قَوْمِهِ لَهُ مَطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسَامُوهُ خَسَفًا فَلَمْ يَرْضَهُ وَفِي الْأَرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ
وقال آخر :

إنَّ الهوانَ حِمَارُ القومِ يَعْرِفُهُ والحرُّ يَنْكِرُهُ وَالرَّسْلَةُ الْأَجْدُ^(١)
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْزُ الْحَيِّ وَالْوَيْدُ^(٢)
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَشْدُودٌ بِرُمْتِهِ وَذَا يُشْجُ فَلَا يَأْوِي لَهُ أَحَدُ^(٣)
فَإِنْ رَحْنِي لَهُ وَالِ وَمُعْتَمِدُ فَإِنْ رَحْنِي لَهُ وَالِ وَمُعْتَمِدُ
وفي البلاد إذا ما خفتُ بَادِرَةً مكروهَةً عَنْ وِلَاةِ السَّوْءِ مُنْتَقِدُ
وقال بعض بني أسد :

إني امرؤ من بني خزيمة لا أطمُ خَسَفًا لِنَاعِبِ نَعْبَا
لستُ بمعطٍ ظَلَامَةً أَبَدَا عَجْمًا وَلَا أَتَقِي بِهَا عَرَبَا

دخل مويك السدوسي إلى البصرة يتبع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى
البادية ، وقال :

ناقُ إِنِّي أَرَى الْمُقَامَ عَلَى الضَّيْمِ عَظِيمًا فِي قُبَّةِ الْإِسْلَامِ
قَدْ أَرَانِي وَلِيٍّ مِنَ الْعَامِلِ النَّصِّ فُبْحَدِ السَّنَانِ أَوْ بِالْحُسَامِ

(١) للمتلس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسالة : الناقة السهلة السير . والأجد :
الموثقة الخلق

(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشي ؛ والمراد به هنا الأهل .

(٣) الرمة : القطعة من الجبل ، وأوى له ، أى رقى .

وقال يزيد بن المقرغ الحميري :

لاذعرتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصَّبِّ ح مُفِيداً وَلَا دُعِيْتُ يَزِيداً (١)
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ المَخَافَةِ ضِيقاً والمنايا يَرُصِدَنِي أَنْ أَحِيداً (٢)

وقال آخر :

لا تحسبيني يا أما
إني إذا خفتُ المَوا مة عاجزاً دَنِساً ثِيَابُهُ
نَ مُشِيعٌ ذُلُّ رِكَابُهُ (٣)

مثله قول عنترة :

ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شئتُ مُشَايِي لِّي وَأُخْفِزُهُ بِرَأْيِ مُبْرَمٍ (٤)

وقال آخر :

أَخْشِيَةَ المَوْتِ دَرٌّ دَرُّكُمْ أُعْطِيتُمُ القَوْمَ فَوْقَ مَا سَأَلُوا !
إِنَّا لَعَمْرُؤُ الْإِلَهِ تَأَبَّى الذِي قَالُوا وَلَمَّا تُقْصِفِ الْأَسْلُ
تَقْبَلُ ضِيقاً وَتَمَحْنُ نَعْرِفُهُ مَادَامَ مِنَّا بِظَهْرِهَا رَجُلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً فِيهِ لَا كَبِتَ أَعْدَاءُ أَحَاشِيهَا
آبَى وَأَنْفُ مِنْ أَشْيَاءٍ آخُذُهَا رَثَ القَوَى ، وَضَعِيفُ القَوْمِ يُعْطِيهَا

مثله للشدّاخ :

أَبِينَا فَلَا نُعْطَى مُلِكَاً ظَلَامَةً وَلَا سُوقَةً إِلَّا الوَشِيعُ المَقُومَا (٥)

(١) السوام : الإبل الراحية .

(٢) يرصدني ، يراقبني .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) من اللقطة ٢٠٥ — بشرح التبريزي . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصعب ؛ والمشايع

الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأخفزه : أذفمه . والمبرم : المحكم .

(٥) يعني بالوشيع الريح .

وإلا حُسَامًا يَبْهَرُ الْعَيْنَ لَمَحُهُ كَصَاعِقَةٍ فِي عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

[أُبَاة الضَّيِّمِ وَأَخْبَارِهِمْ]

سَيِّدُ أَهْلِ الْإِبَاءِ ، الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ الْحَيَّةَ وَالْمَوْتَ تَحْتَ ظِلَالِ السِّبْوَفِ ، اخْتِيَارًا لَهُ عَلَى الدِّينِيَّةِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ؛ عُرِضَ عَلَيْهِ الْأَمَانُ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَنْفَ مِنَ الدَّلِّ ، وَخَافَ مِنْ ابْنِ زِيَادٍ أَنْ يَنَالَهُ بَنُو عِمْرِانَ مِنَ الْهَوَانِ ؛ إِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ ^(١) ، فَاخْتَارَ الْمَوْتَ عَلَى ذَلِكَ .

وَسَمِعْتُ النُّعَيْبَ أَبَا زَيْدٍ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ الْعُلَوِيَّ الْبَصْرِيَّ ، يَقُولُ : كُنَّ آيَاتُ أَبِي تَمَامًا فِي مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ الطَّائِيِّ مَا قِيلَتْ إِلَّا فِي الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ إِلَيْهِ الْخَفَاطُ الْمُرُّ وَالْخَلْقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسُهُ تَعَاثُ الضَّيِّمَ حَتَّى كَانَتْ هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّزْعِ أَوْ دُونَهُ الْكَفَرُ
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا : مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ مُخْرَأً فَأَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُنْدُسٍ خَضَرُ
لَمَّا فَرَّ أَصْحَابُ مُصْعَبٍ عَنْهُ ، وَتَخَلَّفَ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ ، وَأَنْشَدَ :

فَإِنَّ الْأَوَّلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَتَسَّوْا لِلْكَرَامِ النَّاسِيَا ^(٢)
فَعَلِمَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَقْتَلَ .

وَمِنْ كَلَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الطَّفِّ الْمُنْقُولِ عَنْهُ ، نَقَلَهُ عَنْهُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَى ابْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَلَا وَإِنَّ الدَّعَى ابْنَ الدَّعَى ، قَدْ خَيْرَنَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ : السَّلَّةُ ^(٣) »

(١) كَذَا فِي ج ، وَفِي أ ، ب : « مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ » .

(٢) لِسُلَيْمَانَ بْنِ قَتَّةٍ . اللَّسَانُ ٨ : ٣٧ ؛ وَالطَّفُّ : مِنْ ضَاغِيَةِ الْكُوفَةِ ؛ كَانَ فِيهَا مَقْتُلُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٣) السَّلَّةُ : انْتِزَاعُكَ الشَّيْءَ وَإِخْرَاجُكَ لَهَا فِي رَفْقٍ ؛ وَعِنْدَ السَّلَّةِ : أَيْ عِنْدَ اسْتِلَالِ السِّبْوَفِ .

أَوِ الذَّلَّةَ ، وَهِيَّاتِ مِنَّا الذَّلَّةَ ! يَا بِي اللَّهِ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَحُجُورٌ طَابَتْ ، وَحُجُرٌ طَهَّرَتْ ^(١) ، وَأَنْوَفٌ حَمِيَّةٌ ، وَنَفُوسٌ أَيْبَةٌ .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إِنْ أَمْرًا أَمَكْنَ عَدُوًّا مِنْ نَفْسِهِ ، يَمُرُّ لِحْمَهُ ، وَيَفْرِى جِلْدَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، لِعَظِيمِ عَجْزِهِ ، ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ . فَكُنْ أَنْتَ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَدُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِقِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ » .

وقال العباس بن مرداس السلمي :

مَقَالٌ أَمْرِي يُهْدِي إِلَيْكَ نَصِيحَةً إِذَا مَعَشَرٌ جَادُوا بِعَرَضِكَ فَانْخَلِ ^(٢)
وإِنْ بَوَّهْكَ مِنْزَلًا غَيْرَ طَائِلٍ ^(٣) غَلِيظًا فَلَا تُنْزِلْ بِهِ وَتَحْوِلْ
وَلَا تَطْمَنَنَّ مَا يَعْلِفُونَكَ إِنَّهُمْ أَتَوْكَ عَلَى قُرْبَاهُمْ بِالْمَثَلِ ^(٤)
أَرَاكَ إِذَا قَدْ صَرْتَ لِلْقَوْمِ نَاضِحًا يَقَالُ لَهُ بِالْقَرَبِ أَذْبِرْ وَأَقْبِلْ ^(٥)
فَخُذْهَا فَلَيْسَتْ لِلْعَزِيزِ بِخُطَّةٍ وَفِيهَا مَقَامٌ لِأَمْرِي مُتَذَلِّلٍ

(١) الحجز : جمع حجرة ، حيث يثنى طرف الإزار ، كناية عن العفة

(٢) من أبيات في الحماسة ٢ : ١١ - بشرح التبريزي ، مطلقها :

أَلَا ابْلِغْ أَبَا سَلَمَى رَسُولًا يَرْوَعُهُ وَلَوْ حَلَّ ذَا سِدْرٍ وَأَهْلِي بَعْسَجَلٍ

(٣) الحماسة : « مركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزي : المثل : هو السم الذي قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ . . . أى سقوك السم وإن كانوا أقرباءك فلا تقتر بهم وكن ذا أنفة » . وبمده في رواية التبريزي :

أَبْدِ الْإِزَارَ مُجَسَّدًا لَكَ شَاهِدًا أَتَيْتَ بِهِ فِي الدَّارِ لَمْ يَتَزِيلْ

(٥) الناضح : البعير الذي يستقي عاياه الماء ، قال التبريزي : « يقول : أبعد الإزار خضوبا بالهم أتيت به في الدار شاهدا تصالحهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم اتقيادا لهم » .

وله أيضا :

لحارب فإن مولاك حارّد نصره^(١) ففي السيف مولى نصره لا يجارّد^(٢)

وقال مالك بن حريم الهمداني :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْني غَزَوْتُهُمْ^(٣) فَهَلْ أُنَا فِي ذَا يَالِ هَمْدَانَ ظَالِمٌ !^(٤)

مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذِّكْيَ وَصَارِمًا^(٥) وَأُنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِّبُكَ الْمَظَالِمُ^(٦)

وقال رشيد بن رُمَيْض النّزّري :^(٧)

بَاتُوا نِيَامًا وَابْنُ هَنْدٍ لَمْ يَنْمَ^(٨) بَاتَ يُقَاسِمُهَا غُلَامٌ كَالزَّلَمِ^(٩)

خَدَلَجُ السَّاقِينَ خَفَّاقَ الْقَدَمِ^(١٠) قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمِ^(١١)

لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ^(١٢) وَلَا بِجَزَائِرٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمِ^(١٣)

* مَنْ يَلْقَى يُوَدِّ كَمَا أُوْدَتْ إِرَمُ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ^(١٤) وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَلَمًا^(١٥)

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي^(١٦) عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَخْزَمًا^(١٧)

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ - بشرح النبريزي : وحارّد نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحاددة فى الأصل قلة

اللبن ، واستعير هنا

(٢) من قصيدة له فى الأغاني ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ وحريم ، ضبطه البكرى فى اللآلى ٧٤٨ « بالهاء والراء المهملتين ، الهاء مفتوحة ، وازراء مكسورة » ، وقال : « ومن روى حريم ، بالزى فقد صحف » .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ - بشرح النبريزي ؛ من وصف غارة .

(٤) الزلم : القدح ؛ يقاسمها ، أى يعانى القارة كيف يوقعها ويدبرها .

(٥) خدلج الساقين : ممتشهما . خفاق القدم : سريع الخطو ؛ ضراب بها للأرض .

(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجعل الفمل لليل على الحجاز . والحطم : الذى لا يبق من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .

(٧) الوضم : كل ما قطع عليه النجم .

(٨) للحصين بن حمام المري ، المفضليات ٦٥ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافة ؛
لأسباب ليس هذا موضع ذكرها ، فلما أفضت إليه الخلافة ، وخلصه يزيد بن المهلب ،
ونزع يده من طاعته ، وعلم أنه إن ظفر به قتله وناله من الهوان ما لقتل دونه ، فدخل
البصرة ومَلَكَهَا عَنوةً ، وحبس عدى بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرح
إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً ، يشتل على ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة ،
وبعث مع الجيش أخاه مسلمة بن عبد الملك ، وكان أعرف الناس بقيادة الجيوش وتديبها ،
وأيمن الناس نَفِيَّةً في الحرب ، وضمَّ إليه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فسار
يزيد بن المهلب من البصرة ، قدَّم واسطاً ، فأقام بها أياماً ، ثم سار عنها فنزل القفر ^(١) ،
واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً ، وقدَّم مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى
العسكران ، وشبَّت الحربُ ، أمرَ مسلمة قائداً من قَوَّاده أن يحرق الجسور التي كان عَقْدُهَا
يزيد بن المهلب فأحرقها ، فلما رأى أهلُ العراق الدخان قد علا انهزموا ، فقبل ليزيد
ابن المهلب : قد انهزم الناس ، قال : ومِمَّ انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله ؟
فقبل له : إنَّ مسلمة أحرَقَ الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبَّحهم الله ! بقى دُخْنٌ عليه فطار !
ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوهَ المهزَمين ، ففعلوا ذلك حتى كَثُرُوا عليه ،
واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : دعوهم قَبَّحهم الله ! غنمَ عَدَا في نواحيها الذئب . وكان
يزيد تحدُّثُهُ نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي بواسط ،
فقال له :

فَيْشُ مَلِكاً أَوْ مُتْ كَرِيماً فَإِنْ تَمَّتْ وسيفك مشهور بكفك تُغْدِرُ

فقال : ماشرت ، فقال :

(١) قال ابن خلكان : هي عفر بابل ؛ وهي عند السكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه .

إن بنى مروان قد بادَ ملكُهُمْ فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعُرْ
 فقال : أما هذا فمضى . فلما رأى يزيد انهزام أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَنْفَ
 سيفه واستقتل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل ، فزاده ذلك بصيرة في توطينه
 نفسه على القتل ؛ وقال : لا خير في العيش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغضُ الحياةَ بعد
 الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فلم أصحابه أنه مستميت ، فتسلل عنه مَنْ
 يكره القتال ، وبقيَ معه جماعة خشية ، فهو يتقدم كلما مرَّ بخيلٍ كَشَفَهَا ، وهو يقصد مسلمة
 ابن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنى مسلمةُ فرسه ليركب ، وحالت خيولُ أهل
 الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدهم بالسيف مصلاً^(١) ؛ حتى قتل وحل
 رأسه إلى مسلمة ، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما الفضل بن المهلب ؛ يقاتل
 أهل الشام في جهة أخرى ، ولا يعلمُ بقتل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن
 المهلب ، وقال له : ما صنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس !
 وقد روى أنه لم يأت به بالخبر على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ، فقال
 له : إن الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقتصم أثره ، فانحدر المفضل حينئذ ، فلما علم بقتل
 إخوته ، حلف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبداً ، وكانت عين المفضل قد أصيبت من قبل
 في حرب الخوارج ، فقال : فضحني عبد الملك فضحه الله ! ما عذرى إذا رآني الناس
 فقالوا : شيخ أعور مهزوم ، ألا صدقني فقتلت ! ثم قال :

وَلَا خَيْرَ فِي طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَاءِ وَلَا فِي لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدٍ

فلما اجتمع مَنْ بقي من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عدى بن أروطة
 أمير البصرة من الحبس ، فقتلوه وحملوا عيالهم في السفن البحرية ، ولججوا في البحر ؛ فبعث
 إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثاً عليه قائد من قواده ، فأدركهم في قنذابيل^(٢) ، فحاربهم

(١) مصلاً ، أى مجرداً من غمده .

(٢) قنذابيل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : الفضل بن المهلب ، وزباد بن المهلب ، ومروان بن المهلب ، وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلب ، والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب ، وعمر والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب ؛ وحملت رهوسهم إلى مسلة بن عبد الملك ؛ وفي أذن كل واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون في الوقعة ، فحلبوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام ؛ وهم أحد عشر رجلا ، فلما دخلوا عليه قام كثير بن أبي جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إِذَا مَا نَالَ عَاقِبَ مُجَمِّلًا أَشَدَّ الْعِقَابِ أَوْ عَفَا لَمْ يُثَرِّبِ
فَفَقُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحِسْبَةً فَمَا تَأْتِيهِ مِنْ صَالِحٍ لَكَ يَكْتَبِ
أَسَاءُوا فَإِنْ تَصَفَحْ فَإِنَّكَ قَادِرٌ وَأَفْضَلُ حِلْمٍ حِسْبَةً حِلْمٍ مَغْضَبِ

فقال يزيد : أطت^(١) بك الرحم يا أبا صخر ! لولا أنهم قدّحوا في الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقي منهم صبي صغير ، فقال : اقتلوني فلست بصغير ، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمت ووطئت النساء فاقتلوني ؛ فلا خير في العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبورا - وهم أحد عشر مُهَلَّبِيًّا : المَعَارِكُ وعبد الله والمغيرة والفضل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب ، ودُرَيْدُ والحجاج وغسان وشبيب والفضل ؛ بنو الفضل بن المهلب لصلبه ، والفضل بن قبيصة بن المهلب . قال : ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب . وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن الفضل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برتبيل^(٢) ، ثم أومِنُوا بعد ذلك .

(١) أطت بك الرحم : رقت وحنّت :

(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

ألا لله بَادِرَةٌ الطَّلَابِ وَعَزَمْتُ لَا يَرْوَعُ بِالْعِتَابِ^(١)
 وكلّ مشتمر البردَيْنِ يهوى هوى المصلتاتِ إلى الرقابِ
 أعاتبُهُ عَلَى بُعدِ التنايِ فيعدّلُنِي عَلَى قُرْبِ الإِيَابِ
 رأيتُ العَجَزَ يَخضعُ لِلْيَالِي ويرضى عن نوايِهَا الفِضَابِ
 وآملُ أَنْ تَطاوِعَنِ اللَّيَالِي وينشبُ في المُنَى ظفري ونابِ
 ولولا صولة الأقدارِ دُونِي هَجَمْتُ عَلَى الْعُلَا مِنْ كُلِّ بَابِ

وقال أيضا :

لا يُبْذَ الهُمومَ إِلَّا غِلامٌ يَرْكَبُ الهَوْلَ والحِسامُ رَدِيفُ^(٢)
 ما يُذِلُّ الزَّمانُ بالفقرِ حُرًّا كيفما كان فالشريفُ شَرِيفُ
 وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وَلَسْتُ أَضِلُّ فِي طُرُقِ الْعَالِي وَنَارُ الْعِزِّ عَالِيَةُ الشُّعَاعِ^(٣)
 وَدُونَ الْمَجْدِ رَأْيٌ مُسْتَطِيلٌ وَبَاعٌ غَيْرُ مَحْجُوبِ الدَّرَاعِ
 وَبُعْجِبُنِي بِالْعَادُ كَأَنَّ قَلْبِي يحدثُ عن عَدَى بنِ الرِّقَاعِ
 فَرَدَّ نِهْيَ الْعِلاءِ بِلا رَقِيبِ وَشَمَّرَ فِي الْأُمُورِ بِلا نِزَاعِ
 وَلَا تَفَرُّرُكَ قَعَقَعَةُ الْأَعَادِي فذاك الصَّخْرُ خَرَّ مِنَ الْيَفَاعِ
 وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْدُّنْيَا وَلَكِنْ تَخَيَّرَتِ الْقَطُوفَ عَلَى الْوَسَاعِ^(٤)

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفخر ويمدح آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه، لوحة ١٨٩

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه ويهنته .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير : والفرس الوساع : الجواد ذو السعة في خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغداني :

أَهَابُ وَأَقْصَى نَمِ يَنْتَصِحُونَنِي وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي نَصِيحَتَهُ قَسْرًا !
رَأَيْتُ أَكْفَ الْمُصَلِّتِينَ عَلَيْكُمْ مِلَاءً وَكُنِي مِنْ عَطَائِكُمْ صِفْرًا
مَتَى تَسْأَلُونِي مَا عَلَىَّ وَتَمْنَعُوا الَّذِي لِي ، لَا أَسْطِيعُ فِي ذَلِكَ صَبْرًا

وقال بعض الخوارج :

تُعَيِّرُنِي بِالْحَرْبِ عِرْسِي وَمَا دَرْتُ بُأْنِي لَهَا فِي كُلِّ مَا أَمَرْتُ ضِدَّ
لَحَا اللَّهَ قَوْمًا يَقْعُدُونَ وَعِنْدَهُمْ سِيُوفٌ وَلَمْ يَعْصِبْ بِأَيْدِيهِمْ قِدَّةٌ

وقال الأعشى :

أَبْلَمُوتُ خَشْتَنِي عِبَادٌ وَإِنَّمَا رَأَيْتُ مَنَايَا الْقَوْمِ يَسْعَى ذَلِيلُهَا ^(١)
وَمَا مَوْتُهُ إِنْ مِتَّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتْ النِّفْسَ غَوْلُهَا

وقال آخر :

فَلَا أَسْمَعُنُ فِيكُمْ بِأَمْرِ مَعْصِيَةٍ وَضِيْمٍ وَلَا نَسْمَعُ بِهِ هَامَتِي بَعْدِي
فَإِنَّ السَّنَانَ يَرْكَبُ الْمَرْءَ حَادَهُ مِنَ الضَّيْمِ ، أَوْ يَعْدُو عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ

ومثله :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ ^(٢)
وَيَزَكُّ كَبُّ حَدِّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضَيِّمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفَرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

(١) ديوانه ١٢٥

(٢) لمن بن أوس ، ديوانه ٥٩

وقال آخر :

كَرِهُوا الْمَوْتَ فَاسْتَبِيحَ حِمَاهُمْ وَأَقَامُوا فِعْلَ اللَّيْمِ الدَّلِيلِ
أَمِنَ الْمَوْتَ تَهْرَبُونَ فَإِنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الدَّلِيلِ غَيْرِ جَمِيلِ
وقال بشامة بن الغدير :

وإِنَّ الَّتِي سَامَكُمْ قَوْمُكُمْ هُمْ جَعَلُوهَا عَلَيْكُمْ عُذُولاً^(١)
أَخِزْنِي الْحَيَاةَ وَكِرْهُ الْمَمَاتَ فَكَلَّا أَرَاهُ طَعَاماً وَبَيْلاً !
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهَا فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلًا
وَلَا تَقْعُدُوا وَبِكُمْ مِثَّةٌ كَفَى بِالْحَوَادِثِ لِلْمَرْءِ غُولًا

قال يزيد بن المهلب في حرب جرجان لأخيه أبي عيينة : ما أحسنُ منظرٍ رأيت
في هذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبي سبرة وبيضته - وكان عبدُ الله بن أبي سبرة حَمَل
على غلام تركي قد أفرج الناس له ، وصدوا عنه لباسه وشجاعته ، فتضاربوا ضَرْبَتَيْنِ ،
فقتله ابن أبي سبرة بعد أن ضربه التركي في رأسه ، فنشب سيفه في بيضة ابن أبي سبرة ،
فعاد إلى الصف وسيفه مصبوغ بدم التركي وسيف التركي ناشب في بيضته كجزء منها يَلْمَعُ -
فقال الناس : هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هذبة بن خشرم :

وإِنِّي إِذَا مَا الْمَوْتُ لَمْ يَكُ دُونَهُ قَدَى الشَّبْرِ أَحَى الْأَنْفَ أَنْ أَنَاخَرَا^(٢)
وَلَسَكُنِّي أُعْطِيَ الْحَفِيفَةَ حَقَّهَا فَأَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَأُنْكِرُ مَنَكِرًا
وقال آخر :

إِنِّي أَنَا الْمَرَّةَ لَا يُغْضَى عَلَيَّ تِرَةً وَلَا يَقَرَّ عَلَيَّ ضَيْمٌ إِذَا غُشِمَا

(١) مختارات ابن السجري ١٦ ، الفضليات ٥٩

(٢) قدى الشبر : قدره ، والبيت في اللسان (٢٠ : ٣٢) .

ألقى المنية خوفاً أن يقال فتى أمسى - وقد ثبت الصفان - منهزماً
وقال آخر :

قَوْضُ خِيَامِكَ وَالتَّمِيسُ بَلَدًا تَنَاضَى عَنِ الْغَاشِيكِ بِالظَّمِّ
أَوْشِدَ شِدَّةَ بَيْنِهِسِ فَعَسَى أَنْ يَتَّقُوكَ بِصَفْحَةِ السَّلَمِ (١)

استنصر سبيع بن الخطيم التيمي من بني تيم اللات بن ثعلبة زيد الفوارس الضبي
فنصره ، قال :

تَبَّهْتُ زَيْدًا فَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى وَكِيلٍ رَثُّ السِّلَاحِ وَلَا فِي الْحَيِّ مَغْمُورٍ
سَأَلْتُ عَلَيْهِ شَعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِ كَالذَّنَانِيرِ
وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نُحْلِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِينَ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ (٢)
وَنَنْصُرُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَالِ

لما برز عليّ وحمزة وعبيدة عليهم السلام يوم بدر إلى عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالْوَلِيدِ ، قَتَلَ عَلِيٌّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَلِيدَ ، وَقَتَلَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي رِوَايَةِ ذَلِكَ : هَلْ كَانَ شَيْبَةُ قَرْنَهُ أَمْ
عُتْبَةُ ؟ وَتَجَالَدَ عُبَيْدَةُ وَعُتْبَةُ بِسَيْفِهِمَا ، فَجَرَحَ عُبَيْدَةُ عُتْبَةَ فِي رَأْسِهِ ، وَقَطَعَ عُتْبَةُ سَاقَ عُبَيْدَةَ ،
فَكَرَّ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى صَاحِبَيْهِمَا ، فَاسْتَنْقَذَاهُ مِنْ عُتْبَةَ ، وَخَبَطَاهُ بِسَيْفِهِمَا حَتَّى
قَتَلَاهُ وَاحْتِمَلَا صَاحِبَيْهِمَا ، فَوَضَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْعَرِيشِ ،
وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، وَإِنَّ مُخَّ سَاقِهِ لَيَسِيلُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ حَيًّا لَعَلِمَ
أَنِّي أَوْلَى مِنْهُ بِقَوْلِهِ :

(١) اليهس : الشجاع .

(٢) ديوانه • (طبعة النجف) .

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ تُخْلِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُصْرِهِ حَتَّى نَصْرَعَ حَوْلَهُ وَنُذْهِلَ عَنْ أَبْنَانِنَا وَالْحُلَّائِلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ! اللهم إن
تهلك هذه العصاة لاتعبد في الأرض » .

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرمي ، أباح المدينة
ثلاثاً ، واستعرض أهلها بالسيف جَزْراً ، كما يَجْزُرُ القِصَابُ الغنم ؛ حتى ساحت الأقدام
في الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية
على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنه عبد قنّ لأمر المؤمنين يزيد بن
معاوية ؛ هكذا كانت صورة المبايع يوم الحرّة ، إلا على بن الحسين بن علي عليهم السلام ،
فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريريه ، وأخذ بيعته على أنه أخو أمير المؤمنين يزيد بن
معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاة من يزيد بن معاوية له ،
فهرب على بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِنْدَةَ ، فحمّوه من مُسلم بن
عقبة ، وقالوا : لا يبايع ابنُ أختنا إلا على ما يبايع عليه ابنُ عمه على بن الحسين ، فأبى مُسلم
ابن عقبة ذلك ، وقال : إني لأفعل ما فعلت إلا بوصاة أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلته ،
فإن أهل هذا البيت أجدرُّ بالقتل ، أو لأخذت بيعته على ما أخذت عليه بيعة غيره . وسَفَر
السُّفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايع ويقول : أنا أبايع لأمر المؤمنين
يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال على بن عبد الله بن العباس :

أَبِي الْعَبَّاسُ رَأْسُ بَنِي قُصَيٍّ وَأَخْوَالِي الْمُلُوكُ بَنُو وَلِيْعَةٍ
هُمْ مَنَعُوا ذِمَارِي يَوْمَ جَاءَتْ كُتَّابُ مُسْرِفٍ وَبَنُو اللَّكِيْعَةِ

أَرَادَ بِيَ الَّتِي لَاعَزَ فِيهَا فَحَالَتْ دُونَهُ أَيْدٍ مَنِيعَةٌ
مُسْرِفَ كِنَايَةٍ عَنْ مُسْلِمٍ ، وَأُمُّ عَلِيٍّ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ زُرْعَةُ بِنْتُ مَشْرِحَ بْنِ
مَعْدَى كَرْبِ بْنِ وَلِيْعَةَ بْنِ شَرْحِبِيلَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ كِنْدَةَ .
قَالَ الْحَصِينُ بْنُ الْحَمَامِ :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمًا ^(١)
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُنْقَدَمَا
فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ
نَفَقْنَا هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا ، وَهُمْ كَانُوا أَعْقَى وَأَظْلَمَا
أَبَى لَابِنْ سَلَمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقٍ الْمَنَآيَا أَيَّ ضَرْبٍ تَيَمَّمَا
ابْنُ سَلَمَى يَعْنِي نَفْسَهُ ، وَسَلَمَى أُمُّهُ .

وَقَالَ الطَّرِمَاتِحُ بْنُ حَكِيمٍ :

وَمَا مُنِعَتْ دَارٌ وَلَا عَزٌّ أَهْلُهَا مِنْ النَّاسِ إِلَّا بِالْقَنَاءِ وَالْقَنَائِلِ ^(٢)
وَقَالَ آخَرُ :

وَإِنْ الَّتِي حَدَّثَهَا فِي أَنْوْفِنَا وَأَعْنَاقِنَا مِنَ الْإِبَاءِ كَمَا هِيَ
وَقَالَ آخَرُ :

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ بِيُوسَى وَنُعْمَى وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ ^(٣)
فَمَا لَيْدَتْ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيبَةٍ وَلَا ذَلَّلَتْ لَنَا لَيْسَ تَجْمَلُ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً تَحْمِلُ مَا لَا يَسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ

(١) المفضليات ٦٩

(٢) ديوانه ١٥٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النبهاني ، ديوان الحماسة ١ - ٣٥١ - بفروح التبريزي .

وقال آخر :

إذا جانبٌ أعيالك فاعمدِ لجانبِ فإنك لاقِ في البلادِ معولاً^(١)

وقال أبو النشاش :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرخ سواماً ولم تطفِ عليه أقاربه^(٢)

فللموت خيرٌ للفتى من قعوده عديماً ومن مولى تدبُّ عقاربه

ولم أرَ مثلَ الهم ضاحجه الفتى ولا كسوادِ الليل أخفقَ طالبه

فِعشْ معدماً أو مت كريباً فإننى أرى الموت لا ينجو من الموتِ هاربة

وفد يحيى بن عروة بن الزبير على عبد الملك ، فجلس يوماً على بابه ينتظر إذنه ، فجرى ذكرُ عبد الله بن الزبير ، فقال منه حاجب عبد الملك ، فلطم يحيى وجهه حتى أدنى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيى ابن عروة ، قال : أدخله - وكان عبد الملك متكئاً فجلس - فلما دخل قال : ما حملك على ما صنعت بحاجبي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن عمي عبد الله كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا ، والله إن كان ليوصي أهلَ ناحيته ألا يسمعوها قذعاً^(٣) ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان ليقولُ لها : مَنْ سبَّ أهلك فقد سبَّ أهله ، فأنا والله المغمَّ المخول ، تفرقت العرب بين عمي وخلي ، فكنت كما قال الأول :

يدأه أصابت هذه حَتَفَ هذه فلم تجد الأخرى عليها مُقَدَّما

فرجع عبد الملك إلى متكئته ، ولم يزل يُعرف منه الزيادة في إكرام يحيى بعدها .

(١) الجابر بن ثعلب الطائي ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ - بشرح التبريزي .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٠٢ - بشرح التبريزي .

(٣) القذع : الفحش .

وأم يحيى هذه هي ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمر الحرشي أمير خراسان :

فَلَسْتُ لِعَامِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْنِي أَمَامَ الْخَيْلِ أَطْعَنُ بِالْعَوَالِ (١)
وَأَضْرِبُ هَامَةً الْجَبَّارِ مِنْهُمْ بِمَا ضَى الْغَرْبُ حُودِثَ بِالصَّقَالِ (٢)
فَمَا أَنَا فِي الْحُرُوبِ بِمُسْتَكِينٍ وَلَا أَخْشَى مَصَاوِلَةَ الرِّجَالِ
أَبَى لِي وَالِدِي مِنْ كُلِّ ذِمٍّ وَخَالِي حِينَ يُذَكِّرُ خَيْرُ خَالِ

قال عبد الله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب : أما بعد ؛ فإنه أتانا من العراق خبرٌ أفرحنا وأحزننا ، أتانا خبرٌ قتل المصعب ؛ فأما الذي أحزننا فلوعةٌ يَجِدُهَا الحليم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوى بعدها ذو الألب إلى حسن الصبر وكرم العزاء .
وأما الذي أفرحنا ، فإن ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خيرة ؛ إنا والله ما نموت حجباً (٣) كما يموت آل أبي العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً ؛ قَمْعاً (٤) بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإن يهلك المصعب ؛ فإن في آل الزبير لخلفاً .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لوددت والله أن الأرض قاءتني عنده حين لفظ غُصَّتَهُ وَقَصَى نَحْبَهُ .

شعر :

خُذِيهِ فَجُرِّيهِ ضُبَاعَ وَأَبْشِرِي بِلَحْمِ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ

(١) العوالى : جم عالية ؛ وهي أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده ؛ ويقال : حاد السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحجب : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنه سمناً وربما قتله ذلك ؛ وفي اللسان (٣ : ٤٨) .
بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض بيني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة » . وفي ج : « جنجا » .

(٤) القمص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قمصاً ؛ أى أصابته ضربة أورمية فات مكانه .

وقال الشدّاح بن يعمر الكِنَافِي :

قَاتِلُوا الْقَوْمَ يَا خُزَاعُ وَلَا يَدْخُلُكُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ فَشَلُّ^(١)
الْقَوْمُ أَمْثَالَكُمْ لَهُمْ شَعْرٌ فِي الرَّأْسِ لَا يُنْشَرُونَ إِنْ قُتِلُوا

وقال يحيى بن منصور الحنفى :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَّا خَالِقَنَا السَّيْفَ عَلَى الدَّهْرِ^(٢)
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضِبْنَا الْجَفُونَ عَلَى وَتَرٍ

قيل لرجل شهد يوم الطَّف مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتم ذريةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتُ بِالْجَنْدَلِ ؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عِصَابَةُ أَيْدِيهَا فِي مَقَابِضِ سَيُوفِهَا كَالْأَسْوَدِ الضَّارِيَةِ تَحْطُمُ الْفَرَسَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَتُلْقِي أَنْفُسَهَا عَلَى الْمَوْتِ ؛ لَا تَقْبَلُ الْأَمَانَ ، وَلَا تَرْغَبُ فِي الْمَالِ ، وَلَا يَحُولُ حَائِلٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُرُودِ عَلَى حِيَاضِ الْمَنِيَةِ ، أَوْ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ ؛ فَلَوْ كَفَفْنَا عَنْهَا رَوِيدًا لَأَتَتْ عَلَى نَفُوسِ الْعَسْكَرِ بِحَذَافِيرِهَا ؛ فَمَا كُنَّا فَاعِلِينَ لَا أَمَّ لَكَ !

السَّخَاءُ مِنْ بَابِ الشَّجَاعَةِ ، وَالشَّجَاعَةُ مِنْ بَابِ السَّخَاءِ ؛ لِأَنَّ الشَّجَاعَةَ إِتْفَاقُ الْعَمْرِ وَبَذْلُهُ فَكَانَتْ سَخَاءً ، وَالسَّخَاءُ إِقْدَامٌ عَلَى إِتْلَافِ مَا هُوَ عَدِيلُ الْمَهْجَةِ ؛ فَكَانَ شَجَاعَةً .

أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ أَلْ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ نَفُوسًا^(٣)

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ١ : ١٨٩ - بشرح التبريزي والفنل : الجين والضعف .

(٢) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٣١٠

(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصري رحمه الله تعالى : أنجد في النصوص ما يدل على تفضيل علي عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإن ذلك أمر مفروغ منه ؟ فذكر حديث الطائر المشوي^(١) ؛ وأن المحبة من الله تعالى إرادة الثواب ، فقيل له : قد سبقك الشيخ أبو علي رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجد غير ذلك ؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل من زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن علياً عليه السلام ما قر في زحف قط ، وفر غيره في غير موطن .

وقال أبو تمام :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^(٢)
 بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ^(٣)
 وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ^(٤)

وقال أبو الطيب المتنبي :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي الْجَدُّ لِلْسِّيفِ لَيْسَ الْجَدُّ لِلْقَلَمِ^(٥)

(١) يشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم انني بأحب خلقك إليك ؛ يأكل كل معى هذا الطير . فجاء علي فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧ »

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان النجمون قد حكموا أن للمعتصم لا يفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأننا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا وقت إدارك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام فيها التاج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكسب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهي الحديدية العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على النجمين ما حكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعني بشهب الأرماع أسقطها ، ويعني بالسبعة الشهب الطوالع التي أوفتها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٣ : ٥٩ .

اَكْتُبْ بِنَاءً بَدَأَ بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ
أَسْمَعْتَنِي وَدَوَّأَنِي مَا أَشْرَفْتُ بِهِ فَإِنْ غَفَلْتُ فِدَائِي قِلَّةُ الْفَهْمِ
مَنْ اقْتَضَى بِسُورِ الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سَوَالٍ عَنْ «هَلٍ» بِلَمْ

قال عطف بن محمد الألوسى :

أَمْكَبَدَ الزَّفَرَاتِ مُؤَصَّدَةً تَلْتَذِ خَوْفَ الْقَطْعِ بِالسَّلَالِ
صَرَفَ مُهُومَكَ تَنْتَدِبُ هِمًّا فَالْشُّكْرُ يُعْقِبُ نَشْوَةَ الثَّمَلِ
وَلِلَّيْلَةِ الْمِلَادِ مَفْرَحَةٌ تَنْسَى الْحَوَامِلَ أَشْهُرَ الْحَبْلِ
سِرٌّ فِي الْبِلَادِ تَخُوضُهَا بُلُجًا فَالْدُّرُّ لَيْسَ يُصَابُ فِي الْوَشَلِ (١)
وَاجْعَلْ لَصَبُوتِكَ الظُّبَا سَكَنًا وَالدُّورُ أَكْوَارًا عَلَى الْإِبْلِ
وَالْعَيْشُ وَالْوَطَنُ الْمَهْدُ فِي غَرْبِ الْحُسَامِ وَغَارِبِ الْجَلِ
وَاشْدُدْ عَلَيْكَ وَخُذْ إِلَيْكَ وَدَعْ ضَعَةَ الْخُمُولِ وَقَتْرَةَ الْكَسَلِ
وَازِمِ الْعُدَاةَ بِكُلِّ صَائِبَةٍ مَا الرَّمْيُ مَوْقُوفًا عَلَى ثُعَلٍ (٢)
لَا تَحْسَبِ النِّكَبَاتِ مَنَقَصَةً قَدْ يُسْتَجَادُ السَّيْفُ بِالْفَلَلِ

وقال عروة بن الورد :

لَحَا اللَّهُ مُصْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَانِي الْمَشَاشِ آلَفًا كُلَّ مَجْزَرٍ (٣)

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) ثعل : أبو حى من طيء ؛ اشتهروا بالرمل .

(٣) ديوانه ٥٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . المصْلُوكُ : الفقير ، والمصَانِي : من المصافة ؛ وهى الاختيار والملازمة ، والمشاش : العظم الممكن مضغه ، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ (١)
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُضْبِعُ نَاعِسًا
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْمَعُنَهُ (٢)
وَلَكِنْ ضَعُفُوا صَفِيحَةً وَجْهِهِ
مُطْلًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
وَإِنْ قَعَدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا
أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مَبْسُورٍ (٣)
يَحْتِ الْخَصَا مِنْ جَنْبِهِ الْمُتَقَرِّ (٤)
وَيُمْسِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ (٥)
كُضُوهُ شِهَابِ الْقَاسِ الْمُتَنَوِّرِ
بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشَهَّرِ (٦)
تَشَوَّفُ أَهْلَ الْغَائِبِ الْمُتَنْظِرِ (٧)
حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَفِنِ يَوْمًا فَأَجْدَرِ

وقال آخر:

وَلَسْتُ بِمَوْلَى سَوْءَةٍ أَدَّعَى لَهَا
وَسِيَانٍ عِنْدِي أَنْ أَمُوتَ وَأَنْ أَرَى
وَلَنْ يَحِدَّ النَّاسُ الصَّدِيقُ وَلَا الْعِدَى
وَإِنْ نَجَارِي يَابْنَ غَنَمٍ مُخَالَفٍ
وَلَسْتُ بِهَيْبَابٍ لِمَنْ لَا يَهَابُنِي
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُجِيبْكَ إِلَّا تَكْرُهَا
فَإِنْ لَسَوَاتِ الْأُمُورِ مَوَالِيَا (١)
كَبَعْضِ رِجَالِ بُوطُنُونَ الْخَازِيَا
أَدِيمِي إِذَا عَدَا أَدِيمِي وَاهِيَا
نَجَارَ لَثَامٍ فَابْنِي مِنْ وَرَائِيَا (٢)
وَلَسْتُ أَرَى لِلْمَرْءِ مَالًا يَرَى لِيَا
عِرَاضَ الْعُلُوقِ لَمْ يَكُنْ ذَاكَ بَاقِيَا (٣)

- (١) الميسر : الذي قد نتج إبله فكثير خيره ؟ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى في كل ليلة من صديق غنى ؟ عد ذلك لنفسه غنى وخيرا .
- (٢) يحسب الحصا : يفكره ؟ والماعس : الذي يأتي عليه الصباح وهو ناعس الخمول وانحطاط همته .
- (٣) البعير الطليح : المهي ؟ وكذلك المحسر .
- (٤) أطل على أعدائه : أوف عليهم . والمنيح والسفيح والرغد : قذاح لأنصباء لها ، وإنما يكثر بها القذاح فهي تبال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ؟ فشبه الصعلوك به (من شرح التبريزي)
- (٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .
- (٦) لطرفة الجذمي ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف الرواية وترتيب الأبيات
- (٧) النجار : الأصل .
- (٨) العلوق : الناقة التي ترأى ولدها وتلمسه حتى يأنس بها ؟ فإذا أراد ارتضاع الابن منها ضربته وطردته .

نهار بن تَوْسعة في يزيد بن المهلب :

وَمَا كُنَّا نُوَمِّلُ مِنْ أَمِيرٍ كَمَا كُنَّا نُوَمِّلُ مِنْ يَزِيدٍ
فَأَخْطَا ظَنُّنَا فِيهِ وَقَدِمَا زَهْدُنَا فِي مَعَاشِرَةِ الزَّهِيدِ
إِذَا لَمْ يَعْطِنَا نَصْفًا أَمِيرٌ مَشِينَا نَحْوَهُ مَشَى الْأَسُودِ

كان هُدْبَةُ اليشكري - وهو ابن عم شوذب الخارجي اليشكري - شجاعاً مقداماً، وكان ابن عمه بسطام المنقب شوذباً الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً فخاربه، فأنكشت الخوارج، وثبت هُدْبَةُ وأبى الفرار، فقاتل حتى قُتل، فقال أيوب بن خولة يرثيه:

فَيَا هُدْبَ الْفَهَيْجَا وَيَا هُدْبَ اللَّندَى وَيَا هُدْبَ لِلْخَصْمِ الْأَلَدِ يُحَارِبُهُ (١)
وَيَا هُدْبَ كَمْ مِنْ مُلْحَمٍ قَدْ أَحْبَبْتُهُ وَقَدْ أَسْلَمْتُهُ لِلرَّمَاكِ كَتَابَتُهُ (٢)
تَزَوَّدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعًا وَمِغْفَرًا وَعَضَبًا حُسَامًا لَمْ تَحْنُكْ مَضَارِبُهُ (٣)
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا انْقَضَى وَافَى الرَّيْشِ حُجْنٌ نَحَّالِبُهُ (٤)

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تردُّ إلى أبي مسلم بخراسان: إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تهنمه

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلاً في تاريخ الطبري ٧ : ١٤٣

(٢) الملحم : الذي أسر وظفر به أعداؤه ؛ وفي ج : « ملجم » تصحيف .

(٣) الطبري : « تزود . . . لم تحنه » .

(٤) أجرد ؟ من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة :

الظهر ، ومحبوك السراة ، أي شديد الخلق . حجن مغالبه ، يريد صقرا ، والحجن . الاعوجاج .

فاقتله ؛ وعليك بمُضَرٍّ ؛ فإنهم العدوُّ القريب الدار ، فأبْدِ خَضْرَاءَهُمْ ^(١) ولا تدع على الأرض منهم ديارا .

قال المتنبي :

لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ ^(٢)
وله :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَغْرَفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رُحْمَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ ^(٣)
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَأْثَمُ
وقال المتنبي أيضا :

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَأَطْرَحِي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ ^(٤)
إِنْ لَمْ أَذْرُكَ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً فَلَا دُعَيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ

ومن أباة الضيم قُتَيْبَةُ بن مسلم الباسهلي أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنع أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك ، وكان ^(٥) الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهد بعده ، ويجعله في ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قُتَيْبَةُ بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده - وكان

(١) في الأساس : أباد الله خضراءهم ؛ أى شجرتهم التي تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) انظر تاريخ الطبري ٨ : ١٠٣ وما بعدها .

قتيبة أشدّ الناس في أمر سليمان وخلعه عن العهد - علم أنه سيعزله عن خراسان ويوليها يزيد بن المهلب ، لودّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنئه بالخلافة ، ويدكر بلاءه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يدكره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايته في الترك ، وعظم قدره عند ملوكهم ، وهيبة المعجم والعرب له وعظم صيته فيهم ، ويذم آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنه ، وليلأنها عليه خيلا ورجلا ، وكتب كتابا ثالثا فيه خلع سليمان ، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادفع الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيد بن المهلب حاضرا عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني ، فإن قرأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليه الثالث ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛ فاحتبس الكتابين الآخرين معك .

فقدّم الرسول على سليمان ، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأه وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتاب الثاني ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث ، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عهد قتيبة على خراسان ، وكان ذلك مكيدة من سليمان يسكنه ليطمئن ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بجحوان بلغه خلع قتيبة سليمان بن عبد الملك ، فرجع رسول سليمان إليه ، فلما اختلفت العرب على قتيبة حين أبدى صفحته لسليمان ، وخلع ربة الطاعة ، بايعوا وكيع بن أبي سود التيمي على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكرت لقتيبة لإذلاله إياهم ، واستهانت بهم واستطالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع في أول الأمر

سرّاً ، ثم ظهر لقتيبة أمره ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاً رِجْلَهُ بِمَفْرَةٍ ^(١) وعلق في عنقه خَرَزاً ، وعنده رجلان يَرَقِيَانِ رِجْلَهُ ، فقال للرسول : قد ترى ما برجلي ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتيني محمولا ، قال : لا أستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتني به ؛ فإن أبي فاضرب عنقه ، وأُتِنِي بِرَأْسِهِ ، ووجهه معه خيلاً ، فقال وكيع لصاحب الشرطة : البث قليلاً تلحق الكتائب ، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فاتوه ، فخرج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني أسد ، فقال : ما اسمك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : لمن من ؟ قال : ابن ليث ، فتيتن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كل وجه ، فتقدم بهم ، وهو يقول :

قَرَمٌ إِذَا مُحِلَّ مَكْرُوهَةً شَدَّ الشَّرَاسِيفَ لَهَا وَالْحَزِيمَ ^(٢)

واجتمع إلى قتيبة أهله وثقائه ، وأكثرُ العرب ألسنتهم له وقلوبهم عليه ، فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جفّاهم في أيام سُلْطَانِهِ - فقال له مجنفر ^(٣) ابن جزء الكلّابي : نادهم حيث وضعتهم ، فقال قتيبة : أنشدكم الله والرحم - وذلك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان - فقال مجنفر : أنت قطعتهما ، قال : فلكم العُتْبَى ، فقال مجنفر : لا أقالنا الله إذا ! فقال قتيبة :

يَأْنَفْسُ صَبْرًا عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْمَمْرِ إِذْ لَمْ أَجِدْ لِفُضُولِ الْعِيشِ أَقْرَانًا

ثم دعا ^(٤) ببرذون له مُدَرَّبٌ ^(٥) ليركبه ، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا . فلما رأى ذلك

(١) المفرة : طين أحمر .

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة . القرم : السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « محسن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه ، فاعتم بها ، كان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإن هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ - وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجداً على قتيبة - فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل يا حيان ، فقال : لم يأنِ بعد ، فقال له : ناولني قوسك ، فقال حيان : ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذا رأيته قد حولت قلنسوتي ، ومضيت نحو عسكر وكيع فإلّ بمن معك من العجم إلى ، فلما حول حيان قلنسوته ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأشرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بني ضَبّة فأصاب رأسه ، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضعه على مصلاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناس ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشير على قتيبة بالانصراف ، فقال : الموتُ أهونُ من الفرار ، وأحرق وكيع موضعاً كانت فيه إبل قتيبة ودوابه ، وزحفَ بمن معه حتى دنا منه ، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديداً ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسك ، فإنّ مثلك يُضنُّ به عن القتل ، قال : بثما جَزَيْتُكَ به أيها الأمير إذاً ، وقد أطعمتني الجرَدَق ، وألبستني الثَّمَرَق ^(١) . وتقدّم الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصْحَاوَةٌ بالهَرَب ، فقال : إذا لست ، لمسلم بن عمرو ! ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم ، فجرح جراحات كثيرة ، حتى ارتث ^(٢) وسقط ، فأكبوا عليه ، فاحتزوا رأسه ، وقُتِل معه من أخوته عبد الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقُتِل معه جماعة من أهله وعدة من قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلاً .

وصعد وكيع بن أبي سود المنبر وأنشد : « مَن يَنْكِ الْعَيْرَ يَنْكِ نَيْبًا » ^(٣)

(١) الجرَدَق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . الجوالقي والفرق : الميزة .

(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريحاً وبه رُمق .

(٣) مثل ، قاله خضر بن شبل الخثعمي ، في خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥ .

لَمِنْ قَتِيْبَةِ أَرَادَ قَتْلِي ، وَأَنَا قَتَّالُ الْاَقْرَانِ ، ثُمَّ أُنْشَدَ :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي مِنْ غُلَوَتَيْنِ وَمِنْ أَلْمِثَيْنِ
حَتَّى إِذَا شَبْتُ وَشَبَّوْنِي خَلَوْا عِنَانِي ثُمَّ سَيَّبُونِي ^(١)
حَذَرًا مِنِّي وَتَنَكَّبُونِي فَأَتَنِي رَامٌ لَمَنْ يَرْمِينِي

ثُمَّ قَالَ : أَنَا أَبُو مَطْرَفٍ ، يَكْررها مرارا ، ثُمَّ قَالَ :

أَنَا ابْنُ خَنْدِفٍ تَنْمِينِي قِبَائِلَهَا لِلصَّالِحَاتِ وَعَمِّي قَيْسُ عَيْلَانَا
ثُمَّ أَخَذَ بِلَحِيَّتِهِ ، وَقَالَ : إِنِّي لِأَقْتُلَنَّ ثُمَّ لِأَقْتُلَنَّ وَلَأَصْلِبَنَّ ثُمَّ لِأَصْلِبَنَّ ؛ إِنْ مَرَزُبَانُكُمْ ^(٢)
هَذَا ابْنُ الزَّانِيَةِ ، قَدْ أَغْلَى أَسْعَارَكُمْ ؛ وَاللَّهِ لَنْ لَمْ يَصِرَ الْقَفِيزُ ^(٣) بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ لِأَصْلِبْتَهُ ،
صَلُّوا عَلَى نَبِيِّكُمْ .

ثُمَّ نَزَلَ وَطَلَبَ رَأْسَ قَتِيْبَةٍ وَخَاتَمَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ الْأَزْدَ أَخَذَتْهُ ؛ فَخَرَجَ مُشْهَرًا ^(٤) ،
وَقَالَ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَوْتِيَ بِالرَّأْسِ ، أَوْ يَذْهَبَ رَأْسِي مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ
الْحَصَيْنُ بْنُ الْمَنْذَرِ : يَا أَبَا مَطْرَفٍ فَإِنَّكَ تَوَتَّى بِهِ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْأَزْدِ ، فَأَخَذَ الرَّأْسَ وَأَتَاهُ
بِهِ ، فَسَيَّرَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ وَمَعَهُ رِءُوسُ إِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ ، وَعِنْدَهُ الْهَذِيلُ
ابْنُ زُفَرٍ بْنُ الْحَارِثِ الْكَلَابِيِّ ، فَقَالَ : أَسَاءَ كَهَذَا يَاهْذِيلُ ؟ قَالَ : لَوْ سَاءَ نِي لَسَاءَ نَاسًا كَثِيرًا .
فَقَالَ سُلَيْمَانُ : مَا أَرَدْتَ هَذَا كُلَّهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ سُلَيْمَانُ ذَلِكَ لِلْهَذِيلِ ، لِأَنَّ قَيْسَ عَيْلَانَ تَجْمَعُ
كِلَابًا وَبَاهِلَةً ، قَالُوا : مَا وَلِيَ خُرَّاسَانَ أَحَدٌ كَقَتِيْبَةِ بْنِ مُسْلَمٍ ؛ وَلَوْ كَانَتْ بَاهِلَةً فِي الدَّيَّانَةِ
وَالضَّمَّةِ وَاللُّؤْمِ إِلَى أَقْصَى غَايَةٍ ، لَسَكَانَ لَهَا بِقَتِيْبَةِ الْفَخْرِ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ .

(١) أَصْلُهُ فِي الدَّيَّانَةِ ؛ يُقَالُ : سَيَّبَ الدَّيَّانَةَ ؛ إِذَا تَرَكَهَا تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ ، وَفِي تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ :

حَتَّى إِذَا شَبْتُ وَشَبَّوْنِي خَلَوْا عِنَانِي وَتَنَكَّبُونِي

وَانْظُرْ أَمَالِي الْغَالِي ١ : ٢٨٦

(٢) الْمَرْزُوبَةُ : رِيَاةُ الْفَرَسِ ، وَهُوَ مَرَزُبَانُهُمْ .

(٣) الطَّبَرِيُّ : « وَاللَّهِ لَيَصِيرَنَّ الْقَفِيزُ فِي السُّوقِ غَدًا بِأَرْبَعَةٍ » .

(٤) أَيْ سَيْفُهُ .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان مِنّا ثم مات لجللناه في تابوت ، فكنا نستفتح به إذا غزونا .

وقال الأصمهبذ ^(١) : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب ، لقد جئتم شيئا إذا ! فقيل له : أيهما كان أعظم عندكم وأهيب ، قال : لو كان قتيبة بأقصى حُجْرة ^(٢) في المغرب ، مكتبلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا في بلدنا وإل علينا ، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانه الباهلي يرثي قتيبة :

كَانَ أَبَا حَفْصٍ قُتِيْبَةٌ لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنْبَرًا
وَلَمْ تَخْفِقِ الرَّايَاتُ وَالْجَيْشُ حَوْلَهُ صُفُوفًا وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرًا
دَعَتْهُ الْمَنَايَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَى الْجَنَّاتِ عَفَا مُطَهَّرًا
فَمَا رُزِيَ الْإِسْلَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِمَثَلِ أَبِي حَفْصٍ ، فَبَكَّيْهِ عَظَمَرًا
عَظَمَرًا أُمَّ وَلَدَ لَهُ .

وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا مُمْسِكًا بِعِثَانِ فَرْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً ^(٣) طَارَ إِلَيْهَا » .

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أن عليك عُيُونًا مِنْ اللَّهِ تَرَعَاكَ وَتَرَكَ ، فإذا لقيت العدو ، فاحرص على الموت تُوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةُ ، وَلَا تَفْسَلْ الشَّهْدَاءُ مِنْ دِمَائِهِمْ ؛ فَإِنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) الأصمهبذ في الديلم كالأمير في العرب .

(٢) الحجرة : الناحية .

(٣) الهية : الصوت أو الصياح .

عر : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتم القوس ونزوتم على الخيل .

بعض الخوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أَظْفَارَ الْمَنَافِتِ لَيْسْنَا لَهُنَّ السَّابِغَاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وإن كَرِهَ الموتُ عَذْبٌ مَذَاقُهُ إِذَا مَا مَرَجْنَاهُ بِطِيبٍ مِنَ الدُّكْرِ

حض منصور بن عمار في قصصه على الغزو والجهاد ، فطرح في المجلس صرة فيها شيء ، ففتحت فإذا فيها ضفيرة امرأة ، وقد كتبت : رأيتك يا ابن عمار تمحض على الجهاد ، ووالله إني لا أملك لنفسي مالا ، ولا أملك سوى ضفيري هاتين ، وقد ألقيتهما إليك ، فتالله إلا جعلتهما قيد فرس غازي في سبيل الله ، فلعل الله أن يرحمني بذلك .
فارتج المجلس بالبكاء والضجيج .

لبعض شعراء العجم :

وَإِسْوَاءٌ لَا مَرِيَّ شَبِيبَتُهُ فِي عُفْوَانٍ وَمَاؤُهُ خَصِلُ !
رَاضٍ بِزُرِّ الْمَعَاشِ مُضْطَهَدٌ عَلَى تَرَاثِ الْأَبَاءِ يَتَّكِلُ
لَا حَفَظَ اللَّهُ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ وَلَا رَعَاهُ مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ
كَلَّا وَرَبِّي حَتَّى تَكُونَ قَتَى قَدْ نَهَكَتُهُ الْأَسْفَارُ وَالرَّحْلُ
مُسَمَّرًا يَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ أَوْ يُضْرَبُ يَوْمًا يَهْلِكُهُ الْمَثَلُ
حَتَّى مَتَى تَتَّبِعُ الرِّجَالَ وَلَا تَتَّبِعُ يَوْمًا ، لَأَمَّاكَ الْهَبْلُ !

عبد الله بن ثعلبة الأزدي :

فَلَنْ عَمَرْتُ لِأَشْفِينَا النَّفْسَ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاعِي
وَلَا غَلَمِنَا . الْبَطْنَ أَنْ الزَّادَ لَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
أَمَّا النَّهَارُ فَقَدْ أَرَى قَوْمِي بِمَرْقَبَةٍ يَفَاعُ^(١)
فِي قَرَّةٍ هَلَكٍ وَشَوْ كِ مِثْلِ أُنْيَابِ الْأَفَاعِي^(٢)
تَرِدُ السَّبَاعُ مَعِيَ فَتَحْسُبُنِي السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مرة الطائي ، أجاد جراداً نزل به ومنع من صيده ،
حتى طار من أرضه ؛ فسمي مجير الجراد .

وقال هلال بن معاوية الطائي :

وَبِالْجَلِيلِ لَنَا مَعْقِلٌ صَعَدْنَا إِلَيْهِ بِضُمِّ الصَّعَادِ
مَلَكْنَاهُ فِي أُولَيَاتِ الزَّمَانِ نِ مِنْ قَبْلِ نُوحٍ وَمِنْ قَبْلِ عَادِ
وَمِنَّا ابْنُ مُرَّةٍ أَبُو حَنْبَلٍ أَجَارَ مِنَ النَّاسِ رَجُلَ الْجَرَادِ
وَزَيْدٌ لَنَا وَلَنَا حَاتِمٌ غِيَاثُ الْوَرَى فِي السَّنَنِ الشَّدَادِ

وقال يحيى بن منصور الحنفي :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَّا فَحَالَفَنَا السُّيُوفَ عَلَى الدَّهْرِ^(٣)
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَتَرِ

(١) اليفاع : التل .

(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .

(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ - بشرح الرزوقي .

وقال آخر :

أَرِقَ لِأَرْحَامٍ أَرَاهَا قَرِيبَةً لِحَارِ بْنِ كَعْبٍ لَا لِحَزِيمٍ وَرَاسِبٍ^(١)
وإِنَّا نَرَى أَقْدَامَنَا فِي نَعَالِهِمْ وَأَنْفَنَا بَيْنَ اللَّحَى وَالْحَوَاجِبِ
وإِقْدَامَنَا يَوْمَ الْوَعَى وَإِبَاءَنَا إِذَا مَا أَبَيْنَا لَا نُدِرُّ لِعَاصِبِ

حاصرت التّرك مدينة بَرْدَعَةَ من أعمال أذربيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتها وكادت تملكها ، وتوجّه إليها لمعاوتها سعيد الحرشي ، من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة ، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْدَعَةَ سِرّاً يعرفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفاً ألا يدركهم ، فسار الرجل ولقيته قومٌ من الترك ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فكتّمهم فعذبوه ، فأخبرهم وصدقهم . فقالوا : إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك بَرْدَعَةَ وهم يعرفونك ، فإذا وصلت تحت الشّور فنادهم إنه ليس خلفي مدد ، ولا من يكشف ما بكم ، وإنا نبعث جاسوساً . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صار تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلها كلامه ، وقال لهم : أنعرفوني ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإن سعيداً الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف ؛ وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبحكم أو ممسيكم ، فرفع أهل بَرْدَعَةَ أصواتهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلَا رَجَعَ فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح الرزوقي ، ونسبها إلى بعض بني عبس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر على عليه السلام يصفين فهاله ، فقال : مَنْ طلب
عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الكلبة :

إذا المرء لم يَفْشِ المكاره أوشكت حبالُ الهويّتي بالفتى أن تَقَطَّعا^(١)

ومن شعر الحماسة :

أقولُ لها وقد طارت شعاعاً من الأبطالِ ونحك لا تُراعى^(٢)
فإنك لو سألتِ بقاءَ يومٍ على الأجلِ الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً فما نيلُ الخلودِ بمُستطاع
ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عزٍّ فيطوى عن أخى الخنعِ البراع^(٣)
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حى فداعيه لأهلِ الأرضِ داعى
ومن لا يُعْتَبِطُ بسأمٍ ويَهْزَمَ وتسليهُ النونِ إلى انقطاع
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاع

ومنه أيضا :

وفي الشرِّ نجاةٌ حين لا يُنْجِيكَ إحسانُ^(٤)

ومنه أيضا :

ولم نَدْرِ إنْ جِئْنا عَنِ الموتِ جَيْفَةً كَمِ العمرُ باقى والمدى مُتَطَوِّلُ^(٥)

(١) الفضليات ٣٢

(٢) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ١ : ٩٦

(٣) أخو الخنع : الذليل . والبراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لا قلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(٤) للفند الزمانى ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ١ : ٢٦

(٥) لجعفر بن عليّة الحارثى ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ١ : ٤٨ . جئنا : عدلنا وانحرفنا .

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الْقَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا^(١)

ومنه أيضا :

فَلَا تَحْسَبِ أَنِّي تَخَشَعْتُ بَعْدَ كُمْ لَشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ^(٢)
وَلَا إِنَّ نَفْسِي يَزِدُّهَا وَعِيدَكُمْ وَلَا أَتَى بِالْمَشَى فِي الْقَيْدِ أُخْرَقُ

ومنه أيضا :

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِبًا عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبًا^(٣)
وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَذْمَهَا لِعِرْضِي مِنْ بَاقِي الْمَذْمَةِ حَاجِبًا
وَبَصُرْتُ عَيْنِي تِلَادِي إِذَا انْتَنَتْ يَمِينِي بِإِدْرَاكِ الَّذِي كُنْتُ طَالِبًا
فَإِنْ تَهَدَّمُوا بِالْقَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا تَرَاثُ كَرِيمٍ لَا يُبَالِي الْعَوَاقِبَا
أَخِي عَزَمَاتٍ لَا يُطِيعُ عَلَى الَّذِي يَهْمُ بِهِ مِنْ مُقْطِعِ الْأَمْرِ عَاتِبَا
إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزَمَهُ وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا
فَيَا لِرِزَامِ رَشَّحُوا بِي مُقَدَّمَا إِلَى الْمَوْتِ خَوَاضَا إِلَيْهِ السَّبَاسِبَا
إِذَا هُمْ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ هَائِبَا
وَلَمْ يَسْتَبْشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

ومنه أيضا :

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ وَإِمَّا دَمٌ، وَالْقَتْلُ بِالْحَرْ أَجْدَرُ^(٤)

(١) لجعفر بن هلبة أيضا ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٥٠

(٢) له أيضا ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٥٤

(٣) لعمد بن ناش ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٧٠

(٤) لتأبط شرا ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَارَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ^(١)
يَقْصُرُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفَهُ وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَّاءِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ كُلَى غَيْرِ الشُّيُوفِ تَسِيلُ

ومنه أيضا :

لَا يَزَكِّنُ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَعْيِ مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ^(٢)
فَلَقَدْ أَهَانِي لِلرَّمَاكِ دَرِيْثَةً مِنْ عَن يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحْدَرُ مِنْ دَمِي أَكْنَافَ مَرْجِي أَوْ عِنَانِ الْجَامِي
ثُمَّ انصرفتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصِبْ جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارِحِ الْإِقْدَامِ

ومنه أيضا :

وَإِنِّي لَدَى الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ بِإِقْدَامِ نَفْسٍ لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا^(٣)
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُتْلَفَ حَيَاةٌ لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا

كتب عبد الحميد بن يحيى عن مروان بن الحكم إلى أبي مسلم كتاباً ، حُمل على جملٍ
لِعَظْمِهِ وَكَثْرَتِهِ . وقيل : إنه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية ، وقد حُمل على جمل تعظيماً
لأمره ، وقال لمروان بن الحكم : إن قرأه خالي ^(٤) نَجِبَ قلبه ، وإن قرأه في ملاٍ من

(١) للسموئل ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١١١

(٢) لقطري بن الفجاءة ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١٣٠

(٣) لقيس بن الخطيم ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١٨١

(٤) نجب : جين

أصحابه ثبطهم وخذلهم ، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه ، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان :

مَحَا السِّيفُ أَسْطَارَ الْبَلَاغَةِ وَانْتَحَتْ إِلَيْكَ لِيُوثُ الْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ^(١)

فَإِنْ تَقْدُمُوا نَعْمَلْ سَيْوَفًا شَحِيدَةً يَهْوَنُ عَلَيْهَا الْعَتَبُ مِنْ كُلِّ عَاتِبٍ ^(٢)

ويقال : إن أول الكتاب كان : لو أراد الله بالنملة صلاحا ، لما أثبت لها جناحا .

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار ، وهو أول كتاب صدر عن أبي مسلم إلى نصر ،

وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة :

أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواما فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَازَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا

أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝ ^(٣)

فكما ورد الكتاب إلى نصر تعاظمه أمره ، وكسر له إحدى عينيه ، وقال : إن لهذا

الكتاب لأخوات ، وكتب إلى مروان يستصرخه ، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده

فقدما عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس .

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى:

سَأْمِضِي لِتِي لَا غَيْبَ فِيهَا وَإِنْ لَمْ أُسْتَفِذْ إِلَّا عَنْاءٌ ^(٤)

(١) انتحَتْ : قصدت .

(٢) شحيدة : منونة .

(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) ديوانه لوجه ٧٥ - ٧٦ .

وَأَطْلُبُ غَايَةً إِنْ طَوَّحْتَ بِي أَصَابَتْ بِي الْحِمَامَ أَوِ الْعَلَاءَ
نَمَّا بِي مِنْ أَبَاةِ الضِّمِّ أَبِ^(١) أَفَاضَ عَلَى تِلْكَ الْكِبْرِيَاءِ
وَمِنَّا كُلِّ أَغْلَبَ مُسْتَمِيتٍ إِذَا أَنْتَ لَدَدْتَهُ بِالذَّلِّ قَاءَ^(٢)
إِذَا مَا ضِمِّ نَمَّرَ صَفْحَتَيْهِ وَقَامَ عَلَى بَرَائِنِهِ إِبَاءَ^(٣)
وَنَابِي أَنْ يُنَالِ النِّصْفَ مِنَّا وَأَنْ نُعْطَى مِقَارِعَنَا السَّوَاءَ
وَلَوْ كَانَ الْعِدَاءُ يَسُوغُ فِينَا لَمَّا تُنْمَا الْوَرَى إِلَّا الْعَتْدَاءُ

وله :

سَيُعْطِيكَ الْمِهْنَدُ مَا تَنَى وَيُعْطِيكَ الْمُتَقَفُ مَا تَشَاءُ^(٤)
وَمَا يَنْجِي مِنَ الْغَمَرَاتِ إِلَّا طِعَانٌ أَوْ ضِرَابٌ أَوْ رِمَاءُ

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنيّة ، عبدُ الله بن الزبير ، تفرّق عنه لما خار به الحجاج بمكة ، وحضره في الحرم - عامّة أصحابه ، وخرج كثير منهم إلى الحجاج في الأمان ؛ حتى حمزة وخبيب ابناه ، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكانت قد كُفّت بصرها ، وهي عجوز كبيرة ، فقال لها : خذاني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا من ليس عنده من الدّفع أكثر من ساعة ، والقوم يُعطونني من الدنيا ما سألتُ ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتِلَ أكثر أصحابك فلا تمكّن من رَقَبَتِكَ يتلاعب بها غلمانُ بني أميّة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلك

(١) الديوان : « تام » .

(٢) الأغلب : الشجاع ، وأصله في الأسد .

(٣) الصفحتان : جانباً العنق ، ونمرهما : جعلهما يشبهان صفحة النمر

(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلك مَنْ قَتَلَ معَكَ ، وإن كنت قاتلتَ على الحقِّ ، فما وُهمَ أصحابُكَ إلا ضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرارِ ، ولا أهلِ الدينِ . وكَم خلودك في الدنيا ! القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقبَّلَ رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزَّ وجلَّ أن تُستحلَّ محارمُهُ ، ولكنني أحببتُ أن أعلم رأيك ، فقد زِدْتَنِي بصيرةً ، فانظري يا أماء ، إني مقتول يومى هذا ، فلا يشتدُّ جزَّعُكَ ، وسلِّمى لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمَّد إتيان منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجرَّ في حكم الله ، ولم يظلم مسلماً ولا معاهداً ، ولا بلغنى ظلم عن عامل من عمالي فرضيتُ به بل أنكرته ، ولم يكن شيء عندى آثر من رضا الله ، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسى ، أنت أعلم بى ؛ ولكننى أقوله تعزيةً لأمى لتسلو عني .

قالت : إني لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً إن تقدمتنى ؛ فأخرج لأنظرَ إلى ماذا يصير أمرك ؟ فقال : جزاك الله خيراً يا أمى ، فلا تدعى الدعاء لى حياً وميتاً .

قالت : لا أدعه أبداً ، فمن قَتَلَ على باطلٍ فقد قتلَ على حق ، ثم قالت : اللهم ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجر مكة والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ؛ اللهم إني قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأثبني عليه ثواب الصابرين .

وقد روى فى قصة عبد الله مع أمه أسماء رواية أخرى ، أنه لما دخل عليها وعليه الدرع والمِفر - وهى عياء لا تبصر - وقف فسلم ، ثم دنا فتناول يدها فقبلها ، قالت : هذا وداع فلا تبعد ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودّعاً ، إني لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى يا أمى أنى إذا قتلْتُ فإنما أنا لِحْم لا يضرُّنى ما صنع بى ، فقالت : صدقت يا بنى ! أقيم على بصيرتك ، ولا تمكِّن ابن أبى عقيل منك ، ادنُ منى لأودعك ، فدنا منها فقبلته

وعانقته ، فوجدت مسّ الدّرع ، فقالت : ما هذا صنع من يريد ما تريد ؟ فقال : إنما لبسته لأشدّ منك ، قالت : إنه لا يشدّ مني ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إني إذا أعرفُ يَوْمِي أصبرُ إذْ بعضهم يعرف ثم ينكرُ

وأقام أهل الشام على كل باب من أبواب مكة رجالا وقائدا ، فكان لأهل حص الباب الذي يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بني شيبه ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب جحج ، ولأهل قنسرين باب بني سهيم . وخرج ابن الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لا يقدم عليه الرجال ، وأرسلت إليه زوجته : أخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

فلما كان الليل ، قام يصلي إلى قريب السحر ثم أغنى محتبيا بمائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلى ، وقرأ ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، ثم قال بعد انقضاء صلاته : مَنْ كَانَ عَنِّي سائلا فإني في الرَّعِيلِ الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مَرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمًا^(١)

ثم حمل حتى بلغ الحجون ، فرمى بأجرة ، فأصابت وجهه فدَمِيَ ، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَفْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا^(١)

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيا فمهم حتى سقط : وجاء الحجاج

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ما ولدت النساء أذكرك من هذا !
وبعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ثم حمل إلى عبد الملك .

أبو الطيب المتنبي :

أطاعينُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وحيداً وما قولِي كَذْباً وَمَعِيَ الصَّبْرُ^(١)
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي وَمَا ثَبَّتَتْ إِلَّا وَفَى نَفْسَهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تقولُ أَمَاتَ الموتُ أم ذِعِرَ الذُّعْرُ
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَبَى كَأَنِّي لِي سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرُ^(٢)
ذَرْتُ النَّفْسَ تَأْخُذُ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ففَتَرِقُ جَارَانِ دَارُهَا عُمْرُ
وَلَا نَحْسِنُ الْمَجْدَ زِقاً وَقَيْنَةً فَاَلْجُدْ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ^(٣)
وَتَضْرِبُ هَامَاتِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تَرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ الشُّودُ وَالْمَسْكِرُ الْمَجْرُ^(٤)
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلَ تَمَعُ الْمَرْءِ أَنْمَلُهُ الْقَشْرُ

وقال ابن حيوس :

ولستُ كَمَنْ أَخْنَى عَلَيْهِ زَمَانُهُ فَظَلَّ عَلَى أَحْدَائِهِ يَتَعَبُّ^(٥)
تَلَذُّهُ الشُّكُوى وَإِنْ لَمْ يُفِدْ بِهَا صَلاحاً كما يَلْتَذُّ بِالْحَكِّ أَجْرَبُ
وَلَكِنِّي أَحْيَى ذِمَارِي بِعِزْمَةٍ تَنُوبُ مِنْابِ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مَقْضَبُ^(٦)

(١) ديوانه ١ : ١٤٨

(٢) في الديوان : « إقدام الآتي » ، والآتي : السبل الذي لا يردده شيء .

(٣) أبقية : اللقبة . والزق : طرف الحجر . والفتكة البكر : التي لم يسبق إلى مثلها .

(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهي النفرة العظيمة . والمجر : الجيش العظيم .

(٥) ديوانه ١ : ٣٥ .

(٦) للفضب : السيف القاطع .

وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمه الظبا ويُنْطَمُ فيه مِنْ قَنَا الْخَطِّ أَكْمَبُ^(١)
وله أيضا :

أَخَقَّ الْمَتَرَفُ الْجَنُوحُ إِلَى الْخَفَضِ وَفَارَ الْخَاطِرُ الْمَقْدَامُ^(٢)
وَإِذَا مَا السَّيُوفُ لَمْ تَشْهَدْ الْحَرْبَ فَسَيَّانٍ صَارَمٌ وَكَهَامٌ

وَمَنْ تَقِيلُ مَذَاهِبَ الْأَسْلَافِ فِي إِبَاءِ الضِّيمِ وَكَرَاهِيَةِ الذَّلِّ ، وَاخْتَارَ الْقَتْلَ عَلَى ذَلِكَ
وَأَنْ يَمُوتَ كَرِيماً ؛ أَبُو الْحُسَيْنِ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
أُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ ، وَكَانَ السَّبَبُ فِي خُرُوجِهِ وَخَلْعِهِ طَاعَةَ بَنِي مُرْوَانَ ، أَنَّهُ كَانَ يَخَاصِمُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ
حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صَدَقَاتِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهَذَا
يَخَاصِمُ عَنْ بَنِي حُسَيْنٍ ، وَهَذَا عَنْ بَنِي حَسَنِ ؛ فَتَنَازَعَا يَوْمًا عِنْدَ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ
الْحَارِثِ بْنِ الْحَكَمِ أَمِيرِ الْمَدِينَةِ ، فَأَغْلَظَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ ، فَسَرَّ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ
بِذَلِكَ ، وَأَعْجَبَهُ سَبَابُهُمَا ، وَقَالَ لَهَا حِينَ سَكَنَّا : أَغْدُوا عَلَيَّ ، فَلَسْتُ بِابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِنْ
لَمْ أَفْصِلْ بَيْنَكُمَا غَدًا ، فَبَاتَتِ الْمَدِينَةُ تَغْلِي كَالْمَرْجِلِ ، فَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ : قَالَ زَيْدُ كَذَا ،
وَقَائِلٍ يَقُولُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ كَذَا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَلَسَ خَالِدُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَجَمَعَ النَّاسَ ؛ فَمِنْ
بَيْنِ شَامِتٍ وَمَغْمُومٍ ، وَدَعَا بِهِمَا وَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَتَشَاتَمَا ، فَذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ يَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ زَيْدُ :
لَا تَعْجَلْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، أَعْتَقَ زَيْدٌ مَا يَمْلِكُ إِنْ خَاصَمَكَ إِلَى خَالِدٍ أَبَدًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى خَالِدٍ ،
فَقَالَ لَهُ : أَجَمَعْتَ ذُرِّيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَمْرِ مَا كَانَ يَجْمَعُهُمْ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ
وَلَا عَمْرٌ ، فَقَالَ خَالِدٌ : أَمَا لِهَذَا السَّفِيهِ أَحَدٌ يَكَلِّمُهُ !

فَتَكَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ آلِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ ، فَقَالَ : يَا بَنِي أَبِي تَرَابٍ ، وَيَا بَنِي

(١) الديوان : « تسم جسمه » .

(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦ .

حسين السفيه ! أما ترعى عليك لوالٍ حقاً ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطاني ، فإننا لانجيب مثلك ، فقال الأنصاري : ولم ترغبُ عني ! فوالله إني خيرٌ منك ، وأبي خير من أهلك ، وأمي خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبت أيها القحطاني ، والله لهوٌ خيرٌ منك نفساً وأباً وأماً ومُحْتَدّاً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفاً من الحصا ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالنّا على هذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضاً ، وشخص من فوره إلى هشام ابن عبد الملك ، فجعل هشامٌ لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص ، وكلّما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها : ارجع إلى أرضك ، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبداً ، ثم أذن له بعد حبسٍ طويل وهشام في علية له ، ففرق زيد إليها ، وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ، ويسمع ما يقول . فصعد زيد - وكان بادناً - فوقف في بعض الدرجات ، فسمعه الخادم ، وهو يقول : ما أحب الحياة إلا من ذل ! فأخبر الخادم هشاماً بذلك ، فلمّا قعد زيد بين يدي هشام وحدثه حلف له على شيء ، فقال هشام : لا أصدقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه . قال له هشام : إنه بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك ! لأنك ابنُ أمة ، فقال زيد : إن لك جواباً ، قال : تسكّم ، قال : إنه ليس أحدٌ أولى بالله ، ولا أرفع درجة عنده من نبي ابتعثه ؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم ، وهو ابن أمة ، قد اختاره الله لنبوته ، وأخرج منه خير البشر ، فقال هشام : فما يصنع أخوك البقرة ! فغضب زيد ، حتّى كاد يخرج من إهابه ، ثم قال : سمّا رسول الله صلى الله عليه وآله الباقِر ، وتسميه أنت البقرة ! لشدّما اختلفنا ! لتخالفنا في الآخرة ، كما خالفنا في الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خُذُوا بيد هذا الأحمق المائت ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احمِلُوا هذا الخائن الأهلج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتني إليه لا أجمع أنا وأنت حَيَيْن ، ولِمَيُوتَنَّ الأهلج مِنَّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسِّرونه حتى طردوه عن حدود الشام ، فلما فارقه عدل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وباع لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي ، فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ . وخذل أهل الكوفة زيدا ، وتحلف معه تمن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهاداً عظيماً ، حتى أتاها سهم غرب^(١) ، فأصاب جانب جَبْهَتِهِ اليُسرى ، فثبت في دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

عَفَّ محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيدا لما خرج ، وحذره القتل ، وقال له : إنَّ أهل العراق خَذَلُوا أباك علياً وحسناً وحسيناً عليهم السلام ؛ وإنك مقتول ، وإنهم خاذلوك ، فلم يُبْنِ ذلك عَزْمُهُ وتمثل :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْخُتُوفُ كَأَنِّي	أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْخُتُوفِ بِمَعَزِلٍ ^(٢)
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ	لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَآكَ الْمَنَهْلِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تَمَثَّلَ مُثَلَّتْ	مِثْلِي ، إِذَا نَزَلُوا بِضَيْقِ الْمَنَزِلِ ^(٣)
فَأَتَنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكَ وَاعْلَمِي	أَنِّي أَمْرٌ سَامُوتُ إِنَّ لَمْ أَقْتَلِ ^(٤)

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لا يدري راميهِ
 (٢) لعنزة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .
 (٣) في الديوان : « ضنك المنزل »
 (٤) اتني حيائك : الزميه

العلوى البصرى صاحب الزنج يقول :

وَإِذَا تُنَازَعُنِي أَقُولُ لَهَا قَرِي
مَوْتُ الْمُلُوكِ عَلَى صُعُودِ الْمُنْبَرِ
مَا قَدْ قَضَى سَيَكُونُ فَاصْطَبِرْ لِه
وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرْ

وقال أيضاً :

إِنِّي وَقَوِي فِي أَنْسَابِ قَوْمِهِمْ كَسَجْدِ الْخَلِيفِ فِي بُحْبُوحَةِ الْخَلِيفِ
مَا عُلِقَ السِّيفُ مِنْ بَابِنِ عَاشِرَةٍ إِلَّا وَعِزَّتُهُ أَمْضَى مِنَ السِّيفِ

بعض الطالبين :

وإِنَّا لَتُصْبِحُ أَسِيفَانَا إِذَا مَا انْتَضَيْنَ لِيَوْمِ سَفُوكِ
مَنَابِرُهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ وَأَعْمَادُهُنَّ رُمُوسُ الْمُلُوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُمُ الْأَسْوَدُ لَدَى الْعَرَبِ بَسَالَةٌ وَمِنْ الْخُشُوعِ كَأَنَّهُمْ أَجْبَارُ
يَمْضُونَ قَدْ كَسَرُوا الْجُفُونَ إِلَى اللَّهِ مُتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمْ اسْتِبْشَارُ
فَكَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهُمْ أَحِبَابُهُمْ فَرَحًا إِذَا خَطَرَ الْقَنَاءُ الْخَطَارُ
يَرِدُونَ حَوَامَاتِ الْحِمَامِ وَإِنَّهَا تَأَلَّهُ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ لَصِفَارُ
وَلَقَدْ مَضَوْا وَأَنَا الْحَبِيبُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لَدَى أَحَبَّةٍ أَبْرَارُ
قَدَّرَ يَخْلِفَنِي وَيُنْصِيهِمْ بِهِ يَاهِلَفَ كَيْفَ يَفُوتَنِي الْمَقْدَارُ !

وفي الحديث المرفوع « خُلِقَانِ يَجِبُهُمَا اللَّهُ : الشجاعة والسخاء » .

كان بشر بن العتيم من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل على عليه السلام

ويقول : كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه برى القولُ بالتفضيلُ إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفي كثير من البصريين .

دخل النضر بن راشد العبدى على امرأته في حرب الترك بخراسان في ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرى في خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أتيتى في ليد قتيلاً مضرّجاً بالدماء ؟ فشقت جيبها ، ودعت بالويل ، فقال : حسبك ! لو أعولت على كل أنثى لعصبتها شوقاً إلى الجنة . ثم خرج فقاتل حتى تحل وحمل إلى امرأته في ليد ودمه يقطر من خلاله .

قال أبو الطيب المتنبي :

إِذَا غَامَرْتُ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ	فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ ^(١)
فَطَعُمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ	كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ
يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْجُبْنَ حَزْمٌ	وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّثِيمِ
وَكُلَّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُفْنِي	وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ

وقال :

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْتَرُ الْعُمَرَ قَاعِدًا فَمَنْ وَأَطْلَبِ الشَّيْءَ الَّذِي يَبْتَرُ الْعُمَرَ ^(٢)

وقال :

أَهْمُ بَشَى وَاللَّيَالَى كَأَنَّهَا	تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ ^(٣)
وَحِيداً مِنَ الْخِلَآنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

(١) ديوانه ٤ : ١١٩

(٢) ديوانه ٢ : ١١٤

(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبي مسلم في أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ،
أو تنتظر نزول الوحي ! قال : لا ، ولكن لي همة عالية ، ونفس تتطلع إلى معالي الأمور ،
مع عيش كعيش الهمج والرعاع ، وحال متناهية في الاتضاع . قيل : فما الذي يشفي علتك ،
ويُروى غلتك ؟ قال : الملك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن الملك لا يطلب هكذا .
قيل : فما تصنع وأنت تذوب حسراً ، وتموت كماً ؟ قال : سأجعل بعض عقلي جهلاً ،
وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين
تدبير ضدين ، فإن الخمول أخو المدم ، والشهرة أخت الكون .

قال ابن حيوس :

أَمْوَاتُهُمْ بِالذِّكْرِ كَالْأَحْيَاءِ	وَلِحَيِّهِمْ فَضْلٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ (١)
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ الْمَرْوَةِ وَامْتَطَوْا	بِالْبَاسِ ظَهَرَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ
وَالْعِزَّةُ لَا يَتَّبِقُ لِمَعْرُودٍ	أَنْ يَكْشِفَ الْغَمَاءُ بِالْغَمَاءِ
لَا تَحْسَبِ الضَّرَاءُ ضَرَاءً إِذَا	أَفْضَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَى السَّرَاءِ

وقال :

وهي الرياسة لا تبوحُ بسرِّها	إِلَّا لِأَرْوَعٍ لَا يُبَاحُ ذِمَارُهُ (٢)
يَحْمِي حِمَاهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ	وَتَذُودُ عَنْهُ يَمِينُهُ وَيسَارُهُ
لَا الْعِذْلَ نَاهِيهِ، وَلَا الْحِرْصَ الَّذِي	أَمَرَ النَّفُوسَ بِشُحِّهَا أَمَارُهُ
فليعلم الساعي ليلبلغ ذا المدى	إِنَّ الطَّرِيقَ كَثِيرَةٌ أخطارُهُ

(١) ديوانه ١٢: ١٩ -

(٢) ديوانه ١: ٢٩٨ - ٢٩٩

كان ثابت بن قُطْنَة في خيل عبد الله بن سِطَام في فتح شكند من بلاد الترك في أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدَّت شوكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خلق ، فقال ثابت : والله لا ينظرُ إلىَّ بنو أميةَ غداً مشدوداً في الحديد ، أطلبُ الفداء ؛ اللهم إن كنتُ ضيف ابنِ سِطَام البارحة ، فاجعلني ضيفك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتهم الترك ، فرجع أصحابه وثبت هو ، فرمى برذونه فشبّه ، وضربه فأقدم ، فصريع ثابت وارثت ، فقال : اللهم إنك استجبتَ دعوتي ، وأنا الآن ضيفك ، فاجعل قرأى الجنة . فنزل تركي فأجهز عليه .

قال يزيد بن المهلب لابنه خالد ، وقد أمره على جيش في حرب جرجان : يا بني ، إن غلبتَ على الحياة فلا تُغلبَنَّ على الموت ، وإياك أن أراك غداً عندى مهزوما !
عن النبي صلى الله عليه وآله : « الخيرُ في السَّيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف » ، كما يقال : المنية ولا الدنيا ، والنار ولا العار ، والسيف ولا الحيف .
قال سيفُ بن ذي يزنَ لأنوشِروان حين أعانه بوهرز الديلمي ومن معه : أيها الملك ، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً ؟ فقال : يا أعرابي ، كثيرُ الخطب يكفيه قليل النار .

لما حبسَ مروان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح ، وأخوه أبو جعفر ، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علي بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحميمية من أرض السَّراة ، يطلبون الكوفة ، وقد كان داود بن علي بن عبد الله بن العباس وابنه موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان النشام ، فتلقاها أبو العباس وأهل بيته بدومة الجندل ، فسألهم داود عن

خروجهم ، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليظهرُوا بها ، ويدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس ، فقال : يا أبا العباس ، يظهر أمرُك الآن بالكوفة ، ومروان بن محمد شيخ بنى أمية بحرَّان مُطَّلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعراق في فرسان العرب ، فقال : يا عمَّ مَنْ أَحَبَّ الحياة ذلَّ ، ثم تمثَّل بقول الأعشى :

فما ميتة إن مِتُّها غَيْرُ عاجِزٍ بعاري إذا ما غالتِ النَّفسُ غَوْلَهَا^(١)

فقال داود لابنه موسى : صدق ابن عمك ، ارجع بنا معه ، فإما أن نهلك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحَمِيمة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا ، لعظيمة همهم ، كبيرة نفوسهم ، شديدة قلوبهم .

أبو الطيب المتنبى :

وإذا كانتِ النَّفُوسُ كِبَاراً تَعَيَّتْ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ^(٢)

وله :

إلى أيِّ حينٍ أنتِ في زِي مُحَرِّمٍ وَحَتَّى مَتَى في شِقْوَةٍ وإِلَى كَمٍّ !^(٣)
وإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ الشُّيُوفِ مَكْرَمًا تَمُتْ وتَقاسى الذُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فَنَبْ وإِنَّمَا باللهِ وَثْبَةٌ مَاجِدٍ يَرى الموتَ في المِيجاجِ النَّحْلَ في الفَمِّ

(١) ديوانه ١١٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٥

(٣) ديوانه ٤ : ٣٣

وقال آخر :

إِنْ تَقْتُلُونِي فَأَجَالُ الرَّجَالِ كَمَا حَدَّثْتُ قَتْلَ وَمَا بِالْقَتْلِ مِنْ عَارٍ
وَإِنْ سَلِمْتُ لَوْ قَتَلَ بَعْدَهُ فَعَسَى وَكُلَّ شَيْءٍ إِلَى حَدٍّ وَمِقْدَارٍ

خطب الحجاج ، فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربى ، فقال :
أيها الأمير ، دَعْ ما يباعِدُهم منك ، إلى ما يقرِّبُهم إليك ، والتمس العافية مَن دونك تُعْطِها
مَن فوقك ، فلو أجبوك لأطاعوك ؛ إنهم ما شنوك بنسبك ولا لبأسك ، ولكن لا يقاعك
بعدَ وعيدِك ، ووعدِك بعدَ وعْدِك .

فقال الحجاج : ما أراى أردَ بنى اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف ، فقال جامع :
أيها الأمير ، إنَّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخيار ، فقال الحجاج : الخيار يومئذ لله ،
فقال : أجل ، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله ، فقال : يا هناه ، أيها فإنك من مُحارب ،
فقال جامع :

وَلِلْحَرْبِ سُمَيْنًا فَكُنَّا مُحَارِبًا إِذَا مَا أَلْقَنَّا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَهْمَرًا

ومن الشعر الجيد فى تحسين الإباء والحمة والتَّحَرُّض على النَّهْوض والحرب وطلب
الملك والرياسة ، قصيدة عُمارَة اليمنى شاعر المصريين فى فخر الدين تورانشاه بن أيوب ،
التي يغريه فيها بالنَّهْوض إلى اليمين ، والاستيلاء على مُلْكها ، وصادفت هذه القصيدة
محلاً قابلاً ، وملك تورانشاه اليمين بما هزَّت هذه القصيدة من عطفه ، وحركت من
عزمه ، وأولها :

الْعِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْعِلْمِ
 وَخَيْرٌ خَيْلِكَ إِنْ غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ
 إِنْ الْمَعَالِي عَرُوسٌ غَيْرُ وَاصِلَةٍ
 تَرَى مَسَامِيعَ فَخْرِ الدِّينِ تَسْمَعُ مَا
 فَإِنْ أَصَبْتُ فِي حِظِّ الْمَصِيبِ وَإِنْ
 كَمْ تَتْرِكُ الْبَيْضُ فِي الْأُجْفَانِ ظَامِئَةً
 وَمَقْلَةُ الْجَدِّ نَحْوِ الْعِزْمِ شَاخِصَةً
 فَعَمَّكَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ سَوَّامَهَا
 وَاخْلُقْ لِنَفْسِكَ أَمْرًا لَا تَضَافُ بِهِ
 وَانَّهُ الْمَشِيرِينَ إِنْ لَجَّتْ نَصِيحَتُهُمْ
 وَاعِزِّمْ وَصِّمَّ فَقَدْ طَالَتْ وَقَدْ سَمَّجَتْ
 فَرَبِّ أَمْرِ يَهَابُ النَّاسُ غَايَتَهُ
 فَكَيْفَ إِنْ نَهَضْتَ فِيمَا هَمَّتْ بِهِ
 لَا يَدْرِكُ الْجَدَّ إِلَّا كُلُّ مُقْتَحِمٍ
 لَا يَنْقُضُ الْخَطْوَةَ الْأُولَى بِنَائِيَةٍ
 كَأَنَّ السَّيْفَ أَفْتَاهُ بِقَتْلِهِمْ
 وَلَمْ يَرَاؤُوا لِعُمَانٍ وَلَا عَمْرِ
 فَمَا تَرَوْمْ سَوَى فَتَحٍ صَوَارِمُهُ
 حَتَّى كَانَ لِسَانُ السَّيْفِ فِي يَدِهِ

وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَفْنِي عَنِ الْقَلَمِ (١)
 عَزَمٌ يَفْرَقُ بَيْنَ السَّاقِ وَالْقَدَمِ
 مَا لَمْ تَخْلُقْ رِدَائِيهَا بِنَضْحِ دَمٍ
 أَمْلَأَهُ خَاطِرُ أَفْكَارِي عَلَى قَلْبِي
 أَخْطَأْتُ قَصْدَكَ فَاعْذِرْ نِي وَلَا تَلُمْ
 إِلَى الْمَوَارِدِ فِي الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ
 فَاتْرَكَ قَعُودَكَ عَنْ إِدْرَاكِهَا وَقُمِ
 مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى مِصْرٍ بِلا سَامِ
 إِلَى سَوَاكُ، وَأَوْرِيَ النَّارَ فِي الْعِلْمِ
 أَوَّلًا، فَأَنْعَمَ عَلَى الْعُمَيَّانِ بِالْقَمَمِ
 قَضِيَةٌ لَفْظَتْهَا أَلْسُنُ الْأُمَمِ
 وَالْأُمَرُ أَهْوَنُ فِيهِ مِنْ يَدِ لِقَمِ
 أَسَدٍ تَسِيرُ مِنَ الْخَطَايَا فِي أَجَمِ
 فِي مَوْجٍ مُلْتَطِمٍ أَوْ فَوْجٍ مُضْطَرِمِ
 وَلَا يَنْفَكُ فِي الْعُقْبَى مِنَ النَّدَمِ
 فِي فَتْحِ مَكَّةَ حَلَّ الْقَتْلِ فِي الْحَرَمِ
 وَلَا الْحُسَيْنِ ذِمَامَ الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ
 يُضْحَكُنْ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَابِسُ الْبُهِمِ
 يَرُوي الشَّرِيعَةَ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته فيما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى إلى أن صار طالعاً من الكواكب بالأنفاس والكظم
وكان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن يدعو سيّد الأمم

— كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدس على الأديان بسعى البشر ؛ بل بالتأييد الإلهي ،

والسر الرباني ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمل له .

والبدْرُ بيدٌ وهلالاً ثم يكشف بالأنوارِ ماسترته شملة الظلم
والغيثُ فهو كما قد قيل أوله قطرٌ وبدء خراب السد بالعرم
تنمو قوى الشئ بالتدريج إن رزقت لظى ويقوى شرارُ النار بالضرَم
حاسبٌ ضميرك عن رأى أذاك وقل نصيحة ورَدَتْ من غير مُهمم
أقسمت ما أنت بمنّ جلّ همته مارق من نعم أورق من نعم
وإنما أنت مرجوٌّ لواحدة بنى بها الدهر تجداً غير مُهدم
كأننى بالليلي وهى هاتفة قد صمّ سمع رجال دونهَا وعي
وبالعلا كلا لا فتك قائله أهلا بمنشِيرِ آمالي من الرّمم

ومن أباة الضيم الذين اختاروا القتل على الأسر ، والموت على الدنيا ، مُضْعَب بن الزبير ، كان أميرَ العراقيين من قبل عبد الله بن الزبير ، وكان قد كسّر جيوش عبد الملك مرارا ، وأعياءُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ، فليَم في ذلك ، وقيل له : إنك تفرّ بنفسك وخلافتك ، فقال : إنه لا يقوم لحرب مُضْعَبٍ غيرى ؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقوم به شجاع ذو رأى ، وربما بعثت شجاعا ولا رأى له ، أو ذا رأى ولا شجاعة عنده ، وأنا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ؛ فلما أجمع على الخروج إلى حرب مُضْعَب ، جاءته

امراته عائكة بنت يزيد بن معاوية ، فالتزمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواريتها حولها ، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبي جُمة^(١) ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إِذَا هُمْ بِالْأَعْدَاءِ لَمْ يَثْنِ عَزْمُهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا عَرَاها قَطِينُهَا

فسار عبد الملك حتى إذا كان بمسكن من أرض العراق ، وقد دنا منه عسكر مصعب ، تقاعد بمصعب أصحابه وقواده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحق بمكة فأنج بنفسك ، وأخبر عمك عبد الله بما صنع أهل العراق بي ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال : لا تتحدث نساء قريش أتى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار ، ولا عار فى القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتل . وخفّ مَنْ يحامى عن مصعب من أهل العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية العراقيين أبدا مادام حيا ، وألنى ألف درهم صلة ، فأبى ، وقال : إن مثلى لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالبا أو مقتولا ، فشدّ عليه أهل الشام ورموه بالنبل فأنخنوه ، وطعنه زائدة ابن قيس بن قدامة السعدى ، ونادى : يا لثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُلَّ رأس مصعب إلى عبد الملك ، بكى وقال : لقد كان أحبّ الناس إلىّ وأشدّهم مودة لى ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سَكينة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهى بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزاً أن أبيتَ وبيننَا حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنِّى عَلَى عَشْرِ

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمة .

وأبكاهما والله للعين فاعلمى إذا ازددت مثلها فصرت على شهر
وانكى لقلبي منهما اليوم أننى أخاف بالآ نلتقى آخر الدهر
ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدت معه حرب عبد الملك ، فدخل عليها يوم قُتل ،
وقد نزع ثيابه ثم لبس غلالة ، وتوشح بثوب واحد ، وهو محتضن سيفه ، فعلت أنه غير
راجع ، فصاحت : واحزنه عليك يا مصعب ! فالتفت إليها ، وقال : إن كل هذا فى
قلبك ! قالت : وما أخفى أكثر ! قال : لو كنت أعلم هذا لكان لى ولك شأن ، ثم
خرج فلم يرجع .

فقال عبد الملك يوما جلسائه: مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا : قطرى ، شبيب ، فلان ، وفلان ،
قال عبد الملك : بل رجل جمع بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمة الحميد
بنت عبد الله بن عامر بن كريز ، وقلابة ابنة ريان بن أنيف الكلبي سيد العرب ، وولى
العراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأعطى الأمان على ذلك كله وعلى
ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفه إلى الموت حتى قُتل . ذاك مصعب ابن الزبير ، لا مَنْ
قطع الجسور مرة هاهنا ومرة هاهنا !

سُئِلَ سالم بن عبد الله بن عمر ، أىّ ابني الزبير أشجع ؟ فقال : كلاهما جاء الموت ،
وهو ينظر إليه .

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك أنشد :

لقد أزدى الفوارس يوم حسى غلاماً غير مَناع المتاع^(١)
ولا فرح بخير إن أتاه ولا هلع من الحدّثان لآع
ولا وقافة والخيل تزدى ولا خال كأنبوب اليراع

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٥ إلى طفيل الفنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدِمْتُ عَلَى أَلَا أكونَ لِمَا حَلَّتْ إِلَى عبد الملك رأسَ مصعب فسَجَدَ قَتْلُهُ فِي سَجْدَتِهِ ، فَأَكونَ قَدْ قَتَلْتُ مَلِكِي العرب في يوم واحد .

قال رجل لعبد الله بن ظبيان : بماذا تَحْتَجُّ عند الله عز وجل غداً ، وقد قَتَلْتَ مصعباً؟ قال : إن تَرُكْتُ أَحتَجُّ كُنتُ أَخطب من صمصمة بن صوحان ! كان مصعب لِمَا خَرَجَ إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن علي عليه السلام ، وكيف كان قتله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يَحْدِثُ عن ذلك ، فقال متمثلاً بقول سليمان بن قتة :

وإنَّ الأَوَّلَى بِالطَّفِّ من آل هاشمٍ تَأَسَّوْا فَسَنُؤا لِلْكَرَامِ النَّاسِيَا^(١)
قال عروة : فعلت أن مصعباً لا يَفِرَّ .

لما كان يوم السَّبْخَةِ ، وعسكر الحجاج بإزاء شبيب ، قال له الناس : أيها الأمير ، لو تَنَحَّيْتَ عن هذه السَّبْخَةِ ، فإنها مننته الريح ! قال : مَا تَنَحُّونِي - والله - إليه أنتن ؛ وهل ترك مصعب لكريم مَفَرّاً ! ثم أنشد قول الكاحبة .

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَفْشَ الكَرِيهَةَ أَوْشَكَتْ حِبَالُ الهَوْنِي بِالْهَوَى أَنْ تَقَطَّعَا^(٢)

وروى أبو الفرج في كتاب ” الأغاني ” ،^(٣) خطبة عبد الله بن الزبير في قتل مُصْعَب برواية هي أَنَّمَا ذَكَرْنَاهُ نَحْنُ فِيمَا تَقْدَمُ ، قال : لَمَّا أَتَى خَبْرُ المِصْعَبِ إِلَى مَكَّةَ ، أَضْرَبَ عبد الله بن الزبير عن ذكره أياماً ؛ حتى تَحَدَّثَ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ مَكَّةَ فِي الطَّرِيقِ ، ثُمَّ صَعِدَ المنبر فجلس عليه مَلِيّاً لَا يَتَكَلَّمُ ، فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ؛ وَإِنْ السَّكَّابَةُ عَلَى وَجْهِهِ لِبَادِيَةٍ ؛ وَإِنْ

(١) اللسان ١٨ : ٣٧

(٢) الفضليات ٣٢

(٣) الأغاني ١٧ : ١٦٦ ، تاريخ الضبى ٧ : ١٩٠ ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف في الروايات

جبينه ليرشح عرقا، فقال واحد لآخر : ماله لا يتكلم ؟ أترأه يهابُ النطق ! فوالله إنه لخطيب !
فما ترأه يهاب ؟ قال : أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب ، فهو يقطع بذلك .
فابتدأ فقال : الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، ملك الدنيا والآخرة ، يعزّ مَنْ يشاء ،
ويذلّ مَنْ يشاء ؛ ألا إنه لا يذلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا ، ولا يعزّ مَنْ
كان الباطل معه ؛ وإن كان ذا عدد وكثرة . ثم قال : أأتانا خبرٌ من العراق ، بلد الغدر
والشقاق ، فساءنا وسرّنا ! أأتانا أن مُصعبا قتل رحمه الله ؛ فأما الذى أحزننا من ذلك
فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة ، يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى ذو الرأى والدين إلى
جميل الصبر . وأما الذى سرّنا منه ؛ فإن قتله كان له شهادة ؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله في
ذلك الخيرة . ألا إن أهل العراق باغوه بأقلّ الأثمان وأخسرها ، وأسلموه لإسلام النعم
الخطمة ^(١) فقتل ؛ وإن قُتل لقد قُتل أبوه وعمه وأخوه ^(٢) ، وكانوا الخيار الصالحين ؛
وإنا والله مانموت حتف آنا فنا ، مانموت إلا قتلا قتلا ، وقمصا ^(٣) قمصا ، بين قصد ^(٤)
الرماح ، وتحت ظلال السيوف ؛ ليس كما تموت بنو مروان ؛ والله ما قتل منهم رجل في
جاهلية ولا إسلام ؛ وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد
ملكه ، فإن تقبل الدنيا على لا آخذها أخذ اللئيم البطر ، وإن تدبر عني لا أبكي عليها
بكاء الخرف ^(٥) المهتر . ثم نزل .

(١) الخطمة ، من قولهم خضم البعير بالخطام إذا جمعه على أنفه ، والخطام : ما وضم على أنف البعير ليقبض به .
(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمل ، قتله عمرو بن جرموز في صلاته بوادى الساع . وعمه
عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتل يوم اليرموك . وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة .
(٣) القمص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قمصا ؛ أى أصابته ضربة أو رمية فمات في مكانه .
(٤) القمص : القطعة مما يكسر ، وجمعه قصد .
(٥) الخرف : من فسد عقله من الكبر ، وكذلك المهتر .

وقال الطرّماح بن حكيم ، وكان يرى رأى الخوارج :

وَإِنِّي لَمَقْتَادُ جَوَادِي فَقَازِفٌ بِهِ وَبِنَفْسِي الْيَوْمَ إِحْدَى الْمُتَالِفِ (١)
لَأَكْسِبَ مَالًا أَوْ أَوْدُبَ إِلَى غَنَى مِنْ اللَّهِ يَكْفِينِي عَذَابَ الْخِلَافِ (٢)
فَيَارِبْ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرْجَعٍ يُغْلَى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ (٣)
وَإَكُنْ قَبْرِي بَطْنُ شَبْرٍ مَقِيلُهُ بِجَوْ السَّمَاءِ فِي قُصُورٍ عَوَاكِفِ
وَأُمْسِي شَهِيدًا ثَلَوِيًّا فِي عِصَابَةِ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَانِفِ
فَوَارِسُ أَشْتَاتٍ يُوَلِّفُ بَيْنَهُمْ هُدَى اللَّهِ نَزَالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعشٍ حوله رجال ،
وعليه مطرف خز أخضر ، فسألت عنه فقليل : الطرماع ، فعلمت أن الله تعالى لم يستجب له .

وقال محمد بن هاني :

وَلَمْ أَجِدِ الْإِنْسَانَ إِلَّا ابْنَ سَفِيهِ فَمَنْ كَانَ أَسْعَى كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرًا (٤)
وَبَاهُتَةِ الْغُلِيَاءِ تَرْقَى إِلَى الْعَمَلَا فَمَنْ كَانَ أَعْلَى هِمَّةً كَانَ أَظْهَرًا
وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّمًا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرًا

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أَخَّرْتَهُ نَفْسُهُ مَاتَ عَاجِزًا وَمَنْ قَدَّمْتَهُ نَفْسُهُ مَاتَ سَيِّدًا (٥)

(١) ديوانه ١٥٥ والقود : تقيض السوق ؛ فهو من أمنم .

(٢) الخلائف : جمع خليفة ؛ وهو السلطان .

(٣) الشرجع : النعش . وفي الديوان : « إذا العرش إن حانت »

(٤) ديوانه ٣٦٢

(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَا مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي مَقُولٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ^(١)
وإِبَاءٌ مَحْلَقٌ بِي عَنْ الضَّئِيمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَخَشِيٌّ

أبو الطيب المتنبي :

تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَا أَحْبَبْتُهُ تَجِدِي مِثْلِي^(٢)
مَحَبًّا كُنِّي بِالْبَيْضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ^(٣)
وَبِالشَّمْرِ عَنْ سُمرِ الْقَنَا غَيْرَ أَنِّي جَنَاهَا أَحْبَائِي وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي
عَدِمْتُ قُوَادِمًا لَمْ يَبْتَ فِيهِ فَضْلَةٌ لَغَيْرِ ثَنَائِي الْغَرُّ وَالْحَدَقِ النَّجْلِ
تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بَدْءَ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ
ابن الهبارية : الهممُ العلية ، والمهَجُ الأبية ، تقربُ المنية ، منك أو الأمنية .

أبو تمام :

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إِذَا مَا بَطَفْنَ بِهِ إِلَى خُلُقٍ وَسَاعٍ^(٤)
يُنِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ يَهْسِمُ بِهَا عَدِيَّ بْنُ الرِّقَاعِ^(٥)
يَخُوضُ مَعَ السَّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّى لَتَحْسِبُهُ السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف في الرواية .

(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦

(٥) بشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع في حمار وأمان :

يَتَنَازَعَانِ مِنَ الْغُبَارِ مِلَاءَةً فِي الْأَرْضِ مَنْشُوهَا ، هَا نَسْجَاهَا
تَطْوِي إِذَا فَرَعَا بِلَادَا حَزَنَةً وَإِذَا أَصَابَا سَهْلَةً نَشَرَاهَا

فَلَبَّ الْقَزَمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْمًا بَأْنَ تَسْطِيعَ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ
فَلَمْ تَرْكَبْ كَنَاجِيَةَ الْمَهَارَى وَلَمْ تُرْكَبْ هُمُومَكَ كَالزَّمَاعِ
وله أيضا :

إِنْ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ الصَّفْحِ عَنْ النَّائِبَاتِ وَالْإِغْمَاضِ ^(١)
غُرْبَةً تُقْتَدَى بِغُرْبَةِ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ وَالْحَارِثِ بْنِ مِضَاضٍ ^(٢)
غَرَضِي نَكَبَتَيْنِ مَا فَتَلَا رَأَى يَا خُفَافَا عَلَيْهِ نَكْتُ انْتِقَاضِ
مَنْ أَبْنَى الْبُيُوتَ أَصْبَحَ فِي نَوَى بِمِنْ الْعَبَشِ لَيْسَ بِالْفَضْفَاضِ ^(٣)
صَلَتَانُ أَعْدَاؤُهُ حَيْثُ حَلُّوا فِي حَدِيثٍ مِنْ ذِكْرِهِ مُسْتَفَاضِ ^(٤)
وَالْفَتَى مَنْ تَعَرَّفَتْهُ اللَّيَالِي وَالْفَيَافَى ، كَالْحَيَّةِ النَّضْضِ ^(٥)
كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي فَتَكَّةٌ مِثْلُ فَتَكَةِ الْبَرَّاضِ ^(٦)
وله أيضا :

إِنْ تَرَيْنِي تَرَمَى حُسَامًا صَقِيلًا مَشْرِفِيًا مِنْ الشُّيُوفِ الْحِدَادِ ^(٧)
ثَانِيَ اللَّيْلِ ثَالِثَ الْبَيْدِ وَالسَّيِّ رِ نَدِيمَ النُّجُومِ تَرَبَّ الشُّهَادِ
أَخَذَ هَذَا اللَّفْظَ أَبُو عُبَادَةَ الْبَحْتِيُّ فَقَالَ :
يَا نَدِيمِي بِالسَّوَاجِرِ مِنْ شَمْسِ بْنِ عَمْرٍو وَبِحَبْرِ بْنِ عَتُودِ ^(٨)

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسي ؛ بعد حربه ذبيان تنقل في البلاد ؛ وفي آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابني بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمي ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، وقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القاتل .

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
(٣) يقال : أبى بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضي في أمره .

(٥) الحية النضاض : التي لا تستقر في مكان .

(٦) البراض بن قيس السكناني ، قتل عروة الرحال في غير حرب ، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة .

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفي الديوان : « ود بن معن » .

اطلبا ثالثاً سواى فأتى رابعُ العيس والدُّجى والبيدِ
لستُ بالعاجز الضعيف ولا القا ثل يوماً إن الغنى بالجدود
وإذا استصعبت مقادةُ امرٍ سهَّلتهُ أيدي المهاري القودِ

قال الرضى رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرجاء اليومَ شيئاً تَذِلُّ لَهُ الجاجمُ والرقابُ ^(١)
وَبَعْضُ العُدمِ مَأْتِرَةٌ وَفَخْرٌ وَبَعْضُ المَالِ مَنْقَصَةٌ وَعَابُ
بَنَانِي والعِنانُ إِذَا نَبَتَ بِي رَبًّا أَرْضٍ ، وَرَجُلِي والرُّكَّابُ
وَقَدْ عَرَفْتُ تَوَقُّلِي اللَّيَالِي كَمَا عَرَفْتُ تَوَقُّلِي الْعِقَابُ ^(٢)
لَا مَنَعَ جَانِبًا وَأُفِيدَ عِزًّا وَعِزُّ المَوْتِ مَاعِزُ الْجَنَابُ
إِذَا هَوُلُ دَعَاكَ فَلَا تَهَبُهُ فَلَمْ يَبْقَ الَّذِينَ أُبُوا وَهَابُوا
كَلِيبُ عَافَصَتُهُ يَدٌ وَأَوْدَى عُنَيْبَةُ يَوْمَ أَقْصَعَهُ ذُؤَابُ ^(٣)
سِوَا مَنْ أَقْلَ التُّرْبِ مِنَّا وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ التُّرَابُ
وَإِنَّ مُزَايِلَ العِيشِ اغْتِبَاطًا مُسَاوٍ لِلَّذِينَ بَقُوا وَشَابُوا
وَأَوَّلُنَا العَنَاءَ إِذَا طَلَعْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، وَآخِرُنَا الذَّهَابُ
إِلَى كَمْ ذَا التَّرْدَدِ فِي الْأَمَانِي وَكَمْ يُلَوِي بِنَاطِرِي السَّرَّابُ ١
وَلَا نَقَعُ يُسَارُ وَلَا قَتَامُ وَلَا طَفَنٌ يُسَبُّ وَلَا ضِرَابُ

(١) ديوانه لوحة ٧٩

(٢) التوقل : الصمود . والعقاب : جمع عقبة ؟ وهي المرتقى الصعب في الجبل ونحوه .

(٣) عافسته : صرخته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذي قتله . وأودى : هلك . وعنيبة هو ابن الحارث بن شهاب ؛ كان فارس بني تميم ، قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدي . وأقصه : قتله قتلا سريماً .

وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّدَةٌ النَّوَاصِي يَمْوجُ عَلَى شَكَائِمِهَا اللَّعَابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهَبِ الْحَوَاشِي يُصِيبُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأْخَطُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فَعَلَا إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلُ أَوْ خِطَابُ
وَأَخَذُهَا وَإِنْ رَغِمَتْ أَنْفُ مَغَالِبَةً وَإِنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

قعد سليمان بن عبد الملك يَغْرِضُ وَيَغْرِضُ ، فأقبل فتى من بنى عبس وَاسِمٌ ، فاعجبه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَغْرِضُ لمن دونه ، فلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا عدمت اسمك ، ولا شقي اسمٌ يوافق اسمك ! فأغرض ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربت به قطعت ، وإن أمرتني أطعت ، وسهّم في كنانتك ، أشتد إن أرسلت ، وأنفذ حيث وجهت . فقال له سليمان ، وهو يروّزه ^(١) ويختبره : ما قولك يا فتى ، لو لقيت عدوا ؟ قال : أقول : حسبي الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أكنت مكتفياً بهذا لو لقيت عدوك دون ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتني يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتكم ، ولو سألتني : ما أنت فاعل لأنبأتكم ؛ إنه لو كان ذلك لضربت بالسيف حتى يتعصف ؛ ولطعنت بالرمح حتى يتقصّف ، ولعلمت إن ألفت فإنهم يألمون ، ولرجوت من الله ما لا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه في العطاء بالأشراف ، وتمثل :

إِذَا مَا أَتَى اللَّهَ الْفَتَى ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَهْلِهِ كَلًّا فَقَدْ كَمَلَ الْفَتَى

السراحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاً » ، يقال في المثل : « لا تكن كلاً على
أهلك ، فتهلك » .

عدى بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارٌ^(١)

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَمَامُ فَإِنِّي سَأُكْرِِمُ نَفْسِي عَنْ مَقَالِ اللُّوْثِ^(٢)
وَأَلْبَسُهَا خَمْرًا تَضْفُو ذُبُولَهَا مِنْ الدَّمِ بُدْءًا عَنْ لِبَاسِ الْمَلَاوِمِ
فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ عَيْشَهُ عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رَفِيعِ الدَّعَائِمِ
فَطَارَ ذَمِيمًا قَدْ تَقَلَّدَ عَارَهَا بِشَرٍّ جَنَاحِ يَوْمَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ^(٣)
وَجَاءَهُمْ يَجْرِي الْبَرِيدُ بِرَأْسِهِ وَلَمْ يُفْنِ إِنْغَالٌ بِهِ فِي الْمَزَامِرِ
وَقَدْ حَاصَ مِنْ خَوْفِ الرَّدَى كُلِّ حَيْصَةٍ فَلَمْ يَنْجُ وَالْأَقْدَارُ ضَرْبَةٌ لَا زِمَ^(٤)
وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ بِهِ النُّلُّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الْكَارِمِ^(٥)
فَقَالَ وَقَدْ عَنِ الْفِرَارِ أَوْ الرَّدَى : لِحَا اللَّهِ أَخْزَى ذِكْرِهِ فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا غَمَرَاتُ الْمَوْتِ إِلَّا أَنْفَاسَةٌ وَلَا ذِي الْمَنَایَا غَيْرُ تَهْوِيمِ نَأْمِ

(١) شعراء النصرانية ٢٥٦

(٢) ديوانه لوحة ١١٠

(٣) وقعة دبر الجماجم ، كانت بين الحجاج الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بمقتل ابن الأشعث سنة ٨٣

(٤) حاس ، أى حاد وذهب بعيدا .

(٥) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك في

خبر مشهور سنة ١٠٢

رَأَى أَنْ هَذَا السَّيْفَ أَهْوَنُ نَحْمَلًا
وَمَا قَلَدَ الْبَيْضَ الْمُبَاتِرَ عُنُقَهُ
فَعَافَ الدُّنْيَا وَامْتَطَى الْمَوْتَ شَانِحًا
وَقَدْ حَلَقَتْ خَوْفَ الْهَوَانِ بِمُضْعَبٍ
حَتَّى حِينَ أُعْطُوهُ الْأَمَانَ فَعَافَهُ
وَفِي خِدْرِهِ غَرَاهُ مِنْ آلِ طَلْحَةَ
تُحِبُّ أَبَامُ الْحَيَاءِ وَإِنَّمَا
فَقَارَقَهَا وَالْمَلِكُ لَمَّا رَأَاهَا
وَلَمَّا الْإِلَاحَ الْخَوْفَزَانُ مِنَ الرَّدَى
وَعَادَرَهَا شَعَاءَ إِنَّ ذِكْرَتْ لَهُ
كَذَاكَ مَنِي بَعْدَ الْفِرَارِ أُمِّيَّةٌ
وَسَلَّ لَهُ سَلَّ الْحَسَامِ ابْنُ مَعْمَرٍ
يُرَدِّدُ ذِكْرِي كُلَّ نَجْدٍ وَغَايِرٍ
وَهَدَدَنِي الْأَعْدَاءُ فِي الْمَهْدِ لَمْ يَحْنِ
وَعِنْدِي يَوْمٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ
حَتَّى الْعِزُّ مَتَ لَا مِيتَةً مُسْتَكِينَةً
وَخَاطِرِي عَلَى الْجُلَى خِطَارَ ابْنِ حُرَّاقٍ

مِنَ الْعَارِ يَبْقَى وَنَسْمُهُ فِي الْخَاطِمِ
سِوَى الْخَوْفِ مِنْ تَقْلِيدِهَا بِالْأَدَاهِمِ
بِمَارٍ عِزٍّ لَا يَذُلُّ لَخَاطِمِ
قَوَادِمُ مَآبِءِ كَرَامِ الْقَادِمِ
وَخَيْرٌ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمِ
عَلَاقَةُ قَلْبٍ لِلنَّدِيمِ لِلْمُخَالِمِ^(١)
لَأَعَذَّبُ مِنْ طَعْمِ الْخُلُودِ لَطَاعِمِ
يَجْرَانِ إِذْلالِ النُّفُوسِ الْكَرَامِ
حَذَاهُ الْمَخَازِي رُمُحُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
مِنَ الْعَارِ طَاطَا رَأْسَ خَزْيَانَ وَاجِمِ
بِشَقِيقَةٍ لَوْ ثَاءَ مِنْ آلِ دَارِمِ
فَكَرَّ حَتَّى أَعْقَابِ نَابِ بَصَارِمِ
وَأَلْجَمَ خَوْفِي كُلَّ بَايَغٍ وَظَالِمِ
نُهُوضِي وَلَمْ تَقْطَعْ عُقُودُ نَمَائِمِ
بَدَا لَهُمَا لاسْتَضْفَرَا يَوْمَ وَاقِمِ
تُزِيلُ عَنِ الدُّنْيَا بِشَمِّ الْمَرَاغِمِ
وَإِنْ زَاخَمَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فَرَاغِمِ

(١) هي عائشة بنت طلحة ؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ ولما هلك تزوجها مصعب بن الزبير ؛ فقتل عنها ، والخلافة : المصادقة والمنازلة .

ومن أباة الضيم ومؤثرى الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام . لما أحاطت عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انج بنفسك ، فإن لك خيلاً مضرة^(١) ونجائب سابقة^(٢) ، فاقعد عليها ، والتحق بمكة أو باليمن . قال : إني إذا لعبد ! وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال : إذن يستعرض عيسى أهل المدينة بالسيف ، فيكون لهم كيوم الحرّة ، لا والله لا أحفظ نفسي بهلاك أهل المدينة ، بل أجعل دمي دون دمائهم . فبذل له عيسى الأمان على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونهّد^(٣) إلى الناس بسيفه ، لا يقاربه أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقى شيئاً ؛ وإن أشبه خلق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطلب . ورعى بالسهم ، ودّهمته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدار ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سيفه ففكسره ؛ فالزيدية تزعم أنه كان سيف رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب " مقاتل الطالبين " ، أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إني في هذا اليوم على قتال هؤلاء ، فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإني مقتول ، وإن زالت الشمس ولم تمطر السماء ، وهبت الرياح ، فإني أخضر بالقوم ، فأجّجى التناير ، وهبى هذه الكتب - يعنى كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق - فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطرحى هذه " كتب في التناير ، فإن قدرتم على بدنى

(١) ضم الحبل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها في الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً .

(٢) الخيل السوابق : المجلية في الجرى .

(٣) يقال نهّد لعدوه ؛ إذ رزق قتاله وصمدله .

فخذوه ، وإن لم تقدروا على رأسى فخذوا سائر بدنى فأتوا به ظلة بنى بليّة^(١) على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة ، وادفنونى فيها . فطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أن آية قتل النفس الزكية أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عائكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ؛ فلما مطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عائكة ، وأخذ جسده ، فحفر له حفيرة فى الموضع الذى حدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها ، فإذا فيها مكتوب : « هذا قبر الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام » ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام : رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع^(٢) .

وروى أبو الفرج ، قال : قدّم على المنصور قادم ، فقال : هرب محمد ! فقال له : كذبت ! إنا أهل البيت لا نفرّ .

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن الفضل بن أحمد الضبي ، قال^(٣) : كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندى بالبصرة ، وكنت أخرج وأتركه ، فقال لى : إذا خرجت ضاق صدرى ، فأخرج إلى شيتا من كتبك أتفرج به ، فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختار منها القصائد السبعين التى صدرت بها كتاب " الفضليات " ، ثم أتممت عليها باقى الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بالمرّبد ، مرّ بد سليمان بن على ، وقف عليهم ، وأنهم واستسقى ماء ، فأتى به فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

(١) مقاتل الطالبين : « بنى نبية » .

(٢) مقاتل الطالبين ٢٧١ - ٢٧٢

(٣) ورد الخبر مختصراً فى مقاتل الطالبين ٣٣٨ - ٣٣٩ .

وقال : هؤلاء والله مِنّا ، ونحن منهم ؛ لحنا ودننا ؛ ولكن آباءهم انتزوا على أمرنا ، وابتزوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهْلًا بَنَى عَمَّنَا ظَلَامَتَنَا إِنَّ بَنَى سَوْرَةَ مِنَ الْغَلَقِ^(١)
لِثَلَكُم نَحْمِلُ السُّيُوفَ وَلَا تُفَمِّرُ أَحْسَابُنَا مِنَ الرَّقَقِ
إِنِّي لِأَنْبِي إِذَا اتَّمَيْتُ إِلَى عَزِيٍّ عَزِيزٍ وَمَعَشَرٍ صُدُفٍ
بِيضٍ سِبَاطٍ كَأَنَّ أَغْيَنَهُمْ تُكْحَلُ يَوْمَ الْهَيَاجِ بِالْعَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأغلها ! فلنَ هي ؟ فقال : هذه يقولها ضرار ابن الخطاب الفهري يومَ عبر الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علي ابن أبي طالب يوم صفين والحسين يوم الطفّ ، وزيد بن علي يوم السَّبَخَةِ ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان ؛ فتطيرتُ له من تمثله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخرمى ، فلما قرب منها أتاه نعي أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجَرَضَ بريقه ، ثم أجهد باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجعل ما نقلته إليه من الآخرة خيرا مما نقلته عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثل :

أَبَا الْمُنَازِلِ يَا خَيْرَ الْفَوَارِسِ مَنْ يُفَجِّعُ بِمَثَلِكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ فُجِّعَا^(٢)
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ خَشِيتُهُمْ أَوْ آتَسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِهِمْ فَرَعَا
لَمْ يَقْتُلْكَ وَلَمْ أُسَلِّمْ أَخِي لَهُمْ حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعَا ، أَوْ نَمُوتَ مَعَا

قال المفضل : فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جرّعه ، فقال : إني والله في هذا ، كما قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ :

(١) من أبيات في حماسة ابن الكجري ١٦ ، والأغاني ١٠ : ٥ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .

(٢) الأبيات لرأسع بن خثرم يرثى هذبة ، الأغاني ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبْكِي أخاكَ وقد أرى مكانَ البُكا، لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ^(١)
لمقتلِ عبدِ اللهِ والهاكِ الَّذي على الشرفِ الأعلى قتيلِ أبي بكرٍ
وعبدِ يغوثِ أو نديميَ مالكٍ وجلَ مصاباً جثوُ قبرٍ على قبرٍ
فإنما تريننا لا تزال دماؤنا لدى وائرٍ يسعى بها آخرَ الدهرِ
فإنما للحمُ السَّيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلجِههُ طوراً، وليس بذي نُكْرٍ
بُغَارِ علينا وائرٍ فيُشتَفَى بنا إن أصبنا أو نُفِرُ على وئرٍ
بذلك قَمَمًا الدهرِ شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحنُ على شَطْرٍ

قال المفضل : ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد ، فتمثل إبراهيم عليه

السلام قوله :

إن يقتلونني لا تُصِبْ أرماحهم ثأري ويسعى القوم سعيًا جاهدًا
نبئت أن بني جَذيمة أجمعت أمرا تدبرهُ لتقتلَ خالدًا
أرْمى الطريق وإن رُصِدَتْ بضيقه وأنزلَ البطلَ الكميَّ الحارِدَ

فقلت له : مَنْ يقول هذا الشعر يا ابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر
ابن كلاب يوم شِعْب^(٢) جيلة ؛ وهذا اليوم الذي لقيت فيه قيس تميما . قال : وأقبلت عساكر
أبي جعفر ، فطمن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُبأشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر
منوط بك ! فقال : إليك يا أخا بني ضَبَّة ، فإنني لسكما قال عُوفٍ القوافي :

أَلَمْتُ سَعَادُ وإِلْمَامُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ وَأَحْالِمُهَا
مُحَجَّبَةٌ مِنْ بَنِي مَالِكٍ تَطَاوَلُ فِي الْمَجْدِ أَغْلَامُهَا

(١) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات .

(٢) لامر وحلفائهم من عيس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما . الأغاني ١٠ : ٣٣ (س-ي) .

وإِن لَنَا أَصْلَ جُرْثُومَةٍ تَرُدُّ الْحَوَادِثَ أَيُّهَا
تَرُدُّ الْكَتِيبَةَ مَفْلُوءَةً بِهَا أَقْنَهَا وَبِهَا ذَامُهَا
والتحمت الحرب واشتدت ، فقال : يا مفضل ، احكني بشيء ، فذكرت أبياتا لعوفٍ
القوافي لما كان ذكره هو من شعره ، فأنشدته :

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي فَزَارَةَ بَعْدَمَا أَجَدَّتْ لَسِيرٍ ، إِنَّمَا أَنْتَ ظَالِمٌ
أَبَى كُلُّ حُرٍّ أَنْ يَبِيتَ بَوْتَرِهِ وَتَمْنَعُ مِنْهُ النَّوْمَ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ
أَقُولُ لِفَتَيَانٍ كَرَامٍ تَرَوَّحُوا عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِهِنَّ الشَّكَاثِمُ
قِفُوا وَقِفَةً مَنْ يَحْيَى لَا يَخْزَ بَعْدَهَا وَمَنْ يُخْتَرَمُ لَا تَتَّبِعُهُ اللَّوَائِمُ
وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمْ لَتَسْلَمَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ سَالِمٌ

فقال : أعد ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فاتميت وقلت : أو غير ذلك ؟ فقال :
لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطى في ركبائه فقطعهما ، وحمل فغاب عني ؛ وأتاه سهم
عائر فقتله ؛ وكان آخر عهدي به عليه السلام .

قلت : في هذا الخبر ما يحتاج إلى تفسير ؛ أما قوله :

* إِنْ بِنَا سُوْرَةً مِنَ الْغَلَقِ *

فالغلق الضَّجَرُ وضيق الصدر والحدّة ، يقال : احتد فلان فنشب في حدّته وغلق .
والسُّوْرَة : الوثوب ، يقال : إن لغضبه لسورة ، وإنه لسوَّار ، أي وثَّاب معربد . وسورة
الشراب : وثوبه في الرأس ؛ وكذلك سورة السَّم ، وسورة السلطان : سطوته واعتداؤه .
وأما قوله : « لِمَثَلِكُمْ نَحْمِلُ السَّيُوفَ » ؛ فمعناه أن غيركم ليس بكف : لنا لنحمل له
السُّيُوفَ وإنما نحملها لكم ، لأنكم أكفأؤنا ، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة ؛ وإن
كانت أحسابنا واحدة ، وهي شريفة لامغمز فيها .

والرَّقَق ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

* لم تلق في عظمها وهناً وَلَا رَقَقاً *

وقوله :

* تُكْحَل يوم الهِجَاج بالعلَقِ *

فالعلَق الدم ؛ يريد أن عيونهم حُمِر لشدة الغيظ والغضب ؛ فكانها كُحِلَت بالدم .

وقوله : « لكن بنيت على الصبر » ، أى خلقت وبنيت بِنِيَّةٍ تقتضى الصبر . والشرف الأعلى : العالى ، وبنو أبى بكر بن كلاب ، من قَيْس عيلان ، ثم أحد بنى عامر بن صعصعة .
وأما قوله :

* إِنْ يَقْتُلُونِي لَا تُصِيب أَرْمَاحُهُمْ *

فمعناه أنهم إن قتلوني ثم حاولوا أن يصيبوا رجلاً آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيراً ؛ وأن يجعل دمه بواء لدمى ، وسَقُوا فى ذلك سَعِيّاً جاهداً ، فإنهم لم يجدوا ولم يقدرُوا عليه .
وقوله : « أرمى الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضيق ، ولو جمل عَلَى فيه الرِّصْد لقتلى .

والحارِد : المنفرد فى شجاعته ، الذى لا مثل له .

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة على عليه بعد ذلك]

فأما حديث الماء وغلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان ^(١) أبو الأعور السلمي على مقدمة معاوية ، وكان قد نأوش مقدمة

على عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سبق من هذا الكتاب وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين ^(١) إلى جانب صفين ، وساق الأشر يتبعه ، فوجده غالباً على الماء ؛ وكان في أربعة آلاف من مستبصري ^(٢) أهل العراق ، فصدّموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية في جميع القليل ، بقضه وقضيضه ، فلما رآهم الأشر انحاز إلى على عليه السلام ، وغلب معاوية وأهل الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق وبينه ؛ وأقبل على عليه السلام في جموعه ، فطلب موضعاً لمسكره ، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم ؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس على عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهم ، ومعاوية بعد لم ينزل ، فناوشهم أهل الشام القتال ، فاقتتلوا هويّاً .

قال نصر : لحدثني عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن الأصمغ بن نباتة : فكتب معاوية إلى على عليه السلام : عافانا الله وإياك .

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل وأقبح الطيش ثم النفس في الرُّجُل
وكتب بعده :

ارْبِطْ حِمَارَكَ لَا تَنْزِعْ سَوِيَّتَهُ إِذَا يُرَدُّ وَقَيْدُ الْعَيْرِ مَكْرُوبٌ ^(٣)
ليست ترى السيدُ زيداً في نفوسهم كما يراه بنو كُوز ومرهوب
إن تسألوا الحقَّ نعطِ الحقَّ سائله والدَّرْعُ مُحَقَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ
أو تأنفونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ أَنْفٌ لَا نَطْعُمُ الضَّيْفَ إِنْ السَّمُ مشروب

(١) صفين : « متبصرى أهل العراق » .

(٢) قناصرين : موضع بالشام

(٣) الآيات لعبد الله بن عتبة الصبي ؛ في المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف في الرواية .

فأمر على عليه السلام أن يوزع^(١) الناس عن القتال ؛ حتى أخذ أهل الشام مصافهم
ثم قال : أيها الناس ، إن هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِفَ^(٢) فيه نَطِفَ يوم القيامة ، ومن فَلَجَ فيه
فَلَجَ يوم القيامة . ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لَقَدْ أَتَانَا كَاشِرًا عَنْ نَابِهِ يَهْمَطُ النَّاسَ عَلَى اعْتِرَابِهِ^(٣)
* فليأتينا الدهرُ بما أتى به *
قال نصر : وكتب على عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإِنَّ لِلْحَرْبِ عُرَافًا شَرَرًا إِنَّ عَلَيْهَا قَائِدًا عَشَنَزَرًا^(٤)
يُنْصِفُ مَنْ أَحْجَرَ أَوْ تَنَمَّرَا عَلَى نَوَاحِيهِمَا مِرْجًا زَنْجَرًا
* إِذَا وَنَيْنَا سَاعَةً تَفْشَمَرَا^(٥) *

وكتب بعده :

أَلَمْ تَرَ قَوْمِي إِنْ دَعَاهُمْ أَخُوهُمْ . أَجَابُوا ، وَإِنْ يَفْضَبُ عَلَى الْقَوْمِ يَفْضَبُوا
هُمْ حَفِظُوا غَيْبِي كَمَا كُنْتُ حَافِظًا لِقَوْمِي أُخْرَى مِثْلَهَا إِنْ يُغَيَّبُوا
بَنُو الْحَرْبِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ آبَاءُ صِدْقٍ فَانْجَبُوا
قال : قد جمع الناس كل من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شباب من الناس إلى
أن يستقوا فمنعهم أهل الشام .

قلت في هذه الألفاظ ما ينبغي أن يشرح .

(١) يوزع الناس : يكفون . وفي صفين : « فوزعوا عن القتال حتى ، تأخذ أهل المصاف مصافهم »

(٢) نطف : اتهم بريبة .

(٣) يهبط الناس : يقهرهم .

(٤) العشزرة : الشديد .

(٥) تفشمر : تنمر ووثب .

قوله : « فاقْتُلُوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِيٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنَّفْس : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفس الصوف .
والسَّوِيَّة : كساء محشو بثمام ونحوه ، كالبرذعة . وكَرَبَ القَيْدَ ، إذا ضيقه على المقيد ، وقيد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لاتنزع برذعة حارك عنه ، واربطه وقيدَه ، وإلا أعيد إليك وقيدَه ضيق . وهذا مثل ضربه لعلّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردّع جيشه عن التسرّع والعجلة فى الحرب .

وزيد المذكور فى الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أذ بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخليل ، وكان فارسهم . وبنو السَّيِّد من ضبة أيضا ؛ وهم بنو السَّيِّد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أذ ابن طابخة ... إلى آخر النسب ، وبنو السَّيِّد بنو عم زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السَّيِّد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السَّيِّد لا يرون زيدا فى نفوسهم كما تراه أهله الأذَنُونُ منه نسبًا ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كُوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مرهوب ، فإنهم بنو مرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ؛ يقول : نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأذَنُونُ ؛ والمثل لعلّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى فى علّ ما يراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله .
وقوله :

﴿ وَالذَّرْعُ مُحَقَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ ﴾

أى والدرع بحالها فى حِقَابِهَا ، وهو ما يشدّ به فى غلافها . والسيف بحاله ، أى فى قرابه ،

وهو جَفَنه ؛ يقال : حَقَبَت الدرعَ وقربت السيف ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتهم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدروع بحالها لم تلبس ، والسيوف في أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون في « تأنفون » فإن الأصوب حذفها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها ؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أو كنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أنفتم وأيسم إلا الحرب ؛ فإننا نأنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إن السم مشروب ؛ أى أن السم قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أى نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإن أنفتم فإننا معشر أنف لا نطعم الضيم إن الضيم مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمَة الضبي ؛ من بنى السيد ، ومن جلته :

وقد أروح ألاماً الحى يقدمنى صافى الأديم كُئِيت اللون منسوب^(١)
 مُخَنَّبٌ مثل شاةِ الرِّبْلِ مُحْتَفِرٌ بالقُصْرَيْنِ عَلَى أولاه مَصْبُوبٌ^(٢)
 يَبْذُ ملجَمُهُ هَادٍ لَهُ تَلَعُ كأنه من جُدُوع العين مَشْدُوبٌ
 فذاك ذُخْرِي إِذَا ماخيلهم رَكِضَتْ إِلَى المَثُوبِ أَوْمَقَاءِ سُرْحُوبٌ^(٣)

فأما قوله عليه السلام : « هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة » أى من تلطخ

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبو عبيدة في كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفي .

(٢) المخب من الخيل : اللطيف العظام ، وهو مدح في الخيل . والربل : نبت . ويحتقر : يجتهد في مد يديه . والقصريان : ضلعان يلبان الترقوتين وقوله : « على أولاه مصبوب » ، يقول : يجري على جريه الأول لا يحول عنه ؛ كذا فسرهُ صاحب اللسان (٧ : ٣٠٣)

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرقاع . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت في كتاب الخيل .

فذاك عندى إذا ماخيلهم رُكِبَتْ إِلَى المَثُوبِ أَوْ شَقَاءِ سُرْحُوبٌ

فيه بعيب من فرار أو نكول عن العدو . يقال : نَطَفَ فلان بالكسر ؛ إذا تدنس بعيب .
وَنَطَفُ أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فسدت حاله اليوم في هذا الجهاد فسدت حاله
غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَجَ فيه » بفتح اللام ، أى مَنْ ظهر وفاز ، وكذلك يكون غدا عند الله ،
يقال ؛ فَلَجَ زيدٌ على خصمه ، بالفتح ، يَفْلُجُ ، بضم اللام ؛ أى ظهرت حجته عليه ، وفى
المنل : من يأت الحكم وحده يَفْلُجُ .

قوله : « يَهْمَطُ الناس » ؛ أى يقهرهم ويخبطهم ، وأصله الأخذ بغير تقدير .
وقوله : « على اعتزابه » أى على بعده عن الإمارة والولاية على الناس . والعُرام ، بالضم :
الشَّرَاسة والهَوَج . والعشزِر : الشديد القوى .

وأحجر : ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم . وتَنَمَّرَ ، أى تنكر
حتى صار كالنمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوى ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكر لهم ،
أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ ، أى من قومه . والمِرْجَ ،
بكسر الميم : السريع النفوذ ؛ وأصله الرمح القصير ، كالمزراق .

ورجل زجر ، أى مانع حوزته ؛ والميم زائدة . ومن رواها « زَنَحْرَا » بالخاء ، غنى به
المرتفع العالى الشأن ؛ وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَرَ الوادى ، أى علا وارتفع .
وغَشَمَرَ السيل : أقبل ، والغشمة : إثبات الأمر بغير تثبيت ؛ يقول : إذا أبطنَ ساقَهِنَّ
سَوَقًا عنيفا .

والأبيات البائية لربيعة بن مشروم الطائى .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما ^(١) قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين ، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويا بساطا واسعا ، وأخذوا الشريعة ؛ فهي في أيديهم ؛ وقد صف عليها أبو الأعور الخليل والرجالة ، وقدم الزامية معهم أصحاب الزماح والدراق ، وعلى رؤوسهم البيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ، ففزعنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صفصة بن صوحان فقال : انت معاوية ، وقل له : إنا ميرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالك ^(٢) قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالحرب ؛ ونحن تمن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ؛ وهذه أخرى قد فعلتموها ، قد حُتُم بين الناس وبين الماء ؛ فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ وإن كان أحب إليك ، أن ندع ما جئنا له ، وندع الناس يقتلون حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا .

فلما مضى صفصة برسالتِهِ إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حَصَرُوهُ أربعين يوما يمنعونهُ يرُد الماء ولين الطعام ، اقتلهم عطشا ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ؛ فإنهم لن يمشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .
فأعاد الوليد مقاتلته .

وقال عبد الله بن سعيد بن أبي سرح - وكان أخا عثمان من الرضاة ! امنعهم الماء إلى الليل ؛ فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم ، امنعهم الماء ، منعهم

(١) كتاب صفين للنفري ١٧٩ ، ١٨٠

(٢) صفين : « وأنا أكره قتالك » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفجرة الكفرة ، شرّبة الخمر ؛ ضربك وضرب ^(١) هذا الفاسق - يعنى الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كفّوا عن الرجل ؛ فإنما هو رسول . قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لما رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية ، وما كان منه وماردّه عليه . قلنا : وما الذى ردّه عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف من عنده ، قلت : ماترد علىّ ؟ قال : سيأتيكم رأيي ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال والصفوف والخليل ؛ فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء ؛ فازدلفنا والله إليهم ، فارتمينا وأطعنا بالرماح ، واضطربنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء فى أيدينا ؛ فقلنا . لا والله لانسيقيهم . فأرسل إلينا على عليه السلام : أن خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام ^(٢) ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السكون ، يعرف بالشليل بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسمع اليوم ما يقول الشَّالِيلُ إن قولى قولٌ له تأويلُ
امنع الماء من صحابِ علىٍّ أن يذوقوه ، فالذليل ذليلُ
واقْتُل القومَ مِثْلَ ما قُتِلَ الشَّيْخُ صَدَى القصاصِ أمرٌ جميلُ ^(٣)
إننا والذى تُساق له البُدُ نُهْدَايَا كأنهنّ الفيولُ ^(٤)
[لو عَلِيٌّ وصحبه وردوا الماء لما ذقتموه حتى تقولوا] ^(٥)

(١) ضربك ، أى مثلك .

(٢) صفين ١٨١

(٣) صفين : « ظلموا والقصاص أمر جميل » .

(٤) صفين : « هدايا لنحرمها تأجيل » .

(٥) تكملة من صفين .

قَدْ رَضِينَا بِأَمْرِكُمْ وَعَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ الرِّضَا جِلَادٌ ثَقِيلٌ
فَامْنَعِ الْقَوْمَ مَاءَكُمْ ، لَيْسَ لِّلْقَوْمِ مِ بَقَاءٍ وَإِنْ يَكُنْ قَلِيلٌ

فقال معاوية : أما أنت فتدري ما تقول - وهو الرأي - ولكن عمرأ لا يدري . فقال عمرو : خل بينهم وبين الماء ؛ فإن عليا لم يكن ليظماً وأنت ريتان ، وفي يده أعتة الخيل ، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنه الشجاع المُنْطَرَق [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز] ^(١) ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنْتُ من أربعين رجلا ^(٢) يعني في الأمر الأول ^(٣) !

وَرَوَى نَصْرٌ ، قَالَ : ^(٤) لَمَّا غَلَبَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى الْفَرَاتِ ، فَرِحُوا بِالْغَلْبَةِ ، وَقَالَ
معاوية : يَا أَهْلَ الشَّامِ ؛ هَذَا وَاللَّهِ أَوَّلُ الظَّفَرِ ، لَا سَقَانِي اللَّهُ وَلَا أَبَا سَفِيَّانِ إِنْ شَرَبُوا مِنْهُ
أَبْدًا حَتَّى يُقْتَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ عَلَيْهِ ؛ وَتَبَاشَرَ أَهْلُ الشَّامِ ، فَقَامَ إِلَى مَعَاوِيَةَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
الشَّامِ هَمْدَانِي ، نَاسِكٌ يُتَابَلُهُ وَيَكْثُرُ الْعِبَادَةُ ، يَعْرِفُ بِمَعْرَى بْنِ أَقْبَلٍ ، وَكَانَ صَدِيقًا لِعَمْرٍو
ابْنِ الْعَاصِ وَأَخَاهُ ، فَقَالَ : يَا مَعَاوِيَةَ ، سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَأَنْ سَبَقْتُمُ الْقَوْمَ إِلَى الْفَرَاتِ فَغَلِبْتُمُوهُمْ
عَلَيْهِ ، تَمْنَعُونَهُمُ الْمَاءَ ! أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ لَسَقَوْكُمْ مِنْهُ . أَلَيْسَ أَعْظَمُ مَا تَنَالُونَ مِنَ الْقَوْمِ
أَنْ تَمْنَعُوهُمْ الْفَرَاتَ فَيَنْزِلُوا عَلَى فَرُضَةٍ أُخْرَى وَيَجَازُوكُمْ بِمَا صَنَعْتُمْ ! أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ فِيهِمْ
الْعَبْدَ وَالْأَمَةَ وَالْأَجِيرَ وَالضَّعِيفَ ، وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ . هَذَا وَاللَّهِ أَوَّلُ الْجُورِ ! لَقَدْ شَجَعْتَ
الْجَبَانَ ، وَنَصَرْتَ الْمُرْتَابَ ، وَحَمَلْتَ مَنْ لَا يَرِيدُ قِتَالَكَ عَلَى كَتِفَيْكَ . فَأَغْلَظَ لَهُ مَعَاوِيَةُ ،
وَقَالَ لِعَمْرٍو : اكْفِنِي صَدِيقَكَ . فَأَنَاهُ عَمْرٍو فَأَغْلَظَ لَهُ ، فَقَالَ الهمداني في ذلك شعرا :

لِعَمْرٍو أَبِي مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ وَغَمْرٍو ، مَا لِدَاهُمَا دَوَاهُ !

(١) - تكملة من صفين .

(٢-٢) في صفين : « فذكر أمراً ؛ يعني لو أن معي أربعين رجلا يوم فُتس البيت - يعني بيت فاطمة »

(٣) صفين ١٨٢ .

سَوَى طَعْنٍ يَحَارُّ الْعَقْلَ فِيهِ وَضَرْبٍ حِينَ تَخْلُطُ الدَّمَاءُ
وَلَسْتُ بِتَابِعِ دِينَ ابْنِ هِنْدٍ طَوَالَ الدَّهْرِ مَا أُرْسَى حِرَاهُ
لَقَدْ ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَا عِتَابُ وَقَدْ ذَهَبَ الْوَلَاءُ فَلَا وَلَاءُ
وَقَوْلِي فِي حَوَادِثِ كُلِّ خَطْبٍ^(١) : عَلَى عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ الْعَفَاءُ
أَلَا اللَّهُ دَرَكُ يَابْنَ هَنْدٍ لَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ فَلَا خَفَاءُ !
أَتَحْمُونَ الْفِرَاتَ عَلَى رِجَالٍ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ
وَفِي الْأَعْنَاقِ أَسْيَافٌ حِدَادٌ كَأَنَّ الْقَوْمَ عِنْدَهُمْ نِسَاءُ
أَتَرْجُو أَنْ يَجَاوِرَكُمْ عَلَى بَلَا مَاءٍ وَلِلْأَحْزَابِ مَاءُ
دَعَاهُمْ دَعْوَةً فَأَجَابَ قَوْمٌ كَجُرْبِ الْإِبْلِ خَالَطَهَا الْهِنَاءُ

قال : ثم سار الهمداني في سواد الليل حتى لحق بعلي عليه السلام .

قال : ^(٢) ومكث أصحابُ علي عليه السلام بغير ماء ، واغتمَّ علي عليه السلام بما فيه

أهل العراق .

قال نصر : وحدَّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجاني ، قال : لما اغتمَّ علي بما فيه أهلُ

العراق من العطش ، خرج ليلاً قبل رايات مذحج ، فإذا رجل ينشد شعراً :

أَيْمَنُنَا الْقَوْمُ مَاءَ الْفُرَاتِ وَفِينَا الرُّمَاحُ وَفِينَا الْحَجَفُ^(٣)

وَفِينَا الشَّوَابِزُ مِثْلَ الْوَشِيحِ وَفِينَا الزَّعْفُ^(٤)

(١) صفين : « كل أمر » .

(٢) صفين ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) الحجف : جمع حيفة ؛ وهي الترس من جلود الإبل يطارق بعضها في بعض .

(٤) الشوايز : الخيل الضامرة ؛ والوشيح : شجر الرماح ؛ ويريد به هنا الرماح ؛ شبه بها

الخيل في ضمرها . والزعف : الدروع الواسعة .

وَفِينَا عَلَىٰ لَهُ سَوْرَةٌ إِذَا خَوْفُهُ الرَّدَىٰ لَمْ يَحْفَ
 وَنَحْنُ الَّذِينَ غَدَاةَ الزُّيُورِ وَطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلَفِ (١)
 فَمَا بَالُنَا أَمْسِ أَسَدَ الْعَرِينِ وَمَا بَالُنَا الْيَوْمَ شَاءَ النَّجَفِ (٢)
 فَمَا لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ سِوَى الشَّامِ خَضَمٌ فَصُكُّوا الْمَدَفِ (٣)
 وَثُورُوا عَلَيْهِمْ كَبُزْلِ الْجَالِ دُورِينَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ الْقَطَفِ (٤)
 فَإِمَّا تَقُوزُوا بِمَاءِ الْفُرَاتِ وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيفِ
 وَإِمَّا تَمُوتُوا عَلَى طَاعَةِ نُحُلِ الْجِنَانِ وَتَنْجُبُوا الشَّرَفِ
 وَإِلَّا فَاتَمُّ عَيْدُ الْعَصَا وَعَبْدُ الْعَصَا مُسْتَذَلٌّ نَظَفِ (٥)

قال : فترك ذلك علياً عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كندة ، فإذا إنسانٌ يُنشد
 إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَيْتَن لَمْ يُجَلِّ الْأَشْعَثُ الْيَوْمَ كَرْبَةً مِنْ الْمَوْتِ فِيهَا لِلنَّفُوسِ بَقِيَّةٌ (٦)
 فَتَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ بِسَيْفِهِ فَهَبْنَا أَنَا سَاقِبَلٌ ذَاكَ فَمُوتُوا (٧)
 فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَجْمَعْ لَنَا الْيَوْمَ أَمْرَنَا وَتَنْضُ الَّتِي فِيهَا عَلَيْكَ الْمَذَلَّةُ (٨)

- (١) يشير إلى وقعة الجبل ، والغار : جمع غمرة ؟ وهي السدة .
 (٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاة : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفذ الضرع ، ويقال :
 انتجفت الغنم ؟ إذا استخرجت أقصى ما في الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن « أسد
 العرين » ، و « شاء النجف » حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة
 الأدب للبغدادى ١ : ٥٢٨ ، والمسدودى ٢ : ٣٨٥ .
 (٣) صكوا : اضربوا ، وفي صفين : « سوى اليوم يوم » .
 (٤) الذميل والقطف : ضربان من السير . والبالز : البعير الذى انشق نابه بدخوله فى التاسعة ، وجمه
 بزل . وفي صفين : « فدبوا إليهم » .
 (٥) عييد العصا ؛ أى أذلاء . والنطف : المغيب .
 (٦) صفين : « للنفوس تمتت » ، وفي المسعودى ٢ : ٣٨٥ « تفت » .
 (٧) صفين والمسدودى : « كانوا فوتوا » .
 (٨) صفين : « وتلقى التى فيها عليك التشتت » .

فَمَنْ ذَا الَّذِي تُثْنِي الْخَنَاصِرُ بِاسْمِهِ سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هَذَا إِلَيْهِ التَّلَفْتُ !
وَهَلْ مِنْ بَقَاءَ بَعْدَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ نَظَلَّ خُفُونًا وَالْعَدُوَّ يَصُوتُ !^(١)
هَلُمُّوا إِلَى مَاءِ الْفُرَاتِ وَدُونَهُ صُدُورُ الْعَوَالِي وَالصَّفِيحُ الْمَشْتَتُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يَمْنِيَّةٍ وَكُلَّ امْرِئٍ مِنْ سِنَخِهِ حِينَ يَنْبُتُ^(٢)

قال : فلما سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليه السلام ، فقال :
يا أميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القومَ ماءَ الفُراتِ ، وأنتَ فينا ، والسيوفُ في أيدينا ! خلَّ عَنَّا
وعن القومِ ، فوالله لا نرجعُ حتى نردَّه أو نموت ؛ ومُرِ الأشرَّ فَيَعْلُوَ بِخَيْلِهِ ، وَيَقِفَ حَيْثُ
تَأْمُرُهُ . فقال عليّ عليه السلام : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادَى في النَّاسِ : مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْمَاءَ أَوِ الْمَوْتَ فَيُعَادِهِ مَوْضِعَ كَذَا ؛
فَأَتَى نَاهِضٌ . فَأَتَاهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ كِنْدَةَ وَأَفْنَاءَ قَحْطَانَ ، وَاضْعَى سِيوفَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ ،
فَشَدَّ عَلَيْهِ سِلَاحَهُ^(٣) . وَنَهَضَ بِهِمْ ؛ حَتَّى كَادَ يَخَالِطُ أَهْلَ الشَّامِ ، وَجَعَلَ يُبَلِّغُ رِجْلَهُ ،
وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : يَا بَنِي وَائِي أَنْتُمْ تَقْدَمُوا إِلَيْهِمْ قَابَ رُحْجِي^(٤) هَذَا . فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابَّةً ؛
حَتَّى خَالَطَ الْقَوْمَ ، وَحَسَرَ عَنْ رَأْسِهِ ، وَنَادَى : أَنَا الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ! خَلُّوا عَنِ الْمَاءِ .
فَنَادَى أَبُو الْأَعْمُورِ : أَمَا [وَاللَّهِ]^(٥) حَتَّى لَا تَأْخُذَنَا وَإِيَّاكُمْ السِّيُوفُ فَلَا . فَقَالَ الْأَشْعَثُ :

(١) صفين : « عطاشا والعدو يصوت » .

(٢) السنخ : الأصل ، وفي صفين : « من غصنه » .

(٣) صفين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

مِيْعَادُنَا الْيَوْمَ بَيَاضُ الصُّبْحِ هَلْ يَصْلُحُ الزَّادُ بَغِيرِ مِلْحٍ !
لَا ، وَلَا أَمْرٌ بَغِيرِ نُصْحٍ رِبُّوا إِلَى الْقَوْمِ بِطَعْنِ سَمْنَحٍ
مِثْلَ الْعَزَالِي بِطَعَانٍ نَفْحٍ لَا صُلْحَ لِلْقَوْمِ ، وَأَيْنَ صُلْحِي !
* حَسْبِي مِنَ الْإِفْجَامِ قَابُ رُحْجِي *

(٤) قَابَ رَحَى : قدر رَحَى .

(٥) من صفين .

قد والله أظنها دَنَبَتْ مِنَّا ومنكم . وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره على ، فبعث إليه الأشعث : أقيم الخيل ؛ فأقحمها حتى وضعت سنانها في الفرات ، وأخذت أهل الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن ، قال : فنادى ^(١) الأشعث عمرو بن العاص ، فقال : ويحك يا ابن العاص ! خل بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف ؛ فقال عمرو : والله لا نخلي عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا : أينما أصبر اليوم . فترجل الأشعث والأشتر ، وذووا البصائر من أصحاب على عليه السلام ، وترجل معهما اثنا عشر ألفا ، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومن معهما من أهل الشام ، فأزالهم عن الماء ، حتى غمست خيل على عليه السلام سنانها في الماء .

قال نصر : فروى ^(٢) عمر بن سعد أن عليا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نصرت فيه بالحمة .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : ^(٣) سمعت تيمم الناجي يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفرات ، فقلت له : ويحك يا عمرو ! أما والله إن كنت لأظن لك رأيا ؛ فإذا أنت لا عقل لك ، أترانا نخليك والماء ! تربت يداك ! أما علمت أنا معشر عرب ! ثكلتك أمك وهبتك ! لقد رمت أمرا عظيما . فقال لي عمرو : أما والله لتعلمن اليوم أنا سنفي بالعهد ، ونحكم العقد ، ونلقاكم

(١) صفين ١٨٧

(٢) صفين ١٨٧

(٣) صفين ١٨٩ .

بصبر وجدّ . فنادى به الأشتر : يا بنِ العاص ؛ أما والله لقد نزلنا هذه القرصة ، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين ، وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية .

ثم كبر الأشتر وكبرنا معه وحملنا ، فما نار الغبار حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فلقي عمرو بن العاص بعد انقضاء صيفين الأشعث ، فقال له : يا أخا كندة ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء ، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأي ، فكابرُتُك بالتهديد والوعيد ، والحرب خدعة .

قال نصر : ولقد كان من رأى عمرو التّخليةُ بين أهل العراق والماء ، ورجع معاوية بأخرة إلى قوله بعد اختلاط القوم في الحرب ؛ فإن عمراً - فيما روينا - أرسل إلى معاوية : أن خلّ بين القوم وبين الماء ، أترى القوم يموتون عطشا وهم ينظرون إلى الماء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسريّ : أن خلّ بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله ، فقال يزيد - وكان شديد العمانية : كلاً والله لنقتلنهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين .

قال : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : خطب على عليه السلام يوم الماء فقال : « أما بعد ؛ فإنّ القوم قد بدّوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغي ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء ، فأقروا على مذلة وتأخير مهلة » ، الفصل إلى آخره .

قال نصر : وكان^(١) قد باغ أهل الشام أنّ عليا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يقسم بينهم التبر والذهب - وهما الأحران - وأن يعطى كلاً منهم خمسمائة ، كما أعطاهم بالبصرة ، فنادى ذلك اليوم بنادى أهل الشام : يا أهل العراق ؛ لماذا نزلتم بعجاج

من الأرض ! نحن أزدُ شنوءة لا أزدُ عمان ، يا أهلَ العراق :
لا خَمْسَ إلا جَنْدَلُ الأَحْرَبِ (١) والخَمْسُ قَدْ تُجَشِّمُكَ الأَمْرَيْنِ (٢)

قال نصر : حدثني عمرو بن شمر ، عن إسماعيل السدي ، عن بكر بن تغلب ، قال :
حدثني (٣) مَنْ سَمِعَ الأشعث يوم الفُرات - وقد كان له غَناءٌ عظيمٌ مِنْ أهل العراق ، وقتَلَ
رجالاً من أهل الشام بيده ، وهو يقول : واللهِ إِنْ كُنْتُ لَكَ رِهَاً قَتَلْتُ أَهْلَ الصَّلَاةِ ،
ولكن مَعِيَ مَنْ هُوَ أَقْدَمُ مِنِّي فِي الإِسْلَامِ ، وأَعْلَمُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَهُوَ الَّذِي
يَسْخَى بِنَفْسِهِ .

(١) لا خمس ، أراد لا خمسمائة . والجندل : المجارة . والأحرين : جمع حرة ، وهى المجارة السوداء .
(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفى اللسان (٥ : ٢٥٢) بعد شرح كلمة « الأحرين » :
أنشد تغلب لزيد بن عناهبة التيمي ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالكوفة ،
وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد
على أهله قالت له ابنته : أين خمس المائة ؟ فقال :

إِنْ إِبَاكَ فَرَّ يَوْمَ صِفِّينَ لَمَّا رَأَى عَكًّا وَالْأَشْعَرِيْنَ
وَقَيْسَ عَيْلَانَ الْهُوَزَانِيْنَ وَابْنَ نَمِيرٍ فِي سِرَاةِ الْكَنْدِيْنَ
وَذَا الْكَلَّاعَ سَيْدَ الْيَمَانِيْنَ وَحَابِسًا يَسْتَنَ فِي الطَّائِيْنَ
قَالَ لِنَفْسِ السَّوِّءِ هَلْ تَفْرِيْنَ ؟ لَا خَمْسَ إِلَّا جَنْدَلُ الْأَحْرَبِيْنَ
وَالْخَمْسُ قَدْ جَشَمْتُكَ الْأَمْرَيْنِ جَزَاً إِلَى الْكُوفَةِ مِنْ قَنْسَرِيْنَ

ويروى : « قد تجشمك » ، و « قد يجشمك » . وقال ابن سيده : معنى « لاخسر » ماورد فى حديث
صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لَا خَمْسَ إِلَّا جَنْدَلُ الْأَخْرَبِيْنَ *

أرادوا : لاخمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ - ١٩٢

قال نصر: وحمل ^(١) ظَبْيَانُ بنُ عُمارة التيمي على أهل الشام، وهو يقول:

هَلْ لَكَ يَا ظَبْيَانُ مِنْ بَقَاءٍ فِي سَاكِنِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ مَاءٍ!
لَا وَإِلَهُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فَاضْرِبْ وَجْوهَ الْقُدْرِ الْأَعْدَاءِ
بِالسَّيْفِ عِنْدَ حَمْسِ الْهَيْجَاءِ ^(٢) حَتَّى يَجِيئُوكَ إِلَى السَّوَاءِ
قال: فَضَرَبَهُمُ وَاللَّهِ حَتَّى خَلَّوْا لَهُ الْمَاءَ.

قال نصر: ودعا ^(٣) الْأَشْتَرُ بالحارث بن همام النَّخَعِيَّ، ثم الصَّهْبَانِيَّ، فأعطاه لواءه، وقال له: يا حارث، لولا أني أعلم أنك تصبر عند الموت، لأخذت لوائى منك، ولم أحُبِّكَ بكرامتى، فقال: والله يا مالك لأُسَرِّنَكَ أو لأموتنَّ، فاتَّبِعْنِي. ثم تقدَّم باللواء وارتجز، فقال:

يَا أَخَا الْخَيْرَاتِ يَا خَيْرَ النَّخَعِ وَصَاحِبَ النَّصْرِ إِذَا عَمَّ الْفَرْعُ
وَكَاشِفَ الْخَطْبِ إِذَا الْأَمْرُ وَقَعَ مَا أَنْتَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِالْجَذَعِ ^(٤)
قَدْ جَزَعَ الْقَوْمُ وَغَمُّوا بِالْجَزَعِ وَجُرُّعُوا النِّيطَ وَغَضُّوا بِالْجُرْعِ
إِنْ تَسْقِنَا الْمَاءَ فَلَيْسَتْ بِالْبِدْعِ أَوْ نَعْمُشِ الْيَوْمَ فَجُنْدٌ مُقْتَطَعٌ
* مَا شِئْتَ خُذْ مِنْهَا وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الْأَشْتَرُ: اذْنُ مَنَى يَا حارث؛ فدنا منه فقبَّلَ رأسه، فقال: لا يتَّبِعْ رَأْسَهُ الْيَوْمَ إِلَّا خَيْرٌ. ثم صاح الْأَشْتَرُ في أصحابه: فدتُكُمْ نفسى! شُدُّوا شِدَّةَ الْحَرَجِ الرَّاجِىَ لِلْفَرَجِ، فَإِذَا نَالْتُمُ الرِّمَاحَ فَالْتَمُوا فِيهَا، فَإِذَا عَضْتُمْ السِّيُوفَ فَلْيَعْضِ الرَّجُلُ عَلَى نَوَاجِذِهِ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ لَشْتُونٍ ^(٥) الرَّأْسِ؛ ثم اسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِأَمِكُمْ.

(١) صفين ١٩٢، وتاريخ الطبرى ٥: ٢٤٠.

(٢) الحمس: الشدة في القتال، وفي صفين والطبرى: «حمس الوغاء».

(٣) صفين ١٩٣، والمسعودى ٢: ٣٨٦.

(٤) الحرب العوان: التى قوتل فيها مرة بعد مرة؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا. والجذع: الصغير السن.

(٥) الشتون هنا: جمع شأن؛ وهو موصل قبائل الرأس.

قال : وكان الأشتر يومئذ على فرس له مخدوف ^(١) أدهم ، كأنه حَلَكَ الغراب ، وقتل بيده من أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العكبي ، ومالك بن أدهم السلماني ، ورياح بن عتيك الغساني ، والأجلح بن منصور الكندي - وكان فارس أهل الشام - وإبراهيم بن وضاح الجحفي ، وزامل بن عبيد الحزامي ، ومحمد ابن روضة الجحفي .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشتر وقال له :

يا صاحبَ الطرفِ الحصانَ الأدهمِ أقدمِ إذا شئتَ علينا أقدمِ
أنا ابنُ ذي العزِّ وذِي التَّكرَمِ سيدُ عكٍّ كلُّ عكٍّ فاعلمِ

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدة والبأس ، فارتجز عليه الأشتر ، فقال له :

أنا ابنُ خيرٍ مذحجٍ مركباً وخيرُها نفساً وأماً وأباً
آليتُ لأرجعُ حتى أضرباً بسيفي المصقولِ ضرباً مُعجِباً

ثم شدَّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدهم السلماني - وهو من مشهورهم أيضاً ، فحملَ على الأشتر بالرمح ، فلما رَهَقَه ^(٢) التوى الأشتر على فرسه ومارَّ انسان ^(٣) فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدَّ على الشامي فقتله طعنًا بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل ^(٤) ، وإبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عقيل - وكان فارساً - فطعن الأشتر في موضع الجوشن ^(٥) فصرَّعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلاً ، وشدَّ عليه الأشتر بالسيف راجلاً فكشف قوائمه فرسه ، وارتجز عليه فقال :

(١) المخدوف : المقطوع الذنب .

(٢) رهقه : غشيه .

(٣) مارَّ السنان : اضطرب .

(٤) صفين : « رياح بن عتك » .

(٥) الجوشن : الصدر .

لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِي أَوْ مِنْ قَتْلِكَ قَتَلْتُ مِنْكُمْ أَرْبَعًا مِنْ قَبْلِكَ^(١)
* كُلُّهُمْ كَانُوا حُمَاةً مِثْلَكَ *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان ، فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال وهو يضرب في عرض العراق ضَرْبًا مَنَكْرًا :

يَا كِنِي الْكُوفَةِ يَا أَهْلَ الْفَتَنِ يَا قَاتِلِي عُثْمَانَ ذَاكَ الْمُؤْتَمَنُ
أُورِ . قَلْبِي قَتْلُهُ طُولَ الْحَزَنِ أَضْرِبُكُمْ وَلَا أَرَى أَبَا حَسَنِ !
فشدَّ عليه الأشر فقتله ، وقال :

لَا يَبْعِدُ اللَّهُ سِوَى عُثْمَانَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ بِكُمْ هَوَانًا
* وَلَا يَسَلِّي عَنْكُمْ الْأَحْزَانَا^(٢) *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندي ، وكان من شجعان العرب وفرسانها ، وهو على فرس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجع عنه ، فتضاربا بسيفهما ، فسبقه الأشر بالضربة فقتله ، فقالت أخته برثية :

أَلَا فَبِكِي أَخَا ثِقَةٍ فَقَدْ وَاللَّهِ أَبْكَينَا
بِقَتْلِ الْمَاجِدِ الْقَمَقَا م لَا مِثْلَ لَهُ فِينَا^(٣)
أَنَا الْيَوْمَ مَقْتَلُهُ فَقَدْ جُرَّتْ نَوَاصِينَا
كَرِيمٌ مَاجِدُ الْجَدَيْنِ يَشْفِي مِنْ أَعَادِينَا
شَفَانَا اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَدْ أَبَادُونَا
أَمَّا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَمْ يَرْعُوا لَهُ دِينَا !

(١) صفين : « قتل خمسة »

(٢) بقية الرجز كما في صفين :

مُخَالَفٌ قَدْ خَالَفَ الرَّحْمَانَا نَصَرَ تَمُوهُ عَابِدًا شَيْطَانَا

(٣) القمقام : السيد الكثير العطاء .

قال : وبلغ شعرها علياً عليه السلام ، فقال : أما إنهنّ ليس بملكنّ مارأيتن من الجزع ، أما إنهن قد أضربوا بنسائهن ، فتركوهنّ أيّامى حزانى ^(١) بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حمّله آثامهم وأوزاراً وأثقالاً مع أثقاله ! اللهم لاتعف عنه !

قال نصر : وحدثنا ^(٢) عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن الحارث بن أدهم ، وعن صمصمة ، قال : أقبل الأشرّ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهور أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَا تَذْكُرُوا مَا قَدْ مَضَى وَفَانَا وَاللّهِ رَبِّي الْبَاعِثِ الْأَمْوَاتَا
مِنْ بَعْدِ مَا صَارُوا كَذَارِفَاتَا ^(٣) لِأُورِدَنَّ خَيْلِي الْفُرَاتَا
* شُعَثَ النَّوَاصِي أَوْ يَقَالُ مَا تَا *

قال : وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث ، فقال له الأشعث : لله أبوك ! ليست النّخع بخير من كندة ، قدّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق ؛ فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضها على بعض ، وحمل في ذلك اليوم أبو الأعور السّلتى ؛ وحمل الأشرّ عليه ، فلم ينتصف أحدهما من صاحبه ، وحمل شُرْحَبِيل بن السّمط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشَب ذو ظليم على الأشعث أيضاً ، وانفصلا ولم ينل أحدهما من صاحبه أمراً ، فما زالوا كذلك حتى انكشف أهل الشام عن الماء ، وملك أهل العراق المشرّعة .

قال نصر : فحدثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجاني ، قال : قال ^(٤) عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهل العراق الماء : ما ظنّك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم

(١) صفين : « خزايه » .

(٢) صفين ٢٠٩

(٣) صفين : « صدق فراتا » .

(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أترك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة .
فقال معاوية : دع عنك ماضى ، فما ظنك بعلى ؟ قال : ظنى أنه لا يستحل منك ما استحلت
منه ، وأن الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولاً أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتك أمراً فسَخَفْتَهُ	وخالفنى ابن أبى سَرْحَةَ (١)
وأغضت فى الرأىِ إغماضَةً	ولم تَرَ فى الحرب كالفُسْحَةَ
فكيف رأيت كِبَاشَ الْعِرَاقِ	ألم ينطحوا جَمْعاً نَطْحَهُ !
فإن ينطحونا غداً مثلها	فكن كالزبيرى أو طُلْحَةَ
أظن لها اليوم ما بعدَها	وميعاد ما بيننا صُبْحَةَ
وإن أخرجوها لِمَا بَعْدَهَا	فقد قدّموا الخُبْطَ والنَّفْحَةَ
وقد شرب القومُ ماءَ الْفِرَاقِ	وقلّدتك الأشرَ الفَضْحَةَ

قال نصر : فقال أصحاب على عليه السلام له : امنهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك . فقال : لا ، خلّوا
بينهم وبينه ، لا أفعل ما فعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتاب الله ، وندعوهم إلى الهدى ،
فإن أجابوا وإلا ففى حدّ السيف ما يغنى إن شاء الله .

قال : فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سُقَاتِهِمْ وسَقَاةَ أهل الشام وروايهم ، وروايا
أهل الشام يزدحجون على الماء ، ما يؤذى إنسانٌ إنساناً .

(١) يريد عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

ومن خطبة له عليه السلام ، وقد تقدم مختارها برواية ، ونذكر ما ذكره هنا

برواية أخرى ، لتغابر الروايتين :

الأفضل :

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنْتْ بِانْقِضَاءِ ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَذْبَرَتْ حَدَّاءَ ،
فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا ، وَقَدْ أَمَرٌ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوءًا ،
وَكَدِرٌ مِنْهَا مَا كَانَ صَفُوءًا ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ ، أَوْ جُرْعَةٌ ^(١) كَجُرْعَةِ
الْمَقْلَةِ ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعِ .

فَازِمُعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ
فِيهَا الْأَمَلُ ، وَلَا يَطْوُنَ عَلَيْكُمْ فِيهَا ^(٢) الْأَمَدُ ، فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوَلِّهِ الْعِجَالِ ،
وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحِمَامِ ، وَجَارْتُمْ جُورَ الْمُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ ؛ التَّمَّاسَ الْقُرْبَةَ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ ، أَوْ غُفْرَانَ سَيِّئَةٍ أَخْصَصَهَا
كُتُبُهُ ، وَحَفِظْتَهَا رُسُلُهُ ؛ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُوا لَكُمْ مِنْ نَوَابِهِ ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ
مِنْ عِقَابِهِ .

وَتَاللَّهِ لَوْ أَنْمَأَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاءًا ، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ
مِنْهُ دَمًا ، ثُمَّ عُمِرْتُمْ فِي الدُّنْيَا ؛ مَا الدُّنْيَا بِأَقْيَةٍ ؛ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا
شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ الْعِظَامُ ، وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ .

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثاني ص ٩١

(١) مخطوطة التهج : « وجرعة » .

(٢) كلمة « فيها » ساقطة في مخطوطة التهج

الشُّرْحُ :

تَصَرَّمَتْ : انقطعت وفنيت . وآذنت بانقضاء : أعلمت بذلك ، آذنته بكذا أى أعلمته .
وتنكر معروفها : جهل منها ما كان معروفاً .

والخذاء : السريعة الذهاب ، ورجم خذاء : مقطوعة غير موصولة . ومن زواه « خذاء »
بالجيم ، أراد منقطعة الدَّرّ والخير .

وتحفز بالفناء سكانها : تُعجلهم وتسوقهم . وأمر الشيء : صار مَرّاً . وكدر الماء بكسر
الدال ، ويجوز كدُر بضمها . والمصدر من الأول كدَرأ ، ومن الثانى كدُورة .

والسَّملة ، بفتح الميم : البقية من الماء تبقى في الإناء .

والمَقلة ، بفتح الميم وتسكين القاف : حصاة القسم التي تلقى في الماء ليعرف قَدْر ما يُسقى
كل واحد منهم ؛ وذلك عند قلة الماء في المفاوز ، قال :

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَذَفَكَ الْمَقْلَةُ وَسَطَ الْمَعْرَكِ^(١)

والتمرز : تمصص الشراب قليلاً قليلاً . والصديان : العطشان .

ولم ينقع : لم يَرَوْا ؛ وهذا يمكن أن يكون لازماً ، ويمكن أن يكون متعدياً ،
تقول : نقع الرجل بالماء ، أى روى وشفى غليله ، ينقع . ونقع الماء الصدى ينقع ، أى سكنه .

فأزمعوا الرحيل ، أى اعزموا عليه ، يقال : أزمعت الأمر ، ولا يجوز أزمعت على الأمر ؛
وأجازه الفراء .

قوله : « المقدور على أهلها الزوال » ، أى المكتوب ، قال :

واعلم بأنَّ ذَا الْجَلالِ قد قَدَّرَ في الصَّحفِ الأولى الذي كان سَطرَ

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠ ، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الحظمي .

أى كتب . والولّه العجّال : النُّوقِ الوالهة الفاقدة أولادها ، الواحدة عجّول ، والولّه :
ذهاب العقل وفقد التمييز .

وهديل الحمام : صوت نوحه . والجوّار : صوت مرتفع . والمتبّتل : المنقطع عن الدنيا .
وانمات القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئاً من جهنكم » اعتراض فى الكلام .
وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول « جزت » .

وفى هذا الكلام تلويح وإشارة إلىّ مذهب البغداديين من أصحابنا فى أن الثواب على
فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة ، فلا يقتضى وجوب ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه
السلام : « لو انمات قلوبكم انميائنا » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك ، بل يقولون : إن الثواب واجب على الحكيم
سبحانه ، لأنه قد كلفنا ما يشق علينا ، وتكليف المشاق كما نزال المشاق ، فكما اقتضت
الآلام والمشاق النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا ، كذلك
تقتضى التكليفات الشاقة ثواباً مستحقّاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ماسلف
من نعمه علينا فهو تفضّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر
من الأمور ، ثم يُلزمه أفعالا شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور
منافع عائدة على ذلك الحكيم فكان ماسلف من المنافع جارياً مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع
درهما إلى إنسان ليخيط له ثوبا ، والبارى تعالى منزّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزّهة أن تجرى
مجرى الأجرة على تكليفنا المشاق .

وأبضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعم بها عليهما ، ويختلفان فى التكليف ،

فلو كان التكليف لأجل ماضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها؛ فإن قيل: فعلى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين؛ ولكنه قال: لو عبدتموه بأقصى ما ينتهى الجهد إليه ما وقيتم بشكر أنعمه؛ وهذا حقٌ غيرٌ مختلف فيه، لأن نعم البارئ تعالى لا تقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته؛ ولا يقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحة مذهب البغداديين فى أن الثواب على الله تعالى غير واجب؛ لأن التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة.

[ما قيل من الأشعار فى ذم الدنيا]

فأما ما قاله الناس فى ذم الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها، وتنكرها لأهلها، والشكوى منها، والعتاب لها، والموعظة بها، وتصرمها وتقلبها، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ يَمْلَأُ فِيهَا حَذَارِ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي (١)
فلا يغرركمُ حُسنُ ابتسامي فَقُولِي مُضْجِكَ وَالْفعلُ مُبْكِي

وقال آخر:

تَنَحَّ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْلُبْنَهَا وَلَا تَخْطُبْنِ قِتَالَةً مَنْ تَنَا كَحْ
فَلَيْسَ يَنْفِي مَرْجُوْهَا بِمَخُوفِهَا، وَمَكْرُوْهَا إِمَّا تَأَمَّلْتَ رَاجِحُ
لَقَدْ قَالَ فِيهَا الْقَائِلُونَ فَأَكْثَرُوا وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لِعَمْرُكَ صَالِحُ
سُلاَفٌ، قُصَّارَاهَا ذُعَافٌ، وَمَرْكَبُ شَيْءٍ إِذَا اسْتَلْذَذْتَهُ فَهُوَ جَامِحُ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُهُ وَلَكِنْ لَهُ أَفْعَالُ سُوءٍ قَبَائِحُ

وقال أبو الطيب :

أَبْدًا نَسْتَرِدُّ مَاتَهُبُ الدُّنْيَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا ^(١)
وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْقَدْرِ لَا تَخْفُضُ عَهْدًا وَلَا تَتَّمُ وَصْلًا
كُلُّ دَمْعٍ بِسِيلٍ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفِكَ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى
شَيْمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا وَلَا أَذِ رَى لَذَا أَنْتَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا

وقال آخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا عَوَارٍ وَالْعَوَارِي مُسْتَرَدَّةٌ ^(٢)
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ

وقال محمد بن هانيء المغربي :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَالِعِينَ فَمُودِّعٍ وَثَاوٍ قَرِيحٍ الْجَفْنِ يَبْكِي لِرَاحِلٍ ^(٣)
فَا الدَّهْرُ إِلَّا كَالزَّمَانِ الَّذِي مَضَى وَلَا نَحْنُ إِلَّا كَالْقُرُونِ الْأَوَائِلِ
نُسَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ دَائِمٍ وَنَبْكِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ طَائِلِ
فَمَا عَاجِلٌ نَرْجُوهُ إِلَّا كَالْأَجْلِ وَلَا آجِلٌ نَخْشَاهُ إِلَّا كَالْعَاجِلِ

وقال ابن المظفر المغربي :

دُنْيَاكَ دَارُ غُرُورٍ وَنِعْمَةٌ مُسْتَعَارَةٌ
وَدَارُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَمَكْسَبٌ وَتِجَارَةٌ
وَرَأْسُ مَالِكَ نَفْسٍ فَخْفٌ عَلَيْهَا الْخَسَارَةُ

(١) ديوانه ٣ : ١٣١

(٢) محاضرات لأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .

وَلَا تَبْغَهَا بِأَكْلِ طَيْبِ عَرْفٍ وَشَارَةٍ
فَإِنَّ مُلْكَ سَلِيمٍ لَا يَفِي بِشَرَارَةٍ

وقال أبو العتاهية :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْبِرُّ وَالْكَرَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقَى غَضَاةٌ
وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الْفَقْرُ وَالْمَدَمُ (١)
إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ (٢)
وقال أيضاً :

تَعَلَّقْتُ بِأَمَالٍ طَوَالِ أَيْ آمَالٍ
وَأَقْبَلْتُ عَلَى الدُّنْيَا مُلِحًا أَيْ إِقْبَالَ
أَيَّاهَذَا تَجَهَّزْ إِيْرَاقِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ
فَلَا بَدَّ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى حَالٍ مِنْ الْحَالِ

وقال أيضاً :

سَكَنُ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ مَا يَهْدَى يُؤْذِنُ الزَّمَنُ ! (٣)
نَحْنُ فِي دَارٍ يُخْبِرُنَا بِيَلَاهَا نَاطِقٌ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَدَمْ فَرَحٌ لَامَرِي فِيهَا وَلَا حَزَنُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسُنَا كُنَّا بِالْمَوْتِ مُرْتَهَنُ
كُلِّ نَفْسٍ عِنْدَ مَوْتِهَا حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا السَّكْفَنُ
إِنَّ مَالَ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) ديوانه ٢١٣

(٣) ديوانه ٢٥٢

وقال أيضاً :

أَلَا إِنَّمَا كُنُّنَا بَائِدُ وَأَيُّ بَنَى آدَمَ خَالِدُ ^(١)
وَبَدَوْهُمْ كَأَنَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلُّهُ إِلَى رَبِّهِ عَائِدُ
فَوَاعَجَبَا كَيْفَ بَعْضَى الْإِ لَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وقال الرضى الموسوى :

يَا أَمَّنَ الْأَيَّامَ بَادِرُ صَرْفَهَا وَاعْلَمْ بِأَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَا ^(٢)
خُذْ مِنْ ثَرَائِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْأَيَّامُ وَالْوَرَاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعْشَرُ نَظَرُوا الزَّيْمَانَ بَعِيثُ فِيهِ فَعَانُوا
تَحْمُو عَلَى غَيْبِ الْغَنَى يَدُ الْغِنَا وَالْفَقْرُ عَنْ غَيْبِ الْفَقْرِ يَحَاثُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّهَوَاتُ أَوْ دُفِعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيرَاثُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الدُّنْيَةُ حَاجَةٌ فَلْيَجْنِ سَاحِرَ كَيْدِهَا النَّفَاثُ
طَلَّقْتُهَا أَلْفًا لِأَحْسِمَ دَاءَهَا وَطَلَّاقُ مَنْ عَزَمَ الطَّلَاقَ ثَلَاثُ
وَبَثَّهَا مَرَهُوبَةٌ ، وَعِدَاتُهَا مَكْدُوبَةٌ ، وَجِبَالُهَا أَنْكَاثُ
أَمْ الْمَصَائِبُ لَا تَزَالُ تَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ حَوَادِثٍ وَإِنَاثُ
إِنِّي لَا أَعْجَبُ لِلَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِجِبَالِ الدُّنْيَا ، وَهُنَّ رِثَاثُ
كَنَزُوا الْكُنُوزَ وَأَعْقَلُوا شَهْوَاهِهِمْ فَالْأَرْضُ تُشْبِعُ وَالْبَطُونُ غِرَاثُ
أَتَرَاهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ التَّقَى أَرْوَادُنَا ، وَدِيَارُنَا الْأَجْدَاثُ

(١) ديوانه ٦٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يَا أَمَّنَ الْأَقْدَارُ » .

وقال آخر :

هذه الدنيا إذا صرّفت وجهها لم تنفع الحيل
وإذا ما أقبلت لعم بصرتها كيف يفتعل
وإذا ما أذبرت لذكي غاب عنه السهل والجبل
فهي كالذؤلاب دائرة ترزقي طورا وتستغل
في زمان صار ثعلبه أسداً واستذاب الحمل
فالذئابي فيه ناصية والنواصي خضع ذلل
فاصبري يا نفس واحتلمي إن نفس الحر تحتمل

وقال أبو الطيب :

نعدّ المشرفيّة والعوالى
ونزّ تبط السوابق مقرّبات
ومن لم يعشق الدنيا قديماً
نصيبك في حياتك من حبيب
رمانى الدهر بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابني سهام
وهان فما أبالي بالرزايا
يدفن بمضناً بمضاً ويمشي
وكم عيني مقبلة النواحي
وتقتلنا المنون بلا قتال^(١)
وما يمنحين من خبب الليالي^(٢)
ولكن لا سبيل إلى الوصال !
نصيبك في منامك من خيال
فؤادي في غشاء من نبال
تكسرت النصال على النصال
لأني ما انتفعت بأن أبالي
أواخرنا على هام الأوالى
كحيل في الجنادل والرمال

(١) ديوانه ٣ : ٨ . المشرفة : السيوف ، والعوالى : الرماح .
(٢) المقرّبات من الحيل : الكرام التي تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُنْغَضٍ كَانَ لَا يُفْضِي لَخْطَبٍ وَبَالٍ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهَزَالِ

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مَا زَلَّتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِالْوَانِ الْقَدَى ^(١)
 الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ لَذَا نِتَاجُ ، وَلَذَا نِتَاجُ
 مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ يَحْبُثُ بَعْضُ وَيَعْلِبُ بَعْضُ
 لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ
 وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَا بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جِدَا
 إِنَّكَ لَوْ تَسْتَنَشِقُ الشَّجِيحَا وَجَدْتَهُ أَتَنَنْ شَيْءَ رِيحَا
 حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ مَا أَكْثَرَ الْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ !
 الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا مِنْ أَتَقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا
 هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمَنِي أَوْ فَذَرِ إِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدَرُ
 لِكُلِّ مَا يُوْذِي وَإِنْ قَلَّ الْمِ مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ !
 مَا نَتَفَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ وَخَيْرُ ذُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
 إِنْ الْفَسَادَ ضِدُّهُ الصَّلَاحُ وَرَبِّ جِدِّ جَرُّهُ الْمُزَاحُ
 مَنْ جَعَلَ النَّوْمَ عَيْنًا هَلَكَا مُبْلَغُكَ الشَّرَّ كِبَاغِيهِ لَكَا
 إِنْ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَى مَفْسَدَةٌ
 بُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرَكَهُ قَدْ يُوْهِنُ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
 مَا عَيْشُ مَنْ آفَتْهُ بَقَاةُ نَفْسٍ عَيْشًا نَاعِمًا قَنَاهُ

يَارُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهِدِهِ قَدْ سَرَّنا اللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ وَجَوْهَرُ وَأَوْسَطُ وَأَصْغَرُ وَأَكْبَرُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بِأكْبَرِهِ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلُّهُ مُنْمَزَجُ وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَفْتَلِجُ
عَجِبْتُ وَاسْتَعْرِفْتُ الشُّكُوتُ حَتَّى كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ وَالصَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ
وقال أيضاً:

كُلُّ عَلَى الدُّنْيَا لَهُ حِرْصُ وَالْحَادِثَاتُ لِنَاجِيَا قَرْصُ^(١)
وَكَمْ بِهَا مَنْ وَارَتْهُ فِي جَدَثٍ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ لَنَاظِرٍ شَخْصُ
يَهْوَى مِنَ الدُّنْيَا زِيَادَتَهَا وَزِيَادَةُ الدُّنْيَا هِيَ النَّقْصُ
لَيْدِ الْمَنِيَةِ فِي تَلَطُّفِهَا عَنْ ذُخْرِ كُلِّ نَفْسَةٍ فَحْصُ
وقال أيضاً:

أَبْلَغَ الدَّهْرِ لِي فِي مَوَاعِظِهِ بَلْ زَادَ فِيهِنَّ لِي مِنَ الْإِبْلَاغِ^(٢)
أَيَّ عَيْشٍ يَكُونُ أَطْيَبَ مِنْ عَيْشِ كِفَافِ قُوْتٍ بِقَدْرِ الْبَلَاغِ
غَصْبَتْنِي الْأَيَّامُ أَهْلِي وَمَالِي وَشُبَّانِي وَصَحْتِي وَفَرَاعِي
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ وَعَلَى نَفْسِهِ بَغْيُ كُلِّ بَاغِ
رُبَّ ذِي لَقْمَةٍ يَعْزُضُ مِنْهَا حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسَاغِ

وقال ابن المعتز:

حَمْدًا لِرَبِّي وَذَمًّا لِلزَّمَانِ فَمَا
كَفَتَ يَدِي أَمَلِي عَنْ كُلِّ مُطْلَبٍ
أَقْلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسْرَاتِي !
وَأَغْلَقْتُ بَابَهَا مِنْ دُونِ حَاجَاتِي
وله أيضا :

أَلَسْتَ تَرَى يَا صَاحِبَ مَا عَجَبَ الدَّهْرِ
لَقَدْ حَبَّبَ الْمَوْتَ الْبَقَاءَ الَّذِي أَرَى
فَذَمًّا لَهُ لَكِنْ لِلْخَالِقِ الشُّكْرَ
فَيَا حَبْذًا مِنِّي لِمَنْ سَكَنَ الْقَبْرَ
وَسُبْحَانَ رَبِّي رَاضِيًا بِقَضَائِهِ
وَكَانَ اتِّقَايَ الشَّرَّ يُفْرِئِي بِيَ الشَّرَّ
وله :

قُلْ لِدُنْيَا وَقَدْ تَمَكَّنْتُ مِنِّي
وَآخِرُ كَيْفَ شَتَّ خَرَقَ جَهُولٍ
فَأَفْعَلِي مَا أَرَدْتِ أَنْ تَفْعَلِي بِي
إِنْ عِنْدِي لَكَ اصْطِبَارَ لَبِيبٍ
وقال أبو العلاء المعري :

وَالدَّهْرُ إِزْرَامٌ وَنَقْضٌ وَتَنُ
لَوْ قَالَ لِي صَاحِبُهُ سَمٌّ
رَبِيقٌ وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلٌ^(١)
مَاجَزَتْ عَنْ نَاجِيَةٍ أَوْ بَدِيلٍ

وقال آخر:

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ
لَا بُدَّ أَنْ يُدْبِرَ أَوْ يُقْبِلَ

وقال أبو الطيب :

فَالِي وَلِلدُّنْيَا طَلَابِي نَجُومُهَا
وَمَسْمَعَايَ مِنْهَا فِي شِفَاهِ الْأَرَاقِمِ^(٢)

(١) سفت الزند ١٦١

(٢) ديوانه ٤ : ١١١. الأرقام : الحيات.

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَظَمْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى رِزْيَةٌ مَالٍ ، أَوْ فِرَاقُ حَبِيبِ

الوزير المهلبى :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَاشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ ^(١)
أَلَا رَحِمَ الْمُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْمِلَاتِ عَلَى أَخِيهِ

وله :

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ أَحْدَاثًا مِنَ الزَّمَنِ يَبْرِيْنَنِي مِثْلَ بَرِي الْقِدْحِ بِالسَّغَنِ
لَمْ يَبْقَ بِالْعَيْشِ لِي إِلَّا مَرَارَتُهُ إِذَا تَذَوَّقْتُهُ ، وَالْحُلُومِنْهُ فِي
لَا تَحْسَبْنِ نِعْمًا سَرَّ نَكَّ صُحْبَتُهَا إِلَّا مِفَاتِيحَ أَبْوَابٍ مِنَ الْحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَلَا أَيُّهَا الدَّهْرُ الَّذِي قَدْ مَلَّتُهُ سَأَلْتُكَ إِلَّا مَا سَلَّتْ حَيَاتِي
فَقَدْ وَجَلَّالِ اللَّهِ حَبَبَتْ جَاهِدًا إِلَيَّ - عَلَى كُرْهِ الْمَاتِ - تَمَاتِي

وله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَهْدِمُ مَا بَنَى وَبَسَلُبُ مَا أُعْطِيَ وَيُفْسِدُ مَا أُسْدَى
فَمَنْ سَرَّهُ أَلَّا يَرَى مَا يَسُوهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ قَدَا

البحترى :

كَانَ اللَّيَالَى أَغْرِيَتْ حَادِثَاتُهَا يُحِبُّ الَّذِي نَأْبَى ، وَبُغْضِ الَّذِي نَهْوَى ^(٢)

(١) ابن خلدون ١ : ١٤٢

(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عَرَفَ الْآيَامَ لَمْ يَرْ خَفَضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعْدُدْ مُضَرَّتَهَا بَلَوَى
أَبُو بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِي :

مَا أَثْقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهُ
حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِبَةِ
لَا تَشْكُرِ الدَّهْرَ لِمَا سَبَّهَ
فَاتَهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ بِالْهَبَةِ
وَأَمَّا أَخْطَا فِيكَ مَذْهَبَهُ
كَالنَّيْلِ قَدْ بَسَقِيَ مَكَانًا أُخْرِبَهُ
وَالشَّمَّ يَسْتَشْفِي بِهِ مَنْ شَرِبَهُ

وقال آخر :

يَسْعَى الْفَتَى فِي صَلَاحِ الْعَيْشِ مُجْتَهِدًا وَالدَّهْرُ مَا عَاشَ فِي إِفْسَادِهِ سَاعِي
آخر :

يَفِرُّ الْفَتَى مَرُّ اللَّيَالِي سَلِيمَةً وَهُنَّ بِهِ عَمَّا قَلِيلٍ عَوَائِرُ
آخر :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْاسٍ حَوَادِثُهُ أَنْاخَ بَاخِرِينَ
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أَنْكَرَ حَالًا مُنْكَرُهُ وَرَأَى مِنْ دَهْرِهِ مَا حَايَرُهُ
لَيْسَ بِالْمُنْكَرِ مَا أَنْكَرْتَهُ كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأَى مَا لَمْ يَرَهُ

ابن الرومي :

سَكَنَ الزَّمَانُ وَتَحْتَ سَكْنَتِهِ دَفَعُ مِنَ الْخَرَكَاتِ وَالْبَطَاشِ^(١)

كَأَلْفَمَوَاتٍ تَرَاهُ مُنْبَطِحًا بِالْأَرْضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّشِ
أَبُو الطَّيِّبِ :

إِنَّا لَنِي زَمَنٍ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَإِجْمَالُ^(١)
ذِكْرُ الْفَتَى عُمَرُ الْثَانِي وَحَاجَتُهُ مَافَاتُهُ ، وَفُضُّوا الْعَيْشِ أَشْغَالُ
وَقَالَ آخِرُ :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ وَأَيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجْرِ !
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لَوْ أَنَّ أُبْسِرَهُ يُبْلَقُ عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارِ لَمْ يَدْرِ
آخِرُ :

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نَحَازِرُهُ فِيمَا يَحْدُثُ كَغَبٍّ وَابْنُ مَسْعُودٍ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ تَغِبْ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُبْنِكْ مَيِّتٌ ، وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ
آخِرُ :

يَا زَمَانًا أَلْبَسَ الْأَحْرَارَ ذُلًا وَمَهَانَةً
لَسْتَ عِنْدِي بِزَمَانٍ إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانَةٌ
أَجُنُونٌ مَا نَرَاهُ مِنْكَ يَبْدُو أَمْ بِجَانَةٍ

الرَّضَى الْمَوْسَوِي :

تَأْتِي اللَّيَالِي أَنْ تَدِيمَا بُوْسًا لَخَلْقٍ أَوْ نَعِيمًا^(٢)
وَالْمَرَّةُ بِالْإِقْبَالِ يَبْلُغُ وَادِعًا خَطَرًا جَسِيمًا
فَإِذَا انْقَضَى إِقْبَالُهُ رَجَعَ الشَّفِيعُ لَهُ خَصِيمًا

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٦٤

وَهُوَ الزَّمَانُ إِذَا نَبَأَ سَلَبَ الَّذِي أُعْطِيَ قَدِيمًا
كَالرَّيْحِ تَرْجِعُ عَاصِفًا مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيمًا

أبو عثمان الخالدي :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَكْبَرَهَا فَمَا أَعَادَ عَلَيَّ أَحَدُهَا الصُّغْرَا
تَزِيدُنِي قَسْوَةَ الْأَيَّامِ طِيبَ ثَنًا كَأَنِّي الْمِسْكُ بَيْنَ الْفِهْرِ وَالْحَجَرَا

السري الرفاء :

تَنَكَّدَ هَذَا الدَّهْرُ فِيمَا يَرُومُهُ عَلَى أَنَّهُ فِيمَا نَحَازِرُهُ نَذْبُ (١)
فَسَيَرُ الَّذِي نَزَجُوهُ سَيْرٌ مَقِيدٌ وَسَيَرُ الَّذِي نَخْشَى غَوَائِلُهُ وَثْبُ

ابن الرومي :

أَلَا إِنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِبُ جَمَّةٌ وَأَعْجَبُهَا أَلَا يَشِيبُ وَلِيدُهَا
إِذَا ذَلَّ فِي الدُّنْيَا الْأَعْزَاءُ وَاكْتَسَتْ أَذِلَّتْهَا عِزًّا وَسَادَ مَسُودُهَا
هُنَاكَ فَلَا جَادَتْ سَمَاءٌ بِصُوبِهَا وَلَا أَمْرَعَتْ أَرْضٌ، وَلَا اخْضَرَّ عُودُهَا
أَرَى النَّاسَ تَحْسُوفًا بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا
وَمَا اخْتَفُفُ أَنْ يُبْلَى أَسَافِلُ بَلَدِهِ أَعَالِيهَا؛ أَوْ أَنْ يَسُودَ عَبِيدُهَا

السري الرفاء :

لَنَا مِنَ الدَّهْرِ خَصْمٌ لَا نَطَالِبُهُ فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ كَفَّتْ نَوَائِبُهُ (٢) !
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحًا مَنْ يُسَالِمُهُ فَكَيْفَ يَسْلُمُ مِنْهُ مَنْ يَحَارِبُهُ !
وَلَوْ أَمِنْتُ الَّذِي تَجْنِي أَرَاقِمُهُ عَلَى هَانَ الَّذِي تَجْنِي عَقَارِبُهُ

(١) ديوانه ٣٦

(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خَصْمٌ لَا تَطَالِبُهُ » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحْتُ أَحْوََالَ الزَّمَانِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَى غَيْرِ شَاكٍ لِلزَّمَانِ وَصُولُ^(١)
أَكَلَ خَلِيلٍ هَكَذَا غَيْرُ مَنْصِفٍ . وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بَخِيلُ !
ابن الرومی :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفٍ
كَثُلِ الْبَحْرِ يَفْرَقُ فِيهِ حَى وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُوفِهِ جِيفَةٍ
أَوِ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ
ابن نباتة :

وَأَصْفَرُ عَيْبٍ فِي زَمَانِكَ أَنَّهُ بِهِ الْعِلْمُ جَهْلٌ ، وَالْعَفَافُ فَسُوقٌ
وَكَيْفَ يُسَرَّ الْحَرْثُ فِيهِ بِمَطْلَبٍ وَمَا فِيهِ شَيْءٌ بِالسَّرُورِ حَقِيقُ !

أبو العتاهية :

لِتَجْذِبْنِي يَدُ الدُّنْيَا بِقُوَّتِهَا إِلَى الْمَنَايَا ، وَإِنْ نَازَعَتْهَا رَسَنِي^(٢)
لِلَّهِ دُنْيَا أَنَاسٍ دَائِبِينَ لَهَا قَدْ ارْتَمَعُوا فِي غِيَاضِ الْغَىِّ وَالْفِتَنِ
كَسَائِمَاتٍ رَوَاعٍ تَبْتَنِي سِمْنَا وَحَتَفُهَا لَوْ دَرَّتْ فِي ذَلِكَ السَّمَنِ
وله أيضا :

أُنْسَاكَ مَخْيَاكَ الْمَنَايَا نَطَلَبْتُ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا^(٣)

(١) ديوانه ٣١٥ (ونسر سامى الدهان) .

(٢) ديوانه ٢٨٨

(٣) ديوانه ٥٣

وَوَيْقَتَ بِالدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَانَا
وَعَزَمْتَ وَبِكَ عَلَى الْحَيَاةِ وَطُولِهَا عَزْمًا بَتَانَا
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ - فِيمَنْ قَدْ رَأَى - كَانَا فَمَا نَا
هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِزَّةٌ أَمْ خِلْتَ أَنَّ لَكَ انْقِلَابَانَا
وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّفَلُّتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَهَاتَانَا
كُلَّ نَصْبَحِهِ الْمَنِيَّةُ أَوْ تُبَيِّتُهُ بَيَانَا

وله :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلَّمَا كَبُرَتْ لَدَيْهِ (١)
تُهِنُ الْمَكْرَمِينَ لَهَا بِصُغْرِ تَهِنُ الْمَكْرَمِينَ لَهَا بِصُغْرِ
إِذَا اسْتَعْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَهُ إِذَا اسْتَعْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَهُ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَبَّ الدَّهْرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلَمَعُ (٢)
أَيَا بَنَى الدُّنْيَا لِفَيْزِكَ تَبَتَّنِي وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِفَيْزِكَ تَجَمَّعُ
أَرَى الْمَرْءَ وَثَابًا عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ وَلِلْمَرْءِ يَوْمًا لَا مَحَالَةَ مَضَرَعُ
يُنَازِلُ مَا لَا يَمْلِكُ الْمَلِكُ غَيْرُهُ مَتَى تَنْقُضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ بِشَبْعُ
وَأَيَّ امْرِئٍ فِي غَايَةٍ لَيْسَ نَفْسُهُ إِلَى غَايَةٍ أُخْرَى سَوَاهَا تَطْلَعُ

وله :

سَلِ الْآيَاتِ عَنْ أَمْرِ تَقَضَّتْ سَخِيرُكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّسُومُ (٣)

(١) ديوانه ٢٨٨

(٢) ديوانه ١٤٤

(٣) ديوانه ٢٤٦

تَرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ التَّفَانِي وَكَمْ قَدْ رَامَ قَبْلَكَ مَا تَرُومُ!
لَأْمُرٍ مَا تَصَرَّمَتِ اللَّيَالَى وَأَمْرِ مَا تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ
تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ الْمَنَايَا تَذَنُّبَةً لِلْمَنِيَةِ يَا تَتُومُ!
إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

حسبنا الله وحده ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين .

تم الجزء الثالث

وبلغ الجزء الرابع وأود في ذكر يوم النحر وصفة الأُضحية

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
١١-٤	بقية رد المرتضى على ما أورده القافى عبد الجبار بن الدفاع عن عثمان
٦٩-١١	ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها
٧٣-٧٠	بيعة جرير بن عبد الله البجليّ لملى
٧٤-٣٠	بيعة الأشعث لملى
٩١-٧٤	دعوة على معاوية إلى البيعة والطاعة ورد معاوية عليه
١١٥-٩١	أخبار متفرقة
١١٧-١١٥	مفارقة جرير بن عبد الله البجليّ لمعاوية
١١٨-١١٧	نسب جرير وبعض أخباره
١١٩	٤٤ - ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية
١٢٢-١٢٠	نسب بنى ناجية
١٢٦-١٢٢	نسب على بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره
١٢٧	نسب مصقلة بن هبيرة
١٢٧	خبر بنى ناجية مع على
١٥١-١٢٨	قصة الحرث بن راشد الناجي وخروجه على على
١٥٢	٤٥ - من خطبة له عليه السلام في الزهد وتعظيم الله وتصغير أمر الدنيا
١٥٤-١٥٣	فصل بلاغى في الموازنة والسجع
١٦٤-١٥٤	نبد من كلام الحكماء في مدح القناعة وذم الطمع
١٦٥	٤٦ - من كلام له عليه السلام عن عزمه على المسير إلى الشام
١٦٩-١٦٦	أدعية على عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية

صفحة

- ١٧١-١٦٩ كلام على حين نزل بكربلاء
- ١٨٦-١٧١ كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله
- ١٩٠-١٨٨ كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية وجوابه عليه
- ١٩٧ ٤٧ - من كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة
- ١٩٩-١٩٨ فصل في ذكر فضل الكوفة
- ٢٠٠ ٤٨ - من خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام
- ٢٠٢ أخبار على في جيشه وهو في طريقه إلى صفين
- ٢١٦ ٤٩ - من خطبة له في تمجيد الله سبحانه وتمجيده
- ٢١٧ فصول في العلم الإلهي :
- ٢٢١-٢٢١ الفصل الأول وهو الكلام في كونه تعالى علما بالأمور الخفية
- ٢٢٢-٢٢١ الفصل الثاني في تفسير قوله عليه السلام : « ودلت عليه أعلام الظهور »
- ٢٢٣-٢٢٢ الفصل الثالث في أن هويته تعالى غير هوية البشر .
- ٢٣٨-٢٢٣ الفصل الرابع في نقى التشبيه عنه تعالى
- ٢٣٩-٢٣٨ الفصل الخامس في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه
- ٢٤٠ ٥٠ - من خطبة له عليه السلام يصف وقوع الفتن
- ٢٤٤ ٥١ - من كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام
- ٢٤٩-٢٤٥ على شريعة الفرات بصفتين ومنعوم من الماء
- ٣١٢-٢٤٩ الأشعار الواردة في الإباء والأنف من احتمال الضيم
- ٣٣١-٣١٢ أباة الضيم وأخبره
- ٣٣١-٣١٢ غلبة معاوية على الماء بصفتين ثم غلبة على عليه بعد ذلك
- ٣٣٥ ٥٣ - من خطبة له في وصف الدنيا .
- ما قيل من الأشعار في ذم الدنيا

استدراك وتعليق (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	
٥	٤	في نسختي ١، ب « يحجم بذكرها » ، والصواب « يحجم » كما في نسخة ج ؛ وججم بالكلام : لم يبينه .
١٨٥	٢٢	الصواب : « والبأو بالذى حدث لك » ، وتحذف الحاشية رقم (٢) ، وبأى بنفسه ؛ فخر بها ، ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « في طلحة بأواء » .
١٨٨	١٣	الصواب : « صَفَق » بالتخفيف ، ويقال : صَفَقَ على يده ، أى بايعه .
١٩٦	٩	
٢٩٤	١٥	
١٨٩	١٦	تكتب العبارة كما وردت في الأصول هكذا : « يا عبد الله ما - تقول - منع قومكم منكم ؟ » ، وكلمة « تقول » هنا بمعنى الظن ، وفي الطبرى ٦ : ٣١ : « أتدرى ما منع قومكم منكم ؟ » .
١٩٣	١٤	ورد « العوام » من أبناء عبد المطلب من هالة بنت وهيب ، وكذا في جميع الأصول ؛ ويرى السيد مكى السيد جاسم أنها ربما كانت محرفة عن « الغيداق » ، وانظر نسب قریش ١٨ .
١٩٦	١٣	الصواب : « طاز بالزوراء » ، وذكر ياقوت أن الزوراء موضع عند سوق المدينة .

(*) انظر ما سبق في آخر الجزء الثانى .

الصفحة	السطر	
١٩٩	١٧	في جميع الأصول: « وضم إلى ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين » ، ويرى السيد مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه ، موجه إلى عبد الله ابن أبى سرح ، لا إلى معاوية .
٢٥٤	١٠	في ج : « انجزل » ، أى انقسم نصفين .
٢٦٢	٦	« وكان مُجَنَّفًا » ، أى ألبس التَّجَنَّفَاف ؛ وهو آلة للحرب توضع على الفرس ، وتحذف الحاشية رقم (١) .
٢٩٦	١٣	تحذف كلمة « فقال » ليستقيم الكلام .
٣٠٧	١	خطبة على بالمدينة .
٣٠٧	١٢	١ : « خشيت الصدور » ، وفي ج : « خشنت » ؛ وهو الأوجه ؛ وخشنت ، أى أوغرت ؛ ومنه قوله عنتره : * وخشنت صدرأجيبه لك ناصح *
٣٢٢	٢	الصواب : « والله لا يبخن بعدها » ، وفي اللسان (٣ : ٤٨٣) : « والله لا يبخن بعدها » .
٣٢٣	١٠	« عاقبة محمودة الأثر » يجوز النصب والرفع ، والنصب أفصح .
٣٢٧	١٢	« وإن قيل قاطع » ، يجوز فتح الهمزة وكسرها ؛ انظر التبريزي
		٣٨٠ : ١
٣٢٩	١١	صواب كتابة النص كما في ج : وقال بعض الحديثين : مَنِ اشْتَرَى بِمَالِهِ حُسْنَ الثَّنَا مَا غُبْنَا أَفْقَرَهُ سَمَاحُهُ وَذَلِكَ الْفَقْرُ الْغَنَى

الصفحة	السطر
٣٣٠	١٢، ١١ رواية الديوان للبيت الأول « شامية تزوى » ، أى تقبض . وللبيت الثانى : « تذاب منها » ، ويقال : تذاببت الريح ، إذا جاءت من هنا ومن هنا .

الجزء الثانى

٢٤	١	الأفصح : « مُزَمِّل » ، وازمَل الرجل بثوبه ، أى تلفف .
٣٧	١٤	صواب كتابة البيت :
		وَلَسَكِنْ أَمْرًا كَانَ أُبْرِمَ بَيْنَهُمْ وَإِنْ قَالَ قَوْمٌ فَلْتَةً غَيْرَ مُبْرِمٍ
٤٦	٧	« لخير له » لغة رديئة ، والأفصح : « خير له » .
١٥١	٤	الصواب : « فتربض به معاوية » ، والتربض : القعود عن النصر .
١٥٣	١١	صواب العبارة كما فى ج : « ولم تُقَدِ مِنْ نَفْسِكَ مَنْ ظَلَمْتَهُ » ،

تصويبات مطبعية (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٢٤	١١	أحمد بن يحيى بن جابر	١٧٩	٧	تقيده
٤٣	١	بشرح	١٧٩	١٨	الأعيسر
٥٤	٩	انضعوا الرحم	١٨٣	٦	سليمان بن عبد الملك
١٠٤	٨، ٧	بالتولد	١٨٣	١٥	لعلها
١٢٠	١٧	الراوندى	١٨٦	٣	يفنيه
١٤١	١	وأهله	١٩١	٣	غالب أمره
١٤١	٣	ونصرة الله	١٩١	١٢	فأرضوه
١٤٣	٤	لمعارية	١٩١	١٩	فيولتها
١٤٦	١٥	لجَلَج	١٩٢	١١	لا تُرْعُ
١٤٧	١٥	رسول الإمام	١٩٣	١٤	مِسَوَر
٢٤٩	٢	رئيس اليمانية	٢٣٠	٧	كان الزبير
١٤٩	١٤	نَزْرُك بِمَحْفَل	٢٣٣	١٥	ضجيجها
١٦٨	٥	لَيْلَه	٢٣٤	٩	مُحْرَج
١٧٠	٣	ظَلُوم	٢٣٤	١٣	بعض
١٧٤	٦	وَوَقَم	٢٤٩	٩	من بنى جُحج
١٧٥	١٦	ومعتلقاً	٢٥٠	٦	عُرُوض
			٢٥٠	٩	أَغْلَقَتْ

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر	الصواب
٢٥٠	١٠	فأقرعوا	٣١٦	١١	إِلَّا شَهَادَةً
٢٥٤	٥	حان	٣٢٠	١٠	الأحنف بن قيس
٢٥٦	٩	الصبي	٣٢٧	٥	أنك
٢٥٦	١٥، ٩	خطام	٣٢٩	١٥	ماقاته
	١٦		٣٣٥	١٧	شَقَعَ، بالتخفيف
٢٥٧	١٤	فرق	٣٣٨	٩	لا يقام
٢٥٨	٩	وعظمهم	٣٣٩	١٢	بأخس
٢٩٧	١٠	يخص	٣٤٢	٣	فرسان
٣٠٢	١٤	مجيء من يخلقون	٣٤٦	٣	أمره أن يقبل
٣٠٦	٤	بقيهم	٣٤٦	١٠	المستريح
			٣٤٦	١٢	مالا تعلمون

الجزء الثاني

الصفحة	السطر	المصواب	الصفحة	السطر	المصواب
٣	٥	بسر بن أرطاة	٣٩	١٤	ثم حُل
٥	١	خرجتُ	٤١	٥	أيقنت
٦	١	لا هتبلتها	٤٤	١١	فَصِيل
٨	١٢	أَضَعَفَتَ	٥١	١٩	«المقداد بن الأسود»
١٣	٥	فخرج ابنا عبيدالله	٥٨	١	فشكا
١٣	١٤	نُبِّثُ	٦٠	٧	سألوه البيعة
١٣	١٤	صَبِيْن	٦١	١٢	ووثقوا له
١٥	١٠	الأجرى	٦٣	٥	ياوردان
١٥	٢١، ١١	البكى	٦٣	١٦	أما على
١٦	١٢	أغذ السير	٦٥	٦	عمر بن سعد
٢٠	١٥	وأغضيت	٦٦	٣	أخذت بها
٢٦	٤	منسوق	٦٧	٤	لم يُحز
٣٢	٣	وأن تشر كنا	٦٧	٥	لم تُحز
٣٤	٣	ما ذكر لي	٦٧	٧	يُنْتَهز
٣٤	٧	أن يثبت	٩٠	١٠	نُعْظِم
٣٤	١٨	وقوعها	٩٥	١٧	مُورَق
٣٥	١١	يخرجُ	١٢١	٩	بغربي
٣٦	١٧	في الخبر	١٢١	١٦	عبد الرحمن بن عبيد
٣٧	١٢	واعلم أن			

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر	الصواب
١٢٨	٢	المحدثينا	١٥٣	١	فَلَمْ يَبَالَ
١٢٨	٣	وَرَفَعَ	١٥٣	٢	فَوَ كَل (بالتخفيف)
١٣٩	٣	لَا أَضِيقُ	١٤٣	٤	أَمَّا إِنْكُمْ
١٤٧	٥	فَتَلَعَبَ	١٥٦	٧	وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ
١٤٧	٨	بَذَى رَأْيِ	١٥٦	١١	وَنَدَّعَكَ



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الرابع

دار الحياة الكتب العربية
ميسى البابي الحلبي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

رُوجع هذا الجزء على النسخ الآتية :

١ - نسخة شرح ابن أبي الحديد ، المصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة المتحف البريطاني برقم ١٢٦ (المجموعة الأولى) ، وهى التى رمز لها بالحرف (ا).

٢ - نسخة شرح ابن أبي الحديد المطبوعة فى طهران سنة ١٢٧١ هـ وهى التى رمز لها بالحرف (ب).

٣ - نسخة نهج البلاغة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٤٨٤٠ - أدب ، وهى التى رمز لها بـ « مخطوطة النهج » .

٤ - نسخة شرح ابن أبي الحديد ، المصورة عن النسخة الخطية بمكتبة الظاهرية ، والمحفوظة برقم (٧٩٠٤ - عام) ، والتى رمز لها بالحرف (ج)

وقد وُصفت النسخ الثلاث الأولى فى مقدمة الجزء الأول ووصفت النسخة الرابعة فى مقدمة الجزء الثانى .

والله ولى التوفيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

{ ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٩
٣٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ }

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

المجلد الرابع

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

ومنها ^(١) في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ الْأَضْحِيَةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ
سَلِمَتِ الْأَضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجَرُّ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنَسِكِ .

قال الرضی رحمہ اللہ :

وَالْمَنَسِكُ هَاهُنَا : الْمَذْبَحُ .

الْبَنْحُ :

الأضحية : ما يذبح يوم النحر ، وما يجري مجراه أيام التشريق من النعم . واستشراف
أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أذن شرفاء أى منتصبة .

والعضباء : المكسورة القرن ، والتي تجرّ رجلها إلى المنسك كناية عن العرجاء ،
ويجوز المنسك ، بفتح السين وكسر ها .

[اختلاف الفقهاء في حكم الأضحية]

واختلف الفقهاء في وجوب الأضحية ، فقال أبو حنيفة : هي واجبة على المقيمين من أهل

(١) تنمة الخطبة الثانية والخمسين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر في وجوبها النصاب ، وبه قال مالك والثوري ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعي : الأضحية سنة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا في العمياء ؛ هل تجزئ أم لا ، فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك ؛ لأنه قال : إذا سلمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضي أنه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحية . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكى عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضى الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف ” بالمقنعة “ : إن الصادق عليه السلام سئل عن الرجل يهدي الهدى أو الأضحية وهي سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفقا عينها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهي حية : أن تجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ ، إلا أنه مكروه .

وأما العضباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك ، وكذلك الحكم في الجلحاء ؛ وهي التي لم يخلق لها قرن ، والقضماء ، وهي التي انكسر غلاف قرنها ، والشرقاء : وهي التي انتقب أذنهما من الكلى ، والخرقاء ، وهي التي شقت أذنهما طولا .

وقال مالك : إن كانت العضباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنخعي : لا تجوز التضحية بالعضباء .

فأما العرجاء التي كنى عنها بقوله: « تَجَرَّ رجلها إلى المنسك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزى ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزى . وقد نقل أصحاب الشافعى عنه فى أحد قوليهِ : أن الأضحية إذا كانت مريضاً يسيراً أجزأت .

وقال الماوردى من الشافعية فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلْقَةً أجزأت ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزى .



ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة :

الأفضل :

فَتَدَاكُّوا عَلَى تَدَاكِّ الْأَيْلِ الْيَمِّ يَوْمَ وِرْدِهَا ، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا ، وَخُلِعَتْ
مَثَانِيهَا ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ . وَقَدْ قَلَبْتُ هَذَا الْأَمْرَ
بَطْنُهُ وَظَهَرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ ، فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ
بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ ؛ فَكَانَتْ مُعَاجِلَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَاجِلَةِ الْعِقَابِ ،
وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ .

الشرح :

تدَاكُّوا : ازدحموا . والهم : العطاش . ويوم وِرْدِهَا : يوم شربها الماء . والمثاني :
الحبال ، جمع مِثْنَةٍ ومِثْنَةٌ ، بالفتح والكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغَاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصاراً ، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ،
واستحق العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى
الله عليه وآله » ؛ فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله ؟
قيل : إنه في حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا في أن تارك
الواجب يخلد في النار وإن لم يمحذ النبوة .

[بيعة على وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثر الناس وجهورُ
أر باب السَّير أن طلحة والزبير بايعاه طائعين غير مكرهين ، ثم تغيرت عزائمهما ، وفسدت
نياتهما ، وغدرا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبد الله بن مصعب ، والزبير بن بكار وشيعتهم ، ومن وافق
قولهم من بنى تيم بن مرة ، أر باب العصبية لطلحة : إنهما بايعا مكرهين ، وإن الزبير كان
يقول : بايعتُ واللج على قفى ، واللج سيف الأشر ، وقفى لغة هذلية ؛ إذا أضافوا المقصور
إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين فى الأخرى ؛ فيقولون : قد وافق ذلك
هوى ، أى هَوَاى ، وهذه عصى ، أى عصاى .

وذكر صاحبُ كتاب ”الأوائل“ ، أن الأشر جاء إلى على عليه السلام حين قتل عثمان ،
فقال : قم فبايع الناس ، فقد اجتمعوا لك ، ورغبوا فيك ؛ والله لئن نكلت عنها لتعصرن
عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئر سكن ، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزبير ،
لا يشك أن الأمر شورى ، فقال الأشر : أنتظرون أحدا ! قم يا طلحة فبايع ، فتعاس ،
فقال : قم يا بن الصَّعْبَة - وسل سيفه - فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع ، فقال قائل : أول
من بايعه أشل ، لا يتم أمره ، ثم لا يتم ، قال : قم يا زبير ، والله لا ينازع أحد إلا وضربت
قُرْطَه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انتال ساسُ عليه فبايعوا .

وقيل : أول من بايعه الأشر ، ألقى خيصة كانت عليه ، واختلط سيفه ، وجذب يد
على عليه السلام فبايعه : وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما
يعثران فى ثيابهما ، لا يرجوان نجاة ، حتى صفقا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدهما البصريون ؛

وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ أَبَا حَسَنٍ أَنَا نَيْرُ الْأَمْرِ إِمْرَارَ الرَّسَنِ

وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل^(١) الذي فيه أن الزبير أقر بالبيعة ، وادعى الوليعة :

أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أولهم طلحة والزبير ، وذكرنا في ذلك ما يطل رواية الزبير .

وذكر أبو مخنف في كتاب " الجمل " ، أن الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليظفروا مَنْ يولونه أمرهم ، حتى غص المسجد بأهله ، فاتفق رأي عمار وأبي الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب خالد بن يزيد ، على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة ، وكان أشدهم تهالكا عليه عمار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأنتم على شرف من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإن عليا أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيرا وأنفسنا إن شاء الله ، وإن عليا مَنْ قد علمتم ، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر منه ، ولا أولى به . فقال الناس بأجمعهم : قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل ، وقاموا كلهم ، فأتوا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بسط يده ، فقبضها فتداكوا عليه تدالك الإبل اليهم على وردها ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم مارأى ، سألهم أن تكون بيعة في المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فكان أول من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن

ذؤيب الأسدي : تخوفت ألا يتم له أمره ، لأن أول يد بايعته شلاء ، ثم بايعه الزبير ،

وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبي وقاص ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : يا بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايعَ جميعُ الناس ، فقال له على عليه السلام : فأعطني حِمِيلاً ألا تبرح ، قال : ولا أعطيك حِمِيلاً ، فقال الأشر : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا قد أَسِنَ سوطك وسيفك ، فدغى أضرب عنقه ، فقال : لست أريد ذلك منه على كُرْه ، خلّوا سيبله ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق ، وهو في كِبَرِه أسوأ خلقاً .

ثم أتى بسعد بن أبي وقاص ، فقال له بايع ، فقال : يا أبا الحسن خاتني ، فإذا لم يبق غيري بايعتُك ، فوالله لا يأتيك من قبلي أمر تكرهه أبداً ، فقال : صدق ، خلّوا سيبله .

ثم بعث إلى محمد بن مسلمة ، فلما أتاه قال له : بايع ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني إذا اختلف الناس وصاروا هكذا - وشبك بين أصابعه - أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد فإذا تقطع أتيت منزلي ، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية ، أو منية قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذاً ، فكن كما أمرت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : بايع ، فقال : إني مولاك ولا خلاف مني عليك ، وستأتيك يبعثي إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا .

فأما أصحابنا فإنهم يذكرون في كتبهم أن هؤلاء الزهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به

لما نذبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجبل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البيعة ، وإنما تخلفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب ” الفرر “ أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كل مفتون يعاتب ، أعندكم شك في بيعتي ؟ قالوا : لا ، قال : فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويت أنه قال : إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر ، ثم رويت أن جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضت يدي عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، وإذا ثبتت لم يحزله تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل على عليه السلام المسجد ، وجاء الناس ليبايعوه خفت أن يتكلم بعض أهل الشنآن لعلي عليه السلام ممن قتل أباه وأخاه ، أو ذا قرابته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيزهده على في الأمر ويتركه ، فكنت أرصد ذلك وأتخوفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غير مكرهين .

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلف عبد الله بن عمر ، وكلمه على عليه السلام في البيعة فامتنع عليه ، أتاه في اليوم الثاني ، فقال : إني لك ناصح ، إن بيعتك لم يرض بها كلهم ، فلو نظرت لدينك ورددت الأمر شورى بين المسلمين ! فقال على عليه السلام : ويحك ! وهل ما كان عن طلب مني له ! ألم يبلغك صديهم ؟ قم عني يا أحمق ، ما أنت وهذا الكلام !

فلما خرج أتى عليا في اليوم الثالث آتٍ ، فقال : إن ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبعث في أثره ، فجاءت أم كلثوم ابنته ، فسألته وضربت إليه فيه ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها في أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفَّ عن البعثة إليه ، وقال : دعوه وما أرادوه .



ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين :

الأضل :

أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلْتُ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ! فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ
أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: شَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ
يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعُشُوا إِلَيَّ ضَوْئِي، وَذَلِكَ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالَتِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثِمِهَا.

الشَّيْخُ :

من رواه : « أَكُلْتُ ذَلِكَ » بالنصب فمفعول فعل مقدر ، أى تفعل كل ذلك ، وكراهية
منصوب لأنه مفعول له . ومن رواه « أَكُلْتُ ذَلِكَ » بالرفع أجاز في « كراهية » الرفع والنصب ،
أما الرفع فإنه يجعل « كل » مبتدأ ، وكراهية خبره ؛ وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا
في الرواية الأولى ، ويجعل خبر المبتدأ محذوفاً ، تقديره : أَكُلْتُ هَذَا مَفْعُولاً ! أو تفعله كراهية
للموت ! ثم أقسم أنه لا يبالي أتعرض هو للموت حتى يموت أم جاء الموت ابتداء من غير
أن يتعرض له .

وعشا إلى النار يَعُشُو : استدلَّ عليها ببصر ضعيف ، قال :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعُشُو . إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ (١)

وهذا الكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشوا ليلاً إلى النار ؛ وذلك لأن بصائر أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشوا ببصرٍ ضعيف إلى النار في الليل ، قال : ذاك أحبّ إلى من أن أقتلهم على ضلالهم ، وإن كنتُ لو قتلهم على هذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أي رجعوا ، قال سبحانه : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ ^(١) أي ترجع .

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستماله قلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم ، مكث أياماً لا يرسل إلى معاوية ، ولا يأتيه من عند معاوية أحدٌ ، واستبطأ أهل العراق إذنه لم في القتال ، وقالوا : يا أمير المؤمنين خلّفنا ذراريّنا ونساءنا بالكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطناً ، ائذن لنا في القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام : ما قالوا ؟ فقال منهم قائل : إنّ الناس يظنون أنّك تكره الحرب كراهيةً للموت ، وإن من الناس من يظن أنّك في شكٍّ من قتال أهل الشام . فقال عليه السلام : ومتى كنتُ كارهاً للحرب قطّ ! إنّ من العجب حبّي لما غلاماً ويَفْعاً ، وكراهيتي لما شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت . وأما شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وِبِئْتاً ، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصى الله ورسوله ، ولسكني أستأني بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة ، فإن

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى يوم خير : لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس .

قال نصر بن مزاحم : حدثنا^(١) محمد بن عبيد الله عن الجرجاني ، قال : فبعث على عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مَحْصَن الأنصارى ، وسعيد بن قَيْس الهمدانيّ وشَبَثَ ابن الربيع التيميّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و]^(٢) إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شَبَثُ : يا أمير المؤمنين ، ألا تطعمه فى سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال : ائتوه الآن والقوه واحتجّوا عليه ، وانظروا مارأيه فى هذا^(٣) .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمد أبو عمرو بن مَحْصَن الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله مجازيك بعملك ومحاسبك بما قدّمت يداك ، وإننى أنشدك الله ألا تفرّق جماعة هذه الأمة ، وألا تسفك دماءها بينها . فقطع معاوية عليه السلام وقال : فهلاً أوصيت صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إن صاحبي لا يوصى ، إن صاحبي ليس مثلك ، صاحبي أحقّ الناس بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقراية من الرسول ! قال معاوية : فتقول ماذا ؟ قال : أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك . قال : ويطلّ دم عثمان ! لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

(١) صفين ٢٠٩

(٢) تكملة من صفين .

(٣) صفين : « وانظروا مارأيه - وهذاني شهر ربيع الآخر - فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلم ، فبدره شَبَث بن الرُّبَيْع ، فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
يامعاوية ، قد فهمتُ ما رَدَدْتَ على ابنِ مُحَضَّن ؛ إنه لا يخفى علينا ما تَقَرَّ وما تَطْلُب ،
إنك لا تجدُ شيئاً تستغوي به الناس ، ولا شيئاً تستميل به أهواءهم ؛ وتستخلص به طاعتهم
إلا أن قُلْتَ لهم : قُتِلَ إِمَامُكُمْ مَظْلُوماً ، فهَلُّوا نَظْلَب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَعام
رُذَال ، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل ؛ لهذه المنزلة التي تطلب ؛
وربّ مبتغٍ أمراً ، وطالبٍ ^(١) له يحولُ الله دونه ، وربّما أوتى المِثْمَنى أمنيته ، وربّما لم يُؤْتها ،
ووالله مَالِكٌ في واحدةٍ منهما خير ؛ والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لَشَرُّ العرب حالا ، ولئن
أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتّى تستحقَّ صَلى النار ؛ فاتق الله يامعاوية ، ودَعْ ما أنتَ عليه ،
ولا تنازع الأمر أهله .

فحَمِد معاوية الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد ؛ فإنَّ أولَ ما عرفتُ به سفهك وخفة حِلْمِكَ قَطْعُكَ على هذا الحسب
الشريف سيّد قومه منطقته . ثم عتبتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، ولقد كذّبت وَاوُؤمت ^(٢)
أيها الأعرجي الجلف الجافي في كلِّ ما وصفت [وذكّرت] ^(٣) . انصرفوا من عندي ؛
فإنّه ليس بيني وبينكم إلا السيف .

وغضب . فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تهوّل بالسيف ! أما والله لنعجلنّه إليك ،
[فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذي كان من قوله ، وذلك في شهر ربيع الآخر] ^(٣)
قال نصر : وخرَج قراء أهلِ العِراق ، وقراء أهل الشام فمسكروا ناحية صِفّين في
ثلاثين ألفا .

(١) صفين : « وطالبه » .

(٢) صفين : « ولويت » .

(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر على عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقه على الماء أيضا ، ومشت القُرَاء فيما بين على عليه السلام ومعاوية ، منهم عبيدة السلماني ، وعلقمة بن قيس النخعي ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس - وقد كان في بقض تلك السواحل - فانصرف إلى عسكر على عليه السلام ؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يا معاوية ، ما الذي تطلب ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : تمن تطلب بدم عثمان ؟ قال : أطلبه من على ، قالوا : وعلى قتله ؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على على عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان ، قال : اللهم لكذب فيما قال . لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً ، فرجعوا إلى على فقالوا : إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان ، فقال : اللهم لكذب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إن عليا يزعم أنه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادقا فليُقدنا ^(١) من قتل عثمان ، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعُضده . فرجعوا إلى على عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يقول لك : إن كنت صادقا فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم ، فقال لهم . إن القوم تأولوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه في سلطانه ، وليس على ضربهم قود ؛ فخصم ^(٢) على معاوية .

قلت : على ضربهم هاهنا على مثلهم : يقال : زيدٌ ضرب عمرو ، ومن ضرب به أي مثله ومن صنفه ، ولا أدري لم عدل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام ؛ وهو أن يقول : إن الذين باشروا قتله بأيديهم ؛ كانوا اثنين وهما قتيرة بن وهب وسودان ابن سُحران ، وكلاهما قُتل يوم الدار ، قتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندي وعُضدى

(١) صفيين : فليُمكننا .

(٢) خصمه ، أي غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرَوْا به ، وحصلوه وأجلُّبوا عليه ، وهَجَمُوا على داره ، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحمق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قَوَد . قال نصر : فقال لهم معاوية إن كان الأمرُ كما تزعمون ؛ فَلِمَ ابْتَزَّ الأمرَ ^(١) دوننا على غير مشورة مِنَّا ولا من هاهنا معنا ؟ فقال على عليه السلام : إنَّ الناسَ تَبَعَ المهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمرائهم ، فرضوا بي وبإيعونى ، ولست أستحلَّ أن أدعَ ضَرْبَ ^(٢) معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشقُّ عصامهم . فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بالُ مَنْ هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامروا فيه ^(٣) .

فانصرفوا إلى على عليه السلام ، فأخبروه بقوله ، فقال : وَيَحْكُم ! هذا للبدرين دون الصحابة ، ليس في الأرض بدري إلا وقد بايعنى وهو معى ، أو قد قام ودِضى ، فلا يفرَّتكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجُمَادَيْنِ ؛ وهم مع ذلك يَفْرَعُونَ الفَرْعَةَ فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القراء بينهم . قال : فزعوا في ثلاثة أشهر خمساً وثمانين فرعة ؛ كلُّ فرعة يزحفُ بعضهم إلى بعض ، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرج أبو أمامة الباهلى وأبو الدرداء ، فدخلوا على معاوية وكانا معه ، فقالا : يا معاوية ، علامَ تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لو أقدمُ منك إسلاماً ^(٤) ، وأحقَّ بهذا

(١) صفين : « فإله ابتز الأمر دوننا ؟ »

(٢) ضرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفي صفين : « فيؤامروه » .

(٤) صفين : « سلماً » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ! فقال : أقاتله على دَمِ عثمان ، وأنه آوى قتلته ، فقولوا له : فَلْيَقِدْنَا مِنْ قَتْلَتِهِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ .

فانطلقوا إلى على عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين تَرَوْنَ ، فخرج عشرون ألفاً أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لا يرى منهم إلا الحدق ، فقالوا : كُنَّا قَتْلَهُ ؛ فَإِنْ شَاءُوا فَلْيَرُومُوا ذَلِكَ مِنَّا . فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال .

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِيَ معاوية أن يتابع القراء علياً عليه السلام ، أخذ في المسكر ، وأخذ يحتال للقراء لـسكياً يُجْجَمُوا وَيَكْفُوا حتى ينظروا .

قال : فكتب في سهم : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ النَّاصِحِ ؛ إني أخبركم أن معاوية يريد أن يُفَجِّرَ عليكم الفرات فيغريكم ، فخذوا حذرکم . ثم رمى بالسهم في عسكر على عليه السلام ، فوقع السهم في يد رجل ، فقرأه ثم أقرأه صاحبه ، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، قولوا : هَذَا أَخِي لَنَا نَاصِحٌ ؛ كَتَبَ إِلَيْكُمْ يُخَبِّرُكُمْ بِمَا أَرَادَ مُعَاوِيَةُ ؛ فَلَمْ يَزَلِ السَّهْمُ يُقْرَأُ وَيَرْتَفَعُ حَتَّى رُفِعَ إِلَى عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَقَدْ بَعَثَ مُعَاوِيَةُ مَائَتِي رَجُلٍ مِنَ الْعَمَلَةِ إِلَى عَاقُولٍ ^(١) مِنَ النَّهْرِ ، بِأَيْدِيهِمُ الْمُرُورَ وَالزَّبْلُ ^(٢) يَحْفَرُونَ فِيهَا بِحِيَالٍ عَسْكَرَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . فقال على عليه السلام : وَيَحْكُمُ ! إِنْ الَّذِي يَعَالِجُ مُعَاوِيَةَ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ ، وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ ؛ إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يُزِيلَكُمْ عَنْ مَكَانِكُمْ ؛ فَاتَّبَعُوا عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا لَهُ : لَا نَدَّعِيهِمْ وَاللَّهِ يَحْفِرُونَ ، فَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَكُونُوا ضَعْفَى ، وَيَحْكُمُ ! لَا تَعْلَبُونِي عَلَى رَأْيِي . فقالوا : وَاللَّهِ لَنَرْتَحِلَنَّ ، فَإِنْ شِئْتَ فَارْتَحِلْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ ؛ فَارْتَحَلُوا وَصَعَدُوا بِعَسْكَرِهِمْ مَايَا ، وَارْتَحَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِيَّاتِ النَّاسِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

(١) عاقول النهر : ماعوج منه .

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المدعاة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أَنِّي أَطِغْتُ عَصَمْتُ قَوْمِي إِلَى رُكْنِ الْيَمَامَةِ أَوْ شَمَامٍ^(١)
وَلَكِنِّي مَتَى أَبْرَمْتُ أَمْرًا مُنِيتُ بِخُفِّ آرَاءِ الطَّغَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علي عليه السلام الذي كان فيه ، فدعا علي عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبني على رأيي^(٢) أنت والأشعث ! فدونكما . فقال الأشعث : أنا أ كفيك يا أمير المؤمنين ، سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك ، فجمع كندة فقال لهم : يا معشر كندة ، لا تنفضحوني اليوم ولا تحزوني ؛ فإنني إنميا أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجاله يمشون ، وييده رمح له يلقيه على الأرض ، ويقول : امشوا قيد رمحي هذا ، فيمشون ، فلم يزل يقيس لهم الأرض برمح ، ويمشون معه رجاله حتى لقي معاوية وسط بني سليم واقفا على الماء ، وقد جاءه أداني عسكره ، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة ، وانهى أوائل أهل العراق فزلوا ، وأقبل الأشتر في خيل من أهل العراق ، فحمل على معاوية ، والأشعث يحارب في ناحية أخرى ؛ فانحاز معاوية في بني سليم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاث فراسخ ، ثم نزل ووضع أهل الشام أبقالهم ، والأشعث يهدر ويقول : أرضيتك يا أمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طرفة بن العبد :

فِدَا لَبْنِي سَفْدَ عَلَى مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ^(٣)
مَا أَقَلَّتْ قَدَمَايَ إِنَّهُمْ نَعِمَ السَّاعُونَ فِي الْحَيِّ الشُّطْرِ^(٤)
وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ عَاتِبًا فَعَقَّبْتُمْ بِذُنُوبٍ غَيْرِ مُرٍّ^(٥)

(١) صنفين : « عصمت قومي » . وشمام : جبل لباهلة .

(٢) صنفين : « على رأيي » ، والرأي والرأي بمعنى .

(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبني قيس . . . من سر وضر »

(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد

(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أي جدتم عقب ذلك . ومر : نقبض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أي عقبتم عتي عليكم بمطاء حلو » .

كنت فيكم كالمغطى رأسه فانجلى اليوم قناعى وخُرُ^(١)
ساذراً أحسب غيَّ رَشَداً فتناهيتُ وقد صابت بِقُرُ^(٢)

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين ؛ قد غلب الله لك على الماء ، فقال على عليه السلام : أتتما

كما قال الشاعر :

تلاقينَ قَيْساً وأشياءهُ فيؤدِّدُ لِلْحَرْبِ نَاراً فَنَاراً
أخو الحرب إن لَقِحتْ بِأَزْلاً سَمّاً للعلا وأجل الخطار^(٣)

قال نصر : فكان كل واحدٍ من عليّ ومعاوية يُخرج الرجلَ الشريفَ في جماعة ، فيقاتل مثله ؛ وكانوا يكرهون أن يتزاحفوا بجميع الفيلق مخافة الاستئصال والملاك ، فاقتل الناسُ ذَا الحجةَ كله ، فلما انقضى تداعوا إلى أن يكفَّ بعضهم عن بعض ، إلى أن ينقضى الحرم ؛ لعلَّ الله أن يُجرى صلحاً أو إجماعاً ، فكفَّ الناسُ في الحرم بعضهم عن بعض .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن أبي الجاهد عن الحلّ بن خليفة ، قال ^(٤) : لما توادَعُوا في الحرم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصلح ، فأرسل عليّ عليه السلام إلى معاوية عدى بن حاتم الطائى وشبث بن ربعى التميمى ويزيد بن قيس وزياد ابن خَصَفَةَ ، فلما دخلوا عليه ، حمد الله تعالى عدى بن حاتم الطائى وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإننا أتيناك لندعوك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمتنا ، ويحقن به دماء

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية وانجلى : انكشف . وخُرُ : جمع خار .

(٢) السادر : الذى لا بهتم ولا يبالى ما صنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهى

(٣) العبر البازل : الذى طعن فى الناسه ، والخطار : الخطارة .

(٤) صفين ٢٢١ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٢

المسلمين . ندعوك إلى أفضل الناس سابقة ، وأحسنهم في الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه ^(١) الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رأوا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرك وغير من معك ؛ فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنك إنما جئت مُهدّدا ، ولم تأت مصلحا ، هيهات يا عدوّ ! إني لابنُ حرب ! ما يُقَعِّعُ لى بالشَّان ^(٢) أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنك لَمِنْ قتلته ؛ وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله .

فقال له شُبَّ بن ربيع ، وزِياد بن خَصَفَة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبْنَا فيما يعَمُّنا وإياك نفعُ .

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبيّ ، فقال : إنا لم نأتِكَ إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولِنُوَدِّىَ عنك ما سمعنا منك ؛ ولم ندعُ أن ننصح لك : وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجَّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عَرَفَتْ وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إن أهلَ الدين والفضل لا يعدُّونك بغى ، ولا يميلون ^(٣) بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإننا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهّد في الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه .

فحمّد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنكم دعوتكم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأما الجماعة التى دعوتكم إليها فَنِعَمًا هى ! وأما الطاعة لصاحبكم ؛ فإننا لانراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلنا ؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ؛ فنحن

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبرى : « استجمع له الناس » .

(٢) الشَّان : جمع شن ؛ وهو القربة الخلق ؛ كانوا يحركونها للابل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) التميل : الترجيح بين الشيئين .

لأنرد ذلك عليه أرايتم قتلَةَ صاحبنا ! ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؛ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شُبَيْثُ بْنُ رَبِيعٍ : أيسرك بالله يا معاوية ، أن أمكنّت من عمار بن ياسر فقتلته ! قال : وما ينعنى من ذلك ؛ والله لو أمكنني صاحبُكم من ابن سُمَيَّة مآقتله بعمان ؛ ولسكني كنت أقتله بنائل مولى غمّان !

فقال شُبَيْثُ : وإله السماء ما عدلتَ معدِلا ، ولا والذي لا إله إلا هو ؛ لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُمَدَّرَ الهامُ عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرضُ الفضاءَ عليك برُحبتها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيق .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خَصَفَةَ من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أخا ربيعة ؛ فإنّ عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلَةَ صاحبنا ؛ وإنّي أسألك النُصرة بأسرتك وعشيرتك ؛ ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أولئك أيّ المصريين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خَصَفَةَ يحدث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حمّدت الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعد ؛ فإنّي لعلّ بيني وبين ربّي وبما أنعم عليّ ؛ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ؛ ثم قت .

فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جانبه - : ما لهم عَضَبهم الله ! ما قنّبهم إلا قلب رجل واحد !

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبي راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ،

قال^(١) : بعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعث معه شُرْحَبِيل بن السَّمْط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي ، فدخلوا على علي عليه السلام فتكلم حبيب بن مسلمة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ويُنِيب إلى أمر الله ، فاستنقلمُ حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولئ الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم .

فقال له علي : وما أنت لأم لك ! والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر . اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذلك . فقام حبيب بن مسلمة ، وقال : أما والله لترينني حيثُ تكبره . فقال له عليه السلام : وما أنت ! ولو أجلبت بحنك ورجلك . اذهب فصوب وصعد ما بدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرْحَبِيل بن السَّمْط : إن كلمتك ، فلمعمرى ما كلامي لك إلا نحو كلام صاحبي ، فهل لي عندك جواب غير الجواب الذي أجبت به ؟^(٢) فقال : نعم ، قال : فقله^(٣) ؛ فحمد الله على عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضلالة ، ونعش^(٤) به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ؛ وقد أدى ما عليه ؛ فاستخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحسننا السيرة ، وعدلنا في الأمة ؛ ووجدنا

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٤

(٢-٢) وقعة صفين : « فقال علي عليه السلام : عندى جواب غير الذى أجبت به ، لك ولصاحبك »

وفى الطبري : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبت به » .

(٣) الطبري : « وانتاش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا ، ونحن آل الرسول ، وأحقُّ بالأمر ؛ فغفرنا ذلك لهما . ثم ولي أمر الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناسٌ فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم ، فقالوا لي : بايع ، فإن الأمة لا نرضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفتريق الناس ؛ فبايعتهم فلم يرُغنى إلا شقاق رجلين قد بايعا ^(١) ، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الإسلام ، طليق ابن طليق ، وحزب من الأحزاب ؛ لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلاً في الإسلام كارهين مكرهين ، فيا عجبا ^(٢) لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ؛ وتدعون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ؛ ولا تعدلوا بهم أحداً من الناس ؛ إني أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وإمارة الباطل ، وإحياء معالم الدين ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة . فقال له شرَحْبِيل ومَعْن بن يزيد : أنشهد أن عثمان قُتل مظلوماً . فقال لهما : إني لأقول ذلك ؛ قالوا : فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلوماً ، فنحن برآء منه ! ثم قاما فانصرفا . فقال علي عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٣) .

ثم أقبل على أصحابه ، فقال : لا يَكُن هؤلاء في ضلالتهم بأولي بالجد منكم في حقكم وطاعة إمامكم . ثم مكث الناس متوادعين إلى انصلاح الحرم ، فلما انصلاح الحرم واستقبل الناس صفراً من سنة سبع وثلاثين ، بعث علي عليه السلام نفرًا من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا

(١) صفين : « قد بايعاني »

(٢) صفين : « فعجبنا لكم » . وفي الطبري : « فلاغروا إلا خلافتكم معه » .

(٣) سورة النمل ٨٠ - ٨١ .

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مَرْثَدُ بْنُ الْحَارِثِ الْجُشَمِيُّ ، فنَادَى عند غروب الشمس : يَا أَهْلَ الشَّامِ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا وَأَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُونَ لَكُمْ : إِنَّا لَمْ نَكُفَّ عَنْكُمْ شَكًّا فِي أَمْرِكُمْ ؛ وَلَا إِبْقَاءَ عَلَيْكُمْ ؛ وَإِنَّمَا كَفَفْنَا عَنْكُمْ لخروج المحرَّم ، وقد انسلخ ؛ وَإِنَّا قَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَجِبُ الْخَائِنِينَ .

قال : فتحاجز الناس وثاروا إلى أمرائهم .

قال : نصر فأما رواية عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أَبِي الزَّيْبَرِ : أَنَّ نِدَاءَ مَرْثَدِ بْنِ الْحَارِثِ الْجُشَمِيِّ ، كَانَتْ صَوْرَتُهُ : يَا أَهْلَ الشَّامِ أَلَا إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي قَدْ اسْتَدْمْتُكُمْ وَاسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ ، لِتَرَا جِمْعُوا الْحَقَّ ، وَتُثْبِتُوا إِلَيْهِ ، وَاحْتَجَجْتُ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَدَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، فَلَمْ تَتَنَاهَوْا عَنْ طُفْيَانٍ ، وَلَمْ تُجِيبُوا إِلَى حَقِّ ، وَإِنِّي قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَجِبُ الْخَائِنِينَ .

قال : فنار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتئبان الكتائب ، وَبُعْبَيَّانَ الْعَسَاكِرَ ، وَأَوْقَدُوا النَّيْرَانَ ، وَجَاءُوا بِالشَّمْعِ ، وَبَاتَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كُلَّهَا ، يَعْجَى النَّاسُ ، وَيُكْتَبُ الْكِتَابُ وَيَدُورُ فِي النَّاسِ وَيَحْرُضُهُمْ .

قال نصر : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُنْدَبٍ ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ^(١) عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْمُرُنَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَقِينَا مَعَهُ عَدُوَّهُ ؛ فَيَقُولُ :

لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهى حُجَّة أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدِيرًا ، ولا تُجهزوا على جَرِيح ، ولا تكشفوا عَوْرَةَ ، ولا تُمَثِّلُوا قَتِيلًا ؛ فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتِكوا سِتْرًا ، ولا تدخلوا دارًا إلا بإذنى ؛ ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة إلا بإذنى ، وإن شتمن أعراضكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن ضِعاف القوى والأنفس والعقول ؛ ولقد كنّا وإنا لنؤمر بالسكفَ عنهن وهن مشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عَقبه من بعده .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد - يعنى ابن أبى خالد - عن أبى صادق ، أن عليا ^(١) عليه السلام حرّض الناس فى حروبه ، فقال :
عبادَ الله ، اتقوا الله وغضّوا أبصاركم ، واخفضوا الأصوات ، وأقلّوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوله والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٣) . اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

قال نصر : وكان ترتيب عسكر على عليه السلام ، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب ^(٤) : أنه جعل على الخليل عَمَّار بن ياسر ، وعلى الرَجَّالة عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى ، ودفع اللواء

(١) وقعة صفين ٢٣٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦

(٢) سورة الأنفال آية ٤٥

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦

(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عُتْبَةَ بن أبي وقاص الزَّهْرِيَّ ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعلى
 للميسرة عبد الله بن العباس ، وجعل على رَجَالَةَ الميمنة سليمان بن صُرَدَ الْخَزَاعِيَّ ، وعلى
 رَجَالَةَ الميسرة الحارث بن مرة العبدي ، وجعل القلبَ مُضَرَ الكوفة والبصرة ، وجعل
 على ميمنة القلب اليمين وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد أُلُويَةَ القبائل ، فأعطاها قوماً منهم
 بأعيانهم ؛ وجعلهم رؤساءهم وأمرأهم ، وجعل على قریش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس ،
 وعلى كِنْدَةَ حُجْر بن عدى الكندي ، وعلى بَكْرَ البصرة الحُصَيْن بن المنذر الرقاشي ،
 وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعلى خُزَاعَةَ عمرو بن الحِقِّ ، وعلى بَكْرَ الكوفة
 نَعِمْ بن هُبَيْرَة ، وعلى سَعْدَ البصرة ورِبابها جارية بن قُدَامَةَ السعدي ، وعلى بَجِيلَةَ رِفَاعَةَ
 ابن شَدَاد ، وعلى ذُهل الكوفة رُوَيْمًا الشيباني ، أو يزيد بن رُوَيْم ، وعلى عمرو البصرة
 وحَنَظَلَتِهَا أَعْيَن بن ضُبَيْعَة ، وعلى قُضَاعَةَ وطِيَّ عدى بن حاتم الطائي ، وعلى لهازم
 الكوفة عبد الله بن حَجَل العجلي ، وعلى تميم الكوفة عُمَيْر بن عطارِد ، وعلى الأزْد واليمن
 جُنْدَب بن زهير ، وعلى ذُهل البصرة خالد بن المعمر السدوسي ، وعلى عَمْرُو الكوفة
 وحَنَظَلَتِهَا شَبَث بن رَبِيعٍ ، وعلى هَمْدَان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حُرَيْث
 ابن جابر الجعفي^(١) ، وعلى سعد الكوفة ورِبابها الطُّفَيْل أبا صُرَيْمَة ، وعلى مَذْحِجَ الْأَشْجَرِ
 ابن الحارث النَّخَعِيَّ ، وعلى عبد القيس الكوفة صَعَصَعَة بن صُوحَان ، وعلى عبد القيس
 البصرة عمرو بن حنظلة ، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل الْبَكَّائِيَّ ، [وعلى
 عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعلى قریش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمي]^(٢) وعلى
 قيس البصرة قبيصة بن شَدَاد الهلالي ، وعلى اللقيف من القواصي القاسم بن حَنَظَلَةَ الْجُهَنِيَّ .
 وأما معاوية فاستعمل على الخيـل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعلى الرَجَالَةَ مسلم
 ابن عَقْبَةَ الْمُرَّيَّ ، وجعل على الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة حبيب

(١) صفين : « الحنفى » .

(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهرى ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على أهل دمشق - وهم القلب - الضحاك بن قيس الفهرى ، وعلى أهل حمص - وهم الميمنة - ذا الكلاع الحيرى ، وعلى أهل قنسرين - وهم في الميمنة أيضاً - زُفر بن الحارث الكلابى ، وعلى أهل الأردن - وهم الميسرة - سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي ، وعلى أهل فلسطين - وهم في الميسرة أيضاً - مسلمة بن مخلد ، وعلى رجالة أهل دمشق بُسر بن أبي أرطاة العامرى ، بن لوى بن غالب ، وعلى رجالة أهل حمص حَوْشبا ذا ظليم ، وعلى رجالة قيس طريف بن حابس الألهانى ، وعلى رجالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القينى ، وعلى رجالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدي ، وعلى رجالة قيس دمشق هام بن قبيصة ؛ وعلى قيس حمص وإيادها بلال بن أبي هُبيرة الأزدي ، [وحاتم بن المعتمر الباهلى] ^(١) ، وعلى رجالة الميمنة حابس بن سعيد الطائى ، وعلى قضاة دمشق حسان بن بخدل الكلبى ، وعلى قضاة عباد بن يزيد الكلبى ، وعلى كِنْدَةَ دمشق حسان بن حوى التَّسْكسكى ، وعلى كِنْدَةَ حمص يزيد بن هُبيرة السَّكُونى ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَلَى ، وعلى خَيْرٍ وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قضاة الأردن حبيش بن دلجة القينى ، وعلى كنانة فلسطين شريكا الكنانى ، وعلى مذحج الأردن الحارق بن الحارث الزبيدى ، وعلى جُذَام فلسطين ونخجها ناتل بن قيس الجذامى ، وعلى هَمْدَان الأردن حمزة بن مالك الهمدانى ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعمى ، وعلى غسان الأردن يزيد بن الحارث ، وعلى جميع القواصى القمعاق بن أبرهة الكَلَاعِى ؛ أصيب في المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان .

قال نصر : فأما رواية الشعبي ، التى رواها عنه إسماعيل بن أبي عُمَيْرَة ^(٢) ؛ فإنّ عليا

(١) من صفين .

(٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام ، بعث على ميمنته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُرَاعِي ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلى خيل الكوفة الأشتر ، وعلى البصرة سهل بن حنيف ، وعلى رَجَالَة الكوفة عَمَار بن ياسر ، وعلى رَجَالَة أهل البصرة قيس بن سعد - كان قد أقبل من مصر إلى صِفِّين وجعل معه هاشم بن عُتْبَة ، وجعل مسعود بن فدكي التميمي على قراء أهل البصرة ؛ وأما قراء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيْل ، وعمار بن ياسر .

قال نصر : وأما ^(١) ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية - فإنّ معاوية بعث على ميمنته ذا الكَلَّاج ، وعلى يسرته حبيب بن مَسْلَمَة الْفِهْرِي ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلي ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقْبَة الْمُرِّي على رَجَالَة دمشق ، والضحاك بن قيس على سائر الرَجَالَة بعد .

قال نصر : ^(٢) وتَبَاعَج رجال من أهل الشام على الموت ، وتحالفوا عليه ، وعَقَلُوا أنفسهم بالعائم ، وكانوا صُفُوفًا خَمْسَةً [معقلين] ^(٣) كانوا يخرجون فيصطفون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفون أحدَ عشرَ صفا أيضا . .

قال نصر : فخرجوا أوّلَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا وعلى مَنْ خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة

(١) صفين ٢٣٩

(٢) صفين ٢٣٩

(٣) من صفين

فاقتتلوا قتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عددها وعدتها ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمّل الخيل على الخيل ، والرجال على الرجال . ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض ؛ وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتتل الناس كأشد قتال كان ، وجعل عمار يقول : يا أهل الشام ، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أن يظهر دينه ، وينصر رسوله أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم ؛ وهو والله فيما يرى راهب غير راغب . ثم قبض الله رسوله ، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ، ومودة المجرم ! ألا وإنه معاوية ؛ فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممن يطفى نور الله ، ويظهر أعداء الله .

قال :- وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل في الخيل ، فحمل فصبر له ، وشدّ عمار في الرّجالة ، فأزال عمرو بن العاص عن موقفه ، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاه ^(١) من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العقيلي ؛ وأمهما هند الزبيدية ، فانصرف كل واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك .

قال نصر : وحدثني ^(٢) أبو عبد الرحمن المسعودي قال : حدثني يونس بن الأرقم ، عمّ حدثه من شيوخ بكر بن وائل ، قال : كنا مع علي عليه السلام بصفين ، فرفع عمرو ابن العاص شقة خيمية سوداء في رأس رُمح ، فقال ناس : هذا لواء عقده له رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يزالوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى علي عليه السلام ، فقال :

(١) في الطبري : « لأمه » .

(٢) صفين ٢٤١

أَتَدْرُونَ مَا أَمْرُ هَذَا الْوَلَاءِ ! إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ عَمْرَأً أَخْرَجَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ هَذِهِ الشُّقَّةَ ، فَقَالَ : مَنْ يَأْخُذْهَا بِمَا فِيهَا ؟ فَقَالَ عَمْرُو : وَمَا فِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : فِيهَا أَلَّا تَقَاتِلَ بِهَا مُسْلِمًا وَلَا تَقْرَبَهَا مِنْ كَافِرٍ ؛ فَأَخْذَهَا ؛ فَقَدْ وَاللَّهِ قَرَبَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَاتِلَ بِهَا الْيَوْمَ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ؛ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْهُمْ اسْتَسْلَمُوا وَأَسْرَوْا الْكَفَرَ ؛ فَلَمَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا أَظْهَرُوهُ .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَسْعُودِيِّ ، عَنْ يُونُسَ بْنِ الْأَرْقَمِ ، عَنْ عَوْفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ عَمْرُو بْنِ هَنْدٍ الْبَجَلِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ ^(١) : لَمَّا نَظَرَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَايَاتٍ مُعَاوِيَةَ وَأَهْلَ الشَّامِ ، قَالَ : وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ؛ مَا أَسْلَمُوا ؛ وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسْرَوْا الْكَفَرَ ؛ فَلَمَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا ، رَجَعُوا إِلَى عَدَاوَتِهِمْ لَنَا ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا الصَّلَاةَ .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ سِيَاهٍ ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، قَالَ : ^(١) لَمَّا كَانَ قِتَالُ صَفَيْنَ ، قَالَ رَجُلٌ لِعِمَارٍ : يَا أَبَا الْيَقْظَانِ ؛ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ : « قَاتِلُوا النَّاسَ حَتَّى يُسْلَمُوا ؛ فَإِذَا أَسْلَمُوا عَصَمُوا مَتْنِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ » ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا أَسْلَمُوا ؛ وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسْرَوْا الْكَفَرَ حَتَّى وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ ، عَنْ أَبِي ثَابِتٍ ، عَنْ مَنْذَرِ الثَّوْرِيِّ ، قَالَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ : لَمَّا ^(١) أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي وَمِنْ أَسْفَلِهِ ،

وملاً الأودية كتائب - بمعنى يوم فتح مكة - استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل ، عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبي النجود ، عن زرّ بن حبیش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه » ، فقال الحسن : فوالله ما فعلوا ولا أفعلوا^(١)



ومى كلام له عليه السلام :

الأضل :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا
وَأَعْمَامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ
الْأَلَمِ ، وَجِدًّا فِي ^(١) جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ
تَصَاوُلَ الْفَخْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا : أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ
عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا
النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ، وَمُتَّبِعًا أَوْطَانَهُ .
وَلَمَعَرَى لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا أَخْضَرَ لِلْإِيمَانِ عُودٌ .
وَأَيُّمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا ، وَلَتَتَّبِعُنَّهَا نَدَمًا !

الشَّيْخُ :

لَقَمُ الطَّرِيقِ : الْجَادَّةُ الْوَاضِحَةُ مِنْهَا . وَالْمَضَضُ : لَذْعُ الْأَلَمِ وَبِرَحَاؤِهِ . وَالتَّصَاوُلُ :
أَنْ يَحْمَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرْنَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ . وَالتَّخَالَسُ : التَّسَالُبُ وَالِاتِّهَابُ .
وَالْكَبْتُ : الْإِذْلَالُ . وَجِرَانُ الْبَعِيرِ : مَقْدَمُ عُنُقِهِ . وَتَبَوَّاتُ الْمَنْزِلِ : نَزْلَتُهُ . وَيُقَالُ
لِمَنْ أَسْرَفَ فِي الْأَمْرِ لَتَحْتَلِبَنَّ دَمًا ، وَأَصْلُهُ النَّاقَةُ يَفْرِطُ فِي حَلْبِهَا فَيَحْلِبُ الْحَالِبُ الدَّمَ .

(١) مخطوطة النهج : « فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ » .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله: « استقرّ الإسلامُ ملقياً جِرانه »، أى ثابتاً متمكناً، كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوّناً أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ما قام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العمُدِ .

وقوله : « ولا اخضرّ للإيمان عود »، جعله كاشجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله ؛ فكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجُمّ الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بَدْر وأُحُد ؛ وهم عشيرته وبنو عمّه ، وقتلَ عمرُ ابن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبة ابن ربيعة يومَ بَدْر ؛ وهو ابنُ عمه لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة .

وأما كَوْنُ الرجل منهم وقِرْنَه يتصاولان ويتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليد بن عُتْبَة، وبارز طلحةَ بن أبى طلحة ، وبارز عمرو بن عبد ود ؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ، وبارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقتلهم ؛ وبارز جماعةً من شُجَّان الصحابة جماعةً من المشركين ؛ فمنهم مَنْ قُتِلَ ، ومنهم مَنْ قُتِلَ ، وكتب المغازى تتضمن تفصيل ذلك .

[فتنة عبد الله بن الحضرميّ بالبصرة]

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرميّ حيث قدم البصرة من قبل معاوية ، واستنهض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال النقفى فى كتاب ” الغارات “ :

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا الحسن بن علي الزعفراني ، عن محمد بن عبد الله ابن عثمان ، عن ابن أبي سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدي ، عن عمرو بن محسن ، أن معاوية لما أصاب محمد بن أبي بكر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمي ، فقال له : سر إلى البصرة ؛ فإن جل أهلها يرون رأينا في عثمان ، ويعظمون قتله ، وقد قتلوا في الطلب بدمه ، فهم موتورون حنقون لما أصابهم ؛ ودؤوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان ؛ واحذر ربيعة ، وانزل في مضر ، وتودد الأزدي ؛ فإن الأزدي كلها معك إلا قليلاً منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غير مخالفين .

فقال عبد الله بن الحضرمي له : أنا سهم في كنانتك ، وأنا من قد جربت ، وعدو أهل حربك ، وظهرك على قتلة عثمان ؛ فوجهني إليهم متى شئت . فقال : اخرج غدا إن شاء الله . فودعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدثون ، فقال لهم معاوية : في أي منزل ينزل القمر الليلة ؟ فقالوا : بسعد الذابح ، فكره معاوية ذلك ، وأرسل إليه ألا تبرح حتى ياتيك أمرى . فأقام .

ورأى معاوية أن يكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عامله عليها ، يستطلع رأيه في ذلك ، فكتب إليه ؛ وقد كان تسمى بإمرة المؤمنين بعد يوم صيفين ، وبعد تحكيم الحكيم :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإني قد رأيت رأياً هممت بإمضائه ، ولم يخذلني عنه

إلا استطلاع رأيك ؛ فإن توافقتي أحدُ الله وأمضه ؛ وإن تخالفني ؛ فإنني أستخيرُ الله وأستهديه. إني نظرتُ في أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظمَ أهلها لنا ولياً وعلوّ شيعته عدوا ؛ وقد أوقعَ بهم على الوقعة التي علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتُ أنّ قتلنا ابن أبي بكر ، ووقعتنا بأهل مصر ، قد أطفأتُ نيران أصحاب عليّ في الآفاق ، ورفعت رموس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلغَ من كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحدٌ ممن يرى رأينا أكثرَ عدداً ، ولا أضرَّ خلافاً على عليّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمي ، فينزل في مضر ويتودّد الأزدي ، ويحذر ربيعة ، ويتغنى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة عليّ بهم ؛ التي أهلكتُ صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم ، فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفسدَ على عليّ وشيعته ذلك الفرج من الأرض ؛ ومتى يؤتوا من خلفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدُهم . فهذا رأيي فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولى إلا قدر مضى الساعة التي ينتظرُ فيها جواب كتابي هذا . أرشدنا الله وإياك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغني رسولك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيك الذي رأيته ، فعجبتُ له ، وقلت : إنّ الذي ألقاه في روعك ، وجعله في نفسك هو التأثير بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يك منك ولا مِنّا منذ نهضنا في هذه الحروب وناديناهم أهلها ، ولا رأى الناس ، رأياً أضرَّ على عدوك ، ولا أسرَّ لوليك من هذا الأمر الذي ألهمته ، فامض رأيك مسدداً ؛ فقد وجّهت الصليب الأريب الناصح غير الظنين والسلام .

فلما جاءه كتاب عمرو ، دعا ابن الحضرمي - وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخص ، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه - فقال : يا ابن الحضرمي ، سر على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مضر ، واحذر ربيعة ، وتودد الأزدي ، وانع ابن عفان ، وذكّرهم الوقعة التي أهلكتهم ، ومنّ لمن سمع وأطاع دنيا لا تنفي ، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده .

فودعه ثم خرج من عنده ، وقد دفع إليه كتاباً ، وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس . قال عمرو بن محصن : فكنْتُ معه حين خرج ، فلما خرجنا سرنا ما شاء الله أن نسير ، فسنّح لنا طي أغضب^(١) عن شمائلنا ، فنظرت إليه ؛ فوالله لرأيت الكراهية في وجهه ؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة في بني تميم ، فسمعَ بقُدومنا أهلُ البصرة ؛ فجاءنا كلٌّ مَنْ يرى رأى عثمان ، فاجتمع إلينا رؤوس أهلها ؛ فحمد الله ابنُ الحضرمي وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ أيها الناس ؛ فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان ، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ظمأً ، فطلبتم بدمه ، وقاتلتم مَنْ قَتَله ، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً ؛ وقد أصيبَ منكم الملائ الأخيار ؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم ؛ لهم بأسٌ يُتَّقَى ، وعدد لا يُحصى ؛ فلقوا عدوّكم الذين قتلوكم ؛ فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين ، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا ، فالثوم وساعدوهم ، وتدكروا ثأرَكم لتشفوا صدوركم من عدوّكم .

فقام إليه الضحّاك بن عبد الله الهلاليّ ، فقال : قَبَحَ الله ما جئتنا به ، وما دعوتنا إليه ! جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير ؛ أتينا وقد بايعنا علياً ، واجتمعنا له ، فكلّمنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم ، فدعوانا إلى الفرقة ، وقاموا فينا بزُخرف القول ؛ حتى ضربنا بعضنا ببعض عدواناً وظمأً ؛ فاقتلنا على ذلك ، وإسمُ الله ، ما سلمنا من عظيم وبال

(١) الأعضب : مكسور أحد القرنين ؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى أقال العثرة ، وعفا عن المسيء ، وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أعماقها ، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدّل بهذا الأمر عن عليّ ! والله ليوم من أيام عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن حازم السلمى ، فقال للضحّاك : اسكت ؛ فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمي ، فقال : نحن يدك وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضحّاك لابن حازم : يابن السوداء ؛ والله لا يعزّ من نصرت ، ولا يذلّ بخذلانك من خذلت ؛ فتشأتما .

قال صاحب كتاب الغارات : والضحّاك هذا هو الذى يقول :

يأْيَهَذَا السَّائِلِ عَنْ نَسَبِي بين ثقيفٍ وهلالٍ منصبي
* أُمِّيَ أَسْمَاءَ وَضَحَّاكُ أَبِي *

قال : وهو القائل في بني العباس :

مَا وَلَدَتْ مِنْ نَاقَةٍ لِفَحْلٍ فِي جَبَلٍ نَعْلُهُ وَسَهْلٍ
كَسْتُهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الْفَضْلِ أَكْرَمَ بِهَا مِنْ كَهْلَةٍ وَكَهْلٍ
عَمَّ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى ذِي الْفَضْلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبَاءِ بَعْدَ الرُّسُلِ

قال : فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشيّ ثم التميمي ، فقال : عباد الله ؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد أن تقتتلوا ولا تتنازروا ؛ ولكننا إنما ندعوكم إلى أن تجتمعوا كلمتكم ، وتوازروا إخوانكم ؛ الذين هم على رأيكم ، وأن تلمّوا شعثكم

وَتَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ؛ فَهَلَا مَهْلًا ! رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، اسْتَمِعُوا لِهَذَا الْكِتَابِ وَأَطِيعُوا ، الَّذِي يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ .

فَقَضُوا كِتَابَ مُعَاوِيَةَ وَإِذَا فِيهِ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُعَاوِيَةَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى مَنْ قَرَأَ كِتَابِي هَذَا عَلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ سَفْكَ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَتْمَا ، وَقَتْلَ النَفُوسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا هَلَاكٌ مُوَبِّقٌ ، وَخُسْرَانٌ مُبِينٌ ؛ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَمَنِّيَ سَفْكِهَا صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَقَدْ رَأَيْتُمْ رَحِمَكُمُ اللَّهُ آثَارَ ابْنِ عَفَّانَ وَسِيرَتَهُ ، وَحُبَّهُ لِلْعَافِيَةِ ، وَمَقْدَلَتَهُ ، وَسَدَّهُ لِلثُّغُورِ ، وَإِعْطَاءَهُ فِي الْحَقُوقِ ، وَإِنْصَافَهُ لِلْمَظْلُومِ ، وَحُبَّهُ الضَّعِيفِ ؛ حَتَّى تَوَثَّبَ عَلَيْهِ الْمُتَوَثِّبُونَ ؛ وَتَظَاهَرَ عَلَيْهِ الظَّالِمُونَ ، فَقَتَلُوهُ مُسْلِمًا مُحَرَّمًا ظِلْمًا صَافِيًا لَمْ يَسْفِكْ فِيهِمْ دَمًا ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَا يَطْلُبُونَهُ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ وَلَا سَوْطٍ ، وَإِنَّمَا نَدْعُوكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ ، وَإِلَى قِتَالِ مَنْ قَتَلَهُ ؛ فَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ عَلَى أَمْرِ هُدًى وَاضِحٍ ، وَسَبِيلٍ مُسْتَقِيمٍ . إِنَّكُمْ إِنْ جَامَعْتُمُونَا طَفَعَتِ النَّارُ ، وَاجْتَمَعَتِ الْكَلِمَةُ ، وَاسْتَقَامَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَقْرَبَ الظَّالِمُونَ الْمُتَوَثِّبُونَ الَّذِينَ قَتَلُوا إِمَامَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ فَاخِذُوا بِجَرَائِرِهِمْ وَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . إِنَّ لَكُمْ أَنْ أَعْمَلَ فِيكُمْ بِالْكِتَابِ ، وَأَنْ أَعْطِيَكُمْ فِي السَّنَةِ عَطَاءَيْنِ ، وَلَا أَحْتَمِلَ فَضْلًا مِنْ فَيْئَتِكُمْ عَنْكُمْ أَبَدًا ، فَسَارِعُوا إِلَى مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا مِنَ الصَّالِحِينَ ؛ كَانَ مِنْ أَمَنَاءِ خَلِيفَتِكُمُ الْمَظْلُومِ ابْنِ عَفَّانَ وَعَمَالِهِ وَأَعْوَانِهِ عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ ؛ جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ تَمَنِّيَ يَجِيبُ إِلَى الْحَقِّ وَيَعْرِفُهُ ، وَيُنْكِرُ الْبَاطِلَ وَيُجَاهِدُهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

قَالَ : فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ ، قَالَ مُعْظَمُهُمْ : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .

قَالَ : وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ ، عَنْ عَلِيٍّ ، عَنْ أَبِي زَهْرٍ ، عَنْ أَبِي مُنْقَرٍ الشَّيْبَانِيِّ ، قَالَ : قَالَ الْأَحْنَفُ لِمَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ كِتَابُ مُعَاوِيَةَ : أَمَا أَنَا فَلَا نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلٍ ، وَاعْتَزَلَ أَمْرَهُمْ ذَلِكَ .

وقال عمرو بن مرحوم ، من عبد القيس : أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكثوا بيعتكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقية ؛ ألا إني قد نصحت لكم ؛ ولكن لا تحبون الناصحين .

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، عن الأسود بن قيس ، عن ثعلبة بن عباد أن الذي كان سدّد معاوية رأيه في تسريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن ضحّاك العبدى ، وهو من كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومه في حبهم عليّاً عليه السلام ونصرتهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر ؛ الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعاً وبقياً ، فقرت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ وبردت أفتدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولندوة مغارقين ؛ ولكم موالين ، وبك راضين ؛ فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا عفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان قَعَلْت ؛ فإنى لا أخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وأن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمْتُ رأياً سوى ما كتب به إلى هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقيلت مشورتك ، رَحِمَك الله وسددك ، اثبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاكَ ، وكأنك بالجلس قد أطلَّ عليك فسررت وحييت ؛ والسلام .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني علي بن أبي سيف عن أبي زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمي في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فاتوه ، فقال لهم : أجيئوني إلى الحق ، وانصروني على هذا الأمر .

قال : وإن الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علي عليه السلام إلى الكوفة يعزيه عن محمد بن أبي بكر ، قال : فقام إليه ابن ضحّاك ، فقال : إي والذي له أسعى ، وإياه أخشى ، لنصرتك بأسيا فانا وأيدنا .

وقام المثني بن محرمة العبدي فقال : لا والذي لا إله إلا هو ، إني لم ترجع إلى مكانك الذي أقبلت منه لنجاهدتك بأسيا فانا وأيدنا ، ونبالنا وأسنة رماحنا ، نحن ندع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغ ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسير كتيبة ، ونفلق السيوف بالهام .

فأقبل ابن الحضرمي على صبرة بن شيّان الأزدي فقال : يا صبرة ، أنت رأس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ، وأحد الطلبة بدم عثمان ، رأينا رأيك ، ورأيك رأينا ، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت فانصرتني ، وكُن من دوني . فقال له : إن أنت أتيتني فزلت في داري نصرتك ومنعتك . فقال : إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أنزل في قومه من مُضر ، فقال : اتبع ما أمرك به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناس إلى ابن الحضرمي ، وكثر تبعه ، ففرغ لذلك زياد وهالة وهو في دار الإمارة ، فبعث إلى الحصين بن المنذر ومالك بن مسعم ، فدعاهما ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصار أمير المؤمنين وشيعته وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورأيه .

فأما مالك بن مسعم ، فقال : هذا أمر فيه نظر ، أرجع إلى من ورأى ، وأنظر واستشير في ذلك . وأما الحصين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذلك ولن نسلحك .

فلم يرَ زياد من القوم ما يطمئن إليه ، فبعث إلى صبرة بن شيان الأزدي ، فقال :
يا بن شيان ، أنت سيد قومك ، وأحد عظماء هذا المِصر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم
أهله فانت ذاك ؛ أفلا تجيرني وتمنّني ، وتمنع بيت مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه .
فقال : بلى ، إن تحملت حتى تنزل في داري منعتك ، فقال : إني فاعل .

فارتحل ليلاً حتى نزل دار صبرة بن شيان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس - ولم يكن
معاوية ادّعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة علي عليه السلام :
للأمين عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنَّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمي أقبل من قبل معاوية
حتى نزل في بني تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه جُلُّ أهل البصرة ، فلما
رأيت ذلك استجرت بالأزد بصبرة بن شيان وقومه لنفسى وليت مال المسلمين ، ورحلتُ
من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإن الأزد معي ، وشيعة أمير المؤمنين من فرسان القبائل
تختلف إلى ، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمي ؛ والقصر خالٍ منا ومنهم ، فارفع ذلك
إلى أمير المؤمنين ، ليَرى فيه رأيه : يا عَجِل إلى بالذي ترى أن يكون منه فيه ، والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فرفع ذلك ابنُ عباس إلى علي عليه السلام ، وشاع في الناس بالكوفة ما كان
ذلك ، وكانت بنو تميم وقيس ، ومن يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابنَ الحضرمي أن يسيرَ
إلى قصر الإمارة حين خلاه زياد ، فلما تهيأ لذلك ودعا أصحابه ، ركبت الأزد ، وبعثت
إليه وإليهم : إنا والله لا ندعكم تأتون القصر فتتزلون فيه من لا نرضى ، ومن نحن له
كارهون ؛ حتى يأتي رجل لنا ولكم رضا . فأبى أصحابُ ابن الحضرمي إلا أن يسيروا إلى القصر ،
وأبت الأزد إلا أن يمنعهن . فركب الأحنف فقال لأصحاب ابن الحضرمي : إنكم والله

ما أنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمّروا عليهم مَنْ يكرهونه ، فأنصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزد ، فقال : إنه لم يكن ماتكرهون ، ولا يؤتّى إلا ما تُحبّون ؛ فأنصرفوا رَحِمَكم الله ، ففعلوا .

قال إبراهيم : وحدّثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، عن الكلبيّ ، أن ابن الحضرميّ لما أتى البصرة ، ودخلها نزل في بني تميم في دار سبيل ، ودعا بني تميم وأخلاق مُضَر ، فقال زياد لأبي الأسود الدؤليّ : أما ترى ماصغى أهل البصرة إلى معاوية ؛ وما في الأزدي مطمع ؛ فقال : إن كنت تركتهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زياد من ليلته ، فأتى صبرة بن شيان الحُدائيّ الأزديّ ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : يا زياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن نقيم فينا مخفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعد له منبرا وسريرا في مسجد الحُدّان ، وجعل له شرطا ، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحُدّان .

وغلب ابن الحضرميّ على ما يليه من البصرة وجباها ، وأجمعت الأزديّ على زياد ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأزديّ ، إنكم كنتم أعدائيّ فأصبحتُم أوليائيّ ، وأولى الناس بي . وإني لو كنت في بني تميم وابن الحضرميّ فيكم لم أطمع فيه أبدا وأنتم دوني ، فلا يطمع ابن الحضرميّ فيّ وأنتم دوني ، وليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان ، بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤادّة ، وقد رأينا وقمتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحقّ ، صبركم مع الباطل ؛ فإنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تُعذرون على الجبن .

فقام شيان أبو صبرة - ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا - فقال : يا معشر الأزديّ ،

مأبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على على عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أن إسلامكم له ذلّ وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حتى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم ، وإن استمدّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وادّعوكم فوادّعوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يامعشر الأزد ، إنا قلنا يوم الجمل : نمنع مضرنا ، ونطيع أمنا ، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، نجددنا في القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتل منا من لاخير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من على ما نخاف من معاوية ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلفوه مأمته .

فقلت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجبروه . فضحك زياد ، وقال : يا صبرة ، أتخشون ألا تقوموا لبني تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبي صبرة ، وإن جاءوا بالحباب جئنا أنا وإن كان فيهم شباب كثير . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أن الأزد قد قامت دون زياد بعثت إليهم : أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأى الأُميين غلب : على أو معاوية دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنما كان هذا يُرجى عندنا قبل أن نجیره ، ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلا سؤالا ؛ وإنسكم لتعلمون أننا لم نُجِرْه إلا كرما ، فاهلوا عن هذا .

قال : وروى أبو الكنود أن شَبث بن ربيع قال لعلي عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادّعهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم أزد عُمان البُعداء البُعضاء ؛ فإنّ واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .

فقال له مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمٍ الْأَزْدِيُّ : إِنَّ الْبَعِيدَ الْبَغِيضَ ، مَنْ عَصَى اللَّهَ وَخَالَفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ قَوْمُكَ ، وَإِنَّ الْحَبِيبَ الْقَرِيبَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَنَصَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ قَوْمِي ، وَاحِدُهُمْ خَيْرٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَشْرَةِ مَنْ قَوْمُكَ .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه ! تناهوا أيها الناس ، وليردّ عَنكم الإسلام ووقاره عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم ، والزَمُوا دِينَ اللَّهَ الَّذِى لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ ، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجة الله على الكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرقين فآلف بينكم بالإسلام فكثرتُم ، واجتمعتم وتحاييتم فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم ، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاييتم ؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة^(١) وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل ؛ فاقصِدُوا لها مَهْمَ ووجوههم بالسيف حتى يفرّعوا إلى الله ، وإلى كتابه وسنة نبيه ؛ فأما تلك الحمية من خَطَرَاتِ الشياطين فاتهوا عنها ، لا أبا لكم تغلّحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أَعْيَنَ بْنَ صَبِيْعَةَ الْمَجَاشِعِيَّ ، وقال : يَا أَعْيَنَ ، أَلَمْ يَلْفِكَ أَنَّ قَوْمَكَ وَثَبُوا عَلَى عَامِلِيٍّ مَعَ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَصْرَةِ ، يَدْعُونَ إِلَى فِرَاقِي وَشِقَاقِي وَيَسَاعِدُونَ الضَّلَالَ الْقَاسِطِينَ عَلَى !

فقال : لَا نُسْأُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَكُنْ مَاتَكِرَهُ ، ابْعَثْنِي إِلَيْهِمْ ؛ فَأَنَا لَكَ زَعِيمٌ بِطَاعَتِهِمْ وَتَفْرِيقِ جَمَاعَتِهِمْ ، وَنَفَى ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ مِنَ الْبَصْرَةِ أَوْ قَتْلَهُ .
قال : فَأَخْرَجَ السَّاعَةَ .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

وروى الواقدي أن عليا عليه السلام ، استنفر بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي ، ويردّ عادية بنى تميم ، الذين أجاروه بها ، فلم يجبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العجب أن ينصرني الأزدي ، وتخذلني مضر ! وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي ، وخلاف تميم البصرة عليّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت ؛ وإلا فالمنابذة والحرب . فكأنني أخاطب صماً بكماً لا يفقهون حواراً ، ولا يحيبون نداء ؛ كل هذا جبناً عن البأس ، وحُباً للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن صبيعة المجاشعي ، فقال : أنا إن شاء الله أ كفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب ، وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي ، أو إخراجه عن البصرة . فأمره بالتهيؤ للشخص ؛ فشخص حتى قدم البصرة .

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخل على زياد وهو بالأزد مقيم ، فرحب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له عليّ عليه السلام ، وما ردّ عليه ، وما الذي عليه رأيه ؛ فإنه يكلمه إذ جاءه كتاب من عليّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد ابن عبيد :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنني قد بعثت أعين بن صبيعة ، ليفرق قومه عن ابن الحضرمي ، فارقب ما يكون منه ؛ فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظنّ به ، وكان في ذلك تفریق تلك الأوباش ؛ فهو ما نحبّ ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فَانْبِذْ مَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ؛ فَجَاهِدْهُمْ ، فَإِنْ ظَهَرَتْ فَهُوَ مَا ظَنَنْتَ ، وَإِلَّا فطاولهم وما طَلَّهم ؛ فَكَأَنَّ كِتَابَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَطْلَتْ عَلَيْكَ ؛ فَقَتَلَ اللَّهُ الْمُسْطَفِينَ الظَّالِمِينَ ، وَنَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَقِيقِينَ ، وَالسَّلَامَ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ أَقْرَاهُ أَعْيَنَ بِنَ صَبِيحَةَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يُكْفَى هَذَا الْأَمْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ؛ فَأَتَى رَحْلَهُ ، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

يَا قَوْمَ عَلَى ، مَاذَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ! وَتُهَرِّيقُونَ دِمَاءَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ مَعَ السَّفَهَاءِ الْأَشْرَارِ ؛ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ حَتَّى عَبَّيْتُ إِلَيْكُمْ الْجُنُودَ ؛ فَإِنْ تُنْبِئُونِي إِلَى الْحَقِّ يَقْبَلُ مِنْكُمْ ، وَيَكْفَى عَنْكُمْ ؛ وَإِنْ أَيْتَمَ فَهُوَ وَاللَّهُ اسْتِئْصَالَكُمْ وَبَوَارِكُمْ .

فَقَالُوا : بَلْ نَسْمَعُ وَنَطِيعُ . فَقَالَ : انْهَضُوا الْآنَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَهَضَّ بِهِمْ إِلَى جَمَاعَةِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ مَعَ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ فَصَاقُوهُ وَوَاقَفَهُمْ ^(١) عَامَةً يَوْمَهُ يُنَاشِدُهُمُ اللَّهُ ، وَيَقُولُ : يَا قَوْمَ لَا تَنْكُثُوا بَيْعَتَكُمْ ، وَلَا تَخَالِفُوا إِمَامَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ وَجَرَ بَنِيكُمْ كَيْفَ صَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ عِنْدَ نَكْثِكُمْ بَيْعَتَكُمْ وَخِلَافَكُمْ . فَكَفُّوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قِتَالٌ ؛ وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَشْتَمُونَهُ وَيَنَالُونَ مِنْهُ ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ وَهُوَ مِنْهُمْ مُنْتَصِفٌ . فَلَمَّا أَوَى إِلَى رَحْلِهِ تَبِعَهُ عَشْرَةُ نَفَرٍ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُمْ خَوَارِجٌ ، فَضَرَبُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ ؛ وَهُوَ عَلَى فَرَّاشِهِ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَكُونُ ، فَخَرَجَ يَشْتَدُّ غُرْيَانًا ، فَلَحَقُوهُ فِي الطَّرِيقِ فَقَتَلُوهُ ، فَأَرَادَ زِيَادُ أَنْ يَنْهَضَ ابْنُ الْحَضْرَمِيِّ حِينَ قَتَلَ أَعْيَنَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْأَزْدِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شِيعَةِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَرْسَلَ بَنُو تَيْمٍ إِلَى الْأَزْدِ : وَاللَّهِ مَا عَرَضْنَا لَجَارِكُمْ إِذْ أَجْرَتُمُوهُ ، وَلَا الْمَالُ هُوَ لَهُ وَلَا لِأَحَدٍ لَيْسَ عَلَى رَأْيِنَا ؛ فَمَا تَرِيدُونَ

(١) صَانُوهُ ؛ أَيْ وَقَفُوا صَفُوفًا وَيُقَالُ : وَاقَفَهُ فِي الْحَرْبِ ؛ أَيْ وَقَفَ كُلُّ مِنْهَا مَعَ الْآخَرِ .

إلى حرّ بنا وإلى جارنا ؟ فكانّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم .

فكتب زياد إلى علي عليه السلام : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن أعين بن صبيعة قدِم علينا مِنْ قِبَلِك بجدّة ومناحة وصدق ويقين ، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته ، فحُفِّمهم على الطاعة والجماعة ، وحذّرهم الخلف والفرقة ، ثم نهض بمنّ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه ، فوافقهم عامّة النهار ، فحالَ أهلَ الخلف تقدّمه ، وتصدّع عن ابن الحضرمي كثيرٌ مِنْ مَنْ كان يريد نصرته ، فكان كذلك حتى أمسى ، فاتى في رَحْله فيئته نفر من هذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردتُ أنْ أناهضَ ابنَ الحضرمي عند ذلك ، فحدث أمرٌ قد أمرتُ صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمر المؤمنين ، وقد رأيتُ إنْ رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصرة ، ومطاع في العشيرة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنْ يقدّم يفرّق بينهم بإذن الله ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما جاء الكتاب ، دعا جارية بن قدامة ، فقال له : يا بن قدامة ، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي ! وتشاقتني مضر وتنابدن ! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة ، وعرفها الهدى ، وتداعوا إلى المعشر الذين حادوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علّت كلمة الله وهلك الكافرون .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ابعثنى إليهم واستعن بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم ، واستعنت بالله عليهم .

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني ابنُ أبي السيف ، عن سليمان ابن أبي راشد ، عن كعب بن قُعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الكوفة إلى البصرة

في خمسين رجلا من بني نعيم ، ما كان فيهم يمانى غيرى ، وكنت شديد التشيع ، فقلت لجارية : إن شئت كنت معك وإن شئت ملت إلى قومي ! فقال : بل معي ؛ فوالله لو ددت أن الطير والبهائم تنصرني عليهم ، فضلا عن الإنس .

قال : وروى كعب بن قعين أن عليًا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه على أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلما دخلنا البصرة ، بدأ يزيد ، فرحب به وأجلسه إلى جانبه ، وناجاه ساعة وساء له ، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال : احذر على نفسك ، واتق أن تلقى ما اتقى صاحبك القادم قبلك .

وخرج جارية من عنده ، فقام في الأزد ، فقال : جزاكم الله من حى خيرا ! ما أعظم غناءكم ، وأحسن بلاءكم ، وأطوعمكم لأميركم ! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره ، ودعوتهم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه ، ثم قرأ عليهم وعلى من كان معه من شيعة علي عليه السلام وغيرهم . كتاب على عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من قرأ عليه كتابى هذا من ساكنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإن الله حلیم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة قبل البينة ، ولا يأخذ المذنب عند أول وهلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى الإنابة ليكون أعظم للحجة ، وأبلغ في المذرة ؛ وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققتهم أن تعاقبوا عليه ، فعزوت عن مجرمكم ، ورفعت السيف عن مذبركم ، وقبلت من مقبلكم ، وأخذت ببيعةكم ، فإن تفوا ببيعتى ، وتقبلوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتي ، أعمل

فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق ، وأقم فيكم سبيل الهدى ، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك مني ، ولا أعمل بقولي . أقول قولي هذا صادقاً ، غير دام لمن مضى ، ولا منتقاصاً لأعمالهم ، وإن خبطت^(١) بكم الأهواء المرذية ، وسفهُ الرأي الجائر إلى منابذتي ، تريدون خلافي ! فيها أنا ذا قرّبتُ جياذتي ، ورَحَلْتُ ركباني ، وإيمُ الله لنن الجائتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاقق ، وإني لظان ألا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سيلاً . وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً ، إن أنتم استغششتم نصيحتي ، ونابذتم رسولي ، حتى أكون أنا الشاخص نحوكم إن شاء الله تعالى . والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على الناس ، قام صبرة بن شيّان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم ، إن كفّيت يا جارية قومك بقومك فذاك ، وإن أحببت أن ننصرَكَ نصرناكَ .

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بني تميم .

فقام زياد في الأزْد ، فقال :

يا معشر الأزْد ، إن هؤلاء كانوا أمس سلماً ، فأصبحوا اليوم حرباً ، وإنكم كنتم حرباً فأصبحتم سلماً ، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتُم أن أجرتُموني ، حتى نصبتُم لي منبراً وسريراً ، وجعلتُم لي شُرطاً وأعواناً ، ومنادياً وجمعة ، فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم ، لا أجبيه اليوم ، فإن لم أجبه اليوم أجبيه غداً إن شاء الله . واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس علياً ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله على

(١) كذا في ١ ، ج ، وفي ب : « خطت » .

ليصدع أمر قومه ، والله ما هو بالأمير المطاع ، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أول كان لي تبعاً ، وأنتم أهامة العظمى ، والجزمة^(١) الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة بن شيان فقال : يا زياد ، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل ، رجوت ألا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمر بما فيه . وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيئ ، والتوبة مع الحق ، والعفو مع الندم ، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، واسكنها جماعة دماؤها حرام ، وجروّحها قصاص ، ونحن معك نحب ما أحببت .
فعجب زياد من كلامه ، وقال : ما أظن في الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن نُمَحِّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأما أنت يا زياد ، فوالله ما أدركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك ، ونحن رادوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أولى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك^(٢) ، وإنا والله نخاف من حرب علي في الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا ، فقدّم هواك وأخر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنقر^(٣) الحناني ، فقال : أيها الأمير ، إنك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرض ذلك لأنفسنا ، بنا إلى القوم إن شئت ، وإيّم الله ما لقينا يوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهْدنا ؛ إلا ما كان أمس .

(١) الجزمة : كل قبيلة انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم .

(٢) ج : « تشبهه » .

(٣) ج : « حيقن » .

قال إبراهيم : فأما جارية ، فإنه كلم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أو باش فناوشوه بعد أن شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزد ، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمي ، وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة علي عليه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة - فقال : ألا أقاتل معك عدوك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سبيل السعدي ؛ فحصر ابن الحضرمي وحدوه ، فأبى رجل من بني تميم ، ومعه عبد الله بن حازم السلمي ، فجاءت أمه وهي سوداء حبشية اسمها عجلي ، فنادت ، فأشرف عليها ، فقالت : يا بُني ، انزل إلي ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعاتها ، وسألته النزول فأبى ، فقالت : والله لتنزلن أو لأنعرين ، وآهوت بيدها إلى ثيابها^(١) ، فلما رأى ذلك نزل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدار ، وقال جارية : علي بالنار ، فقالت الأزد : لسنّا من الحريق بالنار في شيء ؛ وهم قومك وأنت أعلم ، فحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلا ؛ أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي ، ثم التيمي ؛ وُسِّمَت جارية منذ ذلك اليوم محرقة ؛ وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال ، وقالت له : هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرئنا منه ، فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنه . وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قدِم من عندك ، فناهض جمع ابن الحضرمي بمن نصره وأعاناه من الأزد ففضّه واضطره إلى دارٍ من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه ، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من أُلقي عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتل بالسيف ، وسلم

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصَفَحَ عنهم ، وبعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه علىّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيَان بن عُمارَة ، فسرّ علىّ عليه السلام بذلك وسرّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزد ، وذمّ البصرة فقال : إنها أول القرى خراباً ؛ إما غرقاً وإما حرقاً ؛ حتى يبقى مسجدها كجَوْجُو سفينة . ثم قال لظَبْيَان : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزدى يذكر تحريق ابن الحضرمي ، ويعيّرُ تميمًا بذلك :

رَدَدْنَا زياداً إلى دَارِهِ وجار تميم ينادى الشَّجَبُ ^(١)

لِما الله قوماً شوّوا جارهم لَعَمْرِي لبئس الشَّوَاءُ الشُّصُبُ ^(٢)

ينادى الخناق وأبناءها وقد شَيَّطُوا رأسها باللَّهَبِ

والخناق لقب قوم بني تميم .

(١) الشَّجَبُ : الهلاك

(٢) الشُّصُبُ : الشاة السلوخة .

ومن كلامه عليه السلام لأصحابه :

الأفضل :

أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رَحْبُ البُلْعوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ ، فَأَقْتُلُوهُ - وَلَنْ تَقْتُلُوهُ . أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِيٍّ وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي ؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُونِي ؛ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ ، وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوا مِنِّي ؛ فَإِنِّي وَلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّيْخُ :

مُنْدَحِقُ البطن : بارزها ، والدَّحِقُ من النوق : التي يخرج رَحِمُهَا . عند^(١) الولادة . وسيظهر : سيفلج . ورَحْبُ البُلْعوم : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنَى زيادا ، وكثير منهم يقول : إنه عَنَى الحجاج ، وقال قوم : إنه عَنَى المغيرة بن شعبة . والأشبه عندي أنه عَنَى معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنهم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعد بطنه إذا جلس على فخذيته ، وكان معاوية جوادا بالمال والصلات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيا على طعامه ، وقد قَدَّمَ بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابي في أكله ، فقال له : ماذنبه إليك؟ أنطحك أبوه ؟ فقال الأعرابي : وما حُنُوكُ عليه ؟ أأرضعتك أمه !

وقال لأعرابي يَأْكُلُ بين يديه ، وقد استعظم أكله : أَلَا أَبْنِيكَ سَكِينًا ، فقال :

« كُلَّ امْرِئٍ سَكِينُهُ فِي رَأْسِهِ » .

فقال : ما سئلك ؟ قال : لقيم ، قال : منها أثبت .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفعوا ، فوالله ماشيت ، ولكن
مِلْتُ وتعبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا على معاوية لما بعث إليه
يستدعيه ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لاتُشبع بطنه » ،
قال الشاعر :

وَصَاحِبِ لِي بَطْنُهُ كَالْهَوِيَّةِ كَانَ فِي أَخْشَانِهِ مُعَاوِيَةُ

وفي هذا الفصل مسائل :

الأولى : في تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافي بين
الأمر بالشئ والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أَن أَبَا لَهَبٍ لَا يُؤْمِنُ
وَأَمْرُهُ بِالْإِيمَانِ ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ثم قال :
﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ ^(٢) ، وأكثرت التكاليفات على هذا المنهاج .

[مسألة كلامية في الأمر بالشئ مع العلم بأنه لايقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا في أنه تعالى قد يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر
عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصح أن يريد ما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع ؟
فقال أصحابنا : يصح ذلك ، وقالت المجبرة : لا يصح ؛ لأن إرادة ما يعلم المريد أنه لايقع قضية
متناقضة ، لأن تحت قولنا : « أراد » مفهوم أن ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأن إرادة المحال
ممتنعة . وتحت قولنا : « إنه يعلم أنه لايقع » مفهوم أن ذلك المراد مما لايمكن حصوله ، لأننا قد

(١) سورة البقرة ٩٥

(٢) سورة الجمعة ٧

فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم في الأمر ؛ لأنكم قد أجزتم أن يأمر بما يعلم أنه لا يقع ، فقالوا في الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عن أنه لا يقع . كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة ، والحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع ، وهاهنا لا إرادة .

ف قيل لهم : هب أنكم ذهبتُم إلى أن الأمر قد يعرَى من الإرادة مع كونه أمراً ، أستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شيء آخر غير الإرادة ! وتقولون : إن ذلك الطلب قائم بذات الباري ، فنحن نلزمكم في الطلب القائم بذات الباري ، الذي لا يجوز أن يعرَى ^(١) الأمر منه ما ألزمتونا في الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنه لا يقع ! أليس تحت قولنا طلب مفهوم أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال في الطلب كالحال في الإرادة ، حدّو النعل بالنعل . ولنا في هذا الموضوع أبحاث دقيقة ذكرناها في كتبنا الكلامية .

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلی]

المسألة الثانية : في قوله عليه السلام : « يأمركم بسبّ والبراءة مني » ، فنقول : إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرها بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية إلى أن قام عمر ابن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة : اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك ، وصدّ عن سبيلك

فاللّٰه لعنا وبيلا ، وعذبه عذابا أليما . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، قدام إليه إنسان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد في ” الكامل “ أن خالد بن عبد الله القسريّ لمّا كان أمير العراق في خلافة هشام ، كان يلعن عليا عليه السلام على المنبر ، فيقول : اللهم ألن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول : هل كنّيت ^(١) !

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، إنك قد بلغت ما أملت ، فلو كففت عن لعن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربو عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك مع فضله وأناته وسدّاده ورُجحانه ممن يخفى عليه فضلٌ على عليه السلام ، وإن لعنه على رؤوس الأشهاد ، وفي أعطاف الخطب ، وعلى صهوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، ويرجع إليه وهنه ، لأنهما جميعا من بني عبد مناف ، والأصل واحد ، والجربة ثومة منبت لهما ، وشرف عليّ عليه السلام وفضله عائد عليه ، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر في أنفس الناس أن بني هاشم لاحظّ لهم في هذا الأمر ، وأن سيّدَهم الذي به يصلون ، وبفخره يفخرون ،

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوروبا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمى إليه ويُدلى به عن الأمر أبداً ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزَح .

ورى أهل السيرة أن الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر عليا عليه السلام ، فقال : لعنه الله « بالجر ، كان لص ابن لص .

فعجب الناس من لحنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومن نسبته عليا عليه السلام إلى اللصوصية وقالوا : ما ندري أيهما أعجب ! وكان الوليد لحانا .

وأمر المغيرة بن شعبة - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية - حُجْر بن عدى أن يقوم في الناس ، فليعلن عليا عليه السلام ، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال : أيها الناس ، إن أميركم أمرني أن ألن عليا فإلنوه . فقال أهل الكوفة : لعنه الله ! وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولعنه . وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ، ويخرب منزله ، فضر به الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات - لارحمه الله - بعد ثلاثة أيام ، وذلك في خلافة معاوية .

وكان الحجاج لعنه الله يلعن عليا عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرض به يوما وهو راكب : أيها الأمير ، إن أهلي عَقُونِي فسموني عليا ، فغير اسمي ، وصلني بما أتبلغ به ، فإنني فقير . فقال : للأطف ما توصلت به قد سميتك كذا ، ووليتك العمل الفلاني فاشخص إليه .

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود ، فمر بي يوما وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعن عليا ،

فكره ذلك ودخل المسجد ، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وزدى ، فلما رآنى قام فصلّى وأطال فى الصلاة - شبه المعرض عني ، حتى أحسست منه بذلك ، فلما انفتل من صلاته كَلَحَ فى وجهي ، فقلت له : ما بال الشيخ ؟ فقال لى : يا بنى ، أنت اللاعن علياً منذ اليوم ! قلت : نعم ، قال : فمتى علمت أن الله سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم ! فقلت : يا أبت ، وهل كان على من أهل بدر ؟ فقال : ويحك ! وهل كانت بدر كلهم ! إلا له ! فقلت : لا أعود ، فقال : الله أنك لا تعود ! قلت : نعم . فلم ألعنه بعدها ، ثم كنتُ أحضر تحت منبر المدينة ، وأبى يخطب يوم الجمعة ، وهو حينئذ أمير المدينة ، فكنت أسمع أبى يمر فى خطبته تهدير شقاشقه ، حتى يأتى إلى لمن على عليه السلام فيجتمجم ، ويمرض له من الفهاة والخصر ما الله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك ، فقلت له يوماً : يا أبت ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم ، فما بالي أراك أفصحَ خطيب يوم حَفَلَك ، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل ، صِرتَ أَلَكْنَ عَيِّياً ! فقال : يا بنى ، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم ، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمته فى صدرى ؛ مع ما كان قاله لى معلّى أيام صِغَرى ، فأعطيت الله عهداً ؛ لئن كان لى فى هذا الأمر نصيب لأغيّره ، فلما منّ الله على بالخلافة أسقطت ذلك ، وجعلت مكانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(١) ، وكتبت به إلى الآفاق فصار سنة .

وقال كثير بن عبد الرحمن يمدح عُمرَ ويذكر قطعه السبّ :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتِمَ عَلَيَا وَلَمْ تُخَفِ بَرِيًّا وَلَمْ تَقْبَلِ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ ^(٢)
وَكَفَرْتَ بِالْعَفْوِ الذَّنُوبَ مَعَ الذِّى أَتَيْتَ فَأَضْحَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمٍ

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغاني ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية .

ألا إنما يكفي الفتى بعد زيفه من الأود البادى ثِقافُ المقومِ
وما زلتَ تَوَاقفاً إلى كلِّ غَايَةٍ بلغتَ بها أَعْلَى العَلَاءِ المُقَدَّمِ
فلما أُنَاكَ الأمرُ عَفْواً ولم يَكُنْ لَطالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
تركتَ الذى يَفْنَى لأنَّ كَانَ بَائِداً وَآثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ

وقال الرضى أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يَا بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْنُ فَتَى مِنْ أُمِّيَّةٍ لَبَكَيْتُكَ^(١)
غَيْرَ أَنِّ أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طَبِيتَ وَإِنْ لَمْ يَطِبْ وَلَمْ يَرْكَ يُبَيْتُكَ
أَنْتَ نَزَّهَتْنَا عَنِ السَّبِّ وَالْقَذِّ فِ؛ فَلَوْ أَمَكْنَ الْجَزَاءُ جَزَايُكَ
وَلَوْ أَنِّ رَأَيْتُ قَبْرَكَ لاسْتَحْسَيْتُ مِنْ أَنْ أَرَى وَمَا حَيَاتُكَ
وَقَلِيلٌ أَنْ لَوْ بَزَلْتُ دِمَاءَ السُّبْدِ صِرْفًا عَلَى الذُّرَا وَسَقَيْتُكَ
دَيْرَ سَمْعَانَ فِيكَ مَا وى أَبِي حَفْهِ عِ بِوَدَى لَوْ أَنِّ آوَيْتُكَ
دَيْرَ سَمْعَانَ لَا أَغْبِكَ غَيْثٌ خَيْرُ مَيِّتٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَيِّتُكَ^(٢)
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي إِنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ أَوْ إِنْ نَأَيْتُكَ
وَإِذَا حَرَكْتَ الْحَشَا خَاطِرُ مَنْكَ تَوَهَّمْتُ أَنَّي قَدْ رَأَيْتُكَ
وَعَجِيبٌ أَنِّ قَلَيْتُ بَنِي مَرَّ وَأَنْ طُرًّا وَأَنْنِي مَا قَلَيْتُكَ
قَرَبَ الْعَدْلُ مِنْكَ لَمَّا نَأَى الْجَوُّ رُ بِهِمْ فَاجْتَوَيْتُهُمْ وَاجْتَبَيْتُكَ
فَلَوْ أَنِّ مَلَكَتُ دَفْعًا لَمَانَا بِكَ مِنْ طَارِقِ الرِّدَى لَقَدَّيْتُكَ

(١) ديوانه لوحة ١٢٤

(٢) دیر سمعان ، بکسر السین وفتحها ؛ دیر بنو اخی دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزیز (یاقوت)

وروى ابن السكيت ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هاني ، وهو رجل من بني أودة ، حتى من قحطان ، وكان شريفاً في قومه ، قد شهد مع الحجاج مشاهدته كلها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كفاؤك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خازجة سيد بني فزارة : أن زوّج عبد الله بن هاني بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية : زوّج ابنتك من عبد الله بن أود ، فقال : ومن أود ! لا والله لا أزوجه ولا كرامة ! فقال : على بالسيف ، فقال : دَعْنِي حتى أشاور أهلي ، فشاوهم ، فقالوا : زوّجه ولا تعرض نفسك لهذا الفاسق ، فزوجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوجتُك بنت سيد فزارة وبنت سيد همدان ، وعظيم كهلان وما أود هناك ! فقال : لا تقلّ أصلح الله الأمير ذاك ! فإن لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هي ؟ قال : ما سبَّ أمير المؤمنين عبد الملك في نادٍ لنا قطّ ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً ، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرأً سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنا نسوة نذرْنَ : إن قتل الحسين بن علي أن تنحر كل واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجلٍ عُرضَ عليه شتمُ أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنته حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ، قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أما هذه يا أبا هاني فدعها . وكان عبدُ الله دميماً شديد الأدمة^(١) مجدوراً في رأسه عَجَرٌ ، مائل الشّدق ، أحول قبيح الوجه ، شديد الحول .

وكان عبد الله بن الزبير يُبغضُ علياً عليه السلام ، وينتقصه وينال من عِرْضه .

وروى عمر بن شبة وابن الكلبي والواقدي وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلّي فيها على النبي صلى الله عليه وآله، وقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تسمخ رجال بآنافها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أن له أهيل سوء يُنفضون رءوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ما حديثُ أسمعك عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تأنيبي وذمي! فقال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بئس المرء المسلم يشع ويجوع جاره»، فقال ابن الزبير: إني لأكتم بفضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة. وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبة أيضا عن سعيد بن جبير، قال: خطب عبد الله بن الزبير، فقال من على عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفية، فجاء إليه وهو يخطب، فوضع له كرسي، فقطع عليه خطبته، وقال: يامعشر العرب، شامت الوجوه! أُنْتَقَصُ على وأتم حضورا! إن عليا كان يد الله على أعداء الله، وصاعقة من أمره، أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشتنوه وأبغضوه، وأضرموا له السيف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وآله حتى بعد لم يمّ؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحب له ما عنده، أظهرت له رجال أحقادها، وشفّت أضغانها، فمنهم من ابتزّه حقه، ومنهم من ائتمر به ليقته، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لدريته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذل رقابهم، فيكون الله عز اسمه قد عذبهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفّا صدورنا منهم؛ إنه والله ما يشتم عليا إلا كافر يسير شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوح به،

فيكنى بـشتم على عايشه السلام عنه . أما إنه قد تخطت المنية منكم من امتد عمره ، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، فعاد ابن الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلمون ؛ فما بال ابن أم حنيفة ! فقال محمد : يا بن أم رومان ^(١) ؛ ومالي لأتكم ، وهل فاتني من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتني غيرها ؛ لأنها أم أخوي . أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم ، جدة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقائمة مقام أمه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماترتُ في بني أسد بن عبد العزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف .

[فصل في ذكر الأحاديث الموضوعة في ذم علي]

وذكر شيخنا أبو جعفر ^(٢) الإسكافي رحمه الله تعالى - وكان من المتحققين بموالاته على عليه السلام ، والمبالغين في تفضيله ؛ وإن كان القول بالتفضيل عاما شائعا في البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أن أبا جعفر أشدّهم في ذلك قولاً ، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام ، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جُعلا يُرغَبُ في مثله ؛ فاختلقوا ما أَرْضاه منهم أبو هريرة وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه ، قال : حدثتني عائشة ، قالت : كنتُ عند

(١) كذا في أ ، ب ، وفي ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي ؛ من متكلمي المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن في العلم والذكاء والصيانة ونبل الهمة والزهادة ؛ بلغ في مقدار عمره ما لم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع السكرابيسى وغيره . توفي سنة ٢٤٠ ، لسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال : يا عائشة ، إن هذين يموتان على غير ملّتي -
أو قال ديني .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عند الزهريّ حديثان عن عُرْوَة عن عائشة
في عليّ عليه السلام ؛ فسألته عنهما يوما ، فقال : ماتنعه بهما وبحديثهما ! الله أعلم بهما ؛
إنّي لأتّهمهما في بني هاشم .

قال : فأما الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثاني فهو أن عُرْوَة زعم أن
عائشة حدثته ، قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال :
« يا عائشة ؛ إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا » ،
فنظرت ، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاريّ ومسلم في صحيحيهما
مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إن
آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين » .

وأما أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذي معناه أن عليا عليه السلام خطب ابنة
أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال :
لاها الله ! لا تجتمع ابنة وليّ الله وابنة عدو الله أبي جهل ! إن فاطمة بضعة^(١) مني يؤذيها
ما يؤذيها ؛ فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل فيلغارق ابنتي ، وليفعل ما يريد » ، أو كلاما
هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرايبسي .

قلت : هذا الحديث أيضا مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المسور بن مخرمة
الزهريّ ؛ وقد ذكره المرتضى في كتابه « المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة » ، وذكر أنه رواية

(١) بضعة ، أى قطعة .

حسين السكراييسى^(١)، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم والمناسبة لهم، فلا تقبل روايته.

ولشياع هذا الخبر وانتشاره ذكره مروان بن أبى حفصة فى قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنجى عليهم، ويذمهم، وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه السلام ونال منه، وأولها :

سَلَامٌ عَلَى جُحْلِ ، وَهَيْهَاتَ مِنْ جَمَلٍ وَيَا حَبَّذَا جَمَلٌ وَإِنْ صَرَمْتُ حَبْلِي
يقول فيها :

عَلَى أَبِيكُمْ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكُمْ	أَبَاهُ ذُو الشُّورَى وَكَانُوا ذَرَى الْفَضْلِ
وَسَاءَ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ سَاءَ بَنَتْهُ	بِخَطْبَتِهِ بِنْتُ اللَّعِينِ أَبِي جَمَلٍ
فَذَمَّ رَسُولَ اللَّهِ صَهرَ أَيْكُمْ	عَلَى مَنَبَرٍ بِالْمَنْطِقِ الصَّادِعِ الْفَضْلِ
وَحَكَمَ فِيهَا حَاكِمِينَ أَبِيكُمْ	هَما خَلَصَاهُ خَلَعَ ذِي النَّعْلِ لِلنَّعْلِ
وَقَدْ بَاعَهَا مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ ابْنُ	فَقَدْ أَبْطَلَتْ دَعْوَاكُمْ الرُّثَّةُ الْحَبْلُ
وَحَلَيْتُمُوهَا وَهَى فِي غَيْرِ أَهْلِهَا	وَطَالِبْتُموها حِينَ صَارَتْ، إِلَى أَهْلِ

وقد روى هذا الخبر على وجوه مختلفة، وفيه زيادات متفاوتة؛ فمن الناس من يروى فيه : « مهمادمننا من صهر فإننا لم نذم صهر أبى العاص بن الربيع »، ومن الناس من يروى فيه : « ألا إن بنى النخيلة أرسلوا إلى عليّ ليزوجوه كريمتهم »؛ وغير ذلك.

وعندى أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قدح، لأنّ

(١) هو أبو على الحسين بن على بن يزيد السكراييسى البغدادى؛ صاحب الإمام الشافعى، وأشهرهم بارتداد مجلسه وأحفظهم لمذهبه؛ وله تصانيف كثيرة فى أصول الفقه وفروعه. توفى سنة ٢٤٨. ابن خلكان ١ : ١٤٥

الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنة أبي جهل ، مضافا إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز ، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع ؛ فابنة أبي جهل المشار إليها كانت مسلمة ، لأن هذه القصة كانت بعد فتح مكة ، وإسلام أهلها طوعا وكرها ، ورواة الخبر موافقون على ذلك ؛ فلم يبق إلا أنه إن كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى فاطمة عليها السلام قد غارت ، وأدركها ما يدرك النساء ، عاتب عليها عيبه السلام عتاب الأهل ، وكما يستنبت الوالد رأى الولد ، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلاح زوجته . ولعل الواقع كان بعض هذا الكلام فخرٌ وزيد فيه . ولو تأملت أحوال النبي صلى الله عليه وآله مع زوجاته ، وما كان يجري بينه وبينهن من الغضب تارة ، والصلح أخرى ، والسخط تارة والرضا أخرى ، حتى بلغ الأمر إلى الطلاق مرة ، وإلى الإيلاء مرة ، وإلى الهجر والقطيعة مرة ، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كُنَّ يلقينه عليه السلام به ، ويُسْمِعُهُ إياه ؛ لعلمت أن الذي عاب الحسدة والشائنون عليا عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط ، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تَيْنِكَ الامرأتين من الأحوال والأقوال ؛ حتى أنزل فيهما قرآن يُتلى في المحاريب ، ويكتب في المصاحف ، وقيل لهما ما لا يـُـال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا ، منابذا رسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ^(١) ، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ . . . ﴾ ^(١) الآيات بتمامها . ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعليهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وتام الآية معلوم ، فهل ما روى في الخبر من تعصب فاطمة على علي عليه السلام

وغيّرتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيرها .
مما كان يجري ، إلا كنسبة التأنيف^(١) إلى حرب البسوس ! ولكن صاحب الهوى والعصية
لا علاج له .

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبي جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر :
وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة ، جاء إلى مسجد
الكوفة ، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جنّا على ركبتيه ، ثم ضرب صلّته مرارا ،
وقال : يا أهل العراق ، أتزعمون أنّي أكذب على الله وعلى رسوله ، وأحرق نفسي بالنار !
والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إن لكل نبي حَرَمًا ، وإن
حَرَمِي بالمدينة ، ما بين عَيْرٍ إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها ؛ فلما بلغ معاوية قوله أجازاه وأكرمه
وولاه إمارة المدينة .

قلت : أمّا قوله : « ما بين عَيْرٍ إلى ثور^(٢) » ، فالظاهر أنه غلط من الراوى ، لأن ثوراً بمكة
وهو جبل يقال له : ثور أطلح ، وفيه الغار الذي دخله النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر ؛ وإنما
قيل : « أطلح » لأن أطلح بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار
ابن عدنان كان يسكنه . وقيل اسم الجبل أطلح ، فأضيف « ثور » إليه ؛ وهو ثور بن عبد مناف ،
والصواب : « ما بين عَيْرٍ إلى أحد » .

فأما قول أبي هريرة : « إن عليا عليه السلام أحدث في المدينة » ، فحاش لله ! كان على
عليه السلام أتقى لله من ذلك ؛ والله لقد نصرَ عثمان نصرًا لو كان المحصورُ جعفر بن أبي طالب
لم يبدّل له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضى الرواية ، ضربته عمر

(١) ج : « التأنيف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز .

بالدِّرة ، وقال : قد أ كثرَت من الرواية وآخر بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه . !

وروى سفيان الثوري عن منصور ، عن إبراهيم التيمي ، قال : كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلا ما كان من ذِكْر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيم صحيح الحديث ، فكنت إذا سمعت الحديث أتيتُه فعرضتُه عليه ، فأثبتته يوماً بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه .

وقد روى عن علي عليه السلام أنه قال : ألا إن أ كذبَ الناس - أو قال : أ كذبَ الأحياء - على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدؤسي .

وروى أبو يوسف ، قال : قلت لأبي حنيفة : أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يخالف قياسنا ما تصنع به ؟ قال : إذا جاءت به الرواة الثقاتُ عملنا به وتركنا الرأي ، فقلت : ما تقول في رواية أبي بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : علي وعثمان ، قال : كذلك ، فلما رآني أعدتُ الصحابة قال : والصحابة كلهم عدول ما عدا رجلاً ، ثم عدتُ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية ، كان يجلس بالعشيات بباب كِنْدَةَ ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابٌّ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشدك الله ، أسمعك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليت عدوه ، وعاديت وليه ! ثم قام عنه .

وزوت الرواة أنَّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان في الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يُخطَّب وهو أمير المدينة ، فيقول : الحمد لله الذي جعل الدِّين قياما ، وأبا هريرة إماما ؛ يُضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة في الشَّرق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعنى نفسه .

قلت : قد ذكر ابن قتيبة هذا كله في كتاب ” المعارف ” ،^(١) في ترجمة أبي هريرة ، وقوله فيه حجة لأنه غيرُ متهم عليه .

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبه يلعنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على منبر الكوفة وكان بلغه عن عليّ عليه السلام في أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرُجمنه بأحجاره - يعنى واقعة الزنا بالمرأة التي شهد عليه فيها أبو بكر ، وَنَكَلَ زياد عن الشهادة - فكان يُبغضه لذلك وانفيره من أحوال اجتمعت في نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الرَّمْعُ^(٢) عند ذكر عليّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يغنى أنه لم يخالف إلى ما نهى عنه وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق !

قال : وقد كان في الحديثين مَنْ يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديث المنكرة ؛ منهم حرَّيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

(١) المعارف ص ١٢١

(٢) الرَّمْع : تحريك الألف غضبا .

المحدثون أنّ حَرِيْزاً رَئِيَّ في المنام بعد موته ، فقيل له . ما فعل الله بك ؟ قال : كاد يغفر لي لولا بغض عليّ .

قلت : قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب ” السقيفة “ ، قال : حدثني أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثني إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثني محفوظ ابن الفضل بن عمر ، قال : حدثني أبو البهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان - وكان مولى ابني أمية ، وكان مؤذناً عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيراً - قال : حضرت حَرِيْز بن عثمان ، وذَكَرَ عليّ بن أبي طالب ، فقال : ذاك الذي أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى كاد يقع .

قال محفوظ : قلت ليحيى بن صالح الوُحاطي : قد رويت عن مشايخ من نظراء حَرِيْز ، فبالك لم تحمِلْ عن حَرِيْز ؟ قال : إني أتيتُه فناولني كتاباً ، فإذا فيه : حدثني فلان عن فلان أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما حضرته الوفاة أوصى أن تُقَطَعَ يدُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فرددت الكتاب ، ولم أستحلّ أن أكتب عنه شيئاً .

قال أبو بكر : وحدثني أبو جعفر ، قال : حدثني إبراهيم ، قال : حدثني محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حَرِيْز بن عثمان : أستم يا أهل العراق تجبّون عليّ بن أبي طالب عليه السلام ونحن نُبَغِضُهُ ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه قتل أجدادي . قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيْز بن عثمان نازلاً علينا .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغيرة بن شعبه صاحبَ دنيا ، يبيع دينه بالقليل النزر منها ، يُرضى معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال يوماً في مجلس معاوية : إنّ علياً لم يُنْكَحْهُ رسولُ الله ابنته حباً ؛ ولكنه أراد أن يكافئ بذلك إحسان أبي طالب إليه .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنه على منبر العراق مرات لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنوه ، أقبل رجل راكب ظليما ، فوقف قريبا منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دارٍ من مغيرة تعرف عليها زواني الإنس والجن تعرِفُ
فإن كنت قد لاقيتَ فرْعَوْنَ بَعْدَنَا وهامان فاعلم أن ذا العرش منصفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يروا أحدا ، فعلموا أنه من الجن .

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقل من أن يذكر في الصحابة الذين قد غمضناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهرا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص ؛ وهما الطريدان اللعينان ، كان أبوه عدو رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه في مشيه ، ويفمز عليه عينه ، ويدلج ^(١) له لسانه ويتهم به ، ويتهافت عليه ؛ هذا وهو في قبضته وتحت يده ، وفي دار دعوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله أى وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شائى شديد البغضة ، ومستحکم العداوة ؛ حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيره إلى الطائف .

وأما مروان ابنه فأخبث عقيدة ، وأعظم إلحادا وكفرا ؛ وهو الذى خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

يا حَبْدًا بردك في اليدين ومُحَرَّةٌ تَجْرِي عَلَى الخَدَّينِ

* كَأَنَّما بَتَ بِمَحْشَدَيْنِ *

(١) يدلج لسانه . يخرججه .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبي ، وقال : يا محمد ، يوم بيوم بدر . وهذا القول مشتق من الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزُبَيْرِ يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور^(١) .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أن مروان لم يكن أمير المدينة يومئذ ؛ بل كان أميرها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمل إليه الرأس ؛ وإنما كتب إليه حُيَيد بن زياد يشره بقتل الحسين عليه السلام ؛ فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشد الرجز المذكور ، وأومأ إلى القبر قائلاً : يوم بيوم بدر ، فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار . ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب " المثالب " .

قال : وروى الواقدي أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي : « إنك ستلي الخلافة من بعدى ، فأختر الأرض المقدسة ، فإن فيها الأبدال ؛ وقد اخترتكم ، فالتعنوا أبا تراب . فلعنوه ، فلما كان من الند كتب كتاباً ، ثم جمعهم فقرأ عليهم ؛ وفيه : هذا كتاب كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذى بعث محمداً نبيا ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً ، فكان الوصى ينزل على محمد وأنا أكتبه ؛ وهو لا يعلم ما أكتب ؛ فلم يكن بينى وبين الله أحد من خلقه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت يا أمير المؤمنين .

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الصالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبيرى :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَذِرُ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ
قَدْ قَتَلْنَا الْقَرَمَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِيَذِرُ فَاعْتَدَلْ

والبيان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بذل لِسْمُرَةَ بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب : ﴿ وَسِنَّ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْإِخْلَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ ^(١) ، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، فلم يقبل ، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلثمائة ألف فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف فقبل ، وروى ذلك .

قال : وقد صحَّ أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام ، وعاقبوا ذلك الراوى له ؛ حتى إن الرجل إذا رَوَى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسرُ على ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبي زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : ودِدْتُ أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام يوماً إلى الليل ؛ وأن عُنُقِي هذه ضربت بالسيف .

قال : فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلها للخوف والتقية ، من بني مروان مع طول المدّة ، وشدة العداوة ؛ ولولا أن الله تعالى في هذا الرجل سرّاً يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرَوِّ في فضله حديث ، ولا عُرِفَتْ له منقبة ؛ ألا ترى أن رئيس قرية لو سَخِطَ على واحد من أهلها ، ومنع الناس أن يذكروه بخيرٍ وصالحٍ لخلل ذكره ، ونسى اسمه ، وصار وهو موجود معدوماً ، وهو حيٌّ ميتاً . هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل .

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل في ذكر المنحرفين عن عليّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين كانوا منحرفين عن علي عليه السلام ، قائلين فيه السوء ، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا ، وإشارا للعاجلة ؛ فتهم أنس بن مالك ، ناشد عليّ عليه السلام الناس في رحبة القصر - أو قال رحبة الجامع بالكوفة - : أتيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ » ؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها ، وأنس بن مالك في القوم لم يقم ، فقال له : يا أنس ، ما يمنعك أن تقوم فنشهد ، ولقد حضرتها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كبرتُ ونسيتُ ، فقال : اللهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لاتوارى بها العامة . قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيتُ الوَضَحَ به بعد ذلك أبيض بين عينيه .

وروى عثمان بن مطرّف أن رجلا سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن علي بن أبي طالب ، فقال : إني آليتُ ألا أكتُم حديثا سئلت عنه في عليّ بعد يوم الرحبة ؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة ، سمعته والله من نبيكم .

وروى أبو إسرائيل عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن ، أن عليا عليه السلام نَشَدَ الناس مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، يَقُولُ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ » ! فشهد له قوم وأمسك زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ، فلم يَشْهَدْ - وكان يعلمها - فدعا علي عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمى ، فكان يحدث الناس بالحديث بعد ما كُفِّ بصره .

قالوا : وكان الأشعث بن قيس السكندى وجري بن عبد الله البَجَلِيّ يُبَغِّضَانِهِ ؛ وهدم عليّ عليه السلام دار جري بن عبد الله .

قال إسماعيل بن جري : هدم عليّ دارنا مرتين .

وروى الحارث بن حصين ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبد الله ثقلين من نعاله ، وقال : احتفظ بهما ، فإن ذهبتاهما ذهب دينك ؛ فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما ، فلما أرسله على عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى ؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب .

وروى أهل السيرة أن الأشعث خطب إلى علي عليه السلام ابنته ، فزّبره ، وقال : يا ابن الحائك ، أغرك ابنُ أبي قحافة !

وروى أبو بكر الهذلي عن الزهري ، عن عبيد الله بن عدي بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف ، قال : قام الأشعث إلى علي عليه السلام ، فقال : إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليك عهداً لم يعهده إلى غيرك ؛ فقال : إنه عهد إلى مافي قراب سيفي ؛ لم يعهد إلى غير ذلك . فقال الأشعث : هذه إن قلتها فهي عليك لالك ؛ دَعَهَا ترحل عنك ، فقال له : وما علمك بما على مالى ! منافق ابن كافر ، حائك ابن حائك ! إني لأجد منك تيه الفرل ^(١) . ثم التفت إلى عبيد الله بن عدي بن الخيار ، فقال : يا عبيد الله ، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا ، ثم أنشد :

أصبحت هزا لأراعي الضأن أتبعه ^(٢) ماذا يرريك منى راعي الضأن !

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدمة أن سبب قوله هذه : « عليك لالك » ، أمر آخر ، والروايات تختلف .

وروى يحيى بن عيسى الرملي ، عن الأعمش : أن جريراً والأشعث خرجا إلى جَبان ^(٣) الكوفة ، فر بهما ضبّ يعدو ، وهما في ذمّ علي عليه السلام ، فنادياه : يا أبا حنبل ؛ هلم

(١) الفرل : المسترخى الخلق ، وفي ج « الفرل » .

(٢) ج : « أصبحت فردا » .

(٣) الجبان في الأصل : الصحراء ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة ، وفي ١ : « إلى الجبال . وانظر مراد الاطلاع .

يدك نبأ بك بالخلافة ، فبلغ عليا عليه السلام قولها ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضب .

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفا عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان ابن أبي زرعة ، عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذ مرّت الجنّاة عند عليّ عليه السلام ، فقال أبو مسعود الأنصاريّ : قد كنا نقوم ، فقال عليّ عليه السلام : ذاك وأنتم يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ عليا عليه السلام ، وقد سأله رجل عن امرأة تُوفّي عنها زوجها وهي حامل ، فقال : تتربصُ أبعدَ الأجلّين ، فقال رجل : فإن أبا مسعود يقول : وضئها انتضاء عذتها ، فقال عليّ عليه السلام : إن فزوجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إني لأعلم أن الآخر شرّ .

وروى المنهال ، عن نعيم بن دجاجة ، قال : كنت جالسا عند عليّ عليه السلام ، إذ جاء أبو مسعود ، فقال عليّ عليه السلام : جاءكم فروج ، فجاء فجلس ، فقال له عليّ عليه السلام : بلغني أنك تُفتي الناس ، قال : نعم ، وأخبرهم إن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا؟ قال : نعم ، سمعته يقول : « لا يأتي على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استك الحفرة ، وغلطت في أوّل ظنك ؛ إنما عني مَنْ حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

وروى جماعة من أهل السَّيَر أن علياً عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار :
إنه لكذاب ؛ وكان كعب منحرفاً عن علي عليه السلام . وكان النعمان بن بشير الأنصارى
منحرفاً عنه ، وعدوا له ، وخاض الدماء مع معاوية خوفاً ، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى
قتل وهو على حاله .

وقد روى أن عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام ، وأن علياً
سَّيَره إلى المدائن ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مات علي فلا أدري ما موته ، وإن قتل فمسي
أني إن قتل زوجت له .

ومن الناس من يجعل عمران في الشيعة .

وكان سَمُرَة بن جندب من شرطة زياد ، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن ، قال :
جاء رجل من أهل خراسان إلى البصرة ، فترك ماله كان معه في بيت المال ، وأخذ براءة ،
ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين فأخذه سَمُرَة بن جندب ، واتهمه برأى الخوارج ، فقَدَّمه
فضرب عنقه ؛ وهو يومئذ على شرطة زياد ، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال ،
فقال أبو بكر : يا سَمُرَة ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَاكَرَ ﴾ . وَذَكَرَ
أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ ^(١) ، فقال : أخوك أمرني بذلك .

وروى الأعمش ، عن أبي صالح ، قال : قيل لانا : قد قدِمَ رجل من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فأتيناه فإذا هو سَمُرَة بن جندب ، وإذا عند إحدى رجليه خمر ، وعند
الأخرى ثلج ، فقلنا : ما هذا ؟ قالوا : به النُّقُرس ، وإذا قوم قد أتوه ، فقالوا يا سَمُرَة ،

ما تقول لرَبِّك غدا ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله ؟ ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلته بخارجي ، ذاك فتى وجدناه ما ضياً في حاجته ، فشبهه علينا ، وإنما الخارجى هذا ، فتأمر بقتل الثانى ! فقال سمرة : وأى بأس في ذلك ؛ إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار .

وروى واصل مولى أبى عيينة ، عن جعفر بن محمد بن على عليه السلام عن آبائه ، قال : كان لسمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه ، فشكا الأنصارى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سمرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هذا ، وخذ ثمنه ، قال : لا أفعل ، قال : فخذ نخلا مكان نخلك ، قال : لا أفعل ، قال : فاشتر منه بستانه ، قال : لا أفعل ، قال : فاترك لى هذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وآله للأنصارى : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لاحق له فيه » .

وروى شريك قال : أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجر بن عدى ، قال : قدمت المدينة فجلست إلى أبى هريرة ، فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ، قال : ما فعل سمرة ابن جندب ؟ قلت : هو حى ، قال : ما أحدث أحب إلى طول حياة منه ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى وله ولحذيفة بن اليمان : « آخركم موتا في النار » ، فسبقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنى أن أسبقه ، قال : فبقى سمرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سمرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرطة عبيد الله زياد ، وكان يحرّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

ومن المنحرفين عنه ، المبغضين له عبد الله بن الزبير ؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان على عليه السلام يقول : ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذي حَمَلَ الزبيرَ على الحرب ؛ وهو الذي زَيَّنَ لعائشة مسيرَها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغضُ بنى هاشم ، ويلعن ويسب على بن أبي طالب عليه السلام . وكان على عليه السلام يقنّت في صلاة الفجر وفي صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعمر ، والمغيرة ، والوليد بن عقبة ، وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ، وبُسَير بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعري ، وعمران بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنّتون^(١) عليه ويلعنونه .

وروى شيخنا أبو عبد الله البصري المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم الليثي ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبي سفيان ، فخرجا من المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لعن الله التابع والمتبوع ؛ رب يوم لأمتي من معاوية ذى الأستاه » ، قالوا : يعنى الكبير العجُز .

وقال روى العلاء بن حريز القشيري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذنّ يامعاوية البدعة سنة ، والقبيح حسنا ، أكلك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حصيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال : قال

(١) يقنّتون عليه : يدعون عليه .

على عليه السلام : نحن وآل أبي سفيان قوم تعادوا في الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض ” السفينانية “ ما فيه كفاية في هذا الباب .

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق ، عن جُنْدَب بن عبد الله ، قال : ذُكِرَ
المغيرة بن شُعْبَةَ عندَ عليّ عليه السلام وجده مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه
لفجرةٍ وعُدرةٍ غدرها بنفر من قومه فتك بهم ؛ وركبها ، فهرب منهم ؛ فاتى النبي صلى
الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله ما رأى أحداً عليه منذ ادعى الإسلام خُضوعاً
ولا خشوعاً ، ألا وإنه كان من ثَقِيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق ، ويسترّون
نيران الحرب ويوازرون الظالمين ؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لا يوفون بعهدهم ، يبغضون العرب
كأنهم ليسوا منهم ؛ ولرب صالح قد كان فيهم . فمنهم عُرْوَةُ بن مسعود وأبو عُبيد بن مسعود
المستشهد يوم قَسِّ النَّاطِف . وإن الصالح في ثَقِيف لَعَرِيب .

قال شيخنا أبو القاسم البلخي : من المعلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به ؛ وإطباق
الناس عليه ، أن الوليد بن عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط ، كان يُبَغِضُ علياً ويشتمه ، وأنه هو الذي
لأَحَاهُ في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جَنَاناً ،
وأحدُ سَنَانَا ، فقال له على عليه السلام : اسكت يا فاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ أَفَعَنْ
كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ... ﴾ ^(١) الآيات المتلوة ؛ وسمى الوليد بحسب ذلك
في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لا يُعْرَفُ إلا بالوليد الفاسق .

وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة على عليه السلام ، كما نزل في مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا في آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ^(١) ؛ وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذب به على بنى المصطلق ، وادعاؤه أنهم منعوا الزكاة وشهروا السيف ؛ حتى أمر النبي صلى الله عليه وآله بالتجهز ^(٢) للمسير إليهم ؛ فأنزل الله تعالى في تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية ^(٣) .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبشئوه ويعرض عنه ؛ وكان الوليد يُبغض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضا وبشئوه ، وأبوه عُقبة بن أبي مُعيط هو العدو الأزرق بمكة ، والذي كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه وأهله ؛ وأخباره في ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بدر ضرب عنقه . وورث ابنه الوليد الشنآن والبغضة ^(٤) لحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبوه عُقبة فيهم ، وقد قُدم ليُضرب عنقه : من للصبية يا محمد ، فقال : « النار ، اضر بها عنقه » .

قال : وللوليد شعر يقصد فيه الرد على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال : « إن تولوها عليا ، تجدوه هاديا مهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتل قصد بنوه أن يُخفوا قبره خوفا من بنى أمية أن يحدوا في قبره حدًا ، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة - وهي ليلة دفنه - إيهامات مختلفة ، فشدوا على جبل تابوتا موثقًا بالحبال ، يفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبة ثقاتهم ، يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ، وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة ^(٥) مغطاة ،

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) ج : التجهيز .

(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) البغضة : شدة البغض .

(٥) الجنازة ، بالكسر ويفتح : الميت .

يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدة، منها بالمسجد، ومنها برجة القصر؛ قصر الإمارة، ومنها في حجرة من دور آل جمدة بن هبيرة الخزومي؛ ومنها في أصل دار عبد الله ابن يزيد القسري بجذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكناسة، ومنها في الثوية، فعلى الناس موضع قبره؛ ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص المخلصون من أصحابه؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السحر في^(١) الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النجف، بالموضع المعروف بالفرى بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهد كان عهد به إليهم، وعمل موضع قبره على الناس؛ واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافا شديدا، وافترقت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشتبت، وأدعى قوم أن جماعة من طي وقموا على جبل في تلك الليلة، وقد أضله أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنوا فيه مالا، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يطلبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم؛ واعتقدوه حقا؛ فقال الوليد بن عتبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها :

فإن يك قد ضلّ البعير بحمله فَمَا كَانَ مَهْدِيًّا وَلَا كَانَ هَادِيًّا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخي أيضا، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي، قال : مرّ ناس بالحسن بن علي عليه السلام، وهم يريدون عيادة الوليد بن عتبة، وهو في علّة له شديدة، فأثاه الحسن عليه السلام معهم عائدا، فقال للحسن : أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس؛ إلا ما كان بيني وبين أبيك، فإني لا أتوب منه . قال شيخنا أبو القاسم البلخي : وأكّد بفضّه له ضربه إياه الحدّ في ولاية عثمان، وعزّله عن الكوفة .

(١) ج : « من الليلة » .

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبك إلا مؤمن » .

قال : وروى حَبَّةُ العُرْنَى ، عن عليّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كل مؤمن على حُبِّي وميثاق كل منافق على بغضِي ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو صبيت الدنيا على المنافق ما أحببني .

وروى عبد الكريم بن هلال ، عن أسلم المكيّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمنين بالسيف ما أبغضني ، ولو نثرتُ^(١) على المنافق ذهباً وفضة ما أحببني ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبِّي وميثاق المنافقين ببغضِي ، فلا يُبغضني مؤمن ولا يحبني منافق أبداً .

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض علي بن أبي طالب .

ذكر إبراهيم بن هلال ، صاحب كتاب ” الغازات ” ، فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَّية التيميّ ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرِّمَى ودَسْتَبَنِي^(٢) ، فكسر الخوارج ، واحتجج المال لنفسه ، فحبسه عليّ عليه السلام ، وجعل معه سعداد لَلاه ، فقرَّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بمعاوية ، وقال :

(١) ج : « صبيت » .

(٢) دَسْتَبَنِي ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الرِّمَى وهِذَان .

خَادَعْتُ سَعْدًا وَازْتَمْتُ بِي رِكَابِي إِلَى الشَّامِ وَاخْتَرْتُ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ
وَعَادَرْتُ سَعْدًا نَائِمًا فِي عِبَادَةٍ^(١) وَسَعْدٌ غُلَامٌ مُسْتَهَامٌ مُضَلَّلٌ

ثم خرج حتى أتى الرقة ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق عليا عليه السلام ، يبدأ بالرقة حتى يستأذن معاوية في القدوم عليه ، وكانت الرقة والرُّها وقرقيسياً^(٢) وحران من حيز معاوية ؛ وعليهم الضحاك بن قيس ، وكانت هيت وعانات ونصيبين ودارا وآمد وسنجار من حيز علي عليه السلام ؛ وعليها الأشر ، وكانا يقتتلان في كل شهر .
وقال يزيد بن حُجَّية وهو بالرقة يهجو عليا عليه السلام :

يَاطُولَ لَيْلِي بِالرَّقَاتِ لَمْ أَتَمِّ مِنْ غَيْرِ عِشْقِي صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لَكِنْ لَذِكْرِ أُمُورٍ جَمَّةٍ طَرَقَتْ أَخَشَى عَلَى الْأَصْلِ مِنْهَا زَلَّةُ الْقَدَمِ
أَخَشَى عَلِيًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلَ الْعَقُورِ الَّذِي عَفَى عَلَى إِرَمِ
وبعد ذلك ما لاندكره .

قال إبراهيم بن هلال : وقد كان زياد بن خَصَفَةَ التيمي ، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَّية : ابعتني يا أمير المؤمنين في أثره أرده إليك ؛ فبلغ قوله يزيد بن حُجَّية ، فقال في ذلك :

أَبْلَغُ زِيَادًا أَنْتَى قَدْ كَفَيْتُهُ أُمُورِي وَخَلَيْتُ الَّذِي هُوَ عَاتِبُهُ
وَبَابٌ شَدِيدٌ مُوثِقٌ قَدْ فَتَحْتُهُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَعَيْتَ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهُ
هَبِلْتَ أَمَّا تَرْجُو غَنَائِي وَمَشْهَدِي إِذَا لَخِصْمٌ لَمْ يُوْجَدْ لَهُ مَنْ يُجَادِبُهُ!^(٣)

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب « غيابة » .

(٢) قرقيسيا : بلد على الحابور عند مصبه .

(٣) يجاذبه ، أى يحوله عن طريقه .

فَأَقْسِمُ لَوْ لَا أَنَا أَمَّا أَمَّا وَأَنْتَ مَوْلَى مَا طَفِقْتُ أَعَاتِبُهُ
وَأَقْسِمُ لَوْ أَدْرَكْتَنِي مَارَدَدْتَنِي كَلَانَا قَدْ اصْطَفَتْ إِلَيْهِ جَلَابِئُهُ

قال ابن هلال : وكتب إلى العراق شعرا يذم فيه عليا عليه السلام ، ويخبره أنه من أعدائه ، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة : ارفعوا أيديكم فادعوا عليه . فدعا عليه وأمن أصحابه .

قال أبو الصلت التيمي : كان دعاؤه عليه : اللهم إني يزيد بن حُجَّية هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين ، فاكفينا مكره وكيدَه واجزِهِ جزاء الظالمين .

قال : ورفع القومُ أيديهم يُؤمِّنون ، وكان في المسجد عِفاق بن شَرْحَبِيل بن أبي رهم التيمي شيخا كبيرا ، وكان يمدُّ من شهد على حُجْر بن عدى حتى قتله معاوية ، فقال عِفاق : عَلَى مَنْ يدعو القوم ؟ قالوا : عَلَى يزيد بن حُجَّية ، فقال : تَرَبَّتْ أيديكم ! أَطْلَى أشرافنا تدْعُون ! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلك . وقام زياد بن خَصَفَة - وكان من شيعة علي عليه السلام - فقال : دعوا لي ابنَ عَمِّي . فقال علي عليه السلام : دعوا للرجُل ابنَ عمه ، فتركه الناس ، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد ، وجعل يمشي معه يمسح التراب عن وجهه ، وعِفاق يقول : والله لا أَحِبَّكم ماسعيت ومشيت ، والله لا أَحِبَّكم ما اختلفت الذرة والحرَّة ؛ وزياد يقول : ذلك أضْرَ لك ، ذلك شَرُّ لك .

وقال زياد بن خَصَفَة يذكر ضرب الناس عِفاقا :

دَعَوْتُ عِفاقا لِلْهُدَى فَاسْتَعْشَنِي . بَوَّلَى فَرِيًّا قَوْلُهُ وَهُوَ مُغْضَبٌ
وَلَوْلَا دَفَاعِي عَنْ عِفاقٍ وَمَشْهَدِي هَوْتُ بِعِفاقٍ عَوْضُ عَنقَاءِ مُغْرِبٍ^(١)

(١) عوض ، معناه أبدا . وعنقاء مغرب ، قال في اللسان : « العنقاء المغرب : كلمة لا أصل لها ؛ ويقال إنها ضائر عظيم لا ترى إلا في الدهور ؛ ثم كثر ذلك حتى سموها الداهية عنقاء مغرباً ومغربة . »

أَنْبَتْهُ أَنْ الْمَدَى فِي اتِّبَاعِنَا فَيَأْبَى، وَيُضْرِيهِ الْمَرَاءُ فَيَشْغَبُ^(١)
فَالَا يَشَابِعُنَا عِفاقُ فَإِنَّا^(٢) عَلَى الْحَقِّ مَاغْنَى الْحَمَامِ الْمَطْرَبُ
سَيُغْنِي إِلَالَهُ عَنْ عِفاقٍ وَسَعِيهِ إِذَا بَعَثَ لِلنَّاسِ جَأْوَءَ تُخْرَبُ^(٣)
فَإِنَّكَ مِنْ حَتَّى مَعْدٍ وَمِثْلُهَا يَمَانِيَةٌ لَا تَنْتَنِي حِينَ تُنْدَبُ^(٤)
لَهُمْ عَدَدٌ مِثْلُ التَّرَابِ وَطَاعَةٌ تَوَدُّ، وَبَأْسٌ فِي الْوَعَى لَا يُؤْنَبُ
فَقَالَ لَهُ عِفاقُ : لَوْ كُنْتُ شَاعِرًا لَأَجَيْتُكَ ؛ وَلَكِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ ، كُنْ مِنْكُمْ ؛ وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تُصَيِّبُوا بَعْدَهُنَّ شَيْئًا مِمَّا يَسِرُّكُمْ :

أَمَّا وَاحِدَةٌ ، فَإِنَّكُمْ سَرْتُمْ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ حَتَّى إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمُ قَاتَلْتُمُوهُمْ ؛ فَلَمَّا ظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّكُمْ لَهُمْ قَاهِرُونَ رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ ، فَسَخَّرُوا بِكُمْ فِرْدَوْكُمُ عَنْهُمْ ، فَلَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُونَهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ الْجِدَّةِ وَالْحَدَّةِ وَالْعَدَدِ الَّذِي دَخَلْتُمُوهَا أَبَدًا .

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّكُمْ بَعَثْتُمْ حَكَمًا وَبَعَثَ الْقَوْمُ حَكَمًا ؛ فَأَمَّا حَكْمُكُمْ فَخَلَعَكُمْ ، وَأَمَّا حَكْمُهُمْ فَأَثَبْتَهُمْ ؛ فَرَجَعَ صَاحِبُهُمْ يُدْعَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَجَعَتْهُمُ مِثْلَانِ عَيْنِينَ مُتَبَاغِضِينَ ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَزَالُ الْقَوْمُ فِي عِلَاءٍ ، وَلَا تَزَالُونَ فِي سِفَالٍ .

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ ، فَإِنَّهُ^(٥) خَالَفَكُمْ قُرَاؤُكُمْ وَفُرْسَانُكُمْ فَعَدَوْكُمْ عَلَيْهِمْ فَذَبَحْتُمُوهُمْ بِأَيْدِيكُمْ ؛ فَوَاللَّهِ لَا تَزَالُونَ بَعْدَهَا مُتَضَعِّعِينَ^(٦) .

قَالَ : وَكَانَ يَمُرُّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ، فَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَلَا بَنَ عِفَانُ وَلِيَّ !
فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ إِنَّا لَنَلِيَّ أَوْلِيَاءَ وَمَنْ ابْنُ عِفَانٍ بَرَاءٌ ، وَمَنْكَ يَا عِفاقُ !

(١) الشغب : الشر .

(٢) ج : « يَتَابِعُنَا » .

(٣) كَتِيبَةٌ جَأْوَءَ : هِيَ الَّتِي يَلْعُوها لَوْنُ السَّوَادِ لِكَثْرَةِ الدَّرُوعِ .

(٤) تَنْدَبُ : تَدْعَى فَتُخَفِّفُ لِلدَّعْوَى .

(٥) ج : « فَإِنَّكُمْ » .

(٦) تَضَعُّعٌ : خَضَعٌ وَذَلٌّ .

قال : فأخذ لا يُقْلِع ؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة السكهان ، فقالوا : ويحك ! أما تكفيننا بسجعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتمكم ، فرَّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتل عِفاقا ، فإنه أسرَّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبينَ فراقا ، وتلونَ أخلاقا .

فقال عِفاق : وَيَحْكُم ! من سَلَطَ على هذا ؟ قال : الله بعثني إليك ، وسلّطني عليك لأقطع لسانك ، وأنصِلَ سِنانك ^(١) ، وأطرد شيطانك .
قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزينة .

ومن فارقة عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعْتَبِ الثقفى ، شهد مع على عليه السلام صفين ، وكان في أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار إلى على عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان على عليه السلام يسميه الهجَنع ، والهجنع : الطويل .

ومنهم القعقاع بن سُور ، استعمله على عليه السلام على كَسْكَر ، فنقم منه أمورا ؛ منها أنه تزوج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

ومنهم النجاشى الشاعر من بنى الحارث بن كعب ، كان شاعرَ أهل العراق بصفين ، وكان على عليه السلام يأمر بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كعب بن جُعَيْل وغيره ، فشرب الخمر بالكوفة ، فخذه على عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا عليه السلام .

(١) أنصِلَ السنان : جعل له سنا ، ونزعه عنه ، من الأضداد ؟

حدث ابن الكلبي عن عَوَانة ، قال : ^(١) خرج النجاشي في أول يوم من شهر رمضان ، فمر بأبي سَمَّال الأسدي ، وهو قاعد بفناء داره ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أردت الكُنَاسَةَ ، فقال هل لك في رءوس وآليات قد وُضِعَتْ في التَّنُّور من أول الليل ، فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ قال : وَنَحْك ! في أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شراب كالوَرَس ، يُطَيِّب النفس ، ويجري في العِرْق ، ويزيد في الطَّرْق ، يهضم الطعام ، وَيُسَهِّلُ للقدم ^(٢) الكلام ؛ فنزل فتغديا ، ثم أتاه بنبيد فشرباه ، فلما كان آخر النهار علت أصواتهما ، ولهما جارٌّ من شيعته على عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سَمَّال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت ؛ وأخذ النجاشي ، فأتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه في سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحدّ فقد عرفته ، فما هذه العِلَاقَةُ ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك في شهر رمضان . ثم أقامه في سراويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خَزِي النجاشي ، خَزِي النجاشي ! وجعل يقول : كَلَّا إنها يمانية وكأوها شعر ^(٣) .

قال : ومرة به هند بن عاصم السلولي ، فطرح عليه مُطَرَفًا ، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فدح بني سلول فقال :

إذا الله حيّا صالحًا من عباده	تقيًا فحيا الله هِنْدَ بْنَ عاصمٍ
وكلّ سَلُولِيّ إذا ما دعوته	سريع إلى داعي العلا والمكارم
عم البيض أقداما وديباجٍ أوجه	جلوها إذا اسودّت وجوه الملائم
ولا يَأْكُلُ الكلب السروق نعالهم	ولا يبتغي المخّ الذي في الجاجم

(١) الخبر في الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) القدم : النقي .

(٣) كذا في الأصول .

ثم لحق معاوية ، وهجا عليا عليه السلام ، فقال :

أَلَا مِنْ مُبْلِغٍ عَنِّي عَلِيًّا بَأَنِّي قَدْ أَمِنْتُ فَلَا أَخَافُ
عَمِدْتُ لِمُسْتَقَرِّ الْحَقِّ لَمَّا رَأَيْتُ أُمُورَكُمْ فِيهَا اخْتِلَافُ

وروى عبد الملك بن قُريب الأصمعي ، عن ابن أبي الزناد ، قال : دخل النجاشي على معاوية ، وقد أذن للناس عامة ، فقال لحاجبه : ادعُ النجاشي ، والنجاشي بين يديه ، ولكن اقتحمته عينه ، فقال : هاأنذا النجاشي بين يديك يا أمير المؤمنين ؛ إن الرجال ليست بأجسامها ؛ إنما لك من الرجل أصغراه : قلبه ولسانه ، قال : ويحك ! أنت القائل ^(١) :

وَنَجَّيْ ابْنَ حَرْبٍ سَابِحٍ ذُو عُلَّالَةٍ أَجَشَّ هَزِيمٌ وَالرِّمَاحُ دَوَانِي ^(٢)
إِذَا قُلْتُ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَنْوُشُهُ مَرَّتَهُ بِهِ السَّاقَانِ وَالْقَدَمَانِ ^(٣)

ثم ضرب يده إلى ثدييه ^(٤) ، فقال : ويحك ! إن مثلي لا تعدو به الخيل ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني لم أعنك ؛ إنما عنيت عُقْبَةَ .

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، أن عليا عليه السلام لما حدث النجاشي غضبت اليمانية لذلك ، وكان أخصهم به طارق بن عبد الله بن كعب التهدي ، فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء ؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث ،

(١) البيتان في الأغاني ١٣ : ٢٦٠ (طبعة الدار) ، والأول مع الخبر في الشعر والشعراء ٢١٩

(٢) السابح : الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس . والأجش الغليظ الصوت في صهيله ؛ وهو مما يحمى في الخيل . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٣) مرته : استدرت جريه

(٤) في الشعر والشعراء : « تندوءتيه » ، والتندوءة : اللحم الذي حول الثدي .

فأوغرت صدورنا، وشتت أمورنا، وحملتنا على الجادة^(١) التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار. فقال على عليه السلام: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢)؛ يا أخا نهْد، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حُرِّم الله، فأقمنا عليه حدًّا كان كفارته؛ إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْزِيكَمْ شَفَاعَةُ قَوْمٍ عَلَىٰ إِلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٣). قال: فخرج طارق من عنده، فلقية الأشر، فقال: يا طارق؛ أنت القائل لأُمير المؤمنين: «أَوْغَرَّتْ صُدُورُنَا، وَشَتَّتْ أُمُورُنَا»؟ قال طارق: نعم، أنا قائلها، قال: والله ما ذاك كما قلت؛ إن صدورنا له لسامعة، وإن أمورنا له لجامعة، فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشر أنه غير ما قلت؛ فلما جئته الليل همس^(٤) هو والنجاشي إلى معاوية، فلما قدما عليه، دخل آذنه فأخبره بقدميهما، وعنده وجوه أهل الشام، منهم عمرو بن مرة الجهني وعمرو بن صيفي وغيرهما، فلما دخلا نظر معاوية إلى طارق، وقال: مرحبا بالمورق غصنه، والمريق أصله، السود غير المسود؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتباعه صاحب الفتنة، ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رَحْلِهَا، ثم أوجف في عَشْوَةٍ ظَلَمَتْهَا وَتِيهِ ضَلَالَتُهَا؛ واتبعه رجرجة^(٥) من الناس، وأشابة^(٦) من الخثالة لا أفئدة لهم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٧)

فقام طارق، فقال: يا معاوية إني متكلم فلا يسخطك، ثم قال: وهو متكئ على سيفه: إن الحمود على كل حال ربُّ علا فوق عباده، فهم منه بمنظر ومسمع؛ بعث فيهم

(١) الجادة: معظم الطريق، أو وسطه.

(٢) سورة البقرة ٤٥.

(٣) سورة المائدة ٨.

(٤) همس: السير بالليل.

(٥) الرجرجة: الجماعة الكثيرة من الناس.

(٦) الأشابة: أخلاط الناس.

(٧) سورة محمد ٢٤.

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يحطه بيمينه ؛ إذا لارتاب المبطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيمًا ! أما بعد ، فإن ما كنا نوضع فيما أوضعنا فيه بين يدي إمامٍ تقىّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، أتقياء مرشدين ، ما زالوا منارًا للهدى ، ومعالم للدين ، خلفًا عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كلٌّ اخبر فيهم ، وأتبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهل بيوتات وشرف ، ليسوا بنا كثيرين ولا قاسطين ، فلم يكن رغبةٌ من رغب عنهم عن صحبتهم إلا لمرارة الحق حيث جرُّعوها ، ولوعورته حيث سلَّكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ؛ وقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم فرارا من الضيم ، وأنفا ^(١) من الذلة ، فلا تفخرن يا معاوية ؛ إن شدَدنا نحوك الرحال ، وأوضعنا إليك الركاب ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لى وجميع المسلمين .

فعظم على معاوية ما سمعه وغضب ، لكنه أمسك ^(٢) ؛ وقال : يا عبد الله ؛ إنا لم نرد بما قلناه أن نوردك مَشْرَع ظمًا ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِيٍّ ؛ ولكن القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريريه ، ودعا له بمقطعات وبرود يضعها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفي الجهنيان ، فأقبلا عليه بأشدَّ العتاب وأمضه ، يلومانه في خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ما قتت بما سمعناه حتى خيل لي أن بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهر من العيب والنقص لمن هو خير منه في الدنيا والآخرة ، وما يزهد به نفسه ، ومملكه عجيبة ، وغاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم ، فقامت مقامًا أوجب الله على فيه ألا أقول إلا حقا ، وأى خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غدا !

(١) ج : « وأنفه من الذلة » .

(٢) ج : « تماسك » .

فبلغ علياً عليه السلام قوله ، فقال : لو قُتل النهدي يومئذ لقتل شهيدا .
 وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبي العُريان - وكان عُثْمَانِيَا ، وكانت امرأته عَلَوِيَّةَ -
 الرأي ، تكتب بأخبار معاوية في أعنة الخيل وتدفعها إلى عسكر على عليه السلام بصفين
 فيدفعونها إليه - فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلَى في
 صَفين أم أهل الشام لي ! فقال : أهل العراق قبل أن يُضْرَبوا بالبلاء كانوا أنصحَ
 لصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنَّ القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل
 الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبرُّ ، وهم أهل بصيرة ، وإنما أهل الدنيا أهل طمع ؛ ثم والله
 ما لبث أهلُ العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .
 فقال معاوية فما الذي يمنع الأشعث أن يقدم علينا ، فيطلب ما قبلنا ! قال : إن الأشعث
 يكره نفسه أن يكون رأسا في الحرب ، وذنباً في الطمع .

ومن المفارقين لعلَى عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبي طالب ؛ قدِم على أمير المؤمنين
 بِسَكُوفَةٍ يَسْتَرْفِدُهُ ^(١) ، فعرض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم
 إلى يوم الجمعة ، فلما صلى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟
 قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتني أن أخونهم وأعطيكَ ، فلما خرج من عنده شخص
 إلى معاوية ، فأمر له يوم قدمه بمائة ألف درهم ، وقال له : يا أبا يزيد ، أنا خير لك أم على ؟
 قال : وجدت عليا أنظرَ لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظرَ لي منك لنفسك .

وقال معاوية لعقيل : إن فيكم يابني هاشمَ ليناً ، قال : أجل إنَّ فينا ليناً من غير

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعَف ، وَعِزًّا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، وَإِنْ لَيْنَكُمْ بِمَعَاوِيَةَ غَدَرٌ ، وَسَلَّكُمْ كُفْرٌ . فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :
وَلَا كُلَّ هَذَا يَا أَبَا يَزِيدَ !

وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ لِعَقِيلٍ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ : غَلَبَكَ أَخُوكَ يَا أَبَا يَزِيدَ عَلَى الثَّرْوَةِ !
قَالَ : نَعَمْ ، وَسَبَقَنِي وَإِيَّاكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ شِدْقِيهِ لِمُضْمُومَانِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ،
فَقَالَ : وَمَا أَنْتَ وَقَرِيشُ ! وَاللَّهِ مَا أَنْتَ فِينَا إِلَّا كَنَطِيحِ التَّيْسِ . فَغَضِبَ الْوَلِيدُ
وَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي قَتْلِهِ لَأَرْهَقُوا صَعُودًا ^(١) ، وَإِنْ أَخَاكَ لِأَشَدَّ
هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابًا ، فَقَالَ : صَه ! وَاللَّهِ إِنَّا لَنَرِغِبُ بِعَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ عَنْ صُحْبَةِ أَبِيكَ عُقْبَةَ
ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا - وَعِنْدَهُ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَقِيلٌ : لِأُضْحَكَنَّكَ مِنْ عَقِيلٍ ،
فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ مَعَاوِيَةُ : مَرَحْبًا بِرَجُلٍ عَمَّةُ أَبِي هَلْبٍ ، فَقَالَ عَقِيلٌ : وَأَهْلًا بِرَجُلٍ عَمَّتُهُ : ^(٢) حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ^(٣) ؛ لِأَنَّ امْرَأَةَ أَبِي هَلْبٍ أُمُّ جَمِيلَ بِنْتِ حَرْبِ
ابْنِ أُمَيَّةٍ .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا يَزِيدَ مَا ظَنَنْتُكَ بِعَمِّكَ أَبِي هَلْبٍ ! قَالَ : إِذَا دَخَلْتَ النَّارَ فَخُذْ عَلَى
يَسَارِكَ تَجِدُهُ مَفْتَرِشًا عَمَّتِكَ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ؛ أَفَنَأْكُحُّ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْكُوحُ ! قَالَ :
كَلَاهُمَا شَرٌّ وَاللَّهِ .

وَمِنْ فَارَقَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَنْظَلَةُ السَّكَاتِبِ ، خَرَجَ هُوَ وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ مِنَ
الْكُوفَةِ إِلَى قَرْقِيسِيَا ؛ وَقَالَا : لَا نَقِيمُ بَيْلِدَةَ يُعَابُ فِيهَا عُثْمَانُ .

(١) الصعود : العقبة الشاقة .

(٢) المسد : حبل من ليف الملقح .

ومن فارقه وائل بن حجر الحضرمي ، وخبره مذكور في قصة بسر بن أرطاة .

وروى صاحب كتاب " الفارات " عن إسماعيل بن حكيم ، عن أبي مسعود الجريري ، قال : كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بفض علي عليه السلام : مطرف بن عبد الله ابن الشخير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب " الفارات " : وكان مطرف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمار ابن ياسر دخل على أبي مسعود وعنده ابن الشخير ، فذكر عليا بما لا يجوز أن يذكر به ، فقال عمار : يافاسق وإنك لها هنا ! فقال أبو مسعود : أذكرك الله يا أبا اليقظان في ضيفي !

قال : وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانية ، وكانت في أنفسهم أحقاد يوم الجمل ، وكان هو عليه السلام قليل التآلف للناس ، شديدا في دين الله ، لا يبالي مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحق من سخط ومن رضى .

قال : وقد روى يونس بن أرقم ، عن يزيد بن أرقم ، عن أبي ناجية ، مولى أم هانئ ، قال : كنت عند علي عليه السلام ، فأتاه رجل عليه زي السفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أتيتك من بلدة مارأيت لك بها محبا ، قال : من أين أتيت ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبوني لأحبوني ؛ إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزداد فينا رجلا ، ولا ينقص إلى يوم القيامة .

وروى أبو غسان البصري ، قال : بنى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة ، تقوم على بفض علي بن أبي طالب والوقعة فيه : مسجد بني عدي ، ومسجد بني مجاشع ،

ومسجد كان في العلافين على فُرْضَةِ البصرة ، ومسجد في الأزد .

ومما قيل عنه إنه يفيض عليا عليه السلام ويذمه ، الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد ؛ روى عنه حماد بن سلمة أنه قال : لو كان عليّ يا كل الحشَف (١) بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه . ورووا عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته .

وروى عنه أن عليا عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة ، وكان ذا وسوسة ، فصبّ على أعضائه ماء كثيراً ، فقال له : أرقتَ ماء كثيراً يا حسن ؛ فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فلا زلت مسوّاً . قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكرونه ويقولون : إنه كان من محبّي علي ابن أبي طالب عليه السلام والمُعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدث في كتابه المعروف بـ ” الاستيعاب في معرفة الصحاب “ أن إنسانا سأل الحسن عن علي عليه السلام ، فقال : كان والله مهماً صائباً من مراحمي الله على عدوّه ، ورباني هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لم يسكن بالنوامة عن أمر الله ، ولا بالملومة في دين الله ، ولا بالسُرُوقَة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمَه ففازَ منه برياضٍ مُوثقة ، ذلك علي بن أبي طالب يالْكَم !

وروى الواقدي ، قال : سئل الحسن عن علي عليه السلام - وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ - فقال : ما أقول فيمنّ جَمَعَ الخصال الأربع ، اثمانه على براءة ،

(١) الحشف : أردأ التمر .

وما قال له الرسول في غزاة تبوك ، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه ، وقول النبي صلى الله عليه وآله : « الثقلان كتاب الله وعترتي » ، وإنه لم يؤمر عليه أميرقط ، وقد أمرت الأمراء على غيره .

وروى أبان بن عياش ، قال : سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام ، فقال : ما أقول فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأى والصحبة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقراءة ، إن عليا كان في أمره عليا ، رحم الله عليا ، وصلى عليه ! فقلت : يا أبا سعيد ، أقول : « صلى عليه » لغير النبي ! فقال : ترحم على المسلمين إذا ذكروا ، وصل على النبي وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خير من حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخير من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنه خير آل محمد كلهم ، ومن يشك أنه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وأبوها خير منهما » ! ولم يجر عليه اسم شرك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام : « زوجتك خير أمتي » ، فلو كان في أمته خير منه لاستثناه ، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه ، فآخى بين علي ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خير الناس نفسا ، وخيرهم أجا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في علي ؟ فقال : يا بن أخي ، أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لسلت بي الخشب .

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى ، ووجدته أيضا في كتاب " الغارات " ، لإبراهيم بن هلال الثقي : وقد كان بالكوفة من فقهاء من يعادي عليا ويُبغضه ، مع غلبة التشيع على الكوفة ، فمنهم مرة الهمداني .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن عن فِطْر بن خليفة ، قال : سمعت مُرَّة يقول : لَأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ جَمَلًا يَسْتَقِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ خَيْرَ لَهُ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ .

وروى إسماعيل بن بهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمُرَّة الهمداني : كيف تَخَلَّفْتَ عن عليٍّ ؟ قال ^(١) : سَبَقْنَا بِحَسَنَاتِهِ ، وَابْتَلَيْنَا بِسَيِّئَاتِهِ .

قال إسماعيل بن بهرام : وقد روينا عنه أنه قال أَشَدَّ فُحْشًا مِنْ هَذَا ؛ وَلَكِنَّا نَتَوَرَّعُ عَنْ ذِكْرِهِ .

وروى الفضل بن دُكَيْن ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلِّ أبو صادق علي مُرَّةَ الهمداني .

قال الفضل بن دُكَيْن : وسمعتُ أَنْ أَبَا صَادِقٍ قَالَ فِي أَيَّامِ حَيَاةِ مُرَّةَ : وَاللَّهِ لَا يَظَلُّنِي وَإِيَّاهُ سَقْفُ بَيْتٍ أَبَدًا .

قال : ولما مات لم يحضره عمرو بن شرحبيل ، قال : لَا أَحْضَرُهُ لَشَيْءٍ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَعْلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

قال إبراهيم بن هلال : حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيُّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ . قَالَ : ثُمَّ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ يَقُولُ ، وَكَذَلِكَ أَنَا ؛ وَاللَّهِ لَوْ مَاتَ رَجُلٌ فِي نَفْسِهِ ^(٢) شَيْءٌ مَعْلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ أَحْضَرْهُ ، وَلَمْ أَصِلْ عَلَيْهِ .

ومنها الأُسُودُ بْنُ يَزِيدَ وَمَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ ؛ رَوَى سَلَمَةُ بْنُ كَهِيلٍ : أَنَّهُمَا كَانَا يَمْشِيَانِ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَيَقْعَانِ فِيهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَأَمَّا الْأُسُودُ فَسَاتَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَمَّا مَسْرُوقٌ فَلَمْ يُمْتْ حَتَّى كَانَ لَا يَصِلُ لِلَّهِ تَعَالَى صَلَاةً

(١) : ب « فقال » .

(٢) ب « في قلبه » .

إلا صلى بعدها على بن أبي طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة في فضله .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن ليث بن أبي سليم ، قال : كان مسروق يقول : كان على كحاطب ليل ؛ قال : فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سلمة بن كهيل ، قال : دخلتُ أنا وزيد اليمامي على امرأة مسروق بعد موته ؛ فحدثتنا ، قالت : كان مسروق والأسود بن يزيد يُفِرطان في سبِّ علي ابن أبي طالب ، ثم مات مسروق حتى سمعته يصلي عليه ، وأما الأسود فمضى لشأنه ، قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شيء سمعته من عائشة تزويه عن النبي صلى الله عليه وآله فيمن أصاب الخوارج .

وروى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، قال : ثلاثة لا يؤمنون على ابن أبي طالب : مسروق ، ومرة ، وشريح .

وروى أن الشعبي رابعهم .

وروى عن هيثم ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، أن مسروقاً ندِمَ على إبطائه عن علي ابن أبي طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ؛ قال : قال علي عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى قضية نَمَ عليه أمرها : والله لأنفيَنَّك إلى بَاقِيَا^(١) شهرين تقضى بين اليهود ، قال : ثم قُتِلَ علي عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشريح : ما قال لك أمير المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال : إنه قال لي كذا ، قال : فلا والله لا تقعد ، حتى تخرج إلى بَاقِيَا تقضى بين اليهود . فسَيَّرَه إليها فقضى بين اليهود شهرين .

(١) باقيا ، بكسر النون : ناحية من نواحي الكوفة كانت على شواطئ الفرات (مرصد الاطلاع) .

ومنه أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عثمانيا يقع في عليّ عليه السلام ، ويقال : إنه كان يرى رأى الخوارج ، ولم يختلف في أنه خرج معهم ؛ وأنه عاد إلى عليّ عليه السلام مَنِيًّا مَقْلَعًا .

روى خلف بن خليفة ، قال : قال أبو وائل : خرجنا أربعة آلاف ، فخرج إلينا عليّ ، فما زال يكلمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، عن عثمان بن أبي شيبة ، عن الفضل بن دُكَيْنٍ ، عن سفيان الثوري ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفِينَ وبُئْسَ الصُّفُوفُ كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبي النجود ، قال : كان أبو وائل عثمانيا ، وكان زِرُّ بن حُبَيْش عَلَوِيًّا .

ومن المبغضين القالين أبو بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري ، ورث البغضة له ، لا عن كَلالة^(١) .

وروى عبد الرحمن بن جُنْدَب ، قال : قال أبو بردة لزياد : أشهد أن حُجْر بن عدى قد كفر بالله كفره أَصْلَحَ ، قال عبد الرحمن : إنما عَنَى بذلك نِسْبَةَ الكفر إلى عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ؛ لأنه كان أَصْلَحَ .

قال : وقد روى عبد الرحمن السعدي ، عن ابن عياش المتوفى ، قال : رأيت أبا بُرْدَة قال لأبي العادية الجهنّي قاتل عمار بن ياسر : أأنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم ، قال : ناولني يدَكَ . فقبَّلَهَا ، وقال : لا تمسَّك النار أبدا .

(١) يقال : لم يرثه كَلالة ، أي لم يرثه عن هرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أُوَيْسِ الأشعري .

وروى أبو نعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يزيد ، قال : رأيت أبا بُرْدَة قال لأبي العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخي هاهنا ! فأجلسه إلى جانبه .

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن الشلمي القاري ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبي عبد الرحمن الشلمي : أنشدك بالله ، إن سألتك لتخبرني ؟ قال : نعم ، فلما أكد عليه قال : بالله هل أبغضت عليا إلا يوم قسم المال في الكوفة فلم يصلك ولا أهل بيتك منه بشيء ! قال : أما إذ أنشدتني بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضرير ، عن أبي عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن الشلمي شيء في أمر علي عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حيان ، فقال : هل تدري ما جرأ صاحبك على الدماء ؟ يعني عليا ، قال : وما جرأه لا أبا لغيرك ؟ قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

وكان عبد الله بن عكيم عثمانيا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى علويًا ، فروى موسى الجهني ، عن ابنة عبد الله بن عكيم ، قال : تحدثا يوما ، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبك لو صبر لأتاه الناس .

وكان سهم بن طريف عثمانيا ، وكان علي بن ربيعة علويًا ، فضرب أمير الكوفة على الناس بعثا ، وضرب على سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعلی بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فكلّمه في أمری ليُعفيني ، فأتى علي بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأغفهِ ، قال : قد أعفيتُهُ ، فلما التقيا قال : قد أخبرت الأمير أنك أعمى ؛
وإنما عنيت عمى القلب .

وكان قيس بن أبي حازم يُبغِضُ عليا عليه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسماعيل
ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : أتيت عليا عليه السلام ليكلم لي عثمان في
حاجة ، فأبى فأبغضته .

قلت : وشيوخنا المتكلمون - رحمهم الله - يُسقطون روايته عن النبي صلى الله عليه وآله :
« إنكم لتروُنَ ربكم كما تروُنَ القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغِضُ عليا عليه
السلام ؛ فكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنبر ،
ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضه في قلبي .

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبّه عمر بن علي عليه السلام في
وجهه بكلام شديد .

روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبي داود الهمداني ، قال : شهدت سعيد
ابن المسيّب - وأقبل عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يا بن أخي ،
ما أراك تكثير غشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله كما يفعل إخوانك
وبنو أعمامك ! فقال عمر : يا بن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجىء فأشهدك ! فقال
سعيد : ما أحب أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إن لي من الله مقاما هو خير لبي
عبد المطلب ممّا على الأرض من شيء . فقال عمر : وأنا سمعت أبي يقول : ما كلمة حكمة

في قلب منافق فيخرج من الدنيا، حتى^(١) يتكلم بها . فقال سعيد: يا بن أخي، جعلتني منافقا !
قال : هو ما أقول لك . ثم انصرف .

وكان الزهريّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وردى جرير بن عبد الحميد ، من محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجد المدينة ، فإذا
الزهريّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك عليّ
ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : أما أنت يا عروة فإن أبي حاكم
أباك إلى الله ، فحكم لأبي عليّ أهلك ؛ وأما أنت يا زهريّ ، فلو كنت بمكة لأريتك
كبير أهلك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أن عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه يزوهوا إلا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد .

وردى عاصم بن أبي عامر البجليّ ، عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبي إذا ذكر عليا
نال منه .

وقال لي مرة : يا بني ، والله ما أحجم الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ؛ لقد بعثَ إليه أسامة
ابن زيد أن ابعثْ إليّ بعتائى ، فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلتُ معك . فكتب
إليه : إن هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكن لي مالا بالمدينة فأصِْب منه ما شئت .
قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

وكان زيد بن ثابت عثمانيا شديداً في ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانيا ، من
أعداء علي عليه السلام ومُبغضيه ، وعمرو بن ثابت هو الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري
حديث : « ستة أيام من شوال » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيها الناس ، إن عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن يبخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة القبة ، فالتنوه ، فيلتمه أهل تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى ، فيأمرهم بمثل ذلك . وكان في أيام معاوية .

وكان مكحول من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر ، قال : لقيت مكحولا ؛ فإذا هو مطبوع - يعنى مملوء - بنضا لعل عليه السلام - فلم أزل به حتى لأن وسكن .

وروى المحدثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علي أشد حبا له من أصحاب الجبل لمجلبهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شابة بن سوار أنه ذكر عنده وقد على عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال : والله لا يصلون إليها أبدا ، والله ما استقامت لعل ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لا يذوق طعم الخلافة من رضى بقتل عثمان .

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافي : كان أهل البصرة كلهم يُبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهل مكة فكلهم كانوا يُبغضونه قاطبة ، وكانت قریش كلها على خلافه ، وكان جمهور الخلق مع بنى أمية عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالتى أحد من الناس ما لقيت ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشعبي ، عن شريح بن هانئ ، قال : قال علي عليه السلام : اللهم إني أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِي ، وأصغوا^(١) إناثي ، وصَغَرُوا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعتي .

وروى جابر عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إني أَسْتَعْدِيكَ على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِي ، وَغَصَبُونِي حَقِّي ، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إن من الحق أن تأخذه ، ومن الحق أن تتركه .

وروى المسيب بن نَجْبَةَ الفزارى ، قال : قال علي عليه السلام : من وجدتموه من بني أمية في ماء فغطوا على صِماخه ، حتى يدخل الماء في فيه .

وروى عمرو بن دينار ، عن ابن أبي مُليكة ، عن المسور بن مخرمة ، قال : لقيَ عبدالرحمن ابن عوف عمر بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلهم في آخر الأمر كما قاتلتموه في أوله ؟ قال : بلى ؛ ولكن ذاك إذا كان الأمراء بني أمية والوزراء بني مخزوم .
وروى أبو عمر النهدي ، قال : سمعت علي بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبُّنا .

وروى سفيان الثوري ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختری ، قال : أثنى رجلٌ على علي بن الحسين في وجهه - وكان يُبغضه - فقال علي : أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك .

وروى أبو غسان النهدي ، قال : دخل قوم من الشيعة على علي عليه السلام في الرحبة ، وهو على حصير خلَّق ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : حبك يا أمير المؤمنين ، قال : أما إنه من أحبني رأي حيث يحب أن يراني ، ومن أبغضني رأي حيث يكره أن يراني ، ثم قال : ما عبد الله أحدٌ قبلي إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَمَ أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو أفعلتموها ! ثم قال لي وأنا غلام : وَيَحْكُ ، انصر ابن عمك ! وَيَحْكُ لا تأخذله ،

(١) يقال : أصغى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحثني على موازرتة ومكافئته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلي أنت معنا يا عَم ! » فقال : لا أفعل يا ابن أخي ، لاتعلموني استي . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العُرَنيّ ، قال : قال علي عليه السلام : مَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي ؛ أَمَا إِنَّكَ لَوْ صُمْتَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ، وَفَقْتَ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، ثُمَّ قُتِلْتَ بَيْنَ الصَّفَا وَالرُّوَّةِ - أَوْ قَالَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ لَمَا بَعَثَكَ اللَّهُ إِلَّا مَعَ هَوَاكَ بِالْعَا مَا بَلَغَ ؛ إِنْ فِي جَنَّةٍ فِي جَنَّةٍ ، وَإِنْ فِي نَارٍ فِي نَارٍ .

وروى جابر الجعفيّ ، عن علي عليه السلام أنه قال : مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلَيْسَتْ لَهُ عُدَّةٌ لِلْبَلَاءِ .

وروى أبو الأحوص ، عن أبي حيان عن عليّ عليه السلام : يَهْلِكُ فِي رَجُلَانِ ، مُحِبٌّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

وروى حماد بن صالح ، عن أيوب ، عن كهَمَس ؛ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : يَهْلِكُ فِي ثَلَاثَةٍ : اللَّاعِنُ وَالْمُسْتَمِعُ الْمُقَرَّ ، وَحَامِلُ الْوِزْرِ ، وَهُوَ الْمَلِكُ الْمُتَرَفِّ ، الَّذِي يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِلَعْنَتِي ، وَيُبْرَأُ عَنْهُ مِنْ دِينِي ، وَيُنْتَقَصُ عَنْهُ حَسْبِي ؛ وَإِنَّمَا حَسْبِي حَسَبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَدِينِي دِينُهُ . وَيَنْجُو فِي ثَلَاثَةٍ : مَنْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحَبَّ مُحِبِّي ، وَمَنْ عَادَى عَدُوِّي ؛ فَمَنْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ بَغْضِي أَوْ أَلْبَ عَلَيَّ بَغْضِي ؛ أَوْ انْتَقَصَنِي ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَدُوُّهُ وَخَصْمُهُ ^(١) ؛ وَاللَّهُ عَدُوُّ الْكَافِرِينَ .

وروى محمد بن الصَّلْتِ ، عن محمد بن الحنفية ، قال : مَنْ أَحَبَّنَا نَفَعَهُ اللَّهُ بِحُبِّنَا ؛ وَلَوْ كَانَ أَسِيرًا بِالْدِّيْلَمِ .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن عليّ عليه السلام ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنْ فِيكَ لَشَبَهٌ مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، أَحَبَّتْهُ النَّصَارَى حَتَّى أُنْزِلَتْهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَتْ لَهُ ، وَأَبْغَضَتْهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتَتْ أُمَّهُ » .

ورَوَى صاحب كتاب " الفارات " حديث البراءة على غَيْرِ الوجه المذكور في كتاب " نهج البلاغة " ، قال : أخبرنا يوسف بن كليب السعدي ، عن يحيى بن سليمان العبدى ، عن أبي مريم الأنصارى ، عن محمد بن على الباقر عليه السلام ، قال : خطب على عليه السلام على منبر الكوفة ، فقال : سِعْرَضَ عَلَيْكُمْ سَبِّى ، وسَعْدَ بَحُونِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكُمْ سَبِّى فَسُبُّونِى ، وَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكُمْ البراءة منى ، فَإِنِى عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ؛ ولم يقل : « فلا تَبَرَّءُوا منى » .

وقال أيضا : حدثنى أحمد بن مفضل ، قال : حدثنى الحسن بن صالح ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : قال على عليه السلام : والله لتُذبحنَّ على سَبِّى ، وأشار بيده إلى حَلْقِهِ ، ثم قال : فَإِنْ أَمَرُوكُمْ بِسَبِّى فَسُبُّونِى ؛ وَإِنْ أَمَرُوكُمْ أَنْ تَبَرَّءُوا مِنِّى فَإِنِى عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله . ولم ينههم عن إظهار البراءة .

وروى شيخنا أبو القاسم البلخى رحمه الله تعالى ، عن سلمة بن كهيل ، عن المسيب بن نجبة ، قال : بينا على عليه السلام يخطب إذ قام أعرابى ، فصاح : وامْظَلِّتَاهُ ! فاستدناه على عليه السلام ، فلما دنا قال له : إِنَّمَا لَكَ مَظْلَمَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَأَنَا قَدْ ظَلَمْتُ عِدَدَ الْمَدَارِ وَالْوَبَرِ . قال : وفى رواية عباد بن يعقوب ، أَنَّهُ دَعَا فَقَالَ لَهُ : وَيَحْك ! وَأَنَا وَاللَّهِ مَظْلُومٌ أَيْضًا ؛ هَاتِ فَلَنَدْعُ عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا .

وروى سَدِيرُ الصيرفى ، عن أبي جعفر محمد بن على ، قال : اشتكى على عليه السلام شَكَاةً ، فعاده أبو بكر وعمر ، وخرجا من عنده ، فَأَتِىَا النَّبِىَّ صلى الله عليه وآله ، فسألها: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا ؟ قالَا : عُدْنَا عَلَيَا ، قال : كَيْفَ رَأَيْتُمَا ؟ قال : رَأَيْنَاهُ يُخَافُ عَلَيْهِ مِمَّا بِهِ ، فَقَالَ : « كَلَّا إِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يُوسَعَ غَدْرًا وَبَغْيًا ، وَلِيَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عِبْرَةً يُعْتَبَرُ بِهِ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ » .

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الغنوي ، أن عليا عليه السلام خطب بالرحبة ، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قد أيتيم إلا أن أقولها ! ورب السماء والأرض ، إن من عهد النبي الأُمِّيّ إلىّ : « إن الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله . وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقریب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام ، فوجد علياً نائماً ، فذهبت تنبهه ، فقال : « دعيه فربّ سهر له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتي من أجله شديدة » ؛ فبكت ، فقال : « لا تبكي فإنكما معي ، وفي موقف الكرامة عندي » .

وروى الناس كافة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا وليّ وأنا وليّه ، عادت من عاداه ؛ وسألت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضاً محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : « عدوك عدوى وعدوى عدو الله عزّ وجلّ » .

وروى يونس بن خباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعلى بن أبي طالب معنا ، فررنا بحديقة ، فقال عليّ : يا رسول الله ، ألا تَرَى ما أحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك في الجنة أحسن منها » ؛ حتى مررنا بسبع حدائق ، يقول عليّ ما قال ، ويحييه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف ، فوقفنا ، فوضع رأسه على رأس عليّ وبكى ، فقال عنى : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « ضغائن في صدور قوم لا يبذونها لك حتى يفقدوني » ،

فقال : يا رسول الله ، أفلا أضع سيفي على عاتقي فأبىدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال :
فإن صبرت ، قال : تلاقى جهدا ، قال : أفى سلامةٍ من ديني ؟ قال : نعم ، قال :
فإذا لا أبالي .

وروى جابر الجعفي ، عن محمد بن علي عليه السلام ، قال : قال علي عليه السلام :
ما رأيت منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله رضاء ، لقد أخافتني قرش صغيرا ،
وأنصبتني كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامة الكبرى ، والله المستعان
على ما تصفون !

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر على الناس رجل من أمتي ، عظيم
السرم ، واسع البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وزر الثقلين ، يطلب الإمارة يوما ، فإذا
أدركتموه فابقروا بطنه ، قال : وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب ، قد وضع
طرفه في بطن معاوية .

قلت : هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله علي عليه السلام في " نهج البلاغة " ، ومؤكد
لاختيارنا أن المراد به معاوية ، دون ما قاله كثير من الناس أنه زياد والمغيرة .

وروى جعفر بن سليمان الضبعي ، عن أبي هارون العبدى ، عن أبي سعيد الخدرى ،
قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله يوما لعلى ما يلقي بعده من العنت فأطال ،
فقال له عليه السلام : أنشدك الله والرحم يا رسول الله لما دعوت الله أن يقبضني إليه قبلك !
قال : كيف أسأله في أجلٍ مؤجل ؟ قال : يا رسول الله ، فعلام أقاتل من أمرتني بقتاله ؟
قال : على الحديث في الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدّهني ، عن أبي صالح الحنفي ، عن علي عليه السلام ، قال :

قال لنا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام ، فشكوت إليه ما لقيتُ حتى بكيت ، فقال لى : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، وإذا رجلان مصفدان - قال الأعمش : هما معاوية وعمر بن العاص - قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبت .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مرة ، عن أبي عبد الله بن سلمة ، عن علي عليه السلام ، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشكوتُ إليه ، فقال : هذه جهنم ، فانظر مَنْ فيها ، فإذا معاوية وعمر بن العاص معلقين بأرجلها منكسين ، تُرَضَّخُ رءوسهما بالحجارة - أو قال : تُشَدَّخُ .

وروى قيس بن الربيع ، عن يحيى بن هانىء الرادى ، عن رجل من قومه ، يقال له زياد ابن فلان ، قال : كنا في بيتٍ مع علي عليه السلام نحن وشيعته وخواصه ، فالتفت فلم ينكرْ منا أحداً ، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديكم ويسلمون أعينكم ، فقال رجلٌ منا : وأنت حى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذنى الله من ذلك ؛ فالتفت فإذا واحدٌ يبكي ، فقال له : يا بنَ الحقاء ، أتريد اللذات في الدنيا والدرجات في الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام ، قال : كان علي عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزل معقباً إلى أن تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ؛ فقام يوماً فمرَّ برجل ، فرماه بكلمة هُجِرَ - قال : لم يسمه محمد بن علي عليه السلام - فرجع عَوْدَهُ إلى بدئه حتى صعد المنبر ، وأمر فنودي : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إنه ليس شيء أحبَّ إلى الله ولا أعمَّ نفعا من

حَلِمَ إمام وفقهه ؛ ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضرراً من جهل إمام وخرقه ، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ؛ ألا وإنه من أنصف من نفسه لم يزدّه الله إلا عزاً ؛ ألا وإن الدّلّ في طاعة الله أقرب إلى الله من التعرّز في معصيته . ثم قال : أين المتكلّم آنفاً ؟ فلم يستطع الإنكار ، فقال : هانذا يا أمير المؤمنين ، ، فقال : أما إنى لو أشاء لقلت ، فقال : إن تعف وتصفح ، فأنت أهل ذلك ؛ قال : قد عفوت وصفحتم ؛ فقيل لحد بن علي عليه السلام : ما أراد أن يقول ؟ قال : أراد أن ينسبه .

وروى زرارة أيضاً ، قال : قيل لجعفر بن محمد عليه السلام : إن قوماً هاهنا ينتقصون علياً عليه السلام ، قال : بئس ينتقصونه لا أبأ لهم ! وهل فيه موضع نقيصة ! والله ما عرض لعلّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلا عمل بأشدّهما وأشقهما عليه ، ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار ، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له ، وإن كان ليُقوم إلى الصلاة ، فإذا قال : وجّهت وجهيَ تغير لونه ؛ حتى يعرف ذلك في وجهه ^(١) ؛ ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده ؛ كلهم يعرق فيه جبينه ، وتحفى فيه كفّه ، ولقد بُشّرَ بعين نبعت في ماله مثل عنق الجزور ، فقال : بشّر الوارث بشراً ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل ، إنى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ليصرف الله النار عن وجهه ، ويصرف وجهه عن النار .

وروى العباد ، عن أبي مريم الأنصاري ، عن علي عليه السلام : لا يحبني كافر ولا ولد زنا .
وروى جعفر بن زياد ، عن أبي هارون العبدى ، عن أبي سعيد الخدرى ، قال : كنا بنور إيماننا نحبّ على بن أبي طالب عليه السلام ، فمن أحبه عرفنا أنه منا .

[فصل في معنى قول عليّ : « فسبوني فإنه لي زكاة »]

المسألة الثالثة :

في معنى قوله عليه السلام : « فسبوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاة » ، فنقول : إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه ، لأن الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفظ بكلمة الكفر ؛ فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسب الإمام .

فأما قوله : « فإنه لي زكاة ولكم نجاة » ؛ فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين : أحدهما ماورد في الأخبار النبوية أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة في حسناته .

والثاني : أن يريد به أن سبهم لي لا ينقص في الدنيا من قدرى ، بل أزيد به شرفاً وعلوً قدر ، وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التي حاولت أعداؤه بها الفضيحة منه عللاً لا تتشاصيته في مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلوي :

وأبوك الوصىّ أوّل من شا دَمَنَارَ الْهُدَى وَصَامَ وَصَلَّى
نشرت حبله قریش فأعطتهُ إلى صُبْحَةِ الْقِيَامَةِ فَتَلَا

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبي المظفر هبة الله بن موسى الموسويّ رحمه الله تعالى :

في قصيدة ، أذكر فيها أباه :

أَمَكِ الدَّرَةِ الَّتِي أَنْجَبْتَ مِنْ جَوْهَرِ الْجَدِّ رَاضِيًا مَرْضِيًا
وأبوك الإمامُ موسى كَظِيمُ الْغَيْظِ حَتَّى يُعِيدَهُ مَنْسِيًا

وأبوه تاج الهدى جعفر الصا دق وخيا عن الفيوب وحيًا
وأبوه محمد باقر العلم مضي لنا هاديًا مهديًا
وأبوه السجاد أتقى عباد الله مخلصًا ووفيا
والحسين الذي نخير أن يقضي عزيزًا ولا يعيش درنيا
وأبوه الوصي أول من طأ ف ولبي سبعا وساق الهديا
طامنت مجده قريش فأعطته إلى سدرة السماء رقيًا
أخملت صيته فطار إلى أن ملأ الأفق ضجة ودويًا
وأبو طالب كفيل أبي القاسم كهلًا وبافيا وفتيا
ولشيخ البطحاء تاج معد شية الحمد هل علمت سميًا
وأبو عمرو الملا هاشم الجو د ومن مثل هاشم بشريًا
وأبوه الهمام عبد مناف قل تقل صادقًا وتبدي بديا
ثم زيد - أعنى قصي الذي لم يك عن ذروة العلاء قصيا
نسب إن ترفع النسب المحض لفاعا كاب السليب العربيا
وإذا أظلمت مناسخة الأذ ساب يوما كان المنير الجليًا
ياله مجد على قدم الدهر وقد يفضل العتيق الطريا
وذكرنا هاهنا ما قبل المعنى وما بعده ؛ لأن الشعر حديث ، والحديث - كما قيل -
يأخذ بعضه برقاب بعض ؛ ولأن ما قبل المعنى وما بعده مكمل له ، وموضح مقصده .

فإن قلت : أى مناسبة بين لفظ « الزكاة » وانتشار الصيت والسمع ؟
قلت : لأن الزكاة هى النماء والزيادة ؛ ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمى
للمال المزكى ، وانتشار الصيت نماء وزيادة .

[فصل في اختلاف الرأي في معنى السبِّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأما السبُّ فُسُبُّوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرءوا مني » ؟ وأي فرق بين السبِّ والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبِّ ومنعهم عن التبري ، والسبِّ أحش من التبري !

والجواب ؛ أما الذي يقوله أصحابنا في ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبِّه ^(١) والتبري منه ، في أنهما حرام وفسق وكبيرة ، وأن المكره عليهما يجوز له فعلهما عند خوفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألا يفعلهما ؛ وإن قتل ، إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين ؛ وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأن هذه اللفظة ماوردت في القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٣) ، فقد صارت بحسب العرف الشرعي مطلقة على المشركين خاصة ؛ فإذا نُحْمِلَ هذا النهي على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبِّ ، وإن كان حكمهما واحداً ؛ ألا ترى أن إلقاء المصحف في القدر أحش من إلقاء المصحف في دَنِّ الشراب ؛ وإن كانا جميعاً محرمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإمامية فتروى عنه عليه السلام أنه قال : إذا عُرِضْتُمْ على البراءة منّا فمدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه ^(٤) لا يجوز التبري منه ؛ وإن كان الحالف صادقاً ، وإنّ عليه الكفارة .

(١) ج : « السب » .

(٢) سورة التوبة ١ .

(٣) سورة التوبة ٣ .

(٥) ساقطة من أ .

ويقولون: إنَّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ، ومن أحد الأئمة عليهم السلام ، حكم واحد .

ويقولون إنَّ الإكراه على السبِّ يُبيح إظهاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبري ، والأولى أن يستسلم للقتل .

[فصل في معنى قول عليّ : « إني ولدت على الفطرة »]

المسئلة الخامسة :

أن يقال : كيف علَّل نهيَّه لهم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله : « فإني ولدت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعايل لا يختص به عليه السلام ، لأن كلَّ أحدٍ ^(١) يولد على الفطرة ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله : « كلَّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهودانه وينصرانه » .

وللجواب ، أنه عليه السلام علَّل نهيَّه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهي كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعمل بأحد هذا المجموع ، ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل ؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل ؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة ، أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشرين عاماً يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام ، مُفكِّم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولَّى لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة ، وليس بمولود في جاهلية محضة ، ففارقت حاله حال مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل . وقد روى أنَّ السَّنة التي ولد فيها عليّ

(١) ج : « واحد » .

عليه السلام هي السنة التي بدى فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاستمع الهُتاف من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ؛ ولم يخاطب فيها ^(١) بشيء . وهذه السَّنة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبثُل والانقطاع والعزلة في جبل حراء ، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بتلك السنة ، وبولادة علي عليه السلام فيها ، ويسمِّيها سنة الخير وسنة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً : « لقد وُلِد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ اللهُ علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصره ، والحامي عنه ، وكاشف الغمَّاء ^(٢) عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام ، وأرست دعائمه ، وتمهدت قواعده عليه السلام .

وفي المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعنى بقوله عليه السلام : « فإني ولدتُ على الفطرة » ، أى على الفِطْرة التي لم تتغير ولم تحل ، وذلك أن معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كل مولود يولد على الفِطْرة » أن كلَّ مولود فإنَّ الله تعالى قد هيَّأه بالعقل الذي خلقه فيه وبصحة الحواس والمشاعر ، لأنَّ يعلم التوحيد والعدل ، ولم يجعل فيه مانعاً يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلف لاعتقادهما وحسن الظنَّ فيهما يصدّه عما فُطِر عليه ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام دون غيره، وُلِد على الفطرة التي لم تحل ولم يصدّه عن مقتضاها مانع ؛ لامن جانب الأبوين ولا من جهة غيرها ، وغيره ولد على الفِطْرة ، ولكنه حال عن مقتضاها ، وزالَّ عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة ؛ وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحاً ؛

(١) ج : « منها » .

(٢) ج : « الغم » .

ولا كان كافرا مَرَفَةً عين قطّ ، ولا مخطئا ولا غالطا في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين .
وهذا تفسير الإمامية .

[فصل فيما قيل من سبق على إلى الإسلام]

المسألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان » ، وقد قال قوم^(١) من الناس : إن أبا بكر سَبَقَهُ ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سَبَقَهُ ؟

والجواب ، أن أكثر أهل الحديث وأكثر المحققين من أهل السيرة رَوَوْا أنه عليه السلام أول من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدث في كتابه المعروف " بالاستيعاب " .

قال أبو عمر في ترجمة^(٢) على عليه السلام : المروى عن سلمان وأبي ذرّ والمقداد وخَبَّاب وأبي سعيد الخدريّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفضله هؤلاء على غيره .

قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة » .

قال أبو عمر : وحدَّثنا أحمد بن محمد ، قال : حدَّثنا أحمد بن الفضل ، قال : حدَّثنا محمد ابن جرير ، قال : حدَّثنا علي بن عبد الله الدهقان ، قال : حدَّثنا محمد بن صالح ، عن سيّاك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لعليّ عليه السلام أربع حصال ، ليست

(١) ب : « كثير » ، وما أثبتته من ج .

(٢) الاستيعاب ٤٥٦ وما بعدها .

لأحد غيره : هو أول عربيّ وعجميّ صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو الذي كان معه لواؤه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه يوم قرّ عنه غيره ؛ وهو الذي غسّله وأدخله قبره .

قال أبو عمر : ورؤي عن سلمان الفارسيّ أنه قال : أول هذه الأمة وروداً على نبيها صلى الله عليه وآله الحوض ، أولها إسلاماً : عليّ بن أبي طالب . وقد رؤي هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً : عليّ بن أبي طالب » .

قال أبو عمر : ورفعهُ أولى ، لأن مثله لا يُدرك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال : حدثني يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثوريّ ، عن سلمة بن كهيل ، عن أبي صادق ، عن حنّس بن المعتمر ، عن عليم^(١) الكنديّ ، عن سلمان الفارسيّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أولكم وارداً على الحوض أولكم إسلاماً ؛ عليّ بن أبي طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسيّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بلّج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وآله بعد خديجة عليّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بن سفيان ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ ، قال : حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، قال : حدثنا الحسن بن حماد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بلّج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس ، قال : كان عليّ أول من آمن من الناس بعد خديجة .
قال أبو عمر : هذا الإسناد لامطعن فيه لأحد ؛ لصحته وثقة نقله ؛ وقد عارض^(٢)

(١) في الأصول : « عكيم » ، وما أثبتته عن الاستيعاب .

(٢) ج : « عورض » ، والاستيعاب : « وهو يعارض » .

مأذكرنا في باب أبي بكر الصديق ، عن ابن عباس : والصحيح في أمر أبي بكر أنه أول من أظهر إسلامه كذلك . قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابن شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عتيق ، وقتادة ، وابن إسحاق على أن أول من أسلم^(١) من الرجال علي . واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به ، ثم علي بعدها .

وروى عن أبي رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدثننا عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي ، قال : حدثنا عمر مولى غفرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظي عن أول من أسلم : علي أم أبي بكر ؟ فقال : سبحان الله ! علي أولهما إسلاما ؛ وإنما شُبّه علي الناس ؛ لأن عليا أخني إسلامه من أبي طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر : ولا شك عندنا أن عليا أولهما إسلاما ، ذكر عبد الرزاق في جامعه ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره ، قالوا : أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزري ، عن ميسم ، عن ابن عباس ، قال : أول من أسلم علي بن أبي طالب .

قال أبو عمر : وروى ابن فضيل عن الأجلح ، عن حبة بن جوين العُرنِي ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبدَه أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شعبة ، عن سلمة بن كهيل ، عن حبة العُرنِي ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبي الجعد ، قال : قلت لابن الحنفية : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا .

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائى ، عن أنس بن مالك ، قال : استنحي النبي صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر : وقال زيد بن أرقم : أول من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب .

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ما حدثنا به عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا على بن الجعد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرني عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصاري قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، ^(١)] ، حدثنا أبي ، قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبي الأشعث ، عن إسماعيل بن إلياس بن عفيف الكندي ، عن أبيه ، عن جده ، قال : كنت امرأة تاجرا ، فقدمت الحج ، فأتيك العباس ابن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان امرأة تاجرا ، فوالله إني لعنده يميني ، إذ إذ خرج رجل من خباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلي ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل ، فقامت خلفه تصلي ، ثم خرج غلام حين رآهق الحلم من ذلك الخباء ، فقام معه يصلي ، فقلت للعباس : ما هذا يا عباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخي ، قلت : من هذه المرأة ؟

قال : امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : ما هذا الفتي ؟ قال : علي بن أبي طالب ابن عمه ، قلت : ما هذا الذي يصنع ؟ قال : يصلي ، وهو يزعم أنه نبي ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتح على أمته كنوز كسرى وقيصر ، قال : فكان عفيف الكندي يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه : لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنت أكون ثانيا مع علي .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هذا الحديث من طرق في باب عفيف الكندي من هذا الكتاب .

قال أبو عمر : ولقد قال علي عليه السلام : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ، لا يصلي معه غيري إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البر في الكتاب المذكور ، وهي كما تراها تكاد تكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنما الاختلاف في كمية سنه عليه السلام يوم أسلم ، ذكر الحسن ابن علي الحلواني في كتاب " المعرفة " له ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث ابن سعد ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه أن عليا والزبير أسلما وهما ابنا ثمانين سنين . كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة ؛ وذكره أيضا ابن أبي خيثمة عن قتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبي الأسود ؛ وذكره معمر بن شببة ، عن الحرامى ، عن أبي وهب ، عن الليث ، عن أبي الأسود ، قال الليث : وهاجرا وهما ابنا ثمانين عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبي الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن علي الحلواني ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة .

قال أبو عمر : وأخبرنا أبو القاسم خلف بن قاسم بن سهل ، قال : حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الطوسي ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علي ، وهو أول من أسلم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة سنة .

قال أبو عمر : قال ابنُ وضاح : وما رأيت أحدا قط أعلم بالحديث من محمد بن مسعود ، ولا بالرأي من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذكرٍ آمن^(١) بالله ورسوله علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر : والروايات في مبلغ سنّ عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتي عشرة سنة . وقيل : ابن خمس عشرة سنة . وقيل : ابن ست عشرة سنة . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر : وذكر عمر بن شبة ، عن المدائني ، عن ابن جعدة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : أسلم علي وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المفضل الحرامی ، قال : حدثنا محمد بن طلحة ، قال : حدثني جدی إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص أعمارا واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن علي الخطبي ، قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا حُجَيْن أبو عمر ، قال : حدثنا حَبَّان عن معروف ، عن أبي معشر ، قال : كان علي عليه السلام وطلحة والزبير في سنٍ واحدة .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أن أولَ مَنْ أسلم بعد خديجة على ابن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم على وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصح ما قيل في ذلك ؛ والله أعلم .
اتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب ” الاستيعاب ” .

واعلم أن شيوخنا المتكلمين لا يكادون يختلفون في أن أول الناس إسلاما على ابن أبي طالب عليه السلام ؛ إلا مَنْ عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالة عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ، لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم ؛ وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا في ذلك .

واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله في أفضليته على غيره ، ويصرّح بذلك : وقد قال غير مره : أنا البصديق الأكبر ، والفاروق الأول ، أسلمت قبلا لإسلام أبي بكر ، وصليت قبل صلاته .

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة في كتاب ” المعارف ” وهو غير متهم في أمره .

ومن الشعر المروى عنه عليه السلام في هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبىّ أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى

ومن جملتها :

سبقتكم إلى الإسلام طرّا غلاما ما بلغت أوان حلى

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فلتطلب من مظانها .

ومن تأمل كتب السِّير والتواريخ عَرَفَ مِنْ ذَلِكَ ما قلناه .

فأما الذاهبون إلى أن أبا بكر أقدمهما إسلاما فنفر قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البر أيضا في كتاب ” الاستيعاب ” في ترجمة أبي بكر (١) .

قال أبو عمر : حدثني خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال : حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبي ، قال : سألت ابن عباس - أو سئل - : أي الناس كان أول إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت :

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًّا مِنْ أَخِي ثَقَةٍ فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا (٢)
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتَقَاهَا وَأَعْدَلُهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
وَالثَّانِيَ التَّالِيَ الْحَمُودَ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرِّسْلَا

ويُروى أن النبي صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت في أبي بكر شيئا ؟ » ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثنائي اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعدوا الجبلَا

فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنت يا حسان » ؛ وقد روى فيها بيت خامس :

وَكَانَ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

(١) كتاب الاستيعاب ص ٣٣٠

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

وقال أبو عمر : وروى شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النخعي ، قال : أول من أسلم أبو بكر .

قال : وروى الجريري ، عن أبي نصر ، قال : قال أبو بكر لعلي عليه السلام : أنا أسلمت قبلك ؛ في حديث ذكره فلم يشكره عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مخجن الثقفى :

وُسِّمْتَ صِدِّيقًا وَكُلُّ مَنْ هَاجَرَ سَوَاكَ بِسْمِي بِاسْمِهِ غَيْرَ مَنْكَرٍ
سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيسًا بِالْعَرِيشِ الْمَشْهُرِ
وَبِالْغَارِ إِذْ تُسَمِّي خَلًّا وَصَاحِبًا وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ الْمَطْهَرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبي أمامة الباهلي ، قال : حدثني عمرو ابن عبسة ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهو نازل بمُكَاظ ، فقلت : يا رسول الله ، من اتبعك على هذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك ، وذكر الحديث .

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في هذا الباب في ترجمة أبي بكر ؛ ومعلوم أنه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة علي عليه السلام الدالة على سبقه ؛ ولا ريب أن الصحيح ما ذكره أبو عمر ، أن عليا عليه السلام كان هو السابق ، وأن أبا بكر هو أول من أظهر إسلامه ، فظن أن السابق له .

وأما زيد بن حارثة ؛ فإن أبا عمر بن عبد البر رضى الله تعالى عنه ذكر في كتاب " الاستيعاب " ؛ أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة ، قال : ذكر معمر بن شبة في جامعه عن الزهري أنه قال : ما علمنا أحداً أسلم قبلي زيد بن حارثة ^(١)

قال عبد الرزاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري .

ولم يذكر صاحب " الاستيعاب " ما يدل على سبق زيد إلا هذه الرواية ؛ واستغربها ؛
فدل مجموع ما ذكرناه أن عليا عليه السلام أول الناس إسلاما ، وأن المخالف في ذلك شاذ ،
والشاذ لا يعتد به .

[فصل فيما ذكر من سبق على إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال : كيف قال : « إنه سبق إلى الهجرة » ومعلوم أن جماعة من المسلمين هاجروا قبله ،
منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله ، لأنه هاجر في صحبة النبي صلى الله
عليه وآله ؛ وتخلف على عليه السلام عنهما ^(١) ، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ؛
ومكث أياما يردّ الودائع التي كانت عنده ، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب ، أنه هلمه السلام لم يقل : « وسبق كل الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال :
« وسبق » فقط ؛ ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة ؛ ولا شبهة أنه سبق معظم
المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جدا .

وأیضا فقد قلنا إنه علل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها
ولادته على الفطرة ، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سبقه إلى الهجرة ؛ وهذه الأمور الثلاثة
لم تجتمع لأحد غيره ؛ فكان مجموعها مميّزا عن كل أحد من الناس .

وأیضا فإن اللام في « الهجرة » يجوز ألا تكون للمعهود السابق ، بل تكون
للجنس ، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي قبل هجرة المدينة ؛
فإن النبي صلى الله عليه وآله هاجر عن مكة مرارا ، يطوف على إحياء العرب ، وينتقل من

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان على عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بني شيبان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أن عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النصرة .

وروى المدائني في كتاب " الأمثال " عن المفضل الضبي ؛ أن ^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة بعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه على عليه السلام وأبو بكر ، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر - وكان نَسابة - فسلم فردّوا عليه السلام ؛ فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمِنَ هَامِتْها أم من لهازِمْها ؟ ^(٢) قالوا : من هَامِتْها العظمى ، فقال : مِنِ أَى هَامِتْها العظمى أتم ؟ قالوا : من ذُهل الأكبر ، قال : أفنكم عوف الذي يقال له : لأحرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم جَسّاس حامي الدّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم الخوفزان ، قاتل الملوك وسالها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم المزدلف صاحب العمامة الدرّدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفأتم أخوالُ الملوك من كِنْدَة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهلًا الأكبر ؛ أتم ذُهل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَلَ ^(٣) وجهه ، اسمه دَغِفَل ، فقال :

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ وَالْعَبَاءُ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهُ

(١) الخبر في مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسرّه صاحب اللسان فقال : « وفي حديث أبي بكر والنسابة : « أمِنَ هَامِتْها أو لهازِمْها » ؛ أى من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ والهازم أضول الحنكين ؛ واحتدتها لهزيمة بالبكر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة »

(٣) بقل وجهه ؛ أى خرج شعره .

يا هذا، إنك قد سألتنا فأجبتناك ، ولم نكتمك هيثا ، فَمِمَّن الرجل ؟ قال : من قر يش ،
قال : بخ بخ ، أهل الشرف والرِّياسة ؛ فَمِمَّنْ أَى قر يش أنت ؟ قال : من تَيْم بن مرة ،
قال : أمكنتَ والله الرامى من الثُّغرة ^(١) ؛ أَمِنَكُم قصى بن كلاب الذى جَمَعَ القبائل من
فِهْر فكان يدعى مجمعا ؟ قال : لا ، قال : أَمِنَكُم هاشم الذى هَشَمَ لقومه الثريدُ ؟ ^(٢)
قال : لا ، قال : أَمِنَكُم شبيبةُ الحمد ، مُطِمْ طير السَّماء ؟ ^(٣) قال : لا ، قال : أَمِنَ المفيضين
بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أَمِنَ أهل النَّدوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أَمِنَ أهل
الرَّفَادَة ^(٤) أنت ؟ قال : لا ، قال : أَمِنَ أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أَمِنَ
أهل السَّقاية ؟ قال : لا ، قال : فاجتذب أبو بكر زِمَامَ ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله
عليه وآله هاربا من الغلام ؛ فقال دَغفل :

✽ صَادَفَ دَرَّةَ السَّيْلِ دَرَّةً يَصْدَعُهُ ^(٥) ✽ .

أما والله لو ثبتَ لأخبرتكَ أبناك من زَمَعَاتِ قر يش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه
وآله . وقال على عليه السلام لأبى بكر : لقد وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابى على باقة ؛ قال :
أجل ؛ إن لكل طامة طامة ، والبلاء موكل بالمنطق ؛ فذهبت مثلا .

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ؛ فكان معه على عليه السلام وزيد بن

(١) فى بجم الأمثال : « من صفاء الثغرة »

(٢) بعده فى بجم الأمثال : « ورجال مكة مسنون عجاف » .

(٣) بعده فى بجم الأمثال : « الذى كان فى وجهه قر يضىء ليل الظلام الداجى » .

(٤) فى اللسان : « الرفادة شىء كانت قر يش تترافد به فى الجاهلية ؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته ،
فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون
الناس حتى تنقضى أيام الموسم ، وكانت الرفادة والسقاية لبى هاشم والسدانة واللواء لبى عبد الدار ؛ وكانت
أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الراوى بالسيل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسيل إذا أتاك
من حيث لا تحسبه : سيل درء ؛ أى يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

حارثة في رواية أبي الحسن المدائني ؛ ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحْدَهُ ، وغاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكة في هذه الهجرة أربعين يوماً ؛ ودخل إليها في جوار مُطْعِم بن عديّ .

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان ؛ فإنه لم يكن معه إلا عليّ عليه السلام وَحْدَهُ ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبي طالب ؛ أوحى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرك ، فخرج إلى بني عامر بن صعصعة ؛ ومعه عليّ عليه السلام وحده ، ففرض نفسه عليهم وسألم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهي أول هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أول هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه ؛ فهجرة الحبشة ؛ هاجر فيها كثير من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة في البحر ؛ منهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سَلِمَ وطالت أيامه ^(١) ؛ وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خيبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدري بأيّهما أنا أسرّ ؛ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر » !

ومس كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأضل :

أصابكم حاصبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيَرٌ . أَبَعَدَ إِيْمَانِي بِاللّهِ ، وَجِهَادِي مَعَ
رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ . فَأَوْبُوا شَرَّ مَا بَ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ .
أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ
فِيكُمْ سُنَّةً .

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيَرٌ » ، يُرْوَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ :
أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ : « آيَرٌ » بِالرَّاءِ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ : رَجُلٌ آيَرٌ ؛ لِذِي
يَأْبُرُ النَّخْلَ ، أَيْ يُضْلِعُهُ .

وَيُرْوَى : « آيَرٌ » بِالتَّاءِ ، بِثَلَاثِ نَقَطٍ ، يُرَادُ بِهِ الَّذِي يَأْتِرُ الْحَدِيثَ ، أَيْ يَرْوِيهِ
وَيَحْكِيهِ ؛ وَهُوَ أَصَحُّ الْوُجُوهِ عِنْدِي ، كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : لَا بَقِيَ مِنْكُمْ مُخْبِرٌ .

وَيُرْوَى : « آيَزٌ » بِالزَّيِّ الْمَعْجَمَةِ ، وَهُوَ الْوَارِثُ ، وَالْهَالِكُ أَيْضًا يُقَالُ لَهُ آيَزٌ .

الشَّخْخ :

الحاصب : الريح الشديدة التي تثير الحصباء ؛ وهو صفار الحصى ؛ ويقال لها أيضا حَصْبَة ، قال لبيد :

جَرَّتْ عَلَيْهَا إِذْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا أَذْيَالَهَا كُلُّ عَصُوفٍ حَصْبَةٍ ^(١)

فأما التفسيرات التي فسر بها الرضى رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن أن يزداد فيها ، فيقال : يجوز أن يريدَ بقوله : « ولا بقى منكم آبر » أى نَمَام يفسد ذات البين ؛ والمثبَرَة : النيمة ، وأبر فلان ، أى نَمَ ، والآبر أيضا : مَنْ يَبْغِي القوم الغوائل خفيةً ، مأخوذ من أَبَرْتُ الكلب إذا أطعمته الإبرة في الخبز ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أن يكون أصله « هابر » ؛ أى مَنْ يَضْرِب بالسيف فيقطع ؛ وأبدلت الهاء همزة ، كما قالوا فى : « آل » أهل ؛ وإن صححت الرواية الأخرى « آثر » بالناء بثلاث نقط ، فيمكن أن يريدَ به ساجى باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يُسَجُّون باطن الخلف بحديدة ليقتص أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام : « فأوبوا شرَّ مآب » ، أى ارجعوا شرَّ مرجع . والأعقاب : جمع عَقِب بكسر القاف ؛ وهو مؤخر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أولا : أصابكم حاصِب ؛ وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن مُقبل :

فَإِذَا خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَقُطِينِهَا فَاصْبَاهَا الْحَصْبَاءُ وَالسَّقَانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقى منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرَّ مرجع » ، ثم قال لهم رابعا : « عودوا على أثر الأعقاب » ؛ وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَنَزِدْ ^(٢)

(١) البيت فى اللسان ١ : ٣١٠

(٢) سورة الأنعام ٧١

كَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ۖ؛ والمراد انمكاس حالهم ؛ وعودهم من العِزِّ إلى الذل ؛ ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة » ، فالأثرة هاهنا الاستبداد عليهم بالنفي والغنائم وأطراح جانبهم ، وقال النبي صلى الله عليه وآله للأُنصار : « ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقوني » .

[أُنْبَاءُ الْخَوَارِجِ وَذَكَرَ رِجَالَهُمْ وَحُرُوبَهُمْ]

واعلم أن الخوارجَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أَسْحَابَهُ وَأَنْصَارَهُ فِي الْجَمَلِ وَصِفَيْنِ
قَبْلَ التَّحْكِيمِ ؛ وَهَذِهِ الْمَخَاطَبَةُ لَهُمْ ، وَهَذَا الدَّعَاءُ عَلَيْهِمْ ؛ وَهَذَا الْإِخْبَارُ عَنْ مُسْتَقْبَلِ حَالِهِمْ ،
وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَلَّطَ عَلَى الْخَوَارِجِ بَعْدَهُ الذِّلَّ الشَّامِلَ ، وَالسَّيْفَ الْقَاطِعَ ،
وَالْأَثَرَةَ مِنَ السُّلْطَانِ ، وَمَا زَالَتْ حَالُهُمْ تَضْمَحَلُّ ؛ حَتَّى أَفْنَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَفْنَى جُمْهُورَهُمْ ؛
وَلَقَدْ كَانَ لَهُمْ مِنْ سَيْفِ الْمُهَلَّبِّ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ وَبَنِيهِ الْحَنْفِ الْقَاضِي ، وَالْمَوْتَ الرِّزَامُ ؛ وَنَحْنُ
نَذَكُرُ مِنْ أَخْبَارِ الْخَوَارِجِ وَحُرُوبِهِمْ هَاهُنَا طَرَفًا .

[عُرُوةُ بْنُ حَدِيرٍ]

فَنَهُمُ عُرُوةُ بْنُ حُدَيْرٍ أَحَدُ بَنِي رَيْبَعَةَ بْنِ حَنْظَلَةَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ؛ وَيَعْرِفُ بِعُرُوةٍ
ابْنِ أَدِيَّةٍ ، وَأَدِيَّةٌ جَدَّةٌ لَهُ جَاهِلِيَّةٌ ؛ وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ وَأَتْبَاعٌ وَشِيعَةٌ ، فَقَتَلَهُ زِيَادٌ فِي خِلَافَةٍ
مُعَاوِيَةَ صَبْرًا .

[نَجْدَةُ بْنُ عُوَيْرٍ الْحَنْفِيُّ]

وَمِنْهُمْ نَجْدَةُ بْنُ عُوَيْرٍ الْحَنْفِيُّ ، كَانَ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ ؛ وَلَهُ مَقَالَةٌ ^(١) مَفْرُودَةٌ مِنْ مَقَالَاتِ الْخَوَارِجِ

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصَّلَتَانِ العبدى بقوله ^(١) :

أرى أُمَّةً شَهَرَتْ سِيفَهَا وقد زِيدَ في سَوِطِهَا الأَصْبَحِي ^(٢)
 بنَجْدِيَّةٍ أو حَرُورِيَّةٍ وأزرق يدعو إلى أزرقي
 فلتنا أَنَّنَا مسلمونَ على دينِ صَدِيقِنَا والنَّبِي
 أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِ سِرَ مَرَّةٍ الغَدَاةِ وَكَرَّ العَشِي
 إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا أَنِي بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمَ فِتِي
 نَرُوحُ وَنَقْدُو لِحَاجَتِنَا وَحَاجَةً مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
 تَمُوتُ مَعَ المَرءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

وكان نجدة يصلي بمكة بمجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه [في كل جُمُعَةٍ] ^(٣) ، وعبد الله يطلب الخلافة ، فيسكان عن القتال من أجل الحرم .

وقال الراعي يخاطب عبد الملك ^(٤) :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى يَمِينِ بَرَّةٍ لَا أَكْذِبُ اليَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلاً
 مَا إِنِ أَتَيْتُ أَبَا خُبَيْبٍ وَافِداً يَوْمًا أُرِيدُ لِبَيْعَتِي تَبْدِيلًا ^(٥)
 لَمَّا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُؤَيْمِرٍ أَبْنَى الْهُدَى فَيَزِيدُنِي تَضْلِيلًا
 مِنْ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ لَا مِنْ حِيلَتِي أَنِّي أَعُدُّ لَهُ عَلَى فُضُولَا !

واستولى نجدة على اليمامة ، وعظم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نَقَمُوا عليه أحكاماً أحدثها في مذهبهم ؛ منها قوله : إنَّ

(١) الأبيات في ديوان الحماصة ٣ : ١٩١ - بشرح التبريزي ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ، والكامل ٦ : ١٠١ - بشرح المرصني مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٢) السوط الأصبحي : منسوب إلى ذى أصبح الحميري ؛ وكان أول من اتخذ هذه السياط التي يعاقب عليها السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ - بشرح المرصني

(٣) من كتاب الكامل ٦ : ١٠٢

(٤) من ملحنته في جبهة أشعار العرب ١٧٤

(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير

الخطي: بعد الاجتهاد معذور، وإن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله؛ وما سوى ذلك فالناس معذرون بجهله؛ إلى أن تقوم عليهم الحجة؛ فمن استحل محرما من طريق الاجتهاد فهو معذور؛ حتى إن من تزوج أخته أو أمه مستحلا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه؛ فاختر لهم أبا قديك أحد بني قيس بن ثعلبة؛ فجعله رئيسهم، ثم إن أبا قديك أنفذ إلى نجدة بعد من قتله، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرقوا عليه؛ وقالوا قتل مظلوما.

[المستورد بن سعد التميمي]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بني تميم؛ كان ممن شهد يوم النخيلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيف علي عليه السلام؛ ثم خرج بعد ذلك بمدة على المغيرة بن شعبة وهو والى الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج؛ فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي، فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة، وقال له: علام تقتل الناس بيني وبينك؟ فقال معقل: النصف سألت، فأقسم عليه أصحابه، فقال: ما كنت لأبى عليه؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتين، خر كل واحد منهما من ضربة صاحبه قتيلا.

وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة؛ وله آداب وحكم ماثورة^(١).

[حوثة الأسدى]

ومنهم حوثة الأسدى، خرج على معاوية في عام الجماعة في عصابة من الخوارج؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة، فلما نظر حوثة إليهم، قال لهم: يا أعداء الله؛ أتم بالأمس تقاتلون معاوية تهذوا وسلطانها؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدوا سلطانه؛ فلما

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوروبا)؛ وأورد من كلامه: إذا أفضيت بسرى إلى صديق فأفشاء لم أله؛ لأننى كنت أولى بحفظه، لانفش إلى أحد سرا وإن كان مخلصا إلا على وجه المشاورة، كن أحرم الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك.

التحمت الحربُ قِتْلُ حوْثرة ، قَتَلَه رجل من طيٍّ ، وفَضَّت جموعه ^(١)

[قُرَيْب بن مرة وزحَّاف الطائِيّ]

ومنهم قُرَيْب بن مرة الأزديّ ؛ وزحَّاف الطائِيّ ، كانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة ، فخرجا في أيام معاوية في إمارة زياد ؛ واختلف الناس : أيهما كان الرئيس ؟ فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بني ضبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه ، وكان يقال له رُوْبة الضُّبَيْي ؛ وتنادى الناس ، فخرج رجل من بني قطيعة ، من الأزْد ، وفي يده السِّيف ، فناده الناس من ظهور البيوت الحُرورية : انجُ بنفسك ؛ فنادوه : لسنا حُرورية ، نحن الشُّرَط [فوقف] ^(٢) فقتلوه ؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أدية خبرهما ، فقال : قريب ، لاقرِّبه الله ! وزحَّاف لا عفا الله عنه ! ركبأها عَشواء مظلمة - يريداعتراضهما الناس - ثم جعلالا يمران بقبيلة إلا قَتَلَا من وجدا ؛ حتى مرَّأ على بني عليّ بن سُود ، من الأزْد ؛ وكانوا رماة ، كان فيهم مائة يُجيدون الرمي ؛ فرموم رَمِيًّا شديداً فصاحوا : يا بني عليّ ، البقيا ، لارمء بيننا . فقال رجل من بني عليّ بن سود :

لَأَشِيءَ لِلْقَوْمِ سِوَيِ السَّهَامِ مشحودةً في غَلَسِ الظَّلَامِ

فمرّد عنهم الخوارج ^(٣) ، وخافوا الطلب ، واشتقوا مقبرة بني يشكر حتى نفذوا إلى مُزَيْنَةَ ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحية ، من بني سُود ، وقبائلُ من مُزَيْنَةَ وغيرها ، فاستقبلت الخوارج ، وحاربت حتى قَتَلت عن آخرها ، وقُتِل قُرَيْب وزحَّاف ^(٤) .

(١) الكامل ٥٧٩ (طبع أوربا) .

(٢) من كتاب الكامل

(٣) عردوا ، من التعريد وهو الفرار .

(٤) الكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوربا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أدية ، وهو أخو عروة بن حدير الذي ذكرناه أولاً ؛ خرج في أيام غيبد الله بن زياد ، وأنفذ إليه ابن زياد عباس بن أخضر المازني ، فقتله وقتل أصحابه ، وحل رأسه إلى ابن زياد ؛ وكان أبو بلال عابداً ناسكاً شاعراً ؛ ومن قدماء أصحابنا من يدّعيه ، لما كان يذهب إليه من العدل وإنكار المنكر ؛ ومن قدماء الشيعة من يدّعيه أيضاً .

[نافع بن الأزرق الحنفي]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة ، وكان يفتي بأن الداردار كفر ، وأنهم جميعاً في النار ؛ وكل من فيها كافر ؛ إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل للمؤمنين أن ينجسوا داعياً منهم إلى الصلاة ؛ ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ؛ ولا أن ينالكحوم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ؛ وهم مثل كفار العرب وعبداء الأوثان ؛ لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والبعد بمنزلتهم ، والتقية لا تحل لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ^(١) وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ^(٢) ، ففترق عنه جماعة من الخوارج .

[نجدة بن عامر]

ومنهم نجدة بن عامر ، واحتج نجدة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ^(٣) فسار نجدة وأصحابه إلى اليمامة ، وأضاف نافع إلى مقالة قدمناها ، استحلاله القدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نجدة إليه :

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٣) سورة غافر ٢٨

أما بعد ؛ فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأنخ البر ، تعاقد قوى المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لاتأخذك فى الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونة ظالم ؛ كذلك كنت أنت وأصحابك ؛ أولا تتذكر قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر رعيته ماتوليت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شرّيت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحق فصه^(١) ، وصبرت على مره ، تجرد لك الشيطان ؛ ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك وأغواك ؛ فعويت ، وأكفرت الذين عذّروهم الله تعالى فى كتابه ، من قعدة المسلمين وضعفتهم ؛ قال الله عز وجل ؛ وقوله الحق ، ووعدہ الصدق : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٢) : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٣) ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتلهم ؛ وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾^(٤) ، وقال سبحانه فى القعدة خيرا ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٥) فتفضيله المجاهدين على القاعدین لا يدفع منزلة من هودون المجاهدين ، أو ما سمعت قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾^(٥) فجعلهم من المؤمنين . [وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم]^(٦) ثم إنك لاتؤدى أمانة إلى من خالفك ؛ والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها ؛ فاتق الله فى نفسك ؛ واتق يوما لايجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمه العدل ؛ وقوله الفصل^(٧) . والسلام .

(١) فصه : كفه

(٢) سورة التوبة ٩١

(٣) سورة الإسراء ١٥

(٤) سورة النساء ٩٥

(٥) سورة النساء ٩٥

(٦) من كتاب الكامل

(٧) الكامل ٦١٢ (طبع أوربا) .

فكتب إليه نافع :

أما بعد ؛ أنا أنى كتابك تعطينى فيه ، وتذكرنى وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أثره من الصواب ؛ وأنا أسأل الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبت على ما دنت به ؛ من إكفار القعدة وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة من المخالفين ؛ وسأفسرك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القعدة ؛ فلبسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ؛ وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم ؛ إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ ^(٢) وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ ^(٤) فخير بتعذيرهم ، وأنهم كذبوا الله ورسوله ، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٥) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال ، فإن نوحا نبي الله ، كان أعلم بالله منى ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ^(٦) فسماهم بالكفر وهم أطفال ؛ وقبل أن يولدوا ؛ فكيف كان ذلك

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

في قوم نوح ، ولا تقوله في قومنا ؛ والله تعالى يقول : ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ ^(١) ، وهؤلاء كمشركي العرب ، لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإن الله تعالى أحلّ لنا أموالهم ، كما أحلّ دماءهم لنا ، فدمائهم حلال طلق ^(٢) ، وأموالهم فيء للمسلمين ؛ فاتقوا الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ؛ ولن يسعك خذلاننا والعود عنا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا ؛ والسلام على من أقرّ بالحق وعمل به ^(٣) .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة ؛ أما بعد فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتنّ مسلمون ؛ إنكم تعلمون أنّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، فقيم المقام بين أظهر الكفار ثرون الظلم ليلا ونهارا ؛ وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ؛ فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ ^(٤) ؛ ولم يجعل لكم في التخلف عذرا في حال من الأحوال ؛ فقال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ^(٥) ؛ وإنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، ومَنْ كانت إقامته لعلّة ، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) ، فلا تغفروا وتطمئنوا إلى الدنيا ؛ فإنها غرارة مكّارة ، لذتها نافذة ، ونعيمها بائد ، حُفَّتْ بالشهوات اغترارا ؛ وأظهرت حَبْرَةً ^(٦) وأضمرت عَبْرَةً ؛ فليس آكل منها أَكَلَةً تسره ، ولا شارب منها شربة تؤنقه ^(٧) ؛ إلا ودنا بها درجة إلى أجله ؛ وتباعد بها مسافة من أمّله ؛ وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قرارا ؛ فاتقوا الله وتزودوا ؛

(١) سورة القمر ٤٣

(٢) يقال : حل طلق ، أي حلال طيب .

(٣) الكامل للمبرد ٦١٣ (طبع أوروبا)

(٤) سورة التوبة ٣٦

(٥) سورة التوبة ٤١

(٦) الحبرة : النعمة .

(٧) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى ^(١) .

فلما أظهر نافعٌ مقالته هذه، وانفرد عن الخوارج بها، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس، ويقتل الأطفال، ويأخذ الأموال، ويحجى الخراج؛ وفشاُ عماله بالسواد؛ فارتاع لذلك أهل البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمّر عليهم أميراً يحميهم من الخوارج، ويجاهد بهم؛ فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمى بـبنة، فسأله أن يؤمّر عليهم—وبنة يومئذ أمير البصرة من قبل ابن الزبير—فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كرز، وكان ديناً شجاعاً؛ فلما خرج بهم من جنس البصرة، أقبل عليهم، وقال: أيها الناس، إني ما خرجت لامتيار ^(٢) ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم؛ فما وراءهم إلا السيوف والرماح؛ فمن كان شأنه الجهاد، فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير، ومضى الباقيون؛ معه فلما صاروا بدولاب ^(٣) خرج إليهم نافع وأصحابه، فاقتلوا قتالا شديداً حتى تكسّرت الرماح؛ وعُقرت الخيل؛ وكثر الجراح والقتل، وتضاربوا بالسيوف والعمد ^(٤)، فقتل ابن عبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج؛ وادّعى قتله سلامة الباهلي، وكان نافع قد استخلف عبيد الله ابن بشير بن الماحوز السليطي اليربوعي، واستخلف ابن عبيس الربيع بن عمرو الأجزم الغداني اليربوعي؛ فكان الرئيسان من بني يربوع؛ فاقتلوا بعد قتل ابن عبيس ونافع قتالا شديداً نيفاً وعشرين يوماً؛ حتى قال الربيع لأصحابه: إني رأيت البارحة كأن يدي

(١) السكامل ٦١٥ (طبع أوروبا)

(٢) امتيار؛ مصدر امتار لأمله؛ أي جلب لهم الميرة، والميرة: الطعام .

(٣) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

(٤) العمدة، بفتحين، أو بضمتين جمان للعمود

التي أصيبت بِكأبُل انحطت من السماء ، فاستشَلَّتْنِي ^(١) ، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل ؛ ثم عاودهم القتال ؛ فقتل ، فندافع أهل البصرة الراية ؛ حتى خافوا العطب ؛ إذا لم يكن لهم رئيس ؛ ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميري ، فأبأها ؛ فقيل له : ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ؟ فقال : إنها مشنومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ؛ ثم أخذها فلم يزل يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبي ؛ وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر ؛ فاختلفا ضربتين ، فخرّا ميّتين ^(٢) .

وقام حارثة بن بدر الغُداني بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشة خفيفة ؛ ويزجي الأوقات انتظاراً لقدم أمير من قبل ببة إلى حرب الخوارج ؛ وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب ؛ وهي من حروب الخوارج المشهورة ، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قتل نافع بن الأزرق ؛ وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر النخعي ؛ ولأه عبد الله بن الزبير ذلك ؛ ولقيه كتابه بالإمارة وهو يريد الحج ، وقد صار إلى بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلقاه أهل البصرة الذين كانوا في وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغُداني ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ في سوق الأهواز ، فلما عبر

(١) استشلتني ؛ قال للبرد : استشلتني ؛ أي أخذتني إليها واستنقذتني ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .

(٢) الكامل ٦١٦ (طبع أوربا) .

عثمان إليهم دُجيلاً ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عثمان لحارثة : ما الخوارج إلا ما أرى ، فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لا جَرَم ! لا أنغدى ، حتى أناجزهم ، فقال حارثة : إن هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيت يا أهل العراق إلا جُبنا ! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ! أنت والله بغير هذا أعلم - يُعَرِّضُ له بالشراب ، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة ، فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلاً ، وانهزم الناس ، وأخذ حارثة بن بدر الراية ، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر ! فتاب إليه قوم فعب بهم دجيلاً ، وبلغ قتل عثمان البصرة ، فقال شاعر من بني تميم :

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ وأعقبنا هذا المجازيَ عثمانُ ^(١)
فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ وأبرق ، والبرقُ اليمانيَ خَوَّانُ ^(٢)
فَضَحَّتْ قَرِيْشًا غَنًّا وَسَمِينًا وقيل بنو تيم بن مرة غِيلان ^(٣)
فلولا ابنُ بدرٍ للعراقيين لم يَقُمْ بما قام فيه للعراقيين إنسانُ
إذا قيل مَنْ حامى الحقيقة أومات إليه مَعْدٌ بالأكف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر بعزله ، وولى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي المعروف بالقباع ^(٤) البصرة ، فقدمها ، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليته ، فقال له رجل من بكر بن

(١) الأبيات في السكامل ٦٢٥ (طبعة أوروبا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعي أنه خطأ . . . وأنه لا يقال إلا أرعد وبرق . . . وروى غير الأصمعي : أرعد وأبرق على ضعف . وقوله : والبرق اليماني خَوَّان ، يريد : والبرق اليماني يخون

(٣) كذا في ج ، وفي السكامل : « عزلان » ، وفي ب : « غزلان » .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمي الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولي البصرة ؛ فغير على الناس مكابيلهم ؛ فنظر إلى مكبال صغير في مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكبالكم هذا لقباع ؛ والقباع : الذي يخنى أو يخنى ما فيه . السكامل ٧ : ٤٣ - بشرح المصنف .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنما هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ،
مما قرأ للخمر ؛ وفيه يقول رجل من قومه ^(١) :

ألم ترَ أن حارثةَ بْنَ بَدْرٍ يُصَلِّي وهو أَكْفَرُ من حِمَارٍ
ألم ترَ أنَ للفتيانِ حَظًّا وحَظُّكَ في البغايا والمُعَارِ ^(٢)

فكتب إليه النُّبَاع : تُكْفَى حرَبهم إن شاء الله : فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرَّق
أصحابه عنه وبقي في خَيْفٍ منهم ؛ فأقام بنهر تيرى ، فعبرت إليه الخوارج ، فهرب مَنْ تَخَلَّفَ
معه من أصحابه ؛ وخرج يركض حتى أتى دُجَيْلًا ، فجلس في سفينة ، وأتبعه جماعة من
أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بني تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛
وقد توسَّط حارثة دُجَيْلًا ، فصاح به : يا حارثة ، ليس مثلى بضيع ! فقال للملاح : قَرِّبْ ؛
فقرَّبَ إلى جُرُفٍ ^(٣) ؛ ولا فُرْضة هناك ، فَطَفَّرَ ^(٤) بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعا
وهلك حارثة ^(٥) .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب ” الأغاني الكبير ” ، أن ^(٦) حارثة لما عقدوا له
الرئاسة ، وسلموا إليه الراية ، أمرهم بالنَّبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة
فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، ونَدَبَ الناس ، فالتقوا وليس بأحدٍ منهم طَرِقٌ ^(٧)
قد فشت فيهم الجراحات ، وما تَطَأَ الخيلُ إِلَّا على القتلى ؛ فبيناهم كذلك ، إذ أقبل جمعٌ

(١) نقل المرصني في رغبة الأمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازني .

(٢) المعار : الخمر .

(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل سن الوادي والنهر .

(٤) طفر : وثب .

(٥) السكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوروبا)

(٦) الأغاني ٦ : ١٤٦ وما بعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف في الرواية

(٧) طرق ، أي قوة .

من الشُّرَاة من جهة اليمامة ، - يقول المَكْثَرُ : إنهم مائتان ، والمَقْلَلُ إنهم أربعون - فاجتمعوا وهم مُرِيحُونَ مع أصحابهم ، فصاروا كَوْكَبَةً^(١) ، واحدة ، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزماً ، وقال لأصحابه :

كِرْنَبُوا وَدَوِّلُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فَاذْهَبُوا^(٢)

وقال :

أَيُّرُ الْحَارِ فَرِيضَةٌ لِعَبِيدِكُمْ وَالْخَصِيَّتَانِ فَرِيضَةُ الْأَعْرَابِ

قال : كَرْنَبُوا ، أى اطلبوا كَرْنَبِي ، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوِّلُوا : اطلبوا دُولَاب ؛ وهى ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج ، فألقى الناس أنفُسَهُمْ فى الماء ، ففرق منهم بِدُجَيْلِ الأهواز خلق كثير .

[الزبير بن على السَّلِيطَى وظهور أمر المهلب]

ومنهم الزُّبَيْرُ بن على السَّلِيطَى التِّيمِي ؛ كان على^(٣) مقدمة ابن الماحوز ، وكان ابن الماحوز يخاطب بالخلافة ، ويخاطب الزبير بالإمارة ، ووصل الزبير بعد هلاك حارثة ابن بدر ، وهرب أصحابه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفاً شديداً ، وضجَّ أَهْلُ البصرة إلى الأحنف ، فأتى القُبَاعَ ، فقال : أصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ! إِنَّ هَذَا الْعَدُوَّ قَدْ غَلَبَنَا عَلَى سَوَادِنَا وَفَيْتَنَا ، فلم يبقَ إِلَّا أَنْ يَحْصُرَنَا فى بلدنا حتى نموت هُرَالاً . قال : فسَمُّوا إِلَى رَجُلَايِى الْحَرْبِ ، فقال الأحنف : لا^(٤) أرى لها رجلاً إِلَّا المهلب بن أبى صُفْرَةَ ؛ فقال : أو هذا رأى

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغاني « كوكبة » ، وما يعنى

(٢) الكامل المبرد ٨ : ١٠ وما بعدها - بشرح الموصنى .

(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن رأى لا ينجى » ، أى لا يشكل ولا يشبه .

جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلى في غد لأنظر ؛ وجاء الزبير حتى نزل على البصرة ، وعقد الجسرَ ليعبرُ إليها ؛ فخرج أكثر أهل البصرة إليه ، وانضم إلى الزبير جميع كُور الأهواز وأهلها رغبة ورهبة ، فوافاه البصريون في الشُّفْن وعلى الدَّواب^(١) ، فاسودت بهم الأرض ، فقال الزبير لما رآهم : أبي قومنا إلا كفراً ، وقطع الجسر ، وأقام الخوارج يازانهم ، واجتمع الناس عند القُبَاع ، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً ، وكانوا ثلاث فرق : سَمَّى قومُ المهلب ، وسَمَّى قوم مالك بن مِسمع ، وسَمَّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكي ، فاختر القُبَاع ما عند مالك وزياد، فوجدهما مُتتافلين عن الحرب ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما ؛ وقالوا : قد رجعنا عن رأينا ؛ ما نرى لها إلا المهلب ، فوجه إليه القُبَاع فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ، قد ترى ما قد رَهَقْنَا من هذا العدو ، وقد أجمع أهلُ مصرِكَ عليك ؛ وقال له الأحنف : يا أبا سعيد ، إنا والله ما آثرناك ، ولكننا لم نَرِ مَنْ يقوم مقامك .

ثم قال القُبَاع - وأوماً إلى الأحنف : إنَّ هذا الشيخَ لم يسمِّك إلا إيثاراً للدين والبقيا^(٢) وكلُّ مَنْ في مصرِكَ مادَّ عينه إليك ، راجٍ أن يكشف الله عنه هذه النِّمة بك ، فقال المهلب : لا حول ولا قوة إلا بالله، إني عند نفسي لدون ما وصفتم، ولست آبي ما دعوتهم إليه؛ لكن لي شروطاً أشرطها. قالوا : قل ، قال : على أن أُنْتَخبَ مَنْ أُحِبُّ ، قال الأحنف : ذاك لك ، قال : ولي إمرة كلِّ بلدٍ أغلب عليه ، قالوا : لك ذلك ، قال : ولي في كلِّ بلدٍ أظفر به ، قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ؛ إنما هو فيء للمسلمين ؛ فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم ، ولكن لك أن تعطى أصحابك من فيء كلِّ بلد تغلب عليه ما أُحِبُّ ، وتنفق منه على محاربة عدوك ؛ فما فَضَّلَ عنكم كان للمسلمين ؛ فقال المهلب : لا حول ولا قوة إلا بالله ! فمن لي بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرِكَ ، قال : قد قبلت . فكتبوا بينهم بذلك كتاباً ، ووُضِعَ على يدي الصَّلْتِ بن حُرَيْث بن جابر الجعفي ، وانتخب المهلب من جميع الأخماس ، فبلغت نُحْبَتُهُ اثني عشر ألفاً ، ونظروا في بيت المال ،

(١) في السكامل بعد هذه الكلمة : « ورجالة » .

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « النقي » ، وهي ساقطة من السكامل .

فلم يكن إلا مائتا ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلب إلى التجار ، فقال : إن تجارتكم منذ حول قد فسدت بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم ، فهلموا فبايعوني واخرجوا معي أوفكم حقوقكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلح به عسكره واتخذ لأصحابه الخفاتين^(١) والرانات المحشوة بالصوف ؛ ثم نهض - وكان أكثر أصحابه رجالة - حتى إذا صار بجذاء القوم أمر بسفن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها ، ثم أمر الناس بالعبور ، وأمر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشط خاضت إليهم الخوارج ، فحاربهم وحاربهم المغيرة ، ونصّحهم^(٢) بالسهم حتى تنحّوا ، وصار هو وأصحابه على الشط ، فحاربوا الخوارج ، فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر ، وعبر والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم ، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهله لم يخبروا مثل المهلب في الحروب فسلموا
أمضى وأيمن في اللّقاء نقيّة وأقلّ تهليلاً إذا ما أحجموا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبري ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن شعر عطية :

يُدعى رجالٌ للعطاء وإنما يُدعى عطية للطعان الأجرد

وقال فيه شاعر من بني تميم :

وما فارسٌ إلا عطيةٌ فوقه إذا الحربُ أبدت عن نواجذها الفما
به هزمَ الله الأزارقَ بعد ما أباحوا من المضرّين حلاً ونحرماً

فأقام المهلب أربعين ليلة يجبي الخراج بگور دجلة ، والخوارج بنهر تيرى ، والزبير ابن علي منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز ؛ ففضى المهلب التجار ، وأعطى أصحابه ،

(١) الخفّتان : ثوب من الفطن يلبس فوق الدرع . الأناط الفارسية ٥٦

(٢) نصّحهم : رشقهم ورمائم .

فأسرع الناس إليه رغبة في مجاهدة العدو وطمعا في الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزديّ وعبد الله بن رباح ، ومعاوية بن قُرّة المُرزّنيّ ، وكان يقول :
لوجاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحرورية ؛ وجاءه أبو عمران الجونيّ . وكان يروى عن كعب أن قتيل^(١) الحرورية يفضل قتيل^(٢) غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلب إلى نهر تيرى ، ففتحوا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلب ينجي ما حواليه من الكور ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومن في عسكرهم ؛ وإذا حشوة^(٣) ما بين قصاب وحداد وداعر^(٤) . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال :
أمثل هؤلاء يغلّبونكم على فيحكموا ولم يزل مقبلا حتى فهمهم ، وأحكم أمرهم وقوتى أصحابه ، وكثرت الفرسان في عسكره ، وتنام^(٥) أصحابه عشرين ألفا .

ثم مضى يوم كور الأهواز ، فاستخلف أخاه الممارك بن أبي صفرة على نهر تيرى ، وجعل المغيرة على مقدمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ؛ فأنكشف عن المغيرة بعض أصحابه ، وثبت المغيرة نفسه بقية يومه وليلتها يوقد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران في بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإننا مذ خَرَجنا نؤمّ العدو ، في نعم من فضل الله متصلة علينا ، ونقيم متابعة عليهم ، نُقدم ويحجمون ، ونحلّ ويرتحلون ؛ إلى أن حَلَلْنَا سوق الأهواز ؛ والحمد لله رب العالمين ؛
الذى من عنده النصر ؛ وهو العزيز الحكيم .

(١) ب « فنك » ، وما أثبتته من ! ، ج والسكامل .

(٢) الحشوة : رذال الناس .

(٣) الداعر : الخبيث المفسد .

(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا والأجر في الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلب لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه عرف ^(١) اسمي وكنيتي

واسم أبي !

قالوا : وكان المهلب يثبت الأحراس في الأمن ، كما يثبتهم في الخوف ، ويذكر ^(٢)

العيون في الأمصار كما يذكر ^(٣) فيها في الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ، ويخوفهم البيات ^(٤) ؛

وإن بعد منه العدو ، ويقول ^(٥) : احذروا أن تُكادوا كما تكيدون ؛ ولا تقولوا : هزمنام

وغلبنام ؛ والقوم خائفون وجلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيباً ، فقال : أيها الناس ؛ قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم

إن قدرُوا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلهم على ما قاتلهم عليه

أو لكم على بن أبي طالب ؛ لقد لقيهم ^(٦) انصار المحتسب مسلم بن عيسى ، والعجل المفرط

عثمان بن عبيد الله ، والمعصية الخالف حارثة بن بدر ؛ فقتلوا جميعاً وقتلوا ؛ فالقوم بحذر وجد

فإنما هم مهنتكم وعبيدكم ؛ وعازٌ عليكم ، ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء

على فيثكم ؛ وبطئوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمنأز ^(٧) الصغرى ؛ فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيسُ

الخوارج رجلاً يقال له واقد ، مولى لآل أبي صُفْرة من سبى الجاهلية ، في خمسين رجلاً ،

فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تيرى ، وبها المَعَارِك بن أبي صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فمضى

(١) الكامل : « يعرف » .

(٢) النعمان : الجواسيس ؛ وإذكاؤُها لإرسالها .

(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقف بهم ليلاً وهم غارون .

(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .

(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفي ب « لقيتم » ، وما أثبتته من ج

(٦) مناذر الصغرى ، وكذلك مناذر الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبير إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزل عمه فدفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسولاف^(١) والخوراج بها ، فواقعهم ، وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجل من أصحاب المهلب ؛ يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحض الناس ويهون أمر الخوراج ، ويحتال بين الصّفين ، فقال رجل من الخوراج لأصحابه : يا معشر المهاجرين ؛ هل لكم في قتلة فيها الجنة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ، ثم كبا به فرسه ، فقاتلهم راجلا قائما وباركا ، ثم كثرت به الجراحات فذّبت بسيفه ، ثم جعل يخنو في وجوههم التراب ، والمهلب غير حاضر ؛ فقتل ثم حضر المهلب فأعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبري : أسلمتما سيد أهل العراق^(٢) ، لم تُعيناه ولم تستنقذاه حسداً له ؛ لأنه رجل من الموالي ؛ ووبخهما .

وحمل رجل من الخوراج على رجل من أصحاب المهلب فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله ، ومال الخوراج بجمعهم على العسكر ؛ فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلاً ؛ وثبت المهلب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص^(٣) المهلب يومئذ حَيضة . ويقول الأزدي : بل كان يردّ المنهزمة ويحمي أديبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه قرّ ، وقال شاعرهم :

بِسُؤْلَافٍ أَضَعَّتْ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرَّتْ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورٍ^(٤)

وقال آخر من بنى تميم :

تَبَعْنَا الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ طَوْعًا يُجِيّ كُلَّ أَرْبَعَةِ حَمَارَا^(٥)

(١) سولاف ، بضم السين : قرية في غرب دجيل ؛ قرب مناذر الكبرى .

(٢) كذا في ١ ، ج ، وفي ب والكامل : « سيد أهل العسكر » .

(٣) حاص حيصه : جال جولة .

(٤) قال المبرد : مواشكة ، يريد سريرة ، ودرور ، « فحول » ، من در الشيء إذا تناهى .

(٥) يزجي : يسوق .

فِيَا نَدْمَى عَلَى تَرْكِ عَطَائِي مَعَايِنَةً وَأَطْلُبُهُ ضِمَارًا^(١)
إِذَا الرَّحْمَنُ يَسْتَرُ لِي قُفُولًا فَخَرَقَ فِي قُرَى سُولَافٍ نَارًا

قوله : « الأعور الكذاب » ، يعنى به المهلب ، كانت عينه غارتُ بسهم أصابها ؛ وسمّوه الكذاب ؛ لأنه كان فقيها ، وكان يتأول ما ورد في الأثر من أن كل كذب يكتب كذبا إلا ثلاثة : الكذب في الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعد ، وكذب الرجل في الحرب بتوعد وتهديد . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله : « إنما أنت رجل فخذل عَنَّا ما استطعت » . وقال : « إنما الحرب خدعة » ، فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ما ضعف ، ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ، وكان حتى من الأزدي قال لهم الندب ؛ إذا رأوا المهلب رانحا إليهم قالوا : راح يكذب ؛ وفيه يقول رجل منهم :

أَنْتَ الْفَتَى كُلَّ الْفَتَى لَوْ كُنْتَ تَصْدُقُ مَا تَقُولُ

فبات المهلب في ألفين ، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة ، فصاروا في أربعة آلاف ، فخطب أصحابه ، فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجبن والضعف والطبع^(٢) والطمع ؛ فإن يمسسكم قرح فقد مَسَّ القوم قرحٌ مثله ، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله .

فقام إليه الحريش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أن تقاتلهم ؛ إلا أن يقاتلوك ؛ فإن في أصحابك جراحا ، وقد أئخنتهم هذه الجولة .

فقيل منه ؛ ومضى المهلب في عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ؛ فلم ير منهم أحدا

(١) الضمار : الغائب الذي لا يرتجى .

(٢) الطبع في الأصل : الصداً يكثر على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام .

يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا المنزل ؛ فارتحل ، فمَبر دُجَيْلا وصار إلى عاقول^(١) ، لا يؤتى إلا من جهة واحدة ؛ فأقام به وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفي يوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

أَلَا طَرَقْتَ مِنْ آلِ مَيَّةَ طَارِقَةً عَلَى أَنَّهَا مَعْشُوقَةُ الدَّلِّ عَاشِقَةٌ^(٢)
تَرَأْتِ وَأَرْضَ الشُّوسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَرَسْتَقِ سُولَافٍ حَمَمَتِهِ الْأَزَارِقَةُ
إِذَا نَحْنُ شَتْنَا صَادِفَتْنَا عِصَابَةٌ حَرُورِيَّةٌ فِيهَا مِنْ الْمَوْتِ بَارِقَةٌ
أَجَارَتْ عَيْلَنَا الْعُسْكَرِينَ كُلَّيْهِنَّ فَبَاتَتْ لَنَا دُونَ اللَّحَافِ مَعَانِقَةٌ

فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ، ثم ارتحل ، والخوارج بسلى وسلبرى فنزل قريبا منهم ؛ فقال ابن الماحوز لأصحابه : ماتنتظرون بعدوكم وقد هزمتهم بالأمس ، وكسرتهم حدهم ؟ فقال له واقد مولى أبي صفرة : يا أمير المؤمنين ؛ إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجنين ، وبقي أهل النجدة والقوة ؛ فإن أصبتهم لم يكن ظفراً^(٣) هيناً ؛ لأنى أراهم لا يصابون حتى يصيبوا ؛ وإن غلبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافق واقد ، فقال ابن الماحوز : لانهجوا على أخيك ؛ فإنه إنما قال هذا نظرا لكم .

ثم وجه الزبير بن على إلى عسكر المهلب ؛ لينظر ما حالهم ؛ فأتاهم في مائتين فخرهم ورجع ، وأمر المهلب أصحابه بالتحارس ؛ حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبئة ، فالتقوا بسلى وسلبرى ، فتصافؤا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ؛ فركزوا رماحهم بين الصفين ؛ واتكثروا عليها ، وأخرج إليهم المهلب أعدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرعون إلا الصلاة ؛ حتى إذا أمسوا رجع كل قوم إلى معسكرهم ؛ ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

(١) العاقول : منعطف الوادى .

(٢) السكامل : « من آل مية » .

(٣) ظفرك .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ؛ ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ؛ كما صنعوا يوم سولاف فضعضوا الناس ، وفقد المهلب ، وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عُمان .

ثم نجم ^(١) المهلب في مائة ، وقد انغمس كغماه ^(٢) في الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قزاً ، وقد تمزقت ؛ وإن حشوها ليطاير وهو يلهث ، وذلك في وقت الظهر ، فلم يزل يحاربهم حتى أتى الليل ، وكثر القتل في الفريقين ؛ فلما كان الغد غاداهم ؛ وقد كان وجهه بالأمس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم ، من الأزدي من ثقاته وأصحابه ، يرد المنهزمين ، قرّبه عامر بن مسمع فردّه ، فقال : إن الأمير أذن لي في الانصراف ؛ فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دعه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلب في ثلاثة آلاف ، وقد تفرق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكم من قلة ! أبعجز أحدكم أن يلقى ربحه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كندة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلب لأصحابه : أعدوا محالٍ فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ؛ فإنها تصدّ الفارس ، وتصرعُ الراجل ؛ ففعلوا . ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصبر ، ويطمعهم في العدو ، ففعل ذلك حتى مرّ بيني العدوّة ؛ من بني مالك بن حنظلة ؛ فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلب بسيدهم - وهو معاوية بن عمرو - فجعل يركله برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! أعفني من أمّ كيسان - والأزد تسمى الركبة أم كيسان - ثم حمل المهلب وحملوا ، واقتتلوا قتالا شديداً ، فجهّد الخوارج ، ونادى مناد منهم : ألا إن المهلب قد قُتل !

(١) نجم : ظهر .

(٢) الكامل : د كفاء .

فركب المهلب برذونا وزدا^(١) ، وأقبل يركض بين الصّفين ؛ وإن إحدى يديه لفي القباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنّوا أن أميرهم قد قتل ، وكلّ الناس مع العضر ، فصاح المهلب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذكوان موله : قدّم رايتك ؛ ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تفرّ بنفسك ، فزبره وزجره ، وصاح : يا بني سلمة ، أمركم فتعصوني ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشدّ جِلاد ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لي رجلاً جَلداً يطوف في القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جرّم ، وقالوا : إنا لم نر قطّ رجلاً أشدّ منه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجريح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيه وخمله ، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان في نصف الليل ، وجّه رجلاً من اليحمّد^(٢) في عشرة : فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أَرْجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشدّ تخويفاً ، احذروا البيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً : إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شعاركم : « حم لا ينصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شعار أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام .
فلما أصبح القوم غدّوا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحوز قتيلاً ، ففي ذلك يقول رجل من الخوارج :

(١) الكامل : « برذونا قصيرا أشهب » .

(٢) اليعمّد : بطن من الأزد .

بِسِلِّي وَسِلْبَرِي مَصَارِعَ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَعَقْرَى مِنْ كُمَيْتٍ وَمِنْ وَرْدٍ^(١)
وقال آخر :

بِسِلِّي وَسِلْبَرِي جَاجِمٍ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَصَرَعِي لَمْ تَوْسِدْ خَدُودَهَا^(٢)

وقال رجل من موالى المهلب : لقد صرعت يومئذ بجحر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا
فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت
به ثالثا ؛ وفي ذلك يقول رجل من الخوارج :

أَنَا بِأَحْجَارٍ لَيَقْتُلُنَا بِهَا وَهَلْ يُقْتَلُ الْأَبْطَالُ وَيُنْحَكَ بِالْحَجَرِ !

وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سِلِّي وَسِلْبَرِي ، وقتل ابن الماحوز :

وَيَوْمَ سَلَى وَسِلْبَرِي أَحَاطَ بِهِمْ مِنَّا صَوَاعِقُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ^(٣)

حتى تركنا غبيد الله مُنْجَدِلًا كَمَا تَجَدَّلُ جَذَعٌ مَالٌ مُنْقَعِرُ^(٤)

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلِّي ، حمل على رجل من أصحاب المهلب ؛
فطعنه ، فلما خالطه الرمح صاح : يَا أَمْتَاهُ ! فصاح به المهلب : لَا كَثُرَ اللَّهُ مِنْكَ^(٥) في
المسلمين ، فضحك الخارجى ، وقال :

أُمُّكَ خَيْرٌ لَكَ مِنِّي صَاحِبًا نَسَقِيكَ نَحْضًا وَنَعْلَ رَاثِبًا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه ، نكس^(٦) على

(١) نقل المرسفي عن ابن بري أنه لأبى المقدام بهيس بن صهيب الخنفي . وعقرى : جمع عقير ، بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سِلِّي وسِلْبَرِي ، ضرباهما المبرد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بفتحهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز .

(٣) قال المبرد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو

تميم يقولون : صاعقة وصوائع » .

(٤) المنقعر : المنقطع من أصله .

(٥) كذا في ج ، وفي ب : « مثلك » ، وفي السكامل : « بمثلك المسلمين » .

(٦) فكس : طأطأ .

قَرَبُوس^(١) السَّرَج ، وَحَمَل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وأترفى أصحابها ، فَتَحُمِيت الميمنة من أجله ؛ وكان أشدَّ ما تكونُ الحربُ استعاراً أشدَّ ما يكون تبسماً . وكان المهلب يقول : ما شَهِدَ معي حَرْباً قط إلا رأيت البُشْرَى في وجهه !

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم :

فَإِنْ تَكُ قَتَلَى يَوْمَ سِلَى تَتَابَعْتَ فَكَمْ غَادَرَتْ أَسْيَافُنَا مِنْ قُمَا قِمِ^(٢)
غَدَاةَ نَكْرُ الْمَشْرِفِيَّةِ فِيهِمْ بِسُؤْلَافَ يَوْمَ الْمَازِقِ الْمُتْلَاحِمِ^(٣)

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع^(٤) :

أما بعد ، فإننا لقينا الأزارقة المارقة بِحَدِّ وَجِدَةٍ ، فكانت في الناس جَوَلَةً ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظِ والصَّبْرِ بِنَيَّاتٍ صادقة ، وأبدانٍ شداد ، وسيوفٍ حَدَاد ؛ فأعقبَ اللهُ خَيْرَ عاقبة ، وجاوزَ بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئة^(٥) رماحنا ، وضرائب^(٦) سيوفنا ، وقتل اللهُ أميرهم ابن الماحوز ؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها . والسلام .

فكتب إليه القُبَاع :

قد قرأت كتابك يا أبا الأزد ، فرأيتك قد وُهِبَ^(٧) لك شرفُ الدنيا وعِزُّها ، وذخِرَ لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة وأجرُها ، ورأيتك أوثقَ حصون المسلمين ، وهادٍ

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ والسكل سرج قربوسان مقدم ومؤخر .

(٢) القِيَامُ ، بضم أوله : السيد الكثير الواسع الفضل ؛ كالفمقام .

(٣) المَازِق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجرة متلاحمة ؛ وهي التي تشق التحم دون المعظم ثم تتلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرقية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام .

(٤) في السكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ... » .

(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .

(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ما ضربت بسيفك

(٧) السكامل : « وهب الله لك ... وذخر لك ... » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة ، وأخا السياسة ؛ فاستدِم الله بشكره ، يتم عليك نعمته . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنتونه ، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على ما فارقتك عليه ؛ فلم يزل يقرأ الكتب وينظر في تضاعيفها ، ويلتمس كتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يره ، قال لأصحابه : أما كتب أبو بجر ؟ فقال له الرسول : إنه حَمَلَنِي إِلَيْكَ رسالة ، فأبلغه ، فقال : هذا أحبُّ إليَّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي ؛ وهو من بنى سليط بن يربوع ، من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بينا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ؛ وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ؛ فما صار إليه خيرٌ مما خلف ؛ وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعة الأجدم ، والحجاج بن رباب ^(١) ، وحاتثة بن بدر ؛ وأشجيتُ المهلب ، وقتلتُ أخاه المارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(٢) ، فيوم سَلَّى كان لكم بلاء وتمحيص ، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونكال ، فلا تُعلننَّ على الشُّكر في حينه ، والصبر في وقته ؛ وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلب ؛ فنفتحهم المهلب نفحة ، فرجعوا وأكمنوا للمهلب في غَمُضٍ من غَمُوض ^(٣) الأرض يقرب من عسكره - مائة فارس ، ليقتالوه ، فسار المهلب

(١) الكامل : « باب » .

(٢) سورة آل عمران ١٤٠

(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوماً يُطِيفُ بِعَسْكَرِهِ ، وَيَتَفَقَّدُ سِوَادَهُ ، فَوَقَفَ عَلَى جَبَلٍ ، فَقَالَ : إِنَّ مِنَ التَّدْبِيرِ لِهَذِهِ الْمَارِقَةِ أَنْ تَسْكُونَ قَدْ أَكْمَنْتَ فِي سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ كَمِينًا ، فَبَعَثَ الْمُهَلَّبَ عَشْرَةَ فِوَارِسَ ، فَاطْلَعُوا عَلَى الْمِائَةِ ، فَلَمَّا عَلِمُوا بِهِمْ قَطَعُوا الْقَنْطَرَةَ وَنَجَوْا وَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ ، فَصَاحُوا : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، لَوْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ لَجَدَدْنَا وَنَحْنُ فِي جِهَادِكُمْ .

ثُمَّ يَلْسُ الزُّبَيْرُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُهَلَّبِ ، فَضَرَبَ إِلَى نَاحِيَةِ أَصْبَهَانَ ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى أَرْجَانٍ ، وَقَدْ جَمَعَ جُمُوعًا ؛ وَكَانَ الْمُهَلَّبُ يَقُولُ : كَأَنِّي بِالزُّبَيْرِ ، وَقَدْ جَمَعَ لَكُمْ ؛ فَلَا تَرَاهُمْ ؛ فَتَنْخَبُ ^(١) قُلُوبُكُمْ ، وَلَا تَغْفُلُوا الْإِحْتِرَاسَ فَيَطْمَعُوا فِيكُمْ . فَجَاءُوهُ مِنْ أَرْجَانٍ ، فَلَقَوْهُ مُسْتَعْدًّا آخِذًا بِأَفْوَاهِ الطَّرِيقِ ، فَحَارَبَهُمْ ، فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ ظُهُورًا بَيْنًا ، فَبَنَى ذَلِكَ يَقُولُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ :

سَقَى اللَّهُ الْمُهَلَّبَ كُلَّ غَيْثٍ مِنْ الْوَسْمِيِّ يَنْتَحِرُ انْتِحَارًا ^(٢)

فَمَا وَهَنَ الْمُهَلَّبُ يَوْمَ جَاءَتْ عَوَاسِ خَيْلِهِمْ تَبْنِي الْغَوَارِ ^(٣)

وَقَالَ الْمُهَلَّبُ يَوْمَئِذٍ : مَا وَقَفْتُ فِي مَضِيقٍ مِنَ الْحَرْبِ إِلَّا رَأَيْتُ أُمَامِي رَجَالًا مِنْ بَنِي الْهَجْجِيمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ يَجَالِدُونَ ؛ وَكَأَنَّ لِحَامَ أَذْنَابِ الْعَقَاقِقِ ^(٤) وَ[كَانُوا] ^(٥) صَبَرُوا مَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ .

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُهَلَّبِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ :

(١) تَنْخَبُ : تَضَفُّ ، وَفِي السَّكَامِلِ : « تَنْخَبُ » .

(٢) الْوَسْمِيُّ : مَطَرُ الرَّيِّعِ الْأَوَّلِ ، سَمِيَ بِهِ لِأَنَّهُ يَسْمُ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ ؛ وَانْتَحَرَ الْوَسْمِيُّ ، أَيْ انْبَعَقَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاعِي :

فَمَرَّ عَلَى مَنَازِلِهَا وَأَلْقَى بِهَا الْأَثْقَالَ وَانْتَحَرَ انْتِحَارًا

(٣) الْغَوَارُ : مَصْدَرُ غَاوَرِ الْعَدُوِّ مَقَاوِرَ وَغَوَارًا ؛ أَغَارَ عَلَيْهِ .

(٤) الْعَقَاقِقُ : جَمْعُ عَقَقٍ ؛ وَهُوَ طَائِرٌ ذُو لَوْنَيْنِ : أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ طَوِيلَ الذَّنْبِ .

(٥) مِنَ السَّكَامِلِ .

أَلَا يَأْمَنُ لِيَصَبَ مُسْتَهَامٌ ^(١) قَرِجِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَزُونَا ^(٢)
 لَهَا عَلَى الْمَهْلَبِ مَا لَقِينَا إِذَا مَارَاحَ مَسْرُورًا بَطِينَا ^(٣)
 يَجْرُ السَّابِرَى وَنَحْنُ شُعْتُ كَانَ جُلُودَنَا كُسَيْتَ طَحِينَا

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف ؛ وكان من أنجده فرسان الخوارج ،
 فطعمته فداق صلبه ؛ وقال :

قيس الإكاف غداة الرُّوعَ بَعْلَمَنِي ثَبَتَ الْمَقَامِ إِذَا لَاقَيْتُ أَقْرَانِي
 وقد كان بعض جيش المهلب يوم سَلَّى وَسَلَّزِي صاروا إلى البصرة ، فذكروا أن
 المهلب قد أصيب ، فهم أهل البصرة بالنقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه بظفره ، فأقام
 الناس ؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم ؛ فعند ذلك قال الأحنف : الْبَصْرَةُ بَصْرَةُ الْمَهْلَبِ ؛
 وقدم رجل من كِنْدَةَ يعرف بابن أَرْقَمَ ؛ فعنى ابن عم له ، وقال : إني رأيت رجلاً من
 الخوارج ؛ وقد مكن رحمه من صُلْبِهِ ، فلم ينشب أن قدم المنعَى سالماً ، فقيل له ذلك ،
 فقال : صدق ابن أرقم ؛ لما أَحَسَسْتُ بِرِجْهِ بَيْنَ كَتِفِي صَحَّتْ بِهِ : الْبَقِيَّةُ ؛ فرفعه ؛ وتلا :
 ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) . ووجه المهلب بعقب هذه الواقعة رجلاً
 من الأزد ، برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله ، فلما صار
 بَكْرُ بُج ^(٥) دينار ؛ لقيته إخوة عبيد الله : حبيب ، وعبد الملك ، وعلى ؛ بنو بشير بن الماحوز ؛

(١) الكامل : « مستعن » ، من استعنه الشوق إلى وطنه ؛ أى استطار به .

(٢) قال المبرد : المزون : عمان ؛ وهو اسم من أسمائها قال الكمي :

فَأَمَّا الْأَزْدُ أَزْدُ بَنِي سَعِيدٍ فَأَكْرَهُ أَنْ أُسَمِّيَهَا الْمَزُونَا

وقال جرير :

وَأَطْفَاتُ نِيرَانَ الْمَزُونِ وَأَهْلَهَا وَقَدْ حَاوَلُوهَا فِتْنَةً أَنْ تُسْعَرَا

(٣) البطين : عظيم البطن

(٤) سورة هود ٨٦

(٥) كرج : موضه قرب ههوق الأهواز .

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل ابن الماحوز المارق ، وهذا رأسه معي ، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ، ودفنوا رأس أخيههم عُبيد الله ، فلما ولى الحجاج دخل عليه عليّ ابن بشير ، وكان وسيما جسيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبره ، فقتله ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزديّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوا لها .

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب " الكامل " ،^(١) : ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحارث القُبَاع ؛ حتى عُزل وولّى مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلب أن أقدم عليّ ، واستخلف ابنك المغيرة ، ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إنّي قد قد استخلفتُ المغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبرّاً ، وتبجيلاً ، وأخو مثله مواساةً ومناصحةً ، فلتحسُنْ له طاعتكم ، وليلنْ له جانبكم ، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلا سبقني إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت^(٢) ، فشمّر واثترز^(٣) ، وجِدَ واجتهد .

ثم شَخَّصَ المصعب إلى المزار ، فقتل أحمر بن شميْط ؛ ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشرْ عليّ برجل أجعله بيني وبين عبد الملك ؛ فقال له : اذكرْ واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عطارد الدرامي ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكيّ ، أو داود ابن قَحْذَم ، قال : أو تكفيني أنت ؟ قال : أ كفيك إن شاء الله ، فشَخَّصَ فولاه الموصل ففرج إليها ، وصار مُصعب إلى البصرة لينفِرَ إلى أخيه بمكة ، فشاور الناس فيمن يستكفيه

(١) الكامل ٦٤٣ وما بعدها (طبع أوروبا)

(٢) الكامل : « وليتك »

(٣) الكامل : « واثترز »

أمر الخوارج ، فقال قوم : ولّ عبد الله بن أبي بكرة ، وقال قوم : ولّ عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قوم : ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم ؛ وبلغت المشورة الخوارج فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطري بن الفجاءة المازني - ولم يكن أمروه عليهم بعد : إن جاءكم عبد الله بن أبي بكرة ، أنا كم سيّدٌ سَمَحَ كريم جواد مُضِيع لسكره ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ، أنا كم فارس شجاع ، بطل جاد ، يقاتل لدينه ولملكه ، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته في وقائع ؛ فما نُودِيَ في القوم لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدَّ على قرنه ويضربه ؛ وإن رُدَّ المهلبُ فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه ، ويُرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبتدؤوه ؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبرّ ^(١) ، والثعلب الرّواغ ، والبلاء المقيم .

فولى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر ، ولّاه فارس ، والخوارجُ بأرجان يومئذ ، وعليهم الزُّبير بن عليّ السَّليطيّ ، فشنَّ عليهم فقاتلهم ، وألحَّ عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولّى حربَ الخوارج عمرَ بن عبيد الله ، قال : رماهم بفارس العرب وفتّاها ، فجمع الخوارج له ، وأعدّوا واستعدّوا ، ثم أتوا سابور ^(٢) فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبي حسان الأزدي : إن المهلب كان يذكي العيون ، ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خَلَعَ اللهُ قلبك ! أترأك تموتُ قبلَ أجلك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشيء ! فأقبل على مالك بن أبي حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلّم اللهُ ، ولم يكونوا

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً

يطعمون في مثلها من المهلب ، فقال : أما إنكم لو ناصحتموني مناصحةكم المهلب ، رجوت أن أنفي هذا العدو ، ولكنكم تقولون : قرشي حجازي ، بعيد الدار خير له غيرنا ، فقتالون معي تعذيراً^(١) . ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى ألجأهم إلى قنطرة ، فكاثف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها^(٢) ، ثم عبر ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر - وأمه من بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب - فقاتلهم حتى قُتل ، فقال قطري للخوارج : لا تقاتلوا عمر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنه - ولم يعلم عمر بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم ؛ وكان معه ابنه النعمان بن عباد - فصاح به عمر : يا نعمان ، أين ابني ؟ قال : احتسبه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر ؛ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم حمل على الخوارج حملة لم ير مثلاً ، وحمل أصحابه بحملته ؛ فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج ، وحمل على قطري فضربه على جبينه فقلقه ، وانهزمت الخوارج وانهبها ؛ فلما استقرؤا ورأى ما نزل بهم ، قال : ألم أشر عليكم بالانصراف ! فجملوه حينئذ من^(٣) وجوهم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتلقاهم في ذلك الوقت الفيرز بن مہزم العبدی ، فسأله عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطري ، وقال : إني مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلّوا عنه ، فني ذلك يقول في كلمة له :

فشدوا وثاقى ثم ألقوا خضومتي إلى قطري ذي الجبين المفلقي
وحاجبتهم في دينهم فحجبتهم وما دينهم غير الهوى والتخلي
ثم رجعوا وتكاثفوا^(٤) ، وعادوا إلى ناحية أركان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ، وكتب إلى مصعب :

(١) تعذيراً ؛ أي تقاتلون معي من غير تمام أو مبالغة .

(٢) ج : « فأصلحها » .

(٣) كذا في ب ، وفي ا ، ج والكمال : بحذف كلمة « من » .

(٤) في زيادات الأخفش على الكامل : « تكاثفوا ؛ أعان بعضهم بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في

كنف بعض » .

أما بعد ، فإنى لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عز وجل عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظفر ، فتفرقوا شذر مذر^(١) . وبلغنى عنهم عودة فيممتهم ؛ وبالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ، وتجاعة بن سُر فالتقوا ، فألح عليهم عمر حتى أخرجهم ، وانفرد من أصحابه ، فعمد إلى أربعة عشر رجلا من مذ كورهم وشجعانهم ؛ وفى يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلا منهم ضربة إلا صرعه ، فركض إليه قطرى على فرس طير^(٢) ، وعمر على مهر ، فاستعلاه قطرى بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرعه ، فبصر به تجاعة ، فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : يا أبا نعامه ، إن عدو الله قد رهقك^(٣) . فانحط قطرى على قرْبُوسه وطعنه تجاعة ؛ وعلى قطرى درعان فهتكهما ، وأسرع السنان فى رأس قَطْرَى ، فكشط جلده ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفهان ، فأقاموا برهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصطخر^(٤) ، فأمر تجاعة لحبى الخراج أسبوعا ؛ فقال له : كم جيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هى لك .

وقال يزيد بن الحكم لمجاعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةً مُرْهَقٍ فَأَجَبْتَهُ عُمَرُ وَقَدْ نَسِيَ الْحَيَاةَ وَضَاعَا^(٥)
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الْكَتِيبَةِ عَنْ فَتَى قَدْ كَادَ يُتْرَكُ لِحِمِّهِ أَوْزَاعَا^(٦)

قال : ثم عزل مُضْعَبُ بن الزُّبَيْر ؛ وولى عبدُ الله بن الزبير العراق ابنه حمزة

(١) شذر ، مذر ؛ بالتجريك فهما : ذهبوا فى كل وجه ؛ ومذر لإتباع .

(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز اللئب والعدو ؛ والأثنى طمرة .

(٣) رهقك : غشاك .

(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .

(٥) المرهق : هو الذى أدرك لبقته ؛ من أوهق الرجل إذا قتله . و « عمر » فاعل : « دعاك » .

(٦) العادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعا .

ابن عبد الله بن الزبير ؛ فكث قليلا ؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق ، والخوارج بأطراف
أصبهان ، والوالى عليها عتاب بن وَرْقاء الرِّياحى ؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئا
من القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ؛ فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيد الله :
ما أنصفتنا ! أقتَ بفارس تجبى الخراج ؛ ومثل هذا العدو يجتاز بك لا تحاربه ! والله
لو قاتلتَ ثم هُزمت لكان أعذر لك !

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم ؛ وأقبل عمرُ بن عبيد الله يريدهم ، فتنحى الخوارج
إلى الشوس ، ثم أتوا إلى المدائن ؛ وبسطوا فى القتل ؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ؛ حتى أتوا
المدائن^(١) ؛ فقتلوا أحمر طيء ؛ وكان شجاعا ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر ؛ وفى ذلك
يقول الشاعر :

تَرَكَتُمْ فَتَى الْفَتَيَانِ أَحْمَرَ طَيْءٍ بِسَابَاطٍ لَمْ يَمُطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ^(٢)

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادها - ووالها الحارث القباع - تناقل
عن الخروج ، وكان جباناً ؛ فذمره^(٣) إبراهيم بن الأشتر ، ولأمه الناس ؛ فخرج متحاملا
حتى أتى النخيلة ، ففى ذلك يقول الشاعر :

إِنَّ الْقَبَاعَ سَارَ سَيْراً نُكْرًا بِسِيرٍ يَوْمًا وَيُقِيمُ عَشْرًا

وجعل بعد الناس بالخروج ولا يخرج ؛ والخوارج يعيثون ؛ حتى أخذوا امرأة ، فقتلوا
أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلها ، فقالت : أقتلون مَنْ يُنْشَأُ فى الحلية
وهو فى الخصام غير مبين ! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتك ، ثم
قدموها فقتلوها .

(١) المدائن : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة .

(٢) ساباط : موضع بالمدائن ؛ يقال له : ساباط كسرى .

(٣) ذمره ، أى خضه معلوم ليجد .

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُبَاع ، والجسر معقود بينهم ؛ فقطعه القُبَاع وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهي تُقْبَل ؛ وتقول : علام تقتلونني ! فوالله ما فسقت ، ولا كفرت ، ولا زَنْيت ^(١) ، والناس يتقلبون ^(٢) إلى القتال ، والقُبَاع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذاك بقطع الجسر ، فأقام بين دَبِيرى ودَبَاها ^(٣) خمسة أيام ، والخوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتم العدو غدا ، فأثبتوا أقدامكم واصبروا ؛ فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشرع الرَّماح ، ثم السَّلة ^(٤) ؛ فشكلت رجلا أمه فرّ من الزحف !

فقال بعضهم لما أكره عليه : أما الصِّفة فقد سمعناها ، فتي يقع الفعل ؟
وقال الراجز :

إِنَّ الْقُبَاعَ سَارَ سَيْراً مَلْساً بَيْنَ دَبَاها وَدَبِيرى خَمْساً

وأخذ الخوارج حاجتهم ، وكان شأن القُبَاع التحصن منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ؛ وساروا من فورهم إلى أصبَهان ، فبعث عتّاب بن وَرْقَاء الرياحي إلى الزُّبير بن علي : أنا ابنُ عمك ، ولست أراك تقصد في انصرافك من كلِّ حَرْبٍ غيرى . فبعث إليه الزبير : إن أدنى الفاسقين وأبعدهم في الحقّ سواء .

فأقام الخوارج يُفَادُونَ عتّاب بن وَرْقَاء القتال ويُرْأَوْحُونَهُ ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شيء ؛ فلما كثر عليهم ذلك انصرفوا ؛ لا يمرّون بقرية بين أصبَهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا مَنْ فيها . وشاور المصعبُ النَّاسَ فيهم ؛ فأجمع رأيهم على

(١) الكامل : « ارتددت » .

(٢) الكامل : « يتفلتون » .

(٣) دبيري ودباها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحي بغداد .

(٤) السلة : استلال السيوف .

المهلب ، فبلغ الخوارج مُشاوَرَتَهُمْ ؛ فقال لهم قَطَرِي : إن جاءكم عَتَّاب بن وَرْقَاء ؛ فهو قَاتِكُ يَطْلُعُ في أولِ المِقْنَبِ ^(١) ولا يظفر بكثير ^(٢) ، وإن جاءكم عمر بن عُبيد الله ففارس يُقَدِّمُ ؛ إِمَّا عليه وإِمَّا لَهُ ؛ وإن جاءكم المهلب فرجلٌ لا يُنَاجِزُكم حتى تُنَاجِزوه ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعطِيكم ؛ فهو البلاء الملائم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصْعَب على توجيهِ المهلب ، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسَّ به الزبير خرج إلى الرِّمَى - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فخاربه ثم حصَّره ؛ فلما طال عليه الحِصار خرج إليه ؛ فكان الظفرُ للخوارج ، فقتل منهم يزيد الحارث بن بن رويم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشَبَا ، فقرَّ عنه وعن أمه لطيفة [وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك ، فسماها يزيد لطيفة] ^(٣) فقتلت مع بعلها ^(٤) يزيد يومئذ ، وقال الشاعر :

مواقِفُنَا في كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ أَمَرَ وَأَشْفَى مِنْ مَوَاقِفِ حَوْشَبِ
دَعَاهُ أَبُوهُ وَالرَّمَا حِ شَوَارِعُ ^(٥) فَلَمْ يَسْتَجِبْ بَلْ رَاغَ تَرَوَاغَ ثَمَلَبِ
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أَوْ ذَا حَفِيظَةٍ رَأَى مَا رَأَى فِي الْمَوْتِ عَيْسَى بْنُ مُصْعَبِ
وقال آخر :

نَجَّى حَلِيلَتَهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَهُ نَصَبَ الْأَسِنَّةَ حَوْشَبُ بْنُ يَزِيدٍ ^(٦)

(١) المِقْنَب : جماعة الخيل .

(٢) كذا في أ ، ج ، وفي ب والكمال : « بكبير » .

(٣) تكملة من كتاب الكامل

(٤) الكامل : « فقتلت معه » .

(٥) كذا في أ ، ج والكمال ، وفي ب : « تنوشه » .

(٦) نصب الأسنة ؛ أي مخافتها .

قال : ثم ^(١) انحط الزبير على أصفهان ، فحصر بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر ، وعتاب يُحارب به في بعضهن ؛ فلما طال به الحصار قال لأصحابه : ماتنتظرون ! والله ماتوثنون من قلة ؛ وإنكم لقرسان عشاركم ؛ ولقد حاربتموم مرارا فانتصفتهم منهم ؛ وما بقي مع هذا الحصار إلا أن تفتني ذخائركم ، فيموت أحدكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ؛ فقاتلوا القوم وبكم قوة من قبل أن يضمف أحدكم عن أن يمشي إلى قرنه .

فلما أصبح صلى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارئون ^(٢) ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين ؛ ومن أراد الجهاد فليخرج معي ؛ فخرج في ألفين وسبعائة فارس ؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشوم ، فقاتلهم بجدة لم تر الخوارج منهم مثله ؛ فعقروا منهم خلقا كثيرا وقتل الزبير بن علي ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتاب ، ففي ذلك يقول القائل :

وَيَوْمَ بَجَى تَلَافِيتهُ ^(٣) وَلَوْلَاكَ لَاصْطَلِمَ الْعَسْكَرُ ^(٤)

وقال آخر :

خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُسْتَمِيئًا وَلَمْ أَلِكْ فِي كَتِيبَةٍ بِأَسْمِينًا

(١) في الكامل قيل هذا الكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبي بردة يعيره بأمه ؛ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يا بن حوراء ! فقال بلال - وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيذاء ولطيفة . وزعم السكلي أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال السكلي : ويعجني أن أرى الأسير جلدا . قال : وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدى ركنك ، وغير حالك ؛ فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفا بالشريف ، مظهرا للعصبية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك يا خالد ثلاث معك هن علي : الأمر عليك مقبل وهو عني مدير ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور . وأنت في طينتك وأنا في هذا البلد غريب - وإنما جرى إلى هذا لأنه يقال : إن أصل آل أبي الأهم من الحيرة ، ولهم أشابة دخلت في بني منقر من الروم . »

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جى : اسم مدينة كانت ناحية أصفهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أييد .

أَلَيْسَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَنْ قَوْمِي غَدَوْا مُسْتَلِثِينَ مُجَاهِدِينَ^(١)
 قال : وتزعم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضهم على بعض ،
 وربما كانت مُوَاقِفَةً^(٢) بغير حَرْبٍ ، وربما اشتدت الحرب بينهم ؛ وكان رجلٌ من أصحاب
 عَتَّابٍ - يقال له : شريح ، ويكنى أبا هُرَيْرَةَ - إذا تحاجَزَ^(٣) القومُ مع المساء نادى
 بالخوارج ، والزبير :

يَا بْنَ أَبِي الْمَاحُوزِ وَالْأَشْرَارِ كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ
 شَدَّ أَبَى هُرَيْرَةَ الْهَرَّارِ يَهْرُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 أَلَمْ تَرَوْا جَيْئًا عَلَى الْمِضَارِ تُمْسِي مِنَ الرَّحْمَنِ فِي جِوَارِ

ففاظهم ذلك ، فكمن له عبيدة بن هلال ، فضر به بالسيف ، واحتمله أصحابه ، وظنت
 الخوارج أنه قد قتل ؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الهرار ؟ فيقولون : ما به من بأس ؛
 حتى أبل من عِلَّتِهِ ، فخرج إليهم ، فقال : يا أعداء الله ، أترون بي بأسا ؟ فصاحوا به : قد كنا
 نرى أنك قد لحقت بأَمَكِ الهاوية إلى النار الحامية .

[قَطْرِيَّ بن الفجاءة المازني]

ومنها قَطْرِيَّ بن الفجاءة المازني ، قال أبو العباس^(٤) :
 لما قَتَلَ^(٣) الزبير بن عليّ أدارت الخوارجُ أمرَها ، فأرادوا توليةَ عبيدة بن هلال ؛
 فقال : أدلكم على مَنْ هو خيرٌ لكم مني ؟ مَنْ يَبْاعِنُ في قُبُلٍ ، ويحمي في دُبُرٍ ؛ عليكم

(١) مستلثين : لابسين اللأمة ؛ وهي الدرع ، وفي ج : « مستلثين » .

(٢) المواقفة في الحرب والمقصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .

(٣) ج : « تأخر » .

(٤) الكامل ٦٥٢ وما بعدها (طبعة أوروبا) .

بَقَطْرِيَّ بن الفُجَاءَةِ المَازَنِيَّ . فَبَايَعُوهُ ، وَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ اَمْضِ بِنَا إِلَى فَارِسَ ، فَقَالَ :
 إِنَّ بِفَارِسَ عَمْرَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ بن مَعْمَرٍ ؛ وَلَكِنْ نَصِيرٌ إِلَى الْأَهْوَازِ ؛ فَإِنْ خَرَجَ مُصْعَبٌ مِنَ
 الْبَصْرَةِ دَخَلْنَاهَا ، فَأَتَوْا الْأَهْوَازَ ثُمَّ تَرَفَعُوا عَنْهَا عَلَى إِيذَجَ ^(١) . وَكَانَ الْمُصْعَبُ قَدْ عَزَمَ عَلَى
 الْخُرُوجِ إِلَى بَاجِيرَا ^(٢) . وَقَالَ : لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ قَطْرِيًّا لَمْ يَطْلُ عَلَيْنَا ؛ وَإِنْ خَرَجْنَا عَنْ
 الْبَصْرَةِ دَخَلَهَا ، فَبَعَثَ إِلَى الْمُهَلَّبِ فَقَالَ : اَكْفِنَا هَذَا الْعَدُوَّ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْمُهَلَّبُ ؛ فَلَمَّا
 أَحْسَنَ بِهِ قَطْرِيٌّ يَتِمُّ نَحْوَ كَرِّمَانَ ، وَأَقَامَ الْمُهَلَّبُ بِالْأَهْوَازِ ، ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِ قَطْرِيٌّ ، وَقَدْ
 اسْتَعَدَّ ، وَكَانَتْ الْخَوَارِجُ فِي حَالَتِهِمْ أَحْسَنَ عُدَّةٍ مِمَّنْ يِقَاتِلُهُمْ بِكَثْرَةِ السِّلَاحِ وَكَثْرَةِ
 الدُّوَابِّ ، وَحَصَانَةِ الْجُنَيْنِ ^(٣) . فَخَارَبَهُمُ الْمُهَلَّبُ ، فَدَفَعَهُمْ فَصَارُوا إِلَى رَامَهْرُمُزَ ؛ وَكَانَ
 الْحَارِثُ بن عُمَيْرَةَ الْهَمْدَانِيَّ قَدْ صَارَ إِلَى الْمُهَلَّبِ مَرَاغِمًا لِعَتَابِ بن وَرْقَاءَ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يُرْضِهِ ؟
 عَنْ قَتْلِهِ الزُّبَيْرِ بن عَلِيٍّ ، وَكَانَ الْحَارِثُ بن عُمَيْرَةَ ، هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ وَخَاضَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَنَفَى
 ذَلِكَ يَقُولُ أَعْشَى هَمْدَانٍ :

إِنَّ الْمَسْكَرِمَ أَكْمَلَتْ أَسْبَابُهَا لَا بِنَ اللَّيْثِ الْغُرِّ مِنْ هَمْدَانَ ^(٤)
 لِلْفَارِسِ الْحَامِي الْحَقِيقَةِ مُعَلِّمًا زَادَ الرَّفَاقُ وَفَارِسَ الْفُرْسَانَ ^(٥)

(١) إِيذَجَ ، بِكَسْرِ الهمزة وَفَتْحِ الذَّالِ : بَلَدٌ بَيْنَ خَوْزِسْتَانَ وَأَصْبَهَانَ .

(٢) بَاجِيرَا ، بِضَمِّ الْجِيمِ وَفَتْحِ الْمِيمِ وَبَاءِ سَا كُنَّةٍ : مَوْضِعٌ دُونَ تَسْكُرَيْتَ .

(٣) الْجُنَيْنُ : جَمْعُ جَنَّةٍ ؛ وَهِيَ الدَّرْعُ .

(٤) دِيوَانَ الْأَعَشِينَ ٣٤٣ ، وَرَوَايَتُهُ : « مِنْ قَطْطَانِ » ، وَهِيَ رَوَايَةُ السَّكَّامِلِ أَيْضًا :

(٥) دِيوَانَ الْأَعَشِينَ وَالسَّكَّامِلِ : « زَادَ الرَّفَاقُ إِلَى قَرْيَةِ نَجْرَانَ » قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَتَأْوِيلُهُ أَنَّ الرِّفْقَةَ إِذَا
 صَحَبَهَا أَغْنَاهَا عَنِ التَّرَدُّدِ ؛ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ : وَأَرَادَ ابْنُ لَهْ سَفَرًا ، وَفِي ذَلِكَ السَّفَرِ يَحْيَى بن أَبِي حَفْصَةَ ؛ فَقَالَ
 لِأَبِيهِ : زُودْنِي ؛ فَقَالَ جَرِيرٌ :

أَزَادًا سَوَى يَحْيَى تَرِيدُ وَصَاحِبًا أَلَا إِنْ يَحْيَى نَعَمَ زَادَ الْمَسَافِرِ
 فَمَا تُنْكَرُ الْكُومَاءُ ضَرْبَةً سَيْفِهِ إِذَا أَرْمَلُوا أَوْ خَفَّ مَا فِي الْغَرَائِرِ

وَزَادَ فِي الدِّيَوَانِ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

حَتَّى تَدَارَكَهُمْ أَغْرٌ سَمِيدَعٌ فَجَاهَهُمْ إِنْ الْكَرِيمَ يَمَانُ

الحارث بن عَمِيرَةَ اللَّيْثِ الَّذِي يَحْمِي الْعِرَاقَ إِلَى قُرَى نَجْرَانَ^(١)
وَدَّ الْأَزْرَاقُ لَوْ بَصَابُ بَطْنَةِ وَيَمُوتُ مِنْ فِرْسَانِهِم مَائَتَانِ
قال أبو العباس: وبخرج مُصْعَبُ إِلَى بَاجِيزَا ، ثُمَّ أَتَى الْخَوَارِجَ خَبْرُ مَقْتَلِهِ بِمَسْكِنٍ ،
وَلَمْ يَأْتِ الْمُهَلَّبُ وَأَصْحَابُهُ ، فَتَوَاقَفُوا يَوْمًا بِرَأْسِ مَهْرُومٍ عَلَى الْخَنْدَقِ ، فَناداهم الْخَوَارِجُ : مَا تَقُولُونَ
فِي مُصْعَبٍ ؟ قَالُوا : إِمَامٌ هَدَى ، قَالُوا : مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالُوا : ضَالٌّ مُضَلٌّ ، فَلَمَّا
كَانَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَتَى الْمُهَلَّبُ قَتْلُ الْمُصْعَبِ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَوَرَدَ
عَلَيْهِ كِتَابُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِوَلَايَتِهِ ؛ فَلَمَّا تَوَاقَفُوا نَادَاهُم الْخَوَارِجُ : مَا تَقُولُونَ فِي الْمُصْعَبِ ؟ قَالُوا :
لَا نَخْبِرُكُمْ ؛ قَالُوا : مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالُوا : إِمَامٌ هَدَى ، قَالُوا : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، بِالْأَمْسِ
ضَالٌّ مُضَلٌّ ؛ وَالْيَوْمَ إِمَامٌ هَدَى ! يَا عِبِيدَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ .

وروي أبو الفرج الأصفهاني في كتاب " الأغاني الكبير " ، قال :^(٢) كانت
الشُّرَاةُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي حَرْبِ الْمُهَلَّبِ وَقَطْرَى يَتَوَاقَفُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ عَنْ أَمْرِ الدِّينِ
وغير ذلك ، عَلَى أَمَانٍ وَسُكُونٍ ، لَا يَهْبِجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَتَوَاقَفَ يَوْمًا عُبَيْدَةُ بْنُ هَلَالٍ
الْيَشْكُرِيُّ ، وَأَبُو حُرَابَةَ^(٣) التَّمِيمِيُّ ، فَقَالَ عُبَيْدَةُ : يَا أَبَا حُرَابَةَ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ ،
أَفْتَصِدُقُنِي عَنْهَا فِي الْجَوَابِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ إِنْ ضَمَنْتَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، قَالَ :
فَسَلْ عَنَّا بِدَالِكَ ، قَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي أُمَّتِكُمْ ؟ قَالَ : يَبِيحُونَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، قَالَ : وَيَحْكُ!
فَكَيْفَ فَعَلُهُمْ فِي الْمَالِ ؟ قَالَ : يَجْبُونَهُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ ، وَيُنْفِقُونَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِ ، قَالَ :
فَكَيْفَ فَعَلُهُمْ فِي الْيَتِيمِ ؟ قَالَ : يَظْلِمُونَهُ مَالَهُ ، وَيَمْنَعُونَهُ حَقَّهُ ، وَيَنْدِيكُونَ أُمَّهَ ، قَالَ : وَيَحْكُ
يَا أَبَا حُرَابَةَ ! أَمِثْلَ هَؤُلَاءِ تَدْبِيعُ ! قَالَ : قَدْ أَجَبْتُكَ ، فَاسْمَعْ سَوْأِي ، وَدَعِ عِتَابِي عَلَى رَأْيِي ،

(١) الديوان : « إلى قرى كرمان » .

(٢) الأغاني ٦ : ١٤٩ وما بعدها (طبعة الدار) .

(٣) هو الوليد بن ؛ حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية

قال : سل ، قال : أىّ الخمر أطيب ؟ خمر السهل أم خمر الجبل ؟ قال : ويحك ! أمثلئ يسأل عن هذا ! قال : قد أوجبت على نفسك أن تجيب ، قال : أما إذا أبيت : فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأبلس ، قال : فأىّ الزواني أفقره ؟ أزواني رامهرمز ، أم زواني أرجان ؟ قال : ويحك ! إنّه مثلي لا يسأل عن هذا . قال : لا بدّ من الجواب أو تفدّر .

قال : أما إذ أبيت فزواني رامهرمز أرقّ أبشاراً ، وزواني أرجان أحسن أبداناً . قال : فأىّ الرجلين أشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لا بدّ أن تجيب ، قال : أيهما الذى يقول :

وطوى الطرادُ مع القياد بطونها طوى التّجار بحضرموت برودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرهما .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا في أمر جرير والفرزدق في عسكر المهلب ؛ حتى توائبوا ، وصاروا إليه محكّمين له في ذلك ، فقال : أتريدون أن أحكم بين هذين الكلبين المتهارشين ، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ؛ ولكنى أدلكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يهون عليه سبابهما ؛ عليكم بالشرأة ، فاسألوهم إذا تواقفتم . فلما تواقفوا سأل أبو حُرابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

وروى أبو الفرج أنّ^(١) امرأةً من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة ، يقال لها أمّ حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجلهم وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكاً ، وخطبها

جماعة منهم فردتهم ولم تجبهم ؛ فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَمِمْتُ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَأْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
* أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ *

والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات ؛ فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلاً .

وروى أبو الفرج ^(١) ، قال : كان عبدة بن هلال ، إذا تكافت الناس ناداهم : ليخرج إلى بعضكم ؛ فيخرج إليه فتیان من عسكر المهلب ؛ فيقول لهم : أيتما أحب إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر ؟ فيقولون له : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ؛ ولكن نشدنا ، فيقول : يا فسقة ؛ قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ! ثم لا يزال يُنشدُهم حتى يملؤا ويفترقوا .

قال أبو العباس ^(٢) : وولى خالد بن عبد الله بن أسيد فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب ، فأشير عليه بالآ لا يفعل ؛ وقيل له : إنما أمن [أهل] ^(٣) هذا المضر ؛ لأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبید الله بفارس ؛ فقد تنحى عمر ، وإن تحييت المهلب لم تأمن على البصرة . فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه ^(٤) ، فلما صار بكرج بيج دينار لقيه قطري ، فمنعه حطاً أنقاله ، وحارب به ثلاثين يوماً .

ثم أقام قطري بإزائه ، وخندق على نفسه ، فقال المهلب لخالد : إن قطرياً ليس

(١) الأغاني ٦ : ١٥١ (طبعة الدار) .

(٢) الكامل ٦٥٤ (طبعة أوربا) .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : فأشخصه .

بأحق بالخندق منك ، فعبر دُجَيْلاً إلى شقّ نهرِ تيرى ، واتبعه قطرى فصار إلى مدينة نهرِ تيرى ، فبنى سورَها ، وخندق عليها ، فقال المهلب لخالد : خندق على نفسك ، فإنى لا آمنُ البيّات ، فقال : يا أبا سعيد ، الأمرُ أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعضِ ولده : إني أرى أمراً ضائعاً ، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فحندق المهلب على نفسه ، وأمر بسفنه ففترغت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز بن حصين : صر معنا ؛ فقال : يا أبا سعيد ، إن الحزم ما تقول ، غير أنى أكره أن أفارق أصحابى ، قال : فكن بقرُ بنا ، قال : أما هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ ففعل ، فقدم عليه عبد الرحمن ، فأقام قطرى يُغادِيهم القتال ويُرَاحهم أربعين يوماً ؛ فقال المهلب لمولى أبى عيينة : سرّ^(١) إلى ذلك النّاوس ، فبت عليه كل ليلة ، فتي أحسست خبراً للخوارج ، أو حركةً أو سهيلَ خيل ، فانجَل إلينا .

فجاء ليلة ، فقال : قد تحرك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قطرى سفناً فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سُفن خالد ، وخرج في أدبارها ، حتى خالطهم ، لا يمرّ برجلٍ إلا قتله ، ولا بدابةً إلا عقرها ، ولا بفُسطاطٍ إلا هتكه ؛ فأمر المهلب يزيد ابنه ، فخرج في مائة فارس . فقاتل ، وأبلى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاءً حسناً ، وخرج فيروز بن حصين في مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنشاب هو ومن معه ، فأثر أثرًا جميلاً ، وصُرِعَ يزيد بن المهلب يومئذ ، وصُرِعَ عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فحامي عنهما أصحابُهما ؛ حتى ركبا ، وسقط فيروز بن حصين في

(١) كذا في ب ، وفي ج : « شد » ، وفي الكامل : « انبذ » ، أى سره منفرداً . والنّاوس في الأصل : مقابر النصارى .

الخنديق ، فأخذ بيده رجل من الأزْد ؛ فاستنقذه ؛ فوَهَبَ له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح
عسكر خالد ، كأنه حرّة سوداء ^(١) ، فجعل لا يرى إلا قتيلا أو جريحا ؛ فقال للمهلب :
يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خَنَدِقْ على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال :
اكفني أمرَ الخندق ، فجمع له الأحماس ^(٢) فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم
الخوارج : والله لولا هذا الساحر المزُوني ، لكَانَ الله قد دَمَّرَ عليكم - وكانت الخوارجُ
تسمي المهلبَ الساحر - ، لأنهم كانوا يدبرون الأمرَ فيجدون المهلبَ قد سبق
إلى نقض تديبرهم .

وقال أعشى همدان لابن الأشعث ، يذكره بلاء القحطانية عنده ؛ في كلمة طويلة ^(٣) :

وَيَوْمَ أَهْوَازِكَ لَا تَنْسَهُ لَيْسَ الثَّنَا وَالذِّكْرُ بِالْبَائِدِ

ثم مضى قَطَرِيٌّ إلى كَرْمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطريّ بِكَرْمَانَ
شهراً ، ثم عمِدَ لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز ونَدَبَ الناس للرحيل ؛ فجعلوا يطلبون
المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلبُ بحظّ هذا المضر ؛ إني قد وليت أخى قتال الأزارقة .
فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلبَ على الأهواز في ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز
والخوارج بدرا بجرّد وهو في ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه : يزعم أهلُ
البصرة أن هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلب ؛ سيعلمون !

قال صقعب ^(٤) بن يزيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءني كَرْدُوسُ ،

(١) الحرّة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنما أحرقت بالنار .

(٢) الأحماس : جمع حمس ، جمع الأحمس ؛ وهم الشجعان المتشددون في القتال .

(٣) ديوان الأعشى ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا بِالْحَضَرِ فالروضة من آمدِ

دَارُ لُحُودِ طِفْلَةٍ رُوْدَةٍ بَانَتْ فَأَمْسَى حَبْهَا عَامِدِي

(٤) الكامل : « صعب بن زيد » .

حاجب المهلب، فدعاني، فجئت إلى المهلب وهو في سطح، وعليه ثياب هَرَوِيَّة، فقال: يا صَغْب؛ أنا ضائع كأتى أنظر إلى هزيمة عبد العزيز، وأخشى أن توافيني الأزارقة، ولا جند معي، فابث رجلا من قبلك يأتيني بخبرهم سابقا إلىَّ به، فوجهت رجلاً من قبلي يقال له عمران بن فلان؛ وقلت له: اصحب عسكر عبد العزيز، واكتب إلىَّ بخبر يوم فيوم؛ فجعلت أورده على المهلب، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة، فقال له الناس: هذا منزل، فينبغي أن تنزل فيه أيتها الأمير؛ حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا، فقال: كلاً، الأمر قريب؛ فنزل الناس عن غير أمره، فلم يستتم النزول؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع في خمسمائة فارس؛ كأنهم خيط ممدود، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة، ثم انهزموا عنه مكيدة، واتبعهم فقال له الناس: لا تتبعهم؛ فإننا على غير تعبئة، فأبى؛ فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبة، فاقتحمها وراءهم والناس ينهونه ويأبى، وكان قد جعل على بني تميم عُبْس بن طلق الصَّرِيمِي الملقب عُبْس الطَّعَان، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسمع، وعلى شُرطته رجلا من بني ضُبَيْعة بن ربيعة بن نزار. فنزلوا عن العقبة، ونزل خلفهم و[كان] ^(١) لهم في بطن العقبة كمين، فلما صاروا من ورائها؛ خرج عليهم الكمين، وعطف سعد الطلائع، فترجل عبس بن طلق، فقتل وقتل مقاتل بن مسمع، وقتل الضُّبَيْعِي، صاحب شُرطة عبد العزيز، وانحاز عبدُ العزيز واتبعهم الخوارج فرسخين يقتلونهم كيف شاءوا، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أم حفص بنت المنذر بن الجارود امرأته، فسبوا النساء يومئذ، وأخذوا أسارى لا تحصى، فخذفُوهم في غارٍ بعد أن شدُّوهم وثاقا، ثم سدُّوا عليهم بابه، حتى ماتوا فيه.

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم: رأيتُ عبد العزيز، وإن ثلاثين رجلا ليضربُوْنه

بسيوفهم؛ فأتحيكُ في جنبه^(١)، ونودي على السَّبي يومئذ، فعُولِي بأم حَنَص، فبلغ بها رجل سبعين ألفا، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا، ولحقوا بالخواارج، فقرَضوا لكل رجل منهم خمسمائة، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أم حَفص، فشَقَّ ذلك على قَطْرِي، وقال: ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا؛ إن هذه لِفِتْنَةٌ! فوثب عليها أبو الحديد العبدى فقتلها؛ فأتى به قَطْرِي، فقال: مَهْمَ^(٢) يا أبا الحديد! فقال: يا أمير المؤمنين؛ رأيت المؤمنين تزايدوا في هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة، فقال قَطْرِي: أحسنت، فقال رجل من الخوارج:

كَغَانَا فِتْنَةً عَظُمَتْ وَجَلَّتْ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ سَيْفُ أَبِي الْحَدِيدِ

أَهَابَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا وَقَالُوا عَلَى فَرَطِ الْهَوَى هَلْ مِنْ مَزِيدٍ!^(٣)

فَزَادَ أَبُو الْحَدِيدِ بِنَصْلِ سَيْفِ رَقِيقِ الْحَدِّ فَعَلَ فَتَى رَشِيدِ

وكان العلاء بن مطرف السعدى ابن عم عمرو القنا، وكان يحب أن يلقاه في

صدر مبارزة^(٤)، فلحقه عمرو القنا يومئذ؛ وهو منهزم، فضحك منه وقال متمثلا:

تَمَنَّا نِي لِيَلْقَانِي لَقِيطُ أَعَامَ لَكَ ابْنُ صَعْصَعَةَ بْنِ سَعْدٍ^(٥)

ثم صاح به: انج يا أبا المصدى^(٦)، وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين:

(١) قال المبرد: «يقال: ما أحاك فيه السيف، وما يحبك فيه؛ وما حك ذا الأمر في صدرى، وما حكى في صدرى، وما احتكى في صدرى». ويقال: حاك الرجل في مشيته يحكى إذا تبختر.

(٢) مهم: حرف استفهام، معناه: ما الخبر؟ وما الأمر؟ فهو دال على ذلك مخذوف الخبر.

(٣) أهاب به: أعلن.

(٤) الكامل: «في تلك الحروب مبارزة».

(٥) البيت من شرح سيبويه ١: ٣٢٩، في باب المنادى، ونسبه لشریح بن الأحوس، ونسبه المبرد في الكامل إلى يزيد بن الصعق وفي شرح الشواهد للأعلم: «الشاهد في قوله: «لك»، والمعنى: يا عامر، دعائى لك، والمعنى معنى التعجب؛ كما تقول: يالأك فارسا!؛ أى يا هذا دعائى لك من فارس؛ أى أعجب لك في هذه الحال... وكان لقيط بن زرارمة التميمى قد تواعد الأحوس أبا شريح السكلابى، وتغنى أن يلقاه فيقتله؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بنى عامر من تمنيه لقتله وتوعده له... وأراد عامر ابن صمصعة فرخم».

(٦) هى كنية عمر القنا.

إحداها من بنى ضَبَّة ، يقال لها أم جميل ، والأخرى بنت عمه ؛ يقال لها فلانة بنت عَمِيل ، فطلق الضَّبَّة ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال في ذلك :

أَلَسْتُ كَرِيماً إِذْ أَقُولُ لِفَتَيْتِي قِفُوا فَاحْمِلُوهَا قَبْلَ بِنْتِ عَمِيلٍ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عُودِي نُضَاراً لَأُضْبَحَتْ تُجَرٌّ عَلَى الْمُتَنِّينِ أُمَّ جَمِيلٍ^(١)

قال الصقعب بن يزيد : وبعثنى المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أُرَبَك^(٢) عَلَى فَرَسٍ اشْتَرَيْتَهُ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ ؛ فَلَمْ أَحْسَ خَبْرًا ، فَسَرْتُ مُهَجِّراً^(٣) إِلَى أَنْ أَمْسَيْتُ ؛ فَلَمَّا أَمْسَيْنَا وَأَظْلَمْنَا ، سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ عَرَفْتُهُ مِنَ الْجَهَاضِمِ ، فَقُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : الشَّرُّ ، قُلْتُ : فَأَيْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؟ قَالَ : أَمَامَكَ ؛ فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ ؛ إِذَا أَنَا بِرُهَاءِ خَمْسِينَ فَارِسًا مَعَهُمْ لَوَاءً ، فَقُلْتُ : لَوَاءٌ مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : لَوَاءُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ مَا كَانَ ، فَإِنَّكَ كُنْتَ فِي شَرِّ جُنْدٍ وَأَخْبَشِهِ ، قَالَ لِي : أَوْ كُنْتَ مَعْنَا ؟ قُلْتُ : لَا ؛ وَلَكِنْ كَأَنِّي شَهِدْتُ أَمْرَكَ ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى الْمَهْلَبِ وَتَرَكْتُهُ ، فَقَالَ لِي : مَا وَرَاءَكَ ؟ قُلْتُ : مَا يَسْرُكَ ؛ هُزِمَ الرَّجُلُ وَقُلَّ جَيْشُهُ ؛ فَقَالَ : وَيْحَكَ ! وَمَا يَسْرُنِي مِنْ هَزِيمَةِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقُلَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ! قُلْتُ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، سَاءَكَ أَوْ سَرَّكَ ؛ فَوَجَّهَ رَجُلًا إِلَى خَالِدٍ يُخْبِرُهُ بِسَلَامَةِ أَخِيهِ . قَالَ الرَّجُلُ : فَلَمَّا خَبَّرْتَ خَالِدًا ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَوْ مِتُّ ، وَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَكَذَّبَنِي ، فَقَالَ لِي خَالِدٌ : وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَكَ ، فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَاقْتُلْنِي ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَعْطِنِي مُطَرَفَ هَذَا الْمُتَكَلِّمِ ، فَقَالَ خَالِدٌ : لَبِئْسَ مَا أَخْطَرْتَ بِهِ دَمَكَ ! فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْقَفْلِ ، وَقَدِمَ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَوَاقِ الْأَهْوَازِ ، فَأَكْرَمَهُ الْمَهْلَبُ وَكَسَاهُ ، وَقَدِمَ مَعَهُ عَلَى خَالِدٍ ، وَاسْتَخْلَفَ الْمَهْلَبُ ابْنَتَهُ حَبِيبَا ، وَقَالَ لَهُ : تَجَسَّسْ عَلَى الْأَخْبَارِ ، فَإِنْ

(١) الكامل : « تُجَرٌّ عَلَى الْمُتَنِّينِ » .

(٢) أُرَبَك : قرية بنحو زستان .

(٣) مهجرا : وقت الهاجرة .

أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك ؛ فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى . فلما أحسَّ حبيب بهم ، دخل البصرة وأعلم خالداً بدخوله ، فغضب وخاف حبيب منه ، فاستتر في بني عامر بن صعصعة ، وتزوج هناك في استناره الهلالية ، وهى أم ابنه عباد بن حبيب . وقال الشاعر لخالد يُفَيِّلُ ^(١) رأيه :

بعثت غلاماً من قريش فروقةً وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلباً ^(٢)
أبى الذَّمَّ واختارَ الوفاءَ وأحكمتُ قواه ، وقد سأس الأمورَ وجرباً
وقال الحارث بن خالد المخزومي :

فرَّ عبدُ العزيزِ إِذْ رَأَى عِيسَى وابنَ داودَ نازلاً قطرياً ^(٣)
عاهدَ اللهَ إِن نَجَا من مِلْمَنَايا ليعودنَ بعدَها حُرُمياً ^(٤)
يسكنُ الخُلَّ ^(٥) والصفاحَ فغورياً نَ مراراً ومرةً نجدياً
حيثُ لا يشهدُ القتالَ ولا يسمعُ يوماً لكرٍّ خيلٍ ذويًا

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى أمير المؤمنين صانعاً بي ؟ قال : يعزلك ، قال : أترأه قاطعاً رحي ! قال : نعم ؛ قد أتته هزيمة أمية أخيك ^(٦) ففعل - يعنى هرب أمية من سجستان - فكتب عبد الملك إلى خالد :

(١) يفيل رأيه : يخطئه .

(٢) الفروقة : شديد الفزع .

(٣) فى الكامل :

فرَّ عبدُ العزيزِ لما رأى الأبطالَ فى السفحِ نازلُوا قطرياً

(٤) قال اللرد : العرب تنسب الحرم فيقولون : حرمة وحرمة

(٥) الخل والصفاح وغوريان مواضع ، ورواية البيت فى الكامل :

يسكنُ الخُلَّ والصفاحَ فرا نَ وسلعاً وتارةً نجدياً

(٦) عبارة الكامل : « أتته هزيمة أمية أخيك من البحرين وتأتته هزيمة أخيك عبد العزيز من

أما بعد ؛ فإني كنت حَدَدْتُ لَكَ حَدًّا فِي [أمر] ^(١) المهلب ؛ فلما ملكْتَ أمرك ،
نبئت طاعتي ورائك ، واستبددت برأيك ؛ فوليت المهلب الجبابة ، ووليت أخاك
حَرْبَ الأزارقة ؛ فقَبَّحَ اللهُ هذا رأيا ؛ أتبعْتُ غلامًا غِرًّا لم يجرَّبَ الأمور والحروب للحرب ؛
وتترك سيدًا شجاعًا مدبرًا جازمًا قد مارس الحروب فقلج ^(٢) ؛ فشغلته بالجبابة ؛ أما لو كافأناكَ
على قدر ذنبك لأناكَ من نكيري ما لا بقيَّةَ لك معه ! ولكن تذكَّرتُ رحمتي فكففتني
عنك ؛ وقد جلت عقوبتك عَزَّكَ . والسلام .

قال : وولَّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة ؛ وكتب إليه :
أما بعد ؛ فإنك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك وإياه مروان بن الحكم ؛ وإنَّ خالدًا
لا يجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهلب بن أبي صفرة ، فوله حَرْبُ الأزارقة ؛
فإنه سيد بطل مجرَّب ، وامدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .
فشقَّ على بشر ما أمره به في المهلب ؛ وقال : والله لأقتلنه ، فقال له موسى بن نصير :
أيها الأمير ؛ إنَّ للمهلب حِفاظًا ووفاء وبلاء .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ؛ فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربيع
إلى المهلب أن يتلقاه لقاء لا يعرفه به ؛ فتلقاه المهلب على بَعلٍ ، وسلم عليه في غمار ^(٤)
الناس ؛ فلما جلس بشر مجلسه ، قال : ما فعل أميركم المهلب ؟ قالوا : قد تلقاك أيها الأمير ،
وهو شاك .

فهمَّ بشر أن يولَّى حَرْبَ الأزارقة عمر بن عبيد الله بن معمر ؛ وشيَّد عَزَّمَهُ أسماء

(١) من الكامل .

(٢) ج : « فاستبددت » .

(٣) فلج : ظفر واتصر .

(٤) غار ، بكسر الغين : جمع غمرة ؛ والغمرة المزدهم . وفي الكامل : « خار الناس » ، وخار
الناس كثرهم وزحمتهم وجاءتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّاك أمير المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عكرمة بن ربیع : اكتب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبصرة من يغني غناءه ، ووجه بالكتاب مع وفد أوفدهم إليه رئيسهم عبد الله بن حكيم الجاشعي .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب خلا بصدد الله ، فقال له : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمنّ لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلب ؛ قال : إنه عليل ، قال : ليست علّته بمانعة ^(١) ، فقال عبد الملك : لقد أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولّي المهلب الحرب ، فوجه إليه ، فقال : أنا عليل ، ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشر بحمل الدّواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بشر بالخروج ؛ فقطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ألا يقيم بعد ثلاثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلقوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا بالقرات ، فخرج المهلب حتى صار إلى شَهار طاق ؛ فأتاه شيخ من بني تميم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إن سني ماترى ، فهبني لعيالي ، فقال ^(٢) : على أن تقول للأمير إذا خطب فحسك على الجهاد : كيف تحمّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبس عنه أشرافنا ، وأهل النجدة منا ! فقل الشيخ ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى للمهلب رجلاً ألف درهم ، على أن يأتي بشرأ فيقول له : أيها الأمير ، أعني ^(٣) المهلب بالشرطة والمقاتلة ؛ ففعل الرجل ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحة حضرتني للأمير والمسلمين ؛ ولا أعود إلى مثلها ؛ فأمدّه بشر بالشرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف ؛ من كل رُبْع ألفين ، ويوجه بهم مدداً للمهلب .

(١) الكامل : « بمانعته » .

(٢) ساقطة من ج .

(٣) ب : « أغن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مَخْنَفِ الْأَزْدِيِّ ^(١) يعقده ، واختار من كل رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرِير بن عبد الله الْبَجَلِيّ ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانيّ ، وعلى رُبْع كِنْدَةَ محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدِيّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجِيّ ؛ فقدموا على بِشْر بن مروان ، فخلا بعبد الرحمن بن مَخْنَفِ ، وقال له : قد عرفت رأيي فيك ، وثقتي بك ؛ فكان عند ظني بك ؛ وانظر إلى هذا المزونِيّ ، فخالقه في أمره ، وأفسد عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ما عَجَبَ ما طَلَبَ ^(٢) مِنِّي هذا الغلام ! يأمرني أن أصغر شأن ^(٣) شيخٍ من مشايخ أهلي ، وسَيِّد من ساداتهم ! فلحق بالمهلب .

فلما أحسَّ الأزارقة بدنوّ المهلب منهم انكشفوا عن الفُرات ، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها ؛ ثم اتبعهم إلى رَامَهْرْمَز فهزمهم عنها ، فدخلوا فارسَ ، وأبلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاءً شديداً ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجّه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح : أيها الأمير ؛ إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلب ؛ ولئن والله قتلتهم لتقعدن في بيتك ؛ ولكن طاولهم ، وكلّ بهم . فقال : ليس هذا من الوفاء ؛ فلم يلبث برامَهْرْمَز إلا شهرا ؛ حتى أتاه موت بِشْر بن مروان .

فاضطرب الجند على ابن مَخْنَفِ ، فوجه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألا يبرحا ، فلفقا له ولم يفيّا ، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا

(١) الكامل : « فقد » .

(٢) كذا في ١ ، ج ، وفي الكامل ، وب : « طمع » .

(٣) ج : « رأى » .

بُسُوقِ الْأَهْوَازِ ؛ وَأَرَادَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ الْإِنْسِلَالَ مِنَ الْمَهْلَبِ ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ : إِنْكُمْ لَسْتُمْ كَأَهْلِ الْكُوفَةِ ؛ إِنَّمَا تَذَبُّونَ عَنْ مِصْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَحَرَمِكُمْ .
فَأَقَامَ مِنْهُمْ قَوْمٌ ، وَتَسَلَّلَ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرٌ .

وَكَانَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خَلِيفَةً بِشَرِّ بْنِ مَرْوَانَ ، فَوَجَّهَ مَوْلَى لَهُ بِكِتَابٍ مِنْهُ إِلَى مَنْ بِالْأَهْوَازِ ؛ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَجْتَهِدًا ؛ لَنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَرَاكِرِهِمْ ، وَانْصَرَفُوا عَصَاةً لَا يَنْظُرُ بِأَحَدٍ إِلَّا قَتَلَهُ . فَجَاءَهُمْ مَوْلَاهُ ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ، وَلَا يَرَى فِي وَجُوهِهِمْ قَبُولًا ؛ فَقَالَ : إِنِّي أَرَى وَجُوهًا مَا الْقَبُولُ مِنْ شَأْنِهَا ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ زَخْرَ : أَيُّهَا الْعَبْدُ ؛ اقْرَأْ مَا فِي الْكِتَابِ ، وَانْصَرَفْ إِلَى صَاحِبِكَ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا فِي أَنْفُسِنَا ، وَجَعَلُوا يَسْتَحْثُّونَهُ بِقِرَاءَتِهِ ؛ ثُمَّ قَصَدُوا قَصْدَ الْكُوفَةِ ؛ فَتَزَلُّوا التَّخْيِيلَةَ ، وَكَتَبُوا إِلَى خَلِيفَةِ بَشَرٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَأْذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْكُوفَةِ ؛ فَأَبَى ، فَدَخَلُوهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ .

فَلَمْ يَزَلِ الْمَهْلَبُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوَادِهِ وَابْنُ خَنْفٍ ؛ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَلِيَ الْحَجَّاجُ الْعِرَاقَ .

فَدَخَلَ الْكُوفَةَ قَبْلَ الْبَصْرَةِ ؛ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ؛ فَخَطَبَهُمُ الْخُطْبَةُ الْمَشْهُورَةُ ^(١) ، وَتَهَدَّدَهُمْ ؛ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ لَوُجُوهِ أَهْلِهَا : مَا كَانَتْ الْوَلَاةُ تَفْعَلُ بِالْعَصَاةِ ؟ قَالُوا : كَانَتْ تَضْرِبُ وَتَحْبَسُ ، فَقَالَ : وَلَكِنْ لَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي إِلَّا السَّيْفُ ؛ إِنْ الْمُسْلِمِينَ لَوْ لَمْ يَغْزُوا الْمَشْرُكِينَ لَغْزَاهُمُ الْمَشْرُكُونَ ، وَلَوْ سَاغَتْ الْمَعْصِيَةُ لِأَهْلِهَا ، مَا قُوتِلَ عَدُوٌّ ، وَلَا جُبِيَ فَيْءٌ ، وَلَا عَزَّ دِينٌ .

ثُمَّ جَلَسَ لِتَوْجِيهِ النَّاسِ ، فَقَالَ : قَدْ أَجَلْتُكُمْ ثَلَاثًا ، وَأَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ مِنْ

(١) فِي الْكَامِلِ : « وَقَدْ ذَكَرْنَا الْخُطْبَةَ مُتَقَدِّمًا » ؛ وَهِيَ فِي الْكَامِلِ ٢١٧ (طَبْعَةُ أَوْرِبَا) .

أصحاب ابنِ مُخَنَّفٍ بَعْدَهَا إِلَّا قَتَلْتُهُ . ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِ حَرَسِهِ وَلِصَاحِبِ شُرْطَتِهِ ^(١) : إِذَا مَضَتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، فَاسْخُذَا ^(٢) سِیُوفَكُمَا . ^(٣) فَجَاءَهُ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ [الْبُرْجُمِيُّ] ^(٤) بِابْنِهِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنَّ هَذَا أَنْفَعُ لَكُمْ مِنِّي ؛ وَهُوَ أَشَدُّ بَنِي تَمِيمٍ أَبْدَانًا ^(٥) ، وَأَجْمَعُهُمْ سِلَاحًا ، وَأَرْبَطَهُمْ جَاشَأً ؛ وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيلٌ ؛ وَاسْتَشْهَدْ [جُلُوسًا] ^(٦) ؛ فَقَالَ لَهُ الْحُجَّاجُ : إِنَّ عَذْرَكَ لَوَاضِحٌ ، وَإِنْ ضَعْفَكَ لَكَبِيْنٌ ؛ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَحْتَمِلَ بِكَ النَّاسُ عَلَيَّ ؛ وَبَعْدُ ؛ فَأَنْتَ ابْنُ ضَابِيٍّ صَاحِبِ عُمَانَ ، وَأَمْرٌ بِهِ فَتَلِمْ ^(٧) ؛ فَاحْتَمَلَ النَّاسُ ؛ وَإِنْ أَحَدُهُمْ لَيُتَّبِعُ بَزَادَهُ وَسِلَاحَهُ ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ [عَبْدُ اللَّهِ] ^(٨) : بَنُ الزَّيْبِرِ الْأَسَدِيُّ ^(٩) :

أَقُولُ لِعَبْدِ اللَّهِ يَوْمَ لَقِيْتُهُ أَرَى الْأَمْرَ أُمْسَى مُنْصَبًا مُتَشَعِّبًا ^(١٠)

(١) الكامل : « شرطه » .

(٢) الكامل : « فاسخذا » .

(٣-٣) وفي رواية أخرى للبرد ٢١٧ : « فوضع للناس أعطياتهم ؛ فحملوا بأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبرا ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إني من الضعف على ما ترى ، ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني ؛ فتقبله بدلامي ؛ فقال الحجاج : ففعل أيها الشيخ ؛ فلما ولي قال له قاتل (هو عنبسة بن سعيد الأموي) : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا . قال : هذا عمير بن ضابي البرجمي الذي يقول أبوه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُمَانَ تَبْكِي حِلَالُهُ

وَدَخَلَ هَذَا الشَّيْخُ عَلَى عُمَانَ مَقْتُولًا ؛ فَوَطِئَ بَطْنَهُ ، فَكَسَرَ ضُلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ . فَقَالَ : رَدَوْهُ ؛ فَلَمَّا رَدَّ قَالَ لَهُ الْحُجَّاجُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ؛ هَلَا بَعَثْتَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانَ بِدَلَا يَوْمَ الدَّارِ ! لَأَنِّي فِي قَتْلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ لَصَاحِقًا لِلسَّاهِنِ ؛ يَاحَرَسِي ، أَضْرِبْ عُنُقَهُ ؛ فَحَمَلَ الرَّجُلُ يَضِيقُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ فَيَرْتَحِلُ ، وَيَأْمُرُ وَلِيَهُ أَنْ يُلْحَقَهُ بَزَادَهُ ؛ فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ الْآيَاتِ . وَانْظُرِ الشَّمْرَ وَالشَّعْرَاءَ ٣١١ ، وَطَبَقَاتِ الشَّعْرَاءِ لِابْنِ سَلَامٍ ١٤٥ ، وَتَارِيخِ الطَّبَرِيِّ ١٣٧ :

(٤) من الكامل .

(٥) الكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرسني في رغبة الأمل ؛ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَخَاطَبُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَامِرِ الْأَسَدِيِّ ؛ وَرَوَى الْبَيْتَ الْأَوَّلُ :

أَقُولُ لِإِبْرَاهِيمَ لَمَّا لَقِيْتُهُ أَرَى الْأَمْرَ أَضْحَى مُنْصَبًا مُتَشَعِّبًا

وَذَكَرَ بَعْدَهُ :

تَجَهَّزْ وَأَسْرِعْ فَالْحَقِ الْجَيْشَ لَا أَرَى سِوَى الْجَيْشِ إِلَّا فِي الْمِهَالِكِ مَذْهَبًا
فَمَا إِنْ أَرَى الْحُجَّاجَ بِغِمْدُ سَيْفِهِ مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَتْرُكَ الطُّفْلَ أَشْيَبَا

(٧) منصبا : معنيا مجهدا .

تَجَهَّزْ فَمَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضَابِيَةٍ عَمَّيْرًا ، وَإِنَّمَا أَنْ تَزُورَ الْمُهَلَّبَا
هُمَا خُطَّتَا خَسْفٍ نَجَاؤُكَ مِنْهُمَا رُكُوبُكَ حَوْلِيَّائِ مِنَ الثَّلَجِ أَشْهَبَا^(١)
فَمَا إِنْ أَرَى الْحَجَّاجَ يَغْمِدُ سَيْفَهُ مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَتَرَكَ الطِّفْلَ أَشْيَبَا
فَأَضْحَى وَلَوْ كَانَتْ خُرَاسَانُ دُونَهُ تَزَاهِي مَكَانَ الشُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبَا^(٢)

وَهَرَبَ سَوَّارُ بْنُ الْمُضَرَّبِ السَّعْدِيُّ مِنَ الْحَجَّاجِ ، وَقَالَ :

أَقَاتِلِي الْحَجَّاجَ إِنْ لَمْ أَرْزُلْهُ دَرَابَ وَأَتَرَكَ عِنْدَ هِنْدٍ فُؤَادِيَا^(٣)

فِي قَصِيدَةٍ مَشْهُورَةٍ لَهُ .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشدَّ عليهم إلحاحا ؛
وقد كان أتام خبره بالكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بني بَشَكْرَ ،
وكان شيخاً أعور ؛ يحمل على عينه العوراء صوفة ، فكان يلقب ذا الكُرْسُفَةِ ، فقال :

(١) قل المرصني بعده :

فَكَائِنْ تَرَى مِنْ مَكْرِهِ الْقَزْوِ مُسْمِراً تَحْمَمَ حِنُوَ السَّرَجِ حَتَّى تَحْمَبَا

والمسمر : الذي لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حيم له . وحنو السرج : ما انطفئ منه . وتحنب : تقوس .

(٢) الهاء في « دونه » عائدة على المهلب ؛ أي لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق : هو سوق حكمة ؛ موضع بنو أحيى الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ، والضمير الرفوع وضع موضع الضمير المنصوب ، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل - بشرح المرصني ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هي دار مجرد ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد في الكامل ٢٨٩ (طبع أوروبا) بعد هذا البيت :

فَإِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي إِلَى قَطْرِي مَا إِخَالُكَ رَاضِيَا
إِذَا جَاوَزْتَ دَرَبَ الْمُحِيزِينَ نَاقَتِي فَبَاسَتْ أَبِي الْحَجَّاجَ لَمَّا ثَنَانِيَا
أَيْرِجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

أصلح الله الأمير ! إنَّ بى فتقاً ، وقد غَدَرَ بى بِشَرُّ بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال :
إنك عندى لصادق ؛ ثم أمر به فضربت عنقه ؛ ففى ذلك يقول كعب الأشقرى -
أو الفرزدق ^(١) :

لَقَدْ ضَرَبَ الْحِجَّاجُ بِالْمِصْرِ ضَرْبَةً تَقَرَّقَرَتْ مِنْهَا بَطْنُ كُلِّ عَرِيفٍ ^(٢)

ويروى عن أبى البثر ^(٣) ، قال : إننا لتتغذى معه يوما ، إذ جاءه رجل من بنى سليم ^(٤)
برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنَّ هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشدك الله
أيها الأمير فى دى ! فوالله ما قبضتُ ديوانا قط ، ولا شهدتُ عسكريا قط ، وإني لحائنك ،
أخذتُ من تحتِ الحف ^(٥) . فقال : اضربوا عنقه . فلما أحسَّ بالسيف سجَدَ ، فلحقه
السيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالى أراكم قد صَفِرْتُمْ
أيديكم ، واصفَرَّتْ وجوهكم ، وحدَّ نظركم من قتل رجل واحد ! ألا إنَّ العاصى يجمع
خِلَافاً ؛ يُخْلَى بمركزه ، ويُعْصَى أميرَه ، ويُغَرَّ المسلمون ؛ وهو أجبرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة
ليما يعمل ، والوالى مخير فيه ؛ إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ؛ فإنَّ بِشَرًّا استكره نفسه ^(٦) عليك ، وأراك غنائه ^(٧) عنك ؛ وأنا أريك
حاجتى إليك ، فأرِنى الجدَّ فى قتال عدوك ، ومَنْ خِفَّتْهُ على المعصية مِمَّنْ قبلك فاقتله ،

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .

(٢) تفرقر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج : « عن أبى النسر » ، وفى السكامل : « ابن أبى ميرة » .

(٤) كذا فى ب والسكامل ، وفى ا ، ج : « من بنى نعيم » .

(٥) الحف : القصة التى تجبى وتذهب .

(٦) استكره نفسه : أدارها على السكره منها .

(٧) أى أراك أنه فى غم عنك .

فإني قاتل مَنْ قَبْلِي ، وَمَنْ كَانَ عِنْدِي مِمَّنْ هَرَبَ عَنْكَ ؛ فَأَعْلِمْنِي مَكَانَهُ ؛ فَإِنِّي أَرَى أَنْ أَخْذَ السَّمَى بِالسَّمَى ، وَالْوَلَى بِالْوَلَى .

فكتب إليه المهلب :

ليس قبلي إلا مطيعٌ ، وإنَّ الناسَ إذا [خافوا العقوبة كَبَرُوا الذَّنْبَ ، وإذا] ^(١) أَمِنُوا العقوبة صَغُرُوا الذَّنْبَ ؛ وإذا يَتَسَوَّأُوا من العَفْوِ كَفَرُوا ^(٢) ذلك ؛ فهب لي هؤلاء الذين سَمِيَتْهُمْ عَصَاةٌ ؛ فإنهم فُرسانُ أبطال ؛ أرجو أن يقتلَ اللهُ بهم العدوَّ ، [وندام على ذنبه] ^(٣) .

فلما رأى المهلب كثرةَ الناسِ عنده قال : اليوم قُوتل هذا العدو .

ولما رأى ذلك قَطْرِي ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السَّرْدَنَ ^(٤) ، فنتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أوتأتني ^(٥) سابور ، فتأخذُ منها ما نريد ، ونصير إلى كَرْمَانَ . فاتوا سابور ، وخرج المهلب في آثارهم فاتى أَرْجَان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَن - وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحْدِقة منيعة - فلم يصب بها أحداً ، فخرج فسكر بكازرون ^(٦) ، واستعدوا لقتاله ، فخندقَ على نفسه ، ووجهه إلى عبد الرحمن

(١) من الكامل .

(٢) أ كفرم : حلمهم على الكفر

(٣) من الكامل و : « نادم » معطوف على « مطيع » .

(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .

(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خسة وعشرون فرسخا .

(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا في أخبار الحوارج ؛ وروى للنعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الْحَوَاصِنَ فِي الْخُدُورِ شَهِدَنَّا فَيَرَيْنَ مَنْ وَغَلَ السَّكْبِيَّةَ أَوَّلَا
وَقَرُّوا وَكُنَّا فِي الْوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ إِذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غَيْرَ قَدَمِ أَوْ هَلَا
رَعَدُوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفِنَا ضَرْبًا تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ تُخْتَلَى
تَرْكُوا الْجَمَاجِمَ وَالرَّمَاحَ تُجِيلُهَا فِي كَازَرُونَ كَمَا تُجِيلُ الْخَنْظَلَا

ابن مخنف : خَنَدِقْ عَلَى نَفْسِكَ ، فَوَجَّهِ إِلَيْهِ : خَنَادَقْنَا سَيُوفُنَا ، فَوَجَّهِ الْمَهْلَبَ إِلَيْهِ : إِنْ لَأَمْنُ عَلَيْكَ الْبَيَاتِ ، فَقَالَ ابْنُهُ جَعْفَرُ : ذَاكَ أَهْوَنُ عَلَيْنَا مِنْ ضَرْطَةِ جَلٍّ ، فَأَقْبَلَ الْمَهْلَبَ عَلَى ابْنِهِ الْمَغِيرَةَ ، فَقَالَ : لَمْ يَصِيبُوا الرَّأْيَ ، وَلَمْ يَأْخُذُوا بِالْوَثِيقَةِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الْقَوْمُ عَاودُوهُ الْحَرْبَ ؛ فَبَعَثَ إِلَى ابْنِ مَخْنَفٍ يَسْتَمِدُّهُ ، فَأَمَدَهُ بِجَمَاعَةٍ ؛ جَعَلَ عَلَيْهِمْ ابْنُهُ جَعْفَرًا ، فَجَاءُوا ؛ وَعَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ بَيِضٌ جُدُّدٌ ، فَأَبْلَوْا يَوْمَئِذٍ حَتَّى عُرِفَ مَكَانُهُمْ ؛ وَحَارَبَهُمُ الْمَهْلَبُ ، وَأَبْلَى بَنُوهُ يَوْمَئِذٍ كِبَلَاءَ الْكُوفِيِّينَ أَوْ أَشَدَّ .

ثُمَّ أَنَى رَئِيسٌ مِنَ الْخَوَارِجِ ؛ يُقَالُ لَهُ صَالِحُ بْنُ مَخْرَاقٍ ، وَهُوَ يُنْتَخَبُ قَوْمًا مِنْ جَلَّةِ الْعَسْكَرِ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعَانَةً ؛ فَقَالَ لِابْنِهِ الْمَغِيرَةَ : مَا أَرَاهُ يُعِدُّ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِلْبَيَاتِ ^(١) .

وَانْكَشَفَتِ الْخَوَارِجُ ، وَالْأَمْرُ لِلْمَهْلَبِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ كَثُرَ فِيهِمُ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ؛ وَقَدْ كَانَ الْحِجَاجُ يَتَفَقَّدُ الْعَصَا ، وَيُوجَّهِ الرِّجَالُ ، وَكَانَ يُجْبَسُهُمْ نَهَارًا ، وَيَفْتَحُ الْحَبْسَ لَيْلًا ، فَيَتَسَلَّلُ الرِّجَالُ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَهْلَبِ ؛ وَكَانَ الْحِجَاجُ لَا يَعْلَمُ ؛ فِإِذَا رَأَى إِسْرَاعَهُمْ تَمَثَّلَ :
إِنَّ لَهَا لَسَائِقًا عَشَنَزَرًا إِذَا وَثَبْنَ وَثْبَةً تَفْشَمَرًا ^(٢)

ثُمَّ كَتَبَ الْحِجَاجُ إِلَى الْمَهْلَبِ يَسْتَحْتَهُ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ قَدْ أَقْبَلْتَ عَلَى جَبَايَةِ الْخَوَارِجِ ، وَتَرَكْتَ قِتَالَ الْعَدُوِّ ؛ وَإِنِّي وَلَيْتُكَ ^(٣) وَأَنَا أَرَى مَكَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمٍ الْجَاشَعِيِّ ، وَعَبَّادَ بْنِ الْحَصِينِ الْحَبْطِيِّ ، وَاخْتَرْتِ وَأَنْتِ مِنْ أَهْلِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ رَجَلْتُ مِنَ الْأَزْدِ ؛ فَالْقَهْمُ يَوْمَ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا ؛ وَإِلَّا أَشْرَعْتُ إِلَيْكَ صَدْرَ الرَّمْحِ .

(١) الْكَامِلُ : « مَا يَعْدُ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِلْبَيَاتِ » .

(٢) فِي الْكَامِلِ : « الْعَشَنَزَرُ : الصَّابُ ، وَالنَّفْشَمَرُ : رُكُوبُ الرَّأْسِ ، وَالنَّفْشَمَرُ : الْجَادُّ عَلَى مَا خَبِلَتْ » .

يُرِيدُ : مَا خَبِلَتْ نَفْسُهُ ؛ وَهُمْ يَحْذَرُونَ فَاعِلَ هَذَا الْفِعْلِ .

(٣) يُرِيدُ أَبْقَيْتُكَ عَلَى وَلَايَتِكَ .

فشاور المهلب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير ^(١) ، لا تُغْلِظ عليه في الجواب ^(٢) .
فكتب إليه :

وردَ إلى كتابك ، تزعمُ أني أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدو ، ومنَ
تَجَزَّ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدو أنجز . وزعمتَ أنك وليتني ، وأنت ترى
مكان عبد الله بن حكيم وعَبَّاد بن الحصين ، ولو وليتهما لكانا مستحقَّين لذلك ؛
لفضلهما وغنائهما وبطشهما . وزعمتَ أنك اخترتني وأنا رجلٌ من الأزد ؛ ولعمري إن
شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتهما ثلاث قبائل ؛ لم تستقرَّ في واحدةٍ منهن . وزعمتَ أني
إن لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعتَ إلى صدرِ الرمح ؛ لو فعلتَ لقلتُ لك ظهر
المجن ^(٢) . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عَقِيبَ هذا الكتاب .

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إني أخاف البيات على بني تميم ،
فانهض إليهم ، فكن فيهم ، فاتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ؛
أينحاف الأميرُ أن يؤتى من ناحيتنا ! قلْ له : فليت آمنا ؛ فإننا كافوه ما قبلنا إن شاء الله .
فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق في القوم الذين كان
أعدَّهم للبيات إلى ناحية بني تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إني لَمُذْكِ للشَّراةِ نارَها ومانعٌ ممَّنْ أتاها دارها

* وغاسِلٌ بالسيف عنها عارَها *

(١-١) السكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه في الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : مايتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظا متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :
وَجَدْتُمُونَا وَقُرْأَ أَنْجَادَا لَا كُشْفًا مِيلًا وَلَا أَوْغَادَا^(١)

ثم حمل على الخوارج ، فرجعوا عنه ؛ فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار !
فقالوا : إنما أعدت لك ولأصحابك ؛ فقال الحريش : كل مملوك لي حرّ إن لم تدخلوا النار ؛
مادخلها مجوسى^(٢) فيما بين سفوان^(٣) وخراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكر ابن مخنف ؛ فإنه لا خندق عليه ؛ وقد بعث
فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أننا أهون عليهم من ضرورة جل . فأتوهم فلم يشعر
ابن مخنف وأصحابه ؛ إلا وقد خالطوهم في عسكرهم .

وكان ابن مخنف شريفا ؛ وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، ويضرب بابن
مخنف المثل :

تَرَوْحُ وَتَفْدُو كُلَّ يَوْمٍ مُعْظَمًا كَأَنَّكَ فِينَا مَخْنَفٌ وَابْنُ مَخْنَفٍ

فترجل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم ؛ حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القراء ؛
فيهم نفر من أصحاب علي بن أبي طالب ، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبر المهلب -
وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب - فجاءهم مغيثا فقاتل حتى ارتث^(٣) ووجه
المهلب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم ، ثم جاء المهلب حتى صلى على عبد الرحمن بن مخنف
وأصحابه ، وصار جندؤه في جند المهلب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فعيّزهم البصريّون ،
وسمّوا جعفرا خصفه الجمل .

(١) في السكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضدّ البلد ؛ وهو المتيقظ الذى
لا كسل عنده ولا فتور . والأميل : فيه قولان : قالوا : الذى لا يستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لا سيف
معه . والأكشف : الذى لا ترس معه . والأجم : الذى لا رمح معه ، والحاسر : الذى لا درع عليه . والأعزل :
الذى لا يتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف . وذكر بعده هذا البيت :

هَيْهَاتَ لَا تُلْفُونَنَا رُقَادَا لَا بَلْ إِذَا صِيحَحَ بَنَاءُ آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحين : ماء على قدر مرحلة من مريد البصرة .

(٣) المرتث : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تركت أصحابكم تَدْمِي نُحُورَهُمْ وَجِئْتَ تَسْعَى إِلَيْنَا خَضَفَةَ الْجَلِ (١)

فَلَا مَ الْمُهَلَّبَ (٢) أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَقَالَ : بَلَسْنَا قَلَمَ ؛ وَاللَّهِ مَا فَرَّوْا وَلَا جَبُنُوا ؛ وَلَكِنَّهُمْ خَالَفُوا

أَمِيرَهُمْ ؛ أَفَلَا تَذْكُرُونَ فِرَارَ كَمْ بِدُوْلَابَ عَنِّي ، وَفِرَارَ كَمْ بِدَارَسَ (٣) عَنْ عُثْمَانَ (٤) !

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب يستحثه في مناجزة القوم ، وكتب إليه : إِنَّكَ
تَحِبُّ بَقَاءَهُمْ لَنَا كُلِّ بِهِمْ ، فَقَالَ الْمُهَلَّبُ لِأَصْحَابِهِ : حَرَّ كُومٍ ؛ فَخَرَجَ فُرْسَانٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ،
فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخَوَارِجِ جَمْعٌ كَثِيرٌ ؛ فَاقْتَتَلُوا إِلَى اللَّيْلِ ؛ فَقَالَ لَهُمُ الْخَوَارِجُ : وَيْلَكُمْ ! أَمَا
تَمْلِكُونَ ! فَقَالُوا : لَا ، حَتَّى تَحْمَلُوا ، فَقَالُوا : فَمَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : تَمِيمٌ ، فَقَالَتِ الْخَوَارِجُ : وَنَحْنُ تَمِيمٌ
أَيْضًا ، فَلَمَّا أَمْسَوْا افْتَرَقُوا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ خَرَجَ عَشْرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُهَلَّبِ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ
مِنَ الْخَوَارِجِ عَشْرَةٌ ، وَاحْتَفَرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَفِيرَةً ، وَأُثْبِتَ قَدَمِيهِ فِيهَا ، كَمَا قُتِلَ
رَجُلٌ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَاجْتَرَّهُ وَقَامَ (٥) مَكَانَهُ حَتَّى أُغْتَمُوا (٦) ، فَقَالَ لَهُمُ الْخَوَارِجُ :
ارْجِعُوا ، فَقَالُوا : بَلْ ارْجِعُوا أَنْتُمْ ، قَالُوا لَهُمْ : وَيْلَكُمْ مَنْ أَنْتُمْ ! قَالُوا : تَمِيمٌ ، قَالُوا : وَنَحْنُ

(١) فِي الْكَامِلِ : « تَرَكْتُ أَصْحَابَنَا » ، وَفِيهِ : قَوْلُهُ : « خَضَفَةُ الْجَلِ » ؛ يَرِيدُ ضَرْطَةَ الْجَلِ ؛ يُقَالُ :
خَضَفَ الْبَعِيرُ ؛ وَأَنْشَدَنِي الرَّيَاشِيُّ لِأَعْرَابِي يَذِمُّ رَجُلًا اتَّخَذَ وَلِيَّةً :

إِنَّا وَجَدْنَا خَلْفًا بَلَسَ الْخَلْفُ أَغْلَقَ عَنَّا بَابَهُ ثُمَّ حَلَفَ

لَا يَدْخُلُ الْبَوَابُ إِلَّا مِنْ عَرَفَ عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْحِمْلِ خَضَفَ

(٢) فِي الْكَامِلِ : « فَلَا مَهُم » .

(٣) فِي الْأَصُولِ : « بِفَارَسَ » ، وَمَا أَثْبَتَهُ عَنِ الْكَامِلِ . وَدَارَسَ : مَوْضِعُ ذِكْرِ الْبَكْرِى وَقَالَ :
لَئِنْ فِي نَاحِيَةِ مَسْرُقَانٍ . وَمَسْرُقَانٌ : قَرْيَةٌ مِنْ أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ .

(٤) هُوَ عُثْمَانُ بْنُ قُطَيْنَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ؛ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ ؛ وَكَانَ الْحَجَّاجُ بَعَثَهُ إِلَى شَيْبٍ ؛ فَانْهَزَمَ
أَصْحَابُهُ عَنْهُ ، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

(٥) الْكَامِلُ : « وَوَقَفَ » .

(٦) أَعْتَدُوا : سَارُوا فِي الْعَتَمَةِ ، وَهِيَ ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ بَعْدَ مَغِيْبِ الشَّمْسِ .

تميم أيضاً؛ فرجع البراء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له : مَهِيمٌ؟^(١) قال : رأيتُ أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله .

وكتب المهلب جواب الحجاج : إني منتظر بهم إحدى ثلاث : موتاً ذريعاً ،^(٢) أو جوعاً مِضْراً ، أو اختلافاً من أهوائهم .

وكان المهلب لا يتكلم في الحراسة على أحد ، كان يتولى ذلك بنفسه ، ويستعين عليه بولده ، وبمن يحلّ محلهم في الثقة عنده .

قال أبو حَرَملة العبدى يهجو المهلب ، وكان في عسكره :

عَدِمْتُكَ يَا مُهَلَّبُ مِنْ أَمِيرٍ أَمَا تَنْدَى بِمِينِكَ لِلْفَقِيرِ !
بِدُولَابٍ أَضَعْتَ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرَنْتَ عَلَى مُوَأَشِكَةٍ دَرُورٍ^(٣)

فقال له المهلب : ويحك ! ووالله إني لأُقيكم بنفسى وولدى ، قال : جعلنى الله فداء الأمير ! فذاك الذى نَكَرَهُ منك ، ما كُلُّنا يَحِبُّ الموت . قال : ويحك ! وهل عنه مِنْ محيص ! قال : لا ، ولكننا نكره التعجيل ؛ وأنت تُقدِّم عليه إقداماً ، قال المهلب : ويلك ! أما سمعت قول الكلعبة اليربوعى :

فَقُلْتُ لَكَاسٍ الْجِيهَاءِ فَإِنَّمَا نَزَلْنَا الْكَثِيبَ مَنْ زَرُودَ لَنْفَرَعَا^(٤)

(١) مهيم ، كلمة استفهام معناها : ما الخبر وما الأمر ؟ وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبد الرحمن بن عوف ، وعليه درع خلق ، فقال : مهيم ؟ فقال : تزوجت يا رسول الله . وفي الكامل : « مه » وهى بمعنى الاستفهام أيضاً .

(٢) ذريع . سريع .

(٣) قال المبرد : قوله : « موأشكة » ، يريد سرية ، ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل موأشك ، إذا كان سريماً ، قال ذو الرمة :

إِذَا مَا رَمَيْنَا رَمِيَةً فِي مَفَازَةٍ عَرَّاقِيهَا بِالشَّيْظَمِ الْمَوَاشِكِ

و « درور » فلول ، من درّ الشيء ، إذا تابع .

(٤) كُلس : اسم بنته ، والعرب لا تثنى بأحد في خيلها إلا بأولادها ونسائها . والكثيب : النقطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ؛ ولكنّ قولى أحبّ إلىّ منه :

وَلَمَّا وَقَفْتُمْ غُدُوَّةً وَعَدَوْتُكُمْ إِلَى مَهْجَتِي وَلَيْتُ أَعْدَاءُكُمْ ظَهَرِي
وَطَرْتُ وَلَمْ أَحْفَلْ مَلَامَةً جَاهِلٍ يُسَاقِي الْمَنَابِي بِالرَّدِينِيَّةِ الشُّمْرِ^(١)

فقال المهلب: بئس حشو الكتبية أنت والله يا أبا حرملة ! إن شئت أذنتُ لك فانصرفت

إلى أهلك . قال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال بمدحه :

يَرَى حَتَمًا عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ جِلَادَ الْقَوْمِ فِي أُولَى النَّفِيرِ
إِذَا نَادَى الشُّرَاةُ أبا سَعِيدٍ مَشَى فِي رِفْلٍ مُحْكَمَةِ الْقَتِيرِ^(٢)

قال : وكان المهلب يقول : ما بررتني أن في عسكري ألف شجاع مكان بيهس بن

صُهيب ، فيقال له : أيها الأمير ، بيهس ليس بشجاع ، فيقول : أجل ؛ ولكنه سيد الرأى ، محكم العقل ، وذو الرأى حذر سئول ، فأنا آمن أن يُقتل ؛ ولو كان مكانه ألف شجاع خلعت أنهم ينشامون^(٣) حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشراة عقبة ،

فقال المهلب : مَنْ يكفيننا أمرَ هذه العقبة الليلة ؟ فلم يبق أحد ، فلبس المهلب سلاحه ، وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة ، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضَبْطِ العقبة ، والحظّ

= المستطيلة من الرمل ، معدوبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة ، وهو من الأضداد .
وقبل هذا البيت :

ونادى منادى الحى أن قد أتيتُ وقد شربتُ ماء المزايدة أجمعاً

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أمرتكُم أمرى بمنعرج اللوى وَلَا أُمِرَ للمعصى إِلَّا مُضِيعًا

إذا المرء لم يَفْش الكريهة أو شكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا

(١) الكامل : « ملامة عاجز » ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح .

(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله ، وأما الرفل بفتحها ، فصدر رفل

كنصر : جرد ذيله وركضه برجله ، والقنير : رهوس . سامير خلق الدروع .

(٣) ينشامون ، من انشام الشيء دخل فيه واختبأ ، كتنشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يقتلوا .

في ذلك لنا ؛ فلم نطعمه ، ولبس سلاحه واتبعه جماعة من العسكر ، فصاروا إليه ؛ فإذا المهلب والمغيرة ولا ثالث لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير ؛ فنحن نكفيك إن شاء الله ؛ فلما أصبحوا إذا هم بالشراة على العقبة ، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس ، فجعل يحمل وفرسه تزلق ، ويلقاه مُدرك في جماعة معه ؛ حتى ردوهم عن العقبة ؛ فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب الناس ، إذ الشراة قد أكتبوا^(٢) ، فقال المهلب : سبحان الله ! أفي مثل هذا اليوم ! يا مغيرة اكنفيهم ؛ فخرج إليهم المغيرة ، وأمامه سعد بن نجد القرْدُوسى^(٣) [ماعدا]^(٤) وكان سعد مقدما في شجاعته وكان الحجاج^(٥) إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له : لو كنت سعد بن نجد القرْدُوسى ! فخرج أمام المغيرة ، ومع المغيرة جماعة من فرسان المهلب ، فالتقوا ، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كره الوجه ، شديد الحُملة ، صحيح الفروسية ؛ فأقبل يحمل على الناس ، ويرتجز فيقول :

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَدَاةَ النَّحْرِ بِالْخَيْلِ أَمْثَالِ الْوَشِيجِ تَجْرِي^(٦)

فخرج إليه سعد بن نجد القرْدُوسى ، من الأزْد ، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله ، والتقى الناس فصرع المغيرة يومئذ ، فحامي عليه سعد بن نجد ودينار السجستاني^(٧) وجماعة من الفرسان ؛ حتى ركب وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب ؛ فقالوا : قُتِلَ المغيرة ، فأتاه دينار السجستاني ، فأخبره بسلامته ، فأعتق كل مملوك كان بحضرته .

(١) الشعراء : الخوارج ؛ قال الجوهري : سموا بذلك لقولهم : إنا شربنا أنفسنا في طاعة الله ؛ أى بئناها بالجنة حين فارقتنا الأئمة الجائرة .

(٢) السكامل : « تألبوا » .

(٣) في الأصول : « الفردوسى » ، تصحيف صوابه من السكامل ، وقرْدوس : قبيلة من الأزْد .

(٤) من السكامل ؛ أى متجاوز لإعجابك إعجابه .

(٥) السكامل : « المهلب » .

(٦) الوشيج : مانيت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه في بعض ؛ أو ما صلب فيه .

(٧) السكامل : « السخنياني » .

قال : ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب يستبطئه في مناجزة القوم ، وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإنك جَبَيْتَ الجراح بالعلل ^(١) ، وتحصّنت بالخنادق ، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصراً ، وأكثر عدداً ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبناً ؛ ولكنك اتخذتهم أكلاً ^(٢) ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ؛ فناجزهم ؛ وإلا أنكرتني ، والسلام .
فقال المهلب للجراح : يا أبا عُقبة ، والله ما تركتُ حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها ؛ وما العجبُ من إبطاء النُصرة ^(٣) وتراخي الظفر ؛ ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يُبصره .

ثم ناهضهم ثلاثة أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرَح ، وبالجوارح قرَح وَقَتْل . فقال له الجراح : قد أعذرت .
فكتب المهلب إلى الحجاج :

أتاني كتابك تستبطنني في لقاء القوم ؛ على أنك لا تظنّ بي معصية ولا جُبناً ؛ وقد عاتبته معاتبة الجبان ^(٤) ، وأوعدتني وعيد ^(٥) العاصي ؛ فسل الجراح . والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله أيتها الأمير ، ما رأيت مثله قط ، ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياماً ثلاثة يقدّون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ؛

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .

(٢) الأكل بالضم : اسم للأكول .

(٣) الكامل : « النصر » .

(٤) أى معاتبتك للجبان .

(٥) في الأصول : « وعد » ، وما أثبتته من الكامل .

ويتخابطون بالعمد ؛ ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رَوَّاحَ قوم تلك عاداتهم ونجاتهم .

فقال الحجاج : لَشَدَّ ما مدحتَه ^(١) أبا عُقْبَةَ ! فقال : الحقَّ أُولَى .

وكانت رُكْبُ الناس ^(٢) قديماً من الخشب ، فكان الرجل يضرب ركابه ، فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد ؛ فأمر المهلب بضرب ^(٣) الرُّكْب من الحديد ؛ فهو أول من أمر بطبعها ؛ وفي ذلك يقول عمران بن عصام العنزي :

ضَرَبُوا الدَّرَاهِمَ فِي إِمَارَتِهِمْ . وَضَرَبَتْ لِلْحَدَثَانِ وَالْحَرْبِ
حَلَقًا تَرَى مِنْهَا مَرَافِقَهُمْ . كَمَا كَبِ الْجِلَّةِ الْجُرْبِ ^(٤)

قال : وكتب الحجاج إلى عتاب بن وزيعة الرياحي ، من بني رياح بن يربوع ؛ وهو والي أصفهان يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف ؛ فكلُّ بلدي يدخلانه من فتوح أهل البصرة ؛ فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلداً فتحه أهل الكوفة ^(٥) فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة .

فقدّم عتاب في إحدى جماديين من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو بسابور - وهي من فتوح أهل البصرة - فكان المهلب أمير الناس وعتاب على أصحاب ابن مخنف ؛ والخوارج بأيديهم كُرمَمان ؛ وهم يلازم المهلب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحي .

(١) كذا في ب والكمال ، وفي أ ، ج : « وصفته » .

(٢) ركب الناس ، الركب ، بضمين : جمع ركاب ؛ وهو ما يعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما ما يعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الفرز .

(٣) ج : « فضربت » .

(٤) المرافق هنا : معتمدات الأرجل من الخلق ؛ ويريد بتناكب الجملة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجملة ، مثلثة الجنب مخففة الميم : الطائفة من الجمال .

(٥) الكامل : « فتحه لأهل الكوفة » .

قال : ووجه الحجاج إلى المهلب رجُلَيْنِ يستحقَّانه لمناجزة القوم : أحدهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي عَقيْل من رهط الحجاج ، فضمَّ المهلب زيادا إلى ابنه حبيب ، وضمَّ الثَّقَفِيَّ إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خذا يزيد وحيبًا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتلوا أشدَّ قتال ؛ فقتل زياد بن عبد الرحمن العامري ، وفقد الثَّقَفِيَّ . ثم باكروهم في اليوم الثاني ؛ وقد وُجِدَ الثَّقَفِيَّ ، فدعا به المهلب ، ودعا بالغداء ، فجعل النَّبْلُ يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثَّقَفِيَّ يَعْتَجِبُ من أمر المهلب ؛ فقال الصَّلْتَانُ العَبْدِيُّ :

أَلَا يَا أَصْبَحَانِي قَبْلَ عَوَقِ الْعَوَاتِقِ^(١) وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مِثْلَ الْعَقَاتِقِ^(٢)
غُدَاةَ حَبِيبٍ فِي الْحَدِيدِ يَقُودُنَا يَخُوضُ الْمُنَايَا فِي ظِلَالِ الْخَوَافِقِ
حَرُونُ إِذَا مَا الْحَرْبُ طَارَ شَرَارُهَا^(٣) وَهَاجَ عِمْجَاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ^(٤)
فَمَنْ مَبْلَغُ الْحَجَّاجِ أَنْ أَمِينَهُ زِيَادًا أَطَاحَهُ رِمَاحُ الْأَزَارِقِ

فلم يزل عتاب بن وَرْقَاءَ مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب بن يزيد ؛ فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب ، وكتب إلى المهلب يأمره أن يرزُقَ الجندَ ، فرزُقَ أهل البصرة ، وأبى أن يرزُقَ أهل الكوفة ، فقال له عتاب : ما أنا بيارح حتى ترزُقَ أهل الكوفة ، فأبى ، فجرت بينهما غِلْظَةٌ ، فقال له عتاب : قد كان يبلغني أنك شجاع ، فرأيتك جبَّانًا ، وكان يبلغني أنك جوادٌ ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلب : يا بن اللُّخْنَاءِ ؛ فقال له عتاب : لكك مُعَمَّ نُحُول !

(١) اصبحاني ؛ من صبحه إذ استقاء صبوحا من خر أول ، والعواتق : جمع عاتقة ؛ وهي كل ماصرفك عما تريد .

(٢) في السكامل : « قوله : وقبل اختراط القوم مثل العقاتق ، يعني السيوف ، والعقاتق : جمع عقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برقي ، أي كأنه لمعة برقي ، ويقال : انقَّ البرق إذ اتبسَّم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ، لأنه كان يحرن في الحرب فلا يبرح ، وذلك مستعار من قولهم : فرس حرون لا يتقاد ، وانظر رغبة الأمل ٤ : ٨٨ .

(٤) السكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف ، ووثب نعيم بن هبيرة ، ابن أخى مصقلة ابن هبيرة على عتاب فشتمه ، وقد كان المهلب كارهاً للحلف ، فلما رأى نصرة بكر ابن وائل له سره ، واعتبط به ، فلم يزل يؤكده ، وغضبت تميم البصرة لعتاب ، وغضبت أزْد الكوفة للمهلب ؛ فلما رأى ذلك المغيرة مشى بين أبيه وبين عتاب ؛ وقال لعتاب : يا أبا ورقاء ؛ إن الأمير يصيرُ إلى كلِّ ما تحبُّ ، وسأل أباه أن يرزقَ أهل الكوفة ففعل فصلح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يُحمَدون المغيرة بن المهلب ، وكان عتاب يقول : إني لأعرف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزْد ، من بنى إباد بن سُوْد :

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا وَرْقَاءَ عَنَّا فَلَوْلَا أَنَّنَا كُنَّا غَضَابَا
عَلَى الشَّيْخِ الْمُهَلَّبِ إِذْ حَفَانَا لَلَّاقَتْ خَيْلُكُمْ مِنَّا ضِرَابَا

قال : وكان المهلب يقول لبنيه : لا تبدؤوا الخوارج بقتال حتى يبدؤكم ، ويبغوا عليكم ، فإنهم إذا بغوا عليكم نصرتهم عليهم .

فشخص عتاب إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين ، فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافتقرت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة ، كان يعمل نصالاً مسمومة ، فبرى بها أصحابُ المهلب ؛ فرُفِعَ ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أ كفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال له : ألقى هذا الكتاب فى العسكر والدراهم ، واحذر على نفسك - وكان الحداد يقال له أبزى - فضى الرجل ، وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهتُ إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال .

فوقع الكتاب إلى قَطْرِيّ ، فدعا بأَبْرَى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدري ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فُقْتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلاً على غير نِقَةٍ^(١) ولا تبين ؟ قال قَطْرِيّ : فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذباً ، ويجوز أن يكون حقّاً ، فقال قَطْرِيّ : إن قتلَ رجلٍ في صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه ؛ فتنكر له عبدُ ربّه في جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلب فدرس إليهم رجلاً نصرانياً ؛ جعل له جُفلاً يَرُغَب في مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطْرِيّاً فاسجُدْ له ؛ فإذا نهاك فقل : إنما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النصرانيّ ، فقال قَطْرِيّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال : ما سجدتُ إلا لك ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾^(٢) ؛ فقال قَطْرِيّ : إن النصرانيّ قد عبدوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئاً . فقام رجل من الخوارج إلى النصرانيّ فقتله ، فأنكر قَطْرِيّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره .

وبلغ المهلب ذلك ، فوجه إليهم رجلاً يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : رأيتمُ رجلين خرجاً مهاجرين إليكم ، فات أحدهما في الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجْزُ الحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمؤمن من أهل الجنة ، وأما الذي لم يَجْزُ المحنة فكافر ؛ حتى يُميز الحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران ؛ حتى يميز الحنة ، فكثر الاختلاف .
وخرج قَطْرِيّ إلى حدود إسطنخر ؛ فأقام شهراً ، والقوم في اختلافهم . ثم أقبل فقال

(١) ج « وثيقة » .

(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم^(١) صالح بن مخراق : يا قوم ، إنكم أقررتم عين عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا - وهو من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم - فنأدى : يا أيها المحلون^(٢) ؛ هل لكم في الطراد فقد طال عهدي به ! ثم قال :

أَلَمْ تَرَ أَنَا مَذْ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً جَدِيبٌ وَأَعْدَاءُ الْكِتَابِ عَلَى خَفْضٍ^(٣)

فتمايح القوم ، وأسرع بعضهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب ، وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه ساعد حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئا ، واستنقذه فرسان من الأزد بعد أن صرّح ، وكان الذي صرّعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أَنَا ابْنُ خَيْرِ قَوْمِهِ هَلَالِ شَيْخٌ عَلَى دِينِ أَبِي بَلَالِ

* وَذَلِكَ دِينِي آخِرَ اللَّيَالِي *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنّا نعجب كيف تُصرّع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلب لبيته : إِنَّ سَرَّحَكُم^(٤) لغار ، ولست آمنهم ، عليه أفوكّتم به أحدا ؟ قالوا : لا ، فلم يستقم الكلام حتى أتاه آت ، فقال : إن صالح بن مخراق قد أغار على السرح ، فسقى على المهلب ، وقال : كل أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أريح نفسك ؛ فإن كنت إنما تريد مثلك فوالله ما يمدل خيرٌنا شِئَمَ^(٥) نملك ،

(١) ج : « اختلافكم » .

(٢) المحلون : الذين لا يحفظون عهدا ولا يرعون حرمة ؛ فكأنما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن تستباح

(٣) الخفض . الدعة ولين العيش .

(٤) السرح : المال السائم في المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغار الذي يطعم الناس في أخذه حيث لا راعى له يحفظه .

(٥) الشِئَم : قبال النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المغيرة ، ومدرّك والمفضل ابنا المهلب ؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة بشلّ السّرح ^(١) ، وهو يقول :

نَحْنُ قَمَمْنَاكُمْ بِشَلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَّأْنَا الْقَرْحَ بَعْدَ الْقَرْحِ ^(٢)

ولحقه المفضل ومدرّك ، فصاحا برجل من طيئ : ا كفيْنَا الأسود ؛ فاعتوره الطائي وبشر ابن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلا من الأزارقة من همدان ، واستردّا السّرح ^(٣) .

قال : وكان عياش الكنديّ شجاعا بئيساً ^(٤) فأبلى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلب : لا ذلّت نفسُ الجبان بعد عياش ! وقال المهلب : مارأيت تالله كهؤلاء القوم ، كلما انتقص ^(٥) منهم يزيد فيهم !

ووجه الحجاج رجلين إلى المهلب يستحثانه بالقتال : أحدهما من كلب ، والآخر من سليم ، فقال المهلب متمثلا بشعر لأوس بن حجر :

وَمَسْتَعِجِبُ مِمَّا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا وَلَوْ زَبَنْتُهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرْ ^(٦)

فقال المهلب ليزيد ابنه : حرّك القوم ، فحرّكهم فتهايجوا ؛ وذلك في قرية من قرى إصطخر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب وطعنه ، فشكّ فخذَه بالسّرج ، فقال المهلب للسلمي والكلبي : كيف يُقاتل ^(٧) قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) في الكامل : « بشل السرح ، أى يطرده » .

(٢) في الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت الفرحة ، مهموز ، ونكيت العدو غيرهموز ؛ من النكاية ، ونكأت الفرحة نكاً ؛ قال ابن هرمة :

وَلَا أَرَاهَا تَزَالُ ظَالِمَةً نَحْدُثُ لِي قَرْحَةً وَتَنْسَكُوهَا

(٣) في الكامل : « وخلي سيّاه » .

(٤) البئيس ، من يؤس الرجل يبؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) الكامل : « ينقص » .

(٦) قال البرد : قوله زبنته ؛ يقول : دفعته . ولم يترمرم : لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فارتمرم .

(٧) الكامل : « قاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرقاد - وهو من فرسان المهلب - وهو أحد بنى مالك بن ربيعة ، على فرس له أذم ؛ وبه تيف وعشرون جراحة ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حمل يزيد وتلى الجمع ، وحام فرسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الحشني ، مولى العتيك : من هذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليهما ، فمطف عليه أحدهما فطعن قيس فصرعه ، وحمل عليه الآخر فتعاقبا ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الحشني : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزوا بينهما ، فإذا معايق قيس امرأة ، فقام قيس مستحيا ، فقال له يزيد : يا أبا بشر ، أما أنت فبارزتها على أنها رجل ، فقال : أرأيت لو قتلت ، أما كان يقال : قتلت امرأة ! وأبلى يومئذ ابن المنجب السدوسي ، فقال غلام له يقال له خلاج : والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم ؛ حتى نصير إلى مستقرهم ، فاستلب مما هناك جارين . فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمتيت ويحك اثنتين ! فقال : لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أَخْلَاجُ إِنَّكَ لَنْ تَعَانِقَ طِفْلَةً شَرِقًا بِهَا الْجَادَى كَالْتَّمْشَالِ ^(١)
حَتَّى تَلَاقَى فِي الْكَتِيبَةِ مُعَلِّمًا عَمْرُو الْقَنَا وَعَبِيدَةُ بْنُ هَلَالٍ ^(٢)
وَتَرَى الْمُقَطَّرَ فِي النَّوَارِسِ مُقَدِّمًا فِي عُصْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضَّلَالِ ^(٣)

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء فقلت : طفلة ؛ فهي الصغيرة . والجادي : الزعفران .

(٢) قال المبرد : « الكتبية : الجيش ؛ وإنما سمي الجيش كتبية لانضمام أهله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمي الكتاب ؛ ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة وكتبت القرية ؛ إذا خربت ذلك الموضع . والعلم : الذي قد شمر نفسه بعلامة ؛ إما بهامة صبيغ ؛ أو بمشمة ، وإما بفسير ذلك . . وعمرو القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل . والذي ضمن صاحب المهلب في هذه فشكها مع السرج من بني تميم ، قال : ولا أدري : أعمر هو أم غيره ؟ » .

(٣) في الكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقطر : من عبد القيس ، وقوله : « قسطوا ، أي جاروا ؛ يقال : قسط يقسط فهو قاسط ؛ إذا جار ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَارْأَوْا الْقَاسِطُونَ فُكَّنُوا سَلْجَمَهُمْ حَطَبًا ﴾ .

أَوْ أَنْ يُعْلَمَكَ الْمُهْلَبُ غَزْوَهُ وَتَرَى جَبَالاً قَدْ دَنَتْ لِجِبَالٍ
قال : وكان بدر بن الهذيل من أصحاب المهلب شجاعا ، وكان لحانة ؛ كان إذا أحس
بالخوارج ينادى : يا خيل الله ازگي ؛ وإليه يشير القائل :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى الْمُهْلَبِ حَاجَةً عَرَضَتْ تَوَابِعُ دُونَهُ وَعَبِيدُ^(١)
العبد كَرْدُوسٌ وَبَدْرٌ مِثْلُهُ وَعِلَاجُ بَابِ الْأَحْمَرِ مِنْ شَدِيدٍ^(٢)

قال : وكان بشر بن المغيرة بن أبي صُفْرَةَ أبلَى يومئذ بلاء حسنا عُرِفَ مكانه فيه ؛
وكانت بينه وبين المهلب جَفْوَةٌ ، فقال لبنيه : يا بني عم ، إني قد قصرت عن شكاةِ
العاتب^(٣) ؛ وجاوزتُ شكاةَ المستعيب^(٤) ؛ حتى كَأْنِي لَامُوصُولٌ وَلَا مُحْرُومٌ ؛ فاجعلوا
لي فُرْجَةً أَعِيشْ بِهَا ، وهبوني أمراً رجوتم نصره ؛ أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ،
وكلوا فيه المهلب ، فوصله .

وَوَلَّى الْحِجَاجَ كَرْدَمًا فَارِسًا ، وَوَجَّهَهُ إِلَيْهَا وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُهْلَبِ :
وَلَوْ رَأَاهَا كَرْدَمٌ لَكَرْدَمًا كَرْدَمَةَ الْعَيْرِ أَحْسَنَ الضَّيْفَمَا^(٥)

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودّارا بمجرد لأرزاق
الجند ، ففعل ؛ وقد كان قطريّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب
بأخباره ؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فسا ، فاشتراها منه آزاذ مَرْدُ بن الهربذ بمائة ألف

(١) قال المبرد : توابع ، أراد به الرجال ؛ فجَزَ في الشعر ؛ وإعْادَ رده إلى أصله الضرورة ؛ وما كانت
من النعوت على « فاعل » ، فجمعه « فاعلون » ؛ ثلاثيات بجمع فاعلة ؛ التي هي نعت .

(٢) قال المبرد : كردوس : رجل من الأزد ؛ وكان حاجب المهلب . وقوله : « وعلاج باب الأحمرين
شديد » ؛ العرب تسمى المعجم الحمراء .

(٣) العاتب : الساخط .

(٤) المستعيب : الطالب الرضا .

(٥) في السكامل : « الضيفم الأسد ، والسكردمة : النفور .

درهم ، فلم يهدمها . فواقعه وجهُ المهلب فهزمه ، فنفاه إلى كَرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفاً وجهه به الحجاج إلى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ماتقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دَمَّاه ، فسرَّ المهلب ، وقال : مايسرُّني أن يكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدي ؛ وقال له : اكفني جباية خراج هاتين الكورتين ، وضمَّ إليه الرقاد ، فجعلاً ينجبان ، ولا يعطيان الجند شيئاً ، ففي ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له :

وَلَوْ عَلِمَ ابْنُ يُوسُفَ مَا نَلَقِي مِنْ الْآفَاتِ وَالْكَرْبِ الشَّدَادِ
لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعًا عَلَيْنَا وَأَصْلَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الْفَسَادِ
أَلَا قُلْ لِلْأَمِيرِ جُزَيْتَ خَيْرًا أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةٍ وَالرَّقَادِ
فَارْزُقِ الْجُنُودَ بِهِمْ قَلِيلًا وَقَدْ سَأَسْتُ مَطَامِيرُ الْحَصَادِ^(١)
أَيُّ وَقَعِ فِيهَا السُّوسُ^(٢) .

قال : ثم حاربهم المهلب بالسَّيرجان^(٣) حتى نفاهم عنها إلى جِيفَتْ^(٤) واتبعهم ونزل قريبا منهم .

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتهم بامرأة رجل نجَّار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ، فأتوا قَطْرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيثُ رأيتم ؛ فقالوا : إنا لا نقار على الفاحشة ، فقال :

-
- (١) المطامير : جمع .طميرة ؛ وهي حفرة تحت الأرض يوسم أسفلها ؛ تخبأ فيها الحبوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السرجان ، بكسر الهمزة وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيدة ، فأخبره ، وقال له : أنا لأفارق على الفاحشة ، فقال : بهتوني^(١)
يا أمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إني جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا
تتطاول تطاول البريء ؛ فجمع بينهم ، فتكلموا فقام عبيدة ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ،
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات^(٢) ، فبكوا وقاموا إليه
فاعتنقوه ؛ وقالوا : استغفر لنا . ففعل ؛ فقال عبدُ ربِّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة : والله
لقد خدعكم ، فتابع عبدُ ربِّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبيدة في
إقامة الحدِّ ثبثًا^(٣) .

وكان قَطْرِيّ قد استعمل رجلا من الدهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأنوا
قَطْرِيًّا ؛ فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقَارَّ عماله على مثل هذا ؛ فقال قَطْرِيّ : إني
استعملته ، وله ضياع وتجارات فأوغرَ ذلك صدورهم ؛ وبلغ المهلب ذلك ، فقال : اختلافهم
أشدُّ عليهم مِنِّي ، ثم قالوا لقَطْرِيّ : ألا تخرج بنا إلى عدوِّنا ؟ فقال : لا ، ثم خرج فقالوا : قد
كذبَ وارتدَّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسَّ بالشرِّ ، ودخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فاجتمعوا
عليه وصاحوا : اخرج إلينا دابة ، فخرج إليهم ، فقال : أرجعتم بعدى كفارا ! قالوا : أو لستَ
دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(٤) ؛ ولستَ قد
كفرت بقولك : « إنا قد رجعنا كفارا » ، فتب إلى الله . فشاور عبيدة في ذلك ، فقال له : إن
تبت لم يقبلوا منك ، فقل : إني استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدى كفارا ؟ » ، فقال لهم ذلك ،
فقبلوا منه ، فرجع إلى منزله .

(١) بهتوني : قالوا على ما لم أفعل .

(٢) سورة النور ١١ - ٢٠

(٣) ثبثا ؛ بالتحرّيك ؛ أى حجة .

(٤) سورة هود ٦ .

[عبد ربّه الصغير]

ومنهم عبد ربّه الصغير ، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما اختلفت الخوارج على قطريّ بايعه منهم جمع كثير ، وكان قطريّ قد عزم على أن يبايع للمقطر العبدى ، ويخلع نفسه ، فجعله أمير الجيش فى الحرب قبل أن يعهد إليه بالخلافة ، فكرهه القوم وأبوه ، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه : ابغ لنا غير المقطر ، فقال لهم قطريّ : إني أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوّ ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم ، واستعدّوا للقاء القوم ؛ فقال صالح : إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاصى عنهم ففعل . ويجب على الإمام أن يُعفى الرعية مما كرهت ، فأبى قطريّ أن يعزل المقطر ، فقال له القوم : فإننا قد خلعتك وبايعنا عبد ربّه الصغير . وكان عبد ربّه هذا مُعلّم كُتّاب ، وكان عبد ربّه الكبير بائع رمان ؛ وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة . فانفصل إلى عبد ربّه الصغير أكثر من شطْرهم ؛ وجلّهم الموالى والعجم ؛ وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق ، وقال لقطريّ : هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفنا من المقطر ، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوك ، فأبى قطريّ إلا المقطر ، وحل فتى من الشراة على صالح بن مخراق ، فطعنه فأنفذه ، وأوجره الرمح ^(١) .

فشبت الحرب بينهم ، فهابحوا . ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم ؛ فلما كان الغد اجتمعوا ، فاقتتلوا ، فأجلت الحرب عن ألقى قتيل ، فلما كان الغد عاودوا الحرب ، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب عن المدينة ، فأقام عبد ربّه بها ، وصار قطريّ خارجاً من

(١) قال المبرد : « ومعنى أوجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه ؛ قال عنزة :

وَأَخَوَ مِنْهُمْ أَجْرَدَتْ رُمَحِي وَفِي الْبَجَلِ مَعْبَلَةٌ وَقِيعُ

مدينة جيفرت بإزائهم ، فقال له عبدة بن هلال : يا أمير المؤمنين ، إن أقت لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلا أن تخندق على نفسك ؛ فخذق على باب المدينة وجعل يناوشهم ، وارتحل المهلب ، وكان منهم على ليلة ، ورسول الحجاج معه يستحثه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجلهم قبل أن يضلحوا ، فقال المهلب : إنهم لن يضلحوا ؛ ولكن دغهم فإنهم سيصبرون إلى حال لا يفلحون معها ، ثم دس رجلا من أصحابه ، فقال : أنت عسكر قطري ، قل : إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرأي ؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أقيم بين المهلب ، وعبد ربه يفاديه القتال هذا ، ويرواحه هذا ! فتمى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تنحوا بنا عن هذا الموضع ؛ فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبدربه رأيت فيه ماتحبون .

فقال له الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ؛ وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ؛ ثم قال :

قُلْ لِلْمُحَلِّينَ قَدْ قَرَّتْ عِيُونُكُمْ بفرقة القوم والبغضاء والهَرَبِ
كُنَّا أَنَاسًا عَلَى دِينٍ فَغَيَّرْنَا طُولُ الْجِدَالِ وَخَلَطُ الْجَدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجُلًا قُلَّ جِيْشُهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُلُطَبِ (١)
إِنِّي لَأَهْوَنُكُمْ فِي الْأَرْضِ مُضْطَرَّبًا مَالِي سَوَى فَرَسِي وَالرَّيْحِ مِنْ نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قطري ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال لهُزَيْمِ بْنِ أَبِي طَحْصَةَ الجاشعي : إني لأمن أن يكون كاذباً بترك موضعه ؛ اذهب فتعرف الخبر ؛ فضى الهُزَيْمِ في اثني عشر فارساً ؛ فلم يرَ في المعسكر إلا عبداً وعِلْجاً مريضين ، فسألهما عن قطري وأصحابه ، فقالا :

مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزل خندق قطري ، فجعل يقاتل عبد ربّه أحياناً بالعداء ، وأحياناً بالعِشيّة ، فقال رجل من سدّوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شهيدنَا ورأينَا بالسّفح ذى الأجيالِ
فنكحن أهل الجِدّة من فرساننا^(١) والضاريين جَاحِم الأبطالِ

ووجه المهلب يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قطري ، وأنه مقيم على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجّه في أثر قطري رجلاً جلدًا . فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي فيرجمون بعذرك ؛ وذلك أنك تُسِك حتى تَبْرأ الجراح ، وتُنسى القتل ، وتحمل الكال^(٢) ثم تلقاهم ، فتحمل منهم ثقل ما يحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجِدّة لكان الداء قد حُسِم ، والقرن^(٣) قد قُصِم ؛ ولعمري ما أنت والقوم سواء ، لأنّ من ورائك رجالاً ، وأمامك أموالاً ؛ وليس للقوم إلا ما نعهد ، ولا يُدرك الوجيف^(٤) بالديب ، ولا الظفر بالتعذير .

فما ورد عليه الكتاب ، قال لأصحابه : يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة : قطري بن الفجاءة ، وصالح بن غرق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير في خُشار من خُشار^(٥) الشيطان ، تقتلونهم إن شاء الله تعالى .

(١) الكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الفناء والكفاية في الحرب .

(٢) الكامل : « ويجم الناس » .

(٣) قسم القرن ؛ أى كسر ؛ يكى بذلك عن هلاك القوم .

(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .

(٥) الخُشار : الردى ، وملا خير فيه .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحن ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكانما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض ؛ فقال عبيد بن موهب للمهلب : قد بان عذرك ، فاكذب فإني مخبر الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإني لم أعط رُسُلكَ على قول الحقِّ أجرا ، ولم أحتجَّ منهم عن المشاهدة إلى تلقين . ذكرتَ أني أجمُّ القومَ ، ولا بدُّ من وقتِ راحةٍ يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أن في الجمام ما ينسى القتلى ، وتبرا [منه] ^(١) الجراح ؛ وهيهات أن يُنسى ما بيننا وبينهم ! تأبى ذلك قَتْلَ لم تُجَنِّ ^(٢) ، وقروح لم تنقَرَفْ ^(٣) ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ ؛ إن طمعوا حاربوا ؛ وإن ملّوا وقفوا ، وإن يسوا انصرفوا ؛ وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ؛ فإن تركتني والرأى ، كان القرنُ مقصوما ، والداه ياذن الله محسوما ، وإن أجملتني لم أطلعك ولم أعصيك ، وجعلتُ وجهي إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقَتِ الناس .

قال : ولما اشتدَّ الحصار على عبد ربّه ، قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنَّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحَّ توحيدُهُ عزَّ ربُّهُ ؛ وقد أراحكم الله من غِلْظة قطريّ ، ومجلة صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكلكم إلى بصائرکم ؛ فalcوا عدوكم بصبر ونية ؛ وانتقلوا عن منزلکم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سَلِمَ من القتل فهو المحروم .

(١) من الكامل .

(٢) لم تجن : لم تدفن في الجنن ؛ وهو القبر

(٣) لم تنقرف : لم تنقشر .

قال : وورد في ذلك الوقت على المهلب عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت النخعي من عند الحجاج ، يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال للمهلب : خالفت وصية الأمير ، وآثرت المدافعة والمطالبة . فقال له المهلب : والله ما تركتُ جهدا .

فلما كان المشي خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخيف^(١) متاعهم لينتقلوا ؛ فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا^(٢) رماحكم ، ودعوم والذهاب ؛ فقال له عبيدة بن أبي ربيعة : هذا لعمري أيسر عليك . فغضب وقال للناس : ردوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا في الناس ؛ وقال لعبيدة بن أبي ربيعة : كن مع [يزيد ، فخذ بالحاربة أشد الأخذ ؛ وقال لأحد الأمينين : كن مع]^(٣) المغيرة ، ولا ترخص له في الفتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقرت الخيل^(٤) ، وصُرع الفرسان ، وقُتِلت الرجالة^(٥) ؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القدح^(٦) يؤخذ منها ، والسوط والعلف والحشيش^(٧) أشد قتال .

وسقط رمح^١ لرجل من مُراد من الخوارج ، فقاتلوا عليه ، حتى كثُر الجراح والقتل ؛ وذلك مع المغرب ، والمرادى يرتجز ، ويقول :

الليلُ ليلٌ فيه ويلٌ ويلٌ قد سأل بالقوم الشراة السيلُ
* إن جاز للأعداء فينا قولُ *

(١) الخف ، بالكسر الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزل الغلام الخف عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « الدواب » .

(٥) الكامل : « الرجان » .

(٦) الكامل : « على القدح » .

(٧) الكامل : « والعلق الحشيش » .

فلما عَظُمَ الخطب في ذلك ^(١) الرمح بعث المهلب إلى المغيرة : خَلَّ لهم عن الرمح ؛
عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من
جِبرَتْ ، فدخلها المهلب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وما خلفوه من دقيق ، وجَمَّ
عليه هو والثقي والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين ^(٢) لا يشرب منها
أحد إلا قوًى ، يأتي الرجل بالدلو فدشدّها في طرف رحله فيستقي بها ، وهناك قرية فيها
أهلها ، فعاداهم القتال ، وضمّ الثقي إلى ابنه يزيد ، وأحدّ الأمينين إلى المغيرة ، فاقتل
القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلب لأبي علقمة العبدى — وكان شجاعاً ، وكان عابثاً هازلاً : امددنا يا أبا علقمة
بجبل اليمّحّد ، وقل لهم : فليعبرونا جاحهم ساعة ؛ فقال : أيها الأمير ، إن جاحهم ليست
بفخار فتار ، ولا أعناقهم كرادى ^(٣) فتنبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كَرَّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لى الأميرُ بغير علمٍ تقدّم حين جدّ به المِرّاسُ

قالى إن أطمعتك من حياةٍ ومالى غير هذا الرأس راسُ ^(٤)

وقال لمن بن المغيرة بن أبي صُفرة : احمل ، فقال : لا ، إلّا أن تزوّجني ابنتك أم مالك ،

فقال : قد زوّجتك ، فحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الحياةَ بِمالٍ مَنكّةً كان عندنا فَيَرانا ^(٥)

(١) الكامل : « فيه » .

(٢) الكامل : « طى عين لا يشرب منها إلا قوًى » .

(٣) فى الأصول : « كرات » ، وصوابه من الكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب
لأعدائهم النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .

(٤) فى الكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء .

(٥) رواية الكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الغداةَ بِمالٍ هلكه اليوم عندنا فَيَرانا

نَصِلَ الْكَرَّ عِنْدَ ذَاكَ بَطْنِي . إِنَّ لِمَوْتٍ عِنْدَنَا أَلْوَانَا
قوله : « مَلَكَةٌ » ، أى تزويجاً ونكاحاً .

قال : ثم جال الناس جولةً عند خَمَلَةٍ حَمَلَهَا عَلَيْهِمُ الْخَوَارِجُ ، فالتفت المهلبُ ، فقال
للمغيرة ابنه : ما فعل الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قُتِلَ وهرب الثقفى ، فقال ليزيد :
ما فعل عُبيد بن أبى ربيعة ؟ قال : لم أَرَهُ منذ كانت الجولةُ ، فقال الأمينُ الآخرُ للمغيرة : أنت
قُتِلْتَ صاحِبِي ، فلما كان العشيَ رجع الثقفى ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مَازَلْتَ يَا ثَقْفَى تَحْطُبُ بَيْنَنَا وَتَقْمُئُ بَوَصِيَةِ الْحِجَاجِ
حَتَّى إِذَا مَالَمُوتُ أَقْبَلَ زَاخِرًا وَسَقَى لَنَا صِرْفًا بَغِيرَ مِزَاجِ
وَلَيْتَ يَا ثَقْفَى غَيْرَ مَنْظَرٍ تَنَسَّابَ بَيْنَ أَحْزَةٍ وَفَجَاجِ^(١)
لَيْسَتْ مَقَارَعَةُ الْكُمَاةِ لَدَى الْوَغَى شُرْبَ الْمُدَامَةِ فِي إِيَاءِ زُجَاجِ

فقال المهلبُ للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل ؛ حتى
تَبَيِّتُوا عَسْكَرَهُمْ ، فقال : ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتلنى كما فعلت بصاحبى ! فضحك
المهلبُ ، وقال : ذاك إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلُّ حِذْرٍ من صاحبه ؛ غير
أن الطعامَ والعُدَّةَ مع المهلبِ ؛ وهو فى زُهاء ثلاثين ألفاً ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ ؛ فإذا
هو برجلٍ ، معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وَإِنِّى لَأُغْنِى ذَا الْخَمَارِ بِلَهْنَتِي إِذَا رَاحَ أَطْوَاهُ بَنَى الْأَصَاغِرِ^(٢)

(١) قال اللرد . « قوله : « بين أحزّة » ، هو جمع حزير ؛ وهو من ينقاد من الأرض ويقلظ ، والفجاجة :
الضرق ، واحدهما فج .

(٢) قال اللرد : « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس ملك بن ثويرة ؛ قال
جرير : وهو امرؤ ذو :

يَرَبُوعِ فُحْرَتُ وَآلِ سَعْدِ فَلَا مَجْدِي بَلَغَتْ وَلَا افْتِخَارِي
يَرَبُوعِ فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمِ يَوَارِي شَمْسَهُ رَهْجُ الْغُبَارِ
عَتَبَةُ وَالْأَحْمِيرُ وَابْنُ عَمْرِو مَوْعَتَابُ وَفَارِسُ دَى الْخَمَارِ
=

أَخَادِعُهُمْ عَنْهُ لِيَفْبُقَ دُونَهُمْ وَأَعْلَمُ غَيْرَ الظَّنِّ إِنِّي مَغَاوِرُ
كَأَنِّي وَأَبْدَانِ السَّلَاحِ عَشِيَّةَ يَمْرٍ بَنَانِي بِطْنٍ فَيَحْأَنَ طَائِرُ^(١)

فقال له : أتميمي أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحظلي ؟ قال : نعم ، قال : أير بوعى ؟ قال :
نعم ، قال : أومن آل نؤيرة ؟ قال : نعم ، أنا ولد مالك بن نؤيرة ؛ قال . قد عرفتك بالشعر .
قال أبو العباس . وذو الخمار فرس مالك بن نؤيرة .

قال : فكثروا أياما يتحاربون^(٢) ودوابهم مسرجة ، ولا خنادق لهم ؛ حتى ضعف
الفريقان ؛ فلما كان الليلة التي قُتِلَ في صبيحتها عَبْدُ رَبِّهِ ، جمع أصحابه ، فقال : يامعشرَ
المهاجرين ؛ إن قَطَرِيًّا وَعُبَيْدَةَ هَرَبَا طَلِبَا لِلْبَقَاءِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، فَاتَّقُوا عَدُوَّكُمْ غَدًا ؛
فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ؛ فَتَلَقَّوْا الرِّمَاحَ بِنُحُورِكُمْ ، وَالسِّيُوفَ
بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُّوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا ، يَهْبِثُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ .

فلما أصبحوا ، غَادُوا الْمُهَلَّبَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ، أَنْسَى مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَقَالَ رَجُلٌ
مِنَ الْأَزْدِ ، مِنْ أَصْحَابِ الْمُهَلَّبِ : مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى الْمَوْتِ ؟ فَبَايَعَهُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ ،
فَصُرَعَ بَعْضُهُمْ ، وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ ، وَجَرَحَ بَعْضُهُمْ .

= وقرله : « أطواء ؛ يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده فيشبعه
وتم جياح ؛ وذلك قوله :

* أَخَادِعُهُمْ عَنْهُ لِيَفْبُقَ دُونَهُمْ *

والنبوق : شرب آخر النهار ؛ وهو شئ تفخر به العرب « والهنه : الطعام الذى يتناول به قبل
الفداء . وفي الكامل :

جَزَانِي دِوَانِي ذُو الْخِمَارِ وَصَنَعَتِي إِذَا بَاتَ أَطْوَاءُ بَنَى الْأَصَاغِرُ

قال المرسني : دوائى ، بالكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعتة الفرس : حسن
القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الدرع القصيرة ، وفيحان : موضع أو وادى فى بنى أسد .

(٢) الكامل : « يتعارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثي للمهلب: احملوا ، فقال المهلب : أعرابي مجنون - وكان من أهل نَجْرَان - لحمل وحده ؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] ^(١) ؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَمَعَلَتَهُ الأولى ، وتهايج الناس ، فترجّلت الخوارج ، وعَقَرُوا دوابهم ، فناداهم عمرو القنّا - ولم يترجل هو ولا أصحابه ^(٢) ، وهم زهاء أربعمائة - فقال : موتوا على ظهور دوابكم كراماً ، ولا تعقروها ، فقالوا : إنّنا إذا كُنّا على الدواب ذكرنا الفِرار ، [فاقْتُلُوا] ^(٣) ونادى المهلب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ! وقال لبنيه : تفرّقوا في الناس ليروا وجوهكم ، ونادت الخوارج : ألا إنّ العيال لمن غَلَبَ ؛ فصبرَ بنو المهلب ؛ ^(٤) وقاتل يزيد بين يدي أبيه قتالا شديداً ^(٥) ، أبلى فيه ، فقال له أبوه : يا بني ، إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا مَنْ صَبَرَ ، وما مرّ بي يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب .

وكسرت الخوارجُ أجفان سيوفها ، وتجاوزوا ، فأجلت جَولَتُهُم عن عبد ربه مقتولا . فهرب عمرو القنّا وأصحابه ، واستأمن قوم ، وأجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور ، وأمرَ المهلب أن يُدْفَعَ كلُّ جريح إلى عشيرته ، وظفِرَ بمسكرهم ؛ فغوى مافيه ، ثم انصرف إلى جِيفَت ، فقال : الحمد لله الَّذِي رَدَّنَا إلى الخفضِ والدَّعة ، فما كان عيشنا ذلك العيش ^(٥) .

ثم نظر المهلب إلى قوم في عسكره ولم يعرفهم ، فقال : ما أشد عادة السلاح ! ناولني درعى ، فلبسها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ؛ فلما صيّرهم إليه ، قال : ما أنتم ! قالوا : جئنا لنطلب غِرَّتَكَ للفتك ^(٦) بك ، فأمر بهم فقتلوا .

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « هو وأصحابه » .

(٣) من الكامل .

(٤-٤) الكامل : « وصبر يزيد بين يدي أبيه ، وقاتل قتالا شديداً » .

(٥) الكامل : « فما كان عيشنا بعيش » .

(٦) الكامل : « لنفتك بك » .

[مُطَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِ الْمُهَلَّبِ]

ووجه كعب بن معدان الأشقرى^(١) ومرة بن بليد الأزدي، فوردوا على الحجاج؛ فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده^(٢) :

* يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمْ السَّفَرُ^(٣) *

فقال الحجاج : أشاعر أم خطيب؟ قال : شاعر ؛ فأنشده القصيدة؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال : خبرني عن بني المهلب ، قال : المغيرة سيدهم وفارسهم ؛ وكفي بيزيد فارسا شجاعا !

(١) الأشقرى : منسوب إلى الأشقر ؛ بطن في الأزدي

(٢) قصيدة طويلة ؛ يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرفت ، أوردها الطبري في تاريخه

٢٧٠ : ٢٧٣

(٣) وبقيته :

* وَقَدْ أَرَقْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ *

وبعده :

عُلِّقَتْ يَا كَعْبُ بَعْدَ الشَّيْبِ غَانِيَةً	والشيبُ فيه عن الأهواز مُزْدَجَرُ
أُمِّمِيكَ أَنْتَ عَنْهَا بِالَّذِي عَهَدْتَ	أَمْ جَبَلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مِنْبَرُ
عُلِّقَتْ خَوْدًا بِأَعْلَى الطَّفِ مَزِلُهَا	فِي غُرْفَةٍ دُونَهَا الْأَبْوَابُ وَالْحَجَرُ
دُرُمًا مَنَا كِبُهَا رِيًّا مَا كِمُهَا	تَكَادُ إِذْ نَهَضَتْ لِلْمَشْيِ تَنْبَرُ
وَقَدْ تَرَكَتُ بِشَطِّ الزَّابِيَيْنِ لَهَا	دَارًا بِهَا يَسْقَدُ الْبَادُونَ وَالْخَضَرُ
وَاخْتَرْتُ دَارًا بِهَا حَتَّى أُسْرُ بِهِمْ	مَا زَالَ فِيهِمْ لِمَنْ تَخْتَارُهُمْ خَيْرُ
لَمَّا نَبْتُ بِي بِلَادِي سِرْتُ مُنْتَجِعًا	وَطَالِبِ الْخَيْرِ مَرْتَادٌ وَمُنْتَظَرُ
أَبَا سَعِيدٍ فَإِنِّي جِئْتُ مُنْتَجِعًا	أَرْجُو نَوَالِكَ لَمَّا مَسَّنِي الضَّرَرُ
لَوْلَا الْمُهَلَّبُ مَا زَرْنَا بِلَادَهُمْ	مَا دَامَتْ الْأَرْضُ فِيهَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ
فَمَا مِنْ النَّاسِ مِنْ حَتَّى عَلِمَتْهُمْ	إِلَّا يَرَى فِيهِمْ مِنْ سَبِيكُمُ اثَرُ

وجوادهم وسخيتهم قبيصة ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك ، وعبد الملك سم نافع ، وحبيب موت ذعاف ، ومحمد ليث غاب ؛ وكفالك بالفضل تجدة ! فقال له : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلقتهم بخير ؛ قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حَمَاة السَّرح فإذا أليوا ففرسان البيات ، قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يدرى [أين] ^(١) طرفاها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمئنا فيهم . قال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتكم قطري ؟ قال : ^(٢) كدناه وظن أن قد كادنا ، بأن صرنا منه إلى التي نحب ^(٣) . قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان حرب الحاضر آثر عندنا من اتباع الفل ^(٤) قال : فكيف كان المهلب لكم وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا برّ الولد ، قال : فكيف كان اغتباط الناس به ؟ قال : نشأ ^(٥) فيهم الأمن ، وشملهم النفل ^(٦) ، قال : أكنت أعددت [لي] ^(٧) هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلم بذلك حيث بعثك .

هذه رواية أبي العباس .

وروى أبو الفرج في الأغاني ^(٧) : أن كعبا لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده

قصيدته التي أولها :

(١) من السكامل .

(٢-٣) السكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب » .

(٣) السكامل : « كان الحد عندنا آثر من الفل »

(٤) السكامل : « فشا »

(٥) النفل : الغنية .

(٦) من السكامل

(٧) الأغاني الجزء الرابع عشر ٢٨٤ - ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمْ السَّفَرُ وقد سهرتُ وآذَى عَيْنِي السَّهَرُ ^(١)
 يذكر فيها حروب المهلب مع الخوارج ، ويصف وقائعه فيهم في بلد ؛ وهي طويلة ،
 ومن جملتها ^(٢) :

كنا نهون قبل اليوم شأنهم حتى تفاقم أمر كان يُحتقر ^(٣)
 لَمَّا وَهَمْنَا وَقَدْ حَلُّوا بِسَاحَتِنَا واستنفر الناس تاراتٍ فما نفروا ^(٤)
 نَادَى امرؤ لا خلافتُ في عشيرته عنه ، وَلَيْسَ بِهِ عَنِّ مِثْلُهُ قَصْرُ
 خَبَّوْا كَيْنَهُمْ بِالسَّفْحِ إِذْ نَزَلُوا بكازرون فما عَزَّوْا وَلَا نَصَرُوا ^(٥)
 بَاتَتْ كِتَابِنَا تَرْدِي مُسَوِّمَةً حَوْلَ الْمُهَلَّبِ حَتَّى نَوَّرَ الْقَمَرُ ^(٦)
 هُنَاكَ وَلَوْ خَزَايَا بَعْدَ مَا هَزَمُوا وحال دونهم الأنهار والجُدُرُ
 تَأْبَى عَلَيْنَا حَزَازَاتُ النَّفُوسِ فَمَا تُنْبِقِي عَلَيْهِمْ وَلَا يُنْقُونَ إِنْ قَدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إِنَّكَ لَمَنْصِفٌ يَا كَعْبُ ، ثم قال له : كيف كانت حالكم
 مع عدوكم ؟ قال : كنا إذا لقيناهم بغفونا وغفوم يئسنا ^(٧) منهم ، وإذا لقيناهم بجِدِّنا
 وجِدِّهم ^(٨) طمعنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : حاة الحرِّيم نهارا ،
 وفرسان الليل تيقظا ^(٩) ؛ قال : فأين السماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان ، قال :

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد آياتا منها : « وهي قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة في الخبر ؛
 فتركت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) في الأغاني قبل هذا البيت :

فَمَا يَجَاوِزُ بَابَ الْجَنْسِ مِنْ أَحَدٍ قَدْ عَصَّتِ الْحَرْبُ أَهْلَ الْمَصْرِ فَانْجَحِرُوا

(٤) استنفر الناس : استنجدهم .

(٥) في الطبري : « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتبية : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بموافرها .

(٧) الأغاني : « فغفوم تأيس لهم » .

(٨) الأغاني : « بمجهدنا وجههم » .

(٩) الأغاني : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا. قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، نار ذاكية ، وصعدة^(١) عالية . وكفى
بيزيد فارسا شجاعا ! ليث غاب ، وبحر جَم العُباب . وجوادهم قبيصة ، ليث المغار ، وحامى
الذمار . ولا يستحى الشجاع أن يفِر من مُدرك ؛ وكيف لا يفِر من مدرك ، وكيف لا يفِر
من الموت الحاضر ، والأسد الخادر^(٢) ! وعبد الملك بسم نافع ، وسيف قاطع . وحيب
الموت الذعاف^(٣) ، طود شامخ ، وبحر باذخ^(٤) . وأبو عينة البطل الهام ، والسيف
الحسام ، وكفاك بالفضل نجدة ، ليث هذار وبحر مَوّار^(٥) ! ومحمد ليث غاب ، وحسام
ضراب . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها^(٦) قال : فكيف
جماعة الناس ؟ قال : على أحسن حال ، أرضاهم العدل ، وأغناهم النفل قال : فكيف
رضاهم بالمهلب ؟ قال : أحسن رضا ، لا يعدمون^(٧) منه إشفاق الوالد ، ولا يعدم منهم
برّ الوالد^(٨) . وذكر تمام الحديث .

وقال : إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك ؛
فأمر له بعشرين ألفا أخرى .
قال أبو الفرج : وكعب^(٨) الأشقرى من شعراء المهلب ومادحيه ؛ وهو شاعر مجيد .
قال عبد الملك بن مروان للشعراء^(٩) : تُشبهونني مرةً بالأسد ، ومرةً بالبازي ، ألا قلت كما قال
كعب الأشقرى للمهلب وولده :

بَرَّاكَ اللَّهُ حِينَ بَرَّاكَ بَحْرًا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غَزَارًا

(١) ذكت النار : اشتد لها ، والصعدة : القناة المستوية تبيت كذلك .

(٢) أسد خادر : مقيم في عرينه داخل في الخدر .

(٣) الذعاف : السريع .

(٤) الباذخ : العالى .

(٥) موار : مضطرب .

(٦) في الأصول : « طرفها » ، وسأنتبه من الأغاني .

(٧-٧) الأغاني : « وكيف لا يكونون كذلك ؟ وهم لا يعدمون رضا الوالد ، ولا يعدم منهم برّ الولد »

(٨) الأغاني ١٤ : ٢٨٦ - ٢٨٧

(٩) الأغاني : « كن يقول لشعراء » .

- بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالَى إِذَا مَا عَظُمَ النَّاسُ اخْطَارًا ^(١)
 كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَدْرِ تَكْمَلُ إِذْ تَكْمَلُ فَاسْتَدَارَا ^(٢)
 مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ نَفَرٍ إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارَا ^(٣)
 رِزَانٌ فِي الْخُطُوبِ تَرَى عَلَيْهِمُ مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالنَّجَارَا ^(٤)
 نَجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا أَخُو الْفَعَمَاتِ فِي الظُّلُمَاءِ حَارَا ^(٥)

قال أبو الفرج : وهذا الشعر من قصيدة لكعب ، يمدح بها المهلب ؛ ويذكر
 الخوارج ^(٦) ، ومنها :

سَلُّوا أَهْلَ الْأَبَاطِحِ مِنْ قُرَيْشٍ عَنِ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِ أَيْنَ صَارَا ^(٧)

(١) الخطار : المراهنة .

(٢) الأغاني :

* درارى تكمّل فاستدارا *

(٣) الهام : الرأس .

(٤) في الأغاني : « رزان في الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل

(٥) في الأغاني : « أخو الظلماء » .

(٦) ذكر صاحب الأغاني ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهَاجَ لِي ذَاكَ إِذْ كَارَا بَكْشٌ وَقَدْ أَطْلَتْ بِهِ الْحِصَارَا
 وَكُنْتُ أَلَذُّ بَعْضِ الْعَيْشِ حَتَّى كَبُرْتُ وَصَارَ لِي هَمِّي شِعَارَا
 رَأَيْتُ الْغَانِيَاتِ كَرِهْنَ وَضَلِي وَأَبْدَيْنَ الصَّرِيمةَ لِي جِهَارَا

(٧) الأغاني ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

غَرِضُنَ بِمَجْلِسِي وَكَرِهْنَ وَضَلِي أَوَانَ كُسَيْتُ مِنْ شَمَطٍ عِذَارَا
 زَرَيْنَ عَلَى حِينٍ بَدَأَ مَشْيِي وَصَارَتْ سَاحَتِي لِلَّهِمَّ دَارَا
 أَتَانِي وَالْحَدِيثُ لَهُ نَمَاءٌ مَقَالَةٌ جَائِرٌ أَحْنَى وَجَارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يَحْمِي الثُّغُورَ إِذَا اسْتَحَرَّتْ حُرُوبٌ لَا يَنْوَنُ لَهَا غَرَارَا

لَقَوْمُ الْأَزْدِ فِي الْغِمَرَاتِ أَمْضَى وَأَوْفَى ذِمَّةً وَأَعَزَّ جَارًا ^(١)
 ثُمَّ قَادُوا الْجِيَادَ عَلَى وَجَاهِهَا مِنْ الْأَمْصَارِ يَقْذِفْنَ الْمِهَارَا ^(٢)
 إِلَى كِرْمَاتٍ يَحْمِلُنَ الْمَنَابِيَا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِدْنَ نَارًا ^(٣)
 شَوَازِبَ مَا أَصَبْنَا الثَّارَ حَتَّى رَدَدْنَاهَا مَكَلَمَةً مَرَارًا ^(٤)
 غَدَاةَ تَرْكُنَ مَضْرَعَ عَبْدِ رَبِّ نَتَزَنَ عَلَيْهِ مِنْ رَهْجٍ غُبَارًا ^(٥)
 وَيَوْمَ الرَّخْفِ بِالْأَهْوَاِ ظِلْنَا نُرَوِّى مِنْهُمْ الْأَسَلَ الْحِرَارَا ^(٦)
 فَفَرَّتْ أَعْيُنُ كَانَتْ حَزِينَا قَلِيلًا نَوْمُهَا إِلَّا غِرَارَا ^(٧)
 وَلَوْلَا الشَّيْخُ بِالْمِضْرَيْنِ يَنْفِي عَدُوْمُ لَقَدْ نَزَلُوا الدِّيَارَا
 وَلَكِنْ قَارَعَ الْأَبْطَالُ حَتَّى أَصَابُوا الْأَمْنَ وَاحْتَلَوْا الْقَرَارَا ^(٨)

(١) الأغاني : « لغوى الأزد » .

(٢) الوجي : الحفي ، وذكر بعده :

بِكُلِّ مَفَازَةٍ وَبِكُلِّ سَهْبٍ بَسَائِسَ لَا يَرَوْنَ لَهَا مَنَارَا

(٣) الثنية : الطريق في الجبل .

(٤) مكلمة : مجروحة ، وفي الأغاني : « لم يصب » ، وبعدة :

وَيَشْجُرُنَ الْعَوَالِي السُّمُرَ حَتَّى تَرَى فِيهَا عَنِ الْأَسَلِ ازْوَرَارَا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقة المذكور قبل ؛ بعد قطري . وفي الأغاني : « يترن عليه من رهج عصاراً » ، والمصار هو القبار .

(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .

(٧) حزين ؛ فعيل ، مما يستوي فيه الفرد والثني والجمع ، والذكر والمؤنث ، وفي الأغاني : « حديثاً » ، وبعدة في الأغاني :

صَنَائِعُنَا التَّوَانِغُ وَالْمَذَاكِي وَمَنْ بِالْمِضْرِ يَحْتَلِبُ الْعِشَارَا

فَهِنْ يُبَحِّنُ كُلَّ حَمَى عَزِيزٍ وَيَحْمِينُ الْحَقَائِقَ وَالذَّمَارَا

طَوَالَاتُ الْمُتُونِ يُصَنُّ إِلَّا إِذَا سَارَ الْمَهْلَبُ حَيْثُ سَارَا

(٨) الأغاني :

* أَصَابُوا الْأَمْنَ وَاجْتَنَبُوا الْفِرَارَا *

إِذَا وَهَنُوا وَحَلَّ بِهِمْ عَظِيمٌ يَذُوقُ الْعَظَمَ كَأَن لَّهُمْ جُبَارًا
وَمُبْهَمَةً يَحِيدُ النَّاسُ عَنْهَا تَشَبَّ الْمَوْتُ شَدَّ لَهَا إِزَارًا
شَهَابٌ تَنْجَلِي الظُّلُمَاءِ عَنْهُ بَرَى فِي كُلِّ مُظْلَمَةٍ مَنَارًا^(١)
بِرَاكِ اللَّهِ حِينَ بَرَاكَ بِحَرًّا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا

الآيات المتقدمة .

قال أبو الفرج : وحدثنى^(٢) محمد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أَنَّ الحجاجَ لما كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الخوارج حينئذ ، ويستبطنه ، ويضعفه ويمجّزه من تأخيرهِ أمرهم ، ومطاولته لهم ، قال المهلب لرسوله : قل له : إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه ، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم - على أن أدبرها كما أرى ، فإذا أمكنتني فرصة اتهمتها ، وإن لم تمكّني توقفت - فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب - فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلى - فابعث من رأيت مكاني . وكتب من قوره بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبد الملك إلى الحجاج : لا تعارض المهلب فيما يراه ، ولا تعجله ودعه يدبر أمره .

قال : وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إِنَّ ابْنَ يَوْسَفَ غَرَّهَ مِنْ أَمْرِكُمْ خَفَضُ الْمَقَامِ بِجَانِبِ الْأَمْصَارِ^(٣)
لَوْ شَاهَدَ الصَّغِيرُ حَيْثُ تَلَاقِيَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيَّةُ الْأَقْطَارِ
مِنْ أَرْضِ سَابُورِ الْجُنُودِ وَخَيْلِنَا مِثْلُ الْقَدَاحِ بَرَبَتْهَا بِشْفَارِ

(١) الأغاني : « في كل مظلمة » .

(٢) الأغاني ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٣) الأغاني : « غره من غروكم » .

من كلِّ صنديدٍ يُرى بلبانه وَقَعُ الطُّبَاةُ مع انْقِنَا الخَطَّارِ^(١)
لَرَأَى مُعَاوَدَةَ الرَّبَّاعِ غَنِيْمَةً أَزْمَانَ كَانَ مُحَالَفَ الإِقْتَارِ
فَدَعَ الحُرُوبَ لِشِبَابِهَا وَعَلَيْكَ كُلِّ غَرِيْرَةٍ مِعْطَارِ^(٢)

فبلغت أعيانه الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ،
فأعلم [المهلب]^(٣) كعبا بذلك وأوفده إلى عبد الملك من ليته، وكتب إليه يستوهبه منه ؛
فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلب ، فاستنطقه فأعجبه ، وأوفده إلى الحجاج ؛ وكتب
إليه يُقسم عليه أن يصفح ، ويعفو عما بلغه من شعره ؛ فلما دخل قال : إيه يا كعب !

* لَرَأَى مُعَاوَدَةَ الرَّبَّاعِ غَنِيْمَةً *

فقال : أيها الأمير ، والله لوددتُ في بعض ما شاهدته من تلك الحروب ، وما أوردناه
المهلب^(٤) من خطرهما أن أنجوا منها ، وأكون حجاجا أو حائكا ، قال : أولى لك !
لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعتك ما تقول ؛ الحقُّ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب^(٥) .

قال أبو العباس : وكان^(٦) كتاب المهلب إلى الحجاج ، الذي بشره فيه
بالظفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم]^(٧) ؛ الحمد لله الكافي بالإسلام فَقَدْ مَاسَوَاهُ ، الحاكم بآلا
ينقطع المزيد من فضله ؛ حتى ينقطع الشكر من عباده ؛ أما بعد :

(١) اللبان هنا : الصدر ، والطبابة : جمع طبة ؛ وهي حد السيف . ورمح خضار : ذوا هتزاز شديد .

(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتمهد نفسها بالطيب وتكثر منه .

(٣) من الأغاني .

(٤) الأغاني : « يوردناه » .

(٥) الأغاني : « من وقته » .

(٦) السكامل ٦٩٥ (طبع أوروبا) .

(٧) من السكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكُنَّا نَحْنُ وعدُّونا على حالين مختلفين ، بسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم مِنَّا أكثر مما يسرنا ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونوِّم به الرضيع ، فاتهزَّت الفرصة منهم في وقت إمكانها ؛ وأدْنَيْتُ السواد من ^(١) السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ، فُقطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خَيْرًا ، وأراحهم من بأسِ الجلاّد ، وثَقَلَ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قبلك ؛ فالحمّدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وَرَدَ عليك كتابي فاقسم في المجاهدين فيهم ، وَنَفِّلْ ^(٢) الناس على قدر بلائهم ؛ وَفَضِّلْ مَنْ رَأَيْتَ تَفْضِيلَهُ ؛ وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلِّف خيلاً تقوم بإزائهم ، واستعمل على كِرامان مَنْ رَأَيْتَ ، وَوَلِّ الخليل شهنماً من ولدك ، ولا ترخص لأحدٍ في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على ، وعجل القدوم إن شاء الله .

فولّى المهلب يزيدَ ابنه كِرْمان ، وقال له : يا بني ، إنك اليومَ لست كما كنت ؛ إنما لك من كِرْمان ما فَضَّلَ عن الحجاج ؛ ولن تحتمل إلا على ما احتمل عليه أبوك ، فأحسِن إلى مَنْ تبعك ؛ وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجّهه إلى ، وتفضّل على قومك .

(١) أى قربت ما بين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله : « نفّل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالفنائم على عباده ؛ قال ليلى :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذَنْ اللَّهِ رَيْثٌ وَعَجَلٌ

وقال جل جلاله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال : نَفَلْتُكَ كذا وكذا ؛ أى أعطيتك ، ثم صار النفل لازماً واجباً .

ثم قدم المهلب على الحجاج ، فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر برّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أنتم عبيدُ قِنٍ للمهلب ؛ ثم قال : أنت والله كما قال لقيط ^(١) :

فَقَلَدُوا أَمْرَكُمْ لَهِ دَرُّكُمْ رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا ^(٢)
لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمْ يَكَادُ حِشَاءُ يَقْصِمُ الضَّلْمَا ^(٣)
لَا مَتَرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَمًا ^(٤)
مَا زَالَ يَحْلِبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ يَكُونُ مَتْبَعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعًا ^(٥)
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرِّهِ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعًا ^(٦)

وروى أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير ! والله لكأني أسمعُ وهو يقول لأصحابه:

المهلب ؛ والله كما قال لقيط الإيادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسُرَّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلب : أما والله ما كنّا أشدَّ من عدونا ولا أحدَ ، ولكن دَمَغَ الحقَّ الباطل ، وفهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للمتقين ^(٧) ؛ وكان ما كرهنَاهُ من المطاولة خيراً لنا مما أحييناهُ من المعالجة .

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادي ؛ من : بيعة طويلة ؛ ذكرها ابن الشجري في مختاراته ١ - ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بنز وكسرى ؛ وكان كاتباً في ديوانه ؛ وأولها :

يَادَارُ عَمْرَةَ مِنْ مَحْتَلِّهَا الْجِرْعَا هَاجَتْ لِي الْهَمُّ وَالْأَحْزَانُ وَالْوَجَمَا
تَامَتْ فَوَادِي بِذَاتِ الْجَزَعِ خَرَعَةً مَرَّتْ تَرِيدُ بِذَاتِ الْعَذْبَةِ الْبِيَمَا

(٢) رَحْبَ الذَّرَاعِ : يريدو واسع الصدر متباعد ما بين المنسكبين ، كناية عن قوته وشدة مراسه ، و مضطلعا : أى يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) رَيْثَ يَبْعَثُهُ ، أى مقدار ما يبعثه .

(٤) الْمَتَرَفُ : المتنعم السادر في ملأذه .

(٥) يَحْلِبُ أَشْطَرَهُ ؛ أى أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) الْمَرِيرَةُ مِنَ الْحَبَالِ : ما طال واشتد فتله ؛ واستمرت استحكت والشزر : القتل إلى فوق ؛ خلاف اليسر ؛ وهو القتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم القتلين ؛ ضرب ذلك مثلاً لاستعجال قوته . والضرع : الصغير الضعيف ، والقهم : آخر سن الشيخ .

(٧) الْكَامِلُ : للتقوى .

فقال الحجاج : صدقت ، اذ كر لي القوم الذين أبلّوا ، وصف لي بلاءهم ؛ [فأمر
الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ما ذخّر الله لكم خيرٌ لكم من عاجل
الدنيا إن شاء الله] ^(١) ؛ فذكرهم ^(٢) المهلب على مراتبهم في البلاء ، وتفاضلهم في الفناء ،
وقدّم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقبيصة ، والمفضل ، وعبد الملك ، ومحمدا ،
وقال : والله لو واحد يقدمهم في البلاء لقدّمته عليهم ؛ ولولا أن أظلمهم لأخترتهم . فقال
الحجاج : صدقت ؛ وما أنت أعلم بهم مني ؛ وإن حضرت وغبت ؛ إنهم لسيوفٌ من سيوف
الله . ثم ذكر معن بن المغيرة والرقاد وأشباهما .

فقال الحجاج : من الرقاد ^(٣) ؟ فدخل رجل طويل أجنا ^(٤) . فقال المهلب : هذا فارس
العرب ، فقال الرقاد للحجاج : أيها الأمير ؛ إني كنت أقاتل مع غير المهلب ؛ فكنت
كبعض الناس ، فلما صرت مع من يُلزمني الصبر ، ويجعلني أسوة نفسه وولده ؛ ويجازيني
على البلاء ؛ صرت أنا وأصحابي فرسانا .

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم ؛ على قدر بلاءهم ؛ وزاد ولد المهلب الفين ألفين ،
وفعل بالرقاد وبجماعة شيوخها بذلك .

وقال يزيد بن حنّاء من الأزارقة :

دَعِيَ اللَّوْمَ إِنَّ الْعَيْشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ	وَلَا تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ يَأْمٌ عَاصِمٍ
فَإِنْ تَحِجَّتْ مِنْكَ الْمَلَامَةُ فَاسْمِعِي	مَقَالَةَ مَعْنَى بِحَقِّكَ عَالِمٍ
وَلَا تَعْذُلِينَا فِي الْهَدِيَّةِ إِنَّمَا	تَكُونُ الْمَهْدَايَا مِنْ فَضُولِ الْمَغَانِمِ

(١) من الكامل .

(٢) السكامل : « ثم ذكرهم » .

(٣) الكامل : « ابن الرقاد » .

(٤) أجنا ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل في الظهر .

وليس بمُهدٍ مَنْ يكون نهاره
يُريد ثوابَ الله يوما بطفنة
أبيتُ وسِرْ بآلي دِلاصٍ حصينة
حلفتُ بربِّ الواقفين عشيّة
لقد كان في القوم الذين لقيتهم
توقدُ في أيديهم زاعبية
وقال الخيرة الحظلي من أصحاب المهلب :

إني امرؤٌ كَفَيْ رَبِّي وأَكْرَمَنِي
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما
مَا عَاقَنِي عَنْ قَوْلِ الْجُنْدِ إِذْ قَفَلُوا
وَلَوْ أَرَدْتُ قَوْلًا مَا تَجَمَّعَنِي
إِنَّ الْمَهْلَبَ إِنْ أَشْتَقَ لِرُؤْيَيْهِ
أَنَّهُ الْأَرِيبُ الَّذِي تُرْجَى نَوَافِلُهُ
وَالْقَاتِلُ الْفَاعِلُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ
أَزْمَانُ كَرْمَانٍ إِذْ غَصَّ الْحَدِيدُ بِهِمْ
عن الأمور التي في غيِّها وخم^(٦)
عاشتُ رجالٌ وعاشت قبلها أمٌ
عِيٌّ بِمَا صَنَعُوا حَوْلِي وَلَا صَمَمٌ^(٧)
إِذْنُ الْأَمِيرِ وَلَا الْكِتَابُ إِذْ رَقَمُوا
أَوْ أَمْتَدَحَهُ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ عَلِمُوا :
وَالْمُسْتَنْبِرُ الَّذِي يُجَلَّى بِهِ الظُّلَمُ
أَبُو سَعِيدٍ إِذَا مَا عُدَّتِ النَّعْمُ
وَإِذْ تَمَنَّى رِجَالٌ أَنَّهُمْ هُزِمُوا

- (١) قال البرد : « يريد يمسي هو في ليله ، ويكون هو في نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل ليل والنهار على السعة ؛ وفي القرآن : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والمعنى : بل مكركم في الليل والنهار .
(٢) قال البرد : قوله غموس ؛ يريد واسعة ، والعنبري بن سالم رجل منهم ؛ كان يقال له الأشدق :
(٣) الدلاص : الدرع للمساء اللينة .
(٤) اللطائم ، واحدها لطيمة ؛ وهي الإبل التي تحمل البز والطر .
(٥) زاعبية ؛ يعني الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفري : تقدر .
(٦) الكامل : « في رعيها وخم » .
(٧) الكامل : « عِيٌّ بِمَا صَنَعُوا عَجَزَ وَلَا بَكَم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك اللهُ صالحاً فَقَدْ كَفَيْتَ وَلَمْ تَعْنُفْ عَلَى أَحَدٍ ^(١)
داوَيْتَ بِالْحِلْمِ أَهْلَ الْجَهْلِ فَأَنْقَمُوا وَكُنْتَ كَالْوَالِدِ الْحَانِي عَلَى الْوَلَدِ
وقال عبيدة بن هلال الخارجي يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِي فَرَفَعَهُ الرَّمَاحُ كَأَنَّهُ شِلْوُ تَنْشَبٍ فِي بَخَالِبٍ ضَارٍ ^(٢)
يَهْوِي صَرِيحاً وَالرَّمَا حُ تَنْوُشُهُ إِنْ الشُّرَاةُ قَصِيرَةُ الْأَعْمَارِ ^(٣)

[شبيب بن يزيد الشيباني]

ومنهم ^(٤) شبيب بن يزيد الشيباني ؛ وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرح ، أحد الخوارج الضفرية ؛ وكان ناسكا مصفرا الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقص ^(٥) عليهم ؛ ويقدم الكوفة ، فيقيم بها الشهر والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فرغ من التحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأنشئ عليه ، وثني بعمر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمة الرجال في دين الله ؛ ويتبرأ من عثمان وعلي ، ثم

(١) لم تعنف ، من العنف ، وهو الشدة .

(٢) الشلو : العضو :

(٣) الكامل « فتوى صريحا » .

(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وما بعدها أحيا بنصه ، وأحيانا مع تصرف واختصار

(٥) في الطبري : « فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسأله أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذي خلق السموات والأرض . . . » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله ولياكم من الشاكرين الناكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أوردته المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسرُوا يا إخواني للخروج من دَارِ الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّٰحق بإخواننا المؤمنين ؛ الذين باعُوا الدنيا بِالْآخِرَةِ ؛ ولا تجزَعُوا من القتل في الله ، فإنَّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فيبعوا أنفسهم طائعين ؛ وأموالكم تدخلوا الجنة ... وأشباه هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضره من أهل الكوفة سُويّد البَطِين ؛ فقال يوما لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما تزيد أئمةُ الجور إلا عتَوْا وعلَوْا ، وتباعدا من الحق ، وجراءةً على الرّب ؛ فراسلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر في أمورنا ما نحن صانعون . وأى وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينما هو كذلك إذ أتاه المجلّل بن وائل ^(١) بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخصوص ، وقد] ^(٢) كنت دعوتني إلى أمرٍ أستجيب ^(٣) لك ؛ فإن كان ذلك ^(٤) من شأنك ، فإنّك شيخ المسلمين ، ولم يعدل بك منا أحد ^(٥) ؛ وإن أردت تأخّر ذلك أعلمني ^(٦) ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تحترمني المنية ؛ ولما أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا ! وياله فضلا !] ^(٧) ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين في دار السلام] ^(٨) . والسلام عليك .

(١) ب : « قائد » ؛ وما أثبتته عن ا ، ج والطبرى .

(٢) تسكّلة من تاريخ الطبرى .

(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .

(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .

(٥) الطبرى : « ولن يعدل بك منا أحدا » .

(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتنى » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه ^(١) : إنه لم يمنعني من الخروج مع ما أنا فيه من الاستعداد إلا انتظارك ؛ فاقدم علينا ، ثم اخرج بنا ، فإنك تمن لا تقضى الأمور دونه ؛ والسلام عليك ^(٢) .

فلما ورد كتابه على شبيب ؛ دعا القراء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمجلل بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم ^(٣) ؛ ثم خرج حتى قدم على صالح بن مسروح ؛ وهو بدارات ^(٤) أرض الموصل ؛ فبث صالح رسله ، وأوعدهم بالخروج ؛ في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدث فروة ^(٥) بن لقيط ؛ قال : إني لمعهم تلك الليلة عند صالح ^(٦) ؛ وكان رأيي استعراض الناس ؛ لِمَا رأيتُ من السكر والفساد في الأرض ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كيف تَرَى السيرة في هؤلاء الظلمة ؛ أنقتلهم قبل الدعاء ، أم ندعوم قبل القتال ؟ فإني أخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاعين ؛ قد تركوا أمر الله ، وأراضين بذلك ، فأرى أن نضع السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوم ؛ ولنعمى لا يجيبك إلا مَنْ يرى رأيك ؛ وليقاتلنك مَنْ يُزِرِّي عليك ؛ والدعاء أقطع لحجتهم ، وأبلغ في الحجة عليهم لك . فقلت :

(١-١) الكتاب كما في الطبرى : « أما بعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطاء عني ؛ حتى أهني ذلك ؛ ثم إن أميراً من أمراء المسلمين نبأني بنبأ مخرجك ومقدمك ؛ فحمد الله على قضاء ريننا ؛ وقد قدم على رسولك بكتابك ؛ فكل ما فيه قد فهمته ، ونحن في جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعني من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والسلام » .

(٢) في الطبرى : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بني علم والفضل بن عامر من بني ذهل ابن شيبان » .

(٣) في حواشي ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل ما استدار معه وجهه دارات ودور » ، وفي الطبرى : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) في الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثني فروة بن لقيط » .

(٥) كذا في الأصول ، وفي الطبرى : « قال - أى فروة - والله إني لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسروح ليلة خرج ، فكان رأيي استعراض الناس » إلى آخر الخبر مع اختلاف في الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وما تقول في دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلنا وغنمنا فلنا ، وإن تجاوزنا وعفونا فوسع علينا .

ثم قال صالح ^(١) لأصحابه ليلته ^(٢) تلك : اتقوا الله عباد الله ، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس ؛ إلا أن يكونوا [قوما] ^(٣) يريدونكم [وينصبون لكم] ^(٤) ؛ فإنكم إنما خرَجْتُمْ غَضَبًا لله حيث انتهكت محارمه ؛ وعصى في الأرض ، ^(٥) وسفكت الدماء بغير حقها ، وأخذت الأموال غَضَبًا ^(٦) فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملونها ^(٧) ؛ [فإن كل ما أتم عاملون أتم عنه مستولون ، وإن عظمكم رجاله] ^(٨) ، وهذه دواب محمد بن مروان في هذا الرُستاق ^(٩) ؛ ^(١٠) ، وابدءوا بها فاحلوا عليها راجلكم ، وتقووا بها على عدوكم ^(١١)

ففعّلوا ذلك ، وتحصّن منهم أهل دارا ^(١٢) .

وبلغ خبرهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخف بأمرهم ؛ وبعث إليهم عدى بن عميرة في خمسمائة ، وكان صالح في مائة وعشرة ؛ فقال عدى : أصلح الله

(١) الخبر في الطبري عن أبي مخنف أيضا عن رجل من بني علم .

(٢) الطبري : « ليلة خرج » .

(٣) من الطبري .

(٤-٥) الطبري : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .

(٥) الطبري : « تعملون بها » .

(٦) الرستاق - فيما ذكره حمزة بن الحسن - مشتق من « روضة فستا » ، وروذه : اسم للسطر والصف والسماط . وفستا : اسم للحد ، وللعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : والذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يسمون بالرستاق كل موضع فيه زارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد « معجم البلدان ١ : ٣٧ » .

(٧-٨) الطبري : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحلوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .

(٨) الطبري : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار ، وخرج صالح ليلة خرج في مائة وخمسين ، وقيل : في مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة] ^(١) ، ومعه رجالٌ شُموألي [كانوا يعازوننا] ^(٢) ؛ وإن الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة ! فقال له : إني أزيدك خمسمائة ، فسرّ إليهم في ألف فارس .

فسار من حرّان في ألف رجل ؛ وكأتمنا يساقون إلى الموت - وكان عدى رجلاً ناسكا ^(٣) - فلما نزل دوغان ^(٤) نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرح رجلاً دسه إليه فقال : إن عدياً بعثنى إليك يسألك أن تخرج عن هذا البلد ، وتأوى بلداً آخر فتقاتل أهله ؛ فإني للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا ، فأرنا من ذلك مانع ، ثم نحن مُدْجِلُونَ ^(٥) عنك ، وإن كنت على رأى الجبابة وأئمة السوء ، رأينا رأينا ، فإما بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنَا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه ، فقال له عدى : ارجع إليه فقل له : إني والله لا أرى رأيك ، ولكنى أكره قتالك وقاتل غيرك من المسلمين ^(٦) .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجل عنده ، ومضى بأصحابه حتى أتى هدياً في سوق دوغان ؛ وهو قائم يصلى الضحى ، فلم يشعر إلا بالخليل طالعة عليهم ؛ فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غير تعبية ^(٧) ، وقد تنادوا ، وبعضهم يحول في بعض ، فأمر شيبيا فحمل عليهم في كتيبة ، ثم أمر سويداً فحمل في كتيبة ، فكانت هزيمتهم ،

(١) من الطبرى

(٢) الطبرى : « يتنسك » .

(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سواق لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة في كل شهر . (مراسد الاطلاع) .

(٤) الدج والدجة : السير آخر ليل .

(٥) في الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .

(٦) عبأ الجيش للحرب تعبته : هيأه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وَأَتَى عَدِيٌّ بِدَابَّتِهِ فَرَكَبَهَا ، وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ ، وَاحْتَوَى صَالِحٌ عَلَى عَسْكَرِهِ وَمَا فِيهِ ، وَذَهَبَ فَلَّى عَدِيَّ حَتَّى لَحَقُوا بِمُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَغَضِبَ ، ثُمَّ دَعَا بِخَالِدِ بْنِ جَزَاءِ السُّلَمِيِّ ، فَبِعَثَهُ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَدَعَا الْحَارِثَ بْنَ جَعْفَوْنَةَ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَقَالَ لَهَا : أَخْرِجَا إِلَى هَذِهِ الْخَارِجَةِ الْقَلِيلَةِ الْخَبِيثَةِ ، وَتَحْجَلَا [الْخُرُوجَ ، وَأَغْذَا السَّيْرَ] ^(١) فَأَيْسَكَا سَبَقَ ، فَهُوَ الْأَمِيرُ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَخَرَجَا وَأَغْذَا ^(٢) فِي السَّيْرِ ، وَجَعَلَا بِسَالَانَ عَنْ صَالِحٍ ، فَقِيلَ لَهَا : تَوَجَّهْ نَحْوَ أَمَدٍ ^(٣) ، فَاتَّبَعَاهُ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَيْهِ بِأَمَدٍ ، فَزَلَا لَيْلًا ، وَخَنَدَقَا وَهَمَا مُتَسَانِدَانِ ؛ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى حِدَّتِهِ ، فَوَجَّهَ صَالِحٌ شَبِيهَا إِلَى الْحَارِثِ بْنِ جَعْفَوْنَةَ فِي شَطْرِ أَصْحَابِهِ ، وَتَوَجَّهَ هُوَ نَحْوَ خَالِدِ السُّلَمِيِّ ، فَاقْتَتَلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ اقْتَتَلَهُ قَوْمٌ ، حَتَّى حَجَزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ؛ وَقَدْ انْتَصَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .

فَتَحَدَّثَ بَعْضُ أَصْحَابِ ^(٤) صَالِحٍ ، قَالَ : كُنَّا إِذَا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ اسْتَقْبَلْنَا رِجَالَهُمْ بِالرَّمَاكِ ، وَنَضَحْنَا ^(٥) رُمَاتِهِمْ بِالنَّبْلِ ، وَخَيَلُهُمْ تَطَارِدُنَا فِي خِلَالِ ذَلِكَ ، فَانْصَرَفْنَا عِنْدَ اللَّيْلِ ، وَقَدْ كَرِهْنَاهُمْ وَكَرِهْنَا ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَصَلَيْنَا وَتَرَوَّحْنَا وَأَكَلْنَا مِنَ الْكِسْرِ ^(٦) ، دَعَانَا صَالِحٌ وَقَالَ : يَا أَخِلَائِي ، مَاذَا تَرَوْنَ ؟ فَقَالَ شَبِيبٌ : إِنَّا إِن قَاتَلْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَهُمْ مُعْتَصِمُونَ بِخَنَدَقِهِمْ ، لَمْ نَنْلَ مِنْهُمْ طَائِلًا ، وَالرَّأْيُ أَنْ نَزَحَلَ عَنْهُمْ ، فَقَالَ صَالِحٌ : وَأَنَا أَرَى ذَلِكَ ؛ فَخَرَجُوا مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِمْ حَتَّى قَطَعُوا أَرْضَ الْجَزِيرَةِ ، وَأَرْضَ الْمَوْصِلِ ، وَمَضَوْا حَتَّى قَطَعُوا أَرْضَ الدَّسْكَرَةِ . فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْحَجَّاجَ سَرَّحَ عَلَيْهِمُ الْحَارِثَ بْنَ عَمِيرَةَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ ،

(١) مِنَ الضَّرْبِ .

(٢) أَغْذَى فِي السَّيْرِ : أَسْرَعَ فِيهِ .

(٣) أَمَدٌ ، بِكَسْرِ الْمِيمِ : بَلَدٌ قَدِيمٌ حَصِينٌ ، تَحِيْطٌ دَجَلَةٌ بِأَكْثَرِهِ . مُرَاصِدُ الْأَطْلَاعِ .

(٤) فِي الضَّرْبِ : « قَالَ أَبُو مُخَنَّفٍ : حَدَّثَنِي الْحُلُمِيُّ قَوْلَ . . . » وَأُورِدَ الْخَبْرُ بِاخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَةِ

(٥) النَّضْحُ : الرَّمْيُ بِالنَّبْلِ

(٦) الْكِسْرَةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْخَبْرِ ، وَجَمْعُهُ كُسْرٌ .

فسار وخرج صالح نحو جُلُولاء وخَانَقِينَ^(١) واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج^(٢)، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فعَبَى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرَادِيس وهو في كَرْدُوس^(٣)، وشيبب في مَيِّمَنَة في كَرْدُوس، وسُوَيْد بن سَلِيم في كَرْدُوس في ميسرته؛ في كل كَرْدُوس منهم ثلاثون رجلاً؛ فلما شدَّ عليهم الحارث بن عميرة، انكشف سويد بن سليم، وثبت صالح فُقُتِل، وضارب شيبب حتى صُرِعَ عن فرسه، فوقع بين رجاله، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح، فوجدَه قتيلاً فنَادَى: إلى يامعشر المسلمين! فلاذوا به، فقال لأصحابه: ليَجْعَلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعنْ عدوّه إذا قدم عليه؛ حتى تدخل هذا الحِصْن، ونرى رأينا.

ففعِلُوا ذلك حتى دخلوا الحِصْنَ؛ وهم سبعون رجلاً مع شيبب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً، وقال لأصحابه: احرقوا الباب، فإذا صار جُحْراً فدَعَوْه، فإنهم لا يقدرُونَ على الخروج حتى نصبح^(٤) فنقتلهم، ففعِلُوا ذلك بالباب؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم.

فقال شيبب لأصحابه: يا هؤلاء، ماتتظرون! فوالله إن صَبَّحَوكُم غُدْوَة^(٥) إنه هلاككم، فقالوا له: مُرْنَا بأمرِك، فقال لهم: [إن الليل أخفى للويل]^(٦)؛ يا بعيونى إن شتَم، أو بايعوا مَنْ شتَم منكم، ثم اخرجوا بنا حتى نُشَدَّ عليهم في عسكرهم، فإنهم آمنون منكم، وإني أرجو أن ينصرَكُم الله عليهم. قالوا: ابسط يدك فبايعوه، فلما جاءوا

(١) جُلُولاء: موضع في طريق خراسان، بينه وبين خَانَقِينَ سبعة فراسخ، وخَانَقِينَ في نواحي السواد في طريق همدان.

(٢) في الطبرى: «المدبج: من أرض الموصل، على تخوم ما بيننا وبين أرض جوخي».

(٣) الكردوس: القطعة من الخيل، وجمعه كراديس.

(٤) الطبرى: «نصبحهم».

(٥) صبحوكم: أغاروا عليكم صباحاً.

(٦) من الطبرى.

إلى الباب ، وجدوه جُحراً ، فأتوه باللبود^(١) فبلّوها بالماء ، ثم ألقوها عليه وخرجوا ، فلم يشعر الحارث بن عميرة إلا وشيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم ، فضارب الحارث حتى صرع ، واحتمله أصحابه ، وانهزموا وخلّوا لهم المسكر وما فيه ، ومضوا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شيب^(٢) .

[دخول شيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع في أداني أرض الموصل^(٣) ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يجيئ الخراج ، وكان سفيان بن أبي العالية قد أمر أن يحارب صاحب طبرستان ، فأمر بالقول نحو شيب ، وأن يصلح صاحب طبرستان ، فصالحه ، فأقبل في ألف فارس ، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج :

^(٤) أما بعد ، فأقم بالدسكرة فيمن معك ؛ حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة . قاتل صالح بن مسرح ، ثم سِرَّ إلى شيب حتى تناجزه^(٥) .

ففعل سفيان ذلك ، ونزل إلى الدسكرة حتى أتوه ، وخرج مرتحلاً في طلب شيب ، فارتفع شيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم ؛ وقد أكنن لهم أخاه مصاداً في خمسين رجلاً ، في هضم^(٥) من الأرض ، فلما رأوا شيباً جمع أصحابه ، ومضى في سفح من الجبل

(١) اللبد : كل شعر أوصوف . تبلى ، سمي به للصوق بعنه بعض ، وجمعه لبود .

(٢) في الطبري بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) في الطبري بعدها : « ونحوم أرض جوحى »

(٤-٤) الكتاب كما في الطبري : « أما بعد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الممداني بن ذى الشعار ، وهو الذي قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : السكتان للخصم من الأرض ، وفي الطبري : « هزمه » .

مشرقاً ، قالوا : هرب عدو الله ، واتبعوه . فقال لهم عَدِيّ بن عميرة الشيباني : أيّها الناس ؛ لا تعجلوا عليهم حتى نضرب في الأرض ونستبرئها ^(١) ؛ فإن يكونوا أكنوا كميناً حَذَرناهُ ؛ وإلا كان طلبهم بين أيدينا ، لن يفوتنا . فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا في آثارهم .

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين ، عطّف عليهم ، فحملَ من أمامهم ، وخرج الكمين من ورائهم ؛ فلم يقاتل ^(٢) أحد ؛ وإنما كانت الهزيمة ، وثبت سُفيان بن أبي العالية في مائتي رجل ؛ فقاتل ^(٣) قتالا شديداً حتى انتصفَ من شبيب ^(٤) ؛ فقال سويد بن سليم لأصحابه : أَمِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَمِيرَ الْقَوْمِ ابْنَ أَبِي الْعَالِيَةِ ^(٥) ؟ فقال له شبيب : أَنَا مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِهِ ، أَمَا تَرَى صَاحِبَ الْفَرَسِ الْأَغْرَ الَّذِي دُونَهُ الْمَرَامِيَةُ إِفَانُهُ هُوَ ، ^(٦) فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُهُ فَأَمِهِلْهُ قَلِيلاً .

ثم قال : يَا قَعْنَبَ ، اخْرُجْ فِي عَشْرِينَ ، فَاتِهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ . فخرج قَعْنَبُ فِي عَشْرِينَ فَارْتَفَعَ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ يَرِيدُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، جَعَلُوا يَنْتَقِصُونَ وَيَتَسَلَّلُونَ ، وَحَمَلَ سَوِيدُ بْنُ سُلَيْمٍ عَلَى سُفْيَانَ بْنِ أَبِي الْعَالِيَةِ ^(٦) بِطَاعِنُهُ ، فَلَمْ تَصْنَعْ رِمَاحُهُمَا شَيْئاً ، ثُمَّ اضْطَرَبَا بِسَيْفَيْهِمَا ، ثُمَّ اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، فَوَقَعَا إِلَى الْأَرْضِ بِعَتَرِ كَانِ ، ثُمَّ تَحَاجَزَا ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ شَبِيبٌ ؛ فَانْكَشَفَ مَنْ كَانَ مَعَ سُفْيَانَ ؛ وَنَزَلَ غَلامٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ غَزْوَانٌ عَنْ بَرْدَوْنِهِ ، وَقَالَ لِسُفْيَانَ : ارْكَبْ يَا مَوْلَايَ ، فَرَكِبَ سُفْيَانُ ، وَأَحَاطَ بِهِ أَصْحَابُ شَبِيبَ ، فَقاتل دونه غزوان حتى قُتِلَ ، وَكَانَ مَعَهُ رَايَتُهُ ، وَأَقْبَلَ سُفْيَانُ مِنْهَزِماً ؛ حَتَّى انْتَهَى

(١) يُقَالُ : اسْتَبْرَأَ أَرْضَ بَنِي فُلَانٍ ، إِذَا سَارَ فِيهَا وَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا . وَفِي الطَّبَرِيِّ : « نَسِيرُ بَهَا » .

(٢) الطَّبَرِيُّ : « فَلَمْ يَقَاتِلْهُمْ أَحَدٌ » .

(٣-٤) الطَّبَرِيُّ : « فَقَاتَلَهُمْ قِتَالاً شَدِيداً حَسَنًا حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ انْتَصَفَ مِنْ شَبِيبٍ وَأَصْحَابِهِ » .

(٤) فِي الطَّبَرِيِّ بَعْدَهَا : « فَوَاللَّهِ لَنْ عَرَفْتَهُ لِأَجْهَدَ نَفْسِي فِي قِتْلِهِ » .

(٥) الطَّبَرِيُّ : « فَإِنَّهُ ذَلِكَ » .

(٦) الطَّبَرِيُّ : « قَطَّاعُهُ » .

إلى بابل مَهْرُودَ ، فنزل بها ؛ وكتب إلى الحجاج ^(١) ، وكان الحجاجُ أَمَرَ سَوْرَةَ ابن أبحر أن يَلْحَقَ بسفيان ، فكَاتَبَ سورةُ سفيانَ ، وقال له : انتظرني ؛ فلم يفعل وَحَجِلَ نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ، قال للناس : مَنْ صَنَعَ كما صَنَعَ هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه بمذره ^(٢) ، ويقول : إذا خَفَّ عليك الْوَجَعُ فَأَقْبِلْ مَاجُورًا إلى أهلك . وكتب إلى سورة بن أبحر :

^(٣) أما بعد يا بن أمّ سورة ، فأكنتَ خليقاً ^(٤) أن تجترى على تركِ عهدي ، وخذلانِ جُنْدِي ، فإذا أتاكَ كتابي فابعث رجلاً مِن مَعِكَ صَليباً إلى ^(٥) المدائن ، فلينتخبَ من جندها خمسمائة رجل ، ثم ليقدّم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم] ^(٥) حتى تَلْقَى هذه المارقة ، واحزم [في] ^(٥) أمرك ، وَكِدْ عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ أَمْرِ الْحُرُوبِ حُسْنُ الْمَكِيدَةِ . والسلام .

فلما أتى سَوْرَةَ كتابُ الحجاج بعث عديّ بن عمير إلى المدائن ، وكان بها ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحل بهم ^(٧) حتى قدِمَ على سَوْرَةَ ببابل مَهْرُودَ ،

(١) كتابه إلى الحجاج كما في الطبري : « أما بعد ؛ فإنّي أخبر الأميرَ أصلحه الله ! أنّي اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينما نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيباً عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت في رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خربت بين القتلى ، فحملت مرتثاً ، فأتى بي بابل مَهْرُودَ ، فها أناها والجنود الذين وجههم الأمير وافوا لاسورة بن أبحر ، فإنه لم يأتني ، ولم يشهد معي ، حتى إذا ما نزلت بابل مَهْرُودَ أتاني يقول ما لا أعرف ، ويعتذر بغير العذر والسلام . »
(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما في الطبري : « أما بعد ، فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذي عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مَاجُورًا إلى أهلك . والسلام . »

(٣-٣) الطبري : « أما بعد فيا بن أم سورة ، ما كنت خليقاً أن تجترى على . »

(٤) الطبري : « إلى الخيل التي بالمدائن . »

(٥) من الطبري .

(٦) عبارة الطبري : « ثم دخل على عبد الله بن أبي عصفير ، وهو أمير المدائن إمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثواباً ، ثم إنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه ، حتى قدم بهم على سورة . . . »

فخرج بهم في طلب شبيب، وخرج شبيب يَجُول في جُوحى^(١)، وسورة في طلبه، فجاء شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فاتهب المدائن الأولى، وأصاب دواباً من دواب الجند، وقتل مَنْ ظهر له، ولم يدخل البيوت، ثم أتى فقيلاً له: هذا سورة قد أقبل إليك، فخرج في أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان، فنزلوا به وتوضّئوا وصلوا، ثم]^(٢) أتوا مصارع إخوانهم الذين قتلهم على بن أبي طالب، فاستغفروا لهم، وتبرءوا من علي وأصحابه، وبكوا فاطلوا البكاء، ثم عبّروا جسر النهروان، فنزلوا جانبه الشرقي، وجاء سورة حتى نزل بنفطرا^(٣) وجاءته عيونه، فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان، فدعا سورة رهوس أصحابه، فقال لهم: إن الخوارج قلما يُلقَوْنَ في صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا، وقد حدثت أنهم لا يزيدون على مائة رجل؛ وقد رأيتُ أن أنتخبكم، وأسير في ثلثائة رجل منكم، من أقويائكم وشجعانكم فأبيتكم^(٤) فإنهم آيسون من بيأتكم^(٥)، وإني والله أرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم في النهروان من قبل، فقالوا: اضنع ما أحبيت.

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلثائة من شجعان أصحابه، ثم أقبل بهم حتى قرّب من النهروان، وبات وقد أذكى الحرس، ثم بيّتهم؛ فلما دنا أصحاب سورة منهم نذروا^(٥) بهم؛ فاستووا على خيولهم، وتعبّوا تعبيتهم؛ فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم، وقد نذروا، فحمل عليهم سورة، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم

(١) جوحى، بالقصر وقد يفتح: نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه لردان، وهو بين خاتين وخوزستان، قلوا: ولم يكن ببغداد مثل كورة جوحى، كان خارجها ثمانين ألف ألف درهم، حتى صرفت دجلة عنها لغربت، وأصابهم بعد ذلك طاعون شيرون فأُتِيَ عليهم، ولم يكن السواد في إدمار من ذلك الطاعون. مراصد الإصلاخ ١: ٣٥٥

(٢) من الطبرى.

(٣) كذا في الأصول وفي الطبرى: «قطرانا».

(٤-٤) الطبرى: «فأبيتكم الآن فإنهم آمنون لبياتكم».

(٥) نذروا بهم: علموا بهم وفي ج: «حذروا».

حتى تركوا له العرصة ، وحمل شيب ، وجعل يضرب ويقول :

« مَنْ يَنْكِ الْعَيْرَ يَنْكِ نَيْكًا ^(١) »

فرجع ^(٢) سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوة من أصحابه ، وأقبل نحو المدائن ، وتبعه شيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوت ، وخرج ابن أبي عصفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ في جماعة ، فلقبهم في شوارع المدائن ، ورماهم الناس بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شيب إلى تكريت ^(٣) ، فبينما ذلك الجند بالمدائن إذ أُرْجِفَ ^(٤) الناس فقالوا : هذا شيب قد أقبل يريد أن يبيت أهل المدائن ، فارتحل عامة الجند ، فلحقوا بالكوفة ، ^(٥) وإن شيبا بتكريت ، فلما أتى الحجاج ^(٥) الخبر ، قال : قبح الله سورة ! ضيع العسكر وخرج يبيت الخوارج ؛ والله لأسوءه ^(٦) .

(١) بقيته في الطبرى :

« جَنْدَلَتَانِ اصْطَكَّتَا اصْطَكَّا كَا »

(٢-٣) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم الفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتهدى الطريق الذى فيه شيب ، واتبعه شيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره ، ويصيب بهزئته أهل العسكر ؛ فأغذ السير في صابهم ، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها ، وجاء شيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل الناس ، وخرج ابن أبي عصفير في أهل المدائن ، فرماه بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ، فارتفع شيب بأصحابه عن المدائن ، فرعى كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير في أرض جوخي ثم مضى نحو تكريت ... » .
(٣) أُرْجِفَ القوم ، أى خاضوا في الأخبار السيئة ، وذكر الثقفن ، على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شئ ، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ .

(٤) في الضبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمي : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليلة ، وإن شيبا بتكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج ، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الكندى » .
(٥) في الطبرى : « عن فضيل بن خديج الكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال ... » .
(٦) في الضبرى : « وكان قد حبه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجزل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتهم فلا تعجل سَجَلَةَ الخرقِ الزرق^(١) ، ولا تحجم إحجام الوانى الفرق^(٢) ، أفهمت^(٣) ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛ قال : فاخرج عَسْكَرَ بَدِيرِ عبد الرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلح الله الأمير ! لا تبعثُ معي أحداً من الجند المهزوم المفلول ، فإنَّ الرعبَ قد دخل قلوبهم ، وقد خشيت ألا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنتَ الرأى ، ووَفَّقْتَ ؛ ثم دعا أصحاب الدواوين ، فقال : اضربوا عَلَى النَّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعة آلاف من الناس ، وعَجَلُوا ، فجمعت العُرَفاءُ ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضَرَبُوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللاحاق بالعسكر ؛ ثم نُودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِثْتَ الذِّمَّةَ مِنْ رَجُلٍ أَصْبَنَاهُ مِنْ بَعَثِ الْجَزْلِ متخلفاً .

فمضى بهم الجزل ، [وقد قدَّم بين يديه عياض بن أبى لينة الكندى على مقدمته فخرج]^(٤) ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثاً ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبى عصفير بفرس وبرذون وألنى درهم ، ووضع للناس من الحطب^(٥) والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأضاف الناس ما شاءوا من ذلك .

ثم إنَّ الجزل خرج بالناس إثرَ شبيب ، فطلبه في أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتَقَاقٍ إلى رُسْتَقَاقٍ ، ومن طَشُوجٍ إلى طَشُوجٍ [ولا يقيم له]^(٤) ،

(١) الخرق : الرجل الأحمق ، والزرق : الطائش الخفيف عند الغضب .

(٢) الفرق : الشديد الفزع .

(٣) في الطبرى بعدها : « لله أنت يا أخا بنى عمرو بن معاوية » .

(٤) من انطبرى .

(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرّق الجزل أصحابه ، ويتعجّل إليه فيلقاه في عدَدٍ يسير على غير تعبٍ ؛ فجعل الجزل لا يسير إلا على تعبٍ ؛ ولا ينزل إلا خندق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شبيب ، دعا يوماً أصحابه ؛ وهم مائة وستون رجلاً ، وهو في أربعين ، ومصاد أخوه في أربعين ، وسويد بن سليم في أربعين ، والمجمل بن وائل في أربعين ؛ وقد أتته عيونه [فأخبرته] ^(١) ، أن الجزل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد ^(٢) . فقال لأخيه وللاُمراء الذين ذكرناهم : إني أريد أن أبيت الليلة هذا العسكر ، فأتيهم أنت يا مصاد من قبل حلوان ^(٣) ، وسأتيهم أنا من أمامهم من قبل الكوفة ، وأتيهم أنت يا سويد من قبل المشرق ، وأتيهم أنت يا مجمل ، من قبل المغرب ، وليدج كل امرئ منكم على الجانب الذي يحمل عليه ، ولا تفلعوا عنهم حتى يأتيتكم امرئ .

قال فروة بن لقيط ^(٤) : وكنتُ أنا في الأربعين الذين كانوا معه ^(٥) ، فقال لجماعتنا : تيسّروا ؛ وليسر كل امرئ منكم مع أميره ، ولينظر ما يأمره به أميره فليتبعه ؛ فلما فصمت دوابنا - وذلك أول ما هدأت العيون - خرجنا حتى انتهينا إلى دير الحرارة ، فإذا القوم عليهم مسلحة ابن أبي لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شبيب حتى حمل عليهم في أربعين رجلاً ، وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيتهم من ورائهم ، كما أمره ^(٥)

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) أطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد ممابلى العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعد البصرة والكوفة ، وواسط بغداد أكبر منها . (مراسد الاملاص) .

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥-٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ما هدأت العيون ، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الحرارة ، فإذا القوم مسلحة ، عليهم عياض بن لينة ، فما هو إلا أن انتهينا إليهم ، حمل عليهم مصاد أخو شبيب فى أربعين رجلاً - وكان أمام شبيب - وقد كان أراد أن يسبق شبيباً حتى يرتفع عليهم ويأتيتهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِيَ هؤلاء قاتلهم ، فصبروا له ساعة ، وقتلواهم . ثم إِنَّا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدَجِرْد إلا نحو ميل ^(١) ، فقال لنا شبيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملطّين ^(٢) بهم ، ملحّين عليهم ، ما نُرْفِهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همة إلا عسكرهم .

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، ورشقوهم ^(٣) بالنبل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم ، فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خندق عليهم وتحرز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخرامة] ^(٤) ، ووضع مسلحة أخرى مما تبلى حُلوان .

فلما اجتمعت المسالِح ، ورشقوهم أصحابهم بالنبل ، ومنعونا من خندقهم ، نظر شبيب أنه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ، فلما سار عنهم أخذَ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فافصموا دوابَّكم ، وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك . ثم أقبل بهم راجعا إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التي عبأتكم عليها أوّل الليل ، وأطيفوا ^(٥) بعسكركم كما أمرتكم ، فأقبلنا معه ، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم ، وأمنوا ، فاشعروا حتى سمِعُوا وقع حوافر الخيل ، فأنهينا إليهم قبيل الصبح ، وأحطنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنبل ، فقال شبيب لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

(١) الطبري : « قريب من ميل » .

(٢) ملطّين : ملحين .

(٣) الطبري : « ورشقونا » .

(٤) من الطبري .

(٥) الطبري : « ثم أطيفوا بعسكركم » .

الذى يلى الكوفة : خَلَّ لهم سبيل [طريق] ^(١) الكوفة ، فحَلَّى لهم ، وقتلناهم من [تلك] ^(٢) الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح ^(٣) ، ثم سرنا وتركناهم ، لأننا لم نظفر بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل في أثره يطلبه ، وجعل لا يسير إلا على تعبئة وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب في أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمره على الحجاج ، فكتب إلى الجزل كتاباً قرىء على الناس ، وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتكم في فرسان [أهل] ^(١) المِصر ووجوه الناس ، وأمرتكم باتِّباع هذه ^(٢) المارقة ، وألا تغلغ عنها حتى تقتلها وتغنيها ^(٣) ؛ فجعلت ^(٤) التعرّيس في القرى ، والتخميم في الخنادق . أهونَ عليكم من المِضى لماهضتهم ومناجزتهم . [والسلام] ^(٥) .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لبث الناس أن بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميراً بدله ، وعهد إليه : إذا لقي المارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صنْعَ الجزل ^(٦) ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيباً ، حمّد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهلَ الكوفة ، إنكم قد عجّزتم ووهّنتم ، وأغضبتم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب العُجف منذ شهرين ، قد أخربو بلادكم ، وكسروا أراجكم ؛ وأنتم

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .

(٣-٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تغلغ عنها حتى تقتلها وتغنيها » .

(٤) الطبرى : « فوجدت » .

(٥) في الطبرى ، بعدها : « قرىء الكتاب علينا ، ونحن يقطرتنا ودير أبى مريم » .

(٦) بعدها في الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع » .

حَذِرُونَ فِي جَوْفِ هَذِهِ الْخَنَاقِ لَا تُزَايِلُونَهَا ؛ إِلَّا أَنْ يَبْلَغَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ ارْتَحَلُوا عَنْكُمْ ، وَنَزَلُوا
بَلَدًا سِوَى بَلَدِكُمْ ؛ اخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ خَرَجَ وَخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ ^(١) ، فَقَالَ لَهُ الْجَزَلُ : مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ قَالَ : أَقْدُمُ عَلَى
شَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ فِي هَذِهِ الْخَلِيلِ ، فَقَالَ لَهُ الْجَزَلُ : أَيْمُ أَنْتَ فِي جَاعَةِ النَّاسِ ^(٢) ، فَارْسِهِمْ
وَرَاغِلِهِمْ ^(٣) ؛ وَلَا تَفَرِّقْ أَصْحَابَكَ ، وَدَعْنِي أَصْحَرُ لَهُ ^(٤) ؛ فَإِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ وَشَرٌّ لَهُمْ ^(٥)
فَقَالَ سَعِيدٌ : بَلْ تَقِفُ أَنْتَ فِي الصَّفِّ ، وَأَنَا أَصْحَرُ لَهُ ، فَقَالَ الْجَزَلُ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ رَأْيِكَ
هَذَا ؛ سَمِعْتُ اللَّهَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ! فَقَالَ سَعِيدٌ : هُوَ رَأْيِي ؛ إِنْ أَصَبْتُ فِيهِ ، فَاللَّهُ
وَقَفَّيْ ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ ^(٦) فِيهِ فَأَنْتُمْ بَرَاءَةٌ .

فَوَقَفَ الْجَزَلُ فِي صَفِّ [أَهْلِ] ^(٧) الْكُوفَةِ ، وَقَدْ [أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْخَنْدَقِ وَ] ^(٨) جَلَّ
عَلَى مِيمَتِهِمْ عِيَاضُ بْنُ أَبِي لَيْثَةَ الْكِنْدِيُّ ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ
أَبَا حُمَيْدٍ الرَّاسِبِيُّ ^(٩) ؛ وَوَقَفَ الْجَزَلُ فِي جَمَاعَتِهِمْ ، وَاسْتَقْدَمَ سَعِيدُ بْنُ مَجَالِدٍ [فَخَرَجَ] ^(١٠)
و [أَخْرَجَ] ^(١١) النَّاسَ مَعَهُ ؛ وَقَدْ أَخَذَ شَيْبٌ إِلَى بَرَّازِ الرَّوْزِ ^(١٢) ، فَنَزَلَ قَطْفَتًا ،
وَأَمَرَ دِهْقَانَهَا أَنْ يَشْوِيَ لَهَا غَنَمًا ، وَيَعِدَّ لَهَا غَدَاءً ، فَفَعَلَ ، وَأَغْلَقَ مَدِينَةَ قَطْفَتًا ، وَلَمْ يَفْرُغْ

(١) فِي الطَّبَرِيِّ بَعْدَهُمَا : « وَجَمَّ إِلَيْهِ خِيُولُ أَهْلِ الْمَكَّةِ » .

(٢) الطَّبَرِيُّ : « الْجَيْشِ » .

(٣-٣) عِبَارَةُ الطَّبَرِيِّ : « وَاصْحَرَهُ ، فَوَاقَهُ لِيَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ » ؛ فَلَا تَفَرِّقْ أَصْحَابَكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
شَرٌّ لَهُمْ وَخَيْرٌ لَكَ » .

(٤) أَصْحَرُ الْقَوْمِ ؛ إِذَا بَرَزُوا فِي الْمَحَرِّ ؛ لَا يَوَارِيهِمْ شَيْءٌ .

(٥) الطَّبَرِيُّ : « وَإِنْ يَكُنْ غَيْرُ صَوَابٍ » .

(٦) مِنَ الطَّبَرِيِّ .

(٧) فِي الْأَصُولِ : « وَأَبَا حُمَيْدٍ » ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الطَّبَرِيِّ .

(٨) بَرَّازُ الرَّوْزِ ، بِالزَّيِّ ، وَالْفُ وَالْأَمِّ وَرَاءَ مَضْمُونَةٍ : مِنْ طَسَاسِيجِ السَّوَادِ يَبْقَدَادُ ؛ مِنَ الْجَسَابِ
الْمَشْرِقِيِّ مِنْ اسْتَنْانِ الْبَهْقَبَازِ ، كَانَ لِلْمَعْتَصِدِ بِهِ أَهْنِيَّةٌ جَلِيلَةٌ . (مَرَاوِدُ الْإِطْلَاعِ) .

الدّهقان من طعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعد الدّهقان ، ثم نزل ، وقد تغيّر لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أبلغ ^(١) شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دعه يبلغ ، ثم أشرف الدّهقان بإشرافه أخرى ، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجوسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترث بهم ، ولا فزع ، فلما فرغ قال لأصحابه : قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلّى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرجوا لي بغلتي ، فقال أخوه : أفي مثل هذا اليوم تركب ^(٢) بغلة ؟ قال : نعم ، أسرجوها ، فركبها ، ثم قال : يا فلان ، أنت على اليمين ، وأنت يا فلان على اليسرة ، وأنت يا مصاد - يعني أخاه - على القلب ، وأمر الدّهقان بفتح الباب في وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكم ^(٣) ، وحمل حملة عظيمة ، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقري ، حتى صار بينهم وبين الدّير ميل ، وشبيب يصيح : أناكم الموت الزّوأم ! فاثبتوا ، وسعيد يصيح : يا معشر همدان ، إلىّ إلىّ ، أنا ابن ذى مران ! فقال شبيب لمصاد : ونحك ! استعرضهم استعراضاً ؛ فإنهم قد تقطعوا ، وإني حامل على أميرهم ، وأثكلنك الله ، إن لم أثكله ولده ، ثم حل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ ثم سقط ميتا وانهزم أصحابه ، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتل سعيد إلى الجزل ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ؛ وصاح عياض ابن أبي لينة : أيها الناس ، إن يكن أميركم هذا القادم هلك ، فهذا أميركم الميمون النقيبة ، أقبلوا إليه ؛ فمنهم من أقبل إليه ، ومنهم من زكب فرسه منهزما ، وقاتل الجزل يومئذ قتالا شديداً ، حتى صرع ، وحامى عنه خالد بن نهيك ، وعياض بن أبي لينة ؛ حتى استنقذاه

(١) الشبرى : « أبلغ الشواء » ، وبلوغ الشواء : نضجه .

(٢) الشبرى : « تسرج » .

(٣) الحكميم : قول الخوارج : « لا حكم إلا لله » .

مرتين ، وأقبل الناس منهزمين ؛ حتى دخلوا الكوفة ، وأتى بالجزل جريحا ، حتى دخل المدائن ، فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ، أنى خرجتُ فيمن قبلى من الجند الذى وجهنى فيه إلى عدوه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلى فيهم ورأيه ؛ فكنتُ أخرجُ إلى المارقين ^(١) إذا رأيتُ الفرصة ، وأحبس [الناس] ^(٢) عنهم إذا خشيتُ الورطة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر ، وأرفقُ فى التدبير ؛ وقد أراذنى العدو بكل مكيدة ، فلم يُصب منى غرة ، حتى قدم على سعيد بن مجالد ، فأمرته بالتؤدة ، ونهيته عن العجلة ، وأمرته ألا يقتلهم إلا فى جماعة الناس عامة ، فعصانى وتعمّل إليهم فى الخيل ، فأشهدتُ الله عليه وأهل المضرين أنى برىء من رأيه الذى رأى ، وأنى لا أهوى الذى صنع ، فضى فقتل ، تجاوز الله عنه ، ودفع ^(٣) الناس [إلى] ^(٤) فزلت ودعوتهم إلى نفسى ^(٥) ورفعتُ رابتي ، وقاتلت حتى صرعت ، فخبلى أصحابى من بين القتلى ، فما أفتت إلا وأنا على أيديهم ، على رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمدائن ، وفى جراحات قد يموت الإنسان من دونها ؛ وقد بعانى من مثلها ؛ فليسأل الأمير أصلحه الله عن نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدي عدوه ، وعن موقفى يوم البأس ؛ فإنه سيبين له عند ذلك أنى صدقته ونصحت له . والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

(١) الطبرى : « إليهم » .

(٢) من الطبرى

(٣) دفع الناس ، أى جاءوا مرة مجتمعين .

(٤) الطبرى : « ودعوتهم إلى » .

أما بعد ، فقد أتاني كتابك وقرأته ، ^(١) وفهمت كل ما ذكرت فيه من أمر سعيد وأمر نفسك ، وقد صدقتك في نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك ، وشدتك على عدوك ، وقد رضيت بحجة سعيد وتؤدتك ^(٢) . فأما مجلتك ؛ فإنها أفضت به إلى الجنة ، وأما تؤدتك ؛ ^(٣) فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم ^(٤) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصت إليك جبار بن الأعز ^(٥) الطيب ليدأويك ، ويعالج جراحاتك ؛ وقد بعثت إليك بالنقود درهم نفقة تصرفها في حاجتك وما ينوبك ^(٦) . والسلام .

وبعث عبد الله بن أبي عصفير وإلى المدائن إلى الجزل بألف درهم ؛ وكان يتعوده ويتعاهده بالأنطاف والهدايا .

وأما شبيب ، فأقبل حتى قطع دجلة عند الكرخ ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة ؛ وبلغ الحجاج مكانه بجمام أعين ؛ فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعدي ، فجهزه بالنقود فارس منتخبين ، وقال له : اخرج إلى شبيب فآلقه ولا تتبعه ؛ فخرج بالناس بالسبخة ^(٧) ، وبلغه أن شبيباً قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يساق إلى الموت هو وأصحابه ، وأمر الحجاج عثمان بن قطن ، فعسكر بالناس في السبخة ، ونادى : ألا برئت الذمة من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قطن بالسبخة ، فبينما سويد بن عبد الرحمن يسير في الألفين الذين معه ؛ وهو يعيهم ويحرضهم ؛ إذ قيل له :

(١-١) الطبري : « وفهمت كل ما ذكرت فيه ، وقد صدقتك في كل ما وصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ما ذكرت من أمر سعيد ومجلك إلى عدوه وتؤدتك » .

(٢-٢) الطبري : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمكن حزم » .

(٣) الطبري : « حيان بن أبيجر » .

(٤) في الطبري بهـ : « فقدم عليه حيان بن أبيجر السكناني ، من بني فراس ؛ وهم يبالغون في الكي وغيره ، فكان بدأويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيك شبيب ؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته فأخبر أنّ شبيباً لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضةً ^(١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذي سويده ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراه ! فنادى في أصحابه ، فركبوا في آثارهم ، فأتى شبيب دار الرزق فنزلها ، وقيل له : إنّ أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكان شبيب ، ماجّ الناس بعضهم إلى بعض ، وجالوا وهموا بدخول الكوفة ، حتى قيل : هذا سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم في الخيل ؛ ومضى شبيب حتى أخذ على شاطئ الفرات ، ثم أخذ على الأنبار ، ثم دخل دقوقاء ، ثم ارتفع إلى أدامي أذربيجان .

وخرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة ، حيث بعد شبيب ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ؛ فما شعر الناس إلا بكتاب [من] ^(٢) ما دارست ^(٣) ، دهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أنّ تاجراً من تجار [الأنبار من] ^(٤) أهل بلادى

(١) المخاضة : موضع الخوض في الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح اوله وضم ثانيه وبعد الواو كاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين إربل وبنداد معرفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر في الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبي عامر الذهلي يرثيهم :

شَبَابٌ أَطَاعَ اللَّهَ حَتَّى أَحَبَّهُمْ	وَكُلُّهُمْ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ
فَلَمَّا تَبَوَّأُوا مِنْ دَقُوقَا بَمَنْزِلٍ	لِمِعَادٍ إِخْوَانٍ تَدَاعَوْا فَأَجْمَعُوا
دَعَوْا خَصْمَهُمْ بِالْحِكْمَاتِ وَبَيَّنُّوا	ضَلَالَتَهُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ يَسْمَعُ
بِنَفْسِي قَتَلَى فِي دَقُوقَاءِ غُودِرَتْ	وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهَا رُؤُوسٌ وَأُذْرُعُ
لِتَبْكِ نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ	وَفِي دُونِ مَا لَاقَيْنَ مَبْكَىً وَجَجْرُعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ما ذروا سب » .

أتانى يذكر أن شيبياً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل ، وأحببت إعلامك [ذلك] ^(١) لترى رأيك ؛ ^(٢) وإني لم ألبث بعد ذلك إذ جاءني اثنان من جيراني ^(٣) فحدثاني أن شيبياً قد نزل خانيجار ^(٤) .

فأخذ عروة كتابه ، فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة . فلما قرأ الحجاج أقبل جاداً ^(٥) إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] ^(٦) حتى انتهى إلى قرية حرّبي ^(٧) على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال ^(٨) لأصحابه : يا هؤلاء ، إن الحجاج ليس بالكوفة ، وليس دون أخذها شيء ، إن شاء الله . فسيروا بنا فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج أن شيبياً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فاعجل العجل .

فطوى الحجاج المنازل مسابقاً ^(٩) لشبيب إلى الكوفة ، فسبقه ونزلها صلاة العصر ، ونزل شبيب السبخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة في أصحابه ؛ حتى انتهى إلى السوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدث جماعة ^(١٠) أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

(١) من الطبرى

(٢-٣) الطبرى : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءني جليان من جيراني » .

(٣) خانيجار : بلدة قريبة من دقواء .

(٤) الطبرى : « جوادا » .

(٥) قال باقوت : « حربى مقصور ، والعامّة تلفظ به محلاً : بليدة في أقصى دجيل ، بين بغداد و تكريت مقابل الحظيرة » . .

(٦) في الطبرى بعدها : « فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربى ، فقال : حرب يصلى بها عدوك ، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؛ إنما يتطير من يقوف ويهيف . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقر قوفاً ، فقال له سويد بن سليم : يا أمير المؤمنين ؛ لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤمة الاسم ؟ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحوّل عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوك ، تحمّلون عليهم فيها ، فاعقر لهم » .

(٧) « واستبقا إلى الكوفة » .

(٨) الطبرى : « قال أبو المنذر ؛ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَانَ حَافِرَهَا بِكَلِّ ثَنِيَّةٍ فَرَّقَ يَكِيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُقَدِّمٌ ^(١)

^(٢) ثم أقام هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلون ^(٣) فيه ، فقتل منهم جماعة ومرّ هو بدار حَوْشَب - وكان هو على شُرْطَةِ الحِجَاج - فوقف على بابه في جماعة ، فقالوا : إِنَّ الأمير - يعنون الحِجَاج - يدعو حوشبا ، وقد أخرج ميمون غلامه بِرْذَوْنَه ليركب [فكَأَنَّهُ أَنْكَرَهُمْ ، فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ] ^(٤) فَأَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : كَمَا أَنْتَ حَتَّى يَخْرُجَ صَاحِبُكَ إِلَيْكَ ، فَسَمِعَ حَوْشَبُ الْكَلَامَ ، فَأَنْكَرَ الْقَوْمَ ، وَذَهَبَ لِيَنْصَرِفَ فَعَجِلُوا نَحْوَهُ ، فَأَغْلَقَ الْبَابَ دُونَهُ ، فَقَتَلُوا غَلَامَهُ مِيمُونًا ، وَأَخَذُوا بِرْذَوْنَهُ ، وَمَضُوا حَتَّى مَرُّوا بِالْجَحَافِ بْنِ نَبِيطِ الشَّيْبَانِيِّ ، مِنْ رَهْطِ حَوْشَبِ . فَقَالَ لَهُ سُوَيْدٌ : انْزِلْ إِلَيْنَا ، فَقَالَ مَا تَصْنَعُ بِنَزُولِي ؟ فَقَالَ : انْزِلْ ، إِنِّي لَمْ أَقْضِ ثَمَنَ الْبَكْرَةِ الَّتِي ابْتَعْتَهَا مِنْكَ بِالْبَادِيَةِ ، فَقَالَ الْجَحَافُ : بَشْ سَاعَةَ الْقَضَاءِ هَذِهِ ! وَبَشْ الْمَكَانَ لِقَضَاءِ الدِّينِ هَذَا ! وَيْحَكَ ! أَمَا ذَكَرْتَ أَدَاءَ أَمَاتِكَ إِلَّا وَاللَّيْلِ مَظْلَمٌ ، وَأَنْتَ عَلَى مَتْنِ فَرْسِكَ ، قَبِحَ اللَّهُ يَأْسُودُ دَيْنُنَا لَا يَصْلُحُ وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ ^(٥) وَسَفَكَ الدَّمَاءَ ، ثُمَّ مَرُّوا بِمَسْجِدِ بَنِي ذُهْلٍ ، فَلَقُّوا ذُهْلَ بْنَ الْحَارِثِ ، وَكَانَ يَصَلِّي فِي مَسْجِدِ قَوْمِهِ ، فَبَطِلَ الصَّلَاةُ إِلَى اللَّيْلِ ، فَصَادَفُوهُ مُنْصَرِفًا إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَتَلُوهُ ^(٦) ثُمَّ خَرَجُوا مُتَوَجِّهِينَ نَحْوَ الرَّدْمَةِ ^(٧) ؛ وَأَمَرَ الْحِجَاجُ فَنَوْدَى : يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبُوا وَأَبْشُرُوا ، وَهُوَ فَوْقَ الْقَصْرِ يَنَادِي ، وَهَنَّاكَ مُصْبِحًا مَعَ غَلَامٍ لَهُ قَاتِمٌ .

(١) الفرق : مكيل اسم ثلاثة آسم ، أو ستة عشر رطلا . وفي الطبري : « كيل يسكيل به » ؛ وبعده :

عَبْدٌ دَعِيَ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ لَا بَلَّ يُقَالُ أَبُو أَبِيهِمْ يَقْدُمُ

(٢-٣) الطبري : « ثم افتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان كثيرا لا يفارقه قوم يصلون فيه » .
(٣) من الطبري .

(٤) الطبري : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) في الطبري : « فشدوا عليه ليقتلوه » ؛ فقال : اللهم إني أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم إني عنهم ضعيف فالتصر لي منهم ؛ فضر به حتى قتلوه » .

(٦) الطبري : « الردمة » .

وكان أول مَنْ جاء من الناس عثمان بن قطن ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، وقال :
أعلموا الأمير مكاني ، أنا عثمان بن قطن ، فيأمرني بأمره ، فناداه الغلام صاحب المصباح :
هَـفْ مكانك حتى يأتِيكَ أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلِّ جانب ، وبات عثمان مكانه
فيمين اجتمع إليه من الناس بمِئتي أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مروان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سجستان ، وكتب له
عهده إليها ، وكتب إلى الحجاج : إذا قدم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهِّز معه ألفي
رجل ، وحجِّل سراحه إلى سجستان .

فلما قدم الكوفة ، جلَّ يتجهز^(١) فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجِّل أيها الرجل إلى
عملك ، فإنك لا تدري ما يحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخوله الكوفة ، فقيل
للحجاج : إنَّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهره لأمر المؤمنين
عبد الملك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه منك منه ، قال : فإِ الحيلة ؟ قالوا : أن تذكُر له أن
شيبا في طريقه ، وقد أعياك ، وأنت ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر
ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنك عامل على كل بلد مررت به ، وهذا شبيب في طريقك
تجاهده ومن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عمك فاستجاب له .

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل ، وزياذ بن قدامة في ألفين ،
وأبا الضريس مولى تميم في ألف من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولى لبشر بن
مروان في ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعت تلك الأمراء في أسفل الفرات ، وترك شبيب
الوجه الذي فيه جماعة هؤلاء القواد ، وأخذ نحو القادسية ، فوجه الحجاج زحر بن قيس

(١) الطبري : « جعل يتجسس في الجهاز » ، والنحس : التوقف والتباطؤ .

في جَرِيْدَةِ خَيْلٍ ، تَقْنَاوَمَ ، عَدَتْهَا أَلْفٌ وَثَمَانِمِائَةٌ فَارَسَ ،^(١) وَقَالَ لَهُ : اتَّبِعْ شَيْبَا حَتَّى تَوَاقِعَهُ حَيْثُمَا أُدْرِكْتَهُ ؛ فَخَرَجَ زُحْرُ بْنُ قَيْسٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّيْلَحَيْنِ^(٢) ، وَبَلَغَ شَيْبَا مَسِيرُهُ إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ ، فَالْتَقِيَا ، وَقَدْ جَعَلَ زُحْرٌ عَلَى مِمْنَتِهِ عَبِيدُ اللَّهِ بْنِ كَنْتَارَ ، وَكَانَ شَجَاعًا ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ عَدَى بْنُ عَدَى بْنِ مُعْمِرَةِ الْكَنْدِيِّ ، وَجَمَعَ شَيْبٌ خَيْلَهُ كُلَّهَا كَنْسَكَبَةَ^(٣) وَاحِدَةً ، ثُمَّ اعْتَرَضَ بِهَا الصَّفَّ يُوجِفُ^(٤) وَجِيْفًا ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى زُحْرِ بْنِ قَيْسٍ ، فَزَلَّ زُحْرٌ ، فَقَاتَلَ حَتَّى صُرِعَ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ .

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ وَأَصَابَهُ الْبَرْدُ ؛ قَامَ يَمْشِي حَتَّى دَخَلَ قَرْيَةً ، فَبَاتَ بِهَا وَحَجَلَ مِنْهَا إِلَى الْكُوفَةِ ، وَبَوَّجَهُ أَرْبَعٌ^(٥) عَشْرَةَ ضَرْبَةً ، فَكَثَّ أَيَّامًا ، ثُمَّ أَتَى الْحَجَّاجَ ، وَعَلَى وَجْهِهِ [وَجْرَاهُ]^(٦) الْقُطْنُ ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ^(٧) . وَقَالَ أَصْحَابُ شَيْبٍ لَشَيْبٍ ؛

(١) قَالَ يَاقُوتُ : « ذَكَرَ سَيْلَحَيْنِ فِي الْفَتْوحِ وَغَيْرِهَا مِنَ الشُّعْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا قَرُبَ الْحَيْرَةِ ضَارِبَةٌ فِي الْبَرِّ قَرُبَ الْقَادِسِيَّةِ ؛ وَلَنَلْكَ ذِكْرَ الشُّعْرَاءِ أَيَّامَ الْقَادِسِيَّةِ مَعَ الْحَيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ ؛ فَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ ثُمَالَةَ بْنِ سَيْرٍ أَمْرَأَتَهُ مِنَ الْبَيْمَاتَةِ إِلَى الْكُوفَةِ :

فَرَّتْ بِيَابِ الْقَادِسِيَّةِ غَدَوَةٌ	وَرَاخَتْهَا بِالسَّيْلَحَيْنِ الْعَبَائِرُ
فَلَمَّا انْتَهَتْ دُونَ الْخَوْرَنْقِ عَادَهَا	وَقَصُرُ بَنِي الثُّعْمَانِ حَيْثُ الْوَاخِرُ
إِلَى أَهْلِ مِضَرٍ أَصْلَحَ اللَّهُ حَالَهُ	بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْجُهْدُ الْأَكْبَرُ
فَصَارَتْ إِلَى أَرْضِ الْجِهَادِ وَبَلَدَةٍ	مُبَارَكَةٍ وَالْأَرْضُ فِيهَا مَصَائِرُ
فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى	كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

(٢) الْكَبْكَبَةُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ

(٣) أَوْجِفْتَ الْحَيْلَ فِي السَّيْرِ : سَارْتَ سَيْرًا فَيَسِيرًا وَاسْمًا .

(٤) الطَّبْرِيُّ : « وَبَوَّجَهُ بَضْعَةُ عَشْرِ جِرَاحَةٍ ؛ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةِ وَطْعَانَةٍ .

(٥) مِنَ الطَّبْرِيِّ .

(٦) فِي الطَّبْرِيِّ بَعْدَهَا : « وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : مِنْ بَسَرِهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » .

وهم يظنون أنهم قد قتلوا زحراً : قد هزمنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً ؛ فانصرف بنا الآن موفورين^(١) . فقال لهم : ^(٢) « إن قتلكم هذا الرجل ^(٣) وهزيمتكم هذا الجند ؛ قد أربع هؤلاء الأمراء ^(٤) فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قتل الحجاج ؛ وأخذ الكوفة شيء . فقالوا له : نحن طوع لأمرك ورأيك ؛ فانفض بهم ^(٥) « جاداً ؛ حتى أتى ناحية عين التمر ؛ واستخبر عن القوم ، فعرف اجتماعهم في رؤذبار ^(٦) في أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة .

وبلغ الحجاج مسير شبيب إليهم ؛ فبعث إليهم ^(٧) : « إن جمعكم قتال ؛ فأمر الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى ^(٨) إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ؛ على جماعتهم زائدة بن قدامة ، وقد عي كل أمير أصحابه على حدة ، وهو واقف في أصحابه ، فأشرف شبيب على الناس ؛ وهو على فرس أغر كميته ^(٩) فنظر إلى تعبيتهم ؛ ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف ^(١٠) بها ، حتى إذا دنا من الناس ، مضت كتيبة فيها سويد بن سليم ؛

(١) الطبرى : وافرين .

(٢-٢) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أربعت هذه الأمراء والجنود التي بعثت في طلبهم . »

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شيء . وأخذ الكوفة إن شاء الله . »

(٤) الطبرى : « جواداً . »

(٥) في الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر . ونجران الكوفة ، على يمين منها ؛ فيما بينها وبين واسط ، على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم . وعين التمر : بلدة في طرف البادية على غربي الفرات ؛ أكثر نخلها القسب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مرصد الاطلاع) .
(٦) رؤذبار ؛ ضبطه صاحب مرصد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة ، وآخره راء ؛ قال : ويطلق على عدة مواضع .

(٧) في الطبرى : « بعث إليهم عبد الرحمن بن الفرق ، مولى ابن أبي عقيل ، وكان على الحجاج كريماً . »

(٨) الكلام في الطبرى ، عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) السكيت من الخيل : ما بين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان يجبهته غرة ..

(١٠) في الطبرى : « يوجفون بها . »

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفت بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسديّ ، وجاء شبيب في كتيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم في القلب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطيّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ؛ فاصبروا جعلت لكم الفداء ! إنما حملتان أو ثلاث ؛ ثم هو النصر ليس دونه شيء ؛ ألا تروّونهم والله لا يكونون مائتي رجل ، إنما هم أكلة رأس^(١) وهم الشراق المراق ؛ إنما جاءوكم ليُهرِّقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئبكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة ، غَضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى أمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، فكشف صفّه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كرّ عليهم ثانية^(٢) .

فقال فروة بن لقيط الخارجي^(٣) . اطمعنا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا^(٤) ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ ، وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لا يمرض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ؛ فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا تروّونهم يتقوّضون ! احمِلُوا عليهم ؛ فأرسل إلينا شبيب : خلّوهم لا تحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ؛ وإنه ليضربُ بالسيوف ؛ وما من سيف يُضربُ به

(١) يقولون : هم أكلة رأس ؛ أي هم قليل يشبههم رأس واحد .

(٢) في الطبري بعدها : « فاطعنوا ساعة »

(٣) في الطبري : « قال أبو مخنف خدني فروة »

(٤) في الطبري بعدها : « وجعل ينادي : يا خبي ، وبشد بالسيف ، فيقاتل قتالا شديدا » .

إِلَّا نَبَأَ عَنْهُ ؛ وَلَقَدْ اعْتَوْرَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِينَ سَيْفًا ، وَهُوَ مُجْتَفٍ ، فَمَا ضَرَّهُ شَيْءٌ مِنْهَا
ثُمَّ انْهَزَمَ ^(١) .

وَانْتَهَيْنَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ أَمِيرِ سَجِسْتَانَ عِنْدَ الْمَغْرِبِ ؛ وَهُوَ قَائِمٌ فِي أَصْحَابِهِ ؛
فَقَاتَلْنَاهُ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَصَبَرَ لَنَا .

ثُمَّ إِنْ مَصَادًا حَمَلَ ^(٢) عَلَى يَشْرَ بْنِ غَالِبٍ فِي الْمَيْسِرَةِ فَصَبَرَ وَكَرُمَ وَأَبْلَى ، وَنَزَلَ مَعَهُ
رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ نَحْوَ خَمْسِينَ ، فَضَارِبُوا بِأَسْيَافِهِمْ ^(٣) حَتَّى قَتَلُوا ثَمَّ انْهَزَمَ أَصْحَابُهُ فَشَدَّ ذُنَا عَلَى
أَبِي الضَّرِيرِ ؛ فَهَزَمْنَاهُ ، ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى مَوْقِفِ أَعْيُنَ ، ثُمَّ شَدَدْنَا عَلَى أَعْيُنَ ؛ فَهَزَمْنَاهُ حَتَّى
انْتَهَيْنَا إِلَى زَائِدَةَ بْنِ قَدَامَةَ ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ ؛ نَزَلَ وَنَادَى : يَا أَهْلَ الْإِسْلَامَ ، الْأَرْضَ
الْأَرْضَ ؛ أَلَا يَكُونُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ أَصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى إِيْمَانِكُمْ . فَقَاتَلُوا عَامَّةَ اللَّيْلِ
إِلَى السَّحَرِ .

ثُمَّ إِنْ شَبِيحًا شَدَّ عَلَى زَائِدَةَ بْنِ قَدَامَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ رِبِضَةَ ^(٤)
حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْحَقَاطِ ؛ وَنَادَى شَبِيحٌ فِي أَصْحَابِهِ : ارْفَعُوا السَّيْفَ ؛ وَادْعُوهُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ ؛
فَدَعَوْهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ إِلَى الْبَيْعَةِ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ^(٥) بْنُ جَنْدَبٍ : فَكُنْتُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ فَبَايَعَهُ بِالْخِلَافَةِ ؛ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى

(١) فِي الطَّبَرِيِّ بَعْدَهَا : « وَقَدْ جَرَحَ جِرَاحَةً بَسِيرَةً ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ شَدَدْنَا عَلَى عَبْدِ الْأَعْلَى
ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ ؛ فَهَزَمْنَاهُ وَمَا قَاتَلْنَا كَثِيرًا قِتَالًا ؛ وَقَدْ ضَارِبٌ سَاعَةً ؛ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ جَرَحَ ثُمَّ لَحِقَ
بِزِيَادِ بْنِ عَمْرٍو فَضَيًّا مُنْهَزِمِينَ ؛ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى . . . » .

(٢) السَّكَلَامُ هُنَا فِي الطَّبَرِيِّ عَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي مَخْنَفٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَنْدَبٍ وَفُرْوَةَ بْنِ لَقِيطٍ .

(٣) فِي الطَّبَرِيِّ بَعْدَهَا : « حَتَّى قَتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ؛ وَكَانَ فِيهِمْ عُرْوَةُ بْنُ زَهْرٍ بْنُ نَاجِدِ الْأَزْدِيِّ ، وَأُمُّهُ
زُرَّارَةُ ؛ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ فِي الْأَزْدِ ، فَيُقَالُ لَهُمْ بَنُو زُرَّارَةَ ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ ، مَالُوا فَشَدَّوْا عَلَى
أَبِي الضَّرِيرِ » .

(٤) فِي الطَّبَرِيِّ : « وَتَرَكْنَاهُمْ رِبِضَةَ حَوْلَهُ » ، وَالرِبِضَةُ : كُلُّ قَوْمٍ قَتَلُوا فِي مَوْقِعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَفِي
الْحَدِيثِ : « الَّذِينَ قَتَلُوا يَوْمَ الْجَمَّاجِ كَانُوا رِبِضَةً وَاحِدَةً » .

(٥) فِي الطَّبَرِيِّ بَعْدَهَا عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ : « وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَنْدَبٍ قَالَ : سَمِعْتُ زَائِدَةَ بْنَ قَدَامَةَ
لِيَنْشِئَ رَافِعًا صَوْتَهُ ، يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اصْبُرُوا وَصَابِرُوا ؛ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . ثُمَّ مَابَرِحَ يَقَاتِلُهُمْ مَقْبَلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ حَتَّى قَتَلَ » .

فرسٍ أغرٍ كُفيت ؛ وخيله واقفة دونه وكلٌّ مَنْ جاء ليبياعه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلم عليه بإمرة المؤمنين ؛ ^(١) ثم يبيع ؛ فإنّا كذلك إذ أضاء الفجر ^(٢) ومحمد بن موسى بن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجاج قد جعل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلها ، فأمر محمد مؤذنه فأذن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ما هذا ؟ قيل : هذا ابنُ طلحة لم يبرح ، قال : ظننتُ أن حمقه وخيلاه سيحملانه على هذا ، نَحُوا هؤلاء عَنَّا ، وانزلوا بنا فلنصل ، فنزلَ وأذن هو ؛ ثم استقدم فصلى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُزْمَةٌ ﴾ ، و﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴾ ثم سلم وركب ^(٣) ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤ مخدوع قد اتقى بك الحجاج النية ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حق ؛ فانطلق لما أمرت به ؛ ولك الله ألا أسوءك ^(٤) ؛ فأبى محاربتَه ^(٥) فأعاد عليه الرسول فأبى إلا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأتى بأصحابك لو التقت حلقَتان ^(٦) البطان لأسلموك ، وصُرِعتَ مصرَع أمثالِكَ ؛ فأطعنى وانصرف

(١) في الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) في الطبرى : « إذ أضاء الفجر » .

(٣) في الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، ونبت طائفة ؛ قال فروة : فأنسى قوله ؛ وقد غشينا وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ أَلَمْ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسعت أصحابى يقولون : إن شيبا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ما كان فى العسكر من شئ ، وهرب الذين كانوا يبيعوا شيبيا ، فلم يبق منهم أحد ... » .

(٤) الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥-٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرجل أو القتب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقه ؛ يصعب التقاؤهما ؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غاية ؛ يريدون أن الشدة بلغت متهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وَإِذَا التَّقَتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نَفُوسُهُمْ جَزَعًا

لشأنك ؛ فإني أنفسُ بك عن القتل ؛ فأبى وخرج بنفسه ؛ ودعا إلى البراز ، فبرز له البطين ، ثم قَعَنَبَ بن سويد ؛ وهو أبى إلا شيبياً ، فقالوا للشيب : إنه قد رَغِبَ غَنًا إليك ؛ قال : فما ظنكم بمن يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يا محمد في دمك ! فإن لك جواراً . فأبى إلا قتاله ، فحمل عليه بعموده الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطْلًا ، فهشم رأسه وبيضة كانت عليه فقتله ؛ ونزل إليه فكفنه ، ودفنه ، وتتبّع ماغثم الخوارج من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِي بالكوفة ؛ ولى أنْ أَهَبَ ماغثم ، فقال له أصحابه : مادون الكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فُشَا فيهم الجراح ؛ فقال : ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم^(١) .

وخرج بهم على نَفَرٍ^(٢) ، ثم خرج بهم نحو بَصَادٍ^(٣) ؛ يطلب خَانيجَارَ^(٤) . وبلغ الحجاج أن شَبِيحًا قد أخذ نحو نَفَرٍ ؛ فظن أنه يريد المدائن ؛ وهى باب الكوفة ؛ ومن أخذ المدائن كان مافى يديه من أرض الكوفة أكثر ؛ فهال ذلك الحجاج ، وبعث إلى عثمان بن قطن ، فسرّحه إلى المدائن ، وولّاه منبرها والصلاة ، ومعوثة جُوخَى كلها ؛ وخراج الإستان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجاج ابن أبي عصفير عن المدائن ، وكان الجزل مقبلاً بها يداوى جراحاته ؛ وكان ابن أبي عصفير بعوده ويكرمه ، ويُلطِّفه^(٥) ، فلما قدم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يُلطِّفه بشيء ؛ فكان الجزل يقول : اللهم زد ابن أبي عصفير فضلاً وكرماً ؛ وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلًا .

(١-١) الكلام هنا يختلف عما في الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتح وراه : بلدة أو قرية على نهر الترس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديماً جاز ، فأما الآن فهو من نواحي بابل بأرض الكوفة (ياقوت) .

(٣) في الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بَصَادٍ » .

(٤) خانيجار : بلدة قرب دقوقاء ، وبمدها في الطبرى : « فأقام بها » .

(٥) أَلَطَفَ فلاناً ، فلاناً : أكرمه وبره وأتحفه .

ثم إنَّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَةَ ؛ وأخرج من سائر الناس ستة آلاف ، واستحثه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استقَّتُوا هناك ، كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم :

أما بعد ؛ فقد اعتدتم عادة الأذِلَّة ، وولَّيتم الذُّبُر يوم الزَّحف ؛ دأب الكافرين ^(١) وقد صفحتُ عنكم مرَّةً بعد مرَّة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإني أقسم بالله قَسْماً صادقاً ، لئن عُدْتُم لذلك لأَوْقِعَنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدو الذي تنهزمون ^(٢) منه في بطون الأودية والشعاب ، وتستترون منه بأثناء ^(٣) الأنهار والوادي ^(٤) الجبال ؛ فليخَفَ مَنْ كان له معقولٌ ^(٥) على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلاً ، فقد أغدَر مَنْ أنذر ، والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس ؛ حتى مرَّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشتري أصحابه منها حوائجهم ؛ ثم نادى في الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دَخَلَ على عُثْمَانَ بن قُطْن مودعاً ؛ ثم أتى الجزل عائداً ، ففضله عن جراحته ، وحادثه ، فقال الجزل : يا بن عَمٍّ ؛ إنَّك تسير إلى فرسان العرب ، وأبناء الحرب ، وأحلاس ^(٦) الخيل ؛ والله لكأَنَّما خَلِقُوا من ضُلوعها ؛ ثم رُبُّوا ^(٧) على ظهورها ؛ ثم هم أسدُّ الأَجَمِّ ؛ الفارسُ منهم أشدُّ من مائة ؛ إن لم يُبْدَأْ به

(١) الطبري : « وذلك دأب الكافرين » .

(٢) الطبري : « تهربون » .

(٣) الأثناء : جمع ثِي ، وهو المنعطف .

(٤) الألواذ : جمع لَوذ ، وهو جانب الجبل .

(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التي وردت على اسم المفعول ، كالجهود والميسور ، وق

المثل : « ماله حول ولا معقول » .

(٦) الحلاس في الأصل : كل شيء . ولما ظهر البعير والذابة تحت الرجل والقتب والمرج ، كالمرشحة تكون تحت التلبد ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أي من راضتها وسابستها والملازمين ظهورها ، على التشبيه بالحلس .

(٧) في الطبري : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجِجَ^(١) أقدم ؛ وإني قد قاتلتهم وبلوتهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنِّي ؛ وكان لهم الفضل على ، وإذا خندقتُ أو قاتلت في مضيق نلت منهم ما أحب ؛ وكانت لي عليهم ؛ فلا تلقَهُم وأنت تستطيع إلا وأنت في تعبٍ أو خندق ؛ ثم ودعه ، وقال له : هذه فرسى الفسيفساء ؛ خذها ؛ فإنها لا تجاري ؛ فأخذها ؛ ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع شبيب عنه إلى دَقُوقاء وشهر زور ؛ فخرج عبدُ الرحمن في طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام ، وقال : إنما هو في أرض الموصل ؛ فليقاتل أميرُ الموصل وأهلها عن بلادهم ؛ أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجاج ؛ فكتب إليه .

أما بعدُ فاطلب شيبا ؛ واسلك في أثره^(٢) أين سلك حتى تدرِّكه فتقتله ، أو تنفيه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجندُ جندُه . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرج في طلب شبيب ؛ فكان شبيب يدَّعه ؛ حتى إذا دنا منه لبيته فيجده قد خندق وحذر ، فيمضي ويتركه ؛ فيتبعه عبدُ الرحمن فإذا بلغ شيبا أنه قد تحمل وسار يطلبه كَرَّ في الخيل نحوه ؛ فإذا انتهى إليه وجده قد صفَّ خيله ورجاله المرامية ، فلا يصيبُ نه غِرة ولا غفلة^(٣) ؛ فيمضي ويدَّعه .

ولما رأى شبيبُ أنه لا يصيبُ غِرتَه ، ولا يصل إليه ؛ صار يخرج كلما دنا منه عبدُ الرحمن ؛ حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا ؛ ثم يقيم في أرض غليظة وغِرة ؛ فيجىء عبدُ الرحمن في ثقله وخيله ؛ حتى إذا دنا من شبيب ارتحل ؛ فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخا ؛ فنزل منزلا غليظا خشنا ؛ ثم يقيم حتى يبلغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ؛ ثم يرتحل ؛ فعذب العسكر ، وشقَّ عليهم ، وأخفى دوابَّهم ؛ ولقوا منه كلَّ بلاء .

(١) هجج : صبح به .

(٢) ج : « واسلك أيناسلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانقين وجلولاء ، ثم أقبل على تَامَرَا ^(١) ؛ فصارا إلى البَتِّ ، ونزل على بُخْمُوم الموصِل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلَايَا ^(٢) ، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بَشْرَقِي حَوْلَايَا ، وهم في راذان ^(٣) الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل في عواقيل ^(٤) من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهي تعجبه ، يرى أنها مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أن هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتم أن توادعونا حتى تمضي هذه الأيام فلتنم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شيء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطالعة والموادعة ، فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فَإِنِّي أَخْبِرُ الأميرَ أصلحه الله ! أَنَّ عبدَ الرحمن بنَ محمد بنَ الأشعث قد حفر جُوخَى كلها عليه خندقاً واحداً ، وخلق شبيبا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ما ذكرت ؛ وقد لَعِمِرِي فعل عبد الرحمن ، فسرُّ إلى الناس ، فأنت أميرُهم ؛ وعاجل المارقة حتى تلقاهم ؛ [فَإِنَّ اللهَ إِنْ شَاءَ ناصركَ عليهم] ^(٥) ، والسلام .
وبعث الحجاج على المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدم على

(١) تَامَرَا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقيها ، يخرج من جبال شهرزور . (مراصد الاطلاع) .

(٢) حَوْلَايَا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهر وانخربت بخراجه . (مراصد الاطلاع)

(٣) في الأصول : « راذان » تصحيف ، وصوابه من الطبري ، قال في مراصد الاطلاع : راذان بعد الألف ذال معجمة وآخره نون : راذان الأعلى ورذان الأسفل : كورتان ببغداد تشتمل على قرى كثيرة .

(٤) العواقيل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٥) من الطبري .

عبد الرحمن وَمَنْ سَمِعَهُ ؛ وهم معسكرون على نهر حَوْلَايَا ، قريبا من البتة ؛ وذلك يوم التروية ^(١) عشاء ؛ فنادى في الناس ، وهو على تَلْعَةٍ ^(٢) : أيها الناس ، اخرجوا إلى عَدُوِّكُمْ . فوثبوا إليه ، وقالوا : نَشْدُكَ اللهُ ! هذا المساء قد غَشِينَا والناس لم يوطنوا أنفسهم على القتال ، فبتَ الليلة ثم اخرج على تعبئة ، فجعل يقول : لَأَنَاجِزَنَّهُم الليلة ، ولتَكُونَنَّ الفرصة لى أولهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ بَعِثَانِ بَغْلَتِهِ ، وناشده الله لما نزل ، وقال له عقيل بن شَدَاد السلولي : إِنَّ الذي تريده من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خير لك وللناس ، إِنَّ هذه ساعة ريح قد اشتدت مساء ، فازل ، ثم أَبِكرْ بنا غدوة . فنزل وَسَقَّتْ عليه الريح ، وشقَّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجًا ، فبنوا له قُبَّةً ، فبات فيها ؛ ثم أصبح فخرج بالناس ؛ فاستقبلتهم ريح شديدة وَغَبَرَةٌ ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : نَشْدُكَ اللهُ أَلَّا تَخْرُجَ بنا في هذا اليوم ! فَإِنَّ الريح علينا ، فأقام ذلك اليوم . وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبِّي الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا : خالد بن نَهَيْك بن قيس الكِنْدِيُّ على ميسرتنا ، وعَقِيل بن شَدَاد السلولي على ميمنتنا ، فدعاها فقال لهما : قفا في مواقفكما التي كنتمأبها ، فقد وليتُكما الجنبيين ، فاثبتا ولا تغفرا ، فوائته لا أزلُ حتى تَزُولَ نخيل راذان عن أصولها ، فقالا : نحن والله الذي لا إله إلا هو لا نفرَ حتى نظفر أو نقتل ؛ فقال لهما : جزا كما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلى بالناس الغداة ، ثم خرج بالخييل ، فنزل يمشى في الرجال ، وخرج شبيب ، ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو في ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل في القلب مُصَادَا أخاه ؛ وزحفوا ، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

(١) يوم التروية : الثاني من ذي الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفي الظاهر ؛ « على بقله » .

يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَقُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝
ثم قال شبيب لأصحابه : إني حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يلي النهر ؛ فإذا هزمتها
فأيجل صاحبُ ميسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرحُ صاحبُ القلب حتى يأتيه أمرى ، ثم حمل في
ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شداد مع
طائفة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتل ، وقتلوا معه ^(١) .

ودخل شبيب عسكرهم ، وحمل سويد بن سليم في ميسرة شبيب على عثمان بن قطن ،
فهزمتها ، وعليها خالد بن نهيك الكندي ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه
شبيب من ورائه ؛ فلم يثن حتى علاه بالسيف فقتله ، ومشى عثمان بن قطن ؛ وقد نزلت
معه العرفاء والفرسان وأشرفُ الناس نحو القلب ؛ وفيه أخو شبيب في نحو من ستين
رجلا ؛ فلما دنا منهم عثمان ؛ شدَّ عليهم في الأشراف ، وأهل الصبر ؛ فضربهم مصاد
وأصحابه ، حتى فرقوا بينهم ، وحمل شبيب من ورائهم بالخيـل ، فما شعروا إلا والرماح
في أكتافهم تكبَّتْهم لوجوههم ، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضا في خيله ؛ وقاتل عثمان
فأحسن القتال .

ثم إن الخوارج شدُّوا عليهم ؛ فأحاطوا بـعثمان ، وحمل عليه مصاد أخو شبيب ؛
فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها ، وسقط ، وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ،
فقتل وقُتل معه العرفاء ووجوه الناس ، وقُتل من كِنْدَةَ يومئذ مائة وعشرون رجلا ،
وقتل من سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض ، فعرفه

(١) في الطبري : وقتل يؤمئذ مالك بن عبد الله الهمداني ، ثم الرهمي ، عم عياض بن عبد الله بن عياض
المنتوف ، وجعل يؤمئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجادلهم :

لأضربَ بنَ بالحسامِ الباتِرَ ضَرْبَ غلامٍ من سلولِ صابرٍ

ابن أبي سبرة ، فنزل وأركبه ؛ وصار رديفاً له ^(١) . وقال له عبدُ الرحمن : نادِ في الناس ،
الحقوا بدَيْرِ ابن أبي مریم ؛ فنادی بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابه ،
فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بَقِيَ من الرجال ، فبايعوه ، وبات
عبدُ الرحمن بدير اليعار ، فأتاه فارسان ليلاً ، فخلا به أحدهما يناجيه طويلاً ، وقام الآخر
قريباً منهما ، ثم مضيا ولم يعرفا ؛ فتحدث الناس أن المناجى له كان شيبيا ؛ وأن الذي
كان يرقبهما كان مصاداً أخاه ؛ واتهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبي مریم ؛ فإذا هو بالناس
قبله قد سَبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبْرَ الشعير والَقَتَ ^(٢) كأنها القصور ؛
ونحروا لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب
بمكانك أنك فكت له غنيمة ؛ قد تفرق الناس عنك ، وقُتِل خيارهم ، فالحق أيتها
الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفة مستترا من الحجاج ، إلى أن أخذ له
الأمان بعد ذلك .

ثم إن شيبيا اشتدَّ عليه الحرّ وعلى أصحابه ، فأتى ماه بهراذان فصَيَّفَ ^(٣) بها ثلاثة
أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

(١) في الطبرى : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينما الرديف ؟ قال ابن أبي سيرة : سبحان الله ! أنت
الأمير تكون المقدم فركب » .

(٢) في الأصول : « القيت » ، وما أثبتته من الطبرى ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمسكان : أقام به صيفا ، وفي الطبرى : « تصيف » ، وما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة^(١)، فنهزم رجل يقال له الحرّ بن عبد الله بن عوف؛ كان قتل دِهْقَانين من أهل دبر قيط؛ كانا أساءا إليه، ولحق بشيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك؛ وله مقام عند الحجاج، وكلام سلّم به من القتل؛ وهو أن الحجاج بعد هلاك شيب، أمّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمال، أو تبعة، فخرج إليه الحرّ فيمن خرج، فجاء أهل الدهقانيين يستعدّون عليه الحجاج، فأحضره، وقال: يا عدوّ الله؛ قتلت رجلين من أهل الخراج فقال: قد كان أصلحك الله! منى ما هو أعظم من هذا، قال: وما هو؟ قال: خروجي عن الطاعة، وفراق الجماعة؛ ثم إنك أمّنت كلّ من خرج عليك؛ وهذا أمانى وكتابك لى.

فقال الحجاج: قد لعمري فعلت ذلك أولى لك! وخلى سبيله.

ثم لما باخ الحرّ^(٢)، وسكن عن شيب؛ خرج من ماه نهر وان في نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن؛ وعليها الطرف بن المغيرة بن شعبة؛ فجاء حتى نزل قناطر حذيفة^(٣) بن اليمان فكتب ماذراسب^(٤) وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شيب وقدمه إلى قناطر حذيفة، فقام الحجاج في الناس وخطبهم، وقال:

أيها الناس؛ لتقاتلنّ عن بلادكم وفيكم، أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع؛ وأصبر على البلاء^(٥) منكم، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيكم - يعنى جند الشام.

فقام إليه الناس من كلّ جانب؛ يقولون: بل نحن نقاتلهم، وننفيث^(٦) الأمير؛ فليندبنا إليهم؛ فإنّا حيث يسره.

(١) في الطبرى: «التباعات».

(٢) باخ الحر: سكن وقت. وفي الطبرى: «انفسح».

(٣) قناطر حذيفة: بسواد بغداد.

(٤) في الطبرى: «ما ذرواسب».

(٥) الطبرى: «اللاواء».

(٦) الطبرى: «ونفيث».

وقام إليه زهرة بن حَوَّية ؛ وهو يومئذ شيخ كبير لا يَسْتَتِمُ قائماً ؛ حتى يؤخذ بيده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنك تبعث الناس متقطعين ؛ فاستنفر إليهم الناس كافة ، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً مجرباً ، يرى الفرار هُزْماً وعاراً ، والصبر مجداً وكرماً .
فقال الحجاج : فأنت ذاك ؛ فأخرج .

فقال : أصلح الله الأمير ! إنما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدُّرْعَ وَيَهْزُ السيف ، ويثبت على مَتْنِ الفرس ، وأنا لأطبق ذلك ؛ قد ضعفت وضعف بصرى^(١) ولكن اثنى مع أميرٍ تعتمده ؛ فأكون في عسكره ، وأشير عليه^(٢) برأى .
فقال : ^(٣) جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيراً ؛ لقد نصحت وصدقت ، وأنا مخرج الناس كافة ؛ ألا فسيروا أيها الناس .

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون ، ولا يدرون مَنْ أميرهم .
وكتب الحجاج إلى عبد الملك :

أما بعد ؛ فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ؛ أن شيبياً قد شارفَ المدائن ؛ وإنما يريدُ الكوفة ؛ وقد عجزَ أهل العراق عن قتاله في مواطن كثيرة ، في كلها تُقتلُ أمراؤهم ويُقتلُ خيولهم^(٤) وأجنادهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلى جنداً من جند الشام ، ليقاتلوا عدوهم ، ويأكلوا بلادهم ؛ فقل إن شاء الله .

فلما أتى عبد الملك كتابه ، بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف ، وبعث إليه حبيب ابن عبد الرحمن [الحكى]^(٥) من^(٥) مذحج في ألفين ؛ وسرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب .

(١-١) الطبرى : « ولكن أخرجني في الناس مع الأمير ، فإني إنما أثبت على الراحة ، فأكون مع الأمير في عسكره ، وأشير عليه برأى » .

(٢-٢) الطبرى : « جزاك الله عن الإسلام وأهله في أول الإسلام خيراً ، وجزاك الله عن الإسلام في آخر الإسلام خيراً » .

(٣) الطبرى : « جنودهم » .

(٤) من الطبرى .

(٥) في الأصول . « ابن » ، وما أثبتته من الطبرى .

وقد كان الحجاج يبعث إلى عتّاب بن ورقاء الرّياحى ليأتيه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلب ، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة، منهم زهرة بن حويّة ، وقبيصة بن والق ، فقال : مَنْ ترون أن أبعث على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضل ؛ قال : إني قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زهرة بن حويّة : أصلح الله الأمير ! رميتهم بحجرهم ، لا والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل .

فقال قبيصة بن والق : وإني مشيرٌ عليك أيها الأمير برأى اجتهدته ، نصيحة لك ولأمير المؤمنين ولعامة المسلمين ، إن الناس قد تحدّثوا أن جيشاً قد وصل إليك من الشام ؛ لأن أهل الكوفة قد هزموا ، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة ، فكأنما قلوبهم فى صدور قوم آخرين ؛ فإن رأيت أن تبعث إلى الجيش الذى قد أمددت به من أهل الشام ، فليأخذوا حذرهم ، ولا يثبتوا بمنزل إلا وهم يرون أنهم يبيتون ، فإن فلت فإنك إنما تحارب خوفاً قلباً محلاً مظلماً^(١) ، إن شيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى ، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كله .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ما أحسن ما رأيت ! وما أصح ما أشرت به . فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرأوه وقد نزلوا هيت ؛ وهو : أما بعد ؛ فإذا حاذيتُم هيت ، فدعوا طريق الفرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر ، حتى تقدموا إلى الكوفة ، إن شاء الله^(٢) .

فأقبل القوم سراعاً ، وقدم عتّاب بن ورقاء فى اللية التى قال الحجاج إنه فيها قادم ؛ فأمره الحجاج ، فخرج بالنّاس ، وعسكر بمحما^(٣) أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

(١) الطبرى : « مظلماً وحالاً » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذرکم ومجّلوا السير ، والسلام » :

(٣) حم أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلَوَاضِي^(١) ، ففقط منها دِجْلَةٌ ، وأقبل حتى نزل بَهْرُسِير^(٢) ، وصار بينه وبين مطرف وابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، ففقط مطرف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كَادَ به شبيبا ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أَنَّهُ بعث إليه : أَن ابعثْ إلى رَجَالًا من فقهاء أصحابك وقرّائهم ؛ وأظهر له أَنَّهُ يريد أَن يدارِسَهم القرآن ، وينظر فيما يدعون إليه ، فَإِن وجد حقا اتبعه ، فبعث إليه شبيب رجالا ؛ فيهم قَعْنَب وسويد والمجلل ، ووصّاهم أَن لا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسوله من عند مطرف ، وأرسل إلى مطرف : أَن ابعثْ إلى من أصحابك ووجوه فرسانك بعدة أصحابي ؛ ليكونوا رَهْنًا في يدي ، حتى تردّ علي أصحابي ، فقال مطرف لرسوله : الله ، وقل له : كيف آمَنك الآن على أصحابي ، إِذ أَبعثهم إليك ، وأنت لا تَأْمُنُنِي على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد عَلِمْتُ أَنَا لا نستحلّ الغَدْرَ في ديننا ، وأنتم قوم غُدْرٌ تستحلّون الغَدْرَ وتفعلونه ، فبعث إليه مطرف جماعة من وجوه أصحابه ، فلما صارُوا في يد شبيب ، سَرَّحَ إليه أصحابه ، فعبَرُوا إليه في السفينة ، فَأَتَوْهُ ، ففكّوا أربعة أَيام يتناظرون ، ولم يَتَفَقَّهوا على شيء ، فلما تبَيَّنَ لشبيب أَن مطرفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبّى للمسير ، وَجَمَعَ إليه أصحابه ، وقال لهم : إِنّ هذا التَّفَنُّيَ قطعني عن رأيي منذ أربعة أَيام ، وذلك أَنّي هَمَمْتُ أَن أَخْرُجَ في جريدة من الخيل ، حتى أَلْقَى هذا الجيش المقبل من الشام ، وأرجو أَن أَصَادِفَ غِرَّتَهُمْ قبل أَن يحذَرُوا ، وكنت ألقاهم متقطعين عن المصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصْرٌ كالكوفة يعتصمون به ، وقد جاءني عيون^(٣) أَنّ أَوَائَهُمْ قد دخلوا عَيْنَ التَّمَرِ ، فهم الآن قد شارفوا الكوفة ، وجاءني أيضا عيون من نحو عَتَاب^(٤) أَنَّهُ نزل بِحِمَامِ أُعَيْنَ بِجَمَاعَةِ أَهْلِ الكوفة^(٥) وأهل البصرة ، فما أَقْرَبَ ما بيننا وبينهم ! ففَتَيَّسَرُوا بنا للمسير إلى عتاب .

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد .

(٢) بهر سير : من نواحي بغداد قرب المدائن .

(٣) الطبرى : « عيونى » .

(٤) الطبرى : « بِجَمَاعَةِ أَهْلِ الكوفة الصرّاء » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرج معه خمسين ألفاً من المقاتلة ، وهدّهم الحجاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة ، وتوعّدَهم ، وعَرَضَ شبيب أصحابه بالمدائن ، فكانوا ألفَ رجل فخطبهم وقال : يا معشرَ المسلمين ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان ، واليوم فاتم مثون [ومثون] ^(١) ، ألا وإني مصلّي الظهر ، ثم سأربكم إن شاء الله .

فصلى الظهر ، ثم نادى في الناس ، فتخلف عنه بعضهم .

قال فروة بن ^(٢) لقيط : فلما جازَ ساباط ، ونزلنا معه ، قصَّ علينا ، وذكرنا بأيام الله ، وزهدنا في الدنيا ، ورغبنا في الآخرة . ثم أذن مؤذنه فصلى بنا العصر ، ثم أقبل حتى أشرف على عتاب بن ورقاء ، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته ، وأمر مؤذنه ، فأذن ثم تقدّم ، فصلى بأصحابه صلاةَ المغرب ^(٣) ، وخرج عتاب بالناس كلهم فعبأهم ، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل .

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ؛ قال له : يا ابن أخي ، إنك شريف ، فاصبر وصابر ، فقال : أما أنا فوالله لأقاتلن ما ثبتت معي إنسان .

وقال لقبیصة بن والقي النخعي ^(٤) : اكفني اليسرة ، فقال : ^(٥) أنا شيخ كبير ، غايى أن أثبت تحت رايتي ، أما تراني لا أستطيع القيام إلا أن أقام ، وأخي نعيم بن عليم ذو غناء ، قابضه على اليسرة . فبعثه عليها ^(٥) . وبعث حنظلة بن الحارث الرياحي ابن عمه ، وشيخ

(١) من الطبري

(٢) راوى الخبر في الطبري

(٣) في الطبري : « وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيباني » .

(٤) في الطبري : « وكان على ثلث بني تغلب »

(٥-٥) الطبري : « أنا شيخ كبير ، كثير مني أن أثبت تحت رايتي ، قد أثبت مني القيام ، ما أستطيع القيام إلا أن أقام ، ولكن هذا عبيد الله بن الحليس ، ونيهم بن عليم التغلبيان ، وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب ، اثبت أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعن ذا حزم وعزم وغناء ، بعث نعيم بن عليم على ميسرته » .

أهل بيته على الرجال، وبعث معه ثلاثة صفوف: صف فيه الرجال ومعهم السيوف، وصف ثمهم أصحاب الرماح؛ وصف فيه الرماية .

ثم سار عتاب بين الميمنة والميسرة يمرّ برايته؛ فيحترض من تحتها على الصبر؛ ومن كلامه يومئذ: «إن أعظم الناس نصيباً من الجنة الشهداء؛ وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي؛ ألا ترون عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه؛ لا يرى ذلك إلا قرابة لهم؛ فهم شرار أهل الأرض، وكلاب أهل النار. فلم يحبه أحد، فقال: أين القصاص يقتصون على الناس، ويحرضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يروى شعر عنتره، فيحرك الناس؛ فلم يحبه أحد ولا رد عليه كلمة؛ فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ والله لكأني بكم وقد تفرقتم عن عتاب وتركتموه يسبي في استه الریح؛ ثم أقبل حتى جلس في القلب، ومعه زهرة بن حويّبة، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأقبل شبيب في ستمائة، وقد تخلف عنه من الناس أربعمائة، فقال: إنه لم يتخلف عني إلا من لا أحب أن أراه معي؛ فبعث سويد بن سليم في مائتين إلى الميسرة، وبعث المحلل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة؛ حين أضاء القمر؛ فنادهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات محمدان . فقال: رايات طالماً نصرت الحق، وطلالماً نصرت الباطل؛ لها في كل^(١) نصيب؛ أنا أبو المدله اثبتوا إن شئتم . ثم حمل عليهم؛ وهم على مستأنة أمام الخندق؛ ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبضة بن والقي .

نجاء شبيب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ

(١) بعدها في الطبري: «والله لأجاهدكم محسباً للخير في جهادكم، أنتم ربيعة وأنا شبيب، أنا أبو المدله لا حكم إلا لله»

نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ،
ثم حمل على الميسرة ففَضَّهَا ، وصمد نحو القلب ، وعتاب جالس على طُنْفَسَةٍ ، هو وزهرة
ابن حَوِيَّةَ ، فغشيهم شبيب ، فانفضَّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يا زهرة ،
هَذَا يَوْمٌ كَثُرَ فِيهِ الْعَدَدُ ؛ وَقُلْ فِيهِ الْغَنَاءُ ، لَهْفِي عَلَى خِصْمَائِكَ فَارِسٍ مِنْ وُجُوهِ النَّاسِ ؛
أَلَا صَابِرٌ لَعْدُوهُ ! أَلَا مُوَاسٍ بِنَفْسِهِ ! فَمَضَى النَّاسُ عَلَى وَجُوهِهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ شَبِيبٌ وَثَبَ
إِلَيْهِ فِي عَصَابَةٍ قَلِيلَةٍ صَبَرَتْ مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنَ الْأَشْعَثِ
قَدْ هَرَبَ ؛ وَانصَفَى مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ ، فَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ فَرََّ قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ ذَلِكَ
الْفَتَى ؛ مَا يَبَالِي مَا صَنَعَ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ سَاعَةً ؛ وَهُوَ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطَّ مَوْطِنَا
لَمْ أَبْلُ بِمِثْلِهِ ؛ أَقْلَ نَاصِرًا ، وَلَا أَكْثَرَ هَارِبًا خَاذِلًا ؛ فَرَأَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ مِنْ أَصْحَابِ
شَبِيبَ ، وَكَانَ أَصَابَ دِمَا فِي قَوْمِهِ ، وَالتَّحَقَّقَ بِشَبِيبَ ؛ فَقَالَ : إِنِّي لَأُظُنُّ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ عِتَابَ
ابْنِ وَرْقَاءَ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ ؛ فَوَقَعَ وَقُتِلَ ، وَوُطِئَتْ الْخَلِيلُ زَهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ ، فَأَخَذَ يَذَبُّ
بِسَيْفِهِ ؛ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَضَ ؛ فَجَاءَهُ الْفَضْلُ بْنُ عَامِرٍ الشَّيْبَانِيُّ فَقَتَلَهُ ،
وَاتَهَى إِلَيْهِ شَبِيبَ ؛ فَوَجَدَهُ صَرِيحًا فَعَرَفَهُ ، فَقَالَ : مَنْ قَتَلَ هَذَا ؟ قَالَ الْفَضْلُ : أَنَا قَتَلْتُهُ ؛
فَقَالَ شَبِيبَ : هَذَا زَهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ كُنْتُ قُتِلْتُ عَلَى ضَلَالَةٍ ؛ لَرَبِّ يَوْمٍ مِنْ
أَيَّامِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَسُنَ فِيهِ بِلَاؤُكَ ، وَعَظُمَ فِيهِ غَنَاؤُكَ ، وَلَرَبِّ خَيْلٍ لِلْمُشْرِكِينَ هَزَمَتْهَا ،
وَسَرِيَّةٍ لَهَا ذَعَرَتْهَا ، وَمَدِينَةٌ لَهَا فُتِحَتْهَا ! ثُمَّ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ تُقْتَلَ نَاصِرًا لِلظَّالِمِينَ .

وقتل يومئذ وجوه العرب من عسكر العراق في المعركة ؛ واستمكن شبيبٌ من أهل
العسكر ، فقال : ارفعوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البيعة ، فبايعه الناس عامة من ساعتهم ؛
واجتوى على جميع ما في العسكر ، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة
يومين ؛ ودخل سفيان بن الأبرد السكلي ، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما

إلى الكوفة ، فشدوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بهم عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عتاب وعسكره ، فصعد المنبر ، فقال : يا أهل الكوفة ؛ لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ^(١) ولا يقاتلن معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء ^(٢) .

وخرج شبيب يريد الكوفة ، فاتمى إلى سورا ^(٣) ، فقال لأصحابه : أيكم يأتيني برأس عاملها ، فأتدب إليه قطين ، وقعنّب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شبيب ، فكانوا خمسة ، وساروا حتى انتهوا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجبوا الأمير ؛ فقال الناس : أى أمير ؟ قالوا : أمير قد خرج من قبل الحجاج ، نريد هذا الفاسق شبيبا ، فاغتر بذلك عامل سورا ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شهِرُوا السيوف ، وحكموا وخبطوه بها ، حتى قتلوه ، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مال ، ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البدر ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلم يا غلام الحربه ، فخرق بها البدر ، وأمر أن تنخس الدواب التي كانت البدر عليها ، فرت رائحة ، والمال يتناثر من البدر ، حتى وردت الصراة ، فقال : إن كان بقي شيء فاقدفوه في الماء .

وقال سفيان بن الأبرد للحجاج : ابشني إلى شبيب أستقبله قبل أن يرد الكوفة ، فقال : لا ؛ ما أحب أن نفترق حتى ألقاه في جامعكم ، والكوفة في ظهرنا ، وأقبل شبيب حتى نزل حمام أعين ، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي ، فوجهه في ناس لم يكونوا شهدوا يوم عتاب ، فخرج في ألف رجل ، حتى انتهى شبيب ليدفعه عن الكوفة ، فلما رآه شبيب حمل عليه فقتله ، وفل أصحابه ، فجاءوا حتى دخلوا

(١-١) الطبرى : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا غلا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .

(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الكوفة ، وبعث شبيب البطين في عشرة فوارس يرتادون له منزلاً على شاطئ الفرات ، في دار الرزق ، فوجه الحجاج حوشب بن يزيد ، في جمع من أهل الكوفة ، فأخذوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يبقوا عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه ، فمقروا فرس حوشب وهزموه ، فنجى بنفسه ، ومضى البطين إلى دار الرزق في أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجه إليه الحجاج أحداً ، فابتنى مسجداً في أقصى السبخة ، وأقام ثلاثاً لم يوجه إليه الحجاج أحداً ، ولا يخرج إليه من أهل الكوفة ، ولا من أهل الشام أحدٌ ، وكانت امرأته غزالة ، نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران ^(١) .

فجاء شبيب مع امرأته حتى أوقفت بنذرهما في المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إني خارج ، فأخرج أنت ، فارتدّ لي معسكراً ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المذى سهلاً ، فسرأيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجاج بنفسه ، ومراً على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال ألقوا لي هنا بساطاً ، فقيل له : إنّ الموضع قذر ، فقال : ماتدعوني إليه أقدر ، الأرض تحتها طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد ، وعليه تجفاف ^(٢) ، وأحاط به غلمان كثير ؛ وقيل : هذا الحجاج ؛ فحمل عليه شبيب فقتله ؛ وقال : إن يكن الحجاج ، فقد أرخت الناس ^(٣) منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى يمينته مطرف بن ناجية ، وعلى يسارته خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو في زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيها الأمير ؛ لانعرف

(١) في الطبرى . « فعلت » .

(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس في الحرب للوقاية ؛ كأنها درع .

(٣) الطبرى : « أرحنكم » .

شيبيا بمكانك ، فتنكر ، وأخفى مكانه ؛ وتشبه به مولى آخر للحجاج في هيئته وزيه ، فحمل عليه شبيب ، فضر به بالعمود فقتله ، ويقال إنه قال لما سقط : « أخ » بالخاء المعجمة ؛ فقال شبيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالخاء المهملة .

ثم تشبه بالحجاج أعين صاحب حمام أعين ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شبيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ، فأتى ببغل محجل ؛ وقيل : أيها الأمير أصلحك الله ! إن الأعاجم كانت تتطير أن تركب مثل هذا البغل في مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه مني ، فإنه أغر محجل ؛ وهذا يوم أغر محجل فركه ، ثم سار في الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لي عباءة ، فطرحته له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : اثنوني بكرسى ، فأتى به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهل الشام ، فقال : أهل الشام ؛ يا أهل السمع والطاعة ، لا يباين باطل هؤلاء الأرجاس حقكم ، غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة ، فجثوا على الركب ، وكانهم حرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركبت ريح شبيب ، وأذن الله تعالى في إظهار أمره ، وانقضاء أيامه ؛ فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عتّى أصحابه ثلاثة كراديس ، كتيبة معه ، وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع الحلال بن وائل ، وقال لسويد : احمل عليهم في خيلك فحمل عليهم فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف أسنتهم ، وثبوا في وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ، ثم طاعنوه ؛ قدما قدما ؛ حتى الحقوه بأصحابه .

فلما رأى شبيب صبرهم ، نادى : يا سويد ، احمل في خيلك في هذه الرايات الأخرى ، لعلك تزيل أهلها ؛ فتأتى الحجاج من ورائه ، ونحى نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران الكوفة فرمى بالحجارة من سطوح البيوت ، ومن أفواه السكك . فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهم ، وقد كان الحجاج جعله في ثمانمائة رامٍ من أهل الشام ، رِداءً له كي لا يؤتى من ورائه ، فصاح شبيب في أصحابه :

يا أهلَ الإسلام ! إنما شَرَيْتُمْ اللهَ ، ومن يكن شِراؤه ^(١) لله لم يضره ما أصابه من ألم وأذى ، والله أبوكم ، الصبر الصبر ؛ شدة كشداتكم الكريمة في مواطنكم المشهورة .

فشدوا شدة عظيمة ، فلم يزل أهل الشام عن مراكرهم ؛ فقال شبيب : الأرض ! دبوا دينبا تحت ترأسكم ؛ حتى إذا صارت أسنة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذلقوها صُعداً ، وادخلوا تحتها ، واضربوا سوقهم وأقدامهم ؛ وهى الهزيمة يأذن الله ، فأقبلوا يديئون دينبا تحت الحَجَف : صندا صندا ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء : أيها الأمير ؛ أنا موتور ؛ ولا أتهم في نصيحتي ^(٢) ؛ فأذن لي حتى آتيهم من ورائهم ؛ فأغير على معسكرهم وتقلهم ؛ فقال : افعل ذلك ^(٣) ، فخرج في جمع من مواليه وشاكركيته ^(٤) وبني عمه ؛ حتى صار من ورائهم ؛ فالتقى بمصاد أخى شبيب فقتله ؛ وقتل غزالة امرأة شبيب ، وألقى النار في معسكرهم ، والتفت شبيب والحجاج ؛ فشاهدوا النار ، فأما الحجاج فكبر وكبر أصحابه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكل راجل من أصحابه على خيولهم ، مرعوبين ؛ فقال الحجاج لأصحابه : شدوا عليهم ؛ فقد أتاهم ما أرعبهم ؛ فشدوا عليهم ؛ فهزموم ، وتحلف شبيب في خاصة الناس ، حتى خرج من الجسر ؛ ونبعه خيل الحجاج ، وغشيه النعاس ؛ فجعل يخفق برأسه ؛ والخليل تطلبه .

قال أصغر الخارجى ^(٥) : كنت معه ذلك اليوم ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ التفت

(١-١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى » .

(٢) الطبرى : « في نصيحة » .

(٣) الطبرى : « ما بدالك » .

(٤) الشاكريّة : جمع شاكرى ، وهو الأجير .

(٥) في الطبرى : « قال هشام : فحدثني أصغر الخارجى ، قال : حدثني من كان مع شبيب .. »

فانظر مَنْ خلفك ، فالتفتَ غير مكترث ؛ وجعل ^(١) يخفق برأسه ، قال : ودنوا منا ، فقلت :
يا أمير المؤمنين ؛ قد دنا القوم منك ، فالتفت والله ثانية غير مكترث بهم ، وجعل
يخفق برأسه ؛ وبعث الحجاج خيلا تركض تقول : دعوه يذهب في حرق الله ؛ فتركوه
وانصرفوا عنه ^(٢) .

ومضى شبيب بأصحابه ؛ حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْرًا هناك ، وخالد بن
عتاب يَقْفُوم ، فحصرهم في الدير ؛ فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه ، نحووا من فرسخين ،
حتى ألقى خالد نفسه في دجلة هو وأصحابه بنحيمولم ؛ فربه شبيب ؛ فرآه في دجلة ، ولوأوه
في يده ، فقال : قاتله الله فارسا ؛ وقاتل فرسه فرسا هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى
فرس في الأرض ؛ وانصرف ، فقيل له بعد انصرافه : إنَّ الفارس الذي رأيت هو خالد بن
عتاب بن ورقاء ، فقال : معرق في الشجاعة لو علمت لأقحمت خلفه ؛ ولو دخل النار .

ثم دخل الحجاج الكوفة بعد هزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال : والله ما قُوتل شبيب
قطّ قبل اليوم ؛ ولّى هاربا ، وترك امرأته يُكسر في استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال :
احذر بيّاته ، وحيما لقيته فنارله ؛ فإنَّ الله تعالى قد فلَّ حَدَّه ، وقصم نابيه ، فخرج حبيب
في أثره ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب ؛
مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة في دين الخوارج ، ممن هزَّه ^(٣)
القتال ، وكرهه ذلك اليوم فيؤمن . وقبل ذلك كان الحجاج نادى يوم هُزِمَ شبيب : من
جاءنا فهو آمن ، فتفرق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

(١) الطبرى : « ثم أكب يخفق برأسه » .

(٢) الطبرى : « ورجعوا » .

(٣) الطبرى : « هزه القتال » . . .

وبلغ شبيهاً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السكسكى ^(١) ، كنت مع أهل الشام بالأنبار ، ليلةَ جاءنا شبيب ، فبيتنا ، فلما أمسينا جمعنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلنا أرباعاً ، وجعل على كل رُبعٍ أميراً ، وقال : لنا ^(٢) : لِيَحْمَ كل رُبعٍ منكم جانبُه ، فإن قُتل هذا الربع ، فلا يُعْنهم الرُبع الآخر ، فإنه بَلغنى أن الخوارج منكم قريب فوطنوا أنفسكم على أنكم مبيتون فمقاتلون ، قال : فما زلنا على تمبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيتنا ، فشدّ على ^(٣) رُبعٍ مِنّا فصارهم طويلاً ، فما زالت قدمُ إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر فقاتلهم طويلاً فلم يظفر بشيء ، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبعاً رُبعاً ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل ^(٤) ، ولصق بنا ^(٥) حتى قلنا : لا يفارقنا ، ثم ترجّل فنازلنا راجلاً نزالاً طويلاً هو وأصحابه ، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل ، وفُقيت الأعين ، وكثرت القتلى ، فقتلنا منهم نحو ثلاثين ، وقتلوا منا نحو مائة ، وإيمُ الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا ، ثم فارقونا وقد مللناهم وملّونا ، وكرهناهم وكرهونا ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف ، فما يضرّه من الإعياء والضعف ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يقاتل جالساً ينفع بسيفه ، ما يستطيع أن يقوم من الإعياء والبُهر . حتى ركب شبيب ، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه : اركبوا ؛ وتوجه بهم مُنصرِ قاً عنا .

فقال فروة بن لقيط الخارجي - وكان شهد معه مواطنه كلها - قال لنا ليلتئذ ، وقد رأى

(١) في الطبرى : « قال أبو مخنف ، فحدثني أبو يزيد السكسكى قال » .

(٢) الطبرى : « ليجز كل ربع » .

(٣-٣) الطبرى : « فشد على ربع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذرى ، فصارهم طويلاً ، فما زالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عندهم سعد بن بجل العامري ، فقاتلهم فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميري ، فاقدروا منهم على شيء ، ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر المصمعي ، فقاتلهم طويلاً ، فلم يظفر بشيء » ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .

(٤) الطبرى : « وألّ بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة : ما أشدَّ هذا الذي بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا في طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابه : صدقت يا أمير المؤمنين .

قال فرّوة بن لقيط : وسمعتُه تلك الليلة يحدثُ سوَيْد بن سُلَيْم ، ويقول له : لقد قتلَ منهم أَمْسٍ رَجُلَيْنِ من أشجع ^(١) الناس ، خرجت عشيّة أَمْسٍ طليعة لَكُمْ ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشتري أحدهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لي : أراك لم تشتري علناً ^(٢) . فقلت : إن لي رُفقاء قد كفّوني ذلك ، ثم قلت له : أين ترى عدوّنا [هذا نزل] ^(٣) ؟ فقال : بلغني أنه قد نزل قريبا مِنّا ، وإيْمُ الله لو دِدْتُ أنّي لقيتُ شبيبهم هذا ، قلت : أفتحبّ ذلك ؟ قال : إي والله ، قلت : فخذ حذرَكَ ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتاً] فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قدمات ^(٤)] فانصرفت راجعاً ، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التي يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلّمه ، ومضيت ، فنفرتُ بي فرسى ، وذهبت تتمطرُ ^(٥) ، فإذا به في أثرِي حتى لحقني ، فعمقت عليه ، وقلت : ما بالكَ ؟ قال : أظنك والله من عدوّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلني ؛ فحملت عليه وحمل عليّ ، فاضطر بنا بسيفينَا ساعة ، فوالله ما فضلتُه في شدّة نفس ولا إقدام ، إلّا أن سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته .

وبلغ شبيباً أنّ جند الشام الذي مع حبيب حملوا معهم حجراً ، وحلفوا لا يفرّون حتى يفر هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذّبهم ، فعمد إلى أربعة أفراس ، وربط في أذنانها ترسةً ،

(١) الطبري : « قتلَ منهم أَمْسٍ رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .

(٢) الطبري : « كأنك لم تشتري علناً » .

(٣) من الطبري

(٤) تتمطر : تسرع في جريها .

فى ذنب كل فرس تُرسين ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيان - كان شجاعا فاتكا - وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء ، ثم سار ليلا حتى أتى ناحية من عسكر رجلين فرس ؛ ثم يلبسوها الحديد حتى تجدد حرّه ، ثم يخلوها فى العسكر ، وواعدهم ثلعة قريية من العسكر ، وقال : من نجا منكم ؛ فإن موعده الثلعة ؛ فكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم ؛ ففزى بنفسه حتى صنع بالخليل ما أمرهم به ؛ حتى دخلت فى العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشد خلفها شدا محكما ؛ ففرقت فى نواحي العسكر ، واضطرب الناس ، ف ضرب بعضهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيب بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزموا الأرض ؛ حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شيب بينهم ، فلزم الأرض معهم ، حتى رآهم قد سكنوا ، وقد أصابته ضربة عمود أو هنته .

فلما هدا الناس ورجعوا إلى مراكرهم خرج فى غمارهم ، حتى أتى الثلعة ، فإذا مولاه حيان ؛ فقال : أفرغ ويحك على رأسى من هذه الإداوة ! فلما مد رأسه ليصّب عليه من الماء ، ثم حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لا أجِدُ مكرمة لى ، ولا ذِكْرًا أرْفَع من هذا فى هذه الخلوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرعدة حين تم بما هم به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : ويحك ! ما انتظارك ! بحلها ناولنيها وتناول السكين من موزجه^(١) فخرقها به ، ثم ناوله إياها ، فأفرغ عليه من الماء ، فكان حيان بعد ذلك يقول : لقد هممت فأخذتني الرعدة فجئت عنه ؛ وما كنت أعهد نفسى جباناً .

ثم إن الحجاج أخرج الناس إلى شيب ، وقسم فيهم أموالا عظيمة ، وأعطى الجرّحى وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم ، فشق ذلك على حبيب

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفیان إلى رجل قد فلتته ، وقتلتُ فرسانه ! وكان شبيب قد أقام بكَرْمَانَ حتى جبر واستراش هو وأصحابه ؛ فمضى سفیان بالرجال واستقبله شبيب بدُجِيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فمبر إلى سفیان ، فوجده قد نزل بالرجال ، وجعل مضاض^(١) بن صيفي على خيله ، وبشر بن حيان^(٢) الفهري على ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزاري على مبسترته ، وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس ! هو في كتيبة ، وسويد بن سليم في كتيبة ، وقعنّب في كتيبة ، وخلف المجلّل في عسكره ؛ فلما حَمَلَ سُوَيْد وهو في ميمنته على مبصرة سفیان وقعنّب وهو في مبسترته على ميمنة سفیان ، وحَمَلَ هو على سفیان ، ثم اضطربوا منيا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذي كانوا فيه .

فقال يزيد السكسكي - وكان من أصحاب سفیان يومئذ : كَرَّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرَّةً ، ولا يزول من صفنا أحدٌ ، فقال لنا سفیان : لا تحملوا عليهم متفرقين ؛ ولكن لتزحف عليهم الرجال زحفا ، ففعلنا ، وما زلنا نطاعنهم حتى اضطربناهم إلى الجسر ، فقاتلونا عليه أشدَّ قتال يكون لقوم قط . ثم نزل شبيب ، ونزل معه نحو مائة رجل ؛ فما هو إلا أن نَزَلُوا حتى أَوْقَعُوا بنا من الضرب والطعن شيئا ما رأينا مثله قط ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفیان أنه لا يقدر عليهم ، ولا يأمنُ ظفرهم ، دعا الرماة فقال : ارشقوهم بالنبل ؛ وذلك عند المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهار ، فرشقهم أصحابه ؛ وقد كان سفیان صَفَّهم على حِدة ، وعليهم أمير ، فلما رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم ، فشدَّنا نحن ، وشغلناهم عنهم ؛ فلما رأوا ذلك ركب شبيب وأصحابه ، وكرّوا على أصحاب النبل كَرَّةً شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح ، حتى اختلط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفیان بن الأبرد لأصحابه :

يا قوم ، دعوهم لا تتَّبِعُوهم ؛ يا قوم دَعُوهم لا تَتَّبِعُوهم حتى نُصَبِّحَهُم . قال : فكفنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجي : فلما انتهينا إلى الجسر . قال شبيب : اعبروا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلف في آخرنا ، وأقبل يعبر الجسر ، وتحتة حصان جَمُوح ، وبين يديه فرس أنثى ما ذيانة ، فترا حصانه عليها وهو على الجسر ؛ فاضطربت الماذيانة ، وزلَّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة ، فسقط في الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لَيْقِضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ^(١) واغتمس ^(٢) في الماء ثم ارتفع فقال : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٣) ثم اغتمس في الماء ، فلم يرتفع .

هكذا روى أكثر الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه في الوقائع التي كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب عشايرهم وخاداتهم ؛ فهم منه موتورون ، فلما تخلف في أخريات الناس يومئذ ، قال بعضهم لبعض : هل لكم أن نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هذا هو الرأي ، فقطعوا الجسر ، فالت به السفينة ، ففزع حصانه ونقر ، فسقط في الماء وغرق .

والرواية الأولى أشهر ؛ فحدث قومٌ من أصحاب سُفْيَانَ ، قالوا : سمعنا صوت الخوارج يقولون : غرق أمير المؤمنين ، فعبرنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر ^(٤) ولا أثر ؛ فززلنا فيه ، وطلبنا شبيبة حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدَّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

(١) سورة الأفعال آية ٤٢

(٢) الطبري : « ارتغمس » .

(٣) سورة يس آية ٣٨

(٤) هو مثل ، يقال : « ما بالدار من صافر » أي أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قلبه فكان مجتمعاً صلباً كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض
فينبؤ ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدق أحداً نعاها إليها ، وقد كان قيل لها مراراً إنه
قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكت ؛ فقيل لها في ذلك ، فقالت : رأيت
في المنام حين ولدته أنه خرج من فرجى نارٌ ملأت الآفاق ، ثم سقطت في ماء فحمدت .
فعلت أنه لا يهلك إلا بالغرق^(١) .

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وينالوه الجزء الخامس
إله شاء الله^(٢)



(١) وفي رواية أخرى ذكرها الطبري ٧ : ٢٥٧ : « كان شبيب يرمى لأمه ، فيقال قتل ، فلا تقبل ،
فقيل لها : إنه غرق ، فقبلت وقالت : لئن رأيت حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار ، فعلت أنه لا يطفئه
إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد في نسخة (ج) ، وجاء في آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من
شرح نهج البلاغة ، وينالوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء
وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة

٥-٣	اختلاف الفقهاء في حكم الأضحية
٦	٥٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة
١١-٧	بيعة عليّ وأمر المتخلفين عنها
١٢	٥٤ - ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين
٣٢-١٣	من أخبار يوم صفين
٣٣	٥٥ - ومن كلام له عليه السلام يذكر حروبه مع الرسول عليه السلام
٥٣-٣٤	فتنة عبد الله بن الحضرمي بالبصرة
٥٤	٥٦ - ومن كلام له عليه السلام يخبر به عن يأمر بسبّه
٥٦-٥٥	مسألة كلامية في الأمر بالشئ مع العلم بأنه لا يقع
٦٣-٥٦	فصل فيما روى من سب معاوية وحزبه لعل
٧٣-٦٣	فصل في ذكر الأحاديث للوضوعة في ذم عليّ
١١٠-٧٤	فصل في ذكر المنحرفين عن عليّ
١١٢-١١١	فصل في معنى قول عليّ : « فسيبوني فإنه لي زكاة »
١١٤-١١٣	فصل في اختلاف الرأي في معنى السب والبراءة
١١٦-١١٤	فصل في معنى قول عليّ : « إني ولدت على الفطرة » .
١٢٥-١١٦	فصل فيما قيل من سبق عليّ إلى الإسلام
١٢٨-١٢٥	فصل فيما قيل من سبق عليّ إلى الهجرة

١٢٩	٥٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج
١٣٢	أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم
١٣٢	عروة بن حدير
١٣٤-١٣٢	نجدة بن عويمر الحنفي
١٣٤	المستورد بن سعد التميمي
١٣٥-١٣٤	حوثة الأسدي
١٣٦-١٣٥	قريب بن مرة وزحاف الطائي
١٣٦	نافع بن الأزرق الحنفي
١٤١-١٣٦	نجدة بن عامر
١٤٤-١٤١	عبيد الله بن بشير بن للاحوز اليربوعي
١٦٧-١٤٤	الزبير بن طي السليطي وظهور أمر المهلب
٢٠٣-١٦٧	قطري بن الفجاءة المازني
٢١٢-٢٠٤	عبد ربه الصغير
٢٢٥-٢١٣	طرف من أخبار المهلب
٢٢٥	شبيب بن يزيد الشيباني
٢٣٢	دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج

استدراك وتعليق (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	
١٦	١٦	المقدمة صواب كتابة الشطر الثاني من البيت :
		* سَيَكْرَمُ مِثْوَاهُ وَيَعْذِبُ شِرْبُهُ *
١١٩	١٧	صواب كتابة البيت :
		من فوق عرش جالسٍ قد حَطَّ رِجْلَيْهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ الْمُنْصُوبِ
٢٥٤	١١	رواية البيت في كتاب صفين :
		* لَمَّا حَكَى حُكْمَ الطَّوَاغِيتِ الْأُولِ *
٢٨٠	١٩	الأجود في كتابة البيت :
		* وَيَسْبُ جَنْبَاهُ تَمُوتُ الضَّفَادُ *
٢٩٩	٢٢	صواب كتابة البيت :
		أَقُولُ لِلنَّازِ وَهِيَ تَوْقَدُ لِلْعَرِّ ضِرْدِيهِ لَا تَقْرَبِي الرَّجُلَا
٣٢٧	١١	رواية البيت كما في حماسة التبريزي :
		* لَتَرْجِمَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ *
٣٣٦	١٢	البيت من البحر الكامل : والأجود أن يكتب هكذا :
		* إِمِنْ الصَّبِيِّ بِجَانِبِ الْبَطْحَا *

الجزء الثاني

الصفحة	السطر	
٧٧	٦	الصواب « كالدُّرْع والحجفة » ، والحجفة : ضرب من الترسمة ؛ وقيل : هى من الجلود خاصة .
٩٢	١٢	المشهور « صَلَح » ، بفتح اللام ؛ وحكى الفراء عن أصحابه : « صَلَح » أيضا بضم اللام . راجع الصحاح .
٩٣	٧	صواب العبارة : « أخذه ابن نباتة مصالته » ؛ والمصالته عند الشعراء أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أقبح السرقات الشعرية ؛ من الصُّلّت ، بمعنى اللص ، وانظر الأغاني ٧ : ١٥٥ (طبعة الدار) .
١١٩، ١١٨		كتاب عقيل بن أبى طالب إلى أخيه على وردة على عليه ؛ انظرهما فى الأغاني ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ نشرة دار الثقافة ببيروت .
١٥٣	١١	صواب العبارة : « ولم تقد من نفسك من ظلمته » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٢٩٥٥ (طبع أوربا) .
١٥٥	٥	صواب العبارة : « هذا ما أمر به طلحة » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٠٠ (طبع أوربا) .

الجزء الثالث

الصفحة	السطر	
١١٨	٩	الصواب : واسمه مالك بن عبقر بن إراش ، بالكسر ؛ وانظر تاج العروس .
١٥٨	١٤	الصواب : « لقد علمت وما الإشراف » ، والإشراف هنا الحرص ؛ كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .
١٦٠	٧	البيتان وقبلهما بيتان غيرهما في الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ ورواية البيت الأول فيه :

يَارُوحَ مَنْ حَسَمَتْ قَنَاعَتُهُ سَبَبَ الْمَطَامِعِ مِنْ غَدٍ وَغَدٍ
والبيت الثاني ينسب لأبي نواس ؛ من قصيدة له في ديوانه ١٩٣ .

الجزء الرابع

٤٨	١٦	صواب كتابة البيت :
		* وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ الرُّسُلِ *
		والبيتان الأولان في الإصابة ٣ : ٨٧ ؛ منسوبان إلى عبد الله بن يزيد ابن أصرم الهلالي ؛ وهي أيضا في مجمع الزوائد ٩ : ٢٧١ ؛ من غير نسبة ؛ ورواية البيت الثالث فيه :

* وَخَاتَمُ الرِّسَالِ وَخَيْرُ الرُّسُلِ *

٢٠١	٣	تكتب العبارة هكذا : « يا خيل الله اركبي » ؛ بكسر اللام من كلمة « خيل » على اللحن .
-----	---	---

نصريات مطبعة (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١١	٤	تمثل	١٤٩	١٤	شرحيل
١٤	١٤	الرُّبْدُ	١٩٢	١٦	لا والذي
٢٠	١٣	من العاشر إلى الخامس عشر	٢٠٦	٢	كتاب أبي جعفر بن قبة
٢٠	١٧	والجموعة	٢٥٦	٩	الضبي
٣٧	٢١	نخبة الأخبار	٢٧٨	١٤	من لم نَسَعُ
٥٤	١٠	وتذوّها	٢٨٢	٤	عبد الله بن قتيبة
١٤٣	١٠	الحارث بن عبدالمطلب	٢٩٢	٢٢	قريع
			٣٣٥	٥	صاحب العير
			٣٤٢	٢	الظنن

الجزء الثاني

١٤	١٧	فأني	٤٧	٢٢	فأمر أبو بكر
١٦	١٧	قدم	٥٦	٢٢	شده
١٧	١٩	الأغاني ١٧: ٦٩ (مأسي)	٧٩	١٤	ينصمرم
٤١	٥	أيقنت	٨٥	٩	يطهر
٤٥	٨	على أبي فصيل	٩٢	٧	عليه السلام

(*) انظر ما سبق في آخر الجزء الثاني والثالث

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١١٣	٣	لهم شَعْرٌ	١٥٧	٤	إلا أني
١٢٠	١٧	شراف	١٥٧	١٥	كفانة بن بشر
١٥٠	٩	من عمل مروان	١٥٧	٢١	ابن الأنباري
١٥٠	١٥	الْبَسْنِيهِ	١٦٠	١٤	البرجي
١٥٥	٢	فأخذ	١٦٧	٥	وليتأه
١٥٥	٤	ثم رجّع	٢٠٠	٩	جعفر بن أبي طالب

الجزء الثالث

٧	٧	دينار	٢١	٣	الحكم
٧	٨	فلم أرجع	٢٢	١٧	إني أتهمك
٩	١٠	على الهدى	٢٥	٦	ليخرج ويحوج
١٥	٢	تحذف كلمة «أن» المكررة	٢٨	١٧	أحد
١٥	١٨	فكيف	٣١	١٧	لأن أشق
١٧	١٣	النَّخِي	٣٢	٤	والوقية
١٨	١٣	نقدت	٣٥	٣	المِسْوَر
١٨	٢٢	لقرنت	٣٧	١١	
٢٠	٧	أخي نفّسك	٤٤	١	فكسر ضلعا
٢٠	٨	وأن الوليد	٤٦	١٢	القراءة
٢٠	١١	في أنه			

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٤٨	٦	وَلَوْ جَبَّ أَنْ يَكُونَ	٨١	١	ابن أبي طالب
٤٨	١٤	لَمَّا نُقِيمَ عَلَيْهِ ضَرْبُهُ	١٠٨	١١	مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
٧٨	١٢	أَكَابِدْهُ	٢١١	١	وَضَرْبِ الرِّقَابِ
٨٠	١٥	خَلَّةَ			

الجزء الرابع

٥٤	١	صواب كتابة رقم الخطبة	١٢٩	١	صواب كتابة رقم الخطبة
		هو (٥٦)			هو (٥٧)

.....